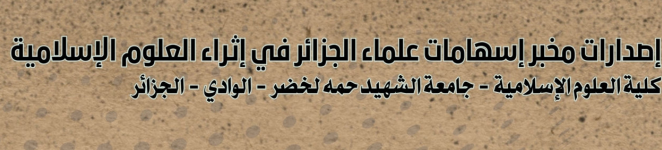


إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

فرقة البحث (P.R.F.U): تاريخ وادي سوف الثقافي بين 1900-1988م

بحوث الملتقى الدولي السابع

المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900 – 1962م

بتاريخ: 05 و06 ذو القعدة 1443هـ / الموافق لـ 04 و05 جوان 2022



تحرير

أ.د. إبراهيم رحماني   أ.د. الجباري عثماني   د. أحمد بلعجال

بحوث الملتقى الدولي السابع

المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي

في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900 – 1962م

تحرير

أ.د. إبراهيم رحماني   أ.د. الجباري عثماني

د. أحمد بلعجال

هذا الكتاب

إن القطر الجزائر مثل سائر الأقطار العربية والإسلامية شهد حركة إصلاحية واسعة النطاق في مقتبل القرن العشرين الميلادي؛ مدت ظلالها الوارفة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وغطت مختلف الأنشطة. وبالنظر إلى هيمنة السلطة الفرنسية على مفاصل المجتمع والدولة، كانت المقاومة أهم مظهر من مظاهر الإصلاح الديني والمجتمعي؛ حيث سجلت الوقائع صعوبة المواجهة المسلحة في تلك الفترة بعد أن قضى الاحتلال على مختلف المقاومات الشعبية التي اندلعت بمجرد أن وطئت أقدامه هذه الأرض الطاهرة، واستمرت الثورات إلى قبيل طلوع فجر القرن الجديد بقليل.

اشتغل أعلام الإصلاح بالمقاومة العلمية والثقافية كردّ حتمي على محاولات الفرنسة والتغريب التي انتهجها الاحتلال؛ فكثف المصلحون جهودهم في فتح الكتاتيب والمدارس لتعليم القرآن الكريم واللغة العربية، وأسسوا الجرائد والمجلات، وأنتجوا العدد الوفير من الكتب والإصدارات التي غطت مختلف فروع المعرفة التي تحتاجها الأمة الناهضة.

كما رحل كثير من الفضلاء خارج الجزائر لمواصلة التحصيل العلمي، ثم رجعوا إلى الوطن وتوزعوا في مختلف أرجائه حاملين راية الإصلاح، مشتغلين بإنارة الفكر، وتهذيب السلوك، وتوحيد الكلمة لمواجهة مخططات العدو المشترك.

وفي هذا الكتاب إطلالة على تاريخ نماذج رائدة من تلك المقاومة المشرفة سجلها أعلام مميزون في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين: 1900 – 1962م.

ISBN: 978-9969-517-09-5

9 789969 517095







إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة الشهيد حمه لخضر ـ الوادي ـ الجزائر

المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900- 1962م

أبحاث الملتقى الدولي السابع المنظم من قبل قسم الحضارة الإسلامية، فرقة البحث (P.R.F.U): تاريخ وادي سوف الثقافي بين 1900-1988م،
بالتعاون مع: مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية – معهد العلوم الإسلامية- جامعة الوادي- الجزائر

بتاريخ: 05 و06 ذو القعدة 1443هـ / الموافق لـ 04 و05 جوان 2022م.

تحرير
أ.د. إبراهيم رحماني
أ.د. الجباري عثماني
د. أحمد بلعجال



مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية

Laboratory of Algerian scientists contributions to enrich the Islamic studies

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي

Faculty of Islamic Sciences - University of El Oued - Algeria

مخبر بحث معتمد من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

تحت رقم (70). **بتاريخ**: 2015/02/21. **الرمز**: E0780400

الموقع الإلكتروني: https://www.univ-eloued.dz/index.php/8-univ/1818-lasceis

- **الطبعة الأولى: 1445هـ / 2023م**
- **رقم الإيداع القانوني: سبتمبر2023م**
- **ردمك: 5 - 09 - 517 -9969 - 978**

- التنفيذ الطباعي:



ولاية الوادي ـ الجزائر

032 14 93 39

0557 97 44 43





ديباجة الملتقى

رغم وجود نزعة إصلاحية أو موالية للإصلاح منتشرة في الجزائر خلال المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، إلا أن الظروف لم تسنح لتظهر تلك النزعة في تيار فكري إلا بعد المحاولات التي قام بها الشيخ عبد الحميد بن باديس وبعض طلابه وأصدقائه، وألفوا فريقا التف حول جريدتي المنتقد والشهاب سنة 1925م، ومنذ ظهورها سعت هذه المجموعة إلى مناهضة واقع معاش اتسم بالانحراف ومخالفة مبادئ الشريعة الإسلامية دينيا ودنيويا، عن طريق الحث على التعليم العربي الحرّ، والدعوة في المساجد والنوادي، كما اتخذت الصحافة لسانا لها.

ولم يتخلف أبناء الجنوب الشرقي الجزائري عن ركب الحركة الإصلاحية، بل واكبوها منذ بداية ظهورها، خلال عقد العشرينيات من القرن الماضي حتى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م. وقد انخرط الكثيرون منهم في العمل الإصلاحي الدعوي والتربوي، وناصروها نثرا وشعرا وصحافة... وقاموا بأدوار خطيرة في هيكل هذه الحركة، سواء في مناطقهم أو المراكز الثقافية الجزائرية الأخرى، فقد برز منهم رجال كثر منهم: الشيخ الطيب العقبي، والشيخ محمد السعيد الزاهري، والشاعر محمد العيد آل خليفة، والشيخ عبد العزيز الشريف ورفيق دربه الشيخ عبد القادر الياجوري، والشيح الحسين حمادي، والشيخ محمد اللقاني بن السايح وغيرهم كثير. وقد تكبد هؤلاء المشقة والعناء في سبيل نشر هذه الدعوة، كما واجهوا صعوبات جمّة من قبل الاستعمار، أو من قبل خصوم الإصلاح؛ دفع بعضهم ثمن ذلك السجن أو الإبعاد والنفي أو الهجرة الطوعية.

إشكالية الملتقى

يطرح هذا الملتقى إشكالية عامة تدور حول موقف الحركة الإصلاحية في الجنوب الشرقي من الاستعمار وأعوانه في هذه المنطقة بخاصة والجزائر بعامة.

أهداف الملتقى

- إبراز جهود أبناء الجنوب في الحركة الإصلاحية الجزائرية.
- المساهمة في التعريف برواد الإصلاح في المنطقة المستهدفة بالدراسة.
- زرع قيم الإصلاح لدى الطلبة؛ ليكونوا خير خلف لخير سلف.

محاور الملتقى

المحور الأول: محددات مفاهيمية ومنهجية (الجنوب الشرقي الجزائري المجال والساكنة. -التواجد الاستعماري في الجنوب الشرقي. - ذيوع الفكر الإصلاح في المنطقة؛ التأثر والتأثير...).

المحور الثاني: جهود أعلام الجنوب الشرقي في الحفاظ على الهوية الإسلامية العربية للجزائريين عن طريق الدعوة والتعليم.

المحور الثالث: توظيف أعلام الجنوب الشرقي للصحافة والنشر في مشروع الإصلاح والتغيير.

المحور الرابع: رموز الإصلاح ومراكز النشاط الإصلاحية في المنطقة.

المحور الخامس: موقف الاستعمار الفرنسي من نشاط الإصلاحيين في الجنوب الشرقي.

إدارة الملتقى

- **الرئيس الشرفي للملتقى:** أ.د. عمر فرحاتي
- **رئيس الملتقى:** أ.د. إبراهيم رحماني
- **مدير الملتقى:** أ.د. الجباري عثماني
- **رئيس اللجنة العلمية:** د. أحمد بلعجال
- **رئيس اللجنة التنظيمية:** د. مختار قديري

أعضاء اللجنة العلمية

أ. د. جمعة بن زروال (جامعة باتنة1)

أ. د. صالح حيمر (جامعة تبسة)

أ. د. قويدر قيطون (جامعة الوادي)

أ. د. لزهر بديدة (جامعة الوادي)

أ.د. عبد الكريم حاقة (جامعة الوادي)

د. أحمد حداد (جامعة قسنطينة 2)

د. إدريس ريمي (جامعة الوادي)

د. العيد بلالي (جامعة الوادي)

د. خير الدين يوسف شترة (جامعة الشارقة)

د. عثمان منادي (جامعة سوق اهراس)

د. علي خضرة (جامعة الوادي)

د. علي زواري أحمد (جامعة الوادي)

د. عمار غرايسة (جامعة الوادي)

د. فرحات الكاملة (جامعة الوادي)

د. محمد الحاكم بن عون (جامعة الوادي)

د. محمد طه حميدي (جامعة الوادي)

د. مصطفى حنانشة (جامعة الوادي)

د. نبيل صوالح محمد (جامعة الوادي)

د. يوسف تريعة (جامعة الوادي)

أعضاء اللجنة التنظيمية:

د. أحمد بن تيشة
د. الصادق ذهب
د. بسمة بله باسي
د. ياسين باهي
أ. الحفناوي عتوسي
أ. زكري زكايرة
أ. محمد الصالح غريسي
أ. مراد فرجاني
أ. نور الدين صحراوي
ط. د. محمد العيد العايبي
ط.د. أحمد مجوري
ط.د. بالعجال عبد السلام

أعضاء لجنة التدقيق اللغوي

أ. د. قويدر قيطون
أ.د. الجباري عثماني
أ.د. عبد الكريم حاقة
د. أحمد بالعجال
د. أحمد غمام عمارة
د. إدريس ريمي
د. العيد بلالي
د. بشير بوساحة
د. علي زواري أحمد
د. محمد الحاكم بن عون
د. محمد طه حميدي
د. مختار قديري
د. مصباح موساوي
د. مصطفى حنانشة
د. نبيل صوالح محمد

كلمة مدير الملتقى:



والصلاة والسلام على الرسول المُجتبى والنبيّ المصطفى، صَلِّ عليه وآله الشرفاء وصحبه النجباء، ومن تبعهم بإحسان واقتفى. وبعد:

تعددت أشكال ومظاهر مقاومة الجزائريين للعدو الفرنسي الغاصب، إذ بدعوى التمدن والتمدين، عمل المستدمر على فسخ ومسخ الهوية الوطنية للأمة الجزائرية، في إطار مشروع الفرنسة الشامل للجزائر، والذي يتضمن محاربة الدين الإسلامي والتاريخ الجزائري، وفصل الجزائر عن انتمائها العربي الإسلامي؛ وقد جابه الجزائريون هذا المشروع بشتى الطرق والأساليب، بدءا بالتمسك بثقافتهم العربية الإسلامية، ومقاطعة المدارس الفرنسية لعقود من الزمن؛ باعتبارها مدارس الكفار وتحارب هويتهم الثقافية، وبالمقاومة المسلحة في أحيان كثيرة.

وفي ظل تشديد الخناق على الثقافة الجزائرية، بدأت تلوح في الأفق بوادر العمل الثقافي، أو ما عُرف اصطلاحا باليقظة والنهضة الجزائرية التي أخذت بوادرها في الظهور منذ نهاية القرن 19م وبداية 20م، بحيث برزت جمعيات ونوادي ثقافية، وأعلام وشخصيات وأحزاب اهتمت بالتوعية والإرشاد الديني والإصلاحي، على غرار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ومن أجل التصدي للسياسة الثقافية للعدو الكاثوليكي؛ انبرى أعلام من النخبة الإصلاحية من ذوي القرطاس والقلم والبيان، بحيث جاهدوا برصاص الكلمات ومدافع أعمدة الصحف، وقنابل صدر وعجز الأبيات الشعرية، وكراسي ومنابر المساجد والكتاتيب، إنهم رواد النهضة الأدبية والفكرية والسياسية بالجزائر، شكلت أقلامهم مصدر إزعاج للمحتل الغاشم؛ فلم يتورع عن ملاحقتهم والتنكيل بهم بل والإجهاز عليهم.

ورغم ظلام الجهل والفقر والاستبداد الذي كان يخيّم على البلاد والعباد؛ هذا الجوّ الطّارد لم يُثن ثلّة من أعلام وأقلام ساكنة الجنوب الشرقي الجزائري، والذين تشرّبوا معين الفكر الإصلاحي صافيا زلالا، إلى حمل لواء المقاومة الثقافية، والذّود عن حمى الأمة وهويتها من الانصهار والذوبان.

ويأتي هذا الملتقى الدولي؛ ليبرز ويجلي جوانب من جهادهم ضد الفرنسة والكثلكة والتغريب، ويستعرض دعائم الرؤية المقاوماتية، وكذا تجليات ثقافة المقاومة في فكر أولئك الأفذاذ، في أبعاد ترفض كل أشكال القهر والاستيطان والهيمنة، ورفض كل أشكال التغريب، والسعي إلى ترسيخ مُقومات الأمة وثوابتها من خلال مخاطبة الذات الجزائرية، وتذكيرها بماضيها التليد وربطها بخصوصيات عمقها الحضاري والثقافي والتراثي. ومن أجل ذلك تقاطرت المساهمات والأبحاث من جامعة الوادي وخارجها، لإثراء وتغطية محاور هذا اللقاء العلمي؛ فالشكر موصول والأجر موفور لكل السادة الباحثين الذين أثروا الملتقى بورقات علمية جادّة، وخاصة تلك التي مادتها لم تُطرق ولم يأت عليها آت.

كما لا يسعني أن أشكر كل من ساهم في إنجاح فعاليات الملتقى من قريب أو بعيد، وعلى رأسهم السيد مدير الجامعة، والسيد عميد كلية العلوم الإسلامية، فلهما جزيل الشكر والامتنان على كل التسهيلات وتذليل العقبات. وجزيل الشكر لفريق العمل ممثلا في اللجان الثلاث: بداية باللجنة العلمية، واللجنة التنظيمية، ولجنة المراجعة والتدقيق اللغوي. إن قلت شكرا جميعا فشكري لن يوفيكم، حقا سعيتم فكان السعي مشكورا، أسعدكم المولى وجعل ما تقدمونه في ميزان حسناتكم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أ. د. الجباري عثماني

أستاذ التاريخ بقسم الحضارة

كلية العلوم الإسلامية –جامعة الوادي

otmani-djebari@univ-eloued.dz

كلمة رئيس الملتقى:



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

وبعد،،،

فإن القطر الجزائر مثل سائر الأقطار العربية والإسلامية شهد حركة إصلاحية واسعة النطاق في مقتبل القرن العشرين الميلادي؛ مدت ظلالها الوارفة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وغطت مختلف الأنشطة. وبالنظر إلى هيمنة السلطة الفرنسية على مفاصل المجتمع والدولة، كانت المقاومة أهم مظهر من مظاهر الإصلاح الديني والمجتمعي؛ حيث سجلت الوقائع صعوبة المواجهة المسلحة في تلك الفترة بعد أن قضى الاحتلال على مختلف المقاومات الشعبية التي اندلعت بمجرد أن وطئت أقدامه هذه الأرض الطاهرة، واستمرت الثورات إلى قبيل طلوع فجر القرن الجديد بقليل.

اشتغل أعلام الإصلاح بالمقاومة العلمية والثقافية كردّ حتمي على محاولات الفرنسة والتغريب التي انتهجها الاحتلال؛ فكثف المصلحون جهودهم في فتح الكتاتيب والمدارس لتعليم القرآن الكريم واللغة العربية، وأسسوا الجرائد والمجلات، وأنتجوا العدد الوفير من الكتب والإصدارات التي غطت مختلف فروع المعرفة التي تحتاجها الأمة الناهضة.

كما رحل كثير من الفضلاء خارج الجزائر لمواصلة التحصيل العلمي، ثم رجعوا إلى الوطن وتوزعوا في مختلف أرجائه حاملين راية الإصلاح، مشتغلين بإنارة الفكر، وتهذيب السلوك، وتوحيد الكلمة لمواجهة مخططات العدو المشترك.

وإذا أردنا أن نضع النقاط على الحروف فما أسهل أن نلتفت حولنا في هذه البيئة الصحراوية القاحلة؛ فسوف نجد أسماء لامعة أثبتت حضورها القوي والمشرف في ميدان المقاومة بمختلف صورها؛ ابتداء من المقاومة الثقافية وانتهاء بالمقاومة المسلحة في ثورة التحرير المباركة.

هكذا كان حال الجنوب الشرقي الجزائري، وعلى وجه الخصوص أرض وادي سوف ووادي ريغ؛ فمن الأسماء المقاومة بجدارة نجد – على سبيل المثال لا الحصر – الشيوخ: الهاشمي الشريف، محمد اللقاني بن السايح، إبراهيم العوامر، الأمين العمودي، عمار الأزعر، أحمد بن العيد التجاني، عبد العزيز الشريف، حمزة بوكوشة، عبد القادر

الياجوري، مصباح حويذق، الطاهر العبيدي، علي بن سعد، الأمين غمام، محمد الطاهر التليلي، عبد القادر دربال، الهاشمي حسني، عبد المجيد حبه، الأزهاري ثابت... إلخ.

إن الأسماء كثيرة جدا، ومواضع الرباط في الجهاد العلمي تتسع اتساع هذا البلد الطيب. وإذا ضمت أرض سوف ووادي ريغ هذه الكوكبة من الأسماء اللامعة؛ فإن باقي الجزائر يعج بالنماذج الرائعة والجهود الرائدة التي تستحق أن ينوه بها في مختلف المحافل، والمحافل العلمية بهذا أولى وأجدر؛ لأن ميزان البحث العلمي يجعلنا نكشف عن أسباب النبوغ، وأساليب التضحية، وعوامل النجاح؛ فتكون تلك عناوين بارزة تهدي الأجيال إلى مواصلة مسيرة العمل الإيجابي بما يعزز من القيم الإسلامية الأصيلة التي ترفع أداء مجتمعاتنا في مواجهة مختلف التحديات، ويؤهلها لأن تكون بحق تتصف بالخيرية، ومنزلتها محفوظة ضمن الأمة المسلمة : "خير أمة أخرجت للناس".

نأمل أن يستفيد الطلاب والباحثون من الأعمال النماذج المقدمة، وأن يحسنوا استثمار المادة التاريخية والمعرفية في بعث الهمم إلى البذل والعمل والاجتهاد، وأن نحافظ على الرصيد الجهادي لهؤلاء الأعلام؛ فترحم عليهم، ونحيي مآثرهم، ونواصل مسيرة الإصلاح الديني والمجتمعي بما يحقق الخير لهذا الوطن وأبنائه.

لا يفوتني في هذا المقام أن أوجه خالص معاني الشكر والتقدير للسيد مدير الجامعة البروفيسور عمر فرحاتي على رعايته الكريمة وحسن مرافقته لأنشطتنا العلمية، وأشكر أيضا مساعدي المدير على مؤازرتهم، وأشكر مدير الملتقى أ.د. الجباري عثماني ومختلف معاونيه في اللجنتين العلمية والتنظيمية على الجهود المبذولة في هذا الملتقى. كما أخص الباحثين بالتهنئة والشكر على إنجازهم هذه البحوث المفيدة، وأسأله سبحانه أن يبارك في الجميع، وأن ينفع بهذا الإصدار ويتقبله في صالح الأعمال.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ. د. إبراهيم رحماني

أستاذ أصول الفقه والفقه المقارن

عميد كلية العلوم الإسلامية –جامعة الوادي

rahmani-brahim@univ-eloued.dz

مجموع بحوث الملتقى

مقومات الهوية في فكر النخبة الزيتونية بالجزائر
(طلبة إقليم الجنوب الشرقي الجزائري أنموذجاً)

The elements of identity in the thought of the elite of Al-Zaytouna Mosque in Algeria (students of the southeastern region of Algeria, as a model)

د/ خير الدين يوسف شترة

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)

kchatra@sharjah.ac.ae



ملخص:

إن مفهوم الهوية الجزائرية لدى الطلبة الجزائريين الزيتونيين بصفة عامة يندرج ضمن المفهوم الواسع للأمة الإسلامية، هذا الفضاء الإيديولوجي الذي يُشكل ملاذاً وحصناً لمجتمع يتهدده المسخ والذوبان، وقد مثَّل انتشار الحس العروبي في الجزائر ظاهرة ملفتة للانتباه بعد الحرب العالمية الثانية، بعد تراجع الإيديولوجية الإسلامية لدى النخبة الوطنية بانحلال الإمبراطورية العثمانية وإلغاء الخلافة، وهذا الاتجاه العروبي ليس إلا أحد الاشتقاقات المعدلة للجامعة الإسلامية، متكيفاً مع التحولات التي طرأت على العالم الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، وبرز هذا الاتجاه العروبي في الجزائر في شكله السياسي بعد ظهور تيارين قويين سيطرا على الساحة السياسية والفكرية في الجزائر: التيار الإصلاحي المجسَّد في جمعية العلماء المسلمين والتيار الاستقلالي المجسَّد في حزب الشعب الجزائري وكلاهما ساهم فيه فصيل هام وكبير من خريجي الجامعة الزيتونية الذين مثَّلوا هذا الاتجاه الداعي إلى تحرير الجزائر في إطار يضمن اندماجها في العالم الإسلامي، وأصبح الاتجاهان (السياسي-الثقافي) يسيران على خطة واحدة بعد الحرب العالمية الثانية وإن اختلفت الوسيلة والطريقة فالخطة كانت قائمة على طلب الذاتية القومية الجزائرية ومقوماتها في الاندماج في العالم العربي.

لقد اضطلع طلبة إقليم الجنوب الشرقي الجزائري بدور تاريخي، حيث كانت لهم مواقف مشرفة في فترة الاستعمار المظلمة، وقد دلّ ذلك على وعيهم وتفطنهم لوجودهم الرسالي، وعلى تنبههم لمشاريع ومخططات الاستعمار الفرنسي ضد الوجود العربي الإسلامي في الجزائر، كما جسّدت أدوارهم هذه حرصهم وتأكيدهم الدائم للحفاظ على مقومات هويتهم الجزائرية الحضارية.

ومن الإشكاليات الدقيقة التي سنطرحها في هذه الدراسة، ما المقصود بالأنتليجنسيا الجزائرية الزيتونية؟ ما هو نشاط نخبة إقليم الجنوب الشرقي الجزائري في الحياة الجزائرية؟ وما هي أدوارها في العمل الديني والإصلاحي والتعليمي والتربوي والثقافي والحضاري والسياسي والثوري؟ وما هي مظاهر دفاع النخبة عن مقومات الهوية الجزائرية؟ وما هو موقف السلط الاستعمارية من هذه النخبة وأدوارها؟

الكلمات المفتاحية:

خريجي جامع الزيتونة؛ الجنوب الشرقي للجزائر؛ جامع الزيتونة؛ الاستعمار الفرنسي؛ الاتجاه العربي الإسلامي.

Abstract :

The concept of Algerian identity among Algerian students at Al-Zaytouna University in Tunisia in general falls within the broad concept of the Islamic nation, this ideological space that constitutes a haven and a fortress for a society threatened by deformation and dissolution. This Arab tendency is only one of the modified derivations of the Islamic University, adapting to the transformations that have taken place in the Islamic world since the end of the nineteenth century, and this Arab tendency emerged in Algeria in its political form after the emergence of two powerful parties that controlled the The political and intellectual arena in Algeria: the reformist current embodied in the Association of Muslim Scholars and the independence movement embodied in the Algerian People’s Party, both of which contributed to an important and large faction of Al-Zaytouna University graduates in Tunisia who represented this trend calling for the liberation of Algeria in a framework that guarantees its integration into the Islamic world, and the two trends became (The political-cultural) are following one plan after World War II and If the means and method differed, the plan was based on the request of Algerian national autonomy and its components for integration into the Arab world.

The students of the Algerian southeastern region played a historical role, as they had honorable positions during the dark colonial period. On the components of their Algerian cultural identity.

Among the subtle problems that we will raise in this study, what is meant by the Algerian elite? What is the activity of the elite of the southeast Algerian region in Algerian life? What are its roles in religious, reform, educational, educational, cultural, civil, political and revolutionary work?

Keywords:

Graduates of the Al-Zaytouna Mosque; southeast of Algeria; Al-Zaytouna Mosque; French colonialism; the Arab Islamic trend.

1. مقدمة

إن الطلبة الجزائريين الزيتونيين اضطلعوا كما هو معلوم سواء كان ذلك ضمن تنظيماتهم أو خارجها بدور ملحوظ في مقاومة الكيان الاستعماري وساهموا خاصة منذ أواخر الثلاثينيات في مختلف أطوار العمل التحرري بجميع أشكاله وعلى شتى مستوياته، كما جسّد هؤلاء الطلبة كذلك وإلى حد كبير المقاومة الثقافية للاستعمار وشكَّلوا إحدى الدعائم والركائز الأساسية لهذه المقاومة التي حاولوا من خلالها الدفاع عن ذاتيتهم وأصولهم الإسلامية والتصدي إلى كل المشاريع والمحاولات الاستعمارية الرامية إلى تقويض المقوّمات والثوابت الحضارية للبلاد وتطويق وتهميش ثقافتها العربية وإضعاف الشخصية الجزائرية لتأهيلها في البوتقة الفرنسية، إن دراسة النشاط الطلابي إلى ما تسلّطه من أضواء على بعض مظاهر وأطوار النضال التحرري تُمثل أيضًا وبدون شك مدخلاً هاماً ومفيداً لاستقراء المشهد السياسي الجزائري، والوقوف عند العديد من المفاهيم والممارسات والتصوّرات التي أسست لنشأة وانتشار ثقافة سياسية ذات منحى شمولي، وإذا حاول الدارس أن يتتبع أدوار هذه النخبة الفكرية والسياسية بُغية استخلاص هذه النزعة عندهم فإنه لا يستطيع حصرها في موضوع معين من إنتاجهم، وبديهي أن هذه النزعة وليدة اتجاههم في الحركة الإصلاحية، ولعلّ النماذج التي سنذكرها لاحقاً تكفي دلالة في البرهنة على تجْلِية هذه الحقيقة الفكرية.

إن المجهودات التي بذلتها هذه النخبة العاملة لبعث المجتمع الجزائري بدأت بالوقوف ضد الطرقية وفرض اللغة العربية وإبراز الماضي التاريخي للجزائر، وذلك ما يجعلهم بمثابة المؤسسين الأوائل للوطنية الجزائرية، فإذا كان مصالي الحاج يريد بعث الدولة الجزائرية، فإن ابن باديس كان يفكر في بعث الأمة الجزائرية، وكلاهما يكمل الآخر(على رواية الأستاذ عدي الهواري). هذا وإن دراسة تاريخ النضال الطلابي الجزائري بمعزل عن أي اعتبار متميز وبمنأى عن أي خطاب تبريري من شأنها أن تساعدنا بدون شك على حسن إدراك الحركية الاجتماعية والتحولات الذهنية التي صنعت حركة التحرير الوطني، وهذا من شأنه أيضاً أن يسمح لنا بالعثور على عناصر الإجابة اللازمة لإدراك بعض التساؤلات المتعلقة بحاضرنا.

ومن أهم المميزات الرئيسة لهذه الدراسة أنها تلقي الضوء على قضايا تاريخية تتعلق بنضال فكري وسياسي لثلة من الطلبة الجزائريين المهاجرين إلى تونس والملتحقين بجامع الزيتونة والذين اعتبروا بمثابة العمود الفقري للحركة الإصلاحية والوطنية في الجزائر فيما بعد، ونحن عندما قمنا بهذه المبادرة العلمية لدراسة الوضعية العامة **للنخبة الزيتونية بالجزائر(طلبة إقليم الجنوب الشرقي الجزائري أنموذجاً)** والتعرّف على مستويات أنشطتهم في الجزائر إنما نأمل أن تكون هذه الدراسة مقدمة لدراسات مماثلة عن دور الطبقة الطلابية في صناعة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

2. ماهية الأنتليجنسيا الجزائرية الزيتونية

في بداية هذا المبحث حقَّ لنا أن نتساءل عن مبرّر تسميتنا لمجموع خريجي جامع الزيتونة من الطلبة الجزائريين بالنخبة بدل أي مصطلح آخر يقصد به نعْت هؤلاء الطلبة، يقول برهان غليون «... إن نظام التربية والتعليم الذي يُكوّن العقل الاجتماعي أي مجموعة المعارف الضرورية للمجتمع للإنتاج والإدارة والتوجيه السياسي والاجتماعي والتاريخي، وهو ليس المدرسة بجدرانها وأشخاصها من طلبة وأساتذة، وإنما هو بُنية اجتماعية، علاقة بين طبقات وفئات مختلفة، تحدد علاقة بين نخبة مثقفة وأغلبية عامة أي نوعاً من تقسيم العمل...»[1] وهنا نجد أن غليون في تعريفه للنخبة قد ربط تعريفها بالمسألة الثقافية وبالتعليم ودرجة الوعي بصفة خاصة، وإذا ما أخذنا هذا التعريف والدور الهام الذي اضطلع به هؤلاء الطلبة الزيتونيين على امتداد كامل الفترة الاستعمارية في مقاومة الاستعمار بالجزائر أو تونس، وخدمتهم لقضايا البلاد السياسية والثقافية والدينية...، فإنه بالإمكان استخدام كلمة "نخبة" في وصف هؤلاء الطلبة بكل ما للكلمة من مدلول.

وبالمقابل يرى عديد الباحثين في الثقافة والفكر أنه ليس بالإمكان الحديث عن أنتلجنسيا[*] بالعالم العربي سواء كان ذلك بدول المشرق أو بدول المغرب، وعموماً من الصعب الحسم في مثل هذه المصطلحات التي غالباً ما تختلف من باحث إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى باختلاف المدارس والاتجاهات الفكرية المعاصرة.

من جهة أخرى وفي موضوع الهوية فإنه عندما يتكوّن لدى مجموعة بشرية الإحساس والاعتقاد والوعي بتقاسم نفس القيم، يمكن القول أنه يوجد داخلها "هوية ثقافية"معينة، وعليه فالهوية الثقافية ليست شيئاً موضوعياً يمكن قياسه من "الخارج"، فإذا كان هناك شخص غريب أصلاً عن دين معين أو أثنية معينة، واعتنق فيما بعد هذه الديانة أو شارك الإثنية قيمها، فإنه باستطاعته أن يتقاسم هذه المجموعة الدينية أو الإثنية هويتها الثقافية، ونفس الشيء بالنسبة للذي سوف يتخلى نهائياً عن دينه أو مجموعته الإثنية، يمكن أن يفقد هويته الأصلية، فالهويات الثقافية لها إطار وحدود هي الفضاءات المادية والجغرافية أو الثقافية التي يحتلها من يتقاسمون القيم المشار إليها، وإنه ليس من السهل دائماً - وأحياناً من المستحيل- التخلي الطوعي عن الهوية الأصلية لتبنّي هوية أخرى، ويبدو أنه يوجد في أعماق النفس البشرية تشكل ذهني معين مكتسب منذ مراحل الطفولة الأولى

1- برهان (غليون)، **مجتمع النخبة**، ط2، تونس: دار البراق، 1994م، ص16.

*- **أنتلجانسا:** هي في الأصل كلمة روسية تعني مجموعة من المثقفين داخل مجتمع ما حسب أنطونيو قرامشي تقوده وتنظّر له وتمثل ضميره الحي ووعيه الفاعل، للتوسع راجع:

- Gramsici (Antonio), **la Formation des Intellectuels, l'Organisation de la culture**, Paris: éd. sociales, 1977, PP (11- 12).

يظل دليلاً مرجعياً راسخاً والتي تجعل من المستحيل أحياناً حصول نوع من الانتقال الثقافي المتبادل، وهذا العائق هو بدوره ذو طبيعة ثقافية ليس مرتبطاً أصلاً بالتشكل الوراثي للأفراد والتخلي عن الثقافة الأصلية لاعتناق أخرى بصفة إرادية وطوعية طريق للوصول فعلياً لمعرفة الآخر لأنه يتطلب القطع مع الضغوطات البسيكولوجية للثقافة الخالصة لغاية فهم ثقافة الآخر، لكن هل يمكن أن ينطبق هذا الوضع على علاقة المجتمعات ذات الثقافات الغالبة مع المجتمعات ذات الثقافات المغلوبة.

وتجب الإشارة إلى أن مفهوم الهوية متصل إلى حد كبير بمصطلح حديث نسبياً هو مفهوم القوميات، وهو مفهوم ارتبط أساساً بتميز القوميات في القرن (19م)، ومن خلال عملية رصد سريعة لمقالات وأدبيات طلبة جامع الزيتونة وخريجيه تتكرر وتتواتر عديد المفاهيم والمصطلحات ذات الصلة بمفهوم الهوية مثل الأمة والذاتية والشخصية والكيان والسيادة والاستقلال وبالتالي تطرح مسألة الهوية في مختلف تمفصلاتها المشدودة إلى الأمة والشخصية والذاتية والثقافية واللغة والدين والتاريخ.

فالأمة تعني: جماعة المؤمنين أو المسلمين أو الجماعة الإسلامية كنقيض للانتماء القبلي أو العشائري كما تعني أيضاً: «مجموع الأفراد في "دار الإسلام" لا فضاءً جغرافيا محدداً، ولقد استعمل رجال السياسة في المغرب العربي ذوي اللسان العربي في الفترة المعينة بالمصطلح أو مفهوم الأمة الذي ترجم إلى اللاتينية بمصطلح شعب ووطن»[2]. ولم تتسرب المفاهيم الحديثة ذات العلاقة بالوطن/ الوطنية للتيارات السياسية والإيديولوجية إلى الجزائر وبلاد المغرب العربي عموماً حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، فليس هناك في ذلك العهد غير الجامعة الإسلامية القادرة على خلق وحدة معينة لمواجهة الهيمنة الغربية.

أما الوطن فيعني قبل القرن (18م) وكما ورد في "لسان العرب"[3] « مسقط الرأس أو مكان الإقامة أو الولادة»، ويمكن أن يعني حسب السياق، البلد والمقاطعة والمدينة أو القرية أو أراضي القبيلة ومدلوله الحديث والحامل مضمون إيديولوجي وسياسي فيعود إلى السنوات الأخيرة للقرن (18م). وبدأ هذا المصطلح في الانتشار في البلاد العربية الإسلامية منذ منتصف القرن 19م على يد ثلة من المفكرين العرب حينها من أمثال: (الطهطاوي، خير الدين باشا، ابن أبي ضياف)، فالمعيار الديني لم يعد المعيار الوحيد لتحديد الانتساب كما في السابق، من ذلك أن العناصر المؤسسة للذاتية الجزائرية، إنما هي الإسلام والأرض ومسقط الرأس وسلطة الانتماء بالدرجة الأولى.

وتنشأ الصراعات حول الهوية في غالب الأحيان في بعض المنعطفات التاريخية فصدمتا

2- السيد (رضوان)، **مفاهيم الجماعات في الإسلام**، بيروت: دار المنتخب العربي، 1993م، ص.ص(36- 37).

3- **لسان العرب**، مج4، ص574.

الحداثة والاحتلال خلقتا جواً من البلبلة هزَّت القيم والعلاقات وطرق التصور والتنظيم، حينها بدأ ولا زال حديث الهوية. ويتحدد مفهوم الهوية بناءً على الدلالة اللغوية والفلسفية والسوسيولوجية والتاريخية لهذا المصطلح، فهو يعني الشيء نفسه والتشابه والخصائص الدائمة والأساسية لشخص أو مجموعة كما أن مرادف الهوية هو الذاتية أو الشخصية ومجموع معطيات الواقع والقانون كتلك المتعلقة بتاريخ ومكان الولادة والاسم واللقب التي من شأنها تأكيد أن فرداً ما هو الشخص بعينه دون أن يقع اللبس مع شخص آخر.

وفي التراث الفكري العربي تعريفات كثيرة للهوية إذ عرفها "الجرجاني" بأنها: «الأمر المتعقل من حيث امتيازه عن الأغيار»، والهوية عند ابن رشد: «تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود»، وعند الفارابي هي: «الشيء أي عيّنته وشخصه وخصوصيته ووجوده المتفرد الذي لا يقع فيه إشراك»، وبالتالي فالهوية هي الشفرة (الرمز) الذي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي عن طريقها يتعرف عليه الآخرون باعتباره منتمياً لتلك الجماعة، وهي شفرة تتجمع عناصرها على مدار تاريخ الجماعة من خلال تراثها الإبداعي وطابع حياتها، وتتجلى الهوية كذلك من خلال تعبيرات خارجية شائعة مثل: الرموز والألحان والعادات التي تنحصر قيمتها في أنها عناصر معلنة تجاه الجماعات الأخرى وهي أيضًا التي تميز أصحاب هوية مشتركة عن سائر الهويات الأخرى وإن كان من الصعب تقديم تعريف للهوية لاختلاف الباحثين والمهتمين بهذا الموضوع فإنها على أية حال تتحدد من منطلق العلاقة بين الأنا والآخر، والهوية نسبية وليست أزلية، هوية متفتحة قابلة للتعديل والتكيف والتفاعل مع الهويات الأخرى، شريطة أن يتم ذلك باختيار واع، تفرضه الضرورة وتقرره الإرادة الجماعية.

إن وعي الهوية بمعنى الذاتية الجزائرية بدأ في البروز بين الأهالي الجزائريين في مطلع القرن العشرين عندما امتزجت أوضاع ناجمة عن النظام الاستعماري بظروف سابقة للاحتلال والمتمثلة في وحدة التراب ووحدة اللغة ووحدة الثقافة ووحدة العقيدة التي عزَّزت الروابط بين سكان البلاد وغذّت مشاعر الانتماء لتاريخ مشترك ودعّمت التقارب والوعي بالمصير الواحد مما ساهم في بروز نوع من اللحمة الوطنية. غير أن مفهوم الهوية الجزائرية لدى الطلبة الجزائريين الزيتونيين يندرج ضمن المفهوم الواسع للأمة الإسلامية؛ هذا الفضاء الإيديولوجي الذي يُشكل ملاذاً وحصناً لمجتمع يتهدده المسخ والذوبان وقد مثَّل انتشار الحس العروبي في الجزائر ظاهرة ملفتة الانتباه بعد الحرب العالمية الثانية، بعد تراجع الإيديولوجية العربية الإسلامية لدى النخبة الوطنية بانحلال الإمبراطورية العثمانية وإلغاء الخلافة وهذا الاتجاه العروبي ليس إلا أحد الاشتقاقات المعدلة للجامعة الإسلامية، متكيفاً مع التحولات التي طرأت على العالم الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، وبرز هذا الاتجاه العروبي في الجزائر في شكله السياسي بعد ظهور تياران قويان سيطرا على الساحة

السياسية والفكرية في الجزائر: التيار الإصلاحي المجسَّد في جمعية العلماء المسلمين والتيار الاستقلالي المجسَّد في حزب الشعب الجزائري.

وكلاهما ساهم فيهما فصيل هام وكبير من خريجي الجامعة الزيتونية الذين مثَّلوا هذا الاتجاه الداعي إلى تحرير الجزائر في إطار يضمن اندماجها في العالم الإسلامي، وأصبح الاتجاهان (السياسي- الثقافي) يسيران على خطة واحدة بعد الحرب العالمية الثانية وإن اختلفت الوسيلة والطريقة فالخطة كانت قائمة على طلب الذاتية القومية الجزائرية ومقوماتها في الاندماج في العالم العربي، وأصبحت الجامعة العربية الغاية التي يتجه كل عمل فكري واجتماعي في الجزائر إلى تحقيقها.

وفي الوقت الذي كانت فيه جزائر القرن التاسع عشر ميلادي تحت التأثير الفرنسي، كانت بالتوازي تحت تأثير آخر ألا وهو التأثير الشرقي الذي نقلته ورعته صدور ودفاتر وذكريات .... أجيال من المرتحلين والزائرين والحجيج وطلاب العلم، والمهاجرين الذين أجبرتهم ظروف الاحتلال على مغادرة بلادهم ولكنهم لم ينسوها بل ظلوا على صلة بأرضهم وأهاليهم، كما أدت الصحف والجرائد والمجلات والكتب والإجازات والمراسلات ومختلف الأنشطة الثقافية والفكرية والأدبية المتبادلة بين نخب الضفتين (المشرقية والمغربية) دوراً آخر مهماً في الإبقاء على التأثير الشرقي ببعده الديني واللغوي والإيديولوجي، فرغم سياسات الإلحاق الإداري والقانوني والتشريعي، ورغم الغزو الاستيطاني والهيمنة الثقافية واللغوية...التي مارستها الإدارة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر، إلا أن هذه الأخيرة لم تنقطع عن موروثها الشرقي وهويتها الدينية واللغوية.

لقد كانت يقظة الجزائر في هذه المرحلة التاريخية، قد سبقتها يقظة معظم الشعوب الشرقية الأخرى، فالمقاومات الشرسة للوطنيين الجزائريين بُعيد الاحتلال الفرنسي أو ما أصطلح على تسميته بالمقاومات الشعبية وما تلاها من مصادرة للأرض، ومسخ للهوية الوطنية، وتشريد ونفي وإفناء للعنصر المثقف والمتعلم، كل ذلك جعل بداية اليقظة عند النخب الجزائرية تبدو مبكرة جداً، لتزداد رسوخاً مع أواخر القرن التاسع عشر حين تصادفت مع يقظة شعوب أخرى.

وبحكم نسبي غير ملزم صحَّ أن نقول: أنه إذا كانت يقظة بعض الشعوب قد بدأت بالنشاط السياسي الثوري أو بالتحرك الاجتماعي المنتظم؛ فإن يقظة الجزائر قد انطلقت -برحلات علمائها وطلابها- إلى الخارج، ومنهم على الخصوص الطلاب المرتحلين إلى تونس، ذلك أنهم وبعد تحصيلهم لشتى العلوم والفنون آثروا العودة إلى الجزائر والأمل يحدوهم في تحقيق نهضة تعليمية وتربوية شاملة لكن بأهداف متباينة، وبانتماءات سياسية وإيديولوجية متشاكسة، جسّدت في تلك الفترة عمق الصدام الذي وقع بين مختلف أطياف النخب المثقفة الجزائرية حول النهج الفكري والحضاري الذي وجب على الحركة الوطنية

الجزائرية الفتية اتباعه آنذاك، سواءً في صراعها مع الإيديولوجية الاستعمارية، أو مع النخب الجزائرية ذات التوجه الاندماجي المتصالح مع الوجود الاستعماري في الجزائر بنوعيه (النخب المكتسبة للثقافة الفرنسية أو المرتمية في الثقافة الغنوسية السلبية).

فانقسمت إلى ثلاث تيارات، منها من سار في ركاب التوجه المتصالح مع الوجود الاستعماري في الجزائر بنوعيه: النخب المكتسبة للثقافة الفرنسية (الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري)، أو المرتمية في الثقافة الغنوسية السلبية(الطرق الصوفية الضالة)، ومنها من سار في ركاب نهج الإصلاح الديني (جمعية العلماء المسلمين المتصالحة مع الاتحاد الديمقراطي والمعادية للطرق الصوفية الضالة)، ومنها أيضاً من تبنى النهج السياسي بنوعيه (النضالي-الثوري). فالخلاف لم يكن أصلاً في الغاية التي هي:

- تحرير الأرض والإنسان والهوية الوطنية من التماهي الاستعماري الطارئ.

- تكوين وتحصين الجيل القادم من ترسبات أكثر من نصف قرن أو يزيد مسَّت مكامن الهوية والانتماء.

إنما الخلاف كان في الخطوة الأولى من المشروع الوطني، فانقسمت هذه النخب إلى تيارات ثلاث لتجسيد خطوتها الأولى:

◄ **تيار المداراة**: الذي اتبع خطة نشر الوعي السياسي والثقافي في تقية تامة مع محيطها الخاضع للهيمنة الاستعمارية.

◄ **تيار المجاراة**: الذي اتبع في خطوته الأولى أسلوب الانخراط في المحيط السياسي (تشكيل الأحزاب، والنضال الانتخابي)، والسياق الثقافي الفرنسي ومجاراته في دعوى التشريع الإصلاحي والتثقيفي وفق سياسة خذ ثم طالب.

◄ **تيار المعاداة**: الذي نهج في أسلوب خطواته الأولى سلوك الرفض المطلق للكينونة الاستعمارية الفرنسية للجزائر والدعوة صراحة إلى الحرية والقطيعة.

عموماً، فقد كان برنامج النخبة الزيتونية برنامجاً تعليمياً وتربوياً في آن واحد، فمن الوجهة التربوية والدينية أرادوا الرجوع بالإسلام إلى صفائه الأول والعودة إلى تبني المراجع التقليدية للمذهب المالكي، مما اضطرهم إلى مقاومة المعتقدات الباطلة ومظاهر السحر والشعوذة، ومن الوجهة التعليمية والثقافية فإنهم قد سعوا إلى لمّ شَتات المجموعة الإسلامية بالتقريب بين مختلف المذاهب الدينية، والتيارات الفكرية والفقهية بدون ميّز في الجنس أو الأصل قصد خلق كتلة واحدة من المسلمين الجزائريين[4]. وفي سبيل ذلك اهتموا أولاً بتصحيح التنشئة التربوية فبثّوا تعليماً مُهيئاً على الطريقة الشرقية(وأقصد هنا النظم

4- جوليان (ش.أ)، **أفريقيا الشمالية تسير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1976م، ص135.

الإدارية والتعليمية، وطريقة التدريس والتقييم ومنح الشهادة)؛ أي تقليدياً ومستوى من مبادئ البيئة العربية في آن واحد، فأنشأوا حتى بالمداشر والدواوير مدارس حرّة لنشر مبادئ اللغة العربية والتربية الإسلامية، وكان هدفهم الأسمى هو إنشاء جامعة كبرى على غرار الجامعة الزيتونية كي تكون مركز إشعاع للثقافة العربية في الجزائر، ثم امتدت حركتهم التربوية والتعليمية إلى الأوساط العمالية والمهنية والترفيهية بفرنسا والجزائر حيث أسّسوا بها نوادي تربوية وأخرى تعليمية[5].

إذن لم يكن دور هؤلاء الطلبة ليقف عند حدود تحريض أترابهم على الالتحاق بالمعاهد العلمية بالخارج، ومساعدة من هم بحاجة إلى مساعدة من الطلبة المستجدين، وإنما كانوا يستغلون عُطلهم الصيفية لإلقاء الدروس العامة في المساجد والكتاتيب والبيوت الخاصة، وكثيراً ما كانوا يختارون عن طواعية الانتشار في الآفاق البعيدة خصوصاً بعد تخرّجهم لأداء رسالة الإصلاح والتربية على الوجه الأكمل.. حيث اندفع بعضهم أحياناً إلى تأسيس المدارس العربية والقرآنية الحرة متجشّمين أعباء التأسيس، ومكرّسين جهودهم لنشر العربية التي كان حظّها منقوصاً في المدارس الرسمية مفضّلين المغامرة وبذْل الجهود في المدارس الوطنية القرآنية بما توفّر لهم من الفرص والجهد.

وقد تمكّنت هذه النخبة العالمة بتياراتها الثلاث من إنشاء مدارس ومعاهد حرة للتعليم المكتبي للصغار، وتنظيم دروس في الوعظ والإرشاد الديني في المساجد، ومحاضرات في شؤون الحياة العامة في النوادي، وكان التعليم المكتبي يهتم بتدريب الطلاب على الخطابة والتبسّط في الحديث وتربية مَلكَة الذوق والاستنتاج، وفي العودة إلى العربية الفصحى ونفض التهيّب والترجّل في مخاطبة الجماهير وكان من نتائج ذلك استقامة الألسُن المتباينة، كما دخل في التعليم المكتبي أيضاً القرآن الكريم وعلومه وطبْع أمهات كتب الحديث الصحيحة والتفسير حتى يُرشّدوا الجماهير إلى جادّة الصواب، والقضاء على أمية الكبار والتشجيع على القراءة النافعة والبحث العلمي السديد حتى يُحافظ الجيل القادم على عربيته التي تشكّل وآدابها لسان الأمة الجزائرية كلها لأن نشر العربية عندهم معناه تسهيل الطريق لفهم القرآن الكريم.

وقد لاحظ الصحفي التونسي ابن محمود نور الدين الذي زار منطقة وادي سوف عام 1952م بأن أدواراً مميّزة للنخبة الزيتونية من خلال نشاطها الدؤوب في نشر الدين الصحيح واللغة العربية في أوساط ساكني وادي سوف قائلاً: «قام أحد متساكني «وادي سوف» من خريجي الزيتونة بتأسيس مدرسة لتعليم العربية وتحمّل تبعات ما يُكلّفه هذا المشروع من العمل المضني على إعطاء دروس بالعربية في المدارس النظامية، ولم يكن خريج الزيتونة هذا

5- جوليان (ش،أ)، **أفريقيا الشمالية تسير**، مرجع سابق، ص136.

إلا الشيخ الطاهر التليلي المحرز على العالمية من جامع الزيتونة.. ففي أكثر الأحيان كان الناس يُقبلون من تلقاء أنفسهم على العائدين من الدراسة في المؤسسات التونسية أثناء العطلة يرغَبون إعطائهم دروساً في اللغة العربية وشؤون الدين الإسلامي... ويقطعون لذلك المسافات الشاسعة بين القرى والمدن بدافع الرغبة الجامحة في التعلّم»[6].

ورغم الممارسات القمعية الفرنسية إلا أن خريجي المؤسسات التعليمية التونسية كانوا بعودتهم قد أوصلوا الحلقة المفقودة التي صنعها الاستعمار بين الجزائر والعالم العربي وذلك عن طريق التعليم في المساجد والمدارس الأهلية الحكومية، فكانوا من الروّاد الأوائل الذين وجّهوا كل طاقاتهم وجهودهم في بعث الثقافة العربية الإسلامية، التي كادت أن تندثر حين استولى الاستعمار الفرنسي على الأوقاف الإسلامية التي كانت تموّل معظم المراكز العربية الإسلامية، وبعثها على نطاق واسع بواسطة المراكز الثقافية والنوادي الحرّة التابعة لجمعية العلماء أو الأحزاب والجمعيات الأخرى، ولولا جهود هؤلاء الطلبة لَكُتب للفكر الإنساني الجزائري أن يكون له مصير آخر غير الذي تقرر، وبذلك نجح التعليم العربي الحرّ في المحافظة على الثقافة القومية للجزائر باعتبارها من مقومات الشخصية الجزائرية.

إذن فالإطار الحضاري الذي تحرك داخله الطلبة الجزائريون خريجي الجامع الأعظم بتونس واستمدوا منه مادّتهم الخام، هو إطار الحضارة العربية الإسلامية بمفهومها العام، ومن شرايين هذه الحضارة استقوا شخصيتهم الأدبية والفكرية، و«شعورهم القومي وروحهم الإسلامية اللذيْن يكوّنان عندهم الوتَر الحسّاس والعِرق النابضْ كما كان يُكونان عند المثقف الجزائري حينها إرثاً استطاع ليل الاستعمار الطويل أن يخفيه ويخنقه ويشلّه زمناً طويلاً ولكنه لم يستطع أن يقضي عليه أو يُتلفه»[7].

وإذا حاول الدارس أن يتتبع أدوار هذه النخبة الفكرية والسياسية بُغية استخلاص هذه النزعة عندهم فإنه لا يستطيع حصرها في موضوع معين من إنتاجهم، وبديهي أن هذه النزعة وليدة اتجاههم في الحركة الإصلاحية، ولعلّ النماذج التي سنذكرها لاحقاً تكفي دلالة في البرهنة على تجْلِية هذه الحقيقة الفكرية، «لقد ظل اتجاههم الديني والوطني يطبع أعمالهم الفكرية والأدبية بطابع خاص، ويكون في كتاباتهم سلاحاً عنيداً في الدفاع عن مقاومتهم لحركات التبشير والتنصير التي أعطاها الاستعمار بوجوده دفْعاً قوياً من أجل تشويه الإسلام وتحريفه أمام الأجيال الجزائرية حتى لا تفقَد ثباتهَا وتضطرب مسيرتها فتتشبث بثوب المستعمر»[8].

6- الجابري (محمد الصالح)، **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس**، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م، ص43

7- شريط (عبد الله)، **الأدب العربي الحديث"، الأصالة**، ع13، الجزائر: 1973م، ص54.

8- عباس (محمد)، **البشير الإبراهيمي (أدبياً)**، الجزائر: د.م. ج، بلا، ت، ص16.

وفي مرحلة الثورة التحريرية شعر هؤلاء الطلبة بالمسؤولية الوطنية التي تتطلب منهم التضحية بعد الأخرى والنضال المستديم وقوة الإرادة والنشاط لمواجهة سياسة الاحتلال الفرنسي في وطنه، كما شعر أنه "مجند" موضوع في الاحتياط ينتظر من يوم إلى آخر التخلي عن الكتاب والكراس والقلم ليحمل البندقية ويلتحق بإخوانه في الجبال «وما يدل على استعداد الطلبة الجزائريين في كل وقت للتطوع في صفوف جبهة التحرير أنهم تطوعوا بأعداد وافرة وسجلوا أسماؤهم في قوائم طويلة عندما أشعرتهم الجبهة أنها تحتاج إلى بعضهم للعمل في الإدارة أو القضاء أو في السلك الطبي أو غيرها من الميادين الأخرى التي انبثقت عن التنظيم الثوري لمؤتمر الصومام التاريخي»[9]، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد حماني: «.. كان من خريجي جامع الزيتونة منذ عودتهم إلى الجزائر في طليعة المجاهدين، وكان لهم ميدانهم في التربية والتكوين وفي المحافظة على القومية والأخلاق والدين ووحدة الصفوف متراصّة ومحاربة كل وسائل التخريب والفساد واليأس والقنوط وكلّ عوامل الهزيمة وخراب النفوس، كل ذلك من أعظم وسائل إعداد الشعب للجهاد والوصول إلى شاطئ السلامة»[10].

لقد اضطلعت الأنتلجانسيا الزيتونية بدور تاريخي، حيث كان لها مواقف علمية وفكرية مميزة خلال فترة الاستعمار المظلمة، وقد دلَّ ذلك على وعيهم وتفطنهم لوجودهم الرسالي وهو حرصهم وتأكيدهم الدائم للحفاظ على مقومات هويتهم الحضارية. وقد عبروا عن ذلك عند إهداء مجلتهم الثمرة الأولى إلى الجزائر... التي لم ترى من الأبناء الذين يحسبون لحرمة الأمومة حسابها ويفقهون للكرامة معناها- إلا النادر القليل، «إلى الأم الحنون والوطن المفدى بالنفس والنفيس: الجزائر العزيزة الناهضة نهدي كعنوان على الطاعة والولاء والتضحية والجهاد في سبيل مرضاتها وهنائها؛ هاته القطرات المنعشة علها تُثلج صدرها المحترق، وتخفّف نوعاً ما من كمد كبدها الجريء الملتهب، فتبتسم للمستقبل الزاهر، وتنشرح نفسها للأمل السعيد..»[11].

يعتقد الأستاذ "عدي الهواري" في كتابه "مأزق الشعبوية" بأن: «العلماء احتلوا بنضالهم

9- هلال (عمار)، **نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م**، الجزائر: دار هومة، 2004م، ص82. للتوسع أكثر في قوائم شهداء الثورة من الزيتونيين راجع: - فضلاء (محمد الحسن)، **المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر**، ج1، ج2، ج3، الجزائر: دار الأمة، 1999م.- جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، **الجزائر**: مصر، دار المعارف، 1965م، ص55 وما بعدها- تركي (رابح)، "الصراع بين (ج. ع. م .ج) وإدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر"، **الثقافة**، ع85، الجزائر: جانفي/ فيفري 1985م، ص. ص(183- 202)- الخطيب (أحمد)، **الثورة الجزائرية (دراسة وتاريخ)**، بيروت دار العلم للملايين،1958م، ص122- جلال (يحي)، **السياسة الفرنسية في الجزائر**،، مصر: دار المعرفة، 1959م، ص279

10- حماني (أحمد)، **شهداء علماء معهد بن باديس**، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م، ص5.

11- **الثمرة الأولى** (إصدار ج.ط.ز.ج)، تونس: مطبعة الشباب، 1937م، ص25.

مكانة خاصة ضمن الوطنية الجزائرية، فقد ساهموا في تكوينهم بشكل حاسم، بالرغم من غموض مواقفهم فيما يتعلق بمسألة الاستقلال»، ويضيف عدى الهواري: «أن المجهودات التي بذلها العلماء لبعث المجتمع الجزائري بدأت بالوقوف ضد الطرقية وفرض اللغة العربية وإبراز الماضي التاريخي للجزائر، وذلك ما يجعلهم بمثابة المؤسسين الأوائل للوطنية الجزائرية، فإذا كان مصالي الحاج يريد بعث الدولة الجزائرية، فإن ابن باديس كان يفكر في بعث الأمة الجزائرية، وكلاهما يكمل الآخر»[12].

ومن الإنصاف فإنه لا يجوز اعتبار تاريخ رجالات هذه الفئة النيرة مجرد تاريخ لأنصار الحركة الإسلامية المتزمتة أو لأتباع التيار القومي العربي؛ إنما هو تاريخ وطني إصلاحي كان طوال فترة الكفاح الوطني بمثابة الحصن الحصين بالنسبة إلى المقاومة الوطنية السياسية والثقافية على وجه الخصوص تجاه حركة تسرب القيم الاستعمارية وتأثيراتها في البلاد والعباد، ومن ناحية أخرى فقد كانت تلك المدارس والمعاهد التي أسسوها بمثابة قلعة وطنية جسَّدت المنبر الدائم الذي تتنافس في ظله الأفكار المتناقضة ولكنها كانت أيضاً مثرية وبنَّاءة إلى أبعد حد. هذا وإن دراسة تاريخ النضال الطلابي الجزائري بمعزل عن أي اعتبار متميز وبمنأى عن أي خطاب تبريري من شأنها أن تساعدنا بدون شك على حسن إدراك الحركية الاجتماعية والتحولات الذهنية التي صنعت حركة التحرير الوطني، وهذا من شأنه أيضاً أن يسمح لنا بالعثور على عناصر الإجابة اللازمة لإدراك بعض التساؤلات المتعلقة بحاضرنا.

وفي الجملة فإن المعركة التي كانت دائرة بين القديم والجديد وبين السنة والبدعة وبين المستقل والمندمج ... والتي كانت الجزائر مسرحاً لها، قد ساعدت على بروز نخبة تتميز بنقمتها وثورتها على البرنامج التكويني المتحجر من جهة وعلى أشكال ابتذال الهوية من جهة أخرى، وقد كان هذا الاغتراب الذي يتسم به الزيتونيون الجزائريون داخل بلادهم سبباً مباشراً من أسباب إحساسهم "بالدون"، تجاه العناصر المتخرجة من المعاهد والجامعات الفرنسية مثلاً وشعوراً منهم بهذا النقص فقد أقبلوا وهم في تونس زرافاتً ووحداناً على الصادقية والخلدونية، وفي الجزائر على المدارس الحرّة التي تلقن العلوم العصرية واللغة الفرنسية والتي كان قد أنشأها الرعيل الأول من الزيتونيين لتمكينهم من الحصول على ثقافة عصرية كانوا يقدرونها حق قدرها في أغلب الأحيان.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المبحث هذه الملاحظة البليغة التي أبداها "غاستون فلتران" (Gaston Feltran) في الفصل المنشور بجريدة الديبيش كولونيال(Depeche

12 - Lahouari addi , **l'impasse de populisme** , édition E.n.a.l, Algérie, 1990 , p711.

للتوسع يراجع: - علي الكنز، **حول الأزمة، دراسات حول الجزائر والعالم العربي**، الجزائر، دار لوشان للنشر، 1990، ص09.

Colonial Journal) بتاريخ 11 ماي 1910م عقب مظاهرات واعتصامات الطلبة الزيتونيين: «تمثل مظاهرة الطلبة أثراً طبيعياً ومنطقياً من آثار قضية بسيطة وملموسة بالنسبة إلى الجميع أعني هجوم الأفكار الجديدة على معاقل الأفكار القديمة»[13]، وكما دلّت على ذلك التجربة دوماً فإن التاريخ يصلح لتفسير الحاضر بل أنه يمثل البحث عن المستقبل من خلال الذاكرة الجماعية ويمثل –على حد تعبير- "جاك بيرك"(Jack Burke) «الانعكاس الجدلي والمتبادل للعنصرين المذكورين»، ولا يمكن أن نكون أكثر تبصراً من "فلتران"، إلا أننا بفضل البعد التاريخي الممتد على نصف قرن قد بدأنا نتصور إشكالية تاريخنا الثقافي عامة وتاريخ النضال الطلابي خاصة حسب رؤية نقدية مفندة للنظريات التبسيطية الكفيلة ويا للأسف بالإساءة إلى تاريخ هذه الفئة الجليلة التي ظلت طوال عدة سنوات محافظة على هويتنا القومية، بالإضافة إلى ذلك، أليس من المفارقات الكبرى أن يظل الطالب الباديسي أو الزيتوني لحد الآن الجندي المجهول بالنسبة إلى تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية لاسيما ونحن نعلم أن كبار أعلام تاريخنا الثقافي هم في معظمهم من هذه الفئة خريجي جامع الزيتونة أو المدارس الباديسية؟

3. النخبة الزيتونية أصيلي الجنوب الشرقي وصراع الأفكار في المرحلة الاستعمارية

لقد كان للنخبة الزيتونية (علماء الجزائر) أصيلي الجنوب الشرقي دوراً مهماً في التمسّك بالقومية الجزائرية والتعاليم الإسلامية، فقد بذلوا جهوداً موفّقة في سبيل التقريب بين العرب والبربر، وإيجاد كتلة إسلامية متحدة، كما عملوا على نشر العلوم الدينية وتقوية الروح الوطنية بين المواطنين، وتطهير النفوس من السموم الفرنسية.[14]

وتحت شعار الوعظ والإرشاد ونشر التهذيب والتعليم الديني بين أبناء وبنات الجزائر وتأسيس النوادي الثقافية للعناية بالشباب وتربيتهم تربية اجتماعية ودينية، كانت النخبة الزيتونية في هذا الإقليم تخوض في الأمور السياسية في كل ما يتصل بمستقبل الوطن ومقوّمات الشخصية الجزائرية، وقد عملت على توجيه الشعب الجزائري توجيهاً غربياً وإسلامياً ووطنياً يخالف تمام المخالفة سياسة الاحتلال الرامية إلى:

- تشجيع الطرق الصوفية الضّالة التي تعمل على نشر الشعْوذة وإخماد العقل.
- فرنَسة الجزائر فرنَسة كاملة في اللغة والثقافة والفكر والاتجاه.
- فرض التجنيس على الجزائريين بقصد سلخهم من شخصيتهم الوطنية العربية الإسلامية وإدماجهم في الكيان الفرنسي العام وبالتالي تصبح الجزائر جزءاً مكمّلاً لفرنسا.

13 - العياشي (مختار)، **الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر**، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م، ص16.

14- جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، **الجزائر:** مصر، دار المعارف، 1965م، ص55.

• العمل على نشر المسيحية والقضاء على مقومات الدين الإسلامي.[15]

وفي ذلك يقول أحمد الخطيب: « كادت سياسة البدع والأراجيف تؤثر على الشعب الجزائري لولا أن قيّض الله لهذا الشعب بعض العلماء المخلصين الذين التفوا حول الشيخ عبد الحميد بن باديس وأخذوا يدافعون عن مبادئ دينهم وصَفاء لغتهم، فلم يهنوا ولم يضعُفوا على الرغم من اضطهاد الاستعمار لهم وتكالُب الرجعية حولهم»[16] وقد تولى هؤلاء العلماء في هذا الاتجاهين أمرين هما:

◄ **تطهير الدين الإسلامي مما ألحَق به الاستعمار من خرافات وبدع** وإبقاء شُعلته الوضّاءة التي بذل الاستعمار لإخمادها كل شيء، ولم يتورّع على اقتراف أفظع الجرائم من أجل إطفاء هذا النور الإلهي كما عقدت العزم «في نطاق تطهير الدين» على المطالبة بسلخ الدين الإسلامي عن الدولة وبالأحرى تنفيذ ما جاء في مرسوم 1907/09/27م، ونشأ صراع بين هذه الثلّة من العلماء المتنوّرين والاستعمار الفرنسي ومبشريه وبعض الزوايا والطرقيّين من جهة أخرى.

◄ **العمل على التقريب بين العرب والبربر وبين الطوائف المذهبية والإيديولوجية المتباينة** لخلق كتلة وطنية واحدة، كما «عملوا على إلقاء المحاضرات وفتح المدارس ونشر الكتب التي تتحدث عن تاريخ بلادهم وتعمل على تمجيده، وحاولوا بذلك أن يخلقوا جيلاً جديداً مثقفاً بثقافة عصرية عن طريق اللغة العربية، ووصل نفوذهم إلى العمال الجزائريين في فرنسا حيث أخذوا في إرشادهم وتثقيفهم وغرس روح القومية العربية الإسلامية في نفوسهم»[17]، وبالتالي أكّد العلماء أن هناك قومية جزائرية وأن صفتها الإسلام والعروبة، فعاد كثيرٌ من الجزائريين إلى التمسك بصلواتهم وقاطعوا الخمور ومختلف الظواهر والآفات الاجتماعية، كما أفتى هؤلاء العلماء بأن التخلي عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي للحصول على صفة المواطن الفرنسي يعني الارتداد عن الإسلام مما يحرمه من الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين، وكانت هذه لطمة واضحة أصابت النظُم الفرنسية الاستعمارية في الجزائر وساعدت على التمييز بين الصفات الجزائرية والصفات الفرنسية وبالتالي على نُضج الشخصية الجزائرية ونموّها وتطوّرها، وكانت جمعية العلماء المسلمين وهي التي تمثّل قوة الوسط بين قوى الجزائر أكبر الهيئات التي عمل من خلالها أفراد النخبة الزيتونية حيث تركوا من خلالها آثاراً واضحة دون أن يُغيّروا من اتجاههم العام.

15- للتوسع راجع: تركي (رابح)، "الصراع بين جمعية العلماء وإدارة الاحتلال"، **الثقافة**، ع85، مرجع سابق، ص. ص(183- 202).

16- الخطيب (أحمد)، **الثورة الجزائرية**، مرجع سابق، ص122.

17- جلال (يحي)، **السياسة الفرنسية**، مرجع سابق، ص279.

فالطلبة الزيتونيون أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري بعد عودتهم النهائية للوطن ومسقط الرأس، منهم من امتهن مهنة التدريس ضمن التعليم الحر في المدارس التابعة لجمعية العلماء أو لحزب الشعب، أو ضمن الكتاتيب والزوايا والمعاهد العصرية المتناثرة في الجنوب الشرقي الجزائري على غرار ما هو قائم في وادي سوف وتبسة وبسكرة ومنطقة وادي ميزاب، ومنهم من التحق بالعمل السياسي الوطني ضمن أنشطة النجم أو حزب الشعب فيما بعد، ومن ثم شارك في العمل الثوري بجيش التحرير الوطني، ومنهم من غادر الوطن لاجئاً في مهمة وطنية للجبهة أو للجمعية قبل حلّها، ومنهم من غادر الوطن تربوياً وتعليمياً في خلايا جبهة التحرير الوطني كمجنّد في ميادين التوعية السياسية والإعلام الثوري، كما أن منهم من تولى القضاء الثوري في الجهات التي تحددها قيادة الثورة سواء بالداخل أو بالخارج على الحدود الشرقية أو الغربية وهم في ذلك كلّه معرّضون للتضحيات الجسام (سجن، اعتقال، نفي، استشهاد، إقامة جبرية...» ومنهم من حفظه الله وسلِم من كل ذلك.

1.3. الأدوار التربوية ذات البعد العقيدي السليم:

حيث اهتموا أولاً وبالذات بالناحية التربوية فبثّوا تعليماً مهيئاً على الطريقة الشرقية تقليدياً ومستوحى من مبادئ الوحدة العربية في آن واحد، وبفضل إرادتهم وقوّة عقيدتهم واجه العلماء المتخرجون من الزيتونة التصوّف الشاذ والمرابطة الرّاكدة، وناصروا غايات التجديد، فأنشأوا حتى بالمداشر والدواوير مدارس حرّة لنشر مبادئ اللغة العربية والتربية الإسلامية، فأدوار النخبة الزيتونية التربوية والتعليمية كان الهدف منها هو:

- المحافظة على الدين الإسلامي.
- المحافظة على اللغة العربية.
- المحافظة على تاريخ وجغرافية الجزائر.

وعليه «يعود الفضل في المحافظة على الشخصية الجزائرية في المقام الأول إلى النهج التعليمي الذي حملت لوائَه هذه الثلّة من العلماء المصلحين، حيث نجحت في المحافظة على الشخصية الجزائرية بمقوماتها التي تمثّلت في الثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية والدين الإسلامي والتاريخ العربي الإسلامي»[18]. وبعودتهم أوصلوا الحلقة المفقودة التي صنعها الاستعمار بين الجزائر والعالم العربي وذلك عن طريق التعليم في المساجد والمدارس الأهلية الحكومية، فكانوا من الروّاد الأوائل الذين وجّهوا كل طاقاتهم وجهودهم في بعث الثقافة العربية الإسلامية، التي كادت أن تندثر «حين استولى الاستعمار الفرنسي على الأوقاف الإسلامية التي كانت تموّل معظم المراكز العربية الإسلامية وبعثها على نطاق واسع بواسطة

18- بلاسي (نبيل أحمد)، **الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ص40.

المراكز الثقافية والمدارس الحرّة التابعة لجمعية العلماء أو الأحزاب والجمعيات الأخرى»[19]. وهذه السمة كانت ظاهرة في أنشطة وإسهامات الطلبة الزيتونيون الجزائريون الأدبية والفكرية والسياسية، ولاسيما ما ظهر منها قبل الثورة، لأن ظاهرة التمسّك بالدين وبالعروبة، أخذت في هذه المرحلة ارتباطها الوثيق بفكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل جزائر عربية إسلامية.

2.3. الأدوار السياسية والنضالية ذات البعد الوطني:

شعر الطالب الزيتوني منذ اندلاع الثورة التحريرية وهو في رحاب جامع الزيتونة بالمسؤولية الوطنية التي تتطلب منه التضحية بعد الأخرى والنضال المستديم وقوة الإرادة والنشاط لمواجهة سياسة الاحتلال الفرنسي في وطنه، كما شعر الطالب الجزائري في تونس في هذه الظروف أنه "مجند" موضوع في الاحتياط ينتظر من يوم إلى آخر التخلي عن الكتاب والكراس والقلم ليحمل البندقية ويلتحق بإخوانه في الجبال. ولو فتحت الجبهة الباب على مصراعيه لانخرط الطلاب فيها لما بقي طالب واحد في الجامع الأعظم أو غيره من الجامعات التي كانوا يدرسون بها لكن ذلك لم يحدث لعلم الجبهة وإدراكها لمنافع العلم والمعرفة، وما سيترتب عن ذلك من فوائد جمَّة لعل أهمها تكوين إطارات جزائرية كفأه تستطيع تحمل عبث المسؤوليات الجسام في مرحلة ما بعد الثورة، وعلى الرغم من ذلك وبمبادرة شخصية منهم تخلى بعض الطلاب عن دراستهم والتحقوا بوسائلهم الخاصة بصفوف جبهة التحرير الوطني أو عن طريق عبد الكريم الخطابي الذي تولى التدريب العسكري لكثير من الطلاب الجزائريين قبل التحاقهم لتأدية واجبهم الوطني، وتطوَّع الطلاب الزيتونيون عسكرياً في الثورة يعود تاريخه إلى الشهور الأولى لاندلاع الثورة التحريرية.

ويدّعي أحد الكتّاب الفرنسيين أن القائد عميروش قد صرّح لضابط عسكري فرنسي، كان الثوار الجزائريين قد ألقوا عليه القبض إثر معركة من المعارك الضارية التي خاضوها ضد عساكر الاحتلال بما يلي: «إذا فقدنا الحياة فليس لذلك من أهمية على الإطلاق لأن قوتنا الحقيقية تكمن في شبابنا المثقف وفي النخبة الشابة التي تتعلم حالياً في خارج البلاد ومن أجل هؤلاء فقط أشعلنا ضد فرنسا نار الحرب..»[20]، وإذا تبيّن فعلا أن هذا القول للقائد عميروش نفسه، فإننا نجد فيه أكثر من دلالة وإشارة إلى الاهتمام الكبير الذي أعطته الثورة لشبابها المثقف.

وقد جاء في الكلمة التي ألقاها فرحات عباس بمناسبة انعقاد المؤتمر الرابع للاتحاد العام للطلبة الجزائريين في نهاية شهر جويلية وبداية شهر أوت سنة 1960م في تونس ما يلي:

19- شريط (عبد الله)، **الأدب العربي الحديث"، الأصالة**، ع13، الجزائر: 1973م، ص54.

20- شريط (عبد الله)، **الأدب العربي الحديث، مرجع سابق**، ص54

«... كوّنت الثورة الجزائريين من بينكم (يقصد الطلبة الحاضرين) أعداداً من التقنيين في ظرف ستة سنوات فاق الكثير تلك الأعداد التي كوّنها الاستعمار الفرنسي خلال (130 سنة) مرّت على احتلاله للوطن...». يقول الشيخ أحمد حماني «.. لقد كان في جملة الذين استجابوا لصرخة الجهاد علماء الجزائر وطلابها في الداخل والخارج، حيث أذاع راديو القاهرة مساء يوم 1954/11/15م نداءً موجهاً من رئيس جمعية العلماء إلى الشعب الجزائري يبصّرهم بعدوّهم ويذكّرهم بأعماله ونواياه وبتاريخه ويناشدهم أن يتابعوا الجهاد.... وقد كان من خريجي جامع الزيتونة منذ عودتهم إلى الجزائر في طليعة المجاهدين، وكان لهم ميدانهم في التربية والتكوين وفي المحافظة على القومية والأخلاق والدين ووحدة الصفوف متراصّة ومحاربة كل وسائل التخريب والفساد واليأس والقنوط وكلّ عوامل الهزيمة وخراب النفوس، كل ذلك من أعظم وسائل إعداد الشعب للجهاد والوصول إلى شاطئ السلامة»[21]، ويوم قامت أخذ خريجوا الجامع الأعظم يتسللون من صفوف الدراسة إلى صفوف القتال وبعد سنتين لم يبق منهم إلا القليل، ومنهم من قضى نحبه ومنهم من بلغ في القيادة أعلى المراتب، وفي هؤلاء الأساتذة من خاض الكفاح وخرّ في الميدان شهيداً ومنهم من انتظر وبلغ القمة في بناء دولته، وفيهم من أكلته المنافي والسّجون ومن اصطادتهم رصاصات الظلم.

ومن بين هؤلاء الطلبة الشهداء والذين أذكرُهم هنا إنما هم قطرة من يم وطائفة من عرموم فمنهم من اعتقلوا وعذّبوا أشنع تعذيب ثم أعدموا في أماكن معروفة أو مجهولة، ومنهم من سقطوا في معارك الكرامة والجهاد وهم يحاربون في الجبال والهضاب والتلال[22]، من أمثال:

• **من تبسة** (بدري عبد الحفيظ، وبودبوز يوسف بن صالح، وبورناني سليمان بن عمارة بن أحمد، والشهيد التبسي العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات، وحراث بن جدو بن الأخضر، وحمدادو محمد الهادي(الذي كان ضمن طاقم سفينة أتوس التي أوقفتها السلطات الفرنسية وهي تقترب من السواحل المغربية محملة بالأسلحة في أكتوبر 1956م، حيث قبض عليه وظل معتقلاً ولم يطلق سراحه إلا بعد وقف إطلاق النار)، وحواس الطاهر وحواس المدني (العضوين البارزين في جمعية البعثة الجزائرية الزيتونية)، وخالدي الطاهر بن العربي، وخالدي محمد أمين، وخذيري عبد السلام بن عبد الله، وخليف الحسين بن دحمان، وروابحية إبراهيم بن الهامل بن أحمد، وروابحية محمد حامد(عضو البعثة الخارجية للثورة، وأحد أنشط الصحفيين في جزائر الثورة)، وزروال محمد بن

21- حماني (أحمد)، **شهداء علماء معهد بن باديس**، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م، ص5.

22- للتوسع أكثر في قوائم شهداء الثورة من الزيتونيين راجع: -محمد الحسن فضلاء، **المسيرة الرائدة للتعليم العربي**، ج1، ج2 ج3، ج4. مرجع سابق.

عثمان (إطار في جيش التحرير، وواحد من أبرز من أرَّخ للثورة الجزائرية خصوصاً في المنطقة الشرقية)، والساسي علي(الذي أعتقل مع الشيخ العربي التبسي)، سعدي الصديق بن الطاهر(الصحفي المرموق)، وسعدي الطاهر بن إبراهيم حراث(الذي كان منسقاً عامًا لجميع الوزارات داخل تنظيم الحكومة الجزائرية المؤقتة منذ 1960م إلى سنة 1962م)، والدكتور سعدي عثمان (الذي كان أميناً دائماً للمكتب العسكري للثورة بالقاهرة)، وسلطاني عيسى، والشبوكي محمد بن عبد الله بن عمار (صاحب رائعة جزائرنا يا بلاد الجدود، نهضنا نحطم عنك القيود)، وعلية معمر(الذي أعتقل مع الشيخ العربي التبسي، وكان يُعد حتى وفاته عام 1975م العلبة السوداء لجمعية العلماء المسلمين)، وفارس الحبيب الذي كان مكلفاً بمهمة ممون للثورة التحريرية في بدايتها بالمنطقة، وتجنيد الشباب، وقواسمية محمد الطيب، وكلاع محمد الطاهر الذي كان متخصصاً في في التدريب العسكري، شارك في الحرب العربية الإسرائيلية سنتي 1967م و1973م.من مؤلفاته: صرخة من أعماق مجاهد(شعر)، ومحفوظي محمد المناضل السياسي الشرس في حزب الشعب الجزائري والمظلوم تاريخياً، ومزهودي إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الذي كان من مساعدي زيغود يوسف وحضر معه مؤتمر الصومام يوم 20 أوت 1956م ضمن وفد الولاية الثانية، وقد تقلد عدة مسؤوليات في الثورة التحريرية وصار برتبة رائد في جيش التحرير الوطني، ثم صار عضوا في مجلس الثورة منذ مؤتمر الصومام، حيث كلفه المرحوم زيغود يوسف بتبليغ قرارات مؤتمر الصومام إلى الولاية الأولى، والعمل على إصلاح أوضاعها القيادية بعد استشهاد المرحوم مصطفى بن بوالعيد شهر مارس 1956م، ثم كلفه بمواصلة مساعيه نحو الثوار بتونس، حيث أشرف هناك على القسم العربي من صحف الثورة [المقاومة، المجاهد]. وعند تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة سنة 1959م التحق بديوان الرئيس فرحات عباس، ومسعود بن عمر بن عبد السلام، ومطروح العيد بن أحمد بن سالم الذي كان من المعتقلين مع الشيخ العربي التبسي ونجا بأعجوبة من التصفية، وهوام علي الذي كان من المحكوم عليهم بالإعدام وقت الثورة وتمكن من الفرار باتجاه الحدود التونسية، وظل يعمل مع الثورة كمحافظ سياسي لجبهة التحرير بتونس إلى غاية الاستقلال، وغيرهم كثير).

• من وادي سوف: (إبراهيم بن سليمان بن ميدقية، والأزهاري بن عمر بن محمد أحد أهم الناشطين في جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين بتونس، وابن الأطرش العيد بن الطاهر بن بلقاسم العضو النشيط في جمعية الشباب السوفي الزيتوني، والأغواطي أبو بكر حاج عيسى الذي أُلقي القبض عليه أثناء الثورة التَّحريرية مع الشيخين: أحمد شطة، والحسين زاهية يوم **15** أوت **1958**م، حيث لقوا جميعا أنواعًا من التعذيب والإهانة، ومنهم من أُعْدِمَ كالشيخ أحمد شطة(رحمه الله)، وباوية محمد الصالح بن مسعود أصيل بلدة

المغيّر، والذي نجهل مصيره إلى حد الآن منذ اختفائه القسري سنوات العنف الدموي التي عرفتها الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، هذا الشاعر الفحل وطبيب العظام المتميز كان من الطلبة الناشطين في إطار فرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بسوريا، وبكوشة حمزة بن البشير (شنوف) الصحفيّ اللامعُ، والناقدُ الخبيرٌ، صاحب جريدة المغرب، ورائعة (ما رأيت وما رويت)، الذي اعتقل سنة 1957م، والشهيد بوحنية أحمد بن محمد بن علي أصيل بوغلانة كان واحداً من أبطال معركة السخونة الشهيرة، وبوزقاق عثمان بن الأخضر الذي كان أحد أعضاء اللجان المدنية التابعة لجبهة التحرير والمكونة من السادة: مصرلي قانة، الشيخ عبد المجيد حبة، الشيخ لزهاري ثابت، محمد بالصحراوي (حمة ساسي)، الحاج عبد القادر زغيدي، قرميط عبد القادر، العيد بالرمضان، سي عبد الله بن عمر قسوم، سي الطيب بوزقاق الدراجي بدرة، ومحمد حبة...الخ، وبوصبيع عمار بن العايش بن صالح الذي تولى خطة رئيس بجمعية الشباب السوفي بتونس سنة 1949م، وتُرعة جمال الدين بن الصادق بن أحمد القماري من الطلبة الناشطين في إطار جمعية البعثة الجزائرية الزيتونية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتونس، والتليلي محمد الطاهر بن بلقاسم بن الأخضر بن عمر بن أحمد القماري الذي اعتنى المرحوم أبو القاسم سعد الله بجل مؤلفاته، لكن بعض كتبه ما زالت في حدود علمي مخطوطة مثل قواعد البيان في الثابت والمحذوف في القرآن، على رواية ورش)، و(زهرات لغوية من كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني) و(مجموع الأمثال العامية) و(معجم الكلمات العامية الدارجة في الصحراء الجزائرية) و(شواهد الكلمات العامية من اللغة العربية الفصحى) وسماه أيضا بالقول الفصل في ردّ العامي إلى الأصل"، وهو مخطوط بلغت صفحاته أكثر من مئة صفحة، و(تلخيص كتاب الأضداد للمتوزي وهو مخطوط نظم متن الاستعارات للسمرقندي. الدرر الملكية في الدراري الفلكية. حديث المسامر في صروف بن عامر، لخص فيه كتاب الصروف لإبراهيم بن عامر، و(تاريخ منطقة وادي سوف)، وهو مخطوط، و(الكشكول)، ضم فيه تراجم لعلماء من الجزائر وتونس (مخطوط). و(تراجم علماء قمار)....و ثابت الأزهاري بن الأخضر الذي كان أحد أعضاء اللجان المدنية التابعة لجبهة التحرير بمنطقة وادي سوف، والشهيد جعفري يوسف بن بلقاسم أصيل جامعة الذي كان من السباقين في الانخراط في صفوف الثورة رفقة أخيه المجاهد عبد القادر الذي كان يعتمد عليه كثيراً في تحمل وتقاسم أعباء الثورة، بالإضافة إلى مجموعة من رفاق دربه كبسرة محمد، ومرشد محمد العيد، وسلطاني صالح، وبن علي العيد، والشهيد بنونة الدراجي..... فقد كان عضواً قياديًا بارزاً في اللجنة الأولى لقيادة العمل بمنطقة جامعة في نهاية عام 1954م، ثم رقي إلى مسؤول في اللجنة العامة إلى غاية استشهاده في أكتوبر 1957م، وحمادي الحسين بن علي بن حمادي بن العزال، وفيلسوف الثورة التحريرية حمانة البخاري بن حمانة الشافعي بن محمود، وحماني بلقاسم بن أحمد الحناشي السوفي، وخليفة الجنيدي بن عمار المؤسس لفرع

الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بتونس، وخيران علي بن سعد، وقاضي الثورة دربال محي الدين بن عبد الحفيظ، أصيل بلدة الرباح، ورزاق لبزة العلمي بن الطيب بن محمد الصغير الذي يشهد له التاريخ بنشاطه المبهر الذي قدمه للقضية الوطنية الجزائرية من خلال العمل الكشفي في تونس وفي غيرها، وصديقه في الكشفية الشهيد سعيد عبد الحي بن الطاهر، والشريف محمد الطيب بن الشيخ الأمين بن الشيخ الإمام من مواليد بلدة الرباح الأمين العام لجمعية الطلبة الجزائريين بتونس عام 1955م، وكان من المنخرطين الأوائل لجبهة التحرير حيث كلف بمهام التعليم والتوجيه، وقد كان معه حينها شكيري علي بن عمر بن أبي بكر القماري الذي تولى حينها خطة مراقب عام للجمعية الطلابية ....وغيرهم كثير.

ولما كان خريجي الزيتونة هم روّاد الفكرة العربية الإسلامية في الجزائر في العصر الحديث، ولما كانت جبهة التحرير الوطني قد اعتنقت هذه الفكرة وجعلتها الأساس في الثورة، فإنهم قبِلوا العلماء كأعضاء في الجبهة، وقد وضع هؤلاء العلماء أنفسَهم تحت تصرّف الجبهة لحظة اندلاع الثورة، وذلك في اجتماعهم الذي دعا إليه توفيق المدني في قسنطينة لتأييد الثورة.. وقد أخبرهم المدني أن دورُهم القديم كدعاة ينشرون الفكرة العربية الإسلامية قد انقضى وأن واجبهم هو وضْع أنفسهم تحت تصرّف الجبهة وقد حظيت فكرة المدني هذه بتأييد جميع الأصوات.[23]

كما أدى الشيخ الزيتوني إبراهيم مزهودي دوراً هاماً في اتصال العلماء بجيش التحرير الوطني الجزائري، وقد وصل في مشاركته في الثورة إلى حد توليه منصب القائد المساعد للولاية الثانية، ولما كان الزيتونيون بالأخص روّاد الفكرة العربية الإسلامية في الجزائر التي اعتنقتها الجبهة لذا كلّفتهم الجبهة بالعديد من المهام، فقد أرسلت توفيق المدني إلى المشرق العربي مع اتخاذ مصر قاعدة للعمل، كما كلّفت الزيتونيان محمد الغسيري وعبد الحميد مهري بالعمل التوعَوي في دمشق.

وإذا كانت سنة 1956م تمثّل تاريخًا فاصلاً في انضمام الطلبة الدارسين في المدارس الفرنسية للثورة فإن إخوانهم الذين كانوا يدرسون في المدارس الحرّة ومعاهد المغرب وتونس والمشرق العربي قد انضموا للثورة منذ اندلاعها، ويمكن مراجعة بعض أسماء الشهداء الأوائل كما يمكن مراجعة بعض أسماء قادة الثورة الأوّلين أيضًا فسنجدهم ممن درسوا في معهد ابن باديس أو في المعهد الكتاني أو ممن درسوا في المدارس الوطنية الأخرى، أو ممن ترك مقاعد الدراسة في الزيتونة والقرويين ومعاهد الشرق[24]... راجعوا أسماء من دخل الجزائر على ظهر الباخرة (دينا) سنة 1955م أو على ظهر الباخرة (لاتوس) سنة 1956م

23- بن نعمان (أحمد)، **مولود قاسم نايت بلقاسم**، ط2، الجزائر: در الأمة، 1997م، ص20.

24- سعد الله (أبو القاسم)، **خارج السراب**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م، ص86.

وكلتاهما كانت محمّلة بالسلاح للثورة، وهناك غير هاتين الباخرتين وابحثوا عمّن كان يشرف على تهريب السلاح إلى الجزائر عبر ليبيا وتونس، لقد كان ذلك كله قبل 19 ماي 1956م.

وبالإضافة إلى ذلك كان الطلبة الجزائريون أصيلي الجنوب الشرقي في المشرق العربي على صلة وطيدة وتنسيق تام مع وفد جبهة التحرير الوطني بالخارج، وقد استشهد العديد منهم بعد دخولهم الجزائر وتقلّدهم السلاح في السنتين الأوليين للثورة وقبل (19 ماي) وفي وقت لاحق أسّس أولئك الطلبة مع إخوانهم الطلاب من مختلف مناطق الوطن رابطة باسمهم هي (رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي)، ضمّت فروعهم في القاهرة وسورية والعراق والكويت... وكانت تعمل بالتنسيق مع جبهة التحرير الوطني، ولكن المصلحة الوطنية اقتضت توحيد الصفوف الطلابية في منظمة واحدة هي (الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين) بإشراف الجبهة[25]، ومن ذلك يتّضح أن دراسة الحركة الطلابية الجزائرية يجب ألا تبسّط إلى الحد الذي يجعل من 19 ماي 1956م هو الخط الفاصل بين عهدين بالنظر إلى انضمام الطلبة للثورة، فإذا كان ذلك صحيحاً بالنسبة لبعض الطلبة فإنه ليس صحيحاً بالنسبة لجميعهم.

ويروي الأستاذ يحي بوعزيز عن دوره في إضراب الطلبة الشهير يوم 19 ماي 1956م في أوساط الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة... ويؤكد بذلك عن المساهمة الكبيرة التي قدمها الطلبة الزيتونيون لدعم الثورة «وقد نفّذ الإضراب العام في الجزائر وتونس، وكنت آنذاك طالباً بجامعة الزيتونة في تونس ومسئولا في جمعية الطلبة الجزائريين شاركت مع عدد من زملائي الطلبة في مراقبة تنفيذ الإضراب في مؤسسات التعليم التونسية، وقد وجدت صعوبة كبيرة في إخراج الطالب "طيطونة مبارك"، من المدرسة الخلدونية حيث كان يؤدي الامتحان، ولم أقنعه بالخروج إلا بعد أن ساعدني الأستاذ التونسي المشرف على الامتحان في إقناعه بأهمية عدم خرق إجماع الطلبة فامتثل وخرج».[26]

ومن الزيتونيين الرواد السوفيين المؤسسين للإتحاد العام لطلبة الجزائريين وفروعه، نذكر: خليفة الجنيدي بن عمار، أبو القاسم سعد الله،... وغيرهم كثير، وعقب إضراب فيفري 1957م الشهير أعلنت جمعية الطلبة الجزائريين بتونس الإضراب لمدة أسبوع في نداء وجّهته للطلبة الجزائريين بتونس إعلانا عن تمسّكهم بالثورة والشعب الجزائري، كما أعلن المعتقلون الجزائريون بتونس إضراب الجوع أُسوة بإخوانهم المساجين السياسيين بسجون الجزائر وتضامنهم مع شعبهم المكافح».[27]

إن الطلبة الجزائريين عموماً واكبوا الثورة المسلحة وتلاحموا معها التحامًا عضويًا من

25- السابق، ص87.

26- مقابلة مع الأستاذ يحي بوعزيز.

27- **المقاومة**، ع7، الجزائر: 1957/02/16م.

أولها إلى آخرها وأدّوا دورًا بارزًا مشرفًا في كل معاركها العسكرية والسياسية والتنظيمية داخل الجزائر وخارجها وضحوا بالغالي والنفيس في سبيل إنجاحها وانتصارها وقدّموا شهداء عديدين يعدّون بالعشرات والمئات وعانوا كل ما عاناه شعبهم من الآلام والتعذيب والتشريد والتقتيل إلى أن تحررت بلادهم وشعبهم وتحقق الاستقلال الوطني، كما أن أهم سِمة وصفة فصلوا بها أنفسهم عن الطلبة الفرنسيين الأوروبيين المستعمرين هي الإسلام... وسمّوا اتحادهم العام للطلبة المسلمين الجزائريين، كما فعل العلماء الجزائريون قبلهم بربع قرن عندما سموا هيئتهم، ودادية الطلبة المسلمين في الجزائر، وذلك أن الإسلام كان أكبر واق وحاجز للشعب الجزائري في كفاحه لطمس الشخصية الوطنية للجزائر وشعبها وفرنسة الشعب الجزائري وتنصيره وتمسيحه[28].

مما تقدّم نخلصُ إلى القول أن الطلبة الزيتونيين الجزائريين حاربوا ضد جهات كثيرة كان أقواها الاستعمار الفرنسي وأعوانه، ولكنّ ذلك لم يمنع الطلبة من القيام بدور تاريخي مشرّف، إذ شاركوا في صفوف الثورة مجاهدين مثلما كانوا أحسن صوتٍ مثّل الجزائر في الخارج بالمحافل الدولية بواسطة التنظيمات الطلابية التي أسّسوها، ولم يمنع ذلك الطلبة من مواصلة التحصيل العلمي في ظروف قاسية وتمكّنوا من إدارة شؤون البلاد بعد الاستقلال مثلما قاموا بدور متفرد في التاريخ بمساهماتهم في بناء وتشييد الدول التي تمدرسوا بها، ومن ذلك ما قاموا به في تونس حيث قادوا حركة النضال السياسي والصحفي والفكري التونسي وسيّروا كثيرًا من دواليب إدارتها.

إذن تبلوّر الصراع بين النخبة الزيتونية وبين إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر حول الأمور التالية:

- حرية عمل النخبة في إطار الدعوة بالوعظ والإرشاد في المساجد.
- حرية التعليم العربي.
- مقاومة سياسة التجنيس والتنصير التي اتبعتها فرنسا في الجزائر.
- حرية النوادي تأسيساً وتمويلاً ونشاطاً.

لقد كانت هذه المسائل الأربعة بصفة عامة هي مدار الاحتكاك والصراع بين النخبة الزيتونية (بأشخاصها ونواديها وصحافتها) من ناحية وإدارة الاحتلال على اختلاف المسؤولين عنها من ناحية أخرى، منذ تخرّج كل دفعات التحصيل من جامع الزيتونة وعودتها إلى الجزائر إلى غاية قيام الثورة الجزائرية 1954م، لقد كانت فرنسا قبل بناء النهضة الإصلاحية وبالخصوص قبل منشأ (ج.ع.م.ج) تستهين برجال الدين الإسلامي بوجه عام

28- بوعزيز (يحي)، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر: د.م.ج، 1999م، ص 369.

وتعتبرُهم أناسٌ غير ناضجين سياسياً أو على الأقل تنقصهم الثقافة الحيّة والواعية لمحاربتها والعمل على إفساد خُططها سواءٌ ثقافية أو اقتصادية أو سياسية تجاه الشعب الجزائري ولذلك لم تعترض في البداية على توجيه الرحلات العلمية إلى جامع الزيتونة أو إنشاء خريجيها بعد عودتهم لمدارس حرة، وصحافة مستقلة أو على تكوين جمعية العلماء ومنحها رخصة العمل، غير أن الأمور تغيّرت بعد تصاعد المد الإصلاحي والتربوي في منتصف الثلاثينيات.. حيث بدأت إدارة الاحتلال تغير من سياستها تجاه الأنشطة واعتبرتها فيما بعد معادية للمصالح الفرنسية في الجزائر[29]، ولقد تمثّلت الخطط الفرنسية المضادة لضرب أعمال النّخبة الزيتونية ومن خلالها ضرب الشخصية الجزائرية ومقوّماتها.

• استولت على معظم المعاهد والمدارس الحرّة الموجودة بالجزائر وإخضاعها للمراقبة والمتابعة المباشرة.

• تصفية معاهد الثقافة العربية وقصْرها على ثلاث معاهد في قسنطينة والجزائر وتلمسان.

• إحلال الثقافة الفرنسية والمسيحية محل الثقافة العربية الإسلامية.

• عدم الاعتراف بشهادات خريجي الزيتونة خصوصاً في التوظيف التعليمي المسجدي والتضييق على أصحابها واعتبارهم متمرّدين وعُصاة.

• الاستيلاء على أراضي الحبوس التي كانت تموّل المؤسسات التعليمية الجزائرية مالياً وثقافياً مما أدى إلى تصفية الأخيرة.

• محاولة فرنَسة المناطق البربرية بعزلها عن المناطق العربية ومنع نشر الثقافة العربية الإسلامية فيها حتى يسهل بالتالي القضاء على شخصيتهم الوطنية.

• تصفية معاهد تعليم العربية الحرّة واضطهاد معلميها بقصد صرفهم عن العمل في معاهد التعليم الحر، والتقتير في منحهم رُخص العمل، كما قامت فرنسا بتعطيل النوادي العربية الحرّة التي تقوم بنشر اللغة العربية بين الشباب.

• دعم الطرقية الصوفية المنحرفة؛ مما أدى إلى إفساد الفطرة الإسلامية وتفكيك روح الأخوّة الإسلامية والخضوع للاستعمار وتشويه صورة رجالات الإصلاح لدى كثير من أتباع هذه الطرق.

• رفض فرنسا العلمانية منذ 1789م مبدأ فصل الأديان الخاصة بالدولة على الديانة الإسلامية التي أبقتها تحت سيطرتها المباشرة كما حاولت تنصير البربر بمنعهم من تعلّم اللغة العربية ومنع العلماء خصوصاً من خريجي جامع الزيتونة من التدريس إليهم وهكذا تلعب

29- بلاسي (أحمد)، **الاتجاه**، مرجع سابق، ص33.

فرنسا دوراً دينياً جديداً مع ديانة لا تَفهمُ فيها شيئاً سوى الاضطهاد[30].

أما عن استئصال عوامل هجرة الطلبة الجزائريين إلى الزيتونة والحيلولة دون التحاقهم بهذه المؤسسة، يرد الحاكم العام الفرنسي للجزائر على وزير الداخلية الفرنسية بما يلي: « أحول دون هجرة الطلبة إذا توفرت لدي الوسائل الناجعة لمنع هذه الهجرة... ولكن هؤلاء الشبان يمتنعون كلهم عن طلب رخص الخروج من الجزائر (أو جواز السفر)... يسافرون بطرق-غير شرعية- وليس لدينا أية وسيلة لمنعهم من مغادرة إقامتهم نحو أي بلد كان، ومما يحول دون فرض رقابتنا عليهم هو أنهم لا يسافرون عن طرق البحر أين نستطيع أن نراقبهم في الموانئ ونلقي عليهم القبض لعدم إحرازهم على جواز سفر ولكنهم يضعوننا أمام مشكلة حقيقية عندما يسافرون عبر البر...».[31]

ولم تتوقف هجرات الطلبة الجزائريين إلى الزيتونة ونيران الحرب العالمية الأولى مشتعلة ورغم الأخطار والصعوبات والعراقيل التي وضعها قانون (1914/07/15)م الذي ألغى نهائيا رخص السفر إلى الخارج، وألزم كل الأهالي بالاستقرار في مناطقهم الأصلية، استمرت هجرة الطلبة الجزائريين إلى تونس والتحق بعضهم بجامع الزيتونة متحديا المخاطر والتعب والإرهاق مشيًا على الأقدام.

واختلفت العقوبات التي سلطتها الإدارة الاستعمارية على هؤلاء المهاجرين إلى تونس باختلاف انتمائهم الجهوي، وبالنظر إلى ما لديهم من قوّة مادية وجاه، فمنهم من كان يرمى في غياهب السجون لمدة غير محدودة، ومنهم من كان يسجن لمدة معيّنة بعد إحالته على المحاكم الفرنسية ويُفرج عنه مقابل غرامة مالية، بل فيهم من سجن بدون محاكمة، ومنهم من لم يتعرض لهذا التعسف والإجحاف لما كان يلقاها من مساعدة مادية ومعنوية من طرف ذويه وأهله فيُفرج عنه وقت رجوعه إلى الجزائر، وتعتبر قضيته منهية، ولكن الذي يهمّنا هو مدى تأثير هذه الإجراءات التعسفية الفرنسية على المهاجرين الجزائريين، أو بالأحرى على الذين كانوا يرغبون في الهجرة.

أما الجانب الإداري فكان هو الآخر يشكل عائقا أمام الطلبة الراغبين في التنقل من الجزائر إلى تونس للدراسة بجامع الزيتونة، حيث كان يشترط أن تمر طلبات الدراسة على المصالح المختصة التي تحيلها إلى الإقامة العامة الفرنسية بتونس ومن ثم إلى مشيخة الجامع الأعظم، وتتعدد القنوات التي تمر بها طلبات الطلبة الراغبين في الدراسة بالزيتونة

30- للتوسع يراجع: - الجزايرلي (يوسف)، **الجزائر أرض البطولة**، مصر: الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب، ب.ت، ص.ص (575- 576). - بلاسي (أحمد)، **الاتجاه العربي**، مرجع سابق، ص.ص(33- 49).

31- أرشيف ما وراء البحار، أكس. آن. بروفانس، 14هـ - 41 (42). رسالة إلى الحاكم العام إلى وزير الداخلية بدون تاريخ، نقلا عن: هلال (عمار)، "الطلبة الجزائريون في الأزهر عام 1916م"، **الثقافة**، ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م، ص137.

وفي تعدد هذه القنوات كثيرا ما تضيع على الطالب الفرصة نتيجة الإجراءات الإدارية الروتينية نظرًا إلى أن بعض الطلبات تكون ناقصة لبعض الوثائق أو تكون على شكل طلب إرشادات.

فقد ورد في مراسلة موجهة من طرف القنصلية الفرنسية بسوق الأربعاء (جندوبة حاليا) إلى وزير الخارجية الفرنسي تحت رقم 3202 بتاريخ: 1900/12/22م، ذكر لعدد من الطلبة الجزائريين تم إبعادهم من تونس في حواجز أمنية قرب الحدود في الداخل التونسي.. حيث تم طرد الطالبين: "اليلمامي محمد" و"بن جبة البشير بن العايب" و"مرزوق ربيعة"، «طبقا للإجراءات المتخذة في 23 نوفمبر الأخير [يقصد سنة 1900] لي الشرف أن أعلمكم بأنه تم رفض وإبعاد الأشخاص الآتي أسمائهم: اليلمامي الصالح بن محمد، وبن جبّة البشير بن العايب، حال وصولهم إلى الحدود.. أما المعروف بمرزوق بن ربيعة بن محمد السعيد فلم نتحصل بعد على معلومات شاملة عنه بخصوص وصوله إلى تونس»[32]، ووقّع على هذه المراسلة المراقب المدني بالقنصلية الفرنسية.

وقد سبقت هذه المراسلة مراسلة أخرى تحت رقم 3118 بتاريخ: 1900/11/08م من ذات القنصلية موجهة إلى ممثل الحكومة العامة بخصوص منع الطلبة الجزائريين من السفر في حال عدم حيازة التراخيص المطلوبة وتضمّنت هذه المراسلة شرح مفصل عن الطالب السابق الذكر (مرزوق بن ربيعة) والذي تبيّن أنه طالب بجامع الزيتونة كان قد قطع الحدود مشيًا على الأقدام وبدون ترخيص عن طريق بلدة سوق أهراس، وعندما التحق بالجامع غيَّر اسمه حتى يتملص من رقابة الشرطة الفرنسية وكانت شرطة الحدود قد رمزت له بالمسافر رقم 2796.[33]

وللقضاء على النشاط الطلابي الجزائري بالجامع الأعظم اقترح المقيم العام على وزارة الشؤون الخارجية بباريس التخفيض من عدد الطلبة الجزائريين بالعاصمة، بواسطة تحديد قبول المترشحين سواء بجامع الزيتونة ذاته أو بمدارس سكنى الطلبة الموجودة بالعاصمة «وسينجرّ عن ذلك حتماً إقصاء عدد كبير من الشبان عن الجامع الأعظم بتونس وهو أمر ملائم لنا إلى أبعد الحدود»، فقد تمّ في 1925/11/28م طرد أربعة (04) طلبة من الجامع الأعظم ضمت بالإضافة إلى الطالب الجزائري عبد الرحمان اليعلاوي كل من: العربي القروي ومحمد النجار، وأحمد الشطي.[34]

---

32 - A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, doc n° 07.

33 - A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, doc n° 03.

وللتوسع أكثر في هذه الإجراءات التعسفية ضد الطلبة الجزائريين يراجع:

A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, N°P 70.

34- العياشي (المختار)، **الزيتونة**، مرجع سابق، ص224.

وورد في إحدى الوثائق الأرشيفية قائمة بأسماء الطلبة المرفوتين من جامع الزيتونة والمتعرّضين للتتبعات العدلية من أجل نشاطهم السياسي خلال الفترة (1910- 1945)م وهذه القائمة تعطينا إحصاء مهم للوجود الطلابي الجزائري وتأثيره القوي في الساحة الزيتونية، قياساً بردّ السلطات عليه (الرفت)، والذي لا يكون إلا نتيجة لتحرك نشيط تراه مشوباً بالخطر على مصالحها، واعتماداً على هذه القائمة نجد أنه من مجموع (203) زيتوني مرفوت نجدها تضم (91) طالب جزائري بما يعادل تقريباً 50% أي نصف المرفوتين من الجامع خلال هذه الفترة وهي نسبة كبيرة جداً، إذا ما قارناها بعدد الطبلة الجزائريين القليل والتونسيين الكثيف في الجامع، وهذا دلالة أخرى على حركية العمل السياسي والنقابي الطلابي الجزائري في رحاب جامع الزيتونة هذا مقابل 105 طالب تونسي وسبعة (07) طلبة مغاربة.[35]

وجاء في مذكرات السبتي بودوح «كان الطلبة الجزائريون متبوعين ومراقبين من طرف البوليس السري الفرنسي بالأخص الأوراسيون الذين كان مقر سكناهم معروفاً لدى الجميع، فالبوليس السري كان ينتقل من مكان لآخر صاغياً بكل جوارحه ومتتبعاً لما يدور من أحاديث على الثورة من طرف الطلبة الذين كانوا متعطشين وملهوفين لسماع نشاط جيش التحرير الوطني، وكل من سمع خبراً أو حكاية إلا وأسرع ليخبر بها رفاقه وكان له ذلك بمثابة مشاركة في القضية كما يعتبر ذلك فخراً له حيث أتى يسر كل وطني وكل غيور على بلاده، وفي هذا الجو المليء بالمخاطر كان الطلبة الجزائريون يزاولون التعليم جاهلين ما يحيط بهم من مخاطر وأعين الاستعمار التي لا تنام ولا تغفل أو تهمل أي صغيرة أو كبيرة، وأكبر دليل على ذلك أنه ذات يوم بوغتنا بغياب أحد زملائنا ألا وهو (رحماني محمد الصغير)، الأوراسي الأصل فقد اختطفه البوليس السري ولسنا نعلم متى؟ وكيف؟ وسافر به من تونس إلى باتنة حيث أودع السجن وأصبح تحت وحشية الجلادين يعذبونه طالبين منه الإدلاء والكشف عن معلومات حول الثورة، وبقي مدة ليست بالقليلة في السجن ثم أطلق سراحه ورجع إلى تونس...».[36]

وقد اعترف الكتّاب الفرنسيون بعد قيام الثورة في الجزائر سنة 1954م عند تحليلهم لأسبابها ودوافعها بما قامت به إدارة الاحتلال من محاربة المدارس العربية وإغلاقها بدون سبب وجيه ووضع معلميها تحت مراقبة الشرطة أو اعتقالهم حيث أعلن ميتران قائلاً:«لقد خرجنا بحقيقة لا غُبار عليها ألا وهي أن الدولة الفرنسية تعمل على قتل اللغة العربية وعلى تحطيم الدين الإسلامي وعلى تجهيل الأمّة والعلماء يعملون على خط مناقض للخط الحكومي فهم يقومون بالجهود المحمودة لإحياء الإسلام وتطهيره من الخرافات ونشر اللغة

---

35 - A.N.T, Série D, C25, Dossier 28.

36- بودوح(السبتي)، **مذكرات مجاهد**، الجزائر: مطبعة عمار قرفي، 2002م، ص19.

العربية ورفْع الأمية عن الأمة غير مبالين بالعقبات ووسائل الزجر والتنكيل».[37]

4. آثار وانعكاسات أدوار النخبة الزيتونية في الحياة الجزائرية

كثيُر من المؤرخين في الجزائر يربطون الإصلاح في الجزائر بجمعية العلماء، والواقع أن مفهوم الإصلاح أوسع من مفهوم جمعية العلماء كما أنه أقدم منها، فهو أوسع من مفهومها لأن عدداً من المثقفين كانوا مصلحين ولكنهم لم يكونوا أعضاء في جمعية العلماء وكانوا يخالفونها في بعض مبادئها وغاياتها، ومن جهة أخرى يعتبر الإصلاح في الجزائر أقدم من جمعية العلماء، فالجزائر عرفت عناصر كثيرة نشطت قبل الجمعية ودعت إلى الإصلاح وكانوا متأثرين بالحضارة الفرنسية من جهة وبتيار الجامعة الإسلامية من جهة أخرى، ولعل السبب في الخلط بين الإصلاح وجمعية العلماء كون هذه قد شخَّصت الحركة الإصلاحية في الجزائر وأعطتها دفعة جديدة ومدرسة جديدة لم يكن الإصلاح القديم قد قام بها، بالإضافة إلى أن جمعية العلماء قد ولدت نتيجة الحركة الإصلاحية وليس العكس.

والمدرسة الإصلاحية التي نقصدها قد ولدت بعد الحرب العالمية الأولى خصوصاً، نتيجة لعدة عوامل لعل أهمها هو عودة النخبة الجزائرية من المشرق بما فيهم الطلبة خريجي الزيتونة بعد أن تسلحوا بثقافة جديدة هدفها نشر التعليم وإحياء اللغة العربية وبث الإصلاح الديني والاجتماعي وإعداد الشعب لتولي مسؤولياته السياسية والقومية، ولما كان ابن باديس أسبقهم في العودة إلى الجزائر وأعرفهم بها فإنه شرع في مشروعه انطلاقاً من مدينة قسنطينة التي كانت بوابة الجزائر نحو المشرق حيث تنفتح على تونس مهد جامع الزيتونة وصلة الوصل بين المشرق والمغرب، وبسبب حاجة هذه المدرسة إلى هيئة تمثل الاتجاه العربي الإسلامي التقدمي بمفهوم ذلك الوقت يكون هدفها نقد المجتمع وتطهير الدين وفضح أساليب الاستعمار وبعث الشخصية الوطنية فكان أن تأسست جمعية العلماء المسلمين في سنة 1931م ضامة إليها مختلف العناصر الحية في أول أمرها، ولكنها سرعان ما أصبحت حكراً على الاتجاه الذي كان يمثّله ابن باديس والميلي والإبراهيمي وتلاميذهم خصوصاً منهم خريجو الزيتونة الذين كانوا يشكلون النسبة الأكبر من رواد هذه المدرسة الإصلاحية.

وأهم ميزة تميزت بها هذه المدرسة هو إيمانها بالوطنية الجزائرية، هذا الإيمان والعمل أيضاً هو الذي جعل المعاصرين لا يفرقون بين الإصلاح الثقافي والديني وبين الإصلاح السياسي فقد جعلت همها بعث الشخصية الجزائرية المتمثلة في الثقافة العربية والتعاليم الإسلامية الصحيحة[38]، وقد استخدموا وسائل كثيرة ومتنوعة لنشر دعوتهم منها الصحافة

37- **البصائر**، ع270، الجزائر: 1954/05/07م، ص1.

38- للتوسع يراجع: سعد الله (أبو القاسم)،" مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي"، **الثقافة**، ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م، ع79.

التي افتتحوا بها عهدهم وركّزوا عليها لنشر أفكارهم.

ويمكننا القول بأنهم كانوا في نفس الوقت مصلحين وصحفيين فابن باديس ابتدأ بنشر مقالاته في الإقدام ثم أسس المنتقد والشهاب وأنشأ مطبعة، وكانت مقالاته يغلب عليها الطابع الصحفي، كما ابتدأ المدني حياته بإنشاء (تقويم المنصور) في تونس ثم في الجزائر ثم المساهمة في الشهاب والبصائر، ونشر الشيخ سعيد الزاهري معظم مقالات كتابه (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير) في مجلة (الفتح) المصرية، فالصحافة عند هؤلاء كانت وسيلة رئيسية لبث مبادئهم، ولم تكن الصحافة العربية وحدها التي تحمل مبادئ الإصلاح بل كانت هناك صحف بالفرنسية أيضا، وعلى رأسها جريدة (الدفاع) التي كان يحررها الأمين العمودي ومنها جريدة (الشباب المسلم) التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد أثّر الزيتونيون تأثيراً كبيراً على الحياة الثقافية عامة، فكان لهم الفضل في نشر البيان العربي السائد عندئذ في المشرق وتصفية اللغة العربية في الجزائر من العجمة التي انتشرت فيها خلال عهد طويل على يد المستشرقين الفرنسيين والعلماء المزدوجين الذين كانت تغلب عليهم اللغة الفرنسية بحكم منطق (الغلبة للأقوى).

وقد ساهمت المبادرات الإصلاحية والتعليمية والثقافية بشكل أعم للنخبة الزيتونية في ربط الجزائري بماضيه وتذكيره بأمجاده وإحياء تراثه عن طريق الكلمة المكتوبة شعراً ونثراً، والكلمة المقولة، أما الكلمة المكتوبة فقد نشرها أصحابها عن طريق الوعظ والإرشاد في المدارس وعن طريق تشجيع الخطابة لدى التلاميذ وتمثيل المسرحيات التاريخية والاجتماعية ونحو ذلك كما كانوا هم أيضا يفعلون في مدارس سكنى الطلبة بتونس، ويعجزنا المجال لو أننا حاولنا هنا أن نتقصى كل مظاهر هذا النشاط ورصد أبعاده.

فقد تقدم فن النثر على يد هذه النخبة وأصبح لدينا على الأقل مدرستان لهذا النثر:

- مدرسة الشهاب المتميزة بالأسلوب الصحفي الديني.
- مدرسة البصائر المتميزة بالأسلوب الأدبي الاجتماعي.

وقد ظهر في كلا المدرستين كتاب تركوا بصماتهم في مجالات متعددة، ونذكر من المدرسة الأولى (الزاهري، الزواوي، أبو اليقظان، محمد الصالح رمضان...)، ومن المدرسة الثانية (المدني بوكوشة، عاشور الخنقي، محمد خير الدين...)، وفي ميدان القصة والرواية ظهرت بوادر طيّبة بين الحربين ازدادت نمواً ونضجاً بعد الحرب الثانية ويطول بنا الحديث لو مثّلنا لهذه الأنواع وحسبنا هنا أن نحيل على بعض المراجع المتخصصة[39]. كما أسهم

39- للتوسع راجع: الجابري (محمد الصالح)، **الأدب الجزائري في تونس**، ج1،ج2، تونس: بيت الحكمة، 1991م- ركيبي (عبد الله)، **الشعر الديني الجزائري الحديث**، الجزائر: م.و.ك، 1981م –وكتابه- **تطور النثر الجزائري الحديث**، الجزائر: م.و.ك، 1983م.- سعد الله (أبو القاسم)، **دراسات في الأدب الجزائري الحديث**، ط2، القاهرة: =

الزيتونيون في الكتابات الإصلاحية وغيرها من الموضوعات الدينية، ويتصل بالنثر أيضا تقدم الخطابة على يد أصحاب هذه المدرسة واشتهر في هذا الباب (الميلي، الزاهري، التبسي المدني...)، وممن عرفوا من خطباء الجيل الثاني: الفضيل الورتيلاني، عبد القادر الياجوري... وقد تركوا لنا ثروة كبيرة في هذا الصدد.

أما في الشعر فقد أصبح شعراء النخبة الزيتونية في مستوى شعراء المشرق العربي، ويعود الفضل في بعث الشعر الإصلاحي إلى أمير شعراء المغرب العربي والزيتوني المخضرم محمد العيد آل خليفة، وقد عاصره عدد كبير من الشعراء منهم من تخصص في نظم الشعر ولم ينثر إلا نادراً كالهادي السنوسي ومفدي زكريا وجلواح وحمود رمضان، ومنهم من جمع بين الشعر والنثر كأحمد سحنون وسعيد الزاهري، وهكذا تكون النخبة الزيتونية قد تقدّمت بالجزائر في عدة ميادين دينية وقومية وأدبية وإصلاحية....،

أما الشيء الهام في نظري الذي سجّله التاريخ لطلبة الزيتونة هو أن هؤلاء أقبلوا على الثقافة العربية يرتوون من منابعها الأصيلة، وذلك في وقت لم تكن فيه هذه الثقافة الأخيرة تضمن لصاحبها حتى قوته اليومي، وفي وقت كانت فيه اللغة الفرنسية هي "لغة الخبز"، وكان بوسع الكثير منهم أن يدرسوا اللغة الفرنسية ويتفوقون في دراستها كما تفوقوا في دراسة اللغة العربية، لكن لم يفعلوا حيث ذكر الأستاذ "أبو القاسم خمار" أن والده منعه من مزاولة دراسته بالفرنسية التي كان متفوقاً فيها، لأن مدارسها لا تحترم مواقيت الصلاة، ولا تسمح للتلاميذ بتأدية صلاتهم في أوقاتها.[40]

5. خاتمة

وفي نهاية هذه الدراسة نستطيع أن نحدد المجالات العامة التي كانت انعكاساً بارزاً لنشاط النخبة الزيتونية في الجزائر وهي على ثلاثة أمور:

- إيقاظ وبعث الوعي الوطني بين الجزائريين: لقد سعت النخبة الزيتونية عن طريق أنشطتها الوطنية والتربوية والتعليمية والسياسية في أطرها المتنوعة (جمعية العلماء- حزب الشعب- التعليم الحر بمعاهد وادي ميزاب) أن تتناول المواقف البارزة في التاريخ الإسلامي والجزائري وتقوم بعرضها في الحفلات والمهرجانات التي تقوم مختلف المدارس والمعاهد والنوادي بتنظيمها في المناسبات الوطنية والدينية، كما أن المحاضرات المتنوعة التي كانوا يلقونها في المساجد والنوادي كانت للجزائريين (عوامّهم ومثقفيهم واقع بلادهم المتردي من جميع النواحي وتدعوهم إلى نبذ الخمول والكسل والخوف من أجل النضال في سبيل تحرير

=دار الآداب، 1970م.- مصايف (محمد)، **الرواية العربية الجزائرية الحديثة**، الجزائر: ش، و، ن، ت، 1983م.- وكتابه: **النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي**، الجزائر: م، و، ك، 1984م.

40- **الشعب**، الجزائر: 1984/11/08م.

بلادهم واسترجاع مقومات شخصيتهم وقد كان لها تأثيرها البالغ في إيقاظ الوعي الوطني بين الجزائريين.

- ربط الجزائر ثقافياً وحضارياً بثقافة وحضارة اللغة العربية والقرآن: لقد كانت هذه النخبة المتنورة من العلماء والمدرسين والوعاظ والسياسيين تؤمن بدور القرآن الكريم الذي كان تعليمها الحر يجعله محو الدراسة سواء في المنهاج أو البرامج والنظم ومختلف النشاطات الأخرى.[41]، وبذلك ساعد هذا التعليم مساعدة فعالة على توجيه دفة السياسة الجزائرية التي كانت تتصارع حولها عدة اتجاهات خلال العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين تتراوح ما بين الاندماج الكامل في فرنسا ضمن نطاق حضارتها العربية الإسلامية، وقد تبنت النخبة مناهج التعليم العربي الحر لأنه اتجاه ينسجم مع رسالتها الثقافية والقومية.

- المحافظة على الشخصية الجزائرية: لقد عملت هذه النخبة على إحياء الشخصية الوطنية والمحافظة عليها، وهي بذلك أدت إلى ذوبان الاتجاهات الإندماجية والمفرنسة في بوتقتها وبالتالي أفشلت السياسة الفرنسية في الجزائر والهادفة إلى فرنسة الجزائريين وتجنيسهم ودمجهم في إطارها الخاص.

6. قائمة المصادر والمراجع.

أ- المصادر:

الوثائق:

1. A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, doc n° 07.
2. A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, doc n° 03.
3. A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, N°P 70.
4. A.N.T, Série D, C25, Dossier 28.

الدوريات المصدرية:

1. البصائر، ع270، الجزائر: 1954/05/07م
2. الثمرة الأولى (إصدار ج.ط.ز.ج)، تونس: مطبعة الشباب، 1937م
3. الشعب، الجزائر: 1984/11/08م.
4. الشهاب، ج4-5، مج14 ع(6- 7)، الجزائر: 1938م.
5. المقاومة، ع7، الجزائر: 1957/02/16م

ب- المراجع:

المؤلفات:

1. برهان (غليون)، **مجتمع النخبة**، ط2، تونس: دار البراق، 1994م.
2. بلاسي (نبيل أحمد)، **الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر**، مصر: الهيئة

41 - وعن دور القرآن في برامج نظم التعليم راجع: الشيخ ابن باديس في مقال له بجريدة الشهاب، ج4-5، مج14، ع(6- 7)، الجزائر: 1938م.

المصرية العامة للكتاب، 1990م.

3. بودوح(السبتي)، **مذكرات مجاهد**، الجزائر: مطبعة عمار قرفي، 2002م .
4. بوعزيز (يحي)، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر: د.م.ج، 1999م
5. الجابري (محمد الصالح)، **الأدب الجزائري في تونس**، ج1،ج2، تونس: بيت الحكمة، 1991م.
6. الجابري (محمد الصالح)، **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس**، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م
7. الجزايرلي (يوسف)، **الجزائر أرض البطولة**، مصر: الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب، ب.ت.
8. جلال (يحي)، **السياسة الفرنسية في الجزائر**،، مصر: دار المعرفة، 1959م
9. جوليان (ش،أ)، **أفريقيا الشمالية تسير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1976م
10. جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، **الجزائر**: مصر، دار المعارف، 1965م
11. حماني (أحمد)، **شهداء علماء معهد بن باديس**، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م
12. الخطيب (أحمد)، **الثورة الجزائرية (دراسة وتاريخ)**، بيروت دار العلم للملايين،1958م
13. ركيبي (عبد الله)، **الشعر الديني الجزائري الحديث**، الجزائر: م.و.ك، 1981م
14. ركيبي (عبد الله)، - **تطور النثر الجزائري الحديث**، الجزائر: م.و.ك، 1983م
15. سعد الله (أبو القاسم)، **دراسات في الأدب الجزائري الحديث**، ط2، القاهرة: دار الآداب، 1970م.
16. سعد الله (أبو القاسم)، **خارج السراب**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م .
17. السيد (رضوان)، **مفاهيم الجماعات في الإسلام**، بيروت: دار المنتخب العربي، 1993م
18. عباس (محمد)، **البشير الإبراهيمي (أدبياً)**، الجزائر: د.م. ج، بلا، ت،
19. علي الكنز، **حول الأزمة، دراسات حول الجزائر والعالم العربي**، الجزائر، دار لوشان للنشر، 1990
20. العياشي (مختار)، **الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر**، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م
21. فضلاء (محمد الحسن)، **المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر**، ج1، ج2، ج3، الجزائر: دار الأمة، 1999م
22. مصايف (محمد)، **الرواية العربية الجزائرية الحديثة**، الجزائر: ش، و، ن، ت، 1983م
23. مصايف (محمد)، **النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي**، الجزائر: م، و، ك، 1984م.
24. بن نعمان (أحمد)، **مولود قاسم نايت بلقاسم**، ط2، الجزائر: در الأمة، 1997م
25. هلال (عمار)، **نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م**، الجزائر: دار هومة، 2004م
26. Gramsici (Antonio), la Formation des Intellectuels, l'Organisation de la culture, Paris: éd. sociales, 1977

27. Lahouari addi , l'impasse de populisme , édition E.n.a.l, Algérie, 1990

المقالات:

1. تركي (رابح)، "الصراع بين ج ع م ج وإدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر"، **الثقافة**، ع85، الجزائر: جانفي/ فيفري 1985م
2. سعد الله (أبو القاسم)،" مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي"، **الثقافة**، ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م، ع79
3. شريط (عبد الله)، الأدب العربي الحديث"، **الأصالة**، ع13، الجزائر: 1973م
4. هلال (عمار)، "الطلبة الجزائريون في الأزهر عام 1916م"، **الثقافة**، ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م.

أعلام الإصلاح "محاولة في تحديد المفهوم وحصر الجماعة"

Flags of Reform "An attempt to define the concept and limit the group."

د/ أحمد بالعجال

جامعة الوادي (الجزائر)

beladjal-ahmed@univ-eloued.dz

ط.د/ عبد السلام بالعجال

جامعة أم البواقي (الجزائر)

Beladjalabdessalam@gmail.com



ملخص:

تحاول هذه المداخلة فتح نقاش حول مفهوم الإصلاح والمصلح، وهو موضوع طالما أثار جدلا واسعا بين الفاعلين الأصليين، وكذا المهتمين من مؤرخين ودارسين باختلاف تخصصاتهم؛ ففي كثير من الأحيان كان يطلق لفظ مصلح على كل شخص يقوم بمهام دينية وتعليمية، أو حتى وعظية أخلاقية دون حصر لنوع ذلك الإصلاح، لكن في الجزائر حسم هذا الجدل قبل قرن من الزمن لصالح فئة معينة، كانت تقوم بتلك المهام، ضمن دائرة عقدية دينية وأخلاقية محددة.

وفي حاضرنا المزدحم بالثقافات والعلوم، والمتشابك بالعلاقات والمذاهب والمناهج والحركات، اتسعت دائرة الخلاف وتفرقت السبل بالمفهوم تتجاذبه زوايا النظر المختلفة، حتى أصبح مثيرا، مربكا، مشوبا، يكتنفه الجدل حينا وسوء النوايا في أحايين كثيرة؛ لذا جاءت هذه المداخلة لتوضيح تلك الحدود ورسم شروط ذلك المفهوم في أبعاده التاريخية والفكرية.

الكلمات المفتاحية:

الإصلاح الديني؛ الحركة الإصلاحية الجزائرية؛ أصول الإصلاح الجزائري؛ فريق المنتقد؛ ابن باديس.

Abstract :

This intervention is trying to open a discussion on the concept of reform and reformer, which is a subject that has long sparked widespread controversy among the original actors, as well as those interested, from historians and scholars with different specializations; In many cases, the word reformer was launched on every person who performs religious and educational tasks, or even an ethical preaching without limiting the type of that reform, but in Algeria this controversy was resolved a century ago

in favor of a certain group, which was doing these tasks, within a religious and moral contractual circle Specified.

In our present crowded with cultures and sciences, and intertwined with relationships, doctrines, curricula and movements, the circle of disagreement expanded and the ways were dispersed in the concept that attracts different angles, until it became exciting, confusing, shameful, and the controversy is surrounded at times and bad intentions in many times; So this intervention came to clarify these limits and draw the conditions of that concept in its historical and intellectual dimensions.

Keywords:

reform, religious reform; Algerian reform movement; The origins of the Algerian reform; almuntaqidteam; IbnBadis.

1. مقدمة:

عُدّ الدين أسَّ الحياة ومدارها؛ لأن الدين هو المنظّم لكل المجالات، وهو الذي يميز به الإنسان المتمسك به؛ الخبيث من الطيب، الشرّ من الخير، الفساد من الصلاح، فالدين من هذا المنظور يعد مرجعا لمختلف شؤون الإنسان الاجتماعية والتربوية والقانونية، وانطلاقا من مركزية الدين في عملية الإصلاح راح مفكرو الإسلام وعلماؤه يجيبون على سؤال طالما أرقهم منذ أن أحسوا بالخلل والفارق الحضاري بينهم وبين غيرهم من أتباع الأديان الأخرى، فاستقر رأي أغلبهم بأن دين الإسلام دين عزّة وكرامة، ودين حضارة وقوة، كان به المسلمون أولي قوة وبأس شديد، ولما تركوه أو وهنت علائقهم به، ضعفوا واستكانوا وصاروا فريسة سهلة للجهل والتخلّف، فتربّص بهم الأعداء من كل جانب.

لأجل هذا، قام هؤلاء العلماء والمفكرون بالبحث عن أصل الداء لوصف الدواء، فرأوا أن الخلل أوالمرض يكمن في علاقة المسلم بدينه، هذه العلاقة التي مسّها الفساد والتغيير حتى أصبحت في كثير من الأحيان بعيدة عن الدين، وحياتهم بعيدة عن تصورات الإسلام والمسلمين الأولين، لذلك وجّهوا جهودهم إلى محاولة تقويم تلك العلاقة (علاقة المسلم بدينه)، وذلك بالنظر إلى المفهوم الصحيح للإسلام، إسلام النص (القرآن والسنة)، وإسلام السلف الصالح (أي فهمهم للإسلام النصي وسنة رسول الله وتطبيقها)، وهذه العملية عرفت في الأدبيات المعاصرة بـ "الإصلاح"، أو "الإصلاح الديني". وعلى مرّ العصور حاول الكثير من المسلمين أن يقوموا بأدوار مختلفة تجاه مجتمعاتهم، في سبيل تغيير أوضاعها إلى الأفضل، غير أن التاريخ لم يخلد ذكر إلا القليل من هؤلاء، ولم يُدخل في زمرة المصلحين إلا من توفرت فيهم شروط حضارية سامية.وفي أحيان أخرى يدّعي بعض الأشخاص هذه الصفة وهذه المهمة النبيلة لنفسه ويحصرها في جانبه دون وجه حق؛ وهؤلاء –إن جادلتهم فيما يزعمون- ﴿**قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ**﴾ (البقرة: الآية 11)، في حين أن ما يقومون به لا

يمت للإصلاح بصلة.[1]

ولتمييز المصلح والمدعي، وتبيين المعنى الحقيقي لمفهوم الإصلاح ارتأينا أن نشارك بهذه المداخلة ضمن هذا الملتقى الدولي المبارك، ولتحقيق هذا المسعى حاولنا طرح تساؤلات، رأينا أنها كفيلة بتوضيح ما نسعى لتقديمه. ولعل السؤال الأساسي الذي تقدمه هذه الورقة هو السؤال الذي يبحث في مفهوم الإصلاح؛ فما هو الإصلاح في فكر النخب الإصلاحية الجزائرية نفسها؟ وما السمات الفكرية لهذه النخب التي أخذت على عاتقها هذه المهمة النبيلة والخطيرة في آن؟وكذلك ما هي الأصول التي استلهمت منها هذه الجماعة فكرها وتوجهها الإصلاحي؟ بتعبير آخر النموذج الذي استلهمت منه فكرها واتخذته مثالا لها.

2. في معنى الإصلاح:

تتفق المعاجم اللغوية العربية على أن الإصلاح ضد الإفساد؛ جاء في لسان العرب مادة صلح، الصلاح ضد الفساد، والإصلاح نقيض الإفساد.[2] وفي معجم اللغة العربية المعاصرة أصلح الشيء: أزال فساده، رتبه ونظّمه، ضدّ أفسده "أصلح السيارة/ الفراش/ الموقف/ النظام والأخلاق- أصلح ما بينك وبين الله يصلح ما بينك وبين النّاس- أصلح الغيث ما أفسد البرد[مثل] يضرب لمن أصلح ما أفسده غيره- ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾"...الخ. إصلاح[مفرد]: ج إصلاحات (لغير المفرد): مصدر أصلحَ/ أصلح في/ أصلح من. تقويم وتغيير وتحسين "حركة الإصلاح الديني". إصلاح ذات البين: مصالحة المتخاصمين.[3]

وفيما يتعلق بالفكر الإسلامي فإن هذا المفهوم منتشر جدا في الثقافة الإسلامية الحديثة، ويجد مكانة جيدة في النص القرآني، حيث الحقل الدلالي واسع جدا، ومن الاستعمالات القرآنية المختلفة التي يمكن إحصاؤها للفظ "أصلح" ما يفيد معنى الصلح وما يفيد القيام بعمل صالح، أما المصلحون فهم بهذا المعنى، من يقومون بعمل الصلح، وبإصلاح أحوال الناس.[4]

من هنا، فالإصلاح الذي يدعو إليه القرآن يتضاد والفساد، ويجب أن يفهم من الفساد كل أنواع الابتعاد عن الطريق المستقيم الذي بينه الدين، إذ المصلح هو الإنسان الذي

1- ينظر: السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000، ص20.

2- ابن منظور، لسان العرب، مج4، دار المعارف، القاهرة، ط1، (دت)، ص2479.

3- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج2، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008، ص1312.

4- طهاري محمد، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 2، 1992، ص 11؛ غربال محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، مج 1، دار الجيل، بيروت. لبنان، ط 2، 2001،ص ص 230-231. وينظر أيضا:

- Encyclopédie de l'islam (ISLAH), T 4, Maisonneuveet Larousse, Paris, 1978, P 147.

تدفعه الرغبة في متابعة سبيل الأنبياء الذين كانوا أساسا من المصلحين. وبذلك فالمصلح يتبنى ركنا إسلاميا آخر، هو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[5]. وقد ساهم القرآن في المقام الأول في تعميم فكرة الإصلاح داخل الجماعة المسلمة، من خلال نصوصه[6]، وحتى الأحاديث النبوية ساهمت في ذلك التعميم، شأن الحديث الشهير الذي يرويه أبو هريرة ﵁:"إنَّ الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة أمر دينها"،[7] وغيره من الأحاديث.[8]

وهكذا يضرب الإصلاح بجذوره في المنابع الأولى للإسلام (الوحي والسنة) إذ أن هذه المرجعية الأصولية هي التي تؤسس إجرائية وشرعية الفعل الإصلاحي المتداول في الفكر الإسلامي المعاصر، وتجعل منه فعلا منهجيا يهدف إلى تصويب صورة الحاضر على مثال الماضي (الأصل) بل وشحنه بطابع الديمومة والاستمرار في حياة الجماعة الإسلامية وثقافتها[9]. فالإصلاح بهذا المعنى، هو دعوى لوضع الإسلام الاجتماعي في مستوى الإسلام المعياري، (أي ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع إسلاميا). ولكن يمكن القول إن هذه الدعوى لم تنقطع طوال التاريخ الإسلامي، مادام الإسلامان الاجتماعي والمعياري لم يتطابقا في وقت من الأوقات، وحتى الفقهاء يسلمون بهذه القضية، وإن استثنوا فترة الجيل الأول من المسلمين، الفارق إذا بين الإسلامين الاجتماعي والمعياري واقع مستمر،[10] من هنا نفهم لماذا كان دائما المنطق الأساسي لكل دعوة إصلاح إسلامية هو العودة إلى "إسلام الفطرة"، وكيف أن كل دعوة إصلاح نجدها تدور حول هذا التضاد: إسلام الفطرة/التقليد[11].

وتأسيسا على ما سبق اكتسبت الدعوة للرجوع إلى المنابع الشرعية لتجعلها طموحا مثاليا، بل مطلبا واقعيا للسمو بالمجتمع إلى المنابع الصافية وجعله على صورة مجتمع الوحي، وهو ما دفع بأصحاب هذه النظرة إلى الدعوة لتحرير الدين من الخرافات والبدع، وذلك بمحاولة التوفيق بين العقل والنص،[12] وهذا ما أصطلح عليه بالاجتهاد، وهو الركيزة

5- سعيد بنسعيد، وولد أباه، المرجع السابق، 44.

6- وردت مادة الصلاح والإصلاح في القرآن الكريم في نحو مائة وسبعين (170) موضعا، ينظر: شيبان عبد الرحمن، حقائق وأباطيل، دار ثالة، الجزائر، ط 2، 2009، ص 148.

7- رواه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الملاحم، حديث رقم: 4291.

8- Merad Ali, le réformismemusulman en Algérie de 1925 à 1940, 2eme éd. Leséditions El hikma, Alger, 1999, P 51.

9- نجد هذا المعنى في: بلقزيز عبد الإله، أسئلة الفكر العربي المعاصر، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 1، 2001، ص 16. وأنظر أيضا:

- L'encyclopédie de l'islam. Op.cit. P 147.

10- أومليل علي، الإصلاحية والدولة الوطنية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1982، ص ص 13-14.

11- نفسه، ص 16.

12- الركيبي عبد الله، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1981، ص 38.

الأساسية في دعوة الإصلاح الشاملة، قصد التأثير في الناس وحثهم على التغيير بالعودة بالدين والمجتمع إلى الأصل تمثلا بمجتمع الوحي في جميع مناحيه، لكن ماذا يعني الاجتهاد؟

الاجتهاد،[13] لا يعني العودة إلى الأصول فحسب، بل يتعدى ذلك إلى التشوف إلى المعاصرة، والتطلع إلى توظيف قيم العصر في نسيج الفكر والمجتمع. ولا يتعلق الأمر في هذه الدعوى بالمثقف العصري الناحي منطق التمرد على مدونته التقليدية، وإنما هو يتصل بموقف المثقف السلفي "الفقيه" الذي لا يبرح موقع الإسلام في ممارسة فعل النظر العقلي في نوازل الحياة المعاصرة.[14]

والاستنتاج الذي يسترعي الانتباه في معرض هذا التمييز أن الشريعة إذ تفسح للاجتهاد مساحة وتحث عليه بل وتوجبه، وتبدي إعراضا عن "التحديث" ونفورا من الحداثة واشتقاقاتها، وذلك بسبب تداخل معناه مع معنى الابتداع، الذي يتخالف مع معنى التجديد والتطور، هذا الذي يمثل إحداثا في الأصول، فليس من شك في أن المسلم "يستشنع" المحدثات والبدع، ولكنه بالمقابل يستحسن السنة الحميدة ويحبذ التجديد في أمر الدين، بل هو يرجوه ويطلبه. إنه يعيش التقدم داخل نظامه الفكري من دون كبير شعور بالحاجة إلى غيره، هذا إن لم يكن الالتجاء إلى الغير يعني المساس بمرجعية الأصول.[15]وبالتالي فهو مرفوض يجب الكف عنه. كما يحيل مفهوم الاجتهاد إلى مفهوم آخر وهو التجديد، لكن الأول يختلف عن الثاني كون الثاني فرع من الأول، أو قل هو جزء منه، ففي هذا الصدد يقول الشيخ يوسف القرضاوي: «تجديد الدين ثابت بالنص، لكنه ليس هو الاجتهاد بعينه، وإن كان الاجتهاد فرعا منه ولونا من ألوانه، فالاجتهاد تجديد في الجانب الفكري والعلمي، أما التجديد فيشمل الجانب الفكري والجانب الروحي والجانب العلمي...».[16]وهذا معناه أن التجديد مرتبط بالظاهرة الدينية أكثر مما هو مرتبط بأحوال المنتمين إليه.

والتجديد في الفكر الديني لا يعني تغيير أسسه أو التصرف في أحكامه، بل يعني إعادة جدته التي كان عليها أول أمره - أي في نفوس الناس وليس في نصوصه - والمحافظة على

13- أما المعنى الاصطلاحي للفظ فهو كما يحدده الغزالي: «بذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة... والاجتهاد التام أن يبذل الوسع في الطلب بحيث يحس من نفسه العجز عن مزيد الطلب». أبو حامد الغزالي، المستصفى، نقلا عن: الغراب سعد، العامل الديني والهوية التونسية، (سلسلة الموافقات)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990، ص 72.

14- بلقزيز عبد الإله، الخطاب الإصلاحي في المغرب "لتكوين والمصادر"، دار المنتخب العربي، بيروت، ط 1، 1997، ص 24.

15- نفسه، ص ص 23-24.

16- القرضاوي يوسف، الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة، مجلة الأمة، ع 45، س 4، جوان 1984، ص 49.

جوهره وخصائصه[17]، ومعنى التجديد في الدين إعادته إلى أصله كما نشأ أول مرة عن طريق تنقيته من الأدران والأباطيل التي قد تعلق به بسبب أهواء البشر على مرّ العصور، وإعادة الدين إلى أصله معناه كذلك الحكم على العصر الذي نعيشه طبقا للشريعة الإلهية بعد تنقيتها مما لصق بها من شوائب الخرافة والدجل والأباطيل التي ألحقت بالدين، كي يتحقق دوام صلاح تطبيق أحكام الدين في كل زمان ومكان.[18]

بهذا نلاحظ التداخل الكبير بين الإصلاح والتجديد، إذ أن عملية الإصلاح والتجديد تنطلق من الدين وتهدف إلى تغيير حالة الأمة من أمراضها الأخلاقية وتخلفها وفساد دينها إلى وضع يلتزم فيه المسلم بالدين الصحيح، دين السلف، وهذه العودة إلى تلك النقاوة هي من أساسيات الإصلاح الديني[19].

وهكذا نرى أن مفهوم الإصلاح يبدو معقدا نسبيا، في واقع الأمر، فهو يحيل إلى مجموعة من الدلالات المتجاورة والمترابطة فيما بينها، فهي في جوانب تمثل العودة إلى الإسلام الأول المتضمن رسالة الرسل عليه السلام وسنة الرسول ﷺ، وفي أخرى تمثل إحياء الممارس الديني وتنقيته من الشوائب والانحرافات التي علقت به خلال التاريخ الطويل، كما يمكن أن يشير إلى الحاجة إلى صقل السلوك الأخلاقي والاجتماعي للمسلم عن طريق إرشاده الأسوة الحسنة... من هذه المعاني الكثيرة للإصلاح فهم دعاة الجزائريين أن الإصلاح دعوة شاملة، أي أنها دعوة لا تقتصر على نوع من الإصلاح بعينه دون آخر، فجاءت دعوتهم إلى الإصلاح ماسّة لجوانب عديدة من الدين والحياة، وداعية إلى نبذ الفاسد من العقائد والعوائد، والإرشاد إلى ما هو صالح ليؤخذ به، وغايته ترقية المجتمع في سلم السعادة الدنيوية والأخروية.[20]

3. الحركة الإصلاحية الجزائرية:

3. 1.ظهور الحركة الإصلاحية الجزائرية:

أعلام الإصلاح، أو علماء الإصلاح كما كانوا يطلقون على أنفسهم، أو كما يرى أبو القاسم سعد الله: "تعني أولئك الجزائريين المثقفين، الذين بالرغم من تعليمهم العربي وتوجيههم الإسلامي، أصبحوا هادفين بشكل واضح سياسيا ووطنيا. وهذا التحول من وجهة نظر دينية محضة إلى التدخل السياسي قد حتمته سياسة فرنسا نحو الثقافة والشخصية

17- بوقرة زيلوخة، 2009،سوسيولوجيا الإصلاح الديني في الجزائر "جمعية العلماء المسلمين أنموذجا،" ماجستير في علم اجتماع الدين، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، ص 52.

18- نفسه، ص 53.

19- نفسه، ص 54.

20- مبارك الميلي، الإصلاح "حاجتنا إليه، أبوابه، وسائله، أسلوبه"، الإصلاح، ع 5، س 3، 1929/10/17، ص 1.

الجزائرية. فالفرنسيون إما أهملوا وإما اضطهدوا هذين المظهرين"[21]. وهذا التعريف الفضفاض لهذه المجموعة التي ساهمت بأشكال مختلفة ووسائل متنوعة إلى محاولة تقويم وضع ما،[22] يشير إلى أن فكرة الإصلاح بمفهومه الواسع في الجزائر ليست وليدة مرحلة العشرينيات من القرن الماضي كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين، وإنما ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر. وذلك مع بروز الدعوة إلى العلم واليقظة. واتسمت تلك المبادرات الإصلاحية خلال تلك الفترة بأنها فردية غير منتظمة في هيئات ولا تؤطرها قوانين. ويمكن أن نعدّ من بين هؤلاء المصلحين أو الوعاظ –إن شئت- الذين بدؤوا بالدعوة إلى التعليم وتكوين الجمعيات الثقافية، "المولود بن الموهوب" و"الصالح بن مهنا" و"حمدان لونيسي" و"ابن سماية" و"ابن بريهمات" وغيرهم من العلماء الذين سعوا إلى تحرير العقول من الأوهام والخرافات والتمكين للفكرة الإصلاحية.[23]

أما الإصلاح كمصطلح تاريخي ومفهوم حركي، ارتبط بمرحلة تاريخية معينة من تاريخ الجزائر تميزت بالتنظيم والتكتل، وهو ما عرف بـ "الحركة الإصلاحية الجزائرية" فقد ارتبط منشأه بشخصية عبد الحميد ابن باديس ونشاطه في قسنطينة من جهة. ومن جهة أخرى بالفريق الذي التف حول صحيفة "المنتقد" ثم "الشهاب" (1925)؛ حيث عرف هذا العام الانطلاقة الفعلية لظهور هذه الحركة وبداية التحضير لتأسيس حزب ديني يضم الفريق المشار إليه[24]. وفي هذا الصدد يشير سعد الله إلى أن التفكير في إنشاء هذا الحزب يعود إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، وذلك بناء على نص لأحد العلماء نقله عن "ديبارمي" يقول فيه: "إن العلماء تحدثوا عن قضية خلق منظمة لهم قبل الحرب عندما كانوا مقتنعين بأن تدهور الجزائر الاجتماعي والديني كان منذرا بالخطر".[25]

لكن هذه الفكرة تأخرت في الظهور إلى أن توفرت شروط نفسية، وأخرى اجتماعية، وثقافية وحتى اقتصادية دفعت الأدباء وعلماء الدين إلى التفكير في تكوين تنظيم يجمع أنصار الإصلاح، ويساعدهم على تحقيق أهدافهم، فبعد اقتراح ابن باديس سنة 1924 الرامي إلى خلق جمعية تضم علماء الدين باسم " جمعية الإخاء العلمي"،[26] وتمنى العقبي أن

21- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، منشورات دار الآداب، بيروت، ط 1، 1969، ص 439.

22- هلال عمار، الحركة الوطنية في الجنوب الجزائري "تطوراتها ورجالها"، (الحلقة الأولى)، مجلة الثقافة، ع 101، س 18، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1988، ص 107.

23- عبد الله الركيبي، المرجع السابق، ص ص 36-37.

24- MERAD Ali, Op.cit. p 109.

25- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، (1969) ...، ص 440.

26- روى الإبراهيمي خبر زيارة بن باديس له في سطيف سنة 1924، وخلال هذه الزيارة أعلمه أنه: «... عقد العزم على تأسيس جمعية باسم "الإخاء العلمي" يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة، العاصمة العلمية، وتكون خاصة بعمالتها، تجمع شمل العلماء والطلبة وتوحد جهودهم وتقارب بين مناحيهم في التعليم والتفكير، وتكون صلة

"يوحّد ذوي العلم الصحيح صفوفهم ويجمعوا أشتاتهم حتى يكوّنوا من جموعهم جبهة دفاع قوية تقف في وجه ذوي العقائد الزائفة لترد إفك الأفّاكين، وتدحض حجج الدجالين المضللين" (المنتقد 8 أكتوبر 1925)،[27] وفي هذا الصدد وجه ابن باديس في العدد الثالث من الشهاب الصادر في 1925/11/25 نداء إلى علماء الجزائر وشيوخها يحثهم فيه من أجل التسريع بطرح مقترحاتهم لإنشاء "**حزب ديني**" يجمع ويوحد الجزائريين.[28]

ظهر هذا التكتل الإصلاحي أوّل أمره خلال العشرينيات في شكل نادي الترقي سنة 1927، وتطور إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ 1931/5/5، وقد ركز جهوده للدفاع عن الشخصية الجزائرية العربية والإسلامية، في إطار الشعار الخالد "الإسلام ديني، والعربية لغتي، والجزائر وطني"،[29] وقد كان مؤسسوها من خريجي المدارس العربية المشرقية والمتأثرين بأفكار المصلحين المشارقة، كالشيخ محمد عبده النهضوية، وأفكار شكيب أرسلان السياسية... وضمت هذه الجمعية عناصر من مختلف أنحاء الجزائر، ومن مختلف الاتجاهات الدينية والفكرية، فيهم المصلح والرجعي (الطرقي) وفيهم الإباضي والسني... وكانت تدعمها فئة من البرجوازية التجارية؛ وقد كان عدم تجانس في مكونها البشري عاملا مهما جعل الإدارة تسارع في الاعتراف بهذه الجمعية وتوافق على قانونها الأساسي.[30]

لكن التوافقبين علماء الإصلاح والطرقيين لم يستمر طويلا، إذ حدث صراع بين الفريقين حول السيطرة على الجهاز الإداري لهذه الجمعية الفتية. وأدى هذا الأمر إلى مشاحنات ومهاترات بين الطرفين لم تنته إلا بعد الانتهاء من انتخابات تجديد مجلس الجمعية، الذي أنعقد يوم 22 ماي 1932 الذي أفرز نتائج لصالح الإصلاحيين؛ مما أدى إلى انسحاب جماعي للطرقيين وانشطار الجمعية إلى جمعيتين، واحدة إصلاحية وأخرى طرقية. حيث لم تمض غير أشهر قليلة حتى أعلن الطرقيون يوم 15 سبتمبر عن تأسيس جمعية جديدة باسم "جمعية علماء السنة الجزائريين" برئاسة الشيخ المولود الحافظي الأزهري.[31] وكان لهذه الجمعية قانون أساسي مماثلا تقريبا لأهداف جمعية العلماء المسلمين

تعارف بينهم ومزيلة لأسباب التناكر والجفاء...». هذا مقترح بن باديس للإبراهيمي وظل معلقا ينتظر التحقيق إلى سنة 1931. في هذا الشأن ينظر: البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر الجمعية، المصدر السابق، ص ص 52-53. وأبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1969، المرجع السابق، ص 442.

27- عبد الله الركيبي، الشعر الديني في الجزائر، المرجع السابق. ص 573.

28- Ali Merad, Op.cit, P 86.

29- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 3،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990، ص 83.

30- Robert Montagne, La fermentation des partispolitiques en Algérie, **Politiqueétrangère**, C.E.P.E, Paris, n° 2, 2emeAnnée, Avril 1937, p 128.

وينظر أيضا: سعد الله، الحركة الوطنية، ج 3، المرجع السابق، ص83.

31- بن العقون عبد الرحمن، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر 1920-1936، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 232، 249.

الجزائريين، ولا يختلف عنها إلا في كون جمعية علماء السنة جعلت من مبادئ التصوف مصدرا من مصادر الأخلاق والدين. في حين كان العلماء المسلمين يرون في التصوف والطرقية أشنع البدع والكبائر.[32]

ولم يكتف هؤلاء الطرقيون بإنشاء جمعية ضرار، بل راحوا يحاربون الإصلاحيين بكل ما أوتوا من وسيلة، فأنشأوا لمقاومة دعاية العلماء صحيفة عربية عنوانها "الإخلاص" 14 ديسمبر 1932. وقد ظلت هذه الصحيفة طيلة عام تغذي حملة شرسة ضدّ علماء الإصلاح، ترد على مقالاتهم وتخوض في بعض المسائل الخلافية محل نزاع بينهم، كالاعتقاد في الأولياء، والتبرك، والوسيلة... لكن بتوقف الإخلاص عن الصدور لم يعد لجمعية علماء السنة أي نشاط يذكر، واختفت نهائيا سنة 1934.[33] أما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فإنها استمرت تبث دعوتها بين الجزائريين ولم تتوقف إلا بعد أن جمدت نفسها لدواعي ظروف الحرب العالمية الثانية، ثم استأنفت نشاطها فيما بعد.

3. 2.الأصول الفكرية للحركة الإصلاحية الجزائرية:

لم تخرج الحركة الإصلاحية الجزائرية التي ظهرت في فترة ما بين الحربين –في نظر الكثير من المؤرخين والملاحظين- عن التعريفات التي أوردناها. فهي حسب بعضهم "حركة من حيث المبدأ تعمل على تطهير الإسلام المحلي وإخراجه من عزلته لوضعه ضمن تيار ما كان يمكن وصفه بالحركة الإسلامية العالمية".[34] بهذا المعنى يكون هذا الإصلاح هادف إلى التحرير الفكري ثم إلى التحرير من ربقة الاضطهاد والتبعية التي كانت تقبع فيها الشعوب المستعمرة، ولذلك فإن حركة الإصلاح في الجزائر قد عملت على تطهير الإسلام مما علق به من شوائب وأخرجته من العزلة التي فرضها عليه الاستعمار الفرنسي، وإعادته إلى الإطار الإسلامي العالمي، في المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية...[35] ولعل السؤال الذي يطرحا في هذا الصدد، هو كيف استمدت القوة لإصلاح هذا الإسلام وإخراجه من عزلته المضروبة عليه من طرف استعمار صليبي؟ وبعبارة أخرى، من أين استلهم الإصلاحيون فكرهم الداعي إلى التحرر والانعتاق؟ وللإجابة على هذا السؤال وجدنا أن أصول هذا الفكر في الجزائر مستمدة من:

32- MERAD Ali, Op.cit. p 129-130.

33- Ibid. p 130.

34- أجيرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة "من انتفاضة 1871إلى اندلاع حرب التحرير 1954"، مج 2، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 513.

35- بو صفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945 "دراسة تاريخية وأيديولوجية مقارنة"، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1992، ص 55.

أ- تأثير الحركة القومية في المشرق العربي:

يجمع الكثير من الباحثين بأن تأثير التيارات القومية والسلفية الإصلاحية المشرقية كانت شديدة العمق والأثر في مجتمعات المغرب العربي بصفة عامة والجزائر بخاصة، ولعل الحركة القومية، التي كانت ترمي إلى تحقيق الوحدة والقوة بين المسلمين في وجه التوسع الأوروبي، وذلك بالعمل على إصلاح العقل المسلم، وتمجيد العقل، والعودة إلى منهج السلف الداعي إلى تطهير الدين من الخرافات التي ألصقت به والعودة إلى روح السنة المطهرة "قصد تربية الشخصية الإسلامية على المبادئ التي جاء بها الإسلام؛ بصفته المتكفل بصلاح الأمة، هي أبرز من غيرها تأثيرا في نفوس المصلحين الجزائريين. وقد بدأت هذه الحركة في المشرق العربي خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولعلنا لا نخطئ حين نعدّ السلطان عبد الحميد الثاني أبرز رموزها الروحيين. كما يمكننا أن نعدّ الثائر جمال الدين الأفغاني (1838-1897)، والشيخ محمد عبده (1849-1905)، والأستاذ رشيد رضا (1865-1935) أبرز رواد هذه الحركة على الإطلاق؛ لما بذلوه من جهد في سبيل انتشار هذا الفكر.[36]

وليس من المبالغة أن نؤكد هنا بأن دور الشيخ محمد عبده في الحركة الإصلاحية في المشرق إبان الربع الأخير من القرن العشرين كان له تأثير أبرز من غيره من المفكرين المشارقة على أفكار المثقفين الجزائريين. فاسم عبده وتعاليمه ذاع صيتهما مشرقا ومغربا، واعترف له الجميع بأنه "الأب الروحي للحركة الإصلاحية المعاصرة"،[37] وكان الشيخ عبده يعتقد اعتقادا جازما بأن تحقيق الإصلاح "يجب أن يبدأ خطواته الأولى من الفرد"، وقد استلهم هذه القناعة من الآية الكريمة التي جاء فيها: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ (الرعد: الآية 11). وهي الآية التي أصبحت شعارا للمدرسة الإصلاحية. ليس في الجزائر فحسب، بل في كل الشمال الأفريقي.[38] وعلى هذا الأساس ركزت الحركة العبدوية على إصلاح الفرد المسلم؛ عن طريق تربيته وتعليمه وتثقيفه، وذلك لأنها ترى قبل كل شيء أن أي نهضة إسلامية إذا لم تقم على التعليم والمتعلمين فإن مصيرها إلى الزوال والفشل.[39]

وقد توطدت صلة الجزائريين بفكر محمد عبده خلال زيارة هذا الأخير إلى الجزائر سنة 1903، هذه الزيارة رغم قصر مدتها إلا أنّها بذرت بذورا كان لها أثرها في انتشار الفكرة الإصلاحية في بيئة رجال العلم إذ ذاك. فقد كان في استقبال عبده ثلة منهم: الشيخ صالح بن مهنا، وعبد القادر المجاوي، والمولود بن الموهوب، ومحمد بن رحال، وعبد الحليم بن

36- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، (1969) ...، ص 129.

37- بو صفصاف عبد الكريم، المرجع السابق، ص 55.

38 -بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، الجزائر، ط 5، 1986، ص 53.

39- مرتاض عبد المالك، الإسلام والقضايا المعاصرة، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص 35-36.

سماية... وغيرهم كثير. وأثناء إقامته بالجزائر استطاع عبده أن يحسس الجزائريين بعروبتهم وانتمائهم التاريخي إلى الإسلام وصلتهم العضوية بمختلف المسلمين من الخليج إلى المحيط. مفندا بذلك زعم السلطات الفرنسية المستعمرة بأن الجزائر مقاطعة فرنسية.[40]

ولم تنقطع الصلة بين فكر عبده والجزائريين حتى بعد وفاته، إذ استمر الجزائريون يكرعون من هذا المعين عن طريق مجلة المنار التي كان يحررها الأستاذ رشيد رضا تلميذ محمد عبده، خاصة من طرف الطلبة الجزائريين المقيمين في تونس، حيث كانت المنار واسعة الانتشار هناك.[41] في حين منعتها السلطات الاستعمارية في الجزائر ومنعت كل المطبوعات العربية من الدخول إلى هذا القطر العربي. كما بالغت في اضطهاد أهله بأن منعتهم من التواصل مع إخوانهم المشارقة عن طريق منع الناس من الحج. بل عملت أكثر من ذلك، وقامتبنشر كل ما يمس بالدين الإسلامي من فعل وعمل؛ بهدف محو آثار زيارة الشيخ عبده الكريمة إلى الجزائر، لكن الله متم نوره ولو كره الكافرون والحمد لله.[42]

وحركة ثانية ترتبط بحركة محمد عبده الإصلاحية كان لها أثر كبير في بروز الحركة الإصلاحية الجزائرية، هي حركة الثائر جمال الدين الأفغاني، التي قامت على مبدأ مكافحة الاستعمار الغربي بصفة عامة والانجليزي بصفة خاصة، ظهرت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وتعدّ هذه الحركة امتدادا للحركات الإصلاحية الإسلامية السابقة لها رغم اختلافها معها في المنهج، فالطابع الثوري والسياسي للأفغانية واضح جلي؛ فقد كان مؤسسها يدعو إلى مقاومة الاستعمار الغربي على جميع الأصعدة (السياسية، الاقتصادية، والثقافية...).[43]

وإذا كان البعض قد اعتبر حركة الأفغاني وعبده حركة واحدة لما كان بين الاثنين من اتفاق ووحدة في الجهود تشهد به مجلة "العروة الوثقى"، التي كانا يحرراها معا؛ فإن اتجاها آخر لم يكن غريبا عن فكر عبده الإصلاحي كان له حضورا مميزا في فكر النخبة الإصلاحية الجزائرية، هو المذهب السلفي الوهابي. وقد تشرب الجزائريون مبادئ هذا المذهب (المنهج) عن طريق رحلات الحج، وعن طريق بعض الشخصيات الإصلاحية التي اتخذت من بلاد الحجاز إقامة ومستقرا لها (كالإبراهيمي والطيب العقبي...)، ويمكن أن نعدّ تواصل الجزائريين بأعمال الأستاذ رشيد رضا، خاصة ما كان ينشره في "المنار"، فعن طريق تفسيره للقرآن قد استأنسوا بالفكر الحنبلي الجديد بالنسبة لهم؛ كما لم يتوقف إعجابهم على ما هو فكري، بل تعداه إلى إعجابهم بالملك ابن سعود خادم الحرمين الشريفين الذي كان

40- MERAD Ali, Op.cit. p 130.

41- Ibid. p 123.

42- الركيبي عبد الله، المرجع السابق، ص ص 37-38.

43- مرتاض عبد الملك، المرجع السابق، ص 36.

يطبق بصرامة المنهج الوهابي، وكان هذا الرجل يتبع التوحيد والسنة النبوية الطاهرة، خاصة في بادئ أمر دولته.[44]

وينسب هذا المشروع الإصلاحي إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي (1703-1792)، الذي عاش في بيئة جغرافية منغلقة تميزت بانتشار البدع والخرافات والانحراف عن الدين الصحيح في بلاد نجد؛ وهو الأمر الذي دفع هذا الرجل الذي عرف بورعه وتقواه للقيام بمشروع إصلاحي لمحاربة كل ما يراه بدعة وانحرافا عن الإسلام الصحيح فهدم الأضرحة والقباب وأمر بمعاقبة كل من لم يكونوا يؤدون الصلاة جماعة في المساجد. فتبنى ابن عبد الوهاب مشروعا جاهزا متمثلا في آراء الإمام ابن تيمية وتعاليمه من أجل إصلاح المجتمع عن طريق هذه الآراء، لكن دون الذهاب إلى أبعد من ذلك في الإصلاح والاجتهاد والتجديد للأمة؛ بتأسيس مجتمع عصري، تبعا لتغير الزمان والمكان، وهذا ما دفع بعض الباحثين لوصفه بالمشروع المستنسخ.[45]

ومهما يكن من أمر ما قيل عن هذا المشروع، فإن الجزائريين قد وجدوا في المنهج الوهابي ما يعضدون به مشروعهم الإصلاحي، بخاصة في ميدان حربهم ضدّ الطرق الصوفية التي كانت منتشرة بشكل كبير في ربوع الجزائر –ولا تزال- ومحاربة البدع المرتبطة بالشعائر الدينية والجنائز...إلخ. وكان من بين العلماء الجزائريين من لم يخف ميله للوهابية، بل راح كل من الشيخ الطيب العقبي ومبارك الميلي يتفاخران بانتمائهما إلى الوهابية فكرا وعملا. في حين كان ابن باديس ومصلحون آخرون أكثر تحفظا في هذا الشأن، ورفضوا وصفهم بالوهابيين أو الحنابلة الجدد. ووصفوا ذلك بأنه شكل من أشكال التنابز بالألقاب. وأكدت مدرستهم على الانفتاح على جميع المدارس السنية دون تعصب، ودون التقيد بالفصل التقليدي بين المدارس السنية المعروفة.[46]

وإن أهملنا هنا آراء بعض الباحثين الذين يقللون من أهمية الأثر المشرقي في حركة الإصلاح الجزائرية، فإننا لا يمكن أن نغض الطرف على تلك الكتابات التي تصرّ على أهمية ذلك التأثير؛ لأن الذين قاموا بها تخرجوا في المعاهد العربية العالية بتونس، والمشرق، وكانوا على صلة وثيقة بالحركات الوطنية والإصلاحية التي تشهدها هذه البلاد، وكان تأثرهم بالنهضة المصرية أكثر وضوحاً،[47] فها هو ذا الشيخ محمد السعيد الزاهري أحد أفذاذ هذه الحركة يؤكد هذا قائلا: «... ما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية والاجتماعية إلا وهو

44- MERAD Ali, Op.cit. p 192-193.

45- مرتاض عبد الملك، المرجع السابق، ص ص 30-31.

46- MERAD Ali, Op.cit. p 132, 192, 193.

47- ناصر محمد، الشعر الجزائري الحديث "اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 2006 28.

مصري غالبا، وكل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القوي في المغرب العربي. فللأستاذ المرحوم محمد عبده المصري أنصار ومريدون، وفكرة الإصلاح الإسلامي التي كان يدعو إليها، أصبحت اليوم في الجزائر مذهبا اجتماعيا يعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس...».[48]

ومهما يكن من أمر رأي الكتاب حول التأثير المشرقي في الحركة الإصلاحية الجزائرية، فإن موقف الإدارة من هذا المؤثر يغنينا عن تلك الآراء؛ فقد كانت هذه الأخيرة تشك في أن الحركة الباديسية الموالية للمشرق في كونها تغذي دعاية ضدّ فرنسا مستوحاة من الخارج. وكانت هذه الحركة تنعت رسميا بالوهابية، وبالقومية الإسلامية والقومية العربية. ونظرا لهذه الشكوك كان عليها دائما تحمل وزر التدابير الرامية إلى الحدّ من حريتها الصحفية والدعوية وحتى التعليمية. غير أن هذه التدابير الاستعمارية المتنوعة لم تفت في عضد الحركة الإصلاحية الجزائرية ولم تستطع القضاء على توغل النزعة العروبية في الجزائر عن طريق الصحافة والمدارس الإصلاحية التي عملت على نشر التعليم العربي بين أبناء المسلمين.[49]

ب- **الثورة العلمية التي أحدثها ابن باديس والبعثات العلمية:**

يؤكد بعض المنتسبين للجمعية على الدور التعليمي الذي قام به عبد الحميد بن باديس في الجزائر في زرع بذور نهضتها الإصلاحية والعلمية؛[50] ذلك الدور الذي بدأ بعد إنهائه لمشواره التعليمي سنة 1912 وعودته من رحلة الحج في السنة الموالية، حيث بدأ دروسه في الجامع الأخضر في بلدته قسنطينة، ففي هذا الجامع كان ابن باديس يحاضر ويدرس موضوعات مختلفة فيما بين الصلوات. ثم انتقل إلى مسجد سيدي قموش وهو مسجد أسرة بن باديس، ومن هذا المسجد تم بذر البذرة الأولى للتعليم الحرّ في الجزائر، وفي نهاية عام 1913 ارتفع عدد مرتادي مسجد سيدي قموش إلى أكثر من أربعين تلميذا، وفي هذه العام طلب ابن باديس من السلطات الفرنسية تمكينه من التدريس في الجامع الأخضر مرة أخرى فكان له ذلك رغم أنف معارضيه. وفي عام 1917 أدخل عبد الحميد التعليم الثانوي في المسجد العمومي سيدي فتح الله، وفي العام الموالي استطاع أن يفتتح أول مدرسة للبنات بمنزل بسيدي بومعزة.[51]

48- م. س. الزاهري، مكانة مصر في المغرب العربي، **الرسالة**، ع 135، (القاهرة)، 1936/2/3، ص 178.

49- MERAD Ali, Op .cit. p 305.

50- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الشيخ سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص 46.

51- أندري درليك، عبد الحميد بن باديس (1889-1940) مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، تر. مطبقاني مازن صلاح حامد، عالم الأفكار، الجزائر، 2013، ص ص159-170.

كان محتوى التعليم الباديسي مهما جدا، وكانت الدروس التي يقدمها لطلابه تتمثل في: تفسير القرآن الكريم وتجويده، والحديث النبوي الشريف، الفقه (على مذهب الإمام مالك)، العقائد الدينية، والآداب والأخلاق الإسلامية، والعربية بفنونها من نحو وصرف وبيان ولغة وآداب، والفنون العقلية كالمنطق والحساب وغيرهما.[52] وبتوسع دائرة دروسه وتكاثر تلاميذه في قسنطينة عمد ابن باديس إلى تعميم التجربة في مناطق أخرى من البلاد، كما أنه حاول تدارك نقص الكادر المساعد له في هذه المهمة عن طريق تشجيع وإرسال بعثات علمية خارج الجزائر، إلى الزيتونة والأزهر الشريف وبلاد الشام والحجاز...

انطلقت خطة ابن باديس في إرسال البعثات العلمية منذ انتصابه مدرسا في مسقط رأسه، واقتضت خطته أن ينتقي النجباء من طلابه لهذه المهمة، غير أن ظروف الحرب العالمية الأولى وإغلاق المدارس في تونس جعلا تلك البعثات تتوقف أيضا، لكن مع انتهاء الحرب سوف تستأنف تلك البعثات بصفة فردية أو جماعية ومنظمة، كان لطلاب ابن باديس فيها النصيب الأكبر، بل وحتى الأكفأ، حيث لم يكن من المتوقع أن تخفي هذه البعثات الأخيرة ميلاد مجموعة الإصلاح. فقد كانت مكونة من الرعيل الأول من الرواد، كالميلي، والزاهري، ومحمد خير الدين البسكري، والعربي التبسي، وعبد السلام القسنطيني، ومحمد العيد آل خليفة... وهي المجموعة التي تخرجت في الزيتونة بين سنتي 1924-1925، وهي التي كونت الفريق الباديسي التعليمي والصحفي وتدعمت بها صفوف العلماء[53].

وبعودة هذه الفئة من أبناء الجزائر وجدت أخرى كانت في أرض الحجاز مهاجرة أو مبعدة، قد رجعت إلى الجزائر بعد أن تشربت فكرة الإصلاح الصحيح، وتسلحت بالتعليم إسلامي. وقد مثل هذه الفئة كل من الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ الطيب العقبي اللذان تشربا الفكر السلفي الوهابي.[54]

أ- ظهور الصحافة الإصلاحية:

لم يعرف الجزائريون قبل الحرب العالمية الأولى صحافة عربية محضة ولا صحافة يمكن أن نطلق عليها "صحافة إصلاحية". لكن يبدو أن الجزائريين قد تعرفوا على الفكر الإصلاحي عن طريق الصحف والمجلات المشرقية، التي كانت تصل الجزائر عن طريق تونس، حيث كانت المراقبة الإدارية أقل وطأة منها في الجزائر، أو عن طريق الحجاج؟ ومهما تكن تلك العوائق التي عرفتها طريق الصحافة المشرقية إلى الجزائريين فإنها أعانتهم في مجهودهم

52- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 4،2003، ص 44. وأنظر كذلك، **البصائر**، ع 47. س 1، 1936/12/11، ص 5.

53- الجابري محمد الصالح، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، صص36-37.

54- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المصدر السابق، ص 48.

وتكوينهم الإصلاحي وجعلتهم مرتبطين بالمشرق العربي؛ فبفضل هذه الصحافة تشبع الإصلاحيون الجزائريون بأفكار النهضة العلمية الرائعة التي عرفها المشرق العربي، وعرفتهم بأهمية الحفاظ على اللغة العربية، لغة الدين والثقافة والقومية بأنها أحسن سلاح للدفاع عن هويتم المهددة من طرف المستعمر الفرنسي.[55]

لقد اعترف الرواد الأوائل بفضل الصحافة المشرقية عليهم، فقد كانت معدودة عندهم بأنها مدرستهم الأولى. كما كانت الدافع لظهور صحافتهم الإسلامية ذات اللسان العربي، التي ازدهرت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى بعد رفع القيود التي كانت مفروضة أثناء الحرب. الأمر الذي أتاح إلى الصحافة الأهلية أن تضطلع بلعب دور المحرك في تكوين الرأي العام الإسلامي في الجزائر وأن تصبح الناطق الرسمي باسم الجماهير العربية في هذه البلاد.[56]

والحق؛ أن الجزائر قد عرفت صدور بعض الصحف العربية ذات التوجه السياسي والإخباري بجهود فردية قبل أن تعرف الصحافة الإصلاحية. وأهم تلك الصحف وأكثرها انتشارا نجد "الفاروق" و"ذوالفقار" و"الإقدام" و"النجاح". لكن مع حلول سنة 1925 عرفت الجزائر نقلة نوعية في مجال الصحافة؛ وكان ذلك بفضل عودة مجموعة من الطلبة المتخرجين في جامع الزيتونة، حيث أتاح لهم تعليمهم في تونس واحتكاكهم بالصحافة هناك الكفاية والأهلية للقيام بنشاط صحفي في الجزائر يمكنهم من الدفاع عن حقوق أهاليهم ونشر مبادئ الإصلاح وانتقاد الأوضاع الاجتماعية والدينية والسياسية السائدة. وكذلك منازلة خصوم الإصلاح من طرقيين وتغريبيين.[57]

وأهم الصحف الإصلاحية التي برزت إلى الوجود منذ تلك الفترة، نذكر على سبيل المثال:

- ***المنتقد (1925)***: وهي صحيفة أسبوعية أصدرها الإمام عبد الحميد بن باديس في 2 جويلية 1925، رفعت شعار "التحدث باسم الشباب الجزائري والاهتمام بكل ما يمس القطر الجزائري". كان ابن باديس محرر هذه الصحيفة والمساهم الأبرز فيها. لقد أكّد المنتقد منذ عددها الأول على موضوع إصلاح المجتمع الأهلي الجزائري؛ وقد ترجم ذلك التوجه في نقد كل من تعلّقت تصرفاته بما يمس الجزائر قطرا وشعبا. لم تعمّر المنتقد طويلا، حيث أوقفتها الرقابة الإدارية في 18 أكتوبر من نفس السنة، أي بعد صدور ثمانية عشر عددا منها،

55- محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية"نشأتها، تطورها، أعلامها" من 1903 إلى 1930. مج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1978، ص 37.

56- MERAD Ali, Op.cit. p 42.

57- مطبقاني مازن صلاح حامد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939، عالم الأفكار، الجزائر، 2011، ص 62.

بسبب لهجتها وخطابها اللذان لم يكن للإدارة عهد بهما.[58] ومن المهم الإشارة هنا أن هذه الصحيفة تعدّ أول صحيفة إصلاحية في الجزائر، وحولها تكونت النواة الأولى للحركة الإصلاحية الجزائرية الممثلة في التي كانت تساعد ابن باديس في تحرير هذه الصحيفة، ومن أبرز هؤلاء: الشيخ البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، ومبارك الميلي، والسعيد الزاهري، ومحمد الهادي السنوسي الزاهري، ومحمد اللّقاني بن السايح، والأمين العمودي، والشاعر محمد العيد... وهذه الثلة من المثقفين هي التي أعلنت بداية المرحلة الإصلاحية وأعلنت القطيعة مع المحافظة والتقليد.[59]

-*الشهاب (1925)*: لم تنل مصادرة المنتقد من عزيمة ابن باديس ولا من فريقه الإصلاحي. ففي 12 ديسمبر من السنة نفسها، أنشأ صحيفة أخرى اسمها "الشهاب"، وكان توجّه هذه الصحيفة هو توجّه سابقتها "المنتقد"،[60] تحولت الشهاب من صحيفة إلى مجلة في سنتها الرابعة، واستمرت في الصدور إلى عشية الحرب العالمية الثانية، حين توقفت من تلقاء نفسها؛ حتى لا تضطرها ظروف الحرب إلى نشر ما يتعارض ومبادئها وأفكارها الإصلاحية وتنحرف عن الخط الإصلاحي الذي رسمته لنفسها. وقد برزت الشهاب صحيفة ومجلة ذات طابع وطني وإصلاحي، عملت على نشر الوعي بين الجماهير الجزائرية، ودعت إلى الوحدة والتفاهم، ودافعت عن الحريات والحقوق الإسلام واللغة العربية، وساهمت في مناقشة القضايا القومية والوطنية سياسية أو ثقافية أو اجتماعية...[61]

وإن نكتفي هنا بإيراد نبذة مختصرة عن هاتين الصحيفتين اللتين يعدها بعض الباحثين كمَعْلمٍ تاريخي لبداية الحركة الإصلاحية الجزائرية إلا أننا لا نهمل الإشارة إلى بعض الصحف الإصلاحية التي ظهرت تباعا خلال فترة العشرينات والثلاثينيات من القرن الماضي، وأهم تلك الصحف هناك: "الجزائر" (1925)، محررها السعيد الزاهري، "صدى الصحراء (1925-1926) محررها أحمد بن العابد العقبي، "البرق" (1927)" محررها السعيد الزاهري، "الإصلاح" (1927) محررها الطيب العقبي،" المرصاد" (1931) محررها محمد عبابسة الأخضري، "الشريعة"، و"السنة"، و"الصراط" (1933-1934) محرراها العقبي والزاهري، "الحارس" (1933) محررها عبد الرحمن الغريب، "البصائر" (1935) محررها الطيب العقبي ثم مبارك الميلي، "الليالي" (1936) محررها علي بن السعد القماري، "أبو العجائب" (1935) محررها محمد العابد الجلالي، "المغرب العربي" (1937) محررها الشيخ حمزة بوكوشة،

58- أندري درليك، المرجع السابق، ص ص 173-174.

59- ينظر: الإمضاءات المساهمين في هذه الصحيفة؛ وينظر أيضا: .MERAD Ali, Op.cit. p 73 -

60- أندري درليك، المرجع السابق، ص 174.

61- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 5، عالم المعرفة، الجزائر، ط خ، 2011، ص 253.

"الدفاع" بالفرنسية (1935) محررها الأمين العمودي.[62]

وتكمن أهمية الصحافة الإصلاحية ودورها في بعث نقاش خطير حول بعض القضايا الأهلية، كالتجنيس والاندماج والمطالبة بالحقوق والمساواة مع المجموعة الفرنسية. وقد عبرت عن رأيها الرافض لهذه القضايا بكل جرأة وشجاعة منقطعة النظير. وكثيرا ما كانت هذه الجرأة سببا في توقيف ومصادرة بعض الصحف. إلا أن أهم مكسب قدمته الصحافة الإصلاحية الفتية لجمهور العلماء هو تمكينهم من الالتقاء فيما بينهم وتمكينهم من وضع الخطط الإصلاحية لمحاربة الفساد والخصوم.[63]

4. تراجم لنماذج من أعلام الإصلاح في الجزائر:

1.4. تراجم لرواد الحركة الإصلاحية الجزائرية:

أ- الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940م):

ولد ابن باديس في 05 ديسمبر 1889م، بقسنطينة، حيث درس على يد الشيخ حمدان لونيسي الذي كان أحد كبار المدافعين عن الهوية الإسلامية. ثم انتقل ابن باديس إلى جامع الزيتونة. وبعدما تخرج في هذا الجامع عام 1912م سافر إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج وهناك التقى برفيق دربه في الإصلاح والنضال الشيخ البشير الإبراهيمي. وبعد عودته إلى الجزائر عام 1913م انتصب للتدريس بالجامع الأخضر بقسنطينة[64]. لم يمنع ولاء عائلته للسلطات الاستعمارية في قسنطينة أن ينضم ابن باديس إلى صفوف المناهضين للاستعمار. وقد ظهر ذلك واضحا عندما أسس صحيفة "المنتقد" ذات اللهجة الوطنية الحارة. إلا أنها لم تعمر طويلا لأن الإدارة الاستعمارية منعتها من الصدور بسبب مساندتها لثورة الريف المغربية وزعيمها الأمير عبد الكريم الخطابي، ثم أصدر عبد الحميد "الشهاب" ذات التوجه الديني الإصلاحي (1925-1939م)، ولم تنجُ هذه الجريدة هي الأخرى من القمع الإداري[65]. وعند تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 05 ماي 1931م أنتخب ابن باديس رئيسا لها، وفي هذه الجمعية تحمل المسؤوليات الجسام، فقد عمل مديرا لصحفها "السنة" والشريعة" والصراط" اللواتي صدرن تباعا سنوات 1933-1934م، ثم أصدر صحيفة البصائر في 27 ديسمبر 1935م التي توقفت هي الشهاب عشية الحرب العالمية الثانية سنة 1939م. فرضت عليه السلطات الاستعمارية الإقامة الجبرية بمدينة قسنطينة حتى وفاته

62- للاطلاع أكثر على هذه الصحف ينظر: المرجع نفسه، ص ص 253-259.

63- مطبقاني مازن صلاح حامد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939، عالم الأفكار، الجزائر، 2011، ص ص 65-68.

64- خدوسي رابح وآخرون، موسوعة الأدباء والعلماء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر، ط 3، 2003، ص 11-12.

65- حربي محمد، الثورة الجزائرية "سنوات المخاض"، تر. نجيب عياد، صالح المثلوثي، موفم للنشر، الجزائر، 1994، ص 177.

سنة 1940م.[66]

خلّف ابن باديس آثارا قيّمة في الفكر الديني والاجتماعي، كان لها الأثر الكبير على نخب الحركة الإصلاحية والوطنية الجزائريتين. ومن أهم تلك الآثار: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، وهو تفسير للقرآن الكريم ألقاه على طلابه ومستمعيه طيلة 25 سنة. ومنها أيضا مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ورجال السلف ونساؤه وهو كتاب تراجم، وأعلام وقصص، وفتاوى.. منها ما جمع بعد وفاته في كتب ومنها ما يزال متناثرا في بطون المجلات والصحف.

ب- **الشيخ البشير الإبراهيمي (1889-1965م):**

ينعت بالرجل الثاني والأكثر فعالية في الحركة الإصلاحية بعد ابن باديس. ولد الإبراهيمي خلال شهر جوان 1889م، في قبيلة أولاد براهم بسطيف، في بيت علم ودين؛ فنشأ في جوّ ساعده على النبوغ والتعلم، حيث زاول دروسه الأولى على يد عمه الشيخ المكي. وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره (1911م) رحل إلى المدينة المنورة مقتفيا آثار والده الذي سبقه إليها. وفي هذه الأخيرة نهل من معين المعرفة في فنون شتى منها: التفسير، والحديث، وعلم الأنساب... على يد أفذاذ الشيوخ العرب.[67]

في المشرق تعرف الإبراهيمي على فكر جمال الدين الأفغاني وزميله محمد عبده، وتلميذهما الشيخ رشيد رضا، كما تعرف على التيارات الفكرية والقومية التي كانت منتشرة إذ ذاك خصوصا بعد استقراره في دمشق سنة 1917 مع والده، وهناك عين أستاذا بالمدرسة السلطانية، وفي الوقت نفسه كان يقدم دروسا في مسجد الأمويين المشهور. وفي سنة 1922م، عاد الإبراهيمي إلى الجزائر، واستقر بمدينة سطيف، وفي هذه المدينة بدأ بممارسة الدعوة إلى التعليم الحرّ في مساجدها ونواديها.[68]

وفي سنة 1924 اتفق الإبراهيمي وصديقه ابن باديس خلال زيارة له بمدينة سطيف على إنشاء جمعية اقترحا لها اسم (الإخاء العلمي)، التي يبدو أنه لم يكتب لها أن ترى النور في ذلك الوقت. وفي السنة الموالية انضم الإبراهيمي إلى فريق المنتقد ثم الشهاب الإصلاحيتين. وعند تأسيس جمعية العلماء سنة 1931 عين نائبا للرئيس ابن باديس. وقد كلف بالدعاية الإصلاحية في جهة الغرب الجزائري (تلمسان ووهران)، وهناك قام بتدشين نشاط تعليمي كبير، رغم العراقيل الإدارية ومعارضة الطرقية هناك، وفي مدينة تلمسان افتتح مدرسة دار الحديث التي كانت بمثابة انتصار لنشاطه التعليمي.[69]

66- خدوسي رابح وآخرون، المرجع السابق، ص 12.

67- بو صفصاف عبد الكريم، المرجع السابق، ص 66.

68- MERAD Ali, Op.cit. p 83.

69- Ibid. p 84.

كانت مساهمات الإبراهيمي في إطار الحركة الإصلاحية مهمة وكبيرة، فقد ظل نائبا لرئيسها حتى وفاته، كما شارك باسم جمعية العلماء في المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936م، وكان من بين أعضاء الوفد الذي سافر إلى باريس شهر جويلية من السنة المذكورة لتقديم مطالب الشعب الجزائري إلى الحكومة الفرنسية. وعشية الحرب العالمية الثانية قامت السلطات الاستعمارية بنفيه إلى الجنوب الوهراني بسبب امتناعه عن إرسال برقية الولاء والتأييد لفرنسا في هذه الحرب، وبعد تحرره من منفاه في يوم 28 ديسمبر 1942 آلت إليه رئاسة جمعية العلماء، حيث كان هذا المنصب شاغرا منذ وفاة الرئيس ابن باديس[70]. ومنذ توليه رئاسة الجمعية اضطلع الإبراهيمي بمهام جسيمة في إطار الحركتين الإصلاحية والوطنية الجزائريتين، لكنه منذ سنة 1951 اختار الهجرة إلى القاهرة واستقر هناك. وعند اندلاع الثورة التحريرية أوكلت له مهام سياسية وثورية كداعية للجهاد. لكن الوفاق بينه وبين الثورة في القاهرة لم يستمر طويلا، حيث حكمت عليه جبهة التحرير الوطني بالإبعاد إلى باكستان. وبعد إعلان الاستقلال عام 1962 لم يتقبل الإبراهيمي نوع النظام ولا التوجه السياسي فآثر التخندق في صف المعارضة السياسية.[71]

لم يعمر الإبراهيمي طويلا بعد الاستقلال، إذ توفي في يوم 22 ماي 1965م، ورغم محدودية ما تركه الإبراهيمي من كتابات جمع أغلبها تحت عنوان عيون البصائر، أو تلك التي جمعها بنفسه فيما يعرف بسجل جمعية العلماء عام 1935، فإن الرجل قد ترك أثرا طيبا في نفوس المثقفين الجزائريين بخاصة بين أولئك المنتمين إلى التيار الإسلامي المعرب.[72]

ت- الشيخ الطيب العقبي (1888-1960م):

ولد الطيب العقبي سنة 1888م في قرية سيدي عقبة، التي صار ينسب لها. وفي مرحلة الله أعلم بها انتقل للعيش في الحجاز.[73] حيث استقر في المدينة المنورة قبل أن يرجع سنة 1920 إلى الجزائر ويقيم في بسكرة، وفي هذه المدينة بدأ العمل في نشر المنهج الوهابي الذي كانت تجذبه أفكاره التي تشربها في الحجاز، خاصة أفكاره ومبادئه الداعية لمقاومة البدع والهرطقات[74]. خلال سنة 1925، قرر العقبي الانضمام إلى الفريق الذي كان يحرر صحيفة "المنتقد" الباديسية، ثم الشهاب التي خلفتها في نوفمبر 1925. وأصبح من أبرز الشخصيات الإصلاحية خلال فترة العشرينيات، حيث عرف على صفحات أكثر الصحف انتشارا

70- بو صفصاف عبد الكريم، المرجع السابق، ص 68.

71- حربي محمد، المرجع السابق، ص 179.

72- بو صفصاف عبد الكريم، المرجع السابق، ص 71. وينظر أيضا:

MERAD Ali, Op.cit. p 83.

73- MERAD Ali, Op.cit. p 85.

74- أجرون ش. ر، المرجع السابق، ص 516.

حينذاك، مثل: صحيفة الحق، وصدى الصحراء، والإصلاح التي أصدرها بنفسه سنة 1927، فضلا عن المنتقد والشهاب الباديسيتين.[75]

وفي سنة 1931، توطدت العلاقة بين العقبي والمجموعة الإصلاحية الممثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث شغل في أول لجنة مديرة لهذه الجمعية وظيفة الأمين العام المساعد، حيث كلف بالدعاية الإصلاحية في العاصمة وضواحيها. وفي العاصمة التي اتخذها معقلا له، وفي نادي الترقي استطاع العقبي أن يشكل حوله دائرة من المستمعين والأنصار المعجبين بشجاعته الاحتجاج ضدّ الإدارة الاستعمارية؛ وذلك بإزعاج من تحمي من المرابطين والكهنوت الإسلامي[76]. ويبدو أن الوفاق والوصل بين العقبي والتيار الإصلاحي الممثل في جمعية العلماء لم يستمر طويلا، حيث انسحب العقبي من هذه الجمعية بعد دخوله السجن في مؤامرة دبرت للقضاء على الجمعية وإفشال المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي كانت العلماء طرفا فيه، وألصقت التهمة بالعقبي، وهذه المكيدة هي مقتل المفتي ابن كحول سنة 1936. وبعد هذا التاريخ بسنتين بدا الطلاق بائنا بين العقبي وابن باديس وجماعته بمناسبة الخلاف حول إرسال برقية التأييد لفرنسا في حربها ضد دول المحول، إذ أرسل العقبي ببرقية يدعم الجهد الحربي لفرنسا، في حين رفضت جمعية العلماء ممثلة في مجلسها الإداري الإدلاء بأي موقف وفضلت تجميد نشاطاتها الإصلاحية والدعائية.[77]

ظل العقبي يمارسه نشاطه الدعوي في العاصمة بعيدا عن جمعية العلماء إلى غاية وفاته فيها يوم 21 ماي 1960، لم يترك العقبي أي تأليف أو كتابات باستثناء ما تركه من مقالات وقصائد مبثوثة على صفحات الجرائد التي كان يحررها كـ: (المنتقد، والشهاب، الإصلاح والسنة والشريعة والصراط التي كان يحررها تباعا رفقة الشيخ السعيد الزاهري 1933-1934، البصائر...)، أو تلك الصحف التي كان يراسلها داخل أو خارجه. وفضلا عن التأليف والكتابة فقد ترك العقبي أثرا طيبا وجيلا من المثقفين العاصميين والجزائريين يشهدون بباعه الطويل في ميدان الدعوة والتعليم.[78]

ث- الشيخ مبارك الميلي (1897-1945م):

ولد مبارك الهلالي الميلي "مفكر المجموعة الإصلاحية دون منازع".[79] في سنة 1897م بالميلية (ولاية جيجل حاليا) في أسرة متواضعة جدا، زاول دراسته في ميلة ثم في قسنطينة بإشراف ابن باديس، كما انتقل إلى تونس حيث واصل تعليمه هناك. وبعد تخرجه من

75- MERAD Ali, Op.cit. p 85-88.

76- Ibid. p 88-90.

77- بو صفصاف عبد الكريم، المرجع السابق، ص ص 73-80.

78- خدوسي رابح وآخرون، المرجع السابق، ص 59.

79- أجرون ش. ر، المرجع السابق، ص 516.

الزيتونة اشتغل في التعليم الحرّ بقسنطينة،[80] ثم انتقل إلى الأغواط ليستقر فيها سنة 1927م، وهناك خلف الشيخ السعيد الزاهري في تسيير مدرسة حرة، عرفت باسم "مدرسة الشبيبة القرآنية"[81]. وفضلا عن الأدوار الدينية والثقافية التي قام بها الميلي في كل من الأغواط حتى سنة 1933، وبوسعادة، وميلة التي كانت آخر معقل إصلاحي له، فإنه كان أحد المساهمين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي أصبح أمين ماليتها منذ 1931. وفي سنة 1936 أسندت له الجمعية مهمة إدارة جريدة البصائر خلفا للشيخ الطيب العقبي. وبعد وفاة ابن باديس كلف بمواصلة مهمة الشيخ الرئيس، فكان المدرس والداعية الإصلاحي بالجامع الأخضر في مدينة قسنطينة، تولى الشيخ مبارك هذه الخلافة إلى غاية وفاته في 9 فيفري 1945م.[82]

ورغم حياة الميلي القصيرة إلا أنها كانت ذات تأثير كبير في الحركتين الوطنية والإصلاحية في الجزائر؛ وذلك لما قام به من جهد إصلاحي ولما خلفه من آثار علمية معتبرة. ففي سنة 1928 ألّف الجزء الأول من كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، وأردف الجزء الثاني سنة 1932، وهو كتاب للتاريخ الوطني الجزائري أراده أن يكون أداة استفاقة للشعب الجزائري. أما الكتاب الذي أظهره كمنظر مذهبي ونقدي للحركة الإصلاحية الجزائرية، هو كتاب "رسالة في الشرك ومظاهره" الذي نشر في عام 1937، وظهر هذا الكتاب بحق كدستور للحركة الإصلاحية وأداة من أدوات محاربة الطرق والزوايا.[83]

4. 2. تراجم لبعض أعلام الإصلاح في الجنوب الشرقي الجزائري:

أ- الزاهري محمد السعيد (1900-1956م):

شاعر وأديب وكاتب صحفي من الرعيل الأول للحركة الإصلاحية الجزائرية، ولد بليانة (بسكرة) سنة 1900م،[84]تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى قسنطينة حيث تتلمذ على يد الإمام عبد الحميد ابن باديس بالجامع الأخضر. ثم ارتحل إلى تونس التي مكث فيها زهاء سبع سنوات ينهل من معين جامع الزيتونة، الذي نال فيه شهادة التطويع عام 1924م[85]. وبعد تخرجه من جامع الزيتونة رجع الزاهري إلى الجزائر ليساهم في الحركة

80- MERAD Ali, Op.cit. p 105.

81- بالعجال أحمد، 2018، الشيخ محمد السعيد الزاهري "فكره وآراؤه السياسية" (1900-1956)، دكتوراه علوم في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة قسنطينة (2) عبد الحميد مهري، الجزائر، ص 126.

82- MERAD Ali, Op.cit. p 101.

83- أجرون ش. ر، المرجع السابق، ص 516.

84- بالعجال أحمد، المرجع السابق، ص 105.

85- مصمودي فوزي، أعلام من بسكرة "تراجم لشخصيات علمية وثقافية ونضالية وثورية"، الجمعية الخلدونية، بسكرة، 2001، ص 63.

الأدبية والإصلاحية التي بدأت ترى النور مع ابن باديس وأصحابه. حيث ظهر كصحفي فذّ وصاحب قلم بارع. أسس مجموعة من الصحف ذات الطابع الإصلاحي والوطني، منها: "الجزائر" سنة 1925، و"البرق" سنة 1927، و"الوفاق" سنة 1938، و"المغرب العربي" 1947 ثم 1955، "عصا موسي" 1950. وتم تكليفه بتحرير صحف جمعية العلماء "السنة" و"الشريعة" و"الصراط" 1933-1934 رفقة الشيخ العقبي.[86] كما كان له إنتاج وافر في صحف ومجلات جزائرية ومشرقية ومغربية أخرى، منها: "النجاح"، "الإقدام" للأمير خالد، و"صدى الصحراء" لعابد الجلالي، "الجحيم"، و"الرسالة" و"المقتطف" و"الفتح" المصرية، و"القلم الحديدي" لإيلياء أبو ماضي، و"الزهرة" و"النهضة" و"الوزير" التونسية، و"المغرب" المغربية...[87]

انتسب الزاهري إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان عضوا لمجلسها الإداري ما بين 1932-1936، لكنه انسحب من عضويتها لخلاف حدث بينه وبين أحد أعضائها. وبعدها انضم إلى حزب الشعب بعد تأسيسه عام 1937، ثم إلى الحزب الشيوعي الجزائري منذ 1938، وصار محررا لصحيفة "الوفاق" الناطقة باسمه. وبعد الحرب العالمية الثانية التحق بحزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، مكلفا بجهاز الدعاية والإعلام فيها، محررا لصحيفة المغرب العربي التي توقفت عن الصدور سنة 1949. وخلال سنة 1955 أعاد إصدارها غير مبال بقرارات جبهة التحرير الوطني الداعية لإيقاف كل منبر إعلامي غير الذي يمثل جبهة التحرير الوطني[88]. فكان أن حذرته الجبهة لكنه لم ينصاع فأمرت بتصفيته، وفي يوم 19 ماي 1956. وجد مقتولا في أحد شوارع العاصمة. تاركا وراءه تراثا صحفيا ما يزال مبثوثا في لفائف الصحف، ومجموعة من المؤلفات لم تجد طريقها للنشر إلا واحد، وهو كتاب "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير".[89]

ب- **العمودي محمد الأمين (1890-1957م):**

ولد بواد سوف سنة 1890م. درس في كتاتيبها وبالمدرسة الابتدائية الفرنسية، ثم انتقل إلى قسنطينة حيث تخرج بشهادة في المحاماة والترجمة. أنتخب أمينا عاما لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها حتى سنة 1935؛ وذلك لمقدرته بالقلمين العربي والفرنسي. وعمل وكيلا شرعيا ما بين بسكرة والعاصمة. وساهم بعمله في حقل الصحافة باللغة الفرنسية، حيث أنشأ جريدة الدفاع(**La défense**) للدفاع عن حقوق المسلمين

86- السابق، ص 63 وما بعدها.

87- بالعجال أحمد، المرجع السابق، ص 131-132.

88- خدوسي رابح وآخرون، المرجع السابق، ص 45. وأنظر أيضًا: بالعجال أحمد، المرجع السابق، الفصل الثاني وما بعده.

89- بالعجال أحمد، المرجع السابق، ص 123-125.

الجزائريين، حيث استطاع حمل المواضيع الإصلاحية إلى المثقفين ثقافة فرنسية. وقد تميز بقلم فياض وأسلوب يجمع بين النقد والفكاهة، شارك به في جل الصحف الإصلاحية. كما كان له شعر رقيق تطغى عليه نغمة حزن ويأس من الحياة. اغتالته "اليد الحمراء" الإرهابية في أكتوبر 1957 في العاصمة.[90]

ت- آل خليفة محمد العيد (1904-1979م):

أديب، وشاعر، وكاتب، انضم إلى الفريق الإصلاحي في مدينة بسكرة. من أصل سوفي، ولد في عين البيضاء (ولاية أم البواقي حاليا) في 09 أوت 1904، بدأ تعليمه لأول في مسقط رأسه، ثم أكمل تنشئته الإسلامية في بسكرة حيث ارتحلت عائلته إليها في فترة غير بعيدة عن مولده. ومثل الكثيرين من أقرانه من الجزائريين شدّ محمد العيد الرحال إلى جامع الزيتونة، الذي لم يمض فيه إلا سنتين وعاد بعدهما إلى بسكرة سنة 1924. وفي بسكرة بدأ نشاطه كمحرر في صحيفة "صدى الصحراء" رفقة العمودي وآخرين. كما ساهم في تأسيس صحيفة الإصلاح لصاحبها الطيب العقبي (1927)، وفي عام 1929، أوكلت إليه إدارة "مدرسة الشبيبة" بالعاصمة، حيث استمر يقوم بهذه المهمة مدة عشر سنوات قبل أن ينسحب راجعا إلى مدينة باتنة حيث سيواصل نفس المهمة ويقوم بإدارة مدرسة حرة هناك.[91]

وعند تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين انضم محمد العيد إلى صفوفها، وبدأ يسجل حضوره كأحد أهم شعرائها، وهكذا كان محمد العيد معبرا عن الإصلاح ولسان جمعية العلماء في أكثر من ميدان، وكان ينشر قصائده في أهم الصحف الجزائرية، ك"الشهاب"، و"الإصلاح"، "السنة"، "الشريعة"، "الصراط" و"البصائر"، و"المرصاد" و"الثبات"، و"المنار" وغيرها من الصحف الجزائرية. وخلال حرب التحرير، زج بشاعرنا في السجن، حيث لم يطل سجنه وأطلق سراحه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في بسكرة. وبعد الاستقلال استقرّ في مدينة باتنة إلى أن وافاه أجله فيها في يوم 31 جويلية 1979، ودفن في بسكرة[92].

ترك محمد العيد قصائد كثيرة تبارى الباحثون في جمعها في دواوين، أهلته إلى حمل الألقاب في هذا الفن، منها: شاعر الشباب، وشاعر الجزائر الحديثة، وشاعر الشمال الإفريقي... وفضلا عن الشعر ترك محمد العيد رواية "بلال بن رباح" وهي مسرحية شعرية[93].

90- محمد ناصر، المقالة الصحفية...، المرجع السابق، ص 237.

91- جغلول عبد القادر، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر. تر. سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1984، ص ص 82-83.

92- هلال عمار، المرجع السابق، ص 119.

93- خدوسي رابح وآخرون، المرجع السابق، ص 157.

5. برنامج علماء الإصلاح:

كانت هذه الشخصيات الإصلاحية تلتف مبدئيا حول برنامج عام للفكرة الإصلاحية، التي تستمد مشروعيته من مصدر مشترك، وهو الإسلام الصحيح، الإسلام المستلهم من القرآن والسنة وفهم السلف الصالح وجمهور علماء الإسلام المنتمين لمذاهب السنة الأربعة. وكان هذا البرنامج يشكل منظومة واحدة تتفرع عنها مقولات أو جزئيات مشكلة ما يمكن تسميته المذهب أو المنهج الخاص بهذه الجماعة. ويمكن رسم صورة تلك الجماعة من خلال التوجهات التالية:

5. 1. التوجه الديني والعقدي:

لقد كانت المنطلقات الفكرية التي أطرت نظرة علماء الإصلاح في الجزائر منسجمة مع الواقع الذي كان يعيشه في ظل الواقع الاستعماري، فالاستعمار باعتباره عدوا كافرا لا يمكن مواجهته إلا بالنهوض بالمجتمع المسلم من جوانب كثيرة. معتمدين أساسا على الرجوع إلى منابع الدين الإسلامي الصحيح واقتفاء أثر السنة النبوية الشريفة وعدم الاحتكام إلى سيرة الأفراد إلا بعد وضعها على محك القرآن والسنة،والعمل على نشر ثقافة إسلامية والقضاء على الجهل والخرافات و"البدع" التي انتشرت بين رجال معظم "الطرق" الصوفية، التي ساعد على انتشارها -أو تدجينها- الاستعمار الفرنسي.[94]

وللإشارة فإن التنظيم الطرقي كان مقاوما وثوريا في بدايات الاحتلال، يحارب الاستعمار ثم تحول إلى المسالمة والخضوع، كما استحال التصوف إلى فكر استسلامي وانهزامي، غايته التصديق بالغيب، وهدفه الدعوة إلى المبالغة في الإيمان به، والتسلط على العوام واللعب بعقولهم لينالوا من أموالهم ما يشاءون، وقد رفع هؤلاء المتصوفة ورجال الطرق شعارا فكريا يكرس التقليد، اتخذوه سلوكا فكريا ومن خرج منه ضل ضلالا بعيدا، وهو «اعتقد، ولا تنتقد!».[95] لهذا انتشر التصوف الذي يدعو إلى الزهد ويرغب فيه، ويرغب عن الحياة العامة والحياة السياسية، فشجع الاستعمار هذا النوع من التصوف الذي فيه إهمال للشعور الوطني والعزوف عن السياسة وبالتالي الحياة الكريمة التي تقوم على الحياة السياسية الكاملة، من أجل ذلك ترك الاستعمار الحرية لهذه الطرق ما دامت أفكارها تخدم توجهه في السيطرة على الجزائريين ولا تهدد وجوده في هذه البلاد، فلم يغلق مدارسها ولا صحفها التي كانت كثيرة الانتشار.[96]

وهذه الحال التي آل إليها التصوف والطرق الصوفية، هي التي جعلت علماء الإصلاح

94- الركيبي عبد الله، المرجع السابق، ص 562.

95- عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2003، ص 351.

96- مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 38.

والعلماء في الجزائر يقفون في وجه الطرق الصوفية، ويشنون عليها حربا شعواء، حيث بالغوا في انتقادها، واتهموها صراحة بأنها السبب المباشر والأقوى في كثير مما حل بالعالم الإسلامي من الأرزاء والنكبات، وكثيرا ما كانت مفتاحا لاستعمار ممالكه.[97] لهذا شكلت محاربة البدعة والخرافة أولوية الحركة الإصلاحية الجزائرية، ويبدو أن علاقة الطرقية بالاستعمار وسلوك زعمائها هو ما دفع بهؤلاء العلماء بأن يجعلوا من محاربة الطرق من أولى أولوياتهم. فقد استشنع العقل الإصلاحي البدعة، ولم يوقر أصحابها. فكثيرا ما كان يخوض فيما كانت تأتيه من "خرافات"، و"تقاليد بالية" ليست من الدين في شيء. ونظرا للسلبية التي كانت تلك الطرق تنشرها في أوساط الجزائريين، خدمة للمستعمر وبمساعدته، عدّ العلماء المصلحون في الجزائر مقاومة الطرقية ضمن أولويات مقاومة المحتل.[98]

والدارس لتاريخ هذه المرحلة من تاريخ الجزائر يلاحظ أن معركة المصلحين والطرقية كانت طويلة المدى والنفس؛ لأنها توجهت في المقام الأول إلى التراث الابتداعي الراسخ في الممارس الشعبي لاجتثاثه من جذوره، ثم التوجه إلى ثقافة العلماء لتصويب رؤيتها السنية ودرء الشبهات عنها، بل وانغماس رجالها في إعادة إنتاج الخرافة. والواقع أن هذه المهمة كانت صعبة على الصعيدين. فلم يكن من السهل على العلماء المساس بالمعتقد الشعبي المرتبط ببعض العادات كزيارة أضرحة الأولياء التي كان يقيمها أتباع الطرق الصوفية، كما لم يكن من اليسير أيضا ردم الهوة وإحداث تقارب فيما يخص بعض المسائل الخلافية بينهم وبين رجال الطرق، كقراءة القرآن على الأموات، والوسيلة بالنبي ﷺ وبالأولياء المبجلين عندهم. وإن كان هذا الخلاف والجدل كان بين الفئة العالمة، فإنه كثيرا ما كان يتحول إلى صراع ومهاترات بين الأنصار والمريدين. وكثيرا ما أخذ هذا الخلاف شكلا عنيفا، وتدرج إلى السباب والشتم والتقاطع، وأنشأ الطرفان لذلك صحافة لمهاجمة الخصم. بالنسبة للعلماء فقد كانت صحافتهم أقل فحشا من غيرها. فصحيفة كالمنتقد أو الشهاب أو الإصلاح نأت بنفسها عن السقوط في هذه المستنقع[99].

وعلى كل، فإنه يجب القول بهذا الصدد بأن التعارض بين النزعتين الإصلاحية والطرقية باعتبارهما نزعتان واحدة تروم التطور والإصلاح، وأخرى تمثل المحافظة الإسلامية والدفاع عن التقاليد المحلية في المجال الديني. والملاحظ في هذا الصراع أن ما بلغه في الجزائر لم يبلغه في أي بلد آخر؛ بسبب الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية الخاصة بهذا البلد،

97- الإبراهيمي محمد البشير، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الكتب، الجزائر، 1982، ص 36.

98- أحمد بالعجال، 2006، الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد السعيد الزاهري(1900-1956)، ماجستير في تاريخ وحضارات البحر الأبيض المتوسط، معهد العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، ص ص 48 وما بعدها.

99- بن العقون عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ص 170-173.

ذلك لأن الصراع مذهبي في الأساس تعقد فيما بعد بسبب الخلافات السياسية بين الطرفين، فضلا عن التضاد حول بعض الآراء الدينية والاختلافات المذهبية التي لا يمكن التنازل عنها من أي طرف.[100]

2.5. التوجه الثقافي للعلماء:

كان حاضرا في تفكير النخبة الإصلاحية الجزائرية، وفي غيرها من البلاد العربية المستعمرة، أن الدفاع عن الهوية لا يعني الدفاع عن الدين والانتماء إليه كعقيدة فقط، بل يعني الانتماء إلى حقل إيديولوجي وثقافي، من هنا عدّ الدفاع عن اللغة والتعليم في نظر هذه النخب وفي إنتاجهم الفكري محورا أساسيا يضاهي الأهمية التي أوليت للإصلاح الديني، وأعتبر إصلاح اللغة كشرط للإصلاح الكلي؛ لهذا كان الاهتمام بإصلاح التعليم، وفي حالة الجزائر، وهي البلاد التي تعرضت شخصيتها لأعمق الشروخ، دينيا، ولغويا، وثقافيا... فقد شكل الدفاع عن التعليم العربي والدعوة إلى تعميمه، موضوعا مركزيا في مضمار مقاومة الاستعمار والعمل على تجاوز مضاعفاته على عروبة الجزائر وانتمائها الإسلامي. وكان من الطبيعي أيضاً في قطر مثل الجزائر تعرضت شخصيته للمسخ والتشويه المنظم، دينيا ولغويا وثقافيا، أن يشكل الدفاع عن التعليم أهم مقومات الإصلاح، وموضوعا مركزيا في مضمار مقاومة الاستعمار والعمل على الحدّ من تأثيره السلبي على وعي الانتماء للعروبة والإسلام، الأمر الذي يعكس ذلك الكم الهائل من الكتابات في مثل هذا الموضوع، وتلك العرائض المطالبة بتوسيع دائرة التعليم الأهلي، العربي أو الفرنسي[101].

وكان العلماء أكثر اهتماما من غيرهم بإنشاء المدارس الحرة المستقلة، ولتحقيق هذا الهدف كونوا جمعيات تربوية بيداغوجية. وعملوا على إقناع الجزائريين بأن من الواجب عليهم مساعدة هذه المدارس ماديا وإرسال أبنائهم إليها، كما حثوا الناس على الاهتمام باللغة العربية والدفاع عنها مقررين بأنه: "من يبتعد عن اللغة العربية فقد ابتعد عن عبادة الله، ومن يبتعد عن عبادة الله فسيلاقي عذابا شديدا"[102].

وسوف يظهر اهتمام العلماء أكثر بالتعليم العربي الحرّ بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هذه الجمعية جاء في قانونها الأساسي بأنها جمعية دينية تهذيبية، لذلك فقد أخذت على عاتقها تدريب الشباب الجزائري على مكارم الأخلاق في إطار الكشافة الإسلامية، وبواسطة الدعوة والإرشاد، كما كانت تعليمية تعمل على نشر التعليم العربي، من خلال إنشاء العديد من المدارس الحرة في مختلف القطر الجزائري؛[103] ورغم التضييق

100- MERAD Ali, Op. Cit. p 51.

101- أحمد بالعجال، المرجع السابق، ص 212.

102- بو صفصاف عبد الكريم، المرجع السابق، ص 136.

103- Robert Montagne, Op.cit. p 129.

الشديد على المدارس العربية إلا أن عدد مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد بلغ المائة وإحدى وثمانين مدرسة حرة، كان يختلف إلى ما يناهز الأربعين ألف طفل جزائري.[104]

3.5. التوجه الوطني والسياسي للعلماء:

يرى بعض الباحثين بأن الفعل السياسي عند العلماء ارتبط ارتباطا وثيقا بالفعل الديني؛ حيث كانوا يرون أنه لا يمكن فصل العقيدة والنهوض بالثقافة العربية عن توجه سياسي يصبو نحو العروبة والوطنية الجزائرية. ويبدو من السهل ملاحظة النقاط المذهبية المختلفة للعلماء، من خلال دفاعهم عن العروبة، الذي يعدّ موقفا عاطفيا بالأساس ودينيا، إلى القومية العربية السياسية، وقد تأكد هذا التوجه خلال فترة الثلاثينيات خصوصا بعد انعقاد مؤتمر القدس 1931[105]. ورغم أن العلماء الجزائريين كانوا يعدون أنفسهم كرجال دين يتورعون صراحة عن ممارسة النشاط السياسي، سواء أكان ذلك من باب القناعة الشخصية أو من باب الحيطة والحذر والتقية، فإن الإصلاحيين الكبار كانوا يرون أن السياسة غريبة عن حركتهم، التي لا تنشد غير إصلاح أخلاق ودين الجزائريين؛ ويمكن أن نرى في شخص العقبي المثال الحي لهذا التوجه، فقد رفض في بداياته الإصلاحية الالتحاق بالفريق الباديسي وبجمعية العلماء إلا بعد أن تلقى ضمانات بأن الحركة تريد أن تكون "حزبا دينيا ليس إلا"[106].

وعند تأسيس جمعية العلماء المسلمين جاء التأكيد واضحا على هذه الصفة، أي "الدينية التهذيبية"،[107] ورغم هذا التأكيد فإن ممارسة الإصلاح بمعناه الشامل، الذي يبدأ بالثقافة والدين وينتهي بالنظر في قضايا المجتمع وجميع مظاهر الحياة بما في ذلك السياسة، هذا الأمر جعل العلماء يصطدمون بالإدارة الفرنسية في أكثر من مناسبة، مما جعلهم يبدون في نظر البعض لا يختلفون عن حزب سياسي يتفاعل في كل القضايا التي تهم الشعب الجزائري[108]. ففي البداية طغى على النشاط السياسي للحركة الإصلاحية الحرص على المحافظة على كيان الشخصية المسلمة الجزائرية، حيث كانوا يكافحون من أجل الحفاظ على قانون الأحوال الشخصية الإسلامي؛ والدفاع عن اللغة العربية؛ والمطالبة بتطبيق قانون فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية؛ كما سعوا أيضا إلى حماية مجتمعهم من تأثيرات المجتمع الأوروبي والمجموعة الجزائرية المفرنسة التي أنكرت وجود أمة

104- مرتاض عبد الملك، المرجع السابق، ص 55.

105- أجرون ش. ر، المرجع السابق، ص 527.

106- Robert Montagne, Op.cit. p 473.

107- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المصدر السابق، ص 72.

108- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية... ج 3، المرجع السابق، ص 88.

جزائرية.[109] فجاءها ردّ ابن باديس في أبريل 1936 على زعيمها فرحات عباس حين قال: « إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ، وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة، كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة، وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا...»،[110] بهذا تتضح المعالم السياسية لهذا التيار وإن نأى أن ينعت نفسه بالسياسي هروبا من المضايقات البوليسية، وقد برز هذا التوجه السياسي من خلال مشاركة الجمعية في مؤتمر سنة 1936.

كما كان للعلماء مواقف سياسية أخرى أكثر وضوحا وتعبيرا عن رفض الجمعية للسياسة الفرنسية، تمثلت في معارضة العلماء لمقترحات التجنيس الجماعي للجزائريين ومنحهم الحقوق السياسية، ففي جويلية جاء الردّ مدويا يعلن "رفض خمسة ملايين جزائري لن يقبلوا بالتجنيس ولا بأي حقوق سياسية".[111] كما اعتبرت فتوى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن التجنيس يعتبر خروجا عن دين الإسلام، وأن من مات من المتجنسين مات على ردّة[112]. وأما أخطر موقف يحسب للعلماء، هو موقف ابن باديس الذي عبر فيه عن موقف ثوري –ربما يدحض كثيرا من التهم التي كانت تنعت العلماء بأنهم قد تأخروا عن الركب في المطالبة بالاستقلال والانعتاق؛ فقد روي عن ابن باديس أنه قال سنة 1937: "إن الاستقلال لا يطلب ولا يعطى، ولا يمكن نيله بالأقوال بل بالأفعال".[113] وقال أيضا بأن الاستقلال حق طبيعي لكل شعب على الأرض، وعارض هو وأنصار الاندماج بشدة واعتبره خطرا على وجود الكيان الجزائري. كما روي عنه أنه كان يفكر في الثورة لتحرير الجزائر خلال الحرب العالمية الثانية، لكن الموت عاجله سنة1940، وبقي طموحه في نيل الاستقلال في أنفس طلابه ومريديه.[114]

6- خاتمة:

من خلال هذه الورقة البحثية يمكن أن نستنتج استنتاجات وأن نستخلص استخلاصات نثبتها في الآتي:

- أن الإصلاح مفهوم كانت تنشده النخب الجزائرية، هو إصلاح يجد مرجعيته في السنة النبوية التي تدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وهو محاولة إلى تطبيق الإسلام

109- Robert Montagne,Op.cit. p 485.

110- خرفي صالح، الجزائر والأصالة الثورية، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ت)، ص 22.

111- أجرون ش. ر، المرجع السابق، ص 529.

112- ابن باديس، فتوى جمعية العلماء في التجنيس والمتجنسين، البصائر، ع 95، س 3، 14 جانفي 1938، ص 2.

113- أجرون ش. ر، المرجع السابق، ص 531.

114- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية... ج 3، المرجع السابق، ص 88.

الصحيح، إسلام الوحي والسنة وفهم السلف الصالح وجمهور العلماء.

- كما أن الإصلاح الجزائري يجد له تأثير وصلة بغيره من حركات الإصلاح التي ظهرت في المشرق العربي، مثل حركة ابن عبد الوهاب، ودعوة محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وغيرهم من المصلحين الذين كان لهم أثر مباشر أو غير مباشر على النخب الجزائرية المثقفة.

- يعود الفضل في ظهور الحركة الإصلاحية الجزائرية إلى شخص عبد الحميد ابن باديس، وفريقه الذي التف حول مجلتي المنتقد والشهاب سنة 1925؛ لذلك اعتبرت هذه السنة البداية الفعلية لميلاد حركة الإصلاح الجزائرية.

- التف الفريق الباديسي حول منهج أو مذهب يعتمد أساسا على الرجوع إلى منابع الدين الإسلامي الصحيح واقتفاء أثر السنة النبوية الشريفة وعدم الاحتكام إلى سيرة الأفراد إلا بعد وضعها على محك القرآن والسنة.

- كان الرعيل الأول للحركة الإصلاحية قد تخرج من مدارس عبد الحميد ابن باديس، أو في الزيتونة في تونس، وآخرين قد تلقفتهم مدارس المشرق. من أبرز هؤلاء نجد: الطيب العقبي، والبشير الإبراهيمي، ومحمد السعيد الزاهري، والأمين العمودي، ومحمد اللقاني بن السايح... وهناك خلق كثير ممن نحى نحوهم واقتفى أثرهم.

- أهم المقولات الأساسية في فكر العلماء هو تنقية الدين من الخرافات والبدع وهذا ما جعلهم في صراع أو تنافي مع أهل الطرق الصوفية.

- قام المذهب الثقافي للعلماء على ركيزة مهمة وهي الدعوة إلى الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية للجزائر، وتأكيدها عن طريق الاهتمام بالتعليم العربي وتأكيد الروابط القومية.

- أما سياسيا فإن العلماء الذين اختاروا الابتعاد عن السياسة، وصرحوا بذلك في كتاباتهم وفي قانون جمعيتهم، كانوا سياسيين كغيرهم من السياسيين؛ حيث حاولوا التعاطي مع القضايا التي تهم الشعب الجزائري، مثل: مسألة التجنيس، وفصل الدين عن الدولة، والحفاظ على الشخصية الجزائرية، كما ناقشوا أمورا أخرى أكثر خطورة كمسألة الاستقلال والكفاح من أجل التحرر.

- هذه الخطوط العريضة لبرنامج العلماء من تبناها كان من عداد المصلحين، ومن حاد عنها وخالفها كان من عداد خصومهم وهم السواد.

7- قـائمة المراجع:

القرآن والتفسير وكتب الحديث:

- **القرآن الكريم**، مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ، إ 2، المدينة المنورة، 1436هـ.

http://nashr.qurancomplex.gov.sa/site/

- السعيدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000.
- ترمذي محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، تح، محمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط 1، 1383هـ.
- **المؤلفات:**
- أجيرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة "من انتفاضة 1871إلى اندلاع حرب التحرير 1954"، مج 2، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- أندري درليك، عبد الحميد بن باديس (1889-1940) مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، تر. مطبقاني مازن صلاح حامد، عالم الأفكار، الجزائر، 2013.
- أومليل علي، الإصلاحية والدولة الوطنية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1982.
- بلقزيز عبد الإله، أسئلة الفكر العربي المعاصر، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 1، 2001.
- بلقزيز عبد الإله، الخطاب الإصلاحي في المغرب "لتكوين والمصادر"، دار المنتخب العربي، بيروت، ط 1، 1997.
- بن العقون عبد الرحمن، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر 1920-1936، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، الجزائر، ط 5، 1986.
- بو صفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945 "دراسة تاريخية وأيديولوجية مقارنة"، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1992.
- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 4،2003.
- الجابري محمد الصالح، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- جغلول عبد القادر، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر. تر. سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1984.
- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الشيخ سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2008.
- حربي محمد، الثورة الجزائرية "سنوات المخاض"، تر. نجيب عياد، صالح المثلوثي، موفم للنشر، الجزائر، 1994.
- خرفي صالح، الجزائر والأصالة الثورية، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ت).
- خدوسي رابح وآخرون، موسوعة الأدباء والعلماء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر، ط 3، 2003.
- الركيبي عبد الله، الشعر الديني الجزائري الحديث، ط 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 3،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1،

.1990
- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، منشورات دار الآداب، بيروت، ط 1، 1969.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 5، عالم المعرفة، الجزائر، ط خ، 2011.
- سعيد بنسعيد، والسيد ولد أباه، عوائق التحول الديمقراطي في الوطن العربي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2006.
- شيبان عبد الرحمن، حقائق وأباطيل، دار ثالة، الجزائر، ط 2، 2009.
- طهاري محمد، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 2، 1992.
- الغراب سعد، العامل الديني والهوية التونسية، (سلسلة الموافقات)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990.
- غربال محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، مج 1، دار الجيل، بيروت. لبنان،ط 2، 2001.
- مرتاض عبد المالك، الإسلام والقضايا المعاصرة، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.
- مصمودي فوزي، أعلام من بسكرة "تراجم لشخصيات علمية وثقافية ونضالية وثورية"، الجمعية الخلدونية، بسكرة، 2001.
- مطبقاني مازن صلاح حامد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939، عالم الأفكار، الجزائر، 2011.
- ناصر محمد، الشعر الجزائري الحديث "اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 2006.
- ناصر محمد، المقالة الصحفية الجزائرية "نشأتها، تطورها، أعلامها" من 1903 إلى 1930. مج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1978.
- **الأطروحات**:
- بوقرة زيلوخة، 2009،سوسيولوجيا الإصلاح الديني في الجزائر "جمعية العلماء المسلمين أنموذجا،" ماجستير في علم اجتماع الدين، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة.
- أحمد بالعجال، 2006، الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد السعيد الزاهري(1900-1956)، ماجستير في تاريخ وحضارات البحر الأبيض المتوسط، معهد العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة.
- بالعجال أحمد، 2018، الشيخ محمد السعيد الزاهري "فكره وآراؤه السياسية" (1900-1956)، دكتوراه علوم في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة قسنطينة (2) عبد الحميد مهري.
- **المقالات:**
- ابن باديس، فتوى جمعية العلماء في التجنيس والمتجنسين، البصائر، ع 95، س 3، 14 جانفي 1938.
- البصائر، ع 47. س 1، 1936/12/11.
- الزاهريم.س، مكانة مصر في المغرب العربي، الرسالة، ع 135، (القاهرة)، 1936/2/3.
- الميلي مبارك، الإصلاح "حاجتنا إليه، أبوابه، وسائله، أسلوبه"، **الإصلاح**، ع 5، س 3،

1929/10/17، 1-4.

- هلال عمار، الحركة الوطنية في الجنوب الجزائري "تطوراتها ورجالها"، (الحلقة الأولى)، مجلة الثقافة، ع 101، س 18، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1988، ص ص 101-120.
- القرضاوي يوسف، الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة، مجلة الأمة، ع 45، س 4، جوان 1984.
- **مراجع باللغة الأجنبية:**
  - Encyclopédie de l'islam (ISLAH). T 4, Maisonneuveet Larousse. Paris. 1978.
  - Merad Ali, le réformismemusulman en Algérie de 1925 à 1940, 2eme éd. Leséditions El hikma, Alger, 1999 .
  - Robert Montagne, La fermentation des partispolitiques en Algérie, Politiqueétrangère, C.E.P.E, Paris, n° 2, 2eme Année, Avril 1937, P 118-133.

صراع اللسان العربي بين المستعمر ورجال الإصلاح في الجنوب الشرقي الجزائري
ـ نماذج مختارة-

The struggle of the Arabic tongue between the colonizer and the reform men in the southeast of Algeria - selected models

د/ محمد الحاكم بن عون
مخبر البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر،
جامعة الوادي (الجزائر)
Benaoun-mohammedelhakem@univ-eloued.dz

ط.د/ محمد العايبي
مخبر البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر،
جامعة الوادي (الجزائر)
mlaibi1@gmail.com



ملخص:

يمثل لسان كل مجتمع الخيط الناظم لتاريخه وهويته وإرثه الحضاري، وما إن يضعف هذا الخيط أو تمسّه عاديات الزمن، حتى تتسع الهوة بين المجتمع وإرثه الحضاري وتظهر القطيعة بينه وبين قيمه التي يتميز بها، ونتيجة تلك القطيعة، يبدأ بعد ذلك في اكتساب قيم دخيلة عن إرث مجتمعه، ولا تمت إلى قيمه الممسوخة بصلة، مما ينجر عنه مجتمع متعدد القيم رغم وحدة أصله.

من هذا المنطلق عمل المستعمر الفرنسي في بلاد المغرب العربي بشكل عام وفي الجزائر بشكل خاص على طمس الهوية الحضارية للشعب الجزائري، وإنتاج مجتمع جديد بقيم جديدة، وبما أن اللسان العربي هو الرافد الأساسي للحضارة والفكر الجزائري، فقد عمل المستدمر الفرنسي على إضعافه ثم إحلال لغته -الفرنسية- محلها لتكوين جيل من المؤمنين بالفكر الغربي، غير أن الشعب الجزائري بقي صامدا متصديا لهذه السياسة، متمسكا بلغته وعروبته، ويتجلى ذلك من خلال المقاومة الثقافية التي حاولت الحفاظ على الإرث الثقافي في المساجد والزوايا والكتاتيب، ومع مطلع القرن العشرين برز رجال الإصلاح الذي ضحوا بالنفس والنفيس من أجل الحفاظ على هوية بلادهم الجزائر العربية المسلمة، ومن بين هؤلاء الشيخين محمد الأمين العمودي ومحمد الأخضر السائحي.

وتتلخص أهمية هذا البحث في نقطتين أساسيتين أولاهما تتعلق بكشف القطيعة الحضارية التي حاول الاستعمار الفرنسي خطّها لإبعاد الجزائري المسلم عن حضارته وقيَّمه، أما الثانية فتتمثل في إبراز دور رجال الإصلاح في الجنوب الشرقي الجزائري الذين دافعوا عن

اللسان العربي، لادراكهم بأن المسلمين وحّدهم الدين ورابطهم هو اللسان العربي الذي لا يصِحُّ الإسلام إلا به.
الكلمات المفتاحية: اللسان، العربي، المستعمر، الفرنسي، رجال، الإصلاح.
Summary:
The tongue of every society represents the thread that organizes its history, identity and cultural heritage. his society, and it has nothing to do with its distorted values, which leads to a multi-valued society despite the unity of its origin.
From this standpoint, the French colonizer in the countries of the Maghreb in general and in Algeria in particular worked to obliterate the civilizational identity of the Algerian people, and to produce a new society with new values, and since the Arabic tongue is the main tributary of Algerian civilization and thought, the French colonizer worked to weaken it and then replace its language - French - its place to form a generation of believers in Western thought. However, the Algerian people remained steadfast in confronting this policy, adhering to their language and Arabism, and this is evidenced by the cultural resistance that tried to preserve the cultural heritage in mosques, corners and schools, and with the beginning of the twentieth century, the reform men who sacrificed With self and precious in order to preserve the identity of their country, Arab and Muslim Algeria, and among these two sheikhs, Muhammad Al-Amin Al-Amoudi and Muhammad Al-Akhdar Al-Saihi.
The importance of this research is summarized in two main points, the first of which relates to revealing the civilizational estrangement that the French colonialism tried to line to distance the Algerian Muslim from his civilization and values. The Arab who is not correct Islam without him.
Keywords: the tongue, the Arab, the colonizer, the Guernsey, men, the reform.

مقدمة

الفرنسة هي إحلال اللغة الفرنسية وثقافتها في أوساط المجتمع الأصلي، حتى ينسى ذلك الشعب لغته وثقافته القومية وهو ما حدث للجزائر، حيث حلّت اللغة الفرنسية في جميع مجالات الحياة، والهدف جعل المجتمع الجزائري فرنسي الثقافة واللسان، ولا مجال للغة العربية فيه، غير أن الشعب الجزائري بقي صامدا متصديا لهذه السياسة، متمسكا بلغته وعروبته، ويتجلى ذلك من خلال المقاومة الثقافية التي حاولت الحفاظ على الإرث الثقافي في المساجد والزوايا والكتاتيب، ومع مطلع القرن العشرين برز رجال الإصلاح الذي ضحوا بالنفس والنفيس من أجل الحفاظ على هوية بلادهم الجزائر العربية المسلمة، ومن بين هؤلاء: الشيخين محمد الأمين العمودي، ومحمد الأخضر السائحي وغيرهم الكثير، ومن هنا نطرح الإشكال الرئيس: **ما مظاهر مقاومة السياسة اللغوية الاستعمارية لدى رجال الإصلاح في الجنوب الشرقي الجزائري؟**

وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة عن بعض هذه الأسئلة وما يدور حولها لإيضاح مظاهر الصراع اللغوي بين المستعمر ورجال الإصلاح في الجنوب الشرقي الجزائري ممثلة في الشيخ محمد الأمين العمودي والشاعر محمد الأخضر السائحي. وسيكون التركيز فيها على نقطتين محددتين، هما:

- سياسة المستعمر لإضعاف اللسان العربي،

- دور رجال الإصلاح ممثلة في الشيخين محمد الأمين العمودي، ومحمد الأخضر السائحي في مقاومة السياسة اللغوية للمستعمر واستنهاض همم الجزائريين.

أولا- سياسة المستعمر لإضعاف اللسان العربي

ارتبط التعليم العربي بالتعليم الديني، وسنركز هنا على تعليم اللغة العربية ومحاولة طمسها من قبل المحتل الفرنسي التي تمت من خلال استراتيجية واضحة المعالم، فبعد عملية هدم دور العبادة "التعليمية"، وتجفيف دعمها الوقفي، عمِل على التضييق عليها ومراقبتها وإحلال العامية والأمازيغية محل اللغة العربية الفصيحة، وفيما يلي بعض الإجراءات الفرنسية في هذا الاطار:

1- **إصدار قوانين لمراقبة التعليم العربي، والتضييق عليه:**

أصدر المستعمر الفرنسي منذ احتلاله أرض الجزائر عدة قرارات ومراسيم تتمثل في:

- قانون الإلحاق (1834/06/22) ثم قانون الإدماج (1848/11/4) بدسترة ضم الجزائر وجعلها قطعة فرنسية.
- فرنسة[1] الإدارة جاعلة تحرير الوثائق والرسائل، وكل ما يتعلق بالجانب الإداري باللغة الفرنسية.
- قرار 1883/02/13 الذي ينص على إجبارية التعليم، الذي أصدره جول فيري وزير التعليم، غير أن المعمّرين لم يجبروا أبناء الأهالي على الالتحاق من أجل التمدرس، بل أجبروا المتمدرسين منهم على التخاطب بالفرنسية، ومنعت اللغة العربية في مرحلتي التعليم المتوسط والعالي[2].

1- الفرنسة هي إحلال اللغة الفرنسية وثقافتها في أوساط المجتمع الأصلي، حتى ينسى ذلك الشعب لغته وثقافته القومية وهو ما حدث للجزائر، ويستعيضونها باللغة الفرنسية التي حلّت في جميع مجالات الحياة، والهدف جعل المجتمع الجزائري فرنسي الثقافة واللسان، ولا مجال للغة العربية فيه ينظر: تركي رابح، المجتمع القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، 1983، ص 104.

2- محمد لحسن زغيدي، "محاربة الاحتلال للغة والثقافة العربية وموقف الحركة الوطنية منها"، مجلة اللغة العربية، العدد الممتاز، ص386.

▪ منع فتح المدارس العربية إلا برخصة (مرسوم 1892/10/18)، وهذا المرسوم جاء استجابة لحاجة المعمرين، الذين ركزوا على التعليم المهني الذي يخدم مصالحهم، لا على التعليم المعرفي التقني الذي ينتج علماء وخبراء.

▪ التضييق على معلمي اللغة العربية (قانون 1904/09/24م)، الذي ينص على "عدم السماح لأي معلم جزائري أن يفتح مدرسة لتعليم العربية دون الحصول على رخصة من عامل العمالة أو الضباط العسكريين(الحاكم العسكري)، الذي يفرض شروط قاسية على ذلك منها: الولاء والإخلاص لفرنسا، وأن لا يزيد عدد التلاميذ على ثمانية، وأن يكون التدريس خارج أوقات تعليم المدارس الفرنسية.

▪ اعتبار اللغة العربية أجنبية، بموجب قرار "شوطان" الصادر في 8 مارس 1938، وينسب هذا القرار إلى شوطان وزير الداخلية الفرنسي، أي محاربة كل من يحاول فتح هيكل –ولو كان خاصا- لتدرّس فيه اللغة العربية، وقد تكون العقوبة التغريم وقد تصل إلى السجن أو الإعدام.

2- إحلال اللهجة العامية" الدارجة"* محل اللغة العربية الفصيحة:

يرى دعاة الفرنسة أن اللغة مجرد وسيلة للتواصل فحسب، فبالإمكان تغييرها واستبدالها بلهجات محلية عامية، وهذا ما استخدمه "المستعمر" الفرنسي في القضاء على لغة القرآن الكريم، وإبعاد أفراد المجتمع الجزائري على فهم كل ما يتعلق بدينه الإسلامي وبثقافته كمسلم.**

حتى تتمكن السلطات الاستعمارية من إقصاء اللغة العربية الفصحى، اعتبر"الدارجة"، اللغة الرسمية في المراحل التعليمية، مستعينا ببعض العرب مثل السوري "جون فرعون"، أو المستشرقين مثل لويس برينيه وشيربونو في قسنطينة، وماشويل في وهران، وترتّب عن هذا تغييب شبه كلّي للّغة العربية الفصيحة في المؤسسات.

حرص المحتل على تعلّم وتعليم العربية الدارجة للكولون والراغبين في العمل الإداري للتواصل مع الجزائريين، وتسهيل التعرف على عاداتهم وتقاليدهم، خاصة لدى المكاتب العربية من أجل إحكام السيطرة على القبائل والجماعات، فيتحقق لديهم إدراك كل صغيرة وكبيرة في مجال ذلك المكتب، وقد دعا إلى تشجيع اللسان العامي، وذلك من خلال التواصل معه باللهجة الدارجة في شتى ميادين الحياة وحتى في مجال الإعلام وخاصة

* تعرف بالبوربرية. ينظر سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص123.

** فالرابط بين اللغة والثقافة ليس مجرد وسيلة؛ فالعلاقة بينهما كعلاقة الروح بالجسد؛ أي أن اللغة روح الثقافة. ينظر: فريد حاجي، مرجع سابق، ص 336.

الصحافة"...من سنة 1847 إلى سنة 1929 كانت جريدة المبشر الرسمية تصدر بالفرنسية وبعربية ركيكة موجّهة إلى الشعب"[3].

لم يكتف المحتل بهذه الدعوة بل استعان بأدواته خاصة المستشرقين منهم، للتنظير واستصدار تسميات جديدة، فاعتبروا اللغة العربية الفصيحة، لغة كلاسيكية، بينما اللغة الحديثة، هي التي تمازج بين اللهجات الدارجة والمحلية (أمازيغية، تركية، فرنسية...)، وأشرف على هذه العملية المستشرق الفرنسي هنري بيرسي (Henri Pires)، الذي ألف كتب بهذه اللهجات، موجهة للتعليم المدرسي، وأطلق عليها اسم اللغة العربية الحية، باعتبارها المتداولة بين الناس[4]، واستعان هؤلاء المستشرقون بمعية المبشرين بالتراث المحلى الشفوي كالأغاني والأمثال والحكم الشعبية لتأكيد السند التاريخي لدعوى العاميات[5]. إن هذه الدعوات إلى العامية وإقحامها في الواقع الحياتي وداخل المدارس، أدى إلى انحطاط المستوى الثقافي، فأبعده عن مرجعيته الدينية، بإقصاء القرآن وعدم فهم السنة[6]، وساهم مساهمة كبيرة في عزل اللسان العربي وثقافته عن المجتمع الجزائري.

رأى كثير من علماء اللسانيات التأثير الواضح للهجة العامية "الشارع"، على اللغة العربية، بل وصفوا أبناءنا بالغباء لعدم فهم وإدراك ما يقول له معلّمه، عكس اللغات الأخرى، فلغته المدرسية هي لغته في الشارع، وإن وجد فرق فهو يسير، لذلك فهو يتجاوز فهم اللغة على اتخاذها وسيلة لفهم العلوم من خلالها، عكس العربي الذي يقضي سنين لفهم لغته، مما قد لا يتسنى له إدراك العلوم التي يتلقاها من خلالها، وهذا الوضع ساهم في صياغته المحتل إلى حد كبير.

3- **التمكين للّسان الأمازيغي:**

روج المستعمر لإحلال الأمازيغية بدلا من اللغة العربية- التي اعتمدها الساكنة الجزائرية لسانا لهم عقب اعتناقهم الدين الإسلامي- بعض المستشرقين والمبشرين، مستدلين بنقوش ورسوم الأواني التي قالوا بأنها إيطالية الأصل؛ وفي حقيقة الأمر أنها ذات نزعة مصرية[7]، كما قام بإجراءات مختلفة في هذا السياق أهمها:

3- عائشة عبد الرحمان، "بنت الشاطئ"، لغتنا والحياة ص173.

4- أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق، ص169.

5- أنور الجندي، الثقافة العربية الإسلامية أصولها وانتماءاتها، ص ص316.

6- نفسه، ص317.

7- أنور الجندي، نفسه، ص ص61-62.

أ-عزل اللسان الأمازيغي وتوليد شعوبية* ضد إخوتهم العرب:

عمل الفرنسيون على تأجيج الأفكار التي من شأنها أن تفرق بين العنصرين الأمازيغي والعربي من قبيل أن العرب هم الذين طردوا القبائل إلى الجبال لذلك فهم يكنون بغضاء متوارثة للعربي المستعمر[8]، من خلال طرح تاريخية اللغة مثل قولهم: "... هذه دخلت، أي اللغة الفرنسية مع دخول الفرنسيين، وتلك، أي اللغة العربية مع دخول الفاتحين، فليس للعربية بالتالي فضل أصالة على الفرنسية، وإنما اللغة الأصلية لسكان الجزائر هي لغة الأمازيغ..."[9]، بتمييز أصلهم؛ مما ينتج عنه نفور بين الامازيغي والعربي، وبكل ما يجمعه به من لسان ودين، فيصادر اللسان العربي منه، "...وكذلك مصادرة لسانهم العربي، والضرب عليه وهو موت، لقولهم لا حياة لأمة مات لسانها"[10].

بحث المحتل الفرنسي في أصل السكان، بعد احتلاله منطقة القبائل سنة 1857م، فجمع الفونس مايير معلوماته مشافهة من شيوخ القبائل، فوجدهم يعتقدون أن أصلهم من العرب ما عدا قبيلة (فراوسن وايجر وغوبري) التي قيل أنها فارسية[11]، مزج القبائلي بالروماني، لتسهيل الفصل عن العرب من جهة، وتأكيد الأصل الروماني المسيحي لهؤلاء من جهة أخرى، "... فإن القبيلة الأمازيغية تنحدر من أصل روماني(مسيحي)، وإن القرى القبائلية، حافظت على التنظيم الروماني كما هو"[12]، وبأنهم مسيحيون، أو مسلمون بقدر بسيط، فقد أظهروا لنا استعدادا قويا من أجل عودتهم للمسيحية[13].

ب-آليات ترقية اللسان الأمازيغي:

كان الأمازيغ يتعلمون اللغة العربية ذات المضمون الإسلامي إلى جانب لهجتهم، ولم

---

* الشعوبية مصطلح ظهر قبيل سقوط الدولة الأموية (132هـ) على يد العباسيين الذين استخدموا العجم(غير العرب) من الفرس والزنوج وتأليبهم على العنصر العربي، ونجم عن حركة الشعوبية-رغم سلبيتها- نتاج ثقافي فكري بين العرب والعجم، ومن مساوئه البعد عن المعنى الحقيقي للدين الإسلامي الذي ينبذ التفرقة والتشرذم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات، 13.

8- ش. ر. أجرون، تاريخ الجزائر المعاصر (1871-1954)، ط1، ج2، تر: محمد حمداوي وآخرون، دار الأمة، الجزائر، 2013، ص219.

9- شحاتة الخوري، القضية اللغوية في الجزائر وانتصار اللغة العربية، ص19.

10- أبو يعلى الزواوي، جماعة المسلمين، منشورات الحبر، بني مسوس-الجزائر، 2006، ص 19.

11- أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية (الخلفيات، الاهداف، الوسائل والبدائل)، ط2، دار الأمة، الجزائر، 1997، ص19.

12- ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص220.

13- نفسه.

يغفل علماء زواوة عن هذه الحقيقية التاريخية وعن مشروع فرنسا الاستعماري[14]، غير أن المحتل الفرنسي، ومن أجل ابعاد الأمازيغ عن اللغة العربية وتدريسهم الفرنسية، كما عمل على ترقية اللغة الأمازيغية التي سعت إليها فرنسا، والحفاظ على لهجاتها المختلفة، بهدف إضعاف اللغة العربية، ثم من خلال عديد المبادرات مثل:

- منع تدريس اللغة العربية في بلاد القبائل في المدارس الفرنسية، فبدأ التعليم الفرنسي في بلاد القبائل قبل مناطق الجزائر الأخرى، وأسس فيها المبشرون من الآباء البيض والراهبات الأخوات (1873-1880) مدارس عديدة، محاولة لفصلهم عن العرب، وضرب الجبهة المحلية، وتنصيرهم لتقريبهم من المستوطنين الأوربيين[15].

- دراسة اللهجة القبائلية يتوّج بتسليم شهادة للغة القبائلية (يعطى مستحقها 300 فرنك، تسليم شهادة بمستوى أعلى)[16].

- إنشاء كرسي للهجات الأمازيغية في 1885م، بكلية الآداب بالعاصمة (أسند إلى سي الهاشمي بن سي لونيس).

- استحداث منح دراسية معتبرة لصالح الفرنسيين لتعلم اللهجة القبائلية.

- فرض على القضاة (الموثقون)، تقديم شهادة في اللغة القبائلية، حتى يمارسوا مهنتهم[17] "...تقرر في 1906 إلزام القضاة الموثقين الذين يشتغلون ببلاد القبائل أن يحرروا عقودهم بالفرنسية وليس بالعربية"، ولكن أخفقت هذه المحاولة حيث أن 2.3% من العقود كتبت بالفرنسية فقط[18]، وفي 1911م حاولت الإدارة الفرنسية تعميم الفرنسية، لكن لم يقبل إلا قاض واحد الصياغة بالفرنسية سليمة، وأما الآخرون فتعمدوا ارتكاب الأخطاء، بل وهجرت من طرف القبائليين الذين يتوجهون إلى قضاة يحررون باللغة العربية.

- التركيز على تقوية اللغة الأمازيغية، لإضعاف اللغة العربية لدى هذه الفئة، وضرب وحدة المجتمع الجزائري[19]، ومن المجهودات المبذولة لاحيائها وتقويتها كثرة التأليف وتسليط الضوء على لهجاتها وآدابها، ولو كان ذلك بالحرف اللاتيني.[20]

14- نذير الطيار(مترجم)، السياسة الثقافية الفرنسية (أهدافها وحدودها 1830-1962)، هامش ص 218.

15- نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص79-80.

16- ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص228.

17- كميل ريسلر، المرجع السابق، ص ص217-218.

18- ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص235

19- عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص382.

20- نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص84.

- وضع قواميس لمعرفة معاني كلماتها وقواعد خاصة بها، كما أسست سنة 1914م في المغرب الأقصى(الرباط)، معهدا عاليا للغة الأمازيغية، ولربط العلاقة بين الأمازيغ في شمال إفريقيا، صدر قرار سنة 1915م بتأليف لجنة للأبحاث الأمازيغية، والتي أصدرت نشرية بعنوان "الأرشيف الأمازيغي"، وأسست لجنة أخرى لتنظيم القضاء الأمازيغي.[21]

- التنظيم القبائلي: هو تنظيم إداري ليس قبائليا خالصا وإنما كان فرنسيا - قبائليا ولحقه تأسيس البلديات القبائلية، وكذلك إلغاء محاكم القضاة المسلمين، ومنحت لقضاء عرف الجماعة "لثاجماعت"*22، من أجل زيادة الهوة بين الأمازيغي ودينه الإسلامي، ولتطبيق ذلك واقيا قاما كلا من الجنرال هانوتو(Hanoteau) ومساعده المستشار لوتورنو (Letourneaux) بإعداد عرف قبائلي موحد، وحاول تطبيقه من قبل بعض القضاة الفرنسيين، لكن لم ينجح هذا المشروع سنة 1869م، لأن المعمرين ونواب السلك التشريعي رأوا ضرورة تطبيق التشريع الفرنسي مباشرة، لأن بلاد القبائل مستعدة للاندماج[23]

- التفريق بين العربي والقبائلي في المندوبيات المالية، 06 مندوبين للقبائل الذي يبلغ عددهم 700000 في حين 15مندوبا ماليا ل3300000 نسمة، إضافة إلى تعيين مساعدين يبلغ عددهم 93 ناخب معين في بلاد القبائل (مكان الضامنين من الجماعة)، بهدف التفرقة بين العنصرين العربي والقبائلي، فبواسطة هذا الامتياز الممنوح من قبل الإدارة الاستعمارية سيصبح المندوب لاشعوريا والدور الذي يجب أن يقوم به.[24]

ج-أهداف فرنسا من وراء التمكين للأمازيغية:

عمل المستشرقون والمبشرون وعلى رؤوسهم هانوتو(Hanoteau)، ورينيه باسي(René Basset)، وهنري باسي(Henri Basset)[25] على تحقيق غايتين أساسيتين:

- **الغاية الدينية:** تتمثل في تمسيح أجيال الأمازيغ وتنصيرهم، انطلاقا من استخدامهم للحرف اللاتيني، ومدى ارتباطهم بالجنس الأوربي الذي ينطقها ويتواصل بها.[26]

رأى أ. سرفي الصحفي الذي حمل الأمازيغ على تغيير دينهم وفق نزعته المسيحية،

21- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة، القاهرة، مصر، 1948م، ص116.

* وهم شيوخ وكبار القبائل ينظر: 22- ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص220.

23- ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص221.

24- نفسه، ص ص230-231.

25- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تعريب وتقديم وتعليق: محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الجزائر، 2017، ص65.

26- نفسه، ص64.

ورأى أنها تكون من طريقين إما عن طريق المدرسة اللائكية، التي تهدف إلى طمس كل ماهو ديني، أو عن طريق التنصير بواسطة الآباء البيض فيقول:"...يجب في كل الأحوال الممكنة تشتيت شمل الأهالي، وتقسيمهم وعزل عناصرهم، ويجب أن نمارس الإدماج الفردي، وذلك باجتثاث أحسن العناصر من مجموعة الأمازيغ...فإذا لم تتوصل إلى ذلك المدرسة اللائكية؟ فلنترك الآباء البيض يتصرفون، إن الأمازيغ مؤهلين لتغيير دينهم إنهم حافظوا على بقايا موروثهم المسيحي واللاتيني"[27]، وتتمثل هذه الغاية في:

- إكراه الجزائريين على أن يكونوا مسيحيين، فبسياستها هذه تقاوم الإسلام، لأنها تعتبره حارس العقيدة الصحيحة. "...أن الإسلام يبث في معتنقيه عاطفة المقاومة للأجانب، ويحول دون اندماجهم في الملل الأخرى "[28]، وأعلنوا أن طارق بن زياد القائد الأمازيغي المسلم الذي قاد الفتوحات إلى الأندلس، لم يكن مسلما بل كان مسيحيا[29].
- أن تخضعها لأعراف جاهلية وفرنسية، وتبعدها عن تعاليم الدين الإسلامي وقوانينه. "أن مسلمي الأمازيغ هم الذين طالبوا الاحتفاظ بأعرافهم الجاهلة، وأنظمتهم القضائية"[30]، ويقول مدير مدرسة الآداب إميل ماسكري (Emile Masqueray)"...أن هذه القوانين القبائلية، تساعد بصورة خاصة سياستنا، لكونها تختلف عن القانون الإسلامي...كلما امعنا في استخدامها كلما تعمقت الهوة بين المسلمين العرب ومهزوميهم الأسخياء(القبائل)"[31]، وبدأ تطبيقها(السياسة العرفية) في الجزائر سنة 1859حيث أعلنت بواسطة قانون يخرج القبائل عن أحكام الشريعة الإسلامية[32]. وفي 1890م ألغيت الجماعات القضائية وأغلقت آخر محاكم القضاة المسلمين، فكان رد فعل القبائليين رفضهم ولمدة طويلة القضاة الفرنسيين.
- أن تجعلها فرنسية روحا ولغة، وتسلخها عن لغتها العربية روح ثقافتها ودينها يقول وليام مرسي(W.MARCAIS)*...يجب التمييز بين نشر الإسلام وفرض العروبة، والواقع أن الأول كان على وتيرة أسرع من الثاني، فقد أصبحت بلاد الأمازيغ مسلمة في أقل من قرنين

27- ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص ص238-239.

28- محمد المكي الناصري، فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى، ط2، شركة بابل، د.تا، ص16.

29- نفسه، ص ص 16-17.

30- نفسه، ص17.

31- ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص222.

32- نفسه، ص223.

* وليام مارسيW.Mercais(1874-1956) مستشرق فرنسي كلف كأستاذ ومديرا لمدرسة تلمسان سنة 1898، اهتم بالحديث النبوي والفقه فألف كتاب " التقريب والتيسير للإمام النووي متنا وترجمة وشرحا ينظر: الطيب بن ابراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر،ط1، دار المنابع للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 176.

الميلاديين (ق7-ق8)، في حين أنها لم تستعرب نهائيا إلى اليوم على امتداد الأربعة عشر قرنا..إن تحول أمازيغ الأرياف من زناتيين وصنهاجيين وكتاميين... إلى الإسلام، يكتنفه الغموض، ولعل من الأكيد أنهم كانوا مستعدين لتقبل التوحيد المطلق في الإسلام، بسبب الجو الذي تكون قد هيأته الديانات السابقة وبالأخص المذهب الدوناتي الذي لا تشير المصادر إليه"[33].

- **الغاية السياسية:** وهي التفرقة بين أبناء الأمة الجزائرية، وإحداث شرخ بين الأمازيغي وأخيه العربي، وصَرْم ما بينهما من صلات تتعلق بالدم والعرق والخلق واللغة والفكر، وأهم رابطة وهي الدين[34].

- فالمنظرون رأوا أن سبب انحطاط الأمازيغ، وتأخرهم عن الركب الثقافي، يعود بالدرجة الأولى لانتمائهم إلى العرب واعتناقهم للدين الإسلامي، فقالوا:"...إن من الخير العميم للبربر-الذين يرغبون في العلم والتقدم والالتحاق بركب الحضارة الافرنجيتين-أن يندمجوا في صفوف إخوانهم النصارى اللاتينيين قلبا وقالبا، وأن يخلعوا عنهم ثياب العروبة، وينزعوا شعار الإسلام، ويقطعوا كل مالهم به من صلة ماضيا وحاضرا..."[35]. وأرادت (فرنسا)أن تجزئها بشعوبية بربرية، حينما وجدتها متمتعة بوحدتها القومية "إن العرب كسالى، خاملون...، ومتعصبون، أما الأمازيغي فإنه عامل جدي...إنه اقتصادي ونزيه ومحب للإطلاع وهو في أعماقه قليل التدين".[36]

- تعمل على تغريبها ودمجها في العائلة الفرنسية، فقال رندون"...يجب تحضير الانسان القبائلي للدخول في القانون العام الذي نريد نشره في الجزائر"، ونادوا بالتقرب من القبائل فهذا بومل (Pomel) يقول:"إن الأمازيغ...قد كانوا بمثابة الضحية المقدمة للعرب (سياسة المملكة العربية)، ومن واجب الاستعمار أن يقدم لهم تعويضا عن ذلك، وفي الوقت نفسه يجب طرد العرب نحو الصحراء"، ويقول غاسطو (Gastu): "إندماج سكان القبائل ضمن الأوربيين طالما أن عاداتهم تتوافق مع عاداتنا"، ويقول بول بيرت (Paul Bert):"...كان الإنسان القبائلي عدو عنصرنا...، فإن التقارب ممكن مع هذا الانسان الايجابي في مواجهة النزعة الدينية الإسلامية"، أما كاميل ساباتي* فقال: "لا وجود للدين لدى سكان القبائل،

33- W.MARCAIS Comment lAfrique du nord a été Arabisée.annales de l'institut d'études Orientales dAlger.p.

.34- W.MARCAIS, op.cit, p

35- حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص62.

36- ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص ص222-223.

* هو منظِّر محب للبربر قاضي سابق ثم إداري في البلدية المختلطة بتيزي وزو وهو المحرك الرئيسي للسياسة البربرية. ينظر: ش. ر. أجرون، المرجع السابق، ص224.

فهم في الظاهر يمارسون الديانة الإسلامية، وفي الواقع الانسان القبائلي معاد للدين، إن قوانينه هي النفي الأكثر شدة لمبادئ الإسلام"[37]، فقد حاول (كاميل ساباتي) التمكين لسياسة الإدماج المكثفة، والتي ارتكزت على برنامج العلمنة والتمدرس، فقام بتغيير بعض الأعراف، مثل تحديد سن الزواج (14 سنة للأنثى)، وكذلك منع الوشم على وجه البنات، لأنه يثير نفور الأوربيين، وفتح مدارس للبنات اليتيمات، سمح للقبائليين تغيير أسمائهم وألقابهم، ومهد لتجنيسهم (جنس 30 مزارع خلال أربع سنوات)، كما تم تغيير أسماء القرى القبائلية المستعمرة، مثل: ذراع بن خدة تسمى ميرابو وعين الزاوية تسمى بيرات.. "كما تم رفع اللازمة القبائلية بصورة مفاجئة"، لعدم رضاهم أمام وزير قام بزيارتهم "فحافظ القبائل على نظامهم الضريبي الأقل وطأة من النظام الضريبي المفروض على العرب"[38].

يقول لويس فينيون في كتابه فرنسا في الجزائر(1893م):"...إن إدماج القبائلي الذي لا يقبل مخّه الصغير استيعاب كل الأفكار الحديثة، هو عبارة عن وهم يجب التخلي عنه نهائيا"[39]، أي استحالة الفصل بين الأمازيغي والعربي، لتشبثهما بالمعتقد الديني الذي يضمن عدم الانسلاخ، وبالتالي عدم الانصياع إلى ما تمليه ا لسياسة لبربرية من أفكار ونظريات وطرق وأساليب لعزل هذا العنصر من وحدته كما أن جول فيري وجول كامبون كليهما تخوفا من السياسة الأمازيغية في الجزائر، الأول بعد فتح تحقيق والثاني في اعترافه أمام البرلمان في 1895/02/21م بأن تحفظ على فكرة أن القبائلي أكثر قابلية للإدماج من العربي[40].

ظهرت النزعة الأمازيغية لتحقيق سياسة فرق تسد وضرب وحدة المجتمع الجزائري، التي ساهم في بدايتها المستشرقون والمبشرون وتبعهم المتأثِّرون بالثقافة الفرنسية، الذين حولوها إلى طابع سياسي بعد الحرب العالمية الأولى(1918م)[41]. يوجد من أبناء القبائل من ساهم في نشر هذا الفكر العزلي، وبعض المستشرقين رآه أرضا خصبة للبحث، وللأسف كليهما ساهم في نخر عضد وحدة الشعب الجزائري، لكن يوجد عدة نماذج رفضت سياسة فرنسا في ضرب وحدة الشعب الجزائري المسلم.

37- نفسه.

38- نفسه، ص227.

39- نفسه، ص230.

40- نفسه، ص230.

41- أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص27.

ثانيا ـ ردود فعل رجال الإصلاح
في الجنوب الشرقي الجزائري تجاه سياسة الفرنسة
ـ نماذج مختارة ـ

حفلت الحركة الإصلاحية بالكثير من الشخصيات ذبّت عن اللسان العربي وأهله، وأردنا التركيز على شخصيتين نرى أنهما لم تأخذا نصيبهما من الدراسة في مجال مقاومة سياسة الفرنسة.

1- محمد الأمين العمودي(1890-1957):

اختلفت الآراء حول سنة مولد الشاعر والصحفي والمناضل محمد الأمين العمودي فمنهم من قال إنها1891م، وأغلبهم أرجعها إلى سنة 1890م بمدينة وادي سوف[42]، توفي والده وهو طفل صغير، فكفله عمه العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمن محمد الأمين العمودي الذي أخذ بيده في تعلم القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية[43].

إن الثقافة الواسعة التي اكتسبها الشيخ "محمد الأمين العمودي" جعلته يرى الأشياء بمنظار الحق ويثور على الظلم، ويدعو إلى المساواة بين الفرنسيين والجزائريين لأن الواقع كان على عكس ذلك، فالإدارة الفرنسية كانت تطلق اسم الأهالي على الجزائريين، وتعتبرهم مجرد رعايا، وهذا كان يقلق بال محمد الأمين العمودي وغيره من المثقفين الجزائريين اختير عضوًا في وفد المؤتمر الإسلامي إلى فرنسا لتقديم مطالب الشعب الجزائري 1936م[44]. كان عضوًا مؤثرًا في جمعية العلماء المسلمين (فكان ثالثًا بعد ابن باديس، والإبراهيمي)، وعضوًا في المؤتمر الإسلامي 1936، وأسس هيئة الشباب للدفاع عن مطالب المؤتمر، كما أسس ناديًا للمهمة ذاتها، أسس جريدة الدفاع باللغة الفرنسية، وجعلها لسان حال جمعية العلماء المسلمين[45].

وعن دوافع محمد الأمين العمودي وجمعية العلماء للدفاع عن اللغة العربية، يمكن إبرازها في النقاط الآتية:

42- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص 554.

43- محمد بك، محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الأوراس الحديث، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 1430/1429هـ/ 2009/2008م، ص 50.

44- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ج3، معهد البحوث والدراسات العربية، بيروت، لبنان، .1975، ص16.

45- محمد الطاهر فضلاء، محمد الأمين العمودي الكاتب الشاعر الأديب والخطيب السياسي البارع، الندوة الفكرية الثالثة، الوادي، أيام 2و3و4 ماي 1990، ص ص-25.

- كانت نسبة التمدرس في المستويات المختلفة قد زادت لكنها بقيت ضعيفة وهذا دليل على سفه سياسة التحضير التي رفعتها فرنسا، ففي سنة 1930 كان عدد تلاميذ المدرسة الابتدائية 60000 تلميذ أي 5% وقد ارتفع العدد والنسبة إلى 110000 تلميذ أي 8.8% وكان التعليم الثانوي يحتضن سوى 1358 تلميذ جزائري في عام 1940 والتعليم العالي 89 طالب جزائري في نفس العام كما كان عدد الإطارات الجامعية قليلا وساهم ذلك في انتشار الأمية التي تجاوزت 90% خلال فترة الثلاثينات[46]، وهذا الوضع يثير الأسى، بعد أن كانت الجزائر في بداية الاحتلال تتجاوز نسبة المتعلمين فيها 40% من السكان وهذا بشهادة الجنرال دوماس أصبح وبعد قرن من الاحتلال الوضع الثقافي مترديا نتيجة لسياسة التجهيل التي طبقها الاستعمار[47].

- صدور مرسوم إجرامي في 8 مارس 1938 (قرار شوطان وزير الداخلية الفرنسي) أدى فعلا إلى تراجع التعليم العربي الحر فترة استمرت إلى غاية اندلاع الحرب، وقد نص على إغلاق المدارس الحرة التي لا تتمتع برخصة عمل ومنع كل معلم من مزاولة التعليم في المدارس المرخصة إلا بعد الحصول على رخصة تعليم من السلطات المسؤولة واعتبار أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر وبقيت اللغة العربية أجنبية في عقر دارها رغم أن دستور 1947أعتبرها لغة رسمية نظريا فقط[48].

- في 16 و18 فيفري سنة 1933 بادرت الإدارة الأهلية بإصدار منشوري ميشال[49]، ويمثلان تعليمات إدارية موجهة إلى رجال الأمن والإدارة في جميع أرجاء البلاد لفرض مراقبة شديدة على أنشط العلماء وعمن هم من القيام بالإرشاد الديني وتعليم اللغة العربية بدعوى أنهم ينشرون مبادئ الوهابية السلفية، وهم بذلك يعملون على اجتثاث الوجود الفرنسي من الجزائر خاصة أن للجمعية نشاط سياسي غير معلن وهي على ارتباط واتصال وثيق بأحزاب سياسية معارضة مثل: الحزب الدستوري التونسي، ولاحظ المنشور ولاء المرابطين ورجال الزوايا لفرنسا وأنهم قلقون من استقطاب جمعية العلماء لأبناء وشباب المدارس القرآنية[50].

46- شارل روبير اجيرون، **تاريخ** الجزائر المعاصرة، تر: عيسى عصفور، ط1، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 1982، ص ص 136 137.

47- محمد الامين بلغيث، تاريخ الجزائر المعاصرة دراسات ووثائق، ص ص 98 99.

48- عبد الكريم بوالصفصاف، الثورة الجزائرية ودورها في إزالة الاستعمار من القارة الإفريقية، ص 32. وكذلك: نور الدين حاطوم، أصالة الثورة الجزائرية، ص21.

49- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ج3، ص 20. وكذلك: أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 200.

50- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية الاستقلال، ص 254.

- ذكر النائب محمد بن رحال في خطابه أمام المفوضيات المالية في 17جوان192: " لا تعلم العربية الابتدائية رسميا في أي مكان رغم أن هذه اللغة هي اللغة الأم لعدة ملايين من السكان المسلمين الذين عليهم كذلك تعلم الفرنسية دون أن تحل تماما مكان اللغة الأم، فهل تتصورون شعبا دون لغة يعبر بها عن أفكاره ويدرك بها أفكار الآخرين، ويثقف بها فكره ويترجم أحاسيسه ويحسن أخلاقه، وبها يحيا وأخيرا يتطور... تمويل التعليم الابتدائي الإسلامي هو التوظيف الأربح والاستخدام الأنسب للأموال التي بإدارتكم، وفيه ضمان للمستقبل ضد الاحتمالات الأكثر رعبا كالجهل والفساد[51].

- كان الشيخ ضمن وفد المؤتمر الإسلامي الذي سافر لفرنسا لمقابلة رئيس حكومة الجبهة الشعبية، والذي اتفق أن يكون من 16 عضوا (10 نواب، 3علماء، 3شبان)[52]، والذي ذهب بمطالب المؤتمر إلى فرنسا، وكان محمد الأمين العمودي أحد أعضاءه، ولما عارض بعض الأشخاص تعيين محمد الأمين العمودي ضمن الوفد قال ابن باديس": " لا أرضى بغير محمد الأمين العمودي ترجمانا لي فهو الذي يستطيع تبليغ أفكاري وترجمة كلامي إلى المسؤولين الفرنسيين وينقل لي كلامهم بأمانة وإخلاص فالأمين محمد الأمين العمودي هو لساني الأمين الذي لا أبغي به بديلا "[53].

- كتب محمد الأمين العمودي مبينا ضرورة المحافظة على المطالب الأساسية المتمثلة في المحافظة على الثوابت الوطنية دينا ولغة "نحن نطالب في إطار التبعية لفرنسا كمستعمرة بإنشاء نظام حكم يكون عادلا ويعطي الحقوق للمسلمين الذين يؤدون نفس الواجبات كغيرهم من الفرنسيين واليهود والأجانب الموجودين في الجزائر ونحن سنكافح وبكل قوة للمحافظة على قانوننا الإسلامي الذي لن نتخلى عنه أبدا ويجب أن تمنح اللغة العربية حقها كي تصبح رسمية فهذه الحقوق سالت من أجلها دماء كثيرة في الماضي، فسنبذل كل ما لدينا لمجابهة الذين يقفون ضد طموحاتنا وحقوقنا، فنحن لا تخيفنا الكلمات والتهديدات[54].

- رد على ميرونت الذي كان يشغل منصب الحاكم العام للجزائر الذي كان يرى مشكلا في تدريس اللغة العربية والتي ستزاحم الفرنسية وتتخذ أداة من طرف رجال السياسة، فقال: «...وعليه أن يعرف أن العربية هي لغتنا الأم ولغة ديننا ولا يمكن لنا أن نتخلى عنها بسهولة خاصة وأنها قوام حضارتنا وشخصيتنا التي لها جذور عميقة في التاريخ وهي قادرة على أن تعيدها ضتنا وبعث جنسنا، إن هذه الممارسات الاضطهادية لن تعيق شبابنا لتعلم

51- عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ص ص 46 47.

52- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج3، ص 172.

53- محمد الصالح رمضان، الأديب الشهيد الأمين محمد الأمين العمودي كما عرفته، ص ص 19 20.

54 -La Defense, N°129, 18 Déc 1936.

العربية ومبادئ الإسلام، وليعلم ميرونت أن التعليم ينقذ الشباب من براثن الجهل واليأس وليس عاملا محرضا للاضطرابات كما يعتقد»[55].

2- محمد الأخضر السائحي (1918-2005):

ولد في العالية بولاية تقرت سنة 1336هـ/1918م، حفظ القرآن الكريم على يد عدة مشائخ منهم: بلقاسم شتحونة ومحمد بن الزاوي، ثم مارس مهنة التعليم بمسقط رأسه مدة سنتين ونصفه، ثم التحق بمدرسة الحياة بالقرارة سنة 1933م حيث تتلمذ على يد الشيخ ابراهيم بيوض، ثم توجه تلقاء جامع الزيتونة بتونس الذي كان قبلة طلبة العلم في تلك الفترة، وبعد إنهاء مسار التعلم عاد إلى الوطن عام 1939 مع اندلاع الحرب العظمى الثانية وسجن لأسابيع من قبل المستعمر، وعاد السائحي إلى الجزائر بضواحي مدينة تقرت متخفيا سنة 1939[56]، فزجت به السلطات الفرنسية في السجن بمجرد نزوله من القطار لمدة أسابيع وظل يتحرك بعد مغادرته السجن، حيث تمكن من بعث النهضة الثقافية بمناطق الجنوب الجزائري في وادي ريغ، وسعى مع مجموعة من الشباب، لتأسيس جمعية الأمل للفن والتمثيل وتأسيس فوج للكشافة[57].

قام الشيخ بتأسيس عدة مدارس بين تماسين وتقرت، وظل متخفيا معلّما وناشطا في فوج الكشافة الإسلامية ومنشئا لجمعية الأمل للفن والتمثيل، وقد كان الهدف من ذلك بعث الروح الوطنية والدفاع عن مقومات الشخصية الجزائرية من لغة ودين وتراث ثم انضوى في نشاط جمعية العلماء 1952 مدرسا[58]. بدأ بنشر قصائده في الجرائد، واشتهر شهرة كبيرة في تونس، فنشط في الساحة الأدبية وأخرج باكورة أعماله المنشورة سنة 1937، وهي مسرحية شعرية بعنوان" غرام أميرة"، كما كان عضوا إداريا في جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين فيما بين 1939-1935، حيث مارس في الساحة التونسية النشاط السياسي الاحتجاجي والتحريضي ضد الاستعمار الفرنسي للمغرب العربي حيث نشر على أعمدة الصحف كلاما ناريا لم يلبث أن جعله مطلوبا لقوات الأمن الاستعمارية[59].

وقد اضطلعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمهام تعليم العربية والدين وبث الروح الوطنية والذود عن الشخصية الوطنية المستقلة تماما عن المسخ، الذي أرادت فرنسا إيهام الغافلين به على أنه حقيقتهم حتى إذا نال البلد حريته بعد جهاد طويل نرى

La Défense, N°09, 23 Mars 1934. -55

56- محمد ناصر، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 677.

57- محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900 – 1962، ص 396.

58- رابح خدوسي وآخرون، موسوعة الأدباء الجزائريين، ص 119.

59- مجلة واحة الثقافة ص01

الشاعر يواصل مساره المهني مدرسا للعربية في المرحلة الثانوية وناشطا في الإذاعة الوطنية حيث ارتقى بالأثير عبر برامجه الجامعة بين التسلية والمتعة والثقافة والتربية، وأشهر ما كان يقدم من برامج إذاعية: برنامج "ألوان" و"نماذج" منقبا في التراث مازجا إياه بروح العصر والتحديث بما يراه يخدم القضية ويربي المرء على الفضيلة والوطنية[60].

كان السائحي من الوجوه الثقافية المتألقة في الجزائر، بدأ بنشر قصائده الأولى في البصائر الثانية منذ شهر سبتمبر1948، وغالبا ما كان ينشر أشعارا قبل ذلك التاريخ، في دوريات وجرائد شهرية". وفي إطار البحث عن مكان أنسب للنشاط العلمي والثقافي توجه سنة 1948 إلى باتنة واتصل بالشاعر محمد العيد آل خليفة وفي سنة 1952 التحق بالجزائر العاصمة، حيث اشتغل فيها بالنشاط الثقافي والإنتاج الإذاعي[61]"، فاشتغل" بالمدارس الأصلية وبمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. واشتغل بالمسجد الكبير- بوصفه حزّابا- أي من قراء حفظ القرآن الكريم، كما اعتقل مرارا إبان ثورة التحرير، وكان اسمه على القائمة السوداء لمنظمة الجيش السري-O.A.S– كما أنتج وشارك في برامج عديدة للإذاعة قبل وبعد الاستقلال، غلب عليها الطابع التربوي التثقيفي، مع توظيف النكتة المعاصرة حينا والتاريخية أحيانا؛ لمعالجة المظاهر السلبية في المجتمع"[62].

خاتمة

من خلال عرضنا لموضوع صراع اللسان العربي في الجزائر بين قوتين سلطة الاحتلال الفاعلة بقوانينها وقوتها يومذاك ورجال الإصلاح -الجنوب الشرقي- ممثلة في الشيخين محمد الأمين العمودي ومحمد الأخضر السائحي الذين ثبّتهم الله وعزز إرادتهم في الذبِّ عن لسان الجزائر العربي بكل ما أوتوا من قوة، وخلصنا إلى عدة نتائج أهمها:

- ✓ تجنيد المستدمر الفرنسي كافة الوسائل المادية والمعنوية والقانونية من أجل فرنسة الشعب الجزائري.
- ✓ حاولت سلطة الاحتلال تمزيق وحدة الشعب الجزائري، من خلال طمس اللسان العربي، وإبراز العامية و اللهجات المحلية،
- ✓ ضرب مؤسسات التعليم بتجفيف الوقف الإسلامي الذي كان الرافد الأساسي في تغذية عقول الجزائريين، وتفقير القائمين علية من العلماء وتهجيرهم،
- ✓ تجلّى دور الإصلاح في بعث ثوابت الأمة الإسلامية عامة والجزائر خاصة، في حفظ اللسان العربي تقييدا وتدريسا، شعرا ونثرا في كل أوعية المعلومات المكتوبة والمسموعة.

60- محمد الطيب، محمد الأخضر السائحي الشاعر المناضل الوطني، مقال الكتروني، على الرابط التالي: https://binbadis.net/archives/11447

61- موسوعة الشعر الجزائري، ج1، ص498

62- مجلة واحة الثقافة، غلاف المجلة.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم:

أ- المؤلفات:

- أجرون شارل روبير ، تاريخ الجزائر المعاصر(1871-1954)،ط1، ج2،تر:محمد حمداوي وآخرون، دار الأمة،الجزائر،2013.
- بلغيث محمد الأمين، تاريخ الجزائر المعاصرة دراسات ووثائق، ط1، دار البلاغ للنشر والتوزيع، الجزائر، دار ابن كثير بيروت، لبنان، 1422هـ/2001.
- بن ابراهيم الطيب ، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر،ط1، دار المنابع للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.
- بن سلامة الربيعي وآخرون، موسوعة الشعر الجزائري، ج1، دار الهدى، ط1، عين مليلة، الجزائر، 2002.
- بن نعمان أحمد، فرنسا والأطروحة الأمازيغية(الخلفيات، الاهداف، الوسائل والبدائل)، ط2، دار الأمة، الجزائر، 1997.
- بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية الاستقلال، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997.
- تركي رابح، المجتمع القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ط3، 1983.
- الجابري محمد صالح، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900 – 1962، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983.
- جغلول عبد القادر، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، تر: سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت، لبنان.
- حاطوم نور الدين، أصالة الثورة الجزائرية، مجلة الثقافة، العدد84، الجزائر.
- خدوسي رابح وآخرون، موسوعة الأدباء الجزائريين، ج2، منشورات الحضارة، 2014.
- الخطيب أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، تعريب وتقديم وتعليق وفهرسة:محمد بن عبد الكريم، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2017.
- ركيبي عبد الله ، الشعر الديني الجزائري الحديث، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1981.
- ريسلير كميل، السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر، تر: نذير طيار، دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني، ط1 ، أوت 2016.
- الزواوي أبو يعلى، جماعة المسلمين، منشورات الحبر، بني مسوس-الجزائر، 2006.
- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ج3، معهد البحوث والدراسات العربية، بيروت، لبنان، .1975.
- ـــــ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، دار البصائر، طبعة خاصة، الجزائر، 2007.

- سلمان نور، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.
- الفاسي علال ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة، القاهرة، مصر، 1948م.
- قوبع عبد القادر، إسهامات محمد الأمين العمودي(1890-1956) في الحركة الإصلاحية الجزائرية،.
- مرتاض عبد الملك، فنون النشر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- ناصر محمد، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان.
- الناصري محمد المكي ، فرنسا وسياستها الأمازيغية في المغرب الأقصى، ط2، شركة بابل.

ب- الأطروحات:

- بك محمد، (1429/1430هـ/ 2008/2009م)، محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الأوراس الحديث، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.

ت- المقالات:

- بوالصفصاف عبد الكريم، "الثورة الجزائرية ودورها في إزالة الاستعمار من القارة الإفريقية"، مجلة سيرتا، العدد 7/6، السنة الرابعة، قسنطينة، رمضان 1402هـ/ جويلية 1982.
- رمضان محمد الصالح، الأديب الشهيد الأمين محمد الأمين العمودي كما عرفته، مجلة الثقافة، العدد43، السنة الثامنة، الجزائر، صفر- ربيع الأول 1398هـ/ فبراير- مارس 1978.
- زغيدي محمد لحسن ، "محاربة الاحتلال للغة والثقافة العربية وموقف الحركة الوطنية منها"، مجلة اللغة العربية، العدد الممتاز.

ث- المواقع الالكترونية:

- الطيب محمد، "محمد الأخضر السائحي الشاعر المناضل الوطني"، مقال الكتروني، متاح على الرابط التالي:

https://binbadis.net/archives/11447

ج- المؤلفات باللغات الأجنبية:

- Belkacem Saadallah, The Algerian Ulamas, 1919-1931, Revue d'hisroire maghrebine, No 2, Tunis, Juillet 1974.
-La Défense, N°09, 23 Mars 1934
- La Defense, N°129, 18 Déc 1936.
-W.MARCAIS, Comment lAfrique du nord a été Arabisée.annales de l'institut d'études Orientales dAlger.

إقليم وادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري، المجال والساكنة 1900 ـ 1962م

Oued Souf Region, South East Algeria, Geography, Population 1900-1962 AD

أ.د/ الجباري عثماني

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية.

جامعة الوادي (الجزائر)

Otmani0037@gmail.com

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: إقليم وادي سوف متميز بخصائصه الجغرافية والبشرية والعمرانية، وهو ضمن الأقاليم الصحراوية التي تدخل ضمن حيز الجنوب الشرقي الجزائري، وصفه أحد الكتاب الفرنسيين بالجمهورية الصغيرة، بحيث يحتل موقعا جيوسياسيا متفردا؛ جعله قبل الغزو الفرنسي، محط أنظار بايات تونس المجاورة شرقا، وسلاطين بني جلاب غربا، وأجواد مشايخ العرب الزيبانية شاملا. ونهدف من خلال هذه المداخلة أن نجلي للقارئ الكريم طوبونيميا المُسمى، والمجال الجغرافي للإقليم، وأثر البيئة الصحراوية القاسية على ساكنة المنطقة. كما نتعرف على النسيج الاجتماعي والتركيبة القبلية لمجتمع الوادي.

الكلمات المفتاحية: الوادي؛ سوف؛ السكان؛ الاستعمار؛ الجنوب الشرقي.

Abstract:

Oued Souf is characterized by its geographical and human characteristics, and is among the desert regions that enter the south-east of Algeria, described by one French writer as a small republic, occupying a unique geopolitical position, which made it before the French invasion; Through this contribution, we aim to identify the origin of the territory's designation, the geographical space of the territory and the impact of the harsh desert environment on the population of the region. We learn about the social fabric and tribal composition of the valley community.

Keywords: El-Oued; Souf; The population; Colonialism; South-east.

1. مقدمة

إن دراسة جغرافية المكان باعتباره سكنا للإنسان لهي بالأهمية بمكان؛ لهذا اهتم جغرافيو المدن والقرى والأرياف بدراسة الموقع والموضع؛ لما لهما من آثار في التطور الفني والاجتماعي والاقتصادي على حياة الساكنة. حيث ظهرت هناك علاقة كبيرة بين وظيفة

المدينة أو القرية وبين موقعها وموضعها. ويُعرّف الموضع، على أنه دراسة الظواهر الطبيعية كالتضاريس ودرجة انحدار الأرض وتركيبها الجيولوجي والمياه ومصادرها؛ ومن ثم الطقس والمناخ للأرض التي يقوم عليها الاستقرار البشري. وأما الموقع، فيقصد به دراسة مساحة أوسع من ذلك، تكشف عن مراكز المدينة أو الإقليم، وعن علاقاتهما بمساحات أوسع تحيط بهما، وبعبارة أخرى يشمل الموقع على جميع الارتباطات المكانية بين المدينة والمناطق الأخرى[1]. وانطلاقا من أن الإنسان يتفاعل مع بيئته التي تحيط به، خصصنا هذه المداخلة لدراسة ولو بصورة موجزة المظاهر الجغرافية المميزة لمنطقة وادي سوف، وذلك بتحديد موضعها وموقعها، وما تأثير الجغرافيا على حياة السوفي في أوسع صورها، والتركيبة السكانية المشكلة للنسيج الاجتماعي للإقليم.

2. إقليم وادي سوف، الموقع والتسمية.

2.1. طوبونيميا وادي سوف:

إقليم سوف متميز بخصائصه الجغرافية والبشرية والعمرانية، وهو ضمن الأقاليم الصحراوية الجزائرية، يحتل موقعا جيوسياسيا متفردا؛ جعله محط أنظار بايات تونس المجاورة، وسلاطين بني جلاب الطامعة، وأجواد مشايخ العرب الزيبانية المتنافرة. وقبل تحديد موقع هذه الجمهورية الصغيرة كما وصفها "دوماس"[2]؛ يجدر بنا أن نبرز ونحدد معنى تسميتة، فوادي سوف جمع بين كلمتي وادي وسوف.

فالوادي، هو وادي الماء الذي كان يجري قديما في شمال شرق سوف، يسميه العدواني النيل، ويقول: والنيل يجري عليها[3]. ويعتقد أن منبعه الأول هو جبل مجور بالقرب من نقرين، وله عدة روافد، وفروع منها: عيون النازية على مسافة 60 كم شمال شرقي الوادي وسمي هذا القسم وادي النازية، ووادي الجردانية[4]، يجتاز الإقليم من الشمال إلى الجنوب، وظل يجري حتى مجيء العرب إلى المنطقة في القرن 15م، وقد اتخذ الفرع الثاني طريقا آخر، وانقطع الوادي الأول بفساد عيون النازية من كثرة الرمال[5]. ولكن الرحالة "لارجو" يحدد

1- مصطفى عباس الموسوي، **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية**، دار الرشيد للنشر والتوزيع، بغداد 1982م، ص. 201.

2- Lieutenant-Colonel Daumas, **Le Sahara algérien, Etudes Géographiques, Statistiques et Historiques**, Langlois et leclerco, Paris 1945, p. 190.

3- محمد العدواني، **تاريخ العدواني**، تح. أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر 2011م، ص. 134.

4- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ وسوف**، مخ. ج. 1، لدينا نسخة منه، ص ص. 40-41؛ علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر**، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر 2001م، ص. 7.

5- ينظر: إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 1، ص ص. 40-41.

اتجاها آخر للوادي، حيث يأتي إلى سوف من الجنوب، ويقول: هذا الوادي ما هو سوى الجزء الأسفل من النهر القديم تريتون، ويأخذ مصدره في مضيق غرامانتيك (غات)، ويقطع بحيرة النوبة (أو ربما سبخة غدامس) ويصب في بحيرة تريتون[6]. والتريتون هو نهر صحراوي قديم ذكره الجغرافيون القدماء، وأن الفاتحين العرب الأوائل عرفوه تحت الاسم المطلق للنيل.

وبينما يُرجع البعض الآخر التسمية إلى أصلها العربي، حيث أن عرب طرود حينما أتت إلى هذه النواحي، قالت: "نسكن تلك السيوف"، وهي الأحقاف أي الكثبان الرملية التي حُرفُها حاد، والسُوفة والسافة: تعني الأرض بين الرمل والجلد، والسائفة جمعها سوائف: وهي الرمل الدقيقة الناعمة؛ والسوافة يسمون الرمل الدقيقة بالسافي؛ ومن هنا اشتق اسم سوف؛ لكونها أرض رملية[7]. وقيل بأن أهل بلدة سوف البصرة قرب مدينة حلب الشام، حين دخلت العرب إفريقية دخلوها معهم، فلعلهم سكنوا هذه الأرض فسميت بهم. وهناك قول يفيد، أن، هناك فرقة من الملثمين البرابرة تسمى بمسوفة أو ماسوفة؛ وهم قبائل صنهاجة الجنوب أو الطوارق، مروا بالمنطقة أو سكنوها مدة؛ فسميت باسمهم. وهناك من يرجع أصل التسمية إلى لبس "الصوف"، فأهلها منذ القديم كانوا يلبسون الصوف من أغنامهم؛ لعدم وجود غيره من المنسوجات عندهم. وقيل أنها كانت موطنا لرجل صاحب علم وحكمة يدعى "ذا السوف" فنسب إليه، والسوف معناها الحكمة والعلم؛ فتسمت هذه الأرض به[8].

وبما أن المنطقة سكنها البربر، واستقروا بها ردحا من الزمن، فقد تكون التسمية أطلقت على الإقليم من قبلهم؛ لإن كلمة سوف مشتقة من الاسم الأمازيغي "أسوف" وبالقبائلية العصرية "أسيف"؛ وتعني الأرض المنخفضة على ضفاف الوادي. وفي علم اللسانيات ما يشير، بأن كلمة الوادي بالعربية ترادفها بالأمازيغية كلمة سوف[9]. وقد أدغمت كلمة الوادي مع كلمة سوف وأصبحت وادي سوف، وأول من ذكره بهذا الجمع هو الرحالة الأغواطي في حدود 1829م[10]، وأصبح المصطلح هو الشائع في النصف الثاني من القرن 19م.

6- Victor Largeau, **Le Sahara Algérien, les déserts de l'erg**, Libraririe Hachette, Paris 1881, p. 329.

7- إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية** 1837-1934، دار هومة، الجزائر 2005م، ص. 144.

8- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 1، ص. 10؛ محمد بن عمارة، **العادات الاجتماعية في البيئة الصحراوية (وادي سوف نموذجا)**، مكتبة اقرأ، قسنطينة 2010، ص. 17.

9- Ahmed Najah**, Le Souf des Oasis**, La maison des livres, Alger 1971, p. 32.

10- أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج. 2، دار المعرفة، الجزائر 2007م، ص. 206.

مع أن الرحالة Louis Piesse يفضل تسمية "وادي إزوف" (oued Izouf)[11]، والذي يعني النهر الرقراق الذي كان يجري في المنطقة[12]. وهذا ما يذهب إليه الرحالة "دوفيرييه" حيث يقول، أن: وادي سوف كان قديما نهرا حقيقيا في بلد ليس به رمل[13].

2،2. موقع الإقليم:

تقع منطقة سوف في الجنوب الشرقي من القطر الجزائري، ما بين خطي عرض 31° و 34° شمالا، وما بين خطي طول 6° و8° شرق خط غرينيتش تقريبًا، ويحدها من الشمال جبال الأوراس النمامشة الممتدة على خط نقرين -الزاب الشرقي، ومن الشرق الحدود الجزائرية -التونسية، ومن الجنوب الصحراء الليبية -الجزائرية، ومن الغرب واحات وادي ريغ. وبهذا فهي إذن تقع في منطقة منعزلة على شكل مثلث بين الأقطار الثلاث: الجزائر، تونس، ليبيا. وتقدر المساحة الإجمالية للإقليم بـ 82800 كم^2، وبأبعاد تمتد من الحدّ التونسي شرقا إلى واحات وادي ريغ غربا على مسافة تقدر بـ 160كم، ومن استطيل-الحمراية شمالا إلى غدامس جنوبا على مسافة 600كم تقريبا[14].

3. عروش وقبائل وادي سوف

3، 1. آل طرد (طرود):

قَدِم عرب طرود من القاهرة التي غادروها بعد أن تمردوا عن الحاكم، ووصلوا حتى "جريقة" في الجريد التونسي؛ لكن سلطان تونس طردهم بعد الاضطرابات التي أحدثوها، اتخذوا اسم طرود وهم في طريقهم إلى سوف حينما التقوا بشيخ له الاسم نفسه، قَبِل بأن يكون قائدهم إذا هم اتخذوا اسم طرود. وكانت لهم حروب كثيرة مع عدوان قبل أن يستقروا في سوف[15]. وقد بيّن العدواني كيفية امتلاك قبيلة طرود لأرض سوف، وحروبهم مع عدوان والصلح الذي تم بين الطرفين بعد ذلك. وقد نزلت قبيلة طرود في الوادي، وكان وقت دخولهم إلى الوادي عام 800هـ/1398م، وانتشرت طرود قطعًا قطعًا من الوادي إلى سندروس ووادي العلندة ونواحي أخرى. وتشير المصادر التاريخية أن طرود حينما نزلوا بسوف، قد تنازعوا مع زناتة تكسبت بسبب قلّة الماء[16]، وكانت في النهاية الغلبة لطرود. وقد

11- Louis Piesse, **Itinéraire de Lalgérie de la Tunisie et de Tanger**, Librairie Hachette, Paris 1882, 432.

12- André Voisin, **Le Souf, Monographie**, EL-walid, EL-oued 2004, p. 15.

13- Henri Duveyrier, **Journal de Route, Sahara Algerinet et Tunisien**, Publié et Annote, CH. Maunoir et H. Shirmer, Librairie Maritime et Coloniale, Paris 1905, p. 14.

14- André Voisin, op. cit. p. 15.

15- Henri Duveyrier, op. cit. p. 15.

16- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مط. ص ص. 161-162.

توزعوا إلى عرشين كبيرين عمّرا مدينة الوادي وأكثر قراها، وهما:

1.3.1. عرش الأعشاش:

نسبة إلى رجل اسمه "العش بن عمر بن سليمان بن محمد اليربوعي"، سكن الوادي فارا من وطن نفزاوة في القرن 16م، وقد التقى بالشيخ سيدي المسعود؛ فأضافه وحسّن معه الضيافة، بعدما طرده غنام كما تقدم، وطلب العش من يدعو له، فقال الشيخ: اللهم اجعل لهذا الرجل في هذه القرية حظا عظيما، واجعل ساكن هذه القرية يسمى باسم هذا إلى يوم القيامة[17]. ويضم العرش، قبيلة الأعشاش، وتدخل تحت كنفها عدة عمائر: عميرة الفقهة، وأولاد خليفة، وأولاد حميدة، وأولاد عيسى، والجبيرات، والكساسبة، والعيايدة، والحليلات، ومصغونة. وأما قبيلة أولاد أحمد التي تنتسب إلى العرش المذكور، فينسبون إلى "حمد بن عمر بن حنظلة القرشي"[18]. وهم أول من قدموا إلى وادي سوف من العرب، وينحدرون من قريش، غادروا سوريا في زمن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتضم سبعة عمائر، وهي: عميرة السوفية، وأولاد مياسة، وأولاد جاء بالله، وأولاد عياد، والاميهات، والعواشير[19].

والعميرة السابعة هي الشوامس، وهي قبيلة عربية خالصة موطنها الأصلي "السنينة" على الحدود الشمالية الغربية لسلطنة عمان بالجزيرة العربية، ولها جد شريف اسمه "بوجواحيف" أحد الأولياء في منطقة نفزاوة، لا زال قبره يزار حتى الآن بتلك النواحي. وقد كانت هذه القبيلة عبارة عن أسرة صغيرة، الأب بوجواحيف والولدان: خصومة وثامر، والبنت هي هنية، ثم كبرت العائلة وتفرعت إلى عدة فروع كلهم ينتسبون إلى ثلاث أصول وهم: أولاد هنية، الخصايمية، والثوامر. وسبب تلقيب الفرقة بالشوامس؛ يرجع لخلاف وقع بينها وقبيلة مجاورة جهة نفزاوة، واستغلت الأخيرة رحيل الفرقة المذكورة للتبضع، وأغارت على من بقي من الشوامس قتلا وضربا، وفر الناجون متجهين نحو مغرب الشمس، وعندما عادت القافلة إلى أهليهم لم يجدوهم، فسألوا عنهم فقيل لهم شمّسوا[20]، غير أن العوامر يذكر أن سبب التسمية يعود إلى شمّاس بن بوجواحيف النفزاوي.

في حين فرقة أولاد جامع التي اشتق اسمها من صاحب ولاية طرابلس "عبد الله بن إبراهيم بن جامع" في العام 1206م[21]، كانت منازلهم بناحية طرابلس ثم انتقلوا منها إلى

17- محمد العدواني، المصدر السابق، ص. 115،122.

18- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 2، ص. 64.

19- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 1، ص- ص. 61-63.

20- مبروك بن محمد الشامسي، **مذكرة نفيسة للشيخ مبروك الشامسي**، تق. تع. علي غنابزية، مؤسسة إيموبال المطبعة العصرية، الوادي 2012م، ص ص. 16-20.

21- إتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م**، تر. وتق. خليفة محمد التليسي، الدار

الناحية الجنوبية من تونس ومنها إلى أرض سوف، وعددهم ليس بالكثير بالوادي كما يقول صاحب الصروف. وأما عميرة الفرجان، فهم من بني عَطِيَّة، واحدهم عطوي (العُطَيَّات) أي من أولاد "عطوة بن عطية بن كمون بن فرج بن توبة عطوة" نزحت من الحجاز وسكنت في مصر، ثم هاجر من أفرادها الكثير إلى ليبيا وتونس والجزائر وسكنوا هذه الديار. وهناك من يصنفهم من المرابطين تشير المصادر إلى إعفائهم من الضرائب في عهد الأتراك بتونس، يصفهم أحد الرحالة المغاربة عند مروره من سرت إلى الحج في بداية القرن 18م، وقال في شأنهم: مررنا بالفرجان وأخلاقهم أزهى من اللؤلؤ[22]. والمرجان وقد تأخرت في الدخول إلى سوف عن باقي القبائل، ولعلهم نزحوا إلى المنطقة سنة 1789م؛ حيث أتى كثير من العرب إلى الوادي ومعظمهم من الفرجان، وهم عدة أفخاذ، ومنهم: الخوازم والاهليلات والطوفقة وأولاد بالحسن[23].

وقبيلة الربايع التميمية، فيعود اسمها إلى ربيعة التميمي، ويرجع ربايع الوادي في أصلهم المغربي إلى الشيخ "أبو بكر التوي"؛ وهو رجل صالح كان يعلم الأطفال القرآن الكريم ويكُنى بالتوي، وقبره معروف في بلقردان بمدنين التونسية، وكان هذا الأخير ينتمي إلى قبائل الربايع التي هاجرت إلى شمال افريقيا مع الفتوحات الإسلامية، والتي استقرت أول مرة في بلقردان، وبعد مدة وقع خلاف بينها وبين الأمير شبل حاكم مدينة قابس؛ حيث هاجرت بعض من أفخاذ هذه القبيلة إلى الصحراء ناحية تقرت، واستقرت بعد ذلك في وادي سوف؛ لأنها منطقة رعوية، ومعروف عن الربايع أنهم أهل إبل وأغنام يمتهنون الرعاية وهي مصدر رزقهم. ويُرجع العوامر نزوحهم إلى سوف في نحو 1750م، ومنهم حوالي 14 عميرة[24] تتميز بالعلامات التي وُسمت بها إبلها[25]، وينقسمون حسب جهة سكناهم في الوادي إلى قسمين: ربايع الشمال وهم: العلاونة والدوايمة والمصابيح وأولاد عيسى وأولاد حجاج وأولاد زقزاو والزيود والمصابيح، والقسم الثاني ربايع الجنوب وهم: العتايرة والفوايز والحوامد والمعاتيق وأولاد بلول والرقيعات والشواشين[26].

1.23. عرش المصاعبة:

ينسب هذا العرش إلى "مصعب بن شباط"، ويقال لهم أيضا المصابعة أو الأصابعة؛

العربية للكتاب، (د. م. ط)، ط. 2، 1991م، ص. 112.

22- محمد بوزرارة، **التخوم التونسية الليبية عبر التاريخ، نجع الذهبيات وجيرانه**، مطبعة سعيدان بسوسة، تونس 2014م، ص ص. 82-83.

23- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 2، ص. 38، 74.

24- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 2، ص. 70.

25- André voisin, op. cit. p. 169.

26- Ahmed Nadjah, op. cit. p. 58.

نسبة إلى رجل ذي أصبع زائدة، ويضم هذا العرش أربع قبائل أو عمائر وهي:

- **الشبابطة:** وينتسبون إلى شباط المتقدم ذكره، دخلوا سوف عقب أولاد أحمد، وفيهم بعض أهل تكسبت القديمة من زناته، وتنقسم العميرة إلى اثنتي عشرة بطن، ومنها: الشراردة، والشوايحة، والأبالي، والأمامنة، والستاتة، وأولاد جديد، والجلايصة، والسواكرية، والزبدة، والمساعية، والاعليات، والعيايدة[27].

- **القرافين:** وهم بطن من أولاد قرفة بن اثبج بن أبي ربيعة، مضاربهم بين طرابلس وقابس من بلاد المغرب، نزحوا من تونس ودخلوا إلى الجزائر من جهة وانزة ومنها إلى تبسة ثم اتجهوا نحو إلى زريبة الوادي، ودخلوا سوف من جهة المقرن. وتنقسم العميرة إلى تسع أفخاذ منها الأصلي والآخر ملحق. ومن ذلك: القشاشطة، والشراعبة، وأولاد نصر، وأولاد زايد، والرضوين، والحمايدة - وهؤلاء أصلهم من محاميد طرابلس- والجبابنة، ومصغونة..[28].

- **العزازلة:** ينتسبون إلى العزال؛ الذي جاء من المغرب ومعه ابنيه علي وبالقاسم، وكل واحد منهما له ثلاثة أبناء، فمن الأول: عباس، الذي نسبت له فخذ العبابسة. وطليبة نسبت له الطلايبة. وبشَيِّر البشايرة. ومن الثاني: عزيز ونسب له فخذ تعرف بأولاد عزيز، وحمد وينسب له أولاد حميد. وأجدادهم كل من: لعجال وحمد وعزيز وعباس واطليبة والبشير وعلي مقبورون بمقام واحد بالقرب من ضواي روحة، ويعرفون في سوف بالعزازلة السبعة[29]. وهناك رواية أخرى تقول: أن سبب تسميتهم بالعزازلة؛ لأنهم اعتزلوا بعضا من فرقهم وخاصة أولاد بالقاسم، وخرجوا على إثرها وسكنوا الصحاري الواقعة بين تقرت وورقلة، ثم رجعوا إلى المنطقة في حدود 1837م.

3.2. آل عدوان (أولاد سعود):

ينتمي آل عدوان إلى العرق العربي الأصيل، وأما عن كيفية استيطانهم للمنطقة، فتقول الروايات، أنه لما كثُر الوافدون على أرض وادي سوف من الجريد والزاب ووادي ريغ وورقلة، اجتمع رأي جماعة من بربر زناتة على بناء قرية بالجردانية عند رأس الماء (عيون النازية)، فأكثروا فيها الزرع والضرع والأشجار، وشاع أمرها في تلك الجهات وتسابق إليها الناس من كل فج؛ لحسن مائها وهوائها وكثرة خيراتها وأمنها. ومن ذلك شعب عدوان الذين كانوا بنواحي الكاف والقيروان، ولما ضاقت بهم المجالات لكثرة عددهم، انتقل بعضهم يجول في الأرض، حتى وصلوا الجردانية فأعجبتهم فسكنوها في حدود عام 600هـ/1204م، ثم

27- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 2، ص ص. 64-66.

28- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 2، ص ص. 67-68.

29- نفسه، ص ص. 68-69.

نزحوا بعد ذلك بسنوات إلى أرض سوف[30].

لقد كانت قصور الزقم عامرة بهم، ثم اختلطوا مع قبائل أخرى وارتبطوا مع بعض القرى المجاورة لهم. وقد تحول اسمهم في القرن التاسع الهجري إلى "أولاد سعود"؛ ويعود سبب هذه التسمية إلى الخلاف الذي وقع بين أهل تغزوت وأحمد الشابي التونسي، الذي وصل إلى حد العداوة والاقتتال، فلما طلبوا المشورة من رجل شريف من أهل تغزوت يدعى "الشيخ أسعود"، أمرهم بتوحيد كلمتهم وتسليم قيادتهم إليه قائلاً: "أنا سيدكم وأنتم أولادي كما قال طرد لكافة القبائل، ولا تسموا أحدا إلا باسم أولاد أسعود، فشاع الخبر في كافة القبائل وسارت الركبان بهذا الاسم. وانضم إلى أولاد أسعود سكان بعض القرى الأخرى مثل: الزقم، وكونيين، وورماس، وسيدي عون، وتغزوت.

3.3. سكان قمار والقرى الأخرى:

الساكنة التي اتخذت من قمار موطنا لها، تميزت عن غيرها في الثقافة والتمدن، وهي خليط من العرشين المذكورين (طرود وعدوان)، وتتألف من عدة عمائر لكل واحدة منها رئيسا[31]، وهي كالآتي: عميرة أولاد عبد القادر، عميرة أولاد احميد، أولاد بوعافية، أولاد اهويمل.

وأما عن قرية الدبيلة؛ فيرجع أصول سكانها إلى مؤسسها الأول في حدود أواخر القرن 17م، وهو الإدريسي الحسني الشريف، الشيخ سي علي بن اعمر بن خزان بن عبد الجبار بن عبد الرزاق بن محمد بن عبد العزيز بن عمران[32]، وقد جاء من المغرب الى جنوب تونس، وهناك في نفطة تزوج بابنة الشيخ ضيف الله بن اسعيّد الشريف النفطي، ثم انتقل إلى سوف وأسّس وعمَّر بلدتي الدبيلة وحاسي خليفة، ولم يعقب إلا ابنا واحدا يسمى الشيخ عمار؛ وهو المدفون مع والده في وسط الضريح بالديبلة الشرقية، وبنتا تسمى مبروكة وتكنى بالزائلة؛ لكونها مدروشة ولم تتزوج وتوفيت مسنة. وأنجب عمار المذكور ستة أولاد[33]: عبد الملك وعيسى وخليفة، من زوجه المسماة الجازية. وأحمد وبالقاسم وعلي، من زوجه "جمعة"، وقد جاء من نسلهم العمائر الساكنة في بلدة الدبيلة، وبعض ساكنة حاسي خليفة، وهم: أولاد خزان، وأولاد غنايم، وأولاد خليفة، وأولاد امليك، وأولاد نصيب، وأولاد علي وغيرهم[34].

30- نفسه، ص ص. 145-146.

31- Henri Duveyrier, op. cit. p. 14.

32- الحاج محمد بن الحاج الميلود بن خزان، **تاريخ أبناء سيدي علي بن خزان**، مخ. بحوزة كمال خزان، الدبيلة، ص. 7.

33- وثلاث بنات وهن: عيشة وفاطمة وخضرة. محمد الأزهر النفطي، المرجع السابق، ص. 7.

34- للمزيد حول آل خزان، ينظر: محمد الأزهر النفطي، المرجع السابق، ص ص. 7-11.

وأما سكان بلدة البهيمة من غير الأشراف، فهم خليط من عمائر وأفخاذ طرود وعدوان، وأهلها خمس عمائر: العيايدة، والعيايطة، والغوالين، والسواري، والعميرة الخامسة الوهاهبة[35]. وقد تزينت البلدة بأشرافها الذين ينتسبون إلى جدهم، سيدي محمد الشريف بن عبد العزيز بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن العباس[36]، ونتيجة النسب الشريف للعائلة الأخيرة، حُضيت بالتكريم والتبجيل من حكام الجزائر وتونس في العهد العثماني؛ وهو ما دلت عليه أمرية حمودة باشا[37] التونسي إلى عماله في شأن احترام وإكرام أولاد "الفقيه الشريف محمد بن السيد أحمد" من أشراف نواحي سوف... بحيث لا يطرقهم أحد بمضرة، ولا تنتهك حرمتهم، ولا يهضم حقهم، ولا يقاسون بما يقاس به غيرهم؛ إذا أتو لمكان من عمالتنا وحلوا بمحل من عملنا. وقد جدد خلفه "حسين باي" ما جاء في رسالة أبيه، من احترام وتكريم للعائلة، وأكد على معاقبة من قصدهم بمضرة[38].

وأما سكان القرى والمداشر الباقية وهي: وادي العلندة، والرقيبة، والطريفاوي، وحاسي خليفة، أميه ونسة، سحبان، المقرن، الرقيبة، وغيرهم، من التجمعات السكانية في سوف؛ تنتمي في الأغلب الأعم إلى شعب طرود، وهذا بالإضافة إلى أقليات نزحت إلى المنطقة وسكنتها، ومنها طائفة اليهود، الذين يرجع تواجدهم في الوادي حسب العدواني إلى بداية الفتح الإسلامي[39].

4. المستدمر الفرنسي يغزو أرض سوف

لم يخضع إقليم سوف للحكم المركزي في عهد الجزائر العثمانية (1518-1830م) إلاّ في بعض الفترات الأخيرة منه، ذلك أن أغلب المناطق الصحراوية في هذا العهد تكاد تكون في عزلة تامة عن الأتراك العثمانيين بالجزائر، غير أنّها أصبحت تابعة اسميًا وصوريًا لنفوذ شيخ العرب الممثل لباي قسنطينة في الصحراء من جهة، وكذلك ممثل سلاطين بني جلاب بتقرت من جهة أخرى، وهذا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر الميلادي[40].

وقد بدأت السلطات الفرنسية تفكر في احتلال إقليم سوف منذ الأيام الأولى من سقوط مدينة قسنطينة في خريف عام 1837م، حيث برهنت الأحداث على أن سوف –

35- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 2، ص. 78-79.

36- الجباري عثماني، **المجتمع والإدارة المحلية في وادي سوف (دراسة وثقية)**، سامي للطباعة، الوادي 2022م، ص ص. 87-88.

37- أحد بايات الأسرة الحسينية، حكم تونس من سنة 1782-1814م.

38- الجباري عثماني، المرجع السابق، ص. 88.

39- محمد العدواني، المرجع السابق، ص. 79.

40- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص ص. 165-166.

وهي جزء من ما يُعرف في ذلك الوقت بـ "صحراء قسنطينة" - هي بمثابة قاعدة خلفية للمجاهدين وزعماء الثورات بالجزائر، وميدانا ملائما للثائرين، وخاصة الشريف "محمد بن عبد الله". وإن احتلال إقليم سوف ما هي إلا حلقة من حلقات التوسع الاستعماري، لا سيما وأن هذه المنطقة كانت تحتل مكانة هامة، وذات موقع استراتيجي متميز، لذا تعددت دوافع الحملة الفرنسية على الصحراء ومنها الوادي من سياسية، واقتصادية وإستراتيجية[41].

وقد مهدت تلك البعثات الاستكشافية الطريق للقوات الفرنسية لاحتلال سوف، زد على ذلك الوضعية السياسية والاجتماعية المتدهورة بالمنطقة؛ وتأثر سوف بأحداث صراع الإخوة الأعداء حول كرسي سلطنة بني جلاب، بظهور منافس للسلطان الصغير عبد القادر، وهو، سلمان بن علي الكبير الذي تلقى الدعم من تماسين، وآزره الشريف محمد بن عبد الله، وأصبح سلطانا على تقرت بعد أن أزاح سابقه، وسلك طريقا آخر في علاقته مع فرنسا عكس أسلافه من السلاطين، فقد اختار سلمان أسلوب المقاومة[42] والمراوغة؛ لذلك أرسل الفرنسيون أحمد باي بن شنوف إلى سوف كقائد عليها، لإبعاد السوافة عن سلمان، لكنه فشل في مهمته. لهذا أمر الوالي العام في ماي 1853م بحصار اقتصادي على وادي ريغ وسوف؛ فأعلنت قريتا سوف تغزوت وكوينين خضوعهما للفرنسيين بدفع الضرائب المعهودة عليهما؛ لهذا سمح لهما بالدخول إلى أسواق بسكرة، ولما عرض الوادي ومن لف حوله نفس العرض قوبل بالرفض وتعطلت قوافلهم التجارية. وفي مارس 1854م قام المهاجمون المسلحون من بسكرة برخصة من الفرنسيين، وهاجموا عدة قطعان من الماشية تابعة لفرقة الربايع من طرود؛ بذلك جروا الوادي إلى صف سلمان[43].

وفي خريف عام 1854م، راجت أخبار داخل الأوساط الاستعمارية ببسكرة مفادها أن القوات الفرنسية تتأهب للقيام بعمليات عسكرية هائلة، للهجوم على إقليمي ريغ وسوف وغزوهما، موطنا المشاغبين حسب زعمهم. وبعد التأكد من عزم الفرنسيين على الغزو، أخذ المقاومون في الاستعدادات والمساعي الحثيثة من أجل حماية البلاد من العدو الذي يتربص بهم الدوائر، واستنفر سلمان السكان وراسل سكان الوادي يحثهم على الجهاد، ويطلب منهم أن يكثروا من البارود، ويأمروا تجارهم أن يجلبوا المكاحل (البنادق)؛ لأنه في أمس الحاجة لها[44]. وقد آتت هذه الرسالة أكلها، وفزع جمّ غفير من أهل الوادي إلى تقرت قُدّر عددهم

41- الجباري عثماني، المرجع السابق، ص. 118.

42- معاذ عمراني، **أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين** 19و20 **الميلاديين**، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، أفريل 2003، ص. 65.

43- أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء**..، ج. 5، ص. 16.

44- الجباري عثماني، المرجع السابق، ص. 124.

بحوالي 1500 مجاهد، ففرح سلمان بمقدمهم وأكرمهم[45]. وبجيش النجدة السوفي وقوات الثائر الشريف محمد بن عبد الله، وقوات تقرت بقيادة سلمان، بلغ عدد المجاهدين ما بين 2400 إلى 2800، ألفين من المشاة والبقية من الخيالة. وأما القوات الفرنسية فقد بلغت نحو 2650 مقاتل من مختلف القوى الرسمية ولا سيما أعوان الاستعمار من الأهالي المجندين ضمن فرق الصبايحية والقوم، تحت قيادة ضباط متمرسين على رأسهم العقيد ديفو ومارمييه وروز وغيرهم[46].

التقى الجمعان على مقربة من بلدة المقارين - تبعد على تقرت حوالي 10كم – في التاريخ 29 نوفمبر 1854م، حمى الوطيس وتعالت الأصوات بالتكبير من المجاهدين، واشتد القتال بين الطرفين، جيش منظم وبأسلحة متطورة في مقابل قوات شعبية وبأسلحة تقليدية ودون خطة منظمة، رغم ذلك انهزم الجيش الفرنسي في أول الأمر، لكن القوات الجديدة التي تعزّز بها العدو رجّحت الكفة لصالحه، وانهزم جيش المقاومة وقُتل الكثير من المجاهدين بلغ عددهم 500 شهيد[47]، وما نجى من المعركة إلا النزر القليل. وتراجع سلمان إلى تقرت ومنها إلى تماسين، ثم انتقل رفقة الشريف محمد بن عبد الله إلى الوادي ومكثا فيه مدة، ومنه قصدا تونس والتحقا بالثائر أحمد بن الحاج بنفزاوة[48].

ومهما كان الحال فإّنه في 2 ديسمبر 1854م دخل القائد مارمي تقرت وقد سبقه إليها الملازمان الأولان روز Rose وديان فيل Dyanville رفقة سرية من الصبايحية، وفي 5 ديسمبر وصل العقيد ديفو إلى تقرت على رأس الطوابير التي تم جمعها من باتنة والاغواط وبوسعادة لتنضم إلى بقية الفرق العسكرية المتواجدة بعين المكان معلنا باسم فرنسا احتلال عاصمة الأسرة الجلابية تقرت[49]. ومن أجل معاقبة أهل الوادي الذين آوو سلمان والشريف وناصروهما؛ ترك العقيد ديفو بعض قواته بالمدينة للمحافظة على الأمن، وقاد بقية القوات واتجه نحو وادي سوف في 10 ديسمبر 1854م، وكان مضطرا لسلوك طريق رملي صعب المراس، ومتعدد المسالك، ورغم أن المسافة لا تتجاوز 85 كم تقريبا، فإن القوات الفرنسية استغرقت لقطعها ثلاثة أيام، متخذة طريق الطيبات القبلية[50].

45- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 2، ص. 51.

46- معاذ عمراني، المرجع السابق، ص ص. 69-71.

47- ينظر: أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية(*)**..، ج. 1، ص ص. 360-361؛ معاذ عمراني، المرجع السابق، ص ص. 70-73.

48- الجباري عثماني، المرجع السابق، ص. 125.

49- André Voisin, op. cit. p. 74.

50- C. Cauvet, **Notes sur le Souf et les Souafa**, Bulletin de la société de géographie d'Alger, 1934, p. 49.

وصلت الطوابير الفرنسية إلى سوف، ودخلت إلى أول بلدة في سوف وهي تغزوت في 13 ديسمبر 1854م، وقد اختار القائد الفرنسي الدخول إليها نظرا لمعرفته المسبقة بموقف السكان المعادي لخصوم الفرنسيين في تقرت، حيث قوبلت القوات الفرنسية باطمئنان وترحاب[51]، وقد أكد علي بن أحمد الزبيدي ذلك بقوله: "أنه لما أتى سعادة الجنرال ديزفوا أول مرة إلى سوف، وخدمت له(كذا) جميع أناس سوف بالهناء والعافية"[52]، استراحت القوات الفرنسية بعض الوقت، ثم توجهت نحو بلدة كوينين[53]، ومنها انتقلت إلى عاصمة سوف، مدينة الوادي في حدود 14 ديسمبر 1854م. واللافت أن وفدا من أعيان الوادي وخوفا من الانتقام؛ أتوا للمحلة عندما وصلت بالقرب من ورماس، وأظهروا التسليم والخضوع التام ووعدوا بتطبيق كل الشروط الفرنسية[54].

وهكذا أُخضع سكان وادي سوف للآلة الفرنسية القمعية، وأصبح أهلها تحت رحمة الغاصب المحتل، وأصبح السوافة يرزح في ظلمتين: ظلمة المستعمر المستبد، وظلمة الجهل؛ مما جعل ثلة من أبناء المنطقة يسعون لكسر ظلمة وغياهب الجهالة، بشدّ الرّحّال إلى الزوايا والجوامع المعمورة بالعلم والمعرفة، وهؤلاء أصبحوا فيما بعد شموعا تضيء نورا وتوقد أملا، للصغار والكبار بالمنطقة.

5. خاتمة

وقصارى القول؛ فإن وادي سوف يشكل إحدى المكونات الجغرافية للأقاليم الصحراوية الجزائرية، احتل موقعا فريدا جعله متميزا بخصائصه المكانية والبشرية، فهو يقع في مفترق طرق بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، لذا يمكن تصنيفه ضمن الأقاليم التي نشأت وتطورت مدنها وحواضرها ذاتيا؛ مما حدا بالبعض بوصفه بالجمهورية الصغيرة، والتي كانت محطّ أنظار واهتمام الجوار قبل الغزو الفرنسي للمنطقة. وفي مطلع الخمسينيات من القرن التاسع عشر دخلت المنطقة في حسابات المستعمر الفرنسي في إطار التوسع في أقاصي الجنوب الجزائري، ومراقبة الوضع عن كثب في التخوم الشرقية، لتدخل بعد ذلك ضمن الأقاليم المستعمرة في الجنوب الشرقي الجزائري؛ ويغرق مجتمعها في ظلمات الجهل والاستعباد.

وقد اتسمت الحياة الاجتماعية في الوادي، بالبساطة في المعيشة فقد عُرف الفرد السوفي بتقشفه وحسن تصرفه، وتميزت العلاقات بين أفراد المجتمع بالمتانة سواء داخل

51- André Voisin, op. cit. p. 74.

52- الجباري عثماني، المرجع السابق، ص. 126.

53- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص ص. 180-181.

54- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ**..، مخ. ج. 2، ص. 52.

الأسرة أو خارجها لطبيعة النظام القبلي السائد في المنطقة، وهو ما نلاحظه في تموضع تلك العمائر والأفخاذ التي تنتمي للعرش داخل القصور والحومات والأحياء التي تشكل المكون العمراني للقرى والحواضر. وقد خرج من رحم تلك الحومات والنِّزلْ من حمل وتشرّب المعين الصافي زلالا، بعيدا عن الهرطقات والشطحات، ودافع عن هويته الإسلامية والعربية بغير هوادة، من خلال كراسي الوعظ ومنابر الجوامع وأعمدة الصحف.

6. قائمة المراجع

- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ وسوف**، مخ. ج.1، لدينا نسخة منه.

- إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية** 1837-1934، دار هومة، الجزائر 2005م.

- أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج.2، دار المعرفة، الجزائر 2007م.

- إتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م**، تر. وتق. خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، (د. م. ط)، ط.2، 1991م.

- الجباري عثماني، **المجتمع والإدارة المحلية في وادي سوف (دراسة وثقية)**، سامي للطباعة، الوادي 2022م.

- الحاج محمد بن الحاج الميلود بن خزان، **تاريخ أبناء سيدي علي بن خزان**، مخ. بحوزة كمال خزان، الدبيلة.

- علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 19م**، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر 2001م.

- مبروك بن محمد الشامسي، **مذكرة نفيسة للشيخ مبروك الشامسي**، تق. تع. علي غنابزية، مؤسسة إيموبال المطبعة العصرية، الوادي 2012م.

- محمد العدواني، **تاريخ العدواني**، تح. أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر 2011م.

- محمد بن عمارة، **العادات الاجتماعية في البيئة الصحراوية (وادي سوف نموذجا)**، مكتبة اقرأ، قسنطينة 2010م.

- محمد بوزرارة، **التخوم التونسية الليبية عبر التاريخ، نجع الذهبيات وجيرانه**، مطبعة سعيدان بسوسة، تونس 2014م.

- مصطفى عباس الموسوي، **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية**، دار الرشيد للنشر والتوزيع، بغداد 1982م.

- معاذ عمراني، **أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين 19و20 الميلاديين**،

رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، أفريل 2003.

- Ahmed Najah**, Le Souf des Oasis**, La maison des livres, Alger 1971.

- André Voisin, **Le Souf, Monographie**, EL-walid, EL-oued 2004..

- C. Cauvet, **Notes sur le Souf et les Souafa**, Bulletin de la société de géographie d'Alger, 1934.

- Henri Duveyrier, **Journal de Route, Sahara Algerinet et Tunisien**, Publié et Annote, CH. Maunoir et H. Shirmer, Librairie Maritime et Coloniale, Paris 1905.

- Lieutenant-Colonel Daumas**, Le Sahara algérien, Etudes Géographiques, Statistiques et Historiques**, Langlois et leclerco, Paris 1945.

- Louis Piesse, **Itinéraire de Lalgérie de la Tunisie et de Tanger**, Librairie Hachette, Paris 1882..

- Victor Largeau, **Le Sahara Algérien, les déserts de l'erg**, Libraririe Hachette, Paris 1881.

الشّيخ العروسي حويتي ودوره في الإصلاح (1948 ـ 1954م) بقرية الجُدَيْدة الشرقية – الدّبيلة

د/ فتحي بوعافيه
أستاذ متعاقد ومعهد العلوم الإسلامية - جامعة الوادي (الجزائر)
Bouafia2013@gmail.com

ط د/ أحمد فائزي
مخبر بحث التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للجزائر- جامعة الوادي (الجزائر)
faiziahmed073@gmail.com



الملخص:
ما من شكّ أنّ الجهود الثّقافيّة لرجالات الإصلاح في مختلف ربوع الوطن أثناء الحقبة الاستعمارية شكّلت أكبر مقاومة للسياسة الفرنسية، القائمة أساسا على مبدأ التّجهيل وطمس هويّة المجتمع حتّى تتمكّن من التّغلغل والسّيطرة على مختلف مقوّماته، فكانت جهود أعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائريّ ما بين "1900-1962م" بمثابة الحصن الواقي والسدّ المنيع في وجه تلك المحاولات... ولعلّ الشّيخ "العروسي حويتي" ومن خلال تتبّعنا لمسيرته الإصلاحيّة والدّعويّة، يعتبر من أبرز أعلام المقاومة الثقافية بوادي سوف عموما، و بقرية "الجديدة" على وجه الخصوص، حيث كان له الأثر الكبير في تحوّل هذه البلدة إلى واحدة من أكثر المناطق ثوريّة، بل والأُولى من حيث عِداد المجاهدين والشّهداء الّذين تفخر بهم ولاية الوادي، وما تلميذه الشّهيد القائد "حمّه لخضر" ورفاقه الّذين خاضوا أكبر المعارك ضدّ المستعمر، إلّا خير دليل على نتائج تلكم الجهود الّتي قام بها الشّيخ.

سنسعى في هذه الورقة البحثيّة إلى إبراز الجهود الإصلاحيّة، لاسيما الدّعويّة منها والعلميّة الّتي كرّسها الشّيخ "العروسي حويتي السّوفي" ما بين (1948-1954م)، بقرية الجديدة (بلديّة الدّبيلة حاليّا)، والتي تجلّى أثرها في شباب وأهالي البلدة إبّان تلك الفترة، وذلك من خلال تتبّع مختلف تحرّكاته وأعماله وآثاره، واستنادا إلى ما يرويه تلامذته عن أهمّ أنشطته ومواقفه من المستعمر الفرنسيّ، هذا الأخير الّذي رأى في آرائه وأفكاره خطرا على خططه الاستعمارية، فقام بإيذائه واعتقاله في محاولة منه لتجفيف منابع المقاومة وطمس معالمها.

الكلمات المفتاحية: العروسي؛ حويتي؛ حمّه لخضر؛ الجُديْدة؛ سوف.

Abstract :

The cultural efforts of men of reform throughout the homeland during the colonial era have undoubtedly been the greatest resistance to French politics, based mainly on the principle of ignorance and obliteration of the identity of society so that it can permeate and control its various components. The efforts of reformist in the south-eastern Algerian between 1900-1962 served as a fortress. Perhaps Sheikh "Arossi Huiti" and through our tracking of his reform and ,advocacy ,propaganda career, he is one of the most prominent figures of cultural resistance in Oued Souf in general, and in the village Al-Jadida in particular, it had a significant impact on the transformation of this town into one of the most revolutionary areas, even in terms of the number of Mujahideen and martyrs who Willaya Eloued, proud of them , and his pupil the martyr, the leader Hamma Lakhdar " and his comrades who fought the biggest battles against the colony the best evidence of his efforts .

In this paper, we will endeavor to highlight the reform efforts, especially ,the advocacy, the propaganda , especially the scientific devoted by Sheikh " Arossi Huiti Soufi" between (1948-1954), in the village Al-Jadida (current municipality of Al-Debila), its effect which was reflected on the youth and people of the town during that period by tracking his various movements, actions and effects, and based on his students' accounts of his most important activities and attitudes towards the French colony who saw his opinions and ideas as dangerous to his colonial plans, He abused and arrested him in an attempt to drain the sources of resistance and obliterate its features.
Keywords: Arossi Huiti; Hamma Lakhdar; Al-Djedaida; Souf**.**

1. مقدّمة

إنّ المتتبّع لمختلف التغيرات الفكريّة التي شهدتها السّاحة الثّقافية والعلميّة العالميّة في مستهلّ القرن 20م، والتي ألقت بظلالها على المشهد الثّقافي الجزائري في جوانبه المتعدّدة (هجرات طلّابيّه نحو الشّرق، كتابات، شعر، صحافة...)، فكان من ثمرة ذلك كلّه بروز الحركة الإصلاحية، ممثلة في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين. الّتي تأسّست كردّ على مزاعم فرنسا بمناسبة احتفالها بمئوية الاحتلال ووأدها للإسلام والعربية على أرض الجزائر الفرنسية بزعمها. هذه الأخيرة كانت وراء استهداف هذه المقوّمات من خلال سنّ عدّة مراسيم تمنع التّدريس باللّغة العربية كان آخرها مرسوم 1938م، الّذي قيّد المدارس العربية الحرّة في محاولة للقضاء عليها في بداياتها، وقد كان لهذا النّشاط الإصلاحي والمدارس العربية الحرّة الحضّ الأكبر في خلخلة الرّكود والجمود المعرفي الّذي تسبّب فيه التّواجد الفرنسي منذ احتلاله لأرض الجزائر، ومن ثمّ بُعِثت الرّوح في جسد الأمّة الجزائريّة من جديد وأصبح الكلّ يسعى للعلم والمعرفة، فأُنشِئت النّوادي والكتاتيب والمدارس وافْتَتَحت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين الفروع والشُّعَب التّابعة لها عبر ربوع الوطن

في ظلّ تضييق ومتابعة من قبل المحتلّ الفرنسي.

وقد كان لمنطقة "سُوف" نصيب من ذلك كلّه، على الرّغم من كونها مقاطعة عسكريّة، تخضع للقوانين المشدّدة، بحكم عزلها من طرف الاستعمال الفرنسي عن الاحداث الدّولية – تونس وليبيا- خاصّة لما تتمتّع به من جغرافيا القُرب من حواضر العلم في الشّقيقة تونس (الزّيتونة وتوابعها من الزّوايا والمعاهد الخلدونية والصّادقية) وعلى الرّغم من هذه الأوضاع برزت العديد من الّشخصيّات الجزائرية السُّوفيّة كان لها الباع الكبير في بروز حركة إصلاحيّة والّتي بدورها كان لها الأثر القريب في نضوج الفكر التّحرّري واندلاع الثّورة التّحريريّة الكبرى، إذْ مدّتها بأبطال خلّدوا أسماءهم في سجلّ التّاريخ، وأثر بعيد في تكوين إطارات الدّولة الجزائرية الّذين قادوا مرحلة البناء والتّشييد، ولعلّ العلّامة الشّيخ المجاهد العروسي حويتي الجزائري السّوفي(1912-1978م) صاحب الحضور والبديهة والعلم والمعرفة المفحمة بالرّوح الثّوريّة وحبّ الوطن، أحد أبرز المساهمين في إبقاء شعلة الحماسة في مقارعة المستعمر متّقده لدى الكثير من شباب منطقة بأكملها وهي قرية الجديدة العصيّة، فمنها كان قائد منطقة سوف حمّه لخضر، ومنها الخزّان الأكبر للشّهداء والمجاهدين بربوع وادي سوف إبّان حقبة الاستعمار، ولعلّ الفضل - بعد اللّه - يعود لهذه الشخصيّة التي أسّست النّواة الإصلاحيّة بهذه القرية ومنها تخرّج هؤلاء، وهذا يفسّر لنا الانخراط المبكّر لمنطقة الجديدة بالثّورة منذ عامها الاوّل.

وعلى ضوء ما سبق نضع القارئ بين يدي هذه الشّخصيّة من خلال التّعريف بها واقتفاء آثارها حتّ نُسهِم في إبراز وإنقاض ما أمكن من سيرة هذا العَلَم، وحتّى تكون نبراسا يقتدي به أبناء جيل الاستقلال ومن ثمّ يعرف أبناؤنا لأسلافنا حقّهم، إذ يمضي الرّجال ويبقى النّهج والأثر، واضعين التساؤلات الآتية:

أ- **التّساؤل الرّئيس:**

- كيف يمكننا إبراز النّشاط الإصلاحي للشّيخ العروسي حويتي الجزائريّ السُّوفيّ في منطقة الجديدة بالدّبيلة، ضمن المقاومة الثّقافيّة والتربويّة، في إطار نهج الجمعيّة وأعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي في الجزائر ما بين 1900م-1962م؟

ب- **التساؤلات الفرعية:**

1- هل كان للأوضاع العامّة لمنطقة وادي سوف وقرية الجديدة "أنموذجا" الأثر الكبير في بروز شخصيّته الإصلاحيّة؟

2- كيف كانت شخصيّة الشّيخ العروسي الّتي أثرت في أبناء المنطقة؟

3- فيما تمثّلت جهود الشّيخ العروسي الإصلاحيّة والتّعليميّة بالمنطقة؟

2. الأوضاع العامّة لقرية الجديدة قبل نشاط الشّيخ العروسي حويتي

قبل الخوض في تفاصيل الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية لقرية "الجُديْدة" في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين(20م)، ارتأينا البدء بمدخل تعريفي لهذه المنطقة، نُعرّج فيه على موقعها الفلكي وحدودها الجغرافية، إضافة إلى أصل تسميتها وأصول ساكنيها.

1.2 التعريف بقرية الجديدة الشرقية:

الجديدة الشرقية[1]، بضمّ الجيم وفتح الدّال وتسكين الياء، هي أحد أكبر القرى التابعة إداريا لبلدية الدبيلة[2] ولاية وادي سوف[3]، تقع على خط طول6.57 شرقا ودائرة عرض 33.33 شمالا، وتتربّع على مساحة إجمالية تُقدّر بحوالي 8 كم^2، حيث تمتد من الشّرق إلى الغرب بمسافة3.5 كم ومن الشمال إلى الجنوب بمسافة2.4كم ، يحدّها من الشرق بلديّة حاسي خليفة، ومن الغرب بلديّة المقرن، ومن الشّمال قرية أمّ الزبد التّابعة لبلديّة المقرن، ومن الجنوب بلديّة الدبيلة، ومن الجنوب الغربي قرية الدريميني التابعة لبلديّة الدبيلة، وتضمّ هذه القرية عدّة أحياء عريقة، سُمِّيت أغلبها بأسماء شخصيات بارزة، أو بلقب أحد العائلات القاطنة بها، كجامع الشريف[4] نسبة إلى الشريف الكحيلي، وجامع ميده نسبة إلى أحمد(ميده) بن بلقاسم بن خنوفة، و"جَلمة" التي شملت عدّة عروش (أولاد حمد، المصاعبة، الأعشاش، الفرجان، الشوامس...)[5]، ويعود إعمار قرية "الجديدة" إلى أحفاد الولي "علي بن خزّان"[6]، وتحديدا إلى أبناء أحمد بن عمّار بن علي بن خزّان، وهم ثلاثة: "حامد"

1- تُسمّى الجديدة الشرقية، أو جديدة الدبيلة تمييزا لها عن الجديدة الغربية التابعة إداريا لبلدية سيدي عون، دائرة المقرن، ولاية الوادي.

2- الدبيلة: بلدية تقع في الناحية الشمالية الشرقية لولاية وادي سوف، تبعد عن مركز الولاية بحوالي 20كم، وعن الحدود التونسية بحوالي 62كم، وبها تأسّس أوّل مركز عسكري فرنسي سنة 1982م بقيادة الضابط FONTEBRIDE. للمزيد ينظر: غنابزية علي(2009م)، مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، ص29.

3- ولأكثر تفاصيل حول وادي سوف، ينظر: العوامر إبراهيم، الصروف في تاريخ الصحراء و سوف، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007م، ص-ص42،43.

4- جامع الشريف يقع إلى الجنوب من قرية الجديدة، وهو حاليا منطقة مهجورة.

5- ينظر قسيبة رشيد، القائد حمة لخضر ودوره في الثورة التحريرية، مطبعة الرمال، الوادي، الجزائر، ص-ص16،17.

6- علي بن خزّان هو الرجل الصالح سيدي علي بن خزان الشريف، الإدريسي، المغربي موطنا و اليمني أصلا، مؤسس بلدة الدبيلة القديمة، والمتوفّى سنة 1705م وقبره بالزاوية المعروفة باسمه، بجانب "المسجد العتيق علي بن خزّان" بالدبيلة الشرقية، للمزيد ينظر العمامرة سعد ومنصوري أحمد، أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، مطبعة مزوار، الوادي،2006م، ص ص11،13.

ومنه ينحدر عرش "حامدي"، و"القدري" ومنه لقب "قديري" و"سالم" الذي يعود إليه لقب "سالمي"، وتذكر الروايات التاريخية أنّ هؤلاء الثلاثة فرّوا من "الدبيلة" بعد خلافات نشبت بينهم وبين القايد الذي عيّنته فرنسا على منطقة "الدبيلة" و"الهيمة"، وهو القايد "حمّي بن علي بن نسيب بن خليفة بن عمار بن علي بن خزّان"، حيث رفضوا الانصياع والخضوع له، واتهموه بالظلم والجور، فاتّجهوا شمالا، وأسّسوا منطقةً جَدِيدةً سمّوْها "الجديدة" بعد أن كانت كلّ الجهة الواقعة شمال الدبيلة تسمّى بـ"صحن الرتم[7]"، ويرجع ذلك - حسب تقديرنا - إلى تسعينيات القرن التاسع عشر(19م)، ذلك أنّ الاستعمار الفرنسي للمنطقة(1882م) لم يؤسّس ملحقة الوادي إلّا سنة1885م، فأصبح قايد الدبيلة والهيمة يتبع عسكريا لها[8].

2.2 الحياة الاجتماعية والثقافية:

1.2.2. الحياة الاجتماعية:

في بداية الحديث عن الأوضاع الاجتماعية، جدير بنا أن نبيّن للقارئ التركيبة السكّانية لمجتمع الجُديْدة في تلك الفترة – والتي لا تزال تقريبا نفسها إلى اليوم - كما يلي:

- الدبايلية: وهم أحفاد "علي بن خزّان" مؤسّس بلدة "الدبيلة"، ومنها جاءت كنيتهم، و يُعتبر أبناء أحمد بن عمّار بن علي بن خزّان (حامدي، سالمي، قديري، بن عمّار)، هم الأكثر تواجدا بالقرية، و يليهم أبناء علي بن عمّار بن علي بن خزّان، وهم بوخزنة، بن عبد الحميد، اللبي، عبد الستّار، أمّا الفرع الأقلّ تواجدا فهم لقبيْ "مليك" و "خزّان"، أبناء عبد الله بن عمّار، و نسيب بن خليفة بن عمّار على التّوالي.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك ألقابا أخرى أصبحوا يُنسَبون لعرش الدبايلية بالمصاهرة، و هم كُثر، نذكر منهم لقب قاسمي، جوادي، فايزي، بن ناصر، كحيلي، بوعافية، العابد، مومني..

- الرُّبايع: وأغلب ربايع الجُديدة يرجعون إلى "عبد العزيز بن زقزاو[9]" من "ربائع الشّمال"،

---

7 - صحن الرتم، نسبة إلى شجرة الرتم المنتشرة بكثرة في عموم الصحراء، ومن فوائدها أنّه تنقّي ديدان البطن شربا بالعسل، ينظر العوامر إبراهيم، مرجع سابق، ص61.

8 - Andrés-Roger Voisin, Le Souf – Monographie, El-Walid, Ed El-Oued, 2004. P 05.

9- أولاد زقزاو: نسبة إلى عبد العزيز بن زقزاو الذي دخل واد سوف في النصف الثاني من القرن 17م قادما من الغرب، و الأرجح من الساقية الحمراء مرورا بالأغواط، أنجب عبد العزيز أربعة أولاد، و هم "أعمر" و لم يخلف نسلا، و "خليفة" و"بوزيد" و "علي"، وتجدر الإشارة إلى أن أغلب ربايع الجديدة من نسل "خليفة" الذي أنجب ثلاثة أولاد، وهم "عمارة" منه(لمقدم، داسي، قسيبة، بن عمر، خلايفة، برائكة، الشايب، عمارة، عمّاري) و"مسعود" ومنه لقب مسعودي، و"علي" ومنه لقب "دربال" للمزيد ينظر قسيبة رشيد، المرجع السابق، ص 25.

وهناك قلّة من غير أولاد زقزاو كلقب شعباني، سديرة، لحويج، يحياوي، مرخي، رقيق.. إضافة إلى بعض الألقاب الأخرى ممّن انتسبوا إلى الربايع بالمصاهرة كلقب يوسفي، حمد، معامير، عبابسة.. وتجدر الإشارة إلى أنّ أغلب الربايع كانوا رُحّلا، يضعنون شتاء نحو صحراء "بني قشة" بحثا عن العشب لمواشيهم، ويعودون صيفا إلى الغيطان المحيطة بالقرية.

وأهم ما ميّز الحياة الاجتماعية في تلك الفترة ما يلي[10]:

- أغلب سكّان القرية كانوا يقيمون في "الغيطان"، إمّا في "الزريبة" أو "دار الكاف"، بينما كان البدو الرحّل من الرّبايع يسكنون "الخيمة" أو "بيت الشعر"، أمّا مساكن الحضر وميْسوري الحال فكانت عبارة عن تجمّعات سكنية محيطة بسوق القرية، بُنيت بالحجارة والجبس المحلّي، ويشارك في تشييدها أغلب أبناء الحي فيما يُعرف بـ "العوّانة".

- الغذاء الأساسي لغالبية السكّان هو "التمر" وخاصّة تمر الغرس المحفوظ في "البطاين" أو "الخوابي"، و"حليب الماعز"، إضافة إلى بعض الخبز المصنوع محلّيا كـ"خبزة الملّة"، هذا في النّهار، أمّا في اللّيل فالغذاء الرئيسي هو الكسكسي المصنوع من دقيق القمح أو الشعير، يُعتبر الماء المحفوظ في قرب إضافة إلى عصير النّخل "اللاقمي" هما مشروب عامّة النّاس، أمّا الشّاي "صُفيرة" الذي أصبح منتشرا بعموم ولاية الوادي منذ مطلع القرن 20م[11]، فيُعدّ مشروبا كماليا لا يقدر عليه إلّا المترفون.

- يتشابه اللباس - إلى حدّ بعيد - عند البدو والحضر، ويختلف قليلا حسب مستوى المعيشة، فلباس الرجال صيفا "القندورة" (قميص واسع من الكتّان) للمتيسّرين، أو "سورية" لضعاف الحال، وفي الشتاء "القشبية"، أو "قندورة الصوف"، أمّا النّساء فلباسهنّ "الحُولي" أو "البخنوق" و"الحايك" عند الخروج، وأغلب النّاس يمشون حفاة، وقليل مَن يجد "العفّان" في فصل الشّتاء.

2.2.2. **الحياة الثقافية:**

لم تمنع البيئة البدوية ولا المستوى المعيشي أهل هذه القرية من تعليم أبنائهم مبادئ اللغة العربية والدّين الإسلامي، وكان ذلك يتمّ في "الكتاتيب" أو المنازل، وحتّى في الزرايب وديار الكاف، فلقد لقي التعليم القرآني في هذه المنطقة - وفي وادي سوف عموما - اهتماما كبيرا، وانتشارا واسعا، حيث نجد في كلّ حي مدرسة قرآنية، أو "كتّابا" تابعا للمسجد أو

10- عن أهمّ ما ميّز الحياة الاجتماعية بقرية الجديدة قبيل الثورة، عقدنا جلسة مع "حامدي علي بن رجب" في مسجد عمر بن عبد العزيز، يوم الجمعة 13 ماي 2022 بعد صلاة العصر، حكى لنا فيها ما عايشه من حياة اجتماعية وهو صغير، وما رواه له آباؤه عن ظروف معيشتهم.

11 - Andre Voisin , Op- Cit, p119

مستقل بذاته[12]، و مِن أشهر معلّمي القرآن بالمنطقة:

- الشيخ محمد خنوفة بمسجد جامع ميدة، هو الحاج محمد بن إبراهيم بن بلقاسم خنوفة (ت1950م)، درس بمدينة نفطة التونسية، وبها حفظ القرآن الكريم، وتعلّم بعض العلوم الشرعية، ثمّ عاد إلى جامع ميدة لإمامة المصلين وتحفيظ القرآن الكريم.

- الشيخ نصر شنيبة بجامع الشريف، هو نصر بن علي بن الصغير، من أولاد زقزاو، ولد عام 1820م بجامع ميدة، تعلق قلبه بالمساجد منذ الصغر، فتنقل إلى حاضرة الزقم أين حفظ القرآن الكريم، ثم تنقّل.

- الشيخ أحمد مباركي بجامع جلْمة، هو أحمد بن صالح مباركي، ولد أواخر القرن19م، والتحق بمسجد جلمة حوالي عام 1932م، و مكث به أربعين سنة يعلّم أبناء المنطقة القرآن الكريم، إلى أن وافته المنيّة سنة1972م.

- الشيخ محمد الصالح الرنّي بجامع الجديدة، هو محمد الصالح بن إبراهيم قديري من ذرية الولي علي بن خزّان، ونظرا لدوره الإصلاحي ومكانته في القرية، سنخصّص له عنصرا كاملا للتعريف به وبجهوده ودوره في جمعية العلماء المسلمين.

3.2. الأوضاع الاقتصادية:

تميّزت الحياة الاقتصادية في قرية الجُديدة – على غرار باقي قرى ومداشر سُوف - بالبساطة والارتباط المطلق بالطبيعة، لتوفير ضرورات العيش من غذاء وملبس ومأوى، ويمكننا رصد أهمّ الأنشطة الاقتصادية التي كان يمارسها الأهالي فيما يلي:

4.2. الحياة السياسية:

بعد تأسيس ملحقة الوادي العسكرية في جانفي 1885م، استعانت فرنسا في تسيير شئون القرى والقبائل برؤساء من الأهالي يدعون القياد أو الآغوات، وتتم ترقيتهم إلى مرتبة أعلى وهي (الباشاغا) أو قايد، ومهمتهم جميعا السهر على حفظ النظام في منطقة حكمهم، وإخبار الإدارة عن كل ما يجري في قبائلهم وقراهم من حوادث، والإشراف على جمع الضرائب، ومراقبة الحالة المدنية من جانب المواليد والوفيات، والزواج والطلاق حتى تكون موافقة للدفاتر والسجلات الخاصة بالحالة الشخصية، ويقومون برعاية الأمن، والقبض على الجناة والمجرمين، وتنفيذ القوانين على الأهالي، وللقايد لباسه الخاص ومكتبه المحدد، الذي يساعده في تسيير شؤون القبيلة وعمائرها، ويتكون من الخوجة، وهو الكاتب الذي يسجل مختلف القضايا الإدارية، والدايرة، ويقوم بتنظيم العلاقات داخل إدارة القايد،

12- مياسي إبراهيم، قبسات من تاريخ الجزائر، دار هومة للطباعة و النشر، الجزائر، 2010م، ص 107.

ويشبهه الشاوش ويشرف على الخدمات التي ترتبط بالمواطنين[13].

ويعتبر الشيخ حمي بن علي بن نسيب بن عمّار بن علي بن خزّان أوّل شيخ تمّ تعيينه من قبل السلطات الفرنسية على الدبيلة، ثمّ خلفه ابنه السايح، ومن بعده القايد الطاهر (من نزلة أولاد لخضر) حيث بقي قايدا على المنطقة إلى غاية تأسيس بلديّة الجديدة يوم 20 نوفمبر1958م، طبقا للقرار(6417)[14]، وكان للشّيخ الطّاهر دور كبير في نجاة الشّيخ العروسي من القتل بعد اعتقاله في مجازر رمضان 1957م، فمن هو الشيخ العروسي حويتي؟

3. التعريف بالشّيخ العروسي حويتي (1912 ـ 1978م)

في خضمّ أوضاع مزرية على جميع الصُّعد، كان للاستعمار الفرنسيّ اليد الطّولى فيها، إذْ جعلت من المجتمع السّوفي يعيش الفاقة والحرمان، فكان الفقر المدقع، والجهل المطبق، إذْ صار السّمة في الغالب الأعمّ، حتّى أضحى الجميع في أمسّ الحاجة لأنْ يرفع الله عنها هذا الهمّ، ويزيح عنها ظلمات الجهل، فيشاء الله أن يبزغ فجر جديد على منطقة وادي سوف وقرية الجديدة على وجه الخصوص بمولد العلّامة الشّيخ العروسي حويتي - رحمه الله -.

1.3. نبذة عن حياته الشّخصيّة:

- نسبه ومولده: هو العروسي بن محمد بن إبراهيم حويتي من عرش الأعشاش فرقة الواد وسط، ولد الشيخ العروسي خلال 1912م بمدينة الوادي من أب هو الإمام محمد بن إبراهيم وأمّه هي: ساسية شريف بنت القاضي محمد يعود نسبها إلى الهاشمي الشريف[15].

- نشأته: نشأ الشيخ العروسي يتيما، إذ توفّي أبوه وهو في بطن أمّه، وقد أوصى له ببعض الحاجيات[16]، الأمر الذي يدلّ على الرّغبة الملحّة لأبيه بأن يهبه ولدًا ذكرا، يخلفه في العلم، (وقد كان)، مما جعل أمه تتعهّد بتربيته وتعليمه وفق وصيّة والده، فترعرع في أكناف أخواله – من أعيان المنطقة فجدّه كان قاضيا- بالأعشاش- وجلّهم كانوا معلّمين للقرآن، مما يسّر له حفظ القرآن الكريم رغم الظروف الصّعبة التي عاشتها أسرته على غرار باقي

13- غنابزية علي، المرجع السابق، ص ص 130-131.

14- قسيبة رشيد، المرجع السابق، ص23.

15-مقابلة شخصية مع الأستاذ الباحث خزان عبد الرزاق أستاذ في التاريخ وحفيد الشيخ العروسي، يوم: 18 ماي 2022، بالمكتبة المركزية بجامعة الوادي، على الساعة 10:00 صباحا.(صاحب كتاب حول جدّه الشيخ العروسي في إطار الطّبع)

16- وصية مخطوطة خطها الشيخ بعدما رأى في المنام أنه سيأتيه الولد بعد وفاته، ويُسمّى العروسي، هذه الوصيّة تدلّ على فقه وورع ومعرفة سي محمد بن إبراهيم بحدود الله، كيف لا وهو الحافظ لكتاب الله خطه بيده؛ يُنظر: مقابلة شخصية مع السيد خزان عبد الرزاق، المصدر السابق؛ (مخطوط الوصية يمكن الاطلاع عليه في كتاب الأستاذ بعد طباعته).

الأسر السّوفيه في ذلك الوقت، وحين شبّ وصار يافعا، حفظ ما تيسّر من القرآن الكريم، ليتمكّن بعدها من حفظه كاملا ولمّا يبلغْ الثانية عشرة من عمره، ولعلّ حفظ أبيه للقرآن الذي استنسخه بيده (وهو ما جرت عليه العادة في ذلك الوقت) بركة في أن يكون ولده " العروسي" ثمرة ذلك.

- زواجه: تزوّج الشّيخ العروسي بقرية الجديدة من تبر بنت أحمد بن عبّاس فايزي، وأنجبت له ستّ بنات وثلاثة أولاد، منهم الدّكتور أحمد حويتي.

- عمله ووفاته: وعلى نهج القرآن وسنّة العدنان، أكمل بقيّة حياته داعيا ومصلحا ومعلّما ومجاهدا، أين أُحيل على التّقاعد بعد سنوات من العمل كأستاذ بالثّانوية، حتى وافته المنية يوم 23 فيفري 1978م، حيث دُفن بمقبرة العالية بمدينة بسكرة.

2.3. **نبذه عن حياته العلميّة:**

1.2.3. **رحلته في طلب العلم:**

كعادة أهل سوف حين يرغبون في طلب العلم يتوجّهون إلى الشّرق بتونس حيث حواضر العلم، لذا نجد أنّ الشّيخ العروسي وبعد أن حفظ القرآن الكريم كاملا، بمسقط رأسه بالوادي حيث الكتاتيب توجّه إلى نفطة بالقُطر التونسي ومنها انطلقت رحلته في دراسة مختلف العلوم الأدبية والفقهية والشّرعيّة، وممّا أُثِر عنه ما كان يتمتّع به من ذكاء وفطنة ما أهّله لبزوغ نجمه في سماء العلم والمعرفة.

لقد كانت البداية من نفطة بتونس، حيث سار الشّاب الطّموح العروسي حويتي بين دروب العلم مجتهدا ومكافحا رغم كلّ الصّعاب والشّدائد الّتي واجهته في رحلته نحو التّعلم وكسب رهان التّفوّق والنّجاح، كما قال الشّاعر: إنّ الشّباب إذا سما بطموحه ... جعل النّجوم مواطئ الأقدام. فكان يطوف بنفطة بين زواياها العامرة بدْءًا بالزّاوية العزوزيّة فالقادريّة ثمّ التّابعيّة، فحفظ المتون في مختلف فنون العلم الشّرعيّة، كالفقه والأصول واللّغة وعلم العروض، ممّا أهّله للالتحاق بمنارة العلم الأولى في ذلك الوقت؛ جامع الزّيتونة المعمور[17].

وهكذا التحق الشّيخ العروسي بجامع الزّيتونة بتونس، أو جامع الزيتونة المعمور أو الجامع الأعظم، (كما يحبّ أهل تونس أن يُطلق عليه)، وهو المسجد الجامع الرئيسي في مدينة تونس العتيقة في تونس العاصمة، إذْ يُعَدّ أكبر مساجدها وأقدمها، كما

17- ورقة بحثية تحت عنوان: الشّيخ العروسي حويتي حياته وآثاره التّربويّة والعلميّة، مقدّمة من قبل الباحث: يعقوب قاسمي، ضمن فعاليات يوم دراسي: الحركة الإصلاحية وأعلامها بمنطقة وادي سوف خلال النّصف الأوّل من القرن العشرين، جامعة الوادي، كلّية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المقام يوم: 19 أفريل 2022م. (بتصرّف).

يُعرف بالاعتدال والوجهة السّنّية على المذهب المالكي. تأسّس سنة (698م - 79هـ) بأمر من حسّان بن النعمان، وأتمّه عبيد الله بن الحبحاب في 732، ويعتبر ثاني أقدم مسجد في تونس بعد جامع عقبة بن نافع[18]. ومن هذا الجامع المنارة بدأت الرّحلة العلميّة الثّانية للشّيخ العروسيّ، حيث التحق به سنة 1934م، ومنه تفتّقت ملكاته وظهرت عبقريّته، فانتسب لثلاثة تخصّصات كان المسجد الأعظم يتيحها؛ قسم الشّريعة، العلوم، واللّغة العربية وآدابها، فكان الشيخ كل سنة يجتاز امتحانا لأحد التخصّصات الثلاثة، وينالها[19]، فأبان على قدراته من خلال اجتهاده وكدّه رغم ظروفه الصّعبة، إلّا أنّه تمكّن من أن يتحصّل على العديد من الشّهادات العلميّة المعتبرة وذات الصّيت والشّأن في تلك الحقبة من الوقت، وعبر منحى زمني تصاعدي يتماشى ومتطلّبات كلّ شهادة علميّة ممنوحة له، وقد كانت على النّحو الآتي[20]:

- الشّهادة الأهليّة سنة 1938م.
- شهادة التّحصيل في العلوم سنة 1941م.
- شهادة التّحصيل في القراءات سنة 1942م.
- شهادة العالميّة في القراءات سنة 1945م.
- شهادة العالميّة في اللّغة العربيّة وآدابها سنة 1964م.
- تحصّل على أوّل جائزة بالشّمال الإفريقي من قبل المشيخة العلميّة لجامع الزّيتونة سنة 1942م.

2.2.3. **شيوخه:**

لا شكّ أنّ شخصيّةً بحجم الشّيخ العروسي، ومن خلال ما ذكرناه حول مسيرته في طلب العلم، قد مرّ بالعديد من شيوخ العلم الأفذاذ، وما تتويجه بمختلف الشّهادات العلميّة المرموقة في محطّات حياته العلميّة إلّا دليل على ذلك، غير أنّنا ولأسباب موضوعيّة لم نتمكّن من الوقوف على أساتذته الكبار اللّذين كان لهم الفضل بعد الله في بروز قدراته ومواهبه، لأنّ الأمر يتطلّب سعة من الوقت وحتّى تنقّل إلى دولة تونس، وهذا كلّه غير متاح حاليّا، إلّا أنّه والأكيد بأنّه تتلمذ على جلّ شيوخ الزيتونة، لأنّه سجّل في التّخصّصات

18- الحشائشي محمد بن عثمان، تاريخ جامع الزيتونة، تونس،. الأطلسية للنشر الطبعة الثالثة 2006(بتصرّف). مجلة الهداية تصدرها وزارة العدل والشؤون الإسلامية بدولة البحرين، العدد 199 - السنة 17، رمضان 1414 - مارس 1994.(بتصرّف)

19- مقابلة شخصية مع السيد خزان عبد الرزاق، مصدر سابق.

20- ديوان الشّيخ العروسي حويتي، د. أحمد حويتي، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، وحدة الرّغاية - الجزائر، 2009. ص11-12(بتصرّف)

الثّلاثة للمسجد الأعظم، وكان على رأسهم الشّيخ الطّاهر بن عاشور عميد جامع الزيتونة، الّذي كانت صلته بالشّيخ قويّة من خلال المراسلات الّتي كانت بينهما وكان الشّيخ يخطّ نظير الرّسائل التّي يبعثها لشيخه، وهذه دلالة أخرى تبين تكوين الشيخ[21]، كما أنّنا لم نعثر في بحثنا بما هو متاح هنا، على أيّ ممّن كتب أو وثّق هذه الجزئيّة البحثيّة، لذا فمن الضّروري التّطرق للشّيوخ الّذين رافقوا الشّيخ وكان لهم الدّور الكبير في المسيرة الإصلاحيّة والدّعوية للشيخ العروسي، وهم على التّوالي:

- الشّيخ الإمام المصلح محمّد الصّالح قديري، المكنّى بـ الرّنّي. تولّى التّدريس في المدرسة العربية الحرّة الّتي أسّسها الشّيخ العروسي بالجديدة، في تحفيظ القرآن وعلومه[22].

- الشّيخ عبد المجيد حبّة.

- الشيخ الأزهاري ثابت.

- الشيخ عبد الرحمان المسعدي[23]

3.2.3. **تلاميذه[24]:**

إنّ الجهد الإصلاحي الكبير الّذي بذله الشّيخ العروسي من خلال التّربية والتّكوين والتّعليم، ترك آثاره الكبيرة على قرية الجديدة خاصّة، (وهو ما سيقتصر حديثنا عنها)، إذْ تمثّل في تتلمذ العديد من أبناء القرية على يديه، وتخرّج العديد منهم معلّمين وإطارات فيما بعد، لذا وقع اختيارنا على بعضهم ممّن تمكّنا من الحصول على معلومات موثّقة عليهم - رغم التحاقهم بالرّفيق الأعلى إلى جنّات الرضوان، نسأل الله لهم ذلك بإذن الله - ، وهم على التّوالي:

- الشّهيد البطل القائد حمّه لخضر (رحمه الله)[25].

- الكاتب والأديب أحمد حمدي (حفظه الله).

21- مقابلة شخصية مع السيد خزان عبد الرزاق، المصدر السابق؛ (بعض هذه الرسائل يمكن الاطلاع عليها في كتاب الاستاذ بعد طباعته).

22- مقابلة شخصية مع السيد خزان عبد الرزاق، المصدر السابق.

23- مقابلة شخصية مع السيد خزان عبد الرزاق، المصدر السابق.

24- ممّا تجدر الإشارة إليه: أنّ أحد تلاميذه من خارج قرية الجديدة لاحقا حين انتقل إلى مدينة لمغيّر، الشّخصية الكبيرة والمعروفة، والّتي هي على رأس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين حاليا، إنّه الأستاذ الدّكتور عبد الرّزاق قسّوم، الوجه الوطني البارز، وهو ما يذكي القيمة والمكانة الّتي يحظى بها الشّيخ العروسي، إذْ بهذا يمكن القول أنّ أفضاله على جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين امتدّت لما بعد الاستقلال ممثّلة في أنّ أحد تلاميذه هو الآن على رأس هذه الجمعيّة.

25- حول الشهيد حمّه لخضر، ينظر: رشيد قسيبة، القائد حمّه لخضر ودوره في الثّورة التّحريريّة 1930-1955م، ص42.

- إمام مسجد الجديدة العتيق في عهد الاستقلال نعم سيدي محمّد الصالح حامدي (رحمه الله).

- إمام مسجد جلمة العتيق في عهد الاستقلال الشيخ أحمد توبة (حفظه الله).

- المعلّم القدير والمخضرم محمّد حامدي - المكنّى: سي علي - (رحمه الله).

- الأستاذ الصّادق لمقدّم (رحمه الله)[26].

- علي مرخي - المكنّى: الطّالب علي - (رحمه الله)[27].

- الطّالب لخضر دقّة (رحمه الله)[28].

26- هو الصّادق لمقدّم بن عمر بن الطّالب علي الزّيتوني، ولد خلال 1940م، وأمّه عائشة اعمارة بنت مسعود ابنة عمّة الشّهيد حمّه لخضر، تتلمذ على يد جدّه الطّالب علي الّذي أعدمته فرنسا أواخر سنة 1956م، ثمّ تتلمذ على يد الشّيخ العروسيّ حويتي، وقد ربطته به علاقة وطيدة وخاصّة جدّا، حتّى أنّ الشّيخ بقي يراسله بعد الاستقلال(من بسكرة)، وقد ختم القرآن الكريم على يدي الشّيخ، وكان يكتب الرّسائل المتعلّقة بالنّشاط الثّوري لجدّه الطّالب علي، رغم صغر سنّه، (لأنّه أي الطّالب علي لم يعد يبصر جيّدا)، ليلتحق فيما بعد بالتّعليم النّظامي ويحصل على شهادة ممرّن في ذلك الوقت، وقد كان يريد الالتحاق بالتّجنيد في صفوف جيش التّحرير الوطني، إلّا أنّ فرنسا نقلته للعمل في الشّركات البتروليّة سنة 1959م تحت سياسة تجفيف المنابع من خلال أخذ أبناء العائلات الثّوريّة وإبعادهم عن الثّورة. ليلتحق في عهد الاستقلال بحزب جبهة التحّرير الوطني كمناضل، وأحد إطارات الحزب في ذلك الوقت، ثمّ تقاعد عام 2000م. بعدها بسنوات التحق بالرّفيق الأعلى يوم: ..... رحمه الله. لقاء مع ابنه أستاذ التّاريخ بجامعة الوادي د: عمر لمقدّم أمام بيته، يوم الأحد 29 جوان 2022م، على السّاعة الخامسة مساء والنّصف. ويُرجع أيضا إلى: حصّة أعلام ومعالم للإعلاميّ صالح فالح، بإذاعة الجزائر من الوادي، العدد: الأوّل، بتاريخ: 2014/09/11م.(بتصرّف)

27 - الطّالب علي مرخي من مواليد عام 1930م بالجديدة، حفظ القرآن في مدّة سبع سنوات، على بدّ محمد خنوفة بجامع ميدة، وعلى يد لخضر السائحي بالمقرن، درس كذلك بمدرسة العلوم على يد العروسي حويتي، رجع ليدرس في جامع ميده بعد أن أصبح الشيخ محمد وفة فرما، وصلى هناك بالناس التراويح وخطب العيد مقابل شاة العيد والسلام، ما عي مرحي بمنزله بالمدينة يوم 30 جوان 2018 في الساعة 17:00

28 - هو لخضر بن علي القدري بن عبد الله، وأمّه معامرة إمباركة (الملقبة بـ: الواهمة)، ولد خلال 1931م، نشأ في أسرة ميسورة الحال، وتربّى على الأخلاق الحسنة، والعلاقة الطّيبة مع الجميع، درس القرآن الكريم في سنّ مبكّرة على يد سي أحمد بن الحاج صالح بقرية جلمة، ثمّ درس الفقه واللّغة وآدابها على يد الشّيخ العروسيّ حويتي، وكذلك تعلّم ودرس على يد الشّيخ العروسي غريسي بجلمة، وله من الأبناء 11 (5 ذكور و6 بنات)، أَمّ المصلّين بمسجد أبي ذرّ الغفاري بقرية "أُمّ الزّبد" (خطيبا، واعظا، مدرّسا ومعلّما للقرآن الكريم، ...)، ثمّ انتقل إلى مسجد العربيّ التّبسّي بقرية "بليلا"، ثمّ انتقل إلى مسجد آخر بقرية " التوام" بضواحي بلديّة أمّيه ونسة، ثمّ انتقل إلى مدينة المغيّر ليلتقي مجدّدا بشيخه الشّيخ العروسي، ثمّ انتقل إلى ولاية تبسّة ويدرّس بها القرآن الكريم بمساجدها، وأخيرا عاد إلى مدينة كوينين بالوادي إماما بأحد مساجدها، ليستقرّ بقيّة حياته بمسقط رأسه قرية " أُمّ الزّبد"، وبقي فيها مرجعا وقامة علميّة يقتدي به شباب المنطقة الشّماليّة لوادي سوف في مختلف العلوم، على غرار

- وآخرون من قرية الجديدة ومن خارجها لا يسع المقام لذكر كلّ هؤلاء، لانّ علم الشّيخ ممتدّ عبر الزّمن وعبر كثير من ربوع الوطن، لتنقّلاته المختلفة (المغيّر، بسكرة، برج بوعريريج، البليدة ...)، لهذا اقتصرنا على ما ذكرنا لمعرفتنا بهم من جهة، ولسهولة الحصول على ترجمة لهم من ذويهم، ولعلاقتهم الخاصّة بالشّيخ، إذْ أنّ بعضهم بقي يراسلهم ويسأل عنهم حتّى بعد أن غادر قرية الجديدة. ومن تلاميذه خارج منطقة الجديدة سنقتصر على أحد أشهر تلاميذه في منطقة المغيّر، والّذي صار له - فيما بعد - دور كبير في بعث جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين في الوقت الرّاهن، كونه تقلّد أرفع منصب فيها ولحدّ اللّحظة، ألا وهو رئاسة الجمعيّة، وهو يعتبر أحد أبرز الشّخصيات الوطنيّة، الّتي تحظى بالقبول والاحترام، إنّه الأستاذ الدّكتور: عبد الرّزاق قسوم رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين.

4.2.3. آثاره العلميّة:

عند الحديث عن الآثار العلميّة، للشّيخ العروسيّ، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الشّيخ أحرق جهده العلمي وكلّ الوثائق الّتي تعتبرها فرنسا تحريضيّة مرّتين، في الجديدة سنة 1957م بعد حادثة اعتقاله، وأخرى في المغير، وكذلك لصرف الشيخ العروسي جهده في قضية وطنه فلم يشذّ على ما دأب عليه مشايخ وعلماء وأعضاء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، إذْ كان أغلب جهدهم منكبّا على تكوين الرّجال، وتعليم وتنوير أبناء الجزائر من النّاشئة، وهو ما أخذ منهم جلّ أوقاتهم، رغم وجود بعض الأعمال الفكريّة والعلميّة الّتي كانت تُنشر في مقالات عبر الصّحف والمجلّات الّتي أنشأتها جمعيّة العلماء، إضافة إلى بعض الدّواوين الشّعرية المخطوطة أو المحفوظة، وهو ما وقفنا عليه عند بحثنا عن آثار الشّيخ العروسي، إلّا أنّ المشكلة الّتي واجهتنا أنّ الشيخ وبسبب الأوضاع الأمنيّة الاستعماريّة في قرية الجديدة، والّتي كانت نتيجتها اعتقاله، دفعت به إلى التخوف من أن يعثر المستعمر على ما يدينه وقد يتسبّب في الأذى له ولتلامذته، ولربّما حتى القرية كلها، فقام في ظل هذه الظروف بحرق كلّ ما كان بين يديه؛ كتب ومخطوطات وكتابات علميّة، ما حرمنا من خير كثير كان للسّياسة الاستعماريّة السّبب المباشر فيه[29].

غير أنّنا وفي هذا المداخلة سنقتصر على ديوانه الشّعري والّذي تكفّل ابنه، الدّكتور

الأستاذ والإمام أحمد فايزي المدعو بدّه عبّاس، وعلي قويدري بن المعراج، ودقّة الطّيب المدعو البيّ، لتوافيه المنيّة وينتقل إلى جوار ربّه إثر مرض ألمّ به يوم 04 شوّال 1438هـ الموافق صيف 2017م. ممّا أثِر عنه وهو لحظاته الأخيرة، كان يوصي بالتّوحيد، والتّمسّك بالأخلاق الفاضلة. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنّاته. مقابلة مع أخيه الشّقيق دقّة الطّاهر بن القدري، بتاريخ 30ماي 2022م، على السّاعة 18h و 30mm، في بيته.

29- رشيد قسيبة، مرجع سابق، ص42، ويُرجع أيضا إلى: حصّة أعلام ومعالم للإعلاميّ صالح فالح، بإذاعة الجزائر من الوادي، العدد: الأوّل، بتاريخ: 2014/09/11م.

أحمد بجمعه وطبعه، تحت عنوان: ديوان الشّيخ العروسيّ حويتي[30]. حيث استطاع نجل الشّيخ العروسي حويتي وتلميذه بمدرسة النّجاح بالمغير، الأستاذ الدكتور أحمد حويتي من جمعه في فترة قصيرة، كان يريد إخراجه للعلن خلال التّظاهرة الثقافية للجزائر سنة 2007م، فلم يتمكّن من جمع قصائده الشّعرية، خاصّة الّتي قالها في الفترة الاستعمارية، حيث عرضه على شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، الذي أشار عليه بتحقيقه من طرف أديب باعتباره ديوان شعر، فعرضه على الاستاذ الدكتور أحمد حمدي، الّذي تأثر بالأمر وتفاعل معه، كون الشّيخ العروسي شيخه في قرية الجديدة، وكان له الفضل في تكوينه، وقام بتقديم الدّيوان، لكنّه حزن جدّا عندما لم يجد قصائده أثناء الفترة الاستعمارية، الّتي تدعوا إلى الفكر التّحرّري، وجلّ ما وجده قصائد تربويّة تعليميّة قالها الشيخ بعد الاستقلال، لكنّ قصيدة أبناء الجديدة الخالدة، وجدها ضمن الدّيوان، أحدثت هذه القصيدة صدى إعلاميّا أرّخَتْ للمنطقة ولجيلها الفريد، كما تولّى الأستاذ الدّكتور علي ملاحي الإيقاع النقدي للديوان[31].

4. جهود الشّيط العروسي حويتي الإصلاحية

قبل الحديث عن أبرز نشاطات الشيخ العروسي بقرية الجُديدة، تبادر إلى أذهاننا أن نتكلم عن بعض القضايا المهمة المتعلقة بذلك؛ منها:

4.1. دور جمعية العلماء المسلمين والشّيطِ محمد الصالح الرني:

ردّا على الاحتفالات المئوية التي أقامتها السّلطات الاستعمارية بمناسبة مرور قرن على استعمار الجزائر، والتي أكّدت من خلالها تمسّكها بالجزائر، بزغت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد تخمّر وجهد دام عدّة عقود في 05 ماي 1931م لتؤكّد للفرنسيين ومن والاهم – عكس ما يتوهّمون- بأنّ الجزائر عربية مسلمة[32]، ففرح الكثير من المصلحين من أبناء "سوف" بهذا المولود الجديد، واستبشروا به خيرا، وتبنّوا أفكاره الإصلاحية، وحضر الشيخ محمد الأمين العمودي، والشيخ حمزة بكوشة، والشيخ عمّار لزعر[33]، للمؤتمر التّأسيسي الذي أقيم بنادي التّرقّي بالعاصمة، ومنعت الظروف الاجتماعية وتضييقات السلطات الاستعمارية بعضا ممّن وُجّهت لهم دعوةً للحضور؛ كالشيخ إبراهيم بن عامر

30- أحمد حويتي، ديوان الشّيخ العروسي حويتي، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرّغاية، الجزائر، ط: 2009م.

31- مقابلة شخصية مع السيد خزان عبد الرزاق، مصدر سابق.

32- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية(1830-1945)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1986م، ج3، ص81.

33- للمزيد، ينظر: موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939، رسالة ماجستير، تحت إشراف د/ أحمد صاري، جامعة قسنطينة، نوقشت في 15 فيفري 2006 ،ص 168.

والشيخ الطاهر لعبيدي والشيخ الميداني موساوي..[34]، ثُمّ تبنّى أفكارها الشيخ عبد العزيز الشريف، وصار عضوا في مجلسها الإداري مكلفا بمناطق الجنوب، وحضر للمؤتمر السنوي بنادي الترقي بالعاصمة يوم 24 سبتمبر 1937 وألقى كلمة فيه، وتُوّجت نشاطاته بتنظيم الزيارة التاريخية لوفد الجمعية بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى "سوف" في ديسمبر1937، وانبثق عنها التوسع في تأسيس شعب الجمعية في قرى "سُوف"[35]. فكان من بين الوفد المستقبل للشيخ "عبد الحميد بن باديس" من قرية "الجُديْدة" شيخنا وإمامنا "سي محمد الصالح قديري"، فمن هو هذا العلّامة؟ وما دوره في قدوم الشيخ العروسي حويتي إلى المنطقة؟

الشيط محمد الصالح قديري[36]، المعروف بـ"الرنّي" هو محمد الصالح بن إبراهيم بن علي بن أحمد بن القدري بن أحمد بن علي بن خزّان، وأمّه "سودة" بنت حامد حامدي، وُلد عام1911م، ويكنّى "الرنّي" لترنّمه في الخطابة، توفّي والده وهو مازال رضيعا، فكفله خاله الحاج محمد حامدي، تلقّى تعليمه الأوّل على يد الشيخ "محمد خنوفة" بجامع ميدة، أين حفظ جزءا من القرآن الكريم، و تعلّم بعض مبادئ اللغة العربية، ونظرا لذكائه ونباهته، أُرسل عام1923م في بعثة علمية إلى الزاوية التابعية بمدينة نفطة التونسية، لتدوم دراسته هناك حوالي سبع سنوات، حفظ خلالها القرآن الكريم، وتلقّى دروسا في الفقه والحديث، ثمّ عاد إلى مسقط رأسه سنة 1930م، وفي نفس العام ارتحل إلى مدينة "الشريعة" من ولاية "تبسة" ليشتغل هناك إماما لمدّة سنتين، ليعود بعدها إلى إمامة مسجد قرية الجديدة عام 1932م، ومكث به إلى غاية وفاته سنة 1974م. ويروي لنا أهالي القرية ممّن عايشوا الشيخ الرنّي أنّه كان من رجالات الإصلاح والدعوة، حيث انخرط في جمعية العلماء المسلمين سنة 1937م، وحضر الخطبة التي ألقاها الشيخ عبد الحميد بن باديس في جامع النّخلة بالوادي، كما عُرف بالفصاحة في الخطابة والتمكّن من حفظ القرآن الكريم وأحكامه، وإليه يرجع أهل القرية في الفتوى وفضّ النّزاعات، فأنشأ بجوار المسجد مدرسة لتعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي، واستدعى إليها الشيخ العروسي حويتي سنة 1948م، فمكث بها معلّما ومصلحا وداعيا لشباب القرية حتّى اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954م.

وفي آخر هذه الجزئية من بحثنا، جدير بنا التطرّق إلى عامل آخر، يمكن أن يكون سببا في قدوم الشيخ العروسي إلى قرية "الجديْدة" ومكثه بها؛ وهو عامل النّسب والمصاهرة، فهو متزوّج من "تبر" بنت أحمد بن الوليّ الصالح عبّاس فايزي، جدّ عرش "العبابسة لفّايز"،

34- بن موسى موسى، المرجع السابق، ص167.

35- غنابزية علي، مرجع سابق، ص ص76-77.

36- التعريف بالشيخ الرنّي ونشاطاته جمعناه من لقاءات مباشرة مع كل من ابنه عبد السلام قديري والسيد خليفة بن أحمد حمة سعود حامدي وعمّي علي بن رجب حامدي.

وهو عرش متجذّر في القرية، ومعروف بثرائه وكسبه للغيطان في تلك الفترة.

2.4. ظروف وعوامل نشاط الشيط العروسي:

نشط الشيخ العروسي بقرية الجُديْدة، ما يقارب العِقد من الزمن في ظروف اجتماعية واقتصادية بائسة، أهمّ ما ميّزها ما يلي:

1.2.4. انتشار الآفات الاجتماعية:

فلقد فسحت السلطات الاستعمارية المجال للآفات الاجتماعية، ووفّرت لها أجواء الحرّية، بهدف مسخ الحياة الدينية والاجتماعية، وترويج الضلال ونشر الانحلال، وتشجيع الفواحش، وفرنسة المجتمع، وإضعاف روح المقاومة لديه، فيروي لنا "عمّي علي بن رجب" أنّه إضافة إلى "التبغ" كانت "المخدّرات" تُزرع وتباع، ويتناولها النّاس، وأنّ هناك دكاكين بالقرية معروفة ببيع الخمور، كما عمدت السلطات الاستعمارية إلى تفريق المجتمع إلى قبائل وعروش متصارعة، لتوجيه أنظار الأهالي إلى أمور هامشية ليفسح له المجال لفرض سيطرته على جميع مجالات الحياة، دون أن يعترضه من يعكر صفوه و يفسد عليه مشاريعه[37].

2.2.4. الهجرة إلى تونس:

ساهمت عدّة عوامل في تشجيع أهالي القرية و"سُوف" عموما على الهجرة إلى تونس، أهمّها:

- محاذاة الدولة التونسية للمنطقة، إذ لا تتجاوز المسافة بين قرية الجديدة ونفطة التونسية 80 كم.

- تردّي الأوضاع الاقتصادية بالقرية، فحالة الفقر دفعت بالكثير من السكّان إلى الهجرة، بحثا عن موارد عيش أخرى، خاصّة التّجارة، وممّن كانوا يتنقّلون بين حدود البلدين بغرض التّجارة: الشهيد عثمان برائكة والشهيد لمقدم عمر..

- الهروب من الاضطهاد والظلم الذي تمارسه السلطات الفرنسية، حيث نسجّل هجرة عائلات بأكملها واستقرارها في تونس، كعائلة "بن ناصر" وعائلة "صحراوي".

- الرّغبة في الاستزادة والتحصيل العلمي – وهي النّقطة التي تهمّنا في بحثنا هذا - حيث تعتبر تونس آنذاك بمدارسها وزواياها، مصدرا للإشعاع العلمي والإصلاحي بالمغرب العربي ككلّ، ومن أبرز الشخصيات التي هاجرت لهذا الغرض في تلك الفترة: الشيخ محمد خنوفة، إمام مسجد جامع ميدة، والشيخ سي نصر شنيبة، إمام جامع الشريف، والشيخ محمد

37- يوسف زغوان، التعليم العربي الحر بوادي سوف، رسالة ماجيستير، قسم التاريخ، جامعة الوادي، الجزائر، 2015م، ص52.

الصالح قديري، إمام مسجد الجديدة، والشيخ محمد الصالح حامدي ووالده سي الطيب، والشيخ حمد توبة إمام مسجد جلمة... ويروي "خليفة بن أحمد حمة مسعود حامدي" أنّ "الدبايلية" مِن سكّان "الجُديْدة" أوقفوا - للزاوية التابعية بنفطة التونسية- غيطان ومزارع بمحاصيلها في سبيل تعليم أبنائهم وإيوائهم والتكفّل بهم[38].

4.3. نشاط الشّيط العروسي الإصلاحي بقرية الجديدة:

تدور جهود الشّيخ العروسيّ الإصلاحيّة - فيما كان يُنقل عنه، وما تثبته جميع الرّوايات الشّفويّة شبه المتواترة – فيما يلي بـ: (دروس الوعظ والإرشاد، الخطب، الإفتاء، مجالس الصلح، إنشاء أوّل فوج للكشافة، فتح مكتبة منزلية للطلبة وللمهتمين بالقراءة من أبناء المنطقة). لذا - وكما سبق وأن ذكرنا - فإنّ الشّيخ العروسي كان مولعا بنشر العلم والمعرفة إلى جانب شغفه الكبير في المساهمّة الجادّة والفعّالة في الإصلاح لما يتمتّع به من ملكة علميّة ونظرات استشرافيّة، اشتركت جميعها في بلورة شخصيّته الإصلاحيّة والدّعويّة، حيث برز نشاطه الإصلاحي بقرية الجديدة على وجه الخصوص، من خلال:

1.3.4. دروس الوعظ والإرشاد[39]:

يذكر تلامذته أنّ الشّيخ كثير ما كان يعقد مجالسا لدروس الوعظ والإرشاد، يتناول فيها مختلف المواضيع؛ خاصّة ما تعلّق منها بتصحيح العقائد، ونشر الوعي ومحاربة البدع والخرافة، إضافة إلى بعض دروس الرّقائق لتقوية الجوانب الرّوحيّة والإيمانيّة لدى أهل المنطقة وفق المعتقد السّليم والصّحيح، منتهزا في ذلك المناسبات الدّينيّة، كذكرى المولد النّبويّ الشّريف وغيرها، ومستغلّا منبر المدرسة الحرّة الّتي أنشأها بالقريّة ومسجدها العتيق، كلّ ذلك ضمن ما سطّرته جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين من برامج في هذا المجال، الأمر الّذي أحدث أثرا طيّبا لدى جميع سكّان الجديدة، وهو ما تناقلته وأثبتته جميع الرّوايات الشّفويّة المتواترة عنه، إذْ غدا مرجعا يُذَكر على جميع ألسنة أهل الجديدة وينسبون له الفضل في إزاحة غمامة الجهل عن أعينهم، حتّى أنّك تسمع من قبيل: "قال الشّيخ العروسي: كذا وكذا ..." جملة دارجة على لسان أغلب كبار السّنّ من سكّان الجديدة لغاية يومنا هذا، في معرض استدلالاتهم على أيّ مسألة علميّة أو دينيّة، ممّا يُؤكّد صحّة ما سبق الإشارة إليه[40].

38- وفاء سويد وآخرون، الشيخ محمد الصالح حامدي ومجهوداته العلمية والدعوية، مذكّرة ليسانس، معهد العلوم الاسلامية، جامعة الوادي، الجزائر، 2020م، ص22.

39- جمعية العلماء المسلمين، جريدة البصائر، تعيينات الوعظ لشهر رمضان الكريم، العدد 269، بتاريخ 27 شعبان 1313هـ الموافق 30 أفريل 1954م ص3؛ حيث تم تعيين الشّيخ العروسي وبن حبة عبد المجيد للوعظ والارشاد في كامل مساجد المغيّر.

40- اللّقاء الإذاعي مع الإعلامي صالح فالح. مرجع سابق. شهادات شفويّة حيّة من سكّان الجديدة.

بل إنّ مواقف للشّيخ مع بعض جيرانه ومن تعامل معهم في بيع أو شراء، أو عمل...الخ، أظهر الشّيخ موقف الشّرع فيها، كانت دروسا عمليّة، جعلت سكّان الجديدة يقتفون أثره، ويتقبلون دعوته، وللإشارة فإنّ تولّيه إلقاء هذه الدّروس "الوعظ والإرشاد والإفتاء " كان في شهر رمضان بتكليف صادر في جريدة البصائر لسان جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين[41]. كما تصدّر الشّيخ للفتوى فأصبح يُقال: لا يُفتى والشّيخ في الدّبيلة وكذلك في المغير[42]. حيث إعتلا مجالس الإفتاء والصّلح لما يحظى به من مكانة مرموقة وثقة لدى أهالي المنطقة، فحقّق بذلك الكثير من الإنجازات على الصّعيد الاجتماعي والّتي تُذكر لغاية يومنا هذا[43].

وممّا ساعد الشّيخ العروسي حويتي على نشر دعوته ما نُقِل عن آثاره الدّعويّة والإصلاحيّة أنّه كان خطيبا مفوّها، ممّا مكّنه من اعتلاء المنابر، فخطب في النّاس في الجُمَع والأعياد، بنفس الرّوح والحماسة، فزرع الفكر التّحرريّ -الجهاديّ- والرّغبة الملحّة لتغيير الاستعباد وواقع النّاس البائس والمزري لما هو أفضل، الأمر الّذي جلب له المتاعب مع المستعمر الفرنسيّ، وكان سببا في اعتقاله. كما أنّه أنشأ أوّل فوج للكشّافة، وفتح مكتبة منزليّة للطّلبة والمهتمّين بالعلم من أبناء المنطقة، وأسّس المدارس العربيّة الحرّة في الجديدة والمغير، وإليه يرجع الفضل في كونه أوّل مؤسّس لها في المنطقتين، وأوّل من أسّس فوج للكشّافة في الجديدة، وأوّل من أسّس خليّة للتّجنيد تخرّج منها جلّ شهداء ومجاهدي قرية الجديدة[44].

5. خاتمة

في ختام هذه الدّراسة الموجزة، والتي تناولنا فيها بالدّراسة شخصيّة الشيخ "العروسي حويتي"، من حيث نشأته، وحياته العلمية والعملية، إضافة إلى نشاطاته الإصلاحية بقرية "الجُديْدة"، توصّلنا إلى مجموعة من الملاحظات والاستنتاجات، يمكن إيجازها فيما يلي:

- مِن باب الاعتراف بالجميل، وتحمُّلا لروح المسؤولية في كتابة تاريخ منطقتنا "الجُديْدة أوراس الجنوب" التي نحن من أبنائها، ارتأينا أن نبادر بالكتابة عن شخصية سبّاقة في الحركة الإصلاحيّة العلّامة "العروسي حويتي"، في منطقة الجديدة على وجه الخصوص وأن نَحمِل على عاتقنا تدوين ما جمعناه من روايات شفوية، و تسجيلات صوتية، و شهادات إدارية... فعمله المغمور أدخل المنطقة في تاريخ المقاومة الثقافية وخلّد ذكراها في سجلّ

41- لقاء مع حفيده الباحث عبد الرّزاق خزّان، مرجع سابق. ويُنظر أيضا: جريدة البصائر، المرجع السّابق. العدد 269، بتاريخ 27 شعبان 1313هـ الموافق 30 أفريل 1954م ص3.

42 - المرجع السّابق.

43 - المرجع نفسه.

44 - المرجع نفسه.

الثورة التحريرية الكبرى، شخصيةٌ لم يكتب عنها سوى بعض الأسطر في الكتابات المحلّية، وما زالت تحتاج للبحث و التنقيب سواء في الذاكرة المحلّية، أو من خلال الوثائق والشهادات الإدارية والمراسلات والتقارير الاستخباراتية الموثّقة على مستوى الأرشيف الوطني أو الفرنسي، وهذه من الوصايا التي نوصي بها الباحثين والمهتّمين.

- تُعدّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الحاضنة الأولى لنشاط الشيخ "العروسي حويتي" والتي جمعت عمله بمسعى رجل الإصلاح أصيل منطقة "الجديْدة" الشيخ "محمد الصالح الرنّي" والذي اجتهد في استقدامه إلى القرية، وممارسة أنشطته الدعوية فيها.

- كما ساهم زواج الشيخ ومصاهرته لعائلة "فايزي" في مكوثه بالمنطقة وقبول المنطقة لدعوته، وبروز شخصيات وطنية ساهمت في الثورة التحريرية، وجعلت المنطقة سباقة في العمل التحرري، وفي مرحلة تكوين مؤسسات الدولة الجزائرية المستقلة.

- تنوّعت أنشطة الشيخ "العروسي" الإصلاحية بين دروس للوعظ والإرشاد، وحلقات لتعليم شباب المنطقة مبادئ الدين واللغة العربية، وعقد مجالس للإفتاء وفضّ النّزاعات بين المتخاصمين، كما أنشأ بالمنطقة أوّل فوج للكشّافة الإسلامية لتعليم النّاشئة الانضباط وبث الروح الوطنية فيهم.

- أثمرت جهود الشيخ "العروسي" في المنطقة بتكوين جيل ثوري مثقّف، ساهم في اندلاع الشرارة الأولى من الثورة التحريرية بالمنطقة، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من يتصدّر اليوم أعلى الرتب في الجامعات والمناصب السياسية.

وفي الأخير يمكننا القول بأنّ هذا البحث جاء لتسليط الضوء على رائد الحركة الإصلاحية بالمنطقة، وبالتّعريف ببلدة "الجديْدة" بالدّبيلة التي قدّمت للثّورة التّحريرية خيرة رجالاتها، ونحن بذلك لا ندّعي أنّنا أحطنا بالموضوع من مختلف جوانبه، ولا نعتبر أنفسنا قد وصلنا بالبحث إلى نهاياته، وحقّقنا مبتغياته، ولكن نعتقد بأنّنا أدلينا بدلونا في ذاكرة المنطقة وإماطة اللثام عن عَلَم مغمورٍ من أعلامنا في الإصلاح بـ"سُوف"، وكشفنا جوانب مهمّة من حياته العلمية والعملية، فنرجو أن يكون بحثنا هذا إضافة مميّزة في ميدان التّرجمة للشّخصيات الوطنية والمحلّية. ونعتذر عن الزّلل والخطأ الذي وقعنا فيه من غير قصد، ونرجو من الله الثواب في ما وفقنا فيه من حقائق تضيف للدّارس والباحث المهتم بالمنطقة وأعلامها شيئا جديدا.

6. قائمة المراجع:

1.6. المؤلفات:

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية(1830-1945)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1986م، ج3.

- العوامر إبراهيم، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007م
- العمامرة سعد و منصوري أحمد، أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، مطبعة مزوار، الوادي،2006م
- قسيبة رشيد، القائد حمة لخضر ودوره في الثورة التحريرية، مطبعة الرمال، الوادي، الجزائر.
- مياسي إبراهيم، قبسات من تاريخ الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2010م
- الحشائشي محمد بن عثمان، تاريخ جامع الزيتونة، تونس،. الأطلسية للنشر الطبعة الثالثة 2006.
- أحمد حويتي ، ديوان الشّيخ العروسي حويتي، المؤسّسة الوطنيّة للقنون المطبعيّة، وحدة الرّغاية - الجزائر، .2009.

2.6. المؤلفات الأجنبية:

- Andrés-Roger Voisin, Le Souf – Monographie, El-Walid, Ed El-Oued, 2004

3.6 .الأطروحات:

- غنابزية علي، (2009م)، مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية و الانسانية، جامعة الجزائر، الجزائر
- موسى بن موسى،(2006م)، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939 ، رسالة ماجستير، تحت إشراف د/ أحمد صاري، جامعة قسنطينة ، الجزائر
- يوسف زغوان،(2015م) التعليم العربي الحر بوادي سوف، رسالة ماجيستير، قسم التاريخ، جامعة الوادي، الجزائر.
- وفاء سويد وآخرون، (2020م)، الشيخ محمد الصالح حامدي ومجهوداته العلمية والدعوية، مذكّرة ليسانس، معهد العلوم الاسلامية، جامعة الوادي، الجزائر.

4.6. المجلّات:

- مجلة الهداية، تصدرها وزارة العدل والشؤون الإسلامية بدولة البحرين، العدد 199 -السنة 17، رمضان 1414 - مارس 1994
- جريدة البصائر، العدد 269، بتاريخ 27 شعبان 1313هـ الموافق 30 أفريل 1954م

5.6. الشهادات الإدارية:

- نسخة من شهادة ميلاده تحت رقم: 06688. مستخرجة من بلدية الدبيلة بتاريخ: 2022/05/29م

6.6. المداخلات:

- يعقوب قاسمي، الشّيخ العروسي حويتي حياته وآثاره التّربويّة والعلميّة، ، يوم دراسي، الحركة الإصلاحية وأعلامها بمنطقة وادي سوف خلال النّصف الأوّل من القرن العشرين، جامعة الوادي، كلّية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 19 أفريل 2022م.

7.6. المواقع الالكترونية:

- موقع المكتبة الجزائريّة الشّاملة، بتاريخ: 30 جوان 2022م، على السّاعة: 11 والنّصف صباحا (h11 وmm30)،

https://shamela-dz.net/?p=838

8.6. اللقاءات:

- لقاء مع أستاذ التّاريخ بجامعة الوادي د: عمر لمقدّم أمام بيته، يوم الأحد 29 جوان 2022م، على السّاعة الخامسة مساء والنّصف

- مقابلة مع دقّة الطّاهر بن القدري، بتاريخ 30ماي 2022م، على السّاعة h18 و mm30، في بيته.

- مقابلة مع الأستاذ الباحث خزان عبد الرزاق أستاذ في التاريخ وحفيد الشيخ العروسي، يوم: 18 ماي 2022، بالمكتبة المركزية بجامعة حمه لخضر الوادي، على الساعة 10:00 صباحا

- لقاء مع الشيخ "حامدي أحمد بن العيد" مدير مدرسة بلالة بشير بالجديدة، يوم 2022/05/08بالمدرسة على الساعة 10:30صبلحا.

- مقابلة مع "حامدي علي بن رجب" في مسجد عمر بن عبد العزيز، يوم الجمعة13ماي2022 بعد صلاة العصر

9.6. التسجيلات الصوتية:

- حصّة أعلام ومعالم للإعلاميّ صالح فالح، بإذاعة الجزائر من الوادي، العدد: الأوّل، بتاريخ: 2014/09/11م

- مكالمة هاتفيّة مع د: عبد الرّزاق قسوم، على السّاعة: 09h30mm من يوم: الثلاثاء 31 ماي 2022م.

7. ملاحق

ولاية الوادي

دائرة الدبيلة

بلدية الدبيلة

رقم 6688

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

نسخة من الدفتر الأصلي

المتعلق بعرش الحشايش

فرقة الواد الوسط

الإسم العائلي حويتي

الإسم (اللقب القديم) أو اسم الأسلاف أو الكنية إذا كانت

العروسي بن محمد بن ابراهيم

الرقم 6688 من الدفتر الأصلي

المهنة —

العمر في سنة حلول ألف وتسعمائة واثني عشر

ملاحظات: (1912)

نسخة مطابقة للأصل

حرر بالدبيلة في 06 أوت 2012

ضابط الحالة المدنية

عن رئيس المجلس الشعبي البلدي

عبد الرزاق

الكتابة السابقة للإسم واللقب

HOUITI LAROUCI

ح. م. 16 – المطبعة الرسمية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الداخلية والجماعات المحلية

ولاية الوادي

دائرة الدبيلة

بلدية الدبيلة

شهادة الميلاد

(نسخة كاملة (1) مستخرج (2))

رقم الشهادة 06688

م: 1912

في يوم (3) مفترض ألف وتسعمائة واثنى عشر

على الساعة /././././ ولد(ت) بـ الوادي

بلدية الوادي ولاية الوادي

المسمى (ة) (4) حويتي العروسي

الجنس ذكر

ابن (ة) محمد بن إبراهيم عمره /././././ مهنته /././././

و /././ عمرها /././././ مهنتها /././././

الساكنين بـ بلدية /././././ ولاية /././././

حرر في على الساعة

بإعلان أدلى به السيد (ة)

وبعد التلاوة وقع معنا نحن ضابط الحالة المدنية بالبلدية

البيانات الهامشية:

/ لا شيء /

حررت بـ الدبيلة في 2022/05/29

ضابط الحالة المدنية

الاسم اللقب والصفة والختم

عن رئيس المجلس الشعبي البلدي

المفوض

غسان سعيدة

الكتابة السابقة للاسم واللقب بالأحرف اللاتينية

HOUITI Larouci

1 و 2 أشطب العبارة الزائدة

3- بكامل الحروف

4- اسم ولقب الولد

المرجع ح م 7

EI5AFXHLE5BFLP6995LS

تجارب أهل البصيرة في الدعوة والتعليم
قراءة في سيرة الشيخين: مبروك اعواج الشامسي، وحمد توبه

Experiences of the people of insight in advocacy and education
Reading in the biography of the two sheikhs, Mabrouk Awaj Al Shamsi and Hamad Tawba

أ/ نور الدين صحراوي
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي (الجزائر)
Djassem73@gmail.com



ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إبراز دور فئة المكفوفين في حقل الدعوة والتعليم بالجزائر خلال القرن العشرين، تلك الفترة التي عمّ فيها ظلام الاستعمار الفرنسي في الجزائر عامة ومنطقة الجنوب الشرقي خاصة، بحكم طابع البداوة وغلبة حياة الترحال على حياة الاستقرار لدى أهل تلك الربوع، ناهيك عن نقص دُور التعليم، وقلة الإمكانات حتى تتمكن هذه الفئة من التعلّم ثم التعليم.

وقع اختيارنا على عَلمين من هذه الفئة هما؛ الشيخ مبروك اعواج الشامسي، وحمد توبه، لتصفح دفاتر حياتهما الحافلة بالتحدي والاجتهاد، فقد عاشا مخضرمين، شهدا مرحلة الاستدمار الفرنسي ومرحلة عودة السيادة وبناء الدولة، فكانت نشأتهما قاسية وعوائق الدهر لا حصر لها، إلاّ أن علوّ الهمة والرغبة في التغيير كانت أقوى وبصيرتهما كانت أنفذ، فاستطاعا تحدي الظلام وكسر القيود، وساهما كغيرهما من أولي الأبصار في تهيئة النشء وتنوير الغافلين وتحرير المقلدين على ضلالة، فحاربا الأمية والجهل والتخلف، وبشّرا بالعلم والهداية ما استطاعا إلى ذلك سبيلا.

الكلمات المفتاحية: أهل البصيرة؛ كفيف؛ مبروك اعواج الشامسي؛ حمد توبه؛ التعليم.

Abstract:
This article aims to highlight the role of the blind category in the field of advocacy and education in Algeria during the twentieth century, that period during which the darkness of French colonialism prevailed in Algeria in general and the southeastern region in particular, due to the nature of Bedouin and the predominance of the nomadic life over the life of stability among the people of

those regions, not to mention the lack of The role of education, and the lack of capabilities so that this category can learn and then teach.
We chose two flags from this category: Sheikh Mabrouk Awaj Al Shamsi and Hamad Tawba, for browsing the notebooks of their lives filled with challenge and diligence, as they lived veterans, witnessed the stage of French colonization and the stage of the return of sovereignty and state building, so their upbringing was harsh and the obstacles of eternity were endless, but their ambition and desire for change were stronger and their insight was more effective. They were able to challenge the darkness and break the chains, and they contributed, like other people of vision, in preparing the young, enlightening the heedless, and liberating the imitators on misguidance.
Keywords: people of insight; blind; Mabrouk Awaj Al- Shamsi! Hamad Tawbah; education.

1. مقدمة

لا يخلو زمان من مكافيف[1] ذوي بصيرة وهمم عالية، تسطعُ نجومهم في سماء دنياهم بما أنجزوه في شتى الميادين وبما أنفقوا من جهودهم في تحدي العوائق، يقودون جموع المُبصرين، يفرضون إرادتهم ويحققون أهدافهم كأقرانهم الآخرين على حد سواء، وقد عبّر ابن الجوزي عن ذلك فقال: "من علامة كمال العقل عُلوّ الهِمّة، والرّاضي بالدُّونِ دَني"[2] فإذا كانت الحياة قاسية على الجميع؛ فإن قساوتها على صاحب العصا البيضاء[3] أشدّ وأقوى إذا استسلم وانكفأ على نفسه.

واسأل الأيام منذ عهد النبوّة إلى وقتنا الحالي، تُنبيك بأسماء لشخصيات وقامات من المكفوفين أضاءت دروب إخوانهم المُبْصرين، ولازلنا نقتبس من آثارهم وأعمالهم في الفقه والفتوى والقضاء والأدب والشعر وحتى العلوم التكنولوجية الحديثة، وصدق الحق سبحانه إذ يقول: ﴿**أَفَلَم يَسِيرُواْ فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُم قُلُوب يَعقِلُونَ بِهَآ أَو ءَاذَان يَسمَعُون بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعمَى الأبصَٰرُ وَلَٰكِن تَعمَى ٱلقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**﴾ (سورة الحج 46)، وقد أشبعها المفسرون شرحا وتفسيرا، نختار هنا تفسير ابن كثير فيقول: " ليس العمى عمى البصر وإنّما العمى عمى البصيرة وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العِبر ولا تدري ما الخبرُ وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنى، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة الأندلسي الشنتريني(ت.517 هـ).

1- أورد ابن قتيبة في كتابه (المعارف) فصلا لمن ابتلي في جسده تحت عنوان "أهل العاهات" ذكر منهم المكافيف. (ينظر ص.ص578،587)، ولهذا اقتبست هذه التسمية عنه.

2- جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، **صيد الخاطر**، دار القلم، دمشق، ط.1، 2004، ص. 28

3- خصصت الأمم المتحدة يوم 15 أكتوبر من كل سنة يوما عالميا للمكفوفين وضعيفي النظر، وهي لفتة للاهتمام بهذه الفئة ودمجها في المجتمع.

يامن يُصيخُ إلى داعي الشقاء وقد نادى به الناعيان الشيبُ والكِبرُ
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيمَ تُرى في رأسك الواعيان السمع والبصرُ
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل لم يهدهِ الهاديان العينُ والأثرُ[4]

وقد ذكر ابن قتيبة في كتابه "المعارف" في فصل المكافيف، وعدّ منهم: أبا قحافة (والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، وأبا سفيان بن حرب، والبراء بن عازب، وجابر بن عبد الله، وكعب بن مالك الأنصاري، وحسان بن ثابت وعقيل بن أبي طالب[5]، وقال الصفدي: قلَّ أن يوجد أعمى بليدا، ولا يُرى أعمى إلا وهو ذكي، وعدَّ منهم الترمذي الكبير الحافظ، والفقيه منصور المصري الشاعر، والشاطبي المقرّي، وابن سيده اللغوي، ورجَّح أن السبب في ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه، ولا يعود مشعبا بما يراه، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئا نسيه، أغمض عينيه وفكّر، فيقع على ما شرد من حافظته[6].

قَرّ قراري على دراسة هذا الموضوع "تجارب أهل البصيرة[7] في الدعوة والتعليم"، وذلك من خلال تتبع سيرة عَلَمينِ من أعلام هذا الميدان في منطقتنا "وادي سوف" هما الشيخان: مبروك اعواج الشامسي وحمد توبه، وقد عاشا أترابا وكابدا نفس الظروف الزمانية والمكانية والعائلية، تشابهت أيامهما وأحلامهما حتى في كثير من تفاصيلها، وكان توفيق الإله لهما سرُّ نجاحهما، إضافة إلى ما تمتعا به من علوِّ الهِمّة وعزة النفس، ففي زمانهما التعليم وطرقه شبه معدومة للمُبصر، فما بالك بالكفيف[8] والضرير[9]،أن يدرس ويتعلم ويسافر وينتسب إلى أكبر معاهد التعليم في ذلك الزمان (الزيتونة)، هو جهاد ونصبٌ لا يقوى عليه إلا ذو بصيرة تعلقت هِمّته بمعالي الأمور ولو جاورتِ الثُّريا. صحيح إذا نظرنا إلى واقعنا الحالي فإن سُبل العلم للمكفوفين أصبحت أكثر سهولة ويسرا بفضل اهتمام الحكومات بهذه الفئة وتوفر الإمكانات المادية واللوجستية، ولذا ليس غريبا أن تحقق هذه الفئة تميزها وتتدرّج في شتى فنون العلم والمعرفة، لكن عصر الشيخين كان قاسيا جدا، وتكاليف الحياة

4- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ط. العلمية، تح. محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1419 هـ. ص. 385

5- ابن قتيبة الدينوري، **المعارف**، تح. ثروت عكاشة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط. 2، 1992، ج. 1، ص.587

6- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، **نكت الهميان في نكت العميان**، تع. مصطفى عبد القادر العطا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط. 1، 2007، ص. 6.

7- في منطقة سوف يقال للذي فقد نظره "بِصيرْ" بدلا من كلمة أعمى لأنها ثقيلة على النفس، وفي ذلك سلوى للإنسان من محيطه.

8- الكفيف في اللغة هو من أبصر الدنيا ثم فقد نظره.

9- الضرير من ولد فاقد البصر ولم يبصر الدنيا.

لمثلهما تنوء بحملها الأجسام، حتى انطبق عليهما قول المتنبي: "وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مُرادها الأجسام"[10].

الإشكالية: صبيان كفيفان في صحراء سوف من عائلتين بَدويتين لا مال ولا ثروة ولا وصلا عند صاحب الدولة[11]، بل غرز الفقر والفاقة والمَتربة فيهما أنيابه وشرّدهما في حِلّهما وترحالهما، فأنّى لهما التعليم؟ وكيف يصل إليهما ريحه؟ ألم يكن حلمهما بالتعليم خيط دخان في كثبان سوف؟ من ألهم الصَّبّيين وأرشدهما إلى مدارج السالكين في العلم والإمامة والتعليم؟ وكيف تحدّيا الظلام وعبرا النفق المظلم إلى برِّ العلم والتعليم والدعوة إلى الله وتنوير عشيرتهم ومجتمعهم؟ لقد عاش الصبيان في ظلامين: ظلام البصر وظلام الاستعمار الفرنسي الذي أعمى أبصار الأمة ونشر الغُمّة وهلك الأوطان، لقد فكّرا وقدّرا فكيف قدّرا؟

أردت في هذه الورقة تتبع سيرة هذين العَلَمين لإبراز دورهما في المنطقة خلال تلك الفترة العصيبة من تاريخ الأمة، كشاهدي عصر خاصة وقد عاشا مخضرمين، شهدا مخاض الاستقلال وولادة الدولة، ففي الأولى وإن كانا شابّين في طور التعلّم والتكوين؛ فقد ساهما كغيرهما في سبيل تحرير الوطن واندمجا في سلك الشبيبة التابع لجبهة التحرير الوطني بالمنفى "تونس" إلى أن طلع فجر الاستقلال والحرية، ليبدأ فصلا جديدا في التحدي وأداء الرسالة.

2. ترجمة للشيخين

1.2. الشيخ مبروك عواج الشامسي:

هو مبروك بن محمد بن عبد القادر بن محمد الشامسي[12]، الملقب بعواج[13]، والدته

10- بيت شعري للمتنبي

11- لم يكن والدا الصبيين ممن انتظموا في خدمة دولة الاحتلال الفرنسي.

12- الشامسي نسبة لعرش الشوامس، وهي قبيلة عربية دخلت متأخرة لأرض سوف قادمة من تراب نفزاوة التونسية، وقد عدّها صاحب الصروف ضمن عديد قبيلة أولاد حَمَد، وينسب هذا العرش لـ"**سماش**" بن سيدي بوجويحيف النفزاوي، وحسب البعض فإن سيدي بوجويحيف هو جدهم لأمهم، وسماش هو ابن ابنته وأبوه من بني سليم الذين سكنوا جبل الظاهر والدويرات وتفرقوا بنواحي نفزاوة. ينظر: إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تع. الجيلاني بن ابراهيم العوامر، منشورات دار ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007، ص. 351

13- بخصوص هذا اللقب "الكنية" يقول الشيخ مبروك، أنه حديث في العائلة، فقد كان جدهم يُعرف باسم عبد القادر بن محمد الشامسي فقط كعادة أهل المنطقة، وعندما بدأت الإدارة الفرنسية بالوادي في تسجيل الحالة المدنية لعرش الشوامس وزّعت عائلاتها واخترعت لها نعوتا لتفرق شملها، فكان من نصيب جدهم لقب "عواج" نظرا لطول قامته وضخامة جسمه، كان ذلك سنة 1948م، ومن الإشكالات التي اعترضت طريق الصبي مبروك لمّا أراد الدخول لمعهد الزيتونة بتوزر، أنه لا يملك شهادة ميلاد، ولا يعرف اللقب الذي سجل به كبير العرش والده في الحالة المدنية، ما دفعه إلى اصدار

"أم الخير" بنت خليفة ظريف، كانت ولادته سنة 1934م[14] في بادية حاسي خليفة، هو أكبر إخوته الأربعة (ثلاث بنات وولد)، يشاء القدر أن يصاب الولد "مبروك" بمرض في عينيه لمّا كان رفقة والده يحتطب في الصحراء وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره، وبسبب نقص التطبيب وشظف العيش وقلة ذات اليد، حيث كانت الأسرة بدوية تجوب الصحراء وتعتمد على التداوي بالأعشاب، حتى لما دخلوا أرض نفطة التونسية وجدوا فيها مصحة بها ممرض فقط، عالجه بقطرات دواء لكن ذلك لم يفده في شيء، ولازال المرض به حتى فقد الصبي بصره وأصبح كفيفا حبيس البيت[15].

2.2. الشيخ حمد توبة

هو حمد بن مسعود بن محمد بن صالح الصْلِيعي[16] الشامسي، منبت العائلة في قرية جِلمة ضواحي منطقة الدبيلة، وأمّه فاطمة عوين ولد في صائفة 1932 أو 1933عام الروز الأول[17] في بحيرة الأرنب بمنطقة الماء لبيض[18] قرب تبسة حاليا، فقد بصره في الصغر على مرتين، الأولى بسبب عود حطب في عينه اليمنى وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره، والثانية نتيجة أمراض العيون المنتشرة آنذاك، حاول والده معالجته بالطب الشعبي والأعشاب لكن النتيجة كانت عكسية إلى أن فقد ما تبقى من بصيص نور في عينه الثانية[19]، ليبدأ الصبي مرحلة جديدة وغريبة عنه، واستطاع بتوفيق من الله أن يُحوّل المحنة إلى منحة، والظلمة

حكم شرعي بتونس تحت اسم مبروك الشامسي. ينظر: الشيخ مبروك الشامسي، **مذكرة نفيسة**، تق. تع. علي غنابزية، مؤسسة ايموبال المطبعة العصرية، الوادي، ص. ص. 22، 53.

14- حسب شهادة الميلاد للشيخ فهو من مواليد 1937م.

15- نفسه، ص.27.

16- الصليعي تسمية لقبيلة من "غْريب" جنوب تونس نزلوا قديما إلى سوف وبقيت فرقة منهم "محنكين الشوامس" – اللفظ للشيخ حمد – بمعنى مندمجين معهم، فجد الشيخ أتى من غريب وامتهن حرفة رعي الأغنام "سارح" عند مبروك شراد الشامسي وتزوج بـ مسعودة شراد التي هي جدة الشيخ حمد. ينظر: **لقاء مع الشيخ حمد توبه (مولود في1932)**، في بيته بقرية جلمة جْدَيدة الدبيلة، يوم الثلاثاء 18 رمضان 1443 هـ الموافق لـ 19 أفريل 2022)، على الساعة 11:00.

17- هذا من التقويم الشعبي العامي في سوف آنذاك والأمثلة كثير عام المسطورة 1897م، عام لحلاس "الزاوية الكحلة" 1898م عام الحِلْبة 1934م ، عام الخزناجي 1925م،...إلخ، وقد ذكر لي الشيخ أن عام الروز الأول يوافق سنة 1933م، بينما وجدنا في أرشيف بلدية الرباح وثيقة معتمدة كرزنامة للتأريخ في حوادث سوف، مؤرخة في 05 سبتمبر 1961م تشير أن عام الروز الأول يوافق سنة 1931م. لكن ما ذكرت له عائلته أن أحد أقرانه من أبناء الحي ولد معه في نفس السنة والشهر تقريبا وكان والده يعمل بمنجم الرديف بتونس قد سجل ميلاده سنة 1935م. **لقاء مع الشيخ توبه**، المصدر نفسه.

18- صالح فالح، **حكايتي مع القرآن الكريم**، حصة بإذاعة الجزائر من الوادي، بثت يوم 05 مارس 2022.

19- **الشيخ حمد توبه**، مصدر سابق.

إلى نور، فالتحق كغيره من الصِّبية بمسجد البلدة يزّكَّى، فعلّمه الطالب أحمد مباركي من القرآن ربعه الأخير، حتى أشرق فؤاده وتنورت بصيرته.

والد الشيخ (مسعود بن حمد) رجل بسيط يرعى الغنم في صحراء سوف، اشتهر عند الناس بمهنية عالية، ثم نزل إلى البلاد ليمتهن مهنة رفع الرملة "التراب" على ظهره لغراسة النخيل، واستمر به الحال حتى عجز عن المواصلة فيها، ودارت به الأيام حتى أخذ نصيبه من الفقر وقلة ذات اليد، ومن فرط غمّه وحيرته – طَاحْ بِيهْ المَدح- (التعبير للشيخ) بمعنى انهال عنه قول المديح على عادة المتصوفة أنذاك، فأصبح مدّاحا قادري الطريقة[20]، وبما أن ولده الكفيف لا عمل له فأراد أن ينتدبه معه في المديح، وهكذا أصبح الصبي على مضض منه، متجولا مع والده يضرب البندير "الطبل"، وقد روى لي الشيخ أن والده كان يتمنى أن يصير ابنه مدّاحا، وأن يجعله مستودعا حافظا لأمداحه، فيقول له "كِيف نْجيب مَدحة احفظها"، فهل يتمسك الصبي بالمدح على هونٍ وكره منه؟ أم يفارقه ويعصي والده؟

حاول الصبي محاورة والده ليترك سبيله لكن دون جدوى، وبقي الولد في هذا الصراع ردحا من الزمن، ومن القصص التي لا زال الشيخ يذكرها أنه حضر مع والده حفل زواج في الصحراء، وكان من المدعوين لهذا الزواج الشيخ مصباح حويذق[21] وهو شيخ علم "عَصْرَيوني"[22]، وقد أعجِب الصبي بكلامه وعلمه كثيرا من خلال الجلسات التي كانت تقام في تلك الأمسيات[23]، وإلى الآن لا زال يعتبر الشيخ حويذق أحد الذين كان لهم الفضل في

20- المصدر نفسه.

21- هو مصباح بن الطيب ولد سنة 1902 بالطريفاوي التحق بجامع الزيتونة سنة 1920 وتخرج منه بشهادة التطويع سنة 1931، انتدبته جمعية العلماء المسلمين للتعليم في مدارسها، فكان يتنقل من الحراش إلى تلمسان إلى بني هديل، إلى سبدو، إلى مستغانم، اعتقلته السلطات الفرنسية لإسكات صوته، إلا أنه ظل مناضلا عنيدا صداحا بالحق، وهكذا بقيت سيرته حتى بعد الاستقلال، وقد كلفه ذلك الكثير من التعب والتعذيب والنفي داخل الوطن، إلى غاية وفاته يوم 28 فيفري 1973 بمستغانم. ينظر: موسى بن موسى، **الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900 -1939،** مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2005-2006، ص.174، الشروق أونلاين، بتاريخ 2015./01/26

22- عصريوني تسمية يطلقها عامة الناس على شيوخ الحركة الإصلاحية، الذين يحاربون البدع والخرافات.

23- كان الزواج في سوف يدوم عدة أيام تتخللها جلسات سمر وجلسات فنتازية وفرح ومرح ولكل فئة وجنس نشاطاتهم، وتغلب على الحفل وتتنوع فقراته بحسب القيمة الاجتماعية للعائلة صاحبة الفرح، ومن الأنشطة المصاحبة للسمر الليلي المبارزات الشعرية "ربط العرس" والحكواتي، والمدح، وهنا بيت القصيد فالشيخ "الصبي" حمد ووالده استدعيا للزواج بهذه الصفة "مداح" ولا زال يذكر السجال الذي دار بين والده والشيخ مصباح حويذق، وكان يستمتع بكلام الشيخ كثيرا ويراه عين الصواب، ولا يستسيغ حديث والده.

حبّه للعلم، فيقول: "تعلّمت منه ولم أتتلمذُ عليه" فهو المصباح الذي أنار دربه[(24)].

3. **تحدي الظلام وتحطيم القيود:**

بعد أن نزل البلاء بالصّبيّين في صغرهما وخطف أبصارهما من غير حول لهما ولا قوة، وطابت نفوسهما لقضاء الله وقدره، بدأت الحيرة العلمية تهواهما وتحلّق بهما عاليا، وتعلقت نفوسهما بتحدي الظلمة وكسر القيد، وكانا أهلا لها، وهذا هو الابتلاء الحقيقي عند ابن الجوزي فيقول: "ما ابتلي الإنسان قط بأعظم من علو همته، فإن من علت همته يختار المعالي، وربما لا يساعده الزمان، وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب"، حتى قال عن نفسه: ولعلّ تهذيبي في تعذيبي[(25)]. ستأخذنا هذه السطور لمعرفة تجربة هذين العلمين في تحدي الإعاقة، وكيف تحملا كل المتاعب ورسما طريقهما في الحياة بجدٍ واجتهاد، وهي سيرة كل من يرغب في النجاح في كل عصر وحين، لأن الدنيا تؤخذ غلابا، ومهما طال الليل فلا بد للصبح أن ينجلي.

1.3. **الشيخ مبروك اعواج الشامسي:**

لمّا جاء البشير وأخبره بمولوده البكر سمّاه "مبروكا"، كان يومها والد الشيخ يعمل بمنجم رديف بتونس، جمع رفاقه في العمل وأشهدهم على نفسه بأن يهب هذا المولود للجامع، يعني تعلم العلم والقرآن[(26)]، وهي أمنية يتمنّاها كل أب، ثم انصرف الوالد في شؤون الحياة إلى أن جاءت حادثة فقد البصر وانزوى الولد في ركن البيت يبكي حاله ومآله، بين مدٍّ وجزرٍ، حتى هدى الله أحد الصبية من جيرانهم إلى اصطحابه معه للمسجد لتعلم القرآن، فكان ذلك فتحا وتوفيقا إلهيا، ليبدأ الصبي حكايته مع القرآن في مدينة نفطة، واستطاع أن يحفظ القرآن الكريم في أربع سنوات على يد الشيخين؛ الطيب ظريفة وعبد الكريم بن علي الصالح، وهذا الأخير هو معلم القرآن بمسجد سيدي عرفه أحبه الصبي كثيرا وحبّبه في العلم أيضا، فقد كان رحيما عطوفا بجميع طلبته وبه خاصة[27].

بعد ختمه القرآن سنة 1951م تاقت نفسه للتّفقه في الدين وعلوم اللغة العربية، على يد مجموعة من شيوخ البلدة منهم الشيخ عروسي عبادي والشيخ بن حمد والشيخ الصادق بن التابعي والشيخ الطاهر بن نوري والشيخ التابعي السوفي والشيخ التابعي معيزة[(28)]، وفي هذا المجال يقول ابن الجوزي" وإذا رزق فصاحة من حيث الوضع ثم أضيف إليها معرفة

24- حمد توبه، مصدر سابق.

25- ابن الجوزي، مصدر سابق، ص. 250-.254

26- مبروك الشامسي، مصدر سابق، ص.24

27- المصدر نفسه، ص. 29.

28- المصدر نفسه، ص. 50.

اللغة العربية والنحو، فقد شحذت شفرة لسانه على أجواد مسن، ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجلّ، فتحت له أبواب لا تفتح لغيره..."[29].

عُرف الشيخ مبروك باجتهاده وفقهه، لذلك اختارته جماعة مسجد "علي قرقورة" بحي خيط الطين للإمامة بهم وتعليم القرآن، واستطاع بذلك أن يعين أسرته على تكاليف الحياة، خاصة وأنه في هذه الفترة بقي هو وأمه في نفطة وعاد والده للوادي، واصل الشيخ الإمام العلم والتعلم ولم يكتف بما ناله، وأصبح هدفه الآن المعهد الزيتوني بتوزر قِبلة العلم والعلماء خاصة للطلبة القادمين من جنوب الجزائر، ومن وجهة نظر الشيح حمد توبة الذي درس فيه هو أيضا، فإن العلوم والمعارف الموجودة في هذا المعهد بفضل شيوخه وعلمائه غير موجودة في جامع الزيتونة الأصل[30].

كانت العقبة أمامه كؤود، كيف له أن يتمكن من المواد العلمية؛ كالحساب والجبر وقواعد الأشكال الهندسية والتاريخ والجغرافيا للمشاركة في امتحان الدخول للمعهد الزيتوني، ولذلك فقط ضحى بوظيفته (الإمامة والتعليم) وتفرغ لدراسة تلك المواد بمساعدة بعض أصدقائه من الطلبة[31] خلال العطلة الصيفية لسنة 1953م فكان له ما أراد وفاز في امتحان القبول، وكلما زاد طموحه زادت متاعبه لولا الدعم المادي والمعنوي الذي تلقاه من الطلبة عموما والسوافة على وجه الخصوص، وهنا ننوه بدور الجالية السوفية في بلاد الجريد التي كانت نعم العون للطلبة في كثير من الأوقات، ومنهم نذكر: صاحب حافلة نقل الركاب بين نفطة وتوزر ويدعى العربي بالشاوش، الذي منحه تذكرة سفر مجانية أسبوعا بعد أسبوع، والتاجر "نصر واجدة" الذي نادى في الطلبة الجزائريين عموما ودعاهم إلى أخذ ما يحتاجون، فمن كان ميسورا سدد ومن لم يستطع عفا الله عنه.

اضطر الشيخ للعودة إلى سوف مع والدته صيف سنة 1955، وتزامن ذلك مع معركة هود شيكه" 08- 09- 10 أوت 1955" والتي أسفرت عن غلق الحدود، وحيل بينه وبين العودة إلى الدراسة، فحاول الحصول على رخصة من الحاكم العسكري بالدبيلة "بريدو" على أنه طالب علم وكفيف لكن دون جدوى، ما دفعه إلى الهجرة سرا وخفية متنكرا مع ابن عمه صاحب غنم قرب الحدود وله ترخيص سفر بالدخول إلى التراب التونسي، ومع ذلك فقد علمت الإدارة الفرنسية به وتعقبت آثاره، وبات في عديد المبحوث عنهم، وفارق الوطن دون رجعة، ولم يزره إلا بعد وقف إطلاق النار سنة 1962م. واصل الشيخ دراسته بجد واجتهاد، إلى أن تحصل على شهادة الأهلية سنة 1957م بتفوق ومنحت له جائزة،

29- ابن الجوزي، مصدر سابق، ص. 190.

30- الشيخ حمد توبه، مصدر سابق.

31- لازال الشيخ يُثني خيرا على صنيعهم معه ويدعو لهم في ظهر الغيب، لأنهم آزروه ونصروه ونوّروا له طريق الحياة. ينظر: الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص. 55.

فكانت حافزا له على المواصلة، ثم انتقل إلى تونس العاصمة ليواصل دراسته، فحصل على شهادة التحصيل (تعادل شهادة البكالوريا آنداك) وبها استطاع الانتساب لجامعة الزيتونة كلية الشريعة وأصول الدين، درس فيها ثلاث سنوات توّجت بشهادة العالمية سنة 1963م.

شيوخه:

من الشيوخ الذين درس عنهم وأناروا طريقه في توزر: العربي النفطي، عبد الرحمان زمال، سليمان بلوزة، صالح الساكر، العروسي عبادي، إسماعيل الهادف، الحبيب بن بلقاسم، وأما شيوخه بالزيتونة فهم: الفاضل بن عاشور، والحبيب بن الطاهر بن الخوجه، محمد العنابي، العربي الماجري، الهادي النيفر وغيرهم.

2.3 **الشيخ حمد توبه**:.

بعد فقد البصر عاش الصبي طفولة قاسية، فركن إلى مسجد الحي بجِلمة يحفظ القرآن حتى أتمّ الربع الأخير "ربع يس" على يد الطالب أحمد امباركي[32]، وبحكم أن الأسرة بدوية ولا تملك في القرية لا رزق ولا مال حتى تستقر لأجله، ولم يكن التعليم ذا أهمية كبيرة عند كثير من الأسر، فهي تعتبر أن الولد يكفيه بضع سور من القرآن يقيم بها صلاته وفقط، فشدّت الأسرة رحالها إلى الصحراء[33]، وانقطع حبل التعليم عن الصبي واكتفى إلى حين بما تيسر له من القرآن، وأجبرته الظروف على حمل الطبل "البندير" مع والده المدّاح يجوب الصحراء والقرى – في حكم الوالد- حتى دخلوا نفطة حوالي سنة1951 أو 1952 ومنها إلى توزر وأقاموا عند خاله مؤذن بمسجد زاوية الشيخ المولدي[34].

بقيت الأسرة تتنقل بين أحواز الجريد ورديف "عيّاشه" وهناك عاد له حبل العلم، فواصل حفظ القرآن حتى بلغ نصفه على يد الطالب الدبيلي عمارة بالميعادي[35]، ولمّا آنس منه تمكنا من القرآن زكّاه لدى مجلس الثورة بالرديف[36] -حسب تعبير الشيخ وهو يقصد التنظيم المدني لجبهة التحرير الوطني بالرديف– وقال لهم بأن "سي حَمد" أصبح طالب كبير لو نرسله إلى نفطة ليواصل تعليمه أفضل، فوافقوه في مراده[37]، وبذلك تفرغ الشاب للدراسة فالتحق بالزاوية الإبراهيمية وتتلمذ علي يد الشيخ محمد بوقفة، ومن شدة حبه

32- صالح فالح، **حكايتي مع القرآن الكريم**، حصة بإذاعة الجزائر من الوادي، بثت يوم 05 مارس 2022

33- الشيخ حمد توبه، مصدر سابق.

34- صالح فالح، مصدر سابق.

35- ذكر لي الشيخ أن أصل هذا الطالب من منطقة الدبيلة لكنه عاش في بلدة النخلة بـ "غمّيش" ثم انتقل إلى رديف.

36- من المناضلين الذين ذكرهم الشيخ توبه: العربي قمودي، بن علي المكي، الطالب خزاني، العربي بالنور.

37- الشيخ حمد توبه، مصدر سابق.

للعلم كان لا يكتفي بحفظ القرآن فقط، بل كان يتسلل مع بعض رفاقه إلى مجالس العلم في مساجد البلدة لحضور دروس الشيخ "بن حمد" والشيخ "سي أحمد بالصالح" في الفقه والنحو والتفسير وغيرها.

بعد ختم القرآن وأخذ نصيب من الفقه، بدأ الشيخ يتطلع للالتحاق بالمعهد الزيتوني بتوزر، فاحتك ببعض الطلبة السوافه، منهم بشير وعثمان بقاص وبن علي عبد الرحمان وتعلم منهم بعض العلوم في الرياضيات والكيمياء والتاريخ حتى يجتاز امتحان القبول في المعهد[38]. دخل الشيخ توزر يوم" 1956/10/22 وهو تاريخ لن ينساه لارتباطه بحادثتين؛ أولاهما شخصية تتمثل في تحطيم القيود وتحدي العوائق، وثانيهما وطنية تتعلق باختطاف طائرة الوفد الخارجي للثورة، ثم سعى لتقديم ملفه والاستعداد ليوم الامتحان، وقد أكرمه المولى سبحانه بالتوفيق فكللت جهوده بالفوز والقبول، ونظرا لتمكنه وتفوقه أدمج في السنة الثانية مباشرة وواصل دراسته بجد واجتهاد حتى نال شهادة الأهلية سنة 1959م، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس العاصمة، درس فيه ثلاث سنوات نال من علومه ما شاء الله له.

شيوخه:

من الشيوخ الذين أدبوه وعلموه في بلدته بالجديدة، الطالب أحمد مباركي، والشيخ العروسي لحويتي وهو شيخ علم زيتوني متخصص في القراءات وفقيه لا يشق له غبار، فتح مدرسة حرة في الجديدة سنة 1953م، والشيخ العروسي بالغريسي، وهو شيخ عصامي متمكن في الفقه، ثابت الحجة[39]، ومن شيوخه في بلاد الجريد، بن حمد، وسي أحمد بالصالح، والشيخ علقمة، إضافة إلى شيوخ جامعة الزيتونة.

4. المشاركة في العمل السياسي:

لم تغب عن الشيخين القضية الوطنية خاصة أثناء إقامتهما في تونس، خلال فترة الخمسينات من القرن العشرين، فالرديف والمتلوي والكاف وتونس العاصمة أجواؤها وهواؤها نضال وكفاح، لجوء ومقاومة، ولم يكن الشيخان استثناء للقاعدة، فقد شهدا فصولا من مخاض الثورة والانتصار، حتى أن أحدهما كلفه ذلك الرسوب في دراسته بسبب انشغاله بالعمل السياسي[40]، وسنذكر شيئا من ذلك في الأسطر القادمة:

38- صالح فالح، مصدر سابق.

39- يقول عنه الشيخ حمد توبه: تتبعت جميع أجوبته وفتاويه التي يلقيها للناس، فلم أجد فيها ما يخالف الصواب.

40- ذكر لي الشيخ توبة أن من أسباب رسوبه في السنة الثانية بجامع الزيتونة اشتغاله بالسياسة والجلوس في المقاهي والمسارح لتتبع أخبار الثورة.

1.4. الشيخ مبروك اعواج الشامسي:

يقول الشيخ في مذكرته: "من الأعمال التي اهتممت بها كثيرا، واعتنيت بها عناية فائقة وملأت فراغ وقتي وحالت دوني ودون البحث العلمي الموسع لتأليف الكتب، هي النضال السياسي، لأني عشت في زمن الاستعمار وذقت مرارة ظلمه... فأثر ذلك فيَّ وغرس في نفسي حب النضال والروح الوطنية، فاشتغلت بالسياسة منذ نعومة أظفاري"[41]، ففي المعهد الزيتوني بتوزر أنشأ مع زملائه الطلبة نادي للأنشط الثقافية اللاصفية، كان الشيخ نائبا لرئيسه، يقوم ببرمجة محاضرات وندوات لأساتذة في شتى الفنون بما فيها السياسية، هدفها نشر الوعي والنضال المشترك للشعبين التونسي والجزائري، وهذا البعد الوحدوي جعله ينخرط في الكشافة التونسية، ويحضر اجتماعات وملتقيات الحزب الدستوري التونسي ويتحمس لنقاشاتهم السياسية، خاصة إبّان الخلاف بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف حول مسألة الاستقلال الداخلي: هل هي خطوة للأمام؟ أم خطوة للوراء؟ [42]

وفي ميدان النضال الوطني الجزائري، انخرط الشيخ مبكرا في اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، وشارك في اضراب الطلبة يوم 1956/05/19، والمظاهرات التي أقيمت في توزر[43] تنديدا باختطاف زعماء الثورة 1956، كما أجرت معه مجلة تصدر بدولة جنوب افريقيا حوارا ونشرت معه صورته سنة 1958 كعينة من اللاجئين الجزائريين في نضالها ضد الإمبريالية. وعشية الاستقلال تمكن من العودة إلى الوطن والمشاركة في استفتاء تقرير المصير سنة 1962. وتوّج نضاله السياسي بعد الاستقلال بالانخراط كعضو نشط في حزب جبهة التحرير الوطني، وترأس خلية تكسبت، وكان عضوا في خلية التوجيه التابعة لقسمة جبهة التحرير بالوادي، رفقة عمار بوصبيع وادريس مسطور[44]، والتي من مهامه الدعاية الحزبية والسياسية، وتنشيط المواعيد الانتخابية، وحشد المواطنين لمساندة برامج الدولة الفتية، وبحكم تكوينه الديني والثقافي فقد مارس الشيخ تحت مظلة الحزب نشاطا دعويا اجتماعية يتمحور في خمس نقاط هي:

- مكافحة الفساد: الرشوة والسرقة وتعاطي الخمور والمخدرات.
- المحافظة على الأملاك العمومية.
- الاتحاد ورصّ الصفوف ونبذ الجهوية.

41- الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص. 105.

42- ذكر الشيخ أنه كان يؤيد صالح بن يوسف.

43- انطلقت المسيرة من سوق توزر متجهة نحو الثكنة العسكرية الفرنسية، ينظر" الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص، ص. 106، 107

(44) المصدر نفسه، ص. 108.

- الإخلاص في العمل

وقد كلفه ذلك معارضة بعض الشخصيات النافذة في الحزب كرئيس القسمة، ثم تطور الخلاف بإحالة الشيخ ولجنته على مجلس التأديب وطردهم من الحزب[45].

2.4. الشيخ حمد توبه:

كل طلبة العلم بلا استثناء في تلك الفترة ارتووا من كأس السياسة، فما بالك بالطلبة اللاجئين في تونس، الذين احتضنتهم جبهة التحرير الوطني في خلاياها، وكانوا بذلك أقرب لدوائر صنع القرار، إضافة إلى هامش الحرية مقارنة بزملائهم في أرض الوطن، والشيخ توبه واحد من هؤلاء منذ كان طالبا في الرديف، انخرط في خلية تحت رئاسة المناضل "بده المكي"[46]، فكان من الالتزامات المفروضة على المنتسبين للخلية جمع الأخبار السياسية من المقاهي والجرائد والإذاعات[47]، كما كان الشيخ ينشط في نادي الشبيبة التابع للحزب ومن المهام الموكلة إليه بيع الجرائد وصور الزعماء، فكان بذلك على اتصال دائم بالشأن السياسي، ومن ذكرياته السياسية علاوة على جلوسه مع الطالب العربي وبعض القادة في الرديف، يذكر أنه زارهم ذات ليلة، وبات معهم في نفس الغرفة، قائد المنطقة الأولى "مصطفى بن بولعيد"[48] ولم يعلم بذلك إلا لاحقا.

وبعد الاستقلال واصل الشيخ نضاله الوطني السياسي، فشارك في أربع عهدات بلدية عضوا في مجالسها الشعبية، ينشد الإصلاح والتغيير، وترأس منظمة المكفوفين لأربع سنوات، مجتهدا في رفع انشغالاتها للمسؤولين، والأخذ بأيديها في تحدي المعيقات.

5. العودة لأرض الوطن ومعايشة أفراح الاستقلال:

كتب الله للشيخين أن يشهدا مخاض الحرية وولادة الاستقلال، وهما شابين مثقفين في مقتبل العمر، كلهم أمل في غروب شمس الاستدمار بلا رجعة، والتطلع لغد مشرق، كيف لا وقد نَحَتت تلك الأحداث في ذاكرتهم نحت المياه على الصخرة الصماء في الجبل الأشم، واسْأَلِ القرى التي كانوا فيها، والعير التي أقبلوا فيها تُنْبيك عن أمْسِهم ويومهم ومستقبلهم، فالشيخ مبروك منذ 1955م لم يُسمح له بدخول الوطن إلا بعد وقف إطلاق النار 19 مارس 1962م، وتلك ليلة ليلاء خرج فيها الجزائريون والتونسيون إلى الشوارع يحملون الرايات الوطنية، يصفقون ويرقصون، ويبكون فرحا بيوم الاستقلال، ومما يذكره الشيخ حمد توبة

45- الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص، ص. 108، 110.

46- صالح فالح، مصدر سابق.

47- كان الهدف من ذلك زيادة الوعي السياسي في أوساط اللاجئين وربطهم بقضيتهم الوطنية.

48- صالح فالح، مصدر سابق.

أن رفيقا لهم يدعى "عمارة نعرورة"[49] ضرب الجدار برأسه بكل قوة لما سمع خبر وقف إطلاق النار ونجاح الوفد الجزائري في مفاوضات ايفيان18 مارس 1962، حتى خشينا عليه أي يصيبه مكروه[50].

عاد الشيخان إلى أرض الوطن واستقرا فيها نهائيا في سنة 1963م، وطويت بذلك صفحة الدراسة والتكوين وانخرطا في ميدان الإمامة والدعوة والتعليم، لتنوير الأمة وتقديم زكاة علمهما للطلبة ولعامة الناس، وحق فيهم القول: من كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة.

6. الإمامة والدعوة والتعليم:

اشتغل الشيخان بالإمامة والدعوة والتعليم منذ أن عادا لأرض الوطن، أحرارا على طريقة شيوخ الجريد، ثم في الإطار الرسمي التابع لوزارة الأوقاف "الشؤون الدينية" بعد توظيفهما للإمامة، فكانت لهما صولات وجولات في ربوع المنطقة وضواحيها، واستمر حبهما للعلم والتعليم، فجالسا العلماء والفقهاء، وعلّما الشباب والصبية، وحاربا البدع والخرافات، فأرشدا الضّالين ونبّها الغافلين ما استطاعا إلى ذلك سبيلا، بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان لهما ما كان للدعاة والمصلحين، قبول واحترام وأحيانا جحودا ونكرانا.

6، 1 جهود الشيط مبروك:

بدأ الشيخ نشاطه بفتح مدرسة خاصة للتعليم العام بقرية الذُّكار، تقدم دروسا في العلوم الشرعية وتحفيظ القرآن الكريم وبعض العلوم الدنيوية؛ كاللغة والحساب، استمرت المدرسة سنة كاملة، لينتقل بعدها للتوظيف إماما خطيبا بمسجد "بابة ساسي" بتقرت سنة 1964م، فأتيحت له الفرصة لتقديم دروس ومحاضرات في الوعظ والإرشاد بين المغرب والعشاء، ودروس لتلاميذ المدارس النظامية خارج أوقات الدوام فيما يحتاجونه كدعم وتقوية، كما كانت له إطلالة على ساكنة تقرت عبر أثير إذاعتها شارحا لهم سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام. بقي الشيخ في تقرت ثلاث سنوات تعرّف فيها على شيوخ وأعيان المنطقة منهم الشيخ الطاهر العبيدي، والشيخ عز الدين عباسي والسيد الحشاني العمري[51].

انتقل الشيخ إلى تكسبت بالوادي كإمام لمسجدها العتيق منذ 1967م، حاملا مشعل العلم والدعوة، فبادر كعادته لفتح مدرسة حرة، سمّاها مدرسة ابن باديس القرآنية[52]،

49- هو الآن قاضي بالجزائر العاصمة.

50- صالح فالح، المصدر نفسه.

51- الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص. 91.

52- يقول الشيخ مبروك أن البناية المخصصة للمدرسة كانت في الأصل مدرسة بناها رجال الإصلاح من

بناها على أنقاض المدرسة القديمة بعد أن رمّمها وأثّثها، فكانت صرحا علميا يأتيه طلبة العلم من جميع دوائر الولاية وحتى من خارجها كتبسة وخنشلة وورقلة، وللتعليم في هذا المدرسة ثلاث مستويات، تتوج الدراسة فيها بشهادة معترف بها، فقد تمكن بعض منتسبيها من التوظيف بها في سلك المعلمين الممرنين، أو الدخول إلى المعهد الإسلامي وغيره.

بقي هذا الصرح على نشاطه عقدا كاملا، إلى أن ألغت وزارة التربية والتعليم أنذاك الاعتراف بشهادة المدارس الحرة، وكما يقول المثل: إذا سقط الجمل تكثر عليه السكاكين" فقد تآمر بعض أهل الحي على المدرسة وأرادوا افتكاكها وتحويلها إلى مرفق عام (مجمع إداري، ومكتب بريد، وقسم للكشافة...)، ظل الشيخ في خصام معهم حتى طاف عليها طائف وهم نائمون فأصبحت كالصريم، أحرقوا كتبها وكراريسها وكسروا طاولاتها ونهبوا بعض ممتلكاتها، ولسان حالهم ارحل عنّا. تفرّغ الشيخ بعد ذلك للإمامة وتعليم القرآن وتقديم دروس في الفقه المالكي وعلم الحديث، في مسجد تكسبت، ونقل مدرسته ومن بقي من تلاميذها إلى المسجد الذي أسسه في حي الشوامس بالقارة بين سنتي 1971 و1972[(53)]، وهكذا سار الشيخ بقية حياته المهنية، يطوف بين مساجد الولاية واعظا مرشدا ومصلحا بين الناس.

6. 2 جهود الشيط حمد توبه:

تعلق الشيخ توبه بالدعوة والتعليم مذ كان شابا يَدْرس في معاهد الزيتونة، وأدرك أن النخبة المثقفة هي التي تقود المجتمع وهي صانعة التغيير، وأن أولى الأولويات هي بناء الفرد وتكوينه، فحرص عند عودته إلى الوطن سنة 1963م في تقديم دروس دعم صيفية للتلاميذ وغيرهم من الشباب في قواعد اللغة والحساب، بمدرسة الحي "جلمة" كنوع من التعليم الحر كعادة شيوخه في بلاد الجريد، ثم اشتغل بالإمامة لفترة قصيرة في أحد مساجد قرية حساني عبد الكريم سنة 1969م[(54)].

قام الشيخ سنة 1969م بإجراء معادلة لمستواه الزيتوني بشهادة البكالوريا من جامعة

جمعية العلماء المسلمين بتكسبت عندما زارهم الشيخ ابن باديس سنة 1937م، ولكنها بقيت خاوية على عروشها، إلى أن أعاد لها الشيخ الحياة وعادت لما أسست له. المصدر نفسه، ص. 94.

53- اشترى الشيخ مبروك قطعة أرض بماله الخاص من محمد الصالح هبيته وتبرع بها لبناء هذا المسجد، وشاركه في بناءه كثير من المواطنين بالمنطقة، ثم انتدب له أحد طلبته ليؤم الناس في الصلاة.

54- ذكر الشيخ أن سبب توقفه عن الإمامة بهذا المسجد، ما بدى له أن تأسيسه كان سببه خصام بين جماعة المسجد القريب منه جدا، ما دفع فريقا منهم إلى ترميم زاوية قديمة وتحويلها لمسجد ودعي الشيخ لإمامتهم وهو لا يدري، فلما تبين له ذلك صارحهم بعدم جواز صلاة الجمعة فيه وفارق المسجد معتمدا على ما اطلع عليه في كتب الفقه المالكي وفي مقدمتهم "الميارة"، وقال لي الشيخ أنه وجد في هذه المسألة اثنان وثمانون قولا للسادة المالكية، أقواها ما ذهب إليه هو حسب اجتهاده.

باب الزوار بالعاصمة، ثم زكاه الشيخ عز الدين عباسي ليلتحق بالإمامة كموظف رسمي بداية من سنة 1972م بمدينة الوادي، بعدها انتقل إلى قريته بالجديدة متفرغا للإمامة والدعوة وتكوين الأئمة في ندواتهم الداخلية[55].

عُرف الشيخ بتركيزه على التوحيد واصلاح العقيدة ومحاربة المعتقدات الفاسدة، وحتى في تكوين الأئمة كان يصرّ على اختيار هذه المواضيع، لأنه يدرك مدى افتقار الناس لهذا الجانب وتقصيرهم فيه، وبالتالي كان لزاما على الشيوخ والعلماء تنوير الناس وإنقاذهم، واصل الشيخ مهمته الإصلاحية خارج المنبر، فقد فتح بيته لندوة مسائية بين العصر والمغرب [56]، لكل طالب علم وفقه، تدارس فيها مع جلسائه كثيرا من المواضيع والكتب ومن بينها كتاب إحياء علوم الدين.

لم يركن الشيخ في طلب العلم لما عنده من الزاد، بل ظل هواه يقوده لمجالس التذكير والتنوير، فكان من المواظبين على ملتقيات الفكر الإسلامي، يسافر إليها دون كلل أو ملل، ولغاية اليوم يدعو إلى تمكين الناس من الاستفادة من هذا الكنز العظيم والعلم الوفير الذي تزخر به سجلات ودفاتر تلك الملتقيات [57]. استغل الشيخ تلك الملتقيات في مرافقة العلماء والدعاة، فجلس مع الشيخ محمد الغزالي واستمتع بحديثه لما زار الدبيلة، وقد أكرمه هذا الأخير بأن قدّمه للصلاة بهم جماعة في صلاة المغرب، وهذه تزكية من الشيخ الغزالي للشيخ توبه لا زال يعتز بها.

من الملفات المحرجة أو قل المسكوت عنها آنذاك هي قضية تعليم المرأة، لأن المجتمع السوفي في تلك الأيام لازال حديث عهد بالبداوة، وبتعبير الشيخ حمد "البداوة متغلبة" خاصة لدى سكان القرى والضواحي، فكثير منهم يعتقد -أن ولده عندما يخدم نهار رملة في غوطه، أو يخدم حشّانة (نخلة) أو اثنين، خير من العلم كله-[58]، فمن الآباء من خاصم الشيخ وهجره، لا لشيء سوى أنه كان يحث أبناءهم على الدراسة ومواصلة طلب العلم ولو خارج البلدة، هذا عن الأولاد الذكور فما بالك بالبنات؟ ومع ذلك كان الشيخ يدعو لتعليم الأولاد ذكورا وإناثا، ولم تثنه أقوال المعارضين وتهكماتهم [59]، والحمد لله كثير منهم الآن

55- الشيخ حمد توبه، مصدر سابق.

56- كان لبيت الشيخ دارا مفتوحة للشارع، وهذا النوع من الهندسة إن جاز لنا القول كان موجودا في منطقة الوادي وتدعى "السقيفة"، فمن يبحث عنه خارج أوقات الصلاة يجده في هذه الدار، فكانت أشبه بمَحْضرة علمية.

57- صالح فالح، مصدر سابق.

58- حمد توبه، مصدر سابق.

59- من هذا التنابز الذي لقيه الشيخ من عامة الناس: "الطالب يقول أخرجوا بناتكم" وعن مجالس العلم يقولون: "الأولاد تجيبوهم للهملة والضياعة"؛ بمعنى مضيعة للوقت، في عمل غير منتج وغير مفيد،

إطارات في شتى الميادين تفتحت عقولهم وأبصارهم بفضل الله أولا ثم بفضل جهود أهل البصيرة.

7. خاتمة

للشيخين في ميدان الدعوة والتعليم باع كبير لا تحصيه هذه الأسطر، فقد أفنيا حياتهما كدّا وجدا منذ شبابهما يتنقلان بين مجالس التنوير والتحرير داخل الوطن وخارجه، بهمة عالية وطموح أهل العزائم، فلو عُدنا لذلك العصر لوجدناهما في كفاح بين ظلامين؛ ظلام فقدِ البصر وهو خاص بهما، وظلام الجهل الذي طال مجتمعهم ووطنهم، لكن إرادتهما كانت أقوى وبصيرتهما كانت أنفذ، فضربا مثلا لأولي الأبصار، في العلم والتعليم والدعوة كأسلافهما السابقين، فمن كدّ وجد ومن سار على الدرب وصل.

ومن خلال قراءتنا لهذه السيرة والمسيرة نقف على النقاط الآتية:

- فقد البصر ابتلاء ومحنة، لكنها عند أهل العزائم منحة ربانية تفتح البصيرة.
- التميز والنجاح ليس مشروطا بكمال الإمكانيات والوسائل، بل بقوة الإرادة والاستمرارية.
- للكفيف والمبصر رسالة واحدة على السواء، تنوير وتحرير الأمة على مر العصور والأيام.
- في سبيل الدعوة والتنوير وظّف الشيخان كل الوسائل المتاحة آنذاك؛ منصات السياسة ومنابر المساجد، والإعلام وكذا الجمعيات والهيئات الاجتماعية والثقافية والمهنية.

ولمن جاء يسألهم عن الشيخ يقولون له هو: ابحث عنه مع الذر (الصبيان)، مثل ما قالت العرب لأصحاب محمد صل الله عليه وسلم "صبأ فلان" - مع فارق القياس - والحقيقة كان الشيخ يجالس الشبان يعلمهم ويرشدهم لما يصلح بدينهم ودنياهم.

دور المراكز العلمية بالجنوب التونسي
في الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية لمنطقة وادي سوف

The role of scientific centers in southern Tunisia
In preserving the Arab and Islamic identity
of the Oued Souf region

د/ محمد العيد قدع
جامعة الوادي (الجزائر)
Fadrod077@gmail.com



ملخص: تتناول هذه الدراسة؛ أهم رافد للحياة العلمية بوادي سوف أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، وهي المراكز العلمية بالجنوب التونسي، وأهمها الزوايا وفروع الزيتونة بجنوب تونس، التي كان الطلبة السوافة يشدّون إليها الرحال نهلا للعلم وتوقا للمعرفة، وقد أبرزنا أمثلة من طلبة العلم من أهل سوف الذين كوّنوا أشبه بالبعثات العلمية الحرة نحو الجنوب التونسي، وبعد تخرج هؤلاء الطلبة وعودة أغلبهم إلى ديارهم، كان لهم تأثير بارز، في تولي مهمة تعليم أبناء المنطقة من طلاب العلم، ولم ينحصر دورهم في ميدان العلم، بل لهم دور جليل في ميدان الإصلاح، والوقوف سدّا منيعا أمام المخططات الاستعمارية الرامية للقضاء على الدين الإسلامي، ومحاربة اللغة العربية، وبالتالي كان من أبرز الأعمال الجليلة لأبناء سوف المهاجرين لمنطقة الجنوب التونسي قصد طلب العلم، هو الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية للمنطقة.

كما يبين هذا البحث بوضوح؛ حركة الهجرة المستمرة والحثيثة بين منطقتي وادي سوف والجنوب التونسي، ومتانة الأواصر بين المنطقتين، وكيف كان طلبة سوف حلقة وثيقة تربط منطقتهم والبلاد التونسية خاصة جنوبها.

الكلمات المفتاحية: وادي سوف؛ الجنوب التونسي؛ التعليم العربي الإسلامي؛ البعثات العلمية؛ حركة الإصلاح.

Abstract :
This study deals with; The most important tributary to scientific life in Oued Souf during the period of the French occupation, which are the scientific centers in southern Tunisia, the most important of which are the corners and the Zaytuna branches in southern Tunisia, to which the Swafa students used to travel for knowledge and a yearning for knowledge. Al Hurra towards the south of Tunisia, and after the graduation of these students and the return of most of them to their homes, they had a prominent influence in assuming the task of educating the people of the region from the students of knowledge, and their role was not limited to the field of science, but rather they had a great role in the field of reform, and standing as an impenetrable barrier against colonial plans

Aiming to eradicate the Islamic religion, and to fight the Arabic language, and thus one of the most prominent works of the sons of Souf who immigrated to the southern Tunisian region in order to seek knowledge, is to preserve the Arab and Islamic identity of the region.
As this research clearly shows; The continuous and intense migration movement between the regions of Oued Souf and southern Tunisia, the strength of the bonds between the two regions, and how the students of Souf were a close link linking their region and Tunisia, especially its south.
Keywords:
Oued Souf; southern Tunisia; Arab Islamic education; scientific missions; reform movement.

1. مقدمة

إن من أهداف الهجرة السعي لطلب العلم، وانطلاقا من هذا الهدف كانت أعداد كبيرة من طلبة العلم، يتركون أوطانهم، ذهابا إلى منابع العلم والمعرفة، فكانت تونس وخاصة جنوبها، قبلة لطلبة العلم من وادي سوف، ومردّ ذلك وجود مراكز علمية مزدهرة، أوّلها جامع الزيتونة وفرعه بتوزر، وكذلك زوايا توزر ونفطة.. وما تحتويه هذه المراكز تحت أساطينها، من شيوخ للعلم، أصحاب الصيت الذائع والعلم الغزير، وهو الأمر الذي كانت له انعكاساته على منطقة سوف، لاسيما العلمية منها، ما شكّل سدا منيعا أمام السياسة الاستعمارية الرامية إلى هدم الهوية العربية والإسلامية للمنطقة.

من هنا يمكننا التساؤل: كيف ساهمت المراكز العلمية بالجنوب التونسي في الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية لمنطقة وادي سوف؟

تهدف هذه الدراسة أساسا إلى معرفة الدور البارز الذي لعبته المراكز العلمية بالجنوب التونسي، في ترقية الحياة العلمية لمنطقة وادي سوف، ومن ثم ترسيخ التعليم العربي والإسلامي، وانعكاسه على الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية، بالإضافة إلى أن هذا البحث يبيّن بشكل واضح متانة العلاقات بين منطقتي سوف والجنوب التونسي.

وفي تتبع المادة العلمية للموضوع انتهجنا المنهج التاريخي السردي، والاستعانة بالمنهج التحليلي عند التعرض لبعض المعلومات، بغية قراءة الأحداث قراءة تكون أقرب ما تكون للموضوعية.

2- السياسة الاستعمارية في الجزائر لمحو الشخصية العربية والإسلامية

كانت خطة الاحتلال الفرنسي للقضاء على الشخصية العربية والإسلامية للجزائر تتمثل في ضرب المنظومة التعليمية، فعمد إلى سياسة تجهيل الجزائريين، لعلمه بأن العلم هو المحرك للأمم، المنّور للعقول والمجلّي للبصائر، فتوجه إلى إخماد صوته في البلاد، وما فتئ يبذل جهده لهدمه، بمعاول منها[1]:

---

(1) يحي بوعزيز: **أوضاع الجزائر خلال ثورة أول نوفمبر**، مجلة الشهاب الجديد، عدد03، الجزائر، 2004. ص286

- **القضاء على مؤسسات التعليم**: المتمثلة في المساجد والزوايا 2، إما بهدمها أو بتحويلها إلى
كنائس[3] أو بيعها وكرائها[4].

- **مصادرة الأحباس**: حيث بدأ بالسطو عليها من بداية الاحتلال، ثم اتخذ منحى قانونيا بقرار دي بورمون "De Bourmont" 08 سبتمبر 1830م الذي يحدد ملكية الدولة 5 وكانت هذه الأحباس تغطي نفقات تيسير المرافق الدينية، ورواتب القائمين عليها من مديرين وقيّمين ومدرسّين تكفيهم التكلف لطلب الرزق، وتعين طلبة العلم خاصة المعسرين منهم[6].

- **إصدار القوانين المجحفة**: التي تحدّ من النشاط التعليمي الحرّ، ومنها قانون 18 أكتوبر 1892، الذي يمنع أي معلم مسلم من إدارة أو فتح مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بترخيص مسبق، أما قانون 24 ديسمبر 1904م، فإنه وضع شروطا لفتح هذه المدارس أهمها: عدم تدريس اللغة العربية وآدابها، ولا الشريعة الإسلامية الغراء، ولا تاريخ الجزائر وجغرافيتها، ولا المواد العلمية والرياضية، وأن يكون المدرّس مواليا لإدارة الاحتلال، وأقله

---

(2) لأن هدم مسجد يعني هدم مدرسة، ومكتبة، ومكان للإرشاد والتوعية، ومأوى للطلبة...وغيرها. محمد مورو: **الجزائر تعود لمحمد** ﷺ، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، 1992م. ص 88.

(3) على سبيل المثال كان بمدينة الجزائر قبل الاحتلال 112 مسجدا بقي منها 05 مساجد، حوّلت سلطات الاحتلال أكابرها إلى كنائس، ومنها جامع كتشاوة "حوّل كاتدرائية" وجامع علي بتشين "أصبح قديسة الانتصار"، ومنها ما حوّل إلى مراكز للشرطة وحتى اسطبلات للخيول، وهدم الباقي، ووقع نفس الشيء لزوايا المدينة، ومنها زاوية المولى حسن، وزاوية شختون.. وقس على ذلك للمؤسسات الإسلامية في باقي المدن. أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط4، 1992م. ج1/ص 251 و ج2/ ص ص62-63؛ وأيضا: عبد الرشيد زروقة: **جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913-1940)**، دار الشهاب، بيروت- لبنان، 1420/1999. ص 27.

(4) أنظر أحمد توفيق المدني: **هذه هي الجزائر**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1956. ص ص140-143. وأبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية...المرجع السابق. ج2/ص61. وكذلك عمار عمورة: **موجز في تاريخ الجزائر**، دار ريحانة للنشر والتوزيع، القبة- الجزائر، 2002م. ص124.

(5) يحي بوعزيز: **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954**، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007. ص ص66، 67. وكذلك عبد الكامل عطية: (10/11 نوفمبر2013)، **نماذج من الرحلات العلمية للطلبة "السوافة" نحو القطر التونسي قبل اندلاع الثورة التحريرية 1954م**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.

(6) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية.. المرجع السابق. ج 1/ص 252. كذلك: عبد الرشيد زروقة: المرجع السابق. ص 26 وأيضا: رابح فلاحي: (1428هـ/2007-2008م)، **جامع الزيتونة والحركة الاصلاحية في الجزائر 1908-1954**، (ماجستير التاريخ الحديث والمعاصر)، قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الانسانية والاجتماعية- جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر. ص03.

ليس معارضا لها[7].

- **محاربة اللغة العربية**: منذ وطئت أقدام الاحتلال أرض الجزائر اعتبر العربية لغة أجنبية، ولما سمح لبعض الجزائريين بدخول المدارس الرسمية، كان تعليمهم فرنسيا بحتا، فاللغة هي الفرنسية، والوطن والتاريخ هو فرنسا وتاريخها المجيد..!![8]، وكان يريد وأد اللغة العربية وإحلال اللغة الفرنسية بديلا عنها ليكرّس هيمنته على البلاد والعباد[9].

- **محاربة الدين الإسلامي**: وذلك بمنع الاحتكام للشريعة الإسلامية واستبدالها بالقانون الفرنسي، وفي بعض المناطق للعادات والأعراف كما في بعض مناطق القبائل.

ونتيجة هذه الإجراءات يبيّن سارتر Sartre [10]، بأنها جعلت المسلمين شعبا من الأميين، بالارتفاع المهول لنسبة الأمية، التي وصلت إلى 92 % بين الرجال، أما النساء فنادرا ما تجد إحداهن تفكّ الخط، وهذا حتى العشرية الثانية من القرن 20م، وبهذا استحقت فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، لقب عهد الظلام بالنسبة للثقافة والتعليم[11]، وهو ما زعزع

(7) فرحات عباس: **ليل الاستعمار**، تر عبد العزيز بوباكير، دار القصبة- الجزائر، 2005م. وعبد الرشيد زروقة: مرجع سابق. ص25-31. وأيضا عبد الكامل عطية: مرجع سابق.

(8) جان بول سارتر: **عارنا في الجزائر**، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، دت. ص 18. وأيضا: أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، المرجع السابق. ص ص 140-141. وكذلك: عبد الرشيد زروقة: المرجع السابق. ص 27. وعبد العزيز الشهي: **الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار الغرب للنشر والتوزيع. ص37. وأيضا تركي رابح: **أصول التربية والتعليم**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1990. ص395.

(9) علي بن حراث: (11/10 نوفمبر2013)، **أسباب تركيز الرحلة العلمية الجزائرية على تونس**، مداخلة ضمن الملتقى الدولى حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر

(10) **جون بول** شارل ايمارد **سارتر Jean-Paul Sartre** (1905– 1980): فيلسوف وأدبي وناشط سياسي فرنسي، اشتهر لكونه غزير الإنتاج، وبفلسفته الوجودية، أما سياسيا فقد ناصر اليسار المتطرف، دعم سارتر الثورة الجزائرية، وباقي حركات التحرر، لكنه صمت أمام الجرائم الستالينية والانظمة الشيوعية، ودعمه المستميت للصهيونة، وله مؤلفات موالية للصهيونية، مثل كتابه "**تأملات في المسألة اليهودية**"، وأعلن أثناء زيارته إلى تل أبيب: "إن إسرائيل لها الحق في الوجود ويجب أن تَبقى قائمة"، وهو ما يفسر تكريم جامعة أورشليم الاسرائيلية له بلقب الدكتوراه الفخرية عام 7691م، ويفسر كذلك قبوله لهذا الوشاح، وقد عرف عنه رفض التكريمات، ومنها رفضه استلام جائزة نوبل في الآداب سنة 4691م. أنظر عبد الوهاب جعفر: **البنيوية في الانثربولوجيا وموقف سارتر منها**. دار المعارف، مصر، 9891م. ص ص751-951. وكذلك عبد القادر حميد: **لماذا حُرقت كتب جان بول سارتر بالجزائر؟** مقال نشر في جريدة المستقبل الالكترونية، يوم 2010/03/20.

(11) جان بول سارتر: المرجع السابق. ص18. وأيضا: سعد الله: الحركة الوطنية... المرجع السابق. ج1/ ص252.

الخلفية العربية والإسلامية للشعب الجزائري ومنه أهل سوف.

3- المنظومة التعليمية بوادي سوف:

بالنسبة للمنظومة التعليمية في الجزائر –ومنها وادي سوف- منذ احتلالها سنة 1830م إلى أن نالت استقلالها تنقسم إلى قسمين: تعليم رسمي حكومي، تشرف عليه حكومة الاحتلال عبر إدارة التعليم، وتعليم حرّ شعبي، ينتظم في المساجد والكتاتيب والزوايا والمدارس الحرّة.

أ ـ التعليم الرسمي الفرنسي:

هذا التعليم كرسته إدارة الاحتلال، بسنّ قوانين إجبارية التعليم ومجانيته في الطور الابتدائي[12]، ومن هذه القوانين مرسوم 1883/02/12م بدعم من جول فيري وزير التربية الوطنية الفرنسية، الذي ينص على تطوير التعليم الفرنسي بالجزائر، لأنه يرى أن المدرسة سلاح فعال للتغلب على مقاومة الجزائريين، فانتشرت المدارس الفرنسية بربوع الجزائر[13]، في كل مكان يقطنه المعمّرون[14]، حيث يدرس بها أولادهم، وبعض أولاد المسلمين الجزائريين، الذين تتراوح أعمارهم بين 06 و13 سنة 15، أما التعليم الثانوي فلم يكن له وجود في وادي سوف أثناء الاحتلال.

ومنطقة سوف لم تكن بمنأى عن السياسة الاستعمارية، ومنها في مجال التعليم، فبالنسبة للتعليم الرسمي الذي تشرف عليه حكومة الاحتلال، ظهرت أول مدرسة بالوادي عام 1886م، التي كانت تسمى "مدرسة الأهالي"، وتحتوي على أربعة أقسام وثلاث سكنات للمعلمين، لكن الإقبال عليها كان محتشما في حدود 08 تلاميذ، ثم ارتفع إلى 12 متمدرسا سنة 1890م[16]، ومن سنة تأسيسها عام 1886م إلى سنة 1900م، زاول بها 278 تلميذا، وفي

---

(12) أحمد توفيق المدني: **جغرافية القطر الجزائري**، مطبعة الشريف، تونس، دت. ص ص87-88. وكذلك: عز الدين معزة: (2009-2010م)، **فرحات عباس والحبيب بورقيبة "دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، 1899-2000"**، (دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر)، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر. ص ص61-62.

(13) عثمان زقب: **(2006/2005)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا**، رسالة ماجستير، مخ، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر- باتنة، الجزائر. ص ص39-40.

(14) **المعمّرون "les Colones"**: السكان الأوروبيون الذين قطنوا بالجزائر عقب احتلالها، وقد استحوذوا على خيرات البلاد واستأثروا بها دون أصحابها، الذين غدو أجراء مهانون عندهم.

(15) أحمد توفيق المدني: **كتاب الجزائر**، المطبعة العربية، دم، دت. ص 294 وأحمد توفيق المدني: جغرافية القطر الجزائري. ص 88.

(16) Ecole d''indigénes d''Eloued: **Registre Matricule des éléves admis à l''ecole du 1886 à 1904.** السجل بمدرسة ميهي محمد بلحاج – بلدية الوادي.

سنة 1893 افتتحت مدرسة أخرى بكوينين بها قسم واحد[17]، أما في سنة 1907 فقد تم إنجاز مدرسة بقمار بثلاثة أقسام، ووصل عدد المسجلين بالمدارس الثلاث 100 تلميذ عام 1903م[18]، ويعود هذا الإحجام إلى توجّس الناس منها، خيفة على دينهم[19].

وقبيل الحرب العالمية الثانية كان هناك ثلاث مدارس، في الوادي وقمار وكوينين، وكان بها 429 متمدرسا عام 1938م، منهم 5 تلميذات: فرنسية ومسلمتان ويهوديتان، ثم زاد عدد المدارس، فزاد عدد التلاميذ الذي وصل سنة 1948م إلى 780 تلميذا[20].

بالمحصلة فمنذ استقرار الفرنسيين بوادي سوف عام 1882م إلى خروجهم منها 1962 تمّ إنجاز 25 مدرسة ابتدائية ومتوسطتان، يقتصر وجودها تقريبا في أماكن وجود المعمرين[21].

السنوات	1903	1938	1945	1946	1947
ع. المدارس	03	03	04	05	09
ع.الأقسام	08	08	10	14	21

جدول تطور مؤسسات التعليم الفرنسي في سوف 1903-1947م[22]

(17) Ecole primaire preparatoire de garçons de Kuinine: **Registre Matricule des éléves de l''ecole du 01 Octobre 1921.** السجل بمدرسة ميهي محمد بلحاج – بلدية الوادي.

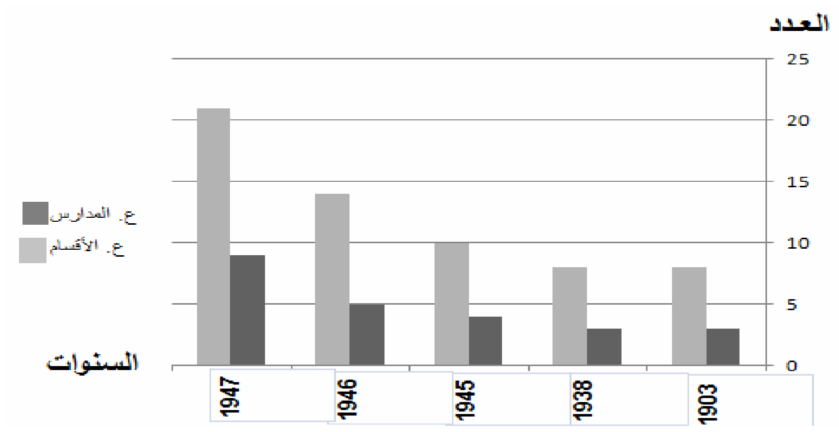
(18) Réalisation dans l'annexe d'El-oued, Document Algerien n°21, serie politique, 15 dec 1948. p 79.

(19) إبراهيم العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني العوامر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1397هـ/ 1977م. ص13. وكذلك علي غنابزية: (2008-2009)، **مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1300-1374هـ/1882-1954م**، رسالة دكتوراه، مخ، قسم التاريخ، جامعة الجزائر. ص 106. وأيضا عبد الكامل عطية: المرجع السابق.

(20) عثمان زقب: الأوضاع الاقتصادية..، المرجع السابق. ص 172.

(21) محمد العيد قدع: **الشيخ الحسين حمادي دوره الاجتماعي ونشاطه العلمي والتربوي بتونس ووادي سوف 1902-1982م**. مطبعة ذويب، الوادي-الجزائر، 2013. ص 33.

(22) Réalisation dans l'annexe d'Eloued: Op. Cit. p 79. La Scolarisation dans les territoires du sud: Réalisation des années 1945-1946-1947, document Algérien N° 14, 15 mars 1948. pp 91-93.



أعمدة بيانية لتطور مؤسسات التعليم الفرنسي في سوف بين 1903-1947م

ومن خلال الأعمدة البيانية يظهر التطور البطيء جدا للمرافق التعليمية، ففي فترة 40 سنة تم بناء 06 مدارس، أما عدد الأقسام فقد زاد بـ 13 قسما فقط. وللترغيب في هذا التعليم عمدت إدارة التعليم إلى إدراج عملية الإطعام المدرسي، الذي استفاد منه سنة 1948م 107 تلميذ من 604، وكانت البرامج فرنسية، وأغلب المعلمين فرنسيين 23، منهم أندري فوازان مؤلف كتاب مونوغرافيا سوف، مع إتباع أساليب لغسل أدمغة التلاميذ الجزائريين، بتلقينهم ما يخالف الحقيقة، ومنها: تدريسهم تاريخ فرنسا وجغرافيتها، وتلقينهم إن بلادنا تسمى قديما بلاد الغال le guale وأجدادنا الغاليون les gualois..[24].

ومع التعليم الابتدائي الرسمي، كان هناك تعليم "فني" مهني، هدفه إيجاد يد عاملة مؤطرة رخيصة وغافلة عن المطالب، لكن لا يغشاها من الجزائريين عدا القليل منهم 25، وبدأ الاهتمام به بداية القرن 20م، حيث تم بناء وتهيئة الورشات الخاصة بدروس التمهين، في تعليم نسيج الزرابي المنشأة بمدرستي الوادي وقمار، طبقا للقرار 13 أكتوبر 1908م 26، حيث لقي تشجيعا من الحاكم العام الفرنسي للجزائر[27]، ثم توسع حسب الأنشطة الاقتصادية المحلية المزاولة، والمواد الخام المتوفرة، مثل النسيج، الحدادة، النقش على الجبس، النجارة..، والانطلاقة الكبرى للتعليم المهني بالوادي كانت يوم 1947/10/01م،

---

(23) Gouverneur générale de l'Algerie: **Commissariat,** Op. Cit. p 412.

(24) مالك بن خليف: **الفكر السياسي عند العلامة عبد الحميد بن باديس**، دار طليطلة، الجزائر، 1432هـ/2010م. ص 76. وأيضا عثمان زقب: الأوضاع الاقتصادية... المرجع السابق. ص 174-176.

(25) المدني: كتاب الجزائر. ص ص 308-311 وجان بول سارتر: المرجع السابق. ص22.

(26) الأرشيف الوطني التونسي: مجموعة A. علبة 278. ملف 1/14. عبد الكامل عطية: المرجع السابق.

(27) Académie d'Alger: **bulletin Scolaire du du département de Constantine "Enseignement primaire"**, n° 7-8-9, Juillet-Aout-septembre, Année 1912. P 277.

بافتتاح مدرسة الدروس المهنية شمال محطة القطار، وبها ورشات النسيج والنجارة والحدادة ومصبغة ومخبر..[28].

إلا أن التعليم الفرنسي شهد ضعف الإقبال عليه من طرف الأهالي، خوفا على دينهم من الفرنسيين "الكفار"، ويقول الشيخ حمزة بوكوشة[29] في هذا الصدد: "كنا نفر من الفرنسية فرار السليم من الأجرب، لأننا لقّنا أن قراءة الفرنسية طريق للكفر، إن لم يكن هو الكفر بعينه"، كما لعب بعض الشيوخ والأئمة دورا في هذا الاتجاه، مثل تدريس العوامر لكتاب: "إرشاد الحيارى، وتحذير المسلمين من تعليم أولادهم في مدارس النصارى" للشيخ يوسف النبهاني[30].

ب ـ التعليم العربي الإسلامي "القرآني":

وبالموازاة مع المنظومة التعليمية الاستعمارية، توجد مراكز تعليمية أخرى، لم تصلها أيادي الاحتلال الآثمة، خاصة في المناطق النائية بالصحراء، التي بلغتها قوات الاحتلال في وقت متأخر، مثل منطقة وادي سوف، والتي كان التعليم العربي القرآني بها في كتاتيب المساجد والزوايا 31، وإن أصبحت تعاني من تضييق إدارة الاحتلال، فقد كانت بمثابة التعليم الابتدائي لأولاد المسلمين، حسب التوّجه والثقافة الأصيلة للجزائريين[32]. وقد اضطلع بهذا التعليم بعض المشايخ والعلماء، الذين أخذوا على عاتقهم همّ التعليم الأصيل بالجزائر، وبذلك وضعوا بذرة الإصلاح، ثم تبعهم فطاحل في نفس التوجه، ومن العوامل التي ساعدت في ذلك؛ رحلات الحج، وعودة بعض الشباب المتنورين، الذين باشروا دراستهم أو أكملوها، في أقطار عربية، وأهمها تونس سواء في جامع الزيتونة، أو في المراكز التعليمية بالجنوب التونسي[33].

---

(28) Capitaine Ferry: **traveaux dans l'annexe, plan d'urbanisme,** (1947-1948).

وعثمان زقب: الأوضاع الاقتصادية ... المرجع السابق. ص ص 39-40.

(29) **الشيخ حمزة بوكوشة** 1906-1994م: ولد بوادي سوف، وتلقى تعليمه في الكتاب بين الوادي وبسكرة، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة فواصل به تعليمه بين "1924-1930"، من المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأبرز ناشطيها، اشتغل بالتعليم والتأليف والكتابة الصحفية، حيث أسس جريدة المغرب العربي بوهران عام 1937، توفي بالجزائر العاصمة وبها قبر. محمد السعيد عقيب: **جمعية الشباب السوفي الزيتوني**، مجلة البحوث والدراسات-المركز الجامعي بالوادي-الجزائر، ع3، جمادى الأولى 1427هـ/جوان 2006م. ص69. وأبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1998. ص4-43.

(30) إبراهيم العوامر: المصدر السابق. ص 13؛ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق. ج4 / ص506.

(31) عثمان زقب: الأوضاع الاقتصادية..، المرجع السابق. ص 40.

(32) توفيق المدني: هذه هي الجزائر. ص ص144-145؛ المدني: جغرافية القطر الجزائري. ص90.

(33) سعد الله: الحركة الوطنية... المرجع السابق، ج 2، ص ص115-119/ج 4، ص ص163-169؛ رابح فلاحي: (1428هـ/2007-2008م)، **جامع الزيتونة والحركة الإصلاحية في الجزائر 1908-1954**،

وهذا التعليم كان يتم بطرق بسيطة للغاية، إذ يشتمل على تعليم الحروف كتابة ونطقا، وحفظ القرآن الكريم، ومبادئ اللغة العربية[34]، مورثة الأسلوب والمضمون، أما وسائله متواضعة، حيث يفترشون الحصير إن توفر، أو يقعدون على الرمل مباشرة، متحلقين حول الشيخ، الذي كان يقوم بالإملاء على التلاميذ آيات من القرآن الكريم، يكتبونها على ألواح من الخشب[35] مطلية بطين الصلصال، ومكتوبة بالصمغ، الذي يتم تحضيره بطريقة تقليدية، ثم يكررون ما كتب على اللوح في الفترة المسائية، ويقرؤونه بأصوات مرتفعة إلى أن يتم حفظ المكتوب، ثم يمحونه في الصباح الموالي، وهكذا تتم عملية الحفظ إلى أن يتم ختم القرآن الكريم، ولا تزال هذه الطريقة المتوارثة، منتشرة في بعض مساجد وادي سوف في تحفيظ القرآن الكريم[36]، وبين الفينة والأخرى يعطي بعض الشيوخ دروسا بسيطة في الفقه واللغة...، على حسب مستوى التلاميذ والظروف، والأهم تكوين الشيخ نفسه.

وكان الشيخ المعلم له هيبة وتبجيل بين السكان، وكذلك الصبي الذي يحفظ القرآن، حيث يولم أهله ويحتفى به[37]، بأن يطاف به في الحي بملابس جديدة، ويتم تقديمه للصلاة بالناس في صلاة التراويح، ويعد مفخرة لوالديه، وشرف للعائلة[38]، وبعض التلاميذ المتخرجين من الكتاتيب بسوف، يواصلون دراستهم في تونس خاصة بجامع الزيتونة[39]. ومن المساجد التي اشتهرت بتعليم القرآن في سوف نجد: جامع الظهارة بحي المصاعبة بالوادي، وجامع أولاد خليفة، وجامع جبيرات، وجامع زاوية سيدي سالم شمالي سوق الوادي، وجامع سيدي المسعود وسط سوق الوادي، وجامع الشيخ الحسين حمادي بالنخلة... وغيرها، دون أن ننسى دور الزوايا بمختلف اتجاهاتها في ذلك[40].

(ماجستير التاريخ الحديث والمعاصر)، قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر. ص ص 05- 10.

(34) أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر. ص ص144-145، وأيضا المدني: جغرافية القطر الجزائري. ص90.

(35) Ahmed Nadjah, Op. Cit. p1080.

(36) أحمد مريوش وآخرون: **الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، الجزائر، 2007. ص18.

(37) إبراهيم شويخ: (2018/2017)، **الرحلات العلمية وأثرها في الحياة الثقافية بمنطقة وادي سوف 1931-1969م**، مذكرة ماستر، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، الجزائر. ص 10.

38 (Ahmed Nadjah: **Le souf des Oasis**, Edition la maison des livres, Alger, 1971. p109.

وعلي غنابزية: **دراسات في تاريخ المقاومة الثقافية بالجزائر للحفاظ على الهوية الوطنية**، مطبعة مزوار، الوادي-الجزائر، 2011. ص21.

(39) A. Nadjah: Op. Cit. p 108.

(40) أحمد مريوش وآخرون: المرجع السابق. ص173.

وعن تعداد هذه المرافق التعليمية، فقد كانت منتشرة تقريبا بكل قرية وحيّ[41]، ثم طالتها يد إدارة الاحتلال بالتضييق والمنع، إلا بترخيص مسبق من القائد العسكري، وحسب التقرير السنوي لملحقة الوادي سنة 1938م، فإن عدد المدارس القرآنية التي كان مرخصا لها، بمنطقة سوف 84 مدرسة حرة للتعليم القرآني بها 1576 تلميذ، يضاف لها أربعة مدارس تابعة للزوايا، من ضمنها اثنتان أغلقتهما سلطات الاحتلال، بُعيْد اعتقال شيخ الزاوية القادرية بعميش عبد العزيز الشريف، وتوجدان في عميش والوادي، والأخريان هما مدرسة الزاوية التجانية بقمار وكان بها 54 تلميذا، ومدرسة زاوية سيدي سالم التابعة للطريقة الرحمانية العزوزية التي كان بها 60 تلميذا، منهم من خارج منطقة سوف، خاصة من وادي ريغ وبلاد النمامشة[42]، بالإضافة إلى المدارس الخاصة مثل مدرسة سعدودي ومدرسة القروي[43].

4- المراكز العلمية بالجنوب التونسي مقصد الطلبة السوافة:

إن ما اشتهر من المراكز العلمية التونسية، التي يقصدها طلبة العلم الجزائريين عامة، وطلبة وادي سوف بالخصوص، مركز من أشهر مراكز الإشعاع العلمي في العالم الإسلامي، وهو الجامع الأعظم "الزيتونة"، بيد أن الطلبة السوافة كان لهم مقصد آخر لطلب العلم والمعرفة، وهو المتمثل في المراكز العلمية بالجنوب التونسي، وتوجد كلها تقريبا ببلاد الجريد، وما يجذبهم إلى هذه المنابع، هو وجودها على مقربة من ديارهم، ولا تفصلهم عنه عدا يوم، الكثير منهم يطويها مشيا على الأقدام. ويميّز هذه المدارس زيادة على تقديم مختلف العلوم والفنون للطلبة، أنها تؤمن لهم المسكن والغذاء، عن طريق مختلف الأحباس، التي كانت عماد المجتمع الإسلامي إلى وقت قريب، كما لا ننسى في هذا المجال تبرعات المحسنين، وعليه فلا غرو إذا رأينا الاحتلال يعمد إلى محاربة الظاهرتين، لعلمه أنه بالاستيلاء على الأوقاف، والقضاء على ظاهرة التبرعات وهبات المحسنين، فإنه يقوم بتجفيف المنابع التي تزود هذه المراكز بما يلزمها من احتياجات، وتزيد في حياتها وتواصل نشاطها، بل وازدهار عملها[44].

---

(41) Ahmed Nadjah, Op. Cit. p108.

(42) Général P. J. André: **Confreries Religieuse Musulmanes,** Edition la maison de livre, Alger, 1956. P 277.

(43) علي غنابزية: **دراسة تاريخية لمناهج تعليم القرآن الكريم بين الماضي والحاضر "مجتمع وادي سوف نموذجا"**، مجلة البحوث والدراسات-المركز الجامعي بالوادي-الجزائر، ع4، محرم1428هـ/يناير2007م. ص70.

(44) محمد العيد قدع: **الجهود التعليمية للشيخين ابن عاشور وابن باديس- دراسة مقارنة**، مطبعة نور للنشر، ألمانيا، 2017. ص 36؛ **هجرة الجزائريين إلى تونس بين تلبية الحاجيات الاجتماعية وإحداث التكامل الثقافي في النصف الأول من القرن 14هـ/20م. (وادي سوف أنموذجا)**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس 11/10

ومن أبرز هذه المراكز:

الزاوية القادرية بنفطة "لمؤسسها الشيخ إبراهيم بن احمد الشريف".

الزاوية الرحمانية العزوزية بنفطة "لمؤسسها الشيخ مصطفى بن عزوز".

الزاوية القادرية بتوزر "وأشهر شيوخها المولدي بوعرقية".

المعهد الزيتوني بتوزر "المسمى جامع الفركوس".

5- البعثات العلمية من سوف نحو الجنوب التونسي:

بعدما حيل بينهم وبين نور العلم، وبسبب ضعف مناهله ببلادهم، اضطر أبناء وادي سوف الذين أتيحت لهم الفرص، إلى الاغتراب في سبيل التعليم الذي يلائم توجههم الفكري، وخلفيتهم الثقافية العربية، فكان أغلبهم يؤمّون زوايا الجنوب التونسي، وجامع الزيتونة المعمور، ولاحقا فروعه خاصة فرعي توزر ثم قفصة[45].

6-1 **أسبابها:**

اجتمعت للهجرات العلمية السوفية، نحو المراكز العلمية للجنوب التونسي، عدة أسباب أهمها:

أـ السبب التاريخي:

إن الرحلة قديمة عند العرب، ولما جاء الإسلام أصبحت لها خصوصيات في مجالات متعددة، ومنها المجال العلمي، ابتداء من طلب العلم وتنمية المعارف وتجديدها، وتلقي الإجازات في مختلف الفنون، مرورا بجمع العلوم والآثار، مثلما فعل جامعي الأحاديث النبوية والسير..، وانتهاء بتعارف العلماء وتواصلهم، والتراث الإسلامي مليء بمدح هذه الهجرة والحضّ عليها، وهو ما دأب عليه أهل سوف، طلبة وعلماء بالهجرة إلى الجنوب التونسي، وبادلهم علماء الجنوب بزيارات لسوف تعارفا وتعرّفا ونشرا للعلوم.

ب ـ السبب الثقافي:

وهو ازدهار الحياة العلمية بتونس، فقد كانت أرحب مجالا وأكثر اهتماما، مقارنة لما عليه الحال في الجزائر عموما، ومنها منطقة سوف، التي تعاني تخلفا كبيرا في هذا المجال، والملاحظ أن هذه المفارقة موجودة على مر العصور، فقد كانت تونس سباقة في هذا المجال[46]، وما وجود جامع الزيتونة، وفروعه ومنها فرع توزر وقفصة بالجنوب التونسي، إلا مظهر من مظاهر هذا السبق، وهو ما قلل من تأثير السياسة الاستعمارية على الثقافة

نوفمبر2013، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.

(45) أبو القاسم سعد الله: **تجارب في الأدب والرحلة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م. ص 41. وأيضا محمد السعيد عقيب: **جمعية الشباب السوفي الزيتوني**، مجلة البحوث والدراسات-المركز الجامعي بالوادي-الجزائر، ع3، جمادى الاولى 1427هـ/جوان 2006م. ص63.

(46) محمد الطاهر ابن عاشور: **أليس الصبح بقريب؟** "التعليم العربي الإسلامي"، دار سحنون، تونس، ط3، 2010م. ص99. وكذلك علي بن حراث: المرجع السابق.

العربية بتونس، وبالمقابل خلو الجزائر من صرح علمي بحجم الزيتونة[47]، بالرغم من وجود بعض المراكز بقسنطينة وبجاية...، وبعض الكتاتيب البسيطة في المساجد، أو الزوايا الكثير منها شغلها الشاغل هو ربط المريدين بالطريقة الصوفية، أكثر من اضطلاعها بسد الفراغ في المجال الثقافي، مع عملية التضييق التي مارسها الاحتلال ضد عملية التنوير[48]. وتكتمل الحلقة بسياسة الإبعاد، التي مارسها العدو ضد كل من يلمس فيهم خطرا عليه، وهجرة الآخرين متوجهين إلى قواعد الثقافة التي تلائم تكوينهم، ولم ينصرم النصف الأول من القرن 19م، حتى لم يبق سوى القليل ممن يدافع عن المصالح الحضارية للجزائريين[49].

ج ـ السبب الجغرافي:

إن المتاخمة الحدودية بين وادي سوف والجنوب التونسي، شكّل ولا يزال جسرا للتواصل المستمر على مرّ العصور، فكان هذا سببا في تحول أنظار طلاب العلم من منطقة سوف، إلى المدارس التعليمية بزوايا الجنوب التونسي، قبل التوجه للزيتونة، لريّ غليلهم في تلقي مختلف العلوم[50].

د ـ السبب السياسي:

طبق الاستدمار الفرنسي في الجزائر، سياسة استعمارية مقيتة، مبنية على الحيف والجور، ومن ضمنها محاولة المسخ للهوية الجزائرية، المؤسسة على اللغة العربية والدين الإسلامي، ولا يتأتّى ذلك إلا بمحاربة التعليم العربي وإتباع سياسة تجهيل ممنهجة، بالقضاء على الثقافة الإسلامية، وتجفيف منابعها، ومع وجود الاحتلال في كلا البلدين؛ تونس والجزائر، فلا يجب التغاضي على نوع الاحتلال في تونس "الحماية"، التي هي أقل وطأة وتأثيرا من الاحتلال في الجزائر "الاستعمار المباشر"، فكان هذا سببا قويا في توجيه الهجرة لطلب العلم إلى خارج الجزائر، والأقرب لأبناء سوف هو منطقة الجنوب التونسي[51].

هـ ـ شهرة المراكز العلمية بالجنوب التونسي:

إن السمعة العلمية التي اكتسبها جامع الزيتونة، ومنها فرعه بتوزر، وكذلك مختلف الزوايا بالمنطقة، مثل زاوية الشيخ ابرهيم بن أحمد القادرية بنفطة، وزاوية الشيخ مصطفى بن عزوز الرحمانية بنفطة 52 كذلك، وزاوية المولدي بوعرقية القادرية بتوزر...

---

(47) أبو القاسم سعد الله، **أفكار جامحة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988. ص56.

(48) أبو القاسم سعد الله، **قضايا شائكة**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990. ص 126.

(49) سعد الله: أفكار...، المرجع السابق، ص62.

(50) محمد الصالح الجابري: **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م-1962م**، الدار العربية للكتاب، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس والجزائر، 1983م. ص23؛ محمد السعيد عقيب: جمعية...المرجع السابق. ص63.

(51) علي بن حراث: المرجع السابق.

(52) رغم صغر مدينة نفطة آنذاك، فقد كانت تعجّ بشيوخ العلم وحلقاته، وبها الكثير من المساجد، بلغ عددها مع الزوايا 82 مسجدا وزاوية، مما حدا ببعضهم إلى تسميتها بالكوفة الصغرى، وكذلك المدينة

وغيرها، جعل الطلبة السوافة يشدّون الرّحال إلى هذه المراكز العلمية الشهيرة، بالإضافة إلى ما تمثله هذه المدارس من مراكز جذب روحية، تهفو إليها الأفئدة، وترنو لها القلوب وتشرئب لها الأعناق[53].

أضف إلى ما سبق كفاءة شيوخ العلم هناك، ووزنهم وشهرتهم العلمية، نتيجة تمكنهم العلمي، وخبرتهم الواسعة في هذا المجال، وتنوع المواد الدراسية، حيث يدرس الفرع الزيتوني بتوزر العلوم الحديثة كالرياضيات والفلك والكيمياء ... وغيرها من العلوم[54] وإن كانت بسيطة، وبهذا نستشفّ التطور، الذي وصلت إليه منطقة الجنوب التونسي في تلك الفترة، مقارنة بمنطقة سوف التي تعاني عوزا كبيرا في هذا المجال.

و ـ المهاجرون السوافة بالجنوب التونسي:

إن وجود السوافة بتونس عموما وببلاد الجريد بصفة خاصة، متّن العلاقات الاجتماعية من جهة[55]، ومن جهة أخرى كان هذا مشجعا لطالب العلم على الانتقال، حيث يوجد من يأنس إليه، ويسليه البعد عن مضارب الأهل، ويتلقّى منهم بعض المساعدات، وفي هذا الإطار يذكر الشيخ مبروك الشامسي: أنه كان يسكن بنفطة ويدرس بالفرع الزيتوني بتوزر، وكان ضريرا ومقلا، فكان يقلّه سائق حافلة أصله من سوف ويدعى العربي بالشاوش مجانا أسبوعا بعد أسبوع، كما كان هناك تاجر من سوف يسمى نصر واجده عرض خدماته على الطلاب السوافة، من كان موسرا يدفع ثمن المقتنيات وإلا عفا الله عنه، كما كان الطلبة النفطيين من رفقته، خير معين له وأحسن عاضد، حيث يهيؤون طعامه وشرابه ويقومون بحاجاته[56].

ز ـ الطلبة السابقين:

إن الطلبة السوافة العائدين من تونس، خاصة الذين أنهوا دراستهم، أبهروا العامة

المقدسة للجريد. لقاء مع الشيخ حمد توبة، بمنزله بقرية جلمة بلدية المقرن-ولاية الوادي، يوم 2012/01/14، 16:00؛ أوغست–أنطوان دي باتي دي كلام: **ومضات من تاريخ نفطة**، تع لطفي الطرودي، مطبعة الجريد، نفطة، 2009. ص32.

لكن الأرجح أن مصدر هذه التسمية لانتشار التشيع بها قديما. محمد الصالح مرمول: **السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983. ص ص 32-33.

(53) محمد الشاذلي النيفر: **زيتونة يكاد زيتها يضيء**، جريدة الزيتونة، السنة 01، العدد 02، نوفمبر1953. ص01. وعلي بن حراث: المرجع السابق.

(54) محمد علي دبّوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، المطبعة العربية، الجزائر، 1971م. ج2 ص ص16-17.

(55) لعلّ من بين أهم مظاهر هذا الانصهار والتلاحم، والتأثير والتأثر بين المنطقتين، وجود عدة ألقاب مشتركة، منها: (سوفي، توانسة، عاشور، زلاسي، دقاشي، مسغوني، همامي، غريب،...).

(56) مبروك الشامسي: **مذكرات نفيسة**، مؤسسة إيموبال المطبعة العصرية-الوادي، الجزائر، د.ط، دت. ص ص 55-56.

بعلومهم التي تفوق نوعا وكما، ما هو موجود لدى الشيوخ المتصدرين للتدريس في سوف، خاصة المتكونين محليا، فقد كانت معارفهم لا تعدو أن تكون تحفيظ القرآن[57] الكريم والخط، وفي أحسن الحالات تقديم بعض الدروس السطحية في فقه العبادات، فكان لهؤلاء الطلبة دور مهم في توجيه الرحلة العلمية صوب المراكز العلمية بالجنوب التونسي، حيث وجد الكثير من السوافة في الفرع الزيتوني وزوايا وكتاتيب نفطة وتوزر مستقرا ومقاما لتلقي مختلف العلوم[58]. وبذلك كان عدد الطلبة بتونس يزداد من سنة لأخرى، وهذا بفضل الطلبة القدامى المتخرجين، أو الزائرين لأهليهم في العطل، فيزيدون من نشر الوعي ويرغّبون الشباب في الرحيل لتونس بغرض طلب العلم، فكان لذلك أثر كبير على أقرانهم، من الذين يتوقون للتزود من مختلف العلوم، ووجدوا الأبواب موصدة أمامهم ببلدهم سوف[59].

ح- التهرّب من الخدمة العسكرية:

وهو سبب غير مباشر، يبدأ بهروب الشباب خوفا من أن يقعوا تحت طائلة التجنيد في الجيش الفرنسي، ثم لا يلبث المهاجر أن يبدأ بممارسة حياته في وطنه الجديد، التي تنتهي به أحيانا إلى طلب العلم، بإحدى الزوايا التي احتضنته في غربته[60].

6- البعثات العلمية من وادي سوف نحو الجنوب التونسي:

وللأسباب سالفة الذكر؛ شدّ كثير من شباب منطقة وادي سوف الرحال إلى مراتع العلم ومنابعه، وأقربها لهم منطقة الجنوب التونسي، حيث الحركة العلمية تشهد نشاطا لافتا في ذلك الوقت، بفضل نشاط الزوايا، وخاصة الزاويتين القادرية والرحمانية والفرع الزيتوني في مسجد الفركوس بتوزر، وكان كثير من أساطين العلم يجوبون تلك المراكز، حيث شكل الشباب المهاجر لأجل العلم، أشبه بالبعثات العلمية بالمفهوم الحالي، وهي هجرات تقتصر مدة إقامتها في الغالب، على سنوات طلب العلم والتحصيل، والانتفاع من

---

(57) عثمان زقب: (11/10 نوفمبر2013)، **نماذج من سياسة التقييد والرقابة للإدارة الاستعمارية على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881-1954 (وادي سوف أنموذجا)**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولى حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.

(58) عاشوري قمعون: **العلاقات الثقافية بين منطقة سوف وبلاد الجريد التونسية**، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، س41، ع 160، جويلية/يوليو 2015. ص 149.

59- Jamel Haggui: **les Algériens du sud dans la ville de Tunis pendent l'époque colonial 1881-1956 "Mozabite, Soufis, Ouarglias",** mémoire de D. E. A., Université de manouba, Année Universitaire 2003-2004. p87 .

مبروك الشامسي: المصدر السابق. ص51.

(60) عبد الحميد زوزو: **الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985. ص 46.

المراكز العلمية التونسية بالجنوب[61]. وعلى الرغم من مساعدة أهل البر والإحسان، لطلبة العلم بتوفير المسكن والمعاش، فقد يضطر الطلبة إلى تأمين حاجياتهم بأنفسهم، من خلال إقدام بعضهم على استئجار بيت بصورة جماعية، وهذا بدوره يدفعهم للعمل، قصد جمع المال اللازم لتغطية المصاريف المترتبة عن اكتراء المسكن، وتوفير ما يسد الرمق من المأكل[62]. ومن هذه الهجرات ما يمتد حتى بعد تخرج طالب العلم، وقراره مغادرة حلق العلم، بعدما تبين له أنه أخذ حظا وافرا من العلم والمعرفة، أو اضطرته الظروف لإنهاء دراسته، كالفاقة ومرض أحد الوالدين، وغيرها من الأسباب الشخصية، وما يميز هذه البعثات أن أغلبها فردية حرة، لا تتبع لأي جهة رسمية.

7- **أبرز طلبة وادي سوف بالجنوب التونسي:**

كثير من طالبي العلم من أبناء الشرق والجنوب الشرقي الجزائري، كانوا يفدون إلى زوايا الجنوب التونسي للتعلم[63]، وتخرّج منها رعيلٌ منهم علماء أفذاذ، طبقت شهرتهم الآفاق مثل الشيخ محمد الأخضر بن حسين، والشيخ محمد بن السايح اللقاني، والشيخ المكي بن عزوز، وعاشور الخنقي ... وغيرهم.

وسنتطرق هاهنا لذكر عينة من بعض الطلبة السوافة، الذين زاولوا دراستهم أو جزء منها في منطقة الجنوب التونسي، وكان لهم صيت في العلم، ودور في بعث الحياة العلمية بسوف وحتى بتونس، مع العلم أن كثير من الأفذاذ في هذا المجال من طواهم النسيان، ولم يبق من ذكرهم عدا الاسم، ولا يوجد معلومات حول سيرهم الذاتية أو العلمية، ناهيك بمن لم تحفظ الذاكرة الجماعية حتى أسماءهم. وعلى ذكر أسماء هؤلاء الطلبة، فقد سبقتهم مجموعة، انتقلت لتونس بغية طلب العلم من معينه، واستوطن بعضهم هناك، ومنهم من ساهم في ربط الاتصال بين المنطقتين، وسعى لتوفير الظروف لغيره ممن حذا حذوه، وهم كثر[64].

ومن طلبة العلم الذين شدوا الرحال إلى منطقة الجنوب التونسي، سعيا للاغتراف من مختلف العلوم الشرعية واللغوية، نذكر:

---

(61) علي غنابزية: دراسة تاريخية... المرجع السابق. ص69.

(62) محمد الطاهر التليلي: **هذه حياتي**، من إصدارات دار الثقافة-ولاية الوادي، سامي للطباعة والنشر والتوزيع، الوادي-الجزائر، 2017. ص23.

(63) محمد السعيد قاصري: (11/10 نوفمبر2013)، **الطرق الصوفية ودورها في التواصل الحضاري والثقافي بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.

(64) عمار هلال: **العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين 19-20م/13-14 هـ**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995. ص 83.

أ ـ الشيخ أحمد بن محمد دغمان:

ولد الشيخ أحمد دغمان 1876 ببلدة قمار، وفي كتّاب الحي حفظ القرآن ونال بعض العلوم، ثم انتقل إلى الجريد التونسي، شأنه شأن أبناء المنطقة في القرن 19م، ومن هناك توجه إلى جامع الزيتونة، حيث يعتبر من أبرز طلبة سوف الذين زاولوا دراستهم بالجامع الأعظم، وبعد تخرجه زاول التدريس بمدينة الكاف التونسية، ثم استقدمته زاوية قمار التجانية مدرسا وقاضيا، وكانت له مكاتبات مع الشيخ المكي بن عزوز، وتتضمن مراسلات علمية وأدبية وفقهية[65].

ب ـ الشيخ الحاج أحمد بالقيم:

ولد الشيخ بالقيم عام 1840 ببلدة قمار، وبها نشأ وبدأ أول تعلمه، ثم رحل للجريد التونسي، لإكمال تعليمه الذي زاوله بزاوية مصطفى بن عزوز بنفطة، كما زاد تعلما للفقه على يد قاضي قمار الشيخ لخضر حمانة، كان يختم القرآن أسبوعيا، وقضى حياته في التدريس، إلى وفاته سنة 1328هـ/1910م[66].

ج ـ الشيخ إبراهيم العوامر:

العلامة الموسوعي، رجل الدين والتاريخ والقضاء، الشاعر الأديب الأريب، صاحب كتاب الصروف، الشيخ إبراهيم بن محمد الساسي بن محمد بن عامر الملقب بالعوامر، أسرته حديثة الوجود نسبيا بالوادي حيث انتسبت لعرش الشبابطة من قبيلة المصاعبة، ولد سنة 1881م بالوادي، وتربى في بيت متوسط الحال، إذ كان والده بائع صوف في بلدة قمار، حيث كان يصحب ابنه إبراهيم للمتجر ليستعين به وليهيئه للتجارة، وفي نفس الوقت – وكعادة أترابه- كان يحفظ القرآن الكريم، وتلقى دروسا على يد بعض المعلمين، في اللغة "متن الأجرومية" وفي الفقه "متن ابن عاشر"، فحدث تحوّل في شخصيته إذ أصبح مولعا بالمعرفة ينشد العلم حيث كان، ويترصد حلقاته بلهفة وشغف[67].

ولما بلغ أشدّه تجلّت رغبته في الاغتراف من مناهل المعرفة، فارتحل إلى نفطة بالجنوب التونسي وأخذ عن كبار مشايخها في زاوية مصطفى بن عزوز، وبعد عودته إلى الوادي ربط

---

(65) عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر**-من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت-لبنان، ط2، 1400هـ/1980م. ص142؛ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي... المرجع السابق. ج4/ ص498.

(66) أنظر علي غنابزية: **مساهمات علماء وادي سوف في النهضة العلمية والحركة الصحفية الوطنية 1900-1986**، إصدار مديرية الثقافة بالوادي، مطبعة مزوار-الوادي، الجزائر، 2014. ص 25-26. وأيضا إبراهيم العوامر: المصدر السابق. ص234.

(67) ينظر: عاشوري قمعون: **ديوان الشيخ العلامة إبراهيم بن عامر السوفي 1351-1292/1875-1932م**، مديرية الثقافة، مطبعة مزوار-الوادي، الجزائر، 2013. ص 11؛ سعد العمامرة وأحمد منصوري: **أعلام من سوف**، شركة مزوار للطباعة والنشر والإشهار والتوزيع، الوادي. ص30.

صلته بالشيخين عبد الرحمان العمودي[68] ومحمد العربي بن موسى، اللذيْن ألحّا عليه مواصلة طريق العلم، الأمر الذي شجعه على الالتحاق بجامع الزيتونة، حيث تتلمذ على علمائها أمثال الشيخ النخلي والشيخ حسن بن يوسف والشيخ محمد الأخضر بن حسين، الذي زار سوف عام 1905م وكان لهذه الزيارة تأثير في تلميذه ابن عامر، منها طباعته لكتابين في نفس العام[69].

بعد تخرج العوامر من جامع الزيتونة استقر به المقام بوادي سوف، فكانت حياته حافلة بالكثير من الأعمال الجليلة، نذكر منها: التدريس والفتوى والإرشاد والتأليف، فقد كان يقدّم دروسا في جامع سيدي المسعود ومسجد سيدي سالم ومسجد النخلة.. للصغار والكبار، حيث كان يحذر المسلمين من تدريس أولادهم في المدارس الفرنسية، ومن أشهر تلاميذ الشيخ ابن عامر: الميداني موساوي، الهاشمي حسني، لزهاري الحرزولي، حمزة بوكوشة... وغيرهم. كما تولى العمل في سلك القضاء في الوادي وأولاد جلال وتقرت، وكان له نشاط فكري معتبر في المنطقة، ورغم قصر حياته إلا أنه خلف ثروة علمية وأدبية ثرية، بين المطبوع والمخطوط نذكر منها[70]:

- مواهب الكافي على التبر الصافي طبع بتونس سنة 1905.
- الصروف في تاريخ سوف الذي طبع سنة 1977م.
- الجواهر الحسان في بعض ما يتعلق بالمعلمين والمتعلمين من حملة القرآن.
- رسالة منظومة في الفلك، فيها تقريبا نحو خمسمائة بيت.
- تقريرات على كتاب الرحمة في الطب والحكمة.

وغيرها من المؤلفات التي تؤكد على مكانة صاحبها المرموقة، بين العلماء في سوف وغيرها، وقد توفي الشيخ ابن عامر سنة 1932 عن عمر يناهز 51 سنة رحمه الله.

د ـ الشيخ الحسين حمادي:

ولد الشيخ الحسين حمادي بالنخلة سنة 1902م، بدأ تعليمه على يد والده علي حمادي إمام القرية، ثم انتقل إلى نفطة بالجنوب التونسي لإتمام دراسته وعمره حوالي 12

(68) **الشيخ عبد الرحمان العمودي**: توفي بالوادي عام 1327هـ/1910م، كانت له مراسلات إخوانية وعلمية مع الشيخ محمد المكي بن عزوز النفطي. مصطفى سالمي: **الدر المصفى من تقاييد الشيخ سالمي مصطفى**، جمع وتصنيف وتعليق علي غنابزية، مخ، "لدي نسخة منه". ص 20.

(69) علي غنابزية: **رحلات الشيخ محمد الخضر حسين للجزائر (1903-1905) أهدافها الاستراتيجية وأثرها على الحركة العلمية بالمجتمع الجزائري**، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات مؤسسة التميمي-تونس، س41، ع 155/154، فيفري/شباط 2014. ص58.

(70) عاشوري قمعون: ديوان الشيخ العلامة.. المرجع السابق. ص ص 41-53؛ سعد العمامرة وأحمد منصوري: المرجع السابق. ص 32.

سنة[71]، فدرس بزاوية الشيخ إبراهيم بن أحمد القادرية، حيث تلقى العلم على علماء المنطقة، القارين منهم مثل الشيخ الصمادح والشيخ محمد بن حمد..، أو الشيوخ الزوار الذين يزورون الزاوية من حين لآخر، مثل الشيخ لحْبَيّب. وبعد مكوثه ثماني سنوات تقريبا في مجالس العلم، وبسبب العوز وقلة ذات اليد، اضطر للتوقف عن الدراسة والبحث عن عمل، يساعد به والده المتفرغ للإمامة وتعليم القرآن بالنخلة، فانتهى به المطاف إلى حي أولاد لعمامي ببلدة المكناسي، الذين طلبوا منه المكوث عندهم لتعليم أبنائهم[72].

وفي أثناء إقامته بأولاد لعمامي، تردّد على جامع الزيتونة لإتمام دراسته، فكان في حلقة واحدة مع طلبة أصبحوا لاحقا شيوخا يشار إليهم بالبنان، مثل مفتي الديار التونسية الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، كما كان معه في نفس الفترة طلبة من وادي سوف، منهم الشيخ محمد الطاهر التليلي والشيخ عبد القادر الياجوري والشيخ علي بن سعد خرن، وكانت دراسته على شيوخ أفذاذ مثل: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور[73]، والشيخ محمد النيفر..، لكنه لم يتم دراسته بالزيتونة بسبب إضراب الطلبة سنة1351هـ/1932م الذي وقع في الزيتونة إثر محنة التجنيس[74]، فلم تقع الامتحانات، وعليه لم تحسب تلك السنة للطلبة، لكن الشيخ الحسين لم يعد للدراسة في قابل العام. وبقي حوالي 18 عاما في تونس ينشر علمه، ولم تنته رسالته تلك في تونس إلا بوفاة والده حوالي سنة 1940م، حيث أوصاه بخلافته على مسجد النخلة، فكان خير خليفة له، إذ تحمل أعباء الإمامة والتدريس والفتوى وإصلاح ذات البين ... إلى أن وافاه أجله المحتوم يوم 15 أفريل سنة 1982م رحمه

---

(71) انظر محمد السعيد عقيب: (11/10 نوفمبر2013)، **الشيخ الحسين حمادي ونشاطه التعليمي في تونس ووادي سوف**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.

(72) محمد السعيد عقيب: الشيخ الحسين ... المرجع السابق.

(73) **محمد الطاهر ابن عاشور** 1879-1973: عالم وفقيه تونسي، أصول أسرته منحدرة من الأندلس، تعلم بالزيتونة، ثم أصبح أحد أساطينها، عين قاضيا مالكيا سنة 1911، ثم شيخ الإسلام المالكي وشيخ الزيتونة لعدة فترات امتدت إلى ما بعد استقلال تونس، له= عدة مؤلفات في العلوم الشرعية واللغوية والتربوية، أهمها تفسيره للقرآن الواقع في 30 مجلدا، وعنوانه الكامل "تحرير القول السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد"، ويسمى اختصارا **التحرير والتنوير**. حمادي الساحلي: **فصول في التاريخ والحضارة**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992. ص ص142-146؛ محمد عبد العزيز بن عاشور: **جامع الزيتونة، المعلم ورجاله**، دار سراس للنشر، تونس، 1991. ص ص 115-121؛ عاشوري قمعون: **الشقيقان**، مطبعة مزوار، الوادي، 2010. ص15.

(74) حول **محنة التجنيس، ينظر:** حمادي الساحلي: المرجع السابق. ص ص 146، 221-223، 322؛ طارق البشري: **حول تجديد الخطاب الديني ومشاكله**، مجلة الحج والعمرة، شهرية تصدر عن وزارة الحج، السعودية، السنة57، ع05، رجب 1423هـ/سبتمبر-أكتوبر 2002. ص67.

الله[75].

هـ- الشيخ الصادق بالي:

الشيخ الصادق بن العيد بالي، ولد عام 1920م بحي الفطاحزة، حفظ القرآن الكريم كاملا، على يد الشيخ علي حنكة، وعمره لم يتجاوز خمسة عشرة سنة، ورغم فقده لبصره عند بلوغه السنة الثامنة من عمره، فإن ذلك لم يثن عزمه عن مواصلة دراسته، ثم اتصل بالشيخ الهادي عمامرة بقرية الخبنة، وأخذ عليه مبادئ في الفقه واللغة العربية. انتقل بعدها إلى نفطة بالجنوب التونسي، مع عدد من الطلبة من أبناء المنطقة، في رحلة علمية لمواصلة تعلمهم، حيث أخذ نزرا من العلوم الشرعية على يد بعض شيوخ العلم، ومنهم الشيخ بن حمد النفطي[76]، ثم أكمل تعليمه بجامع الزيتونة، حيث تحصل على شهادة الأهلية عام 1945م، ثم شهادة التحصيل عام 1949م، وكان هدفه مواصلة دراسته لنيل شهادة العالمية، لكن انقطع عن الدروس بعد عام واحد لظروف عائلية.

بعد إنهاء دراسته بالزيتونة رجع إلى مسقط رأسه بالفطاحزة، وبدأ نشاطه بتعليم أبناء القرية اللغة العربية والفقه الإسلامي، وشارك في نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالمنطقة، وكان من بين المؤسسيين لمشروع مدرسة عربية حرة بالحي، لكن اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954م حال دون إتمامها، وفي نفس السنة انتقل الشيخ إلى بلدة الحمامات بتبسة أين تولى الإمامة والإفتاء، وتقديم دروس الوعظ والإرشاد، كما تولى مهمة الإفتاء بالمنطقة إلى غاية استقلال البلاد[77].

---

(75) محمد العيد قدع: الشيخ الحسين، المرجع السابق. ص 64.

(76) **الشيخ محمد بن حمد النفطي:** من أعلام الجريد، وعلمائها المعدودين في الحديث والفقه المالكي وعلم الفرائض، أصول عائلته من وادي سوف، ولد بنفطة ودرس بها ثم بالزيتونة، تولى التدريس ببلدته نفطة، خاصة بزاوية الشيخ إبراهيم بن أحمد، ومسجد ضيف الله، قدم الشيخ محمد بن حمد إلى الوادي ودرّس بها في العقد الثالث من القرن20م، ثم استدعاه الشيخ عبد العزيز الشريف ليدرّس بالزاوية القادرية بالوادي، كما درّس بزاوية سيدي سالم، حيث تعلم على يديه الكثير من الطلبة، وعند اعتقال فرنسا للشيخ عبد العزيز، وغلق مدارسه أعادت الشيخ بن حمد إلى بلده نفطة، توفي الشيخ بن حمد في رجب 1383هـ/10 نوفمبر 1963م بنفطة وقد أعياه المرض. أنظر: عاشوري قمعون: **العلامة الموسوعي حمزة بوكوشة**، مطبعة سخري-الوادي، الجزائر، 2012/1433. ص157؛ إبراهيم مياسي: **الصحراء الجزائرية في ضلال وادي سوف**، دار هومة، الجزائر، 2014. ص196؛ وصابر سميح: **نفطة بوابة الصحراء تخلّد خليّف**، جريدة دنيا العرب، تونس، الجمعة 2010/10/08. ص10.

(77) سنة 1970م عاد الشيخ إلى مدينة الوادي، وتم تعينه إماما بمسجد العتيق الواقع وسط سوق الوادي "مسجد سيدي المسعود"، ومن الأعمال التي كان يتولاها الشيخ هي تقديم خطب الجمعة، ودروس الوعظ والإرشاد، والإفتاء، والمشاركة في تأطير الندوات التكوينية للأئمة، إلى غاية وفاته سنة 2002 رحمه الله. العمامرة ومنصوري ص ص 108-109.0

و ـ الأستاذ مصباح مصباحي:

ولد الأستاذ مصباح عام 1935م بالوادي، وبها نشأ وتلقى تعليمه الأول، انتقل إلى الجنوب التونسي، ودرس في الفرع الزيتوني بمدينة توزر، حيث تحصل منه على شهادة الأهلية سنة 1956، وكان من المشاركين في إضراب الطلبة الذي دعت إليه قيادة الثورة يوم 19 ماي 1956م، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة المعمور، أين نال شهادة التحصيل، ثم أوفدته الحكومة المؤقتة إلى مصر ضمن البعثات العلمية لمواصلة مشواره التعليمي في إحدى جامعات القاهرة، فتحصل منها على شهادة الإجازة "الليسانس"[78] تخصص علم الاجتماع ، وله باع في بعض العلوم ومنها اللغة والتاريخ والفكر[79].

وهؤلاء الطلبة هم فيض من غيض، أتينا على ذكرهم، لنستدل بهم على قوافل طلبة العلم، التي كانت تنطلق من وادي سوف باتجاه منطقة الجنوب التونسي، تحدوهم العزيمة لاغتراف العلم من معينه، وبعودتهم للديار كان لهم تأثير في تطوير الساحة الثقافية بمناطقهم، بنشر ما تعلموه، وإثراء الجانب الثقافي بإنتاجهم، ومنهم من فضل المكوث بتونس، وساهموا بقوة في الحياة العلمية بشتى النواحي التي استوطنوها، ردا للجميل، وأداء للرسالة المنوطة بهم.

8- تأثير طلبة سوف الدارسين بالجنوب التونسي:

شهدت سوف حركة علمية في حواضرها الرئيسة "الوادي وقمار والزقم"، بفعل عودة طلبة العلم من الجنوب التونسي أو الزيتونة، وكان غالبيتهم مشبعين بالروح الإصلاحية، مثل الشيخ إبراهيم العوامر بالوادي والشيخ عبد الرحمان معمري بالزقم والشيخ الحسين حمادي بالنخلة، والشيخ محمد الساسي معامير والشيخ عمار بن لزعر بقمار، وهذا الأخير حضر اجتماع العلماء بنادي الترقي بالجزائر العاصمة أوائل شهر ماي 1931م، الذي تمخض عنه تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[80]، وبما أن الشيخ بن لزعر كان ممثلا لجمعية العلماء بسوف، يحارب الآفات الاجتماعية، والأخلاق الفاسدة، والأفكار والمعتقدات

---

(78) نال هذه الشهادة سنة 1963م، وتقلد بعدها عدة مناصب، أولها أستاذ التعليم الثانوي، ثم أصبح أول مدير ثانوية بالوادي، عند تأسيس ثانوية عبد العزيز الشريف سنة 1971م، ثم تقلد منصب مدير ولائي للتربية، إلى أن أحيل على التقاعد، وما زال ينشط بتقديم المحاضرات والمداخلات بمختلف التظاهرات التاريخية، ومنها أنه عضو ناشط ضمن جمعية التاريخ والمعالم الأثرية، وجمعية أول نوفمبر للتاريخ الفكري والثقافي وكلاهما بمدينة قالمة.

(79) لقاءات متعددة مع الأستاذ مصباح مصباحي، ببيت ابنته بحي الرمال بلدية الوادي، وغيرها من الأماكن خلال عامي 2016-2018؛ مصباح مصباحي: **ومضات-من تجاربي التعليمية في تونس ومصر**، مخطوط لدي نسخة منه سلمه لي كاتبه.

(80) علي غنابزية: **النشاط السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بوادي سوف1931-1938**، القباب، ع01، جوان 2004 ص 34.

المنحرفة، كما كان يحارب التصوف المنحرف، فإن السلطات الفرنسية ضاقت به ذرعا، ولقي عنتا وحصارا من رجال الطرق الصوفية، النافذين لدى الإدارة الاستعمارية، حتى اضطر للهجرة خارج الديار، واستقر به المقام بالمدينة المنورة عام 1937م.

لكن الفكر الإصلاحي بدأ ينتشر في المنطقة ولو باستحياء، إلى حين اعتناق شيخ القادرية عبد العزيز الشريف للفكر الإصلاحي[81]، فزاد نشاط جمعية العلماء واتسع نطاقها وكثر أتباعها وزادت شعبها، وبفضل نشاطات الشيخ عبد العزيز، تم تأسيس مدارس للجمعية بعميش والوادي والزقم وقمار والرقيبة، كما تم تنظيم زيارة وفد جمعية العلماء إلى الوادي في ديسمبر 1937م يتقدمهم رئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد ابن باديس، حيث كان لهذه الزيارة أثرها في تذكية النهضة الفكرية والعلمية بالمنطقة[82]، لكن هذا النشاط خبا بمجرد اعتقال الشيخ عبد العزيز ورفاقه، ليتجدد بعد الحرب العالمية الثانية، لكن تركزه الأخير كان بمدينة قمار. كما أحدث هؤلاء الشيوخ ثورة علمية، بتجديدهم للمعارف، وإحياء ما اندرس منها، وتدريسهم لعلوم –رغم تواضعها- لم تكن معهودة عند طلبة العلم بسوف، فكان التعليم القرآني هو الأساس، وبهامشه يقدمون دروسا في العلوم اللغوية والدينية خاصة في الفقه المالكي[83].

إضافة إلى ما سبق، كان المتخرجون من مراكز الجنوب التونسي والزيتونة، يقومون بوعظ السكان وإرشادهم، في المساجد والزوايا، وحتى في اللقاءات العامة، أو الخاصة في بيوت بعض العلماء، واشتهرت هذه الظاهرة، بالحواضر الثلاث الوادي قمار والزقم، وإذا بالمساجد وقد تعرضت فيها الحلقات التي تعجّ بالشيوخ لوضع المتعلمين على المحجّة، بعد أن كانوا في ظلماتهم يعمهون، والكثير من معلمي الكتاتيب بوادي سوف، هم خريجي المراكز العلمية ببلاد الجريد التونسي. وقد أفضت جهود هؤلاء المصلحين إلى تكوين رعيل واع، ووجود قامات علمية هامة، على غرار من ذكرنا، ومنهم كذلك على سبيل المثال لا الحصر:

من المتصدرين للمشهد الثقافي الذين كانوا بحاضرة الوادي الشيخ الصادق بلهادي 1875-1939م، الذي عمل باش عدل بمحكمة الوادي، والشيخ الطاهر العبيدي، والشيخ الميداني موساوي إمام المسجد العتيق 1939م، والشيخ لزهاري الحرزولي، الذي كان حجة في الميراث، ودرّس بزاوية سيدي سالم الرحمانية. 84

---

(81) جريدة البصائر (لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، **في وفد الجمعية بالجنوب**، ع95، 12 ذي القعدة 1356هـ/14 جانفي 1938م. ص 04.

(82) موسى بن موسى: (1426-1427هـ/2005-2006م)، **الحركة الإصلاحية بوادي سوف-نشأتها وتطورها (1900-1939)**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة. ص 180.

(83) محمد العيد قدع: الشيخ الحسين حمادي... المرجع السابق. ص95.

(84) عاشوري قمعون: الشقيقان، المرجع السابق 2010. وأيضا موسى بن موسى: الحركة الإصلاحية... المرجع السابق. ص138.

وفي حاضرة قمار: وجد بها الشيخ محمد الصالح بن الخوصى القماري، الذي علم القرآن بالزاوية التجانية، وكان يقوم بنسخ المصاحف، ويكتب القصائد، والشيخ أحمد بن القا القماري 1884-1939م، كان ضريرا، وقد درّس متن ابن عاشر في الفقه والآجرومية في اللغة[85].

أما في الزقم: فكان بها الشيخ محمد الساسي بن الحاج محمد الساسي الزقيمي وكنيته "معامير"، مؤلف كتاب "التقويم الجزايري" الصادر عام 1927م، والشيخ عبد الرحمان معمري إمام المسجد العتيق "مسجد العدواني"، والشيخ مسعود عباسي إمام مسجد الأصفر وكان فقيها بارزا[86].

وعلى الرغم من أن النشاط الثقافي كان أكثر انتشاره في الحواضر التي ذكرنا، فإنه ليس حكرا عليها، فقد شهدت بعض القرى الأخرى حركة لبعض المصلحين، ومنهم من تخرج من زوايا الجنوب التونسي، مثل الشيخ الحسين حمادي أصيل بلدة النخلة، الذي أحدث حركة علمية في بلدته، يمكن أن ننعتها "ثورة ثقافية"، فقد أخرجها من وهدة الجهل والأمية[87].

على أن تأثير هؤلاء تعدى منطقة وادي سوف، فقد كان لبعضهم دور في نشر العلم في مناطق عديدة بما فيها القطر التونسي نفسه، مثل الشيخ الحسين حمادي الآنف الذكر، الذي ظل حوالي 18 سنة، في حي أولاد لعمامي بالمكناسي، يعلم الصبية القرآن وبعض العلوم، ولم يعد بصفة نهائية إلى بلدته النخلة إلا بسبب وفاة والده الذي أوصاه بخلافته على المسجد، والشيخ العروسي لغريسي الذي هاجر مضطرا للجنوب التونسي، وكان مصلحا ذا فكر نيّر[88]، والطالب عمارة دبيلي[89] والطالب محمد الكبير خالدي[90]، الذي كان له كتّاب بقرية الرديف، والطالب العربي بن سعد[91] الذي درّس بتونس في مناطق عدّة، وغير ما ذكرنا

(85) محمد الطاهر التليلي: **من تاريخ وادي سوف**، مخ، "لدي نسخة منه". ورقات 83-84، 91.

(86) عثمان زقب: الأوضاع الاقتصادية.. المرجع السابق. ص 178.

(87) محمد العيد قدع: الشيخ الحسين حمادي.. ص 95-99 107.

(88) نفسه. ص 109.

(89) **الطالب عمارة دبيلي** المدعو "عمارة بلميعادي": من سكان النخلة، هاجر إلى بلدة الرديف بالجنوب التونسي، وفتح هناك "محضرة" أي مدرسة قرآنية، كما كان كاتبا للشيخ لخضر "شيخ الفرجان" بالرديف. لقاء مع محمد الأمين حمادي، ببيته الكائن بحي الشهداء-بلدية الوادي، يوم 27 أكتوبر 2011.

(90) **محمد الكبير خالدي**: أصيل قرية العقلة بوادي سوف، حفظ القرآن لدى الشيخ الحسين حمادي، هاجر الى الرديف وفتح بها كتّابا، ثم عمل أمين سر الطالب العربي قمودي، ولديه شهادات مهمة حول بعض أحداث الثورة الجزائرية بتونس. لقاء مع الطالب محمد الكبير خالدي، ببيته الكائن بحي الصحن الأول-بلدية الوادي، يوم 11 مارس 2012.

(91) **الطالب بن علي العربي بن سعد**: من عرش أولاد مبروكة، وأصله من بلدة النخلة بوادي سوف، درس بتونس، وعلى الرغم من أنه كان كفيفا، فقد كان موسوعة في القرآن - كما يقال -، درّس بعدة

كثير.

كما كان بعض الكتاب والعلماء من وادي سوف، ينشرون إنتاجهم، ويبثون لواعجهم، ويفتقون قرائحهم، عبر الصحف وأبرزها جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مثل الشيخ حمزة بوكوشة والشيخ عبد القادر الياجوري والشيخ مصباح حويذق وغيرهم، بينما وصل الأمر ببعضهم أن طبع بعض مؤلفاته، ومنهم الشيخ ابرهيم بن عامر الذي طبع "مواهب الكافي" و"البحر الطافح" و"المسائل العامرية"... وغيرها، مع العلم أن إنتاجه غزير حيث أن مؤلفاته المعروفة تناهز الثلاثين، كما قام الشيخ محمد الساسي معامير 1880-1967م بطبع "التقويم الجزائري" و"مشاهداتي في الجزائر" و"مشاهداتي في قسنطينة"[92].

9- زيارات العلماء:

تعتبر الزيارات العلمية التي يقوم بها العلماء والمشايخ من مناطق الجنوب التونسي لوادي سوف، إحدى أبرز أشكال التواصل العلمي بين المنطقتين، والمتتبع يلاحظ أن هذه الزيارات ليست بجديدة على المنطقة، فهي قديمة جدا، وذات تأثير بالغ، سواء في ربط العلاقات بين المنطقتين، أو في نشر العلم والصلاح في منطقة سوف، كما أنها تنفض الغبار الذي ران على العقول، وتبدّد الجهل، وتنير المدلهمات، خصوصا في غياب الوعي لسكان المنطقة، بفعل السياسة الاستعمارية، بالإضافة إلى حياة البداوة والترحال التي يعيشونها، حيث أنهم حديثو العهد بالتحضر، الأمر الذي نتج عنه غياب مراكز الإشعاع العلمي والديني، وأبرز ما وصلنا من زيارات العلماء لمنطقة سوف قديما، زيارة الشيخ المسعود الشابي ت1618م، وقبلها زيارات علماء الاباضية...

- **الشيخ محمد الأخضر بن حسين**[93]:

كانت للشيخ محمد الأخضر حسين زيارة لمنطقة سوف عام 1905م، فكانت له لقاءات بأعيانها ومنهم الشيخ إبراهيم العوامر، كما ألقى دروسا في مساجدها، وحاور بعض الشيوخ في زاوية سيدي سالم وجامع سيدي المسعود والمسجد الذي أسسه والده الشيخ الحسين، وقد تركت هذه الزيارة أثرا كبيرا في المنطقة، ومنها طبع العوامر لكتابين في نفس السنة بالقطر التونسي[94].

بقاع من تونس. محمد العيد قدع: الشيخ الحسين، المرجع السابق. ص 47.

(92) علي غنابزية: **مساهمات علماء وادي سوف في النهضة العلمية والحركة الصحفية الوطنية 1900-1986**، من إصدارات مديرية الثقافة بالوادي، مطبعة مزوار-الوادي، الجزائر، 2014. ص31، 33-36.

(93) حول ترجمة الشيخ محمد لخضر بن حسين، ينظر: محمد مواعدة: **محمد الخضر حسين-حياته وآثاره**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974؛ محمد عمارة: **من أعلام الاجتهاد الإسلامي الحديث الإمام الأكبر الشيخ الخضر حسين**، مجلة الدوحة، ماي1986، ص ص20-23.

(94) عاشوري قمعون: العلاقات الثقافية... ص158؛ علي غنابزية: رحلات الشيخ محمد الخضر... ص ص 56-58.

ـ الشيخ المكي بن عزوز:

زار شيخ الزاوية الرحمانية بنفطة محمد المكي بن عزوز وادي سوف، وتجول في قراها حيث درّس بالزوايا والمساجد بالوادي وقمار وكوينين، وربط علاقات وطيدة مع علمائها، وأخذ إجازة علمية عن الشيخ علي بن صابر، الذي كان يتنقل كثيرا بين سوف وبلاد الجريد التونسي، فأخذ عنه الشيخ المكي صلوات ابن ملوكة التونسي، كما كانت للمكي بن عزوز مراسلات مع مشايخ من سوف، منهم الشيخ أحمد بن دغمان، والشيخ البشير بوكوشة[95]، وأجاز الشيخ الطاهر العبيدي 1886-1968 عن طريق المراسلة من إسطنبول سنة 1886هـ، كما أجاز البشير بكوشة بنفس الطريقة وهو بالآستانة[96].

ـ الشيخ العربي بن عمار[97]:

إن قدوم الشيخ العربي بن عمار[98] إلى وادي سوف كان بفضل العلاقات بين منطقتي وادي سوف ومنطقة الجنوب التونسي، فقد قدم جده البعيد عبيد من توزر إلى بلدة سيدي عون، وكذلك والده أحمد بن عمار قدم لقرية السويهلة. وأما العامل المباشر فلأن

---

(95) **البشير بن أحمد بن بوكوشة:** ولد بمدينة الوادي خلال 1867م، حفظ القرآن في سن مبكرة، امتاز بجودة الخط، حيث نسخ من القرآن 65 نسخة من مختلف الأحجام، كان تاجرا بمدينة بسكرة، وكان تقيا ورعا حيث كان عليه دين كبير لبعض اليهود جراء الأزمة الاقتصادية العالمية، فحاول بعضهم إقناعه بإنكار الدين لأنهم يهود، فرفض قائلا لهم: "لن أترك جلدي تلتهمه النار، بسبب حطام الدنيا"، أجازه الشيخ المكي بن عزوز في حديث: "**الراحمون يرحمهم الرحمان**..." بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي يوم 07 فيفري 1933م على إثر مرض السكري، ودفن بمقبرة الأعشاش بالوادي. عاشوري قمعون: العلامة الموسوعي...المرجع السابق. ص12.

(96) الشيخ عبد الحميد بن باديس: **العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز**، مجلة الشهاب، ج1،مج13، عدد 01 محرم 1356هـ/14 مارس 1937م. ص ص26-27؛ علي غنابزية: مجتمع وادي سوف من الاحتلال... مرجع سابق ص72.

(97) **الشيخ العربي بن عمار:** هو العربي بن أحمد بن العربي بن صالح بن عمار من أولاد عبيد، ولد يوم 1926/07/22 بتوزر، وهو صغير قدم أبوه بأسرته للسويهلة بسيدي عون معلما للقرآن وإماما، وما لبث أن توفي والده عام 1929م، فعادت به أمه إلى توزر عام 1931م، وكان اهتمامها به كبيرا، حيث أدخلته إلى زاوية الشيخ المولدي بوعرقية التي مكث يدرس بها عشر سنين، ثم التحق بجامع الزيتونة عام 1939م، وتخرج منه بشهادة العالمية، زاول التدريس بين وادي سوف وتونس إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1987م، كان شاعرا ومفسرا للقرآن الكريم. ينظر: بشيرة شكيمة: **الإسهامات الإصلاحية والفكرية للمهاجرين السوافة بتونس "الشيخ العربي بن عمار أنموذجا" (1947-2015)**، مذكرة ماستر، شعبة التاريخ، جامعة الوادي، الجزائر، 1438-1439هـ/2017-2018. ص ص23-27.

(98) **عائلة بن عمار:** نزح جدهم عبيد من توزر إلى قرية سيدي عون بوادي سوف في القرن 18م، حيث تزوج إحدى بنات سيدي عون الحفيد مؤسس قرية سيدي عون، ومن أبنائه من عاد إلى توزر، ومنهم من بقي بسيدي عون، فأما الذين عادوا إلى تونس فلقبوا بن عمار، ومن بقي منهم بسيدي عون لقبهم صالحي. بشيرة شكيمة: المرجع السابق. ص 22.

بعض أعيان بلدة سيدي عون بوادي سوف يزاولون التجارة مع بلدات الجنوب التونسي، اتصلوا به مقترحين عليه التدريس في بلدتهم، فوافق اقتراحهم هواه، وقدم معهم في صيف عام 1947م، حيث شرع في توعية ووعظ الكبار بالمسجد، ولما انتهى الصيف فتح مدرسة حرّة للصغار، كان مقرها بغرف المنازل، وقام بأول سابقة في سوف وهي فتح قسم للبنات. وبجانب تدريسه للعربية والحساب والفقه وغيرها، كان الشيخ يبث الفكر الإصلاحي، الأمر الذي أثار حفيظة بعض رجال الطريقة التجانية الذين وشوا به للإدارة الفرنسية، فبدأت مضايقات السلطات الاستعمارية التي كادت أن تنتهي به إلى السجن، وفي أواخر 1951 عاد إلى تونس بعد أن تناهى إلى سمعه أن إدارة الاحتلال تنوي القبض عليه وتصفيته، فعاد إلى تونس مضطرا وأغلقت المدرسة أبوابها[99]، وقد دام نشاطه العلمي بسوف بين سنتي 1947-1951م.

خاتمة:

إن تأثير المراكز العلمية بالجنوب التونسي في الجانب الثقافي بمنطقة وادي سوف يبرز من خلال تكوّن طلبة سوف في تلك المراكز، وبعودتهم إلى الديار نشروا علومهم بين تلاميذهم، وفي نفس الإطار تدخل المجهودات التي بذلها علماء الجريد في نشر الوعي بين أهل سوف من خلال زياراتهم للمنطقة.

الملاحظ أن الرحلة العلمية كانت من وادي سوف منطلَقا، وإلى الجنوب التونسي مقصدا، والعكس بالنسبة لزيارات العلماء، فقد كانت بتحرك العلماء من الجنوب تونسي، حيث يقصدون سوف لنشر الوعي بين أهله. إن رحلة أبناء سوف في طلب العلم لم تقتصر على منطقة محددة من القطر التونسي، لكنها في الغالب تبدأ من الجنوب التونسي.

يفضل أغلب الطلبة من وادي سوف مراكز الجنوب التونسي، مع وجود مراكز علمية بالجزائر، مثل بسكرة وقسنطينة التي شهدت نهضة علمية، والتي كان من ثمارها تأسيس معهد ابن باديس، وهذا لأسباب أبرزها: القرب الجغرافي فنفطة من بلاد الجريد التونسي لا تفصلها عن سوف سوى 129 كلم، بينما تبعد عنها بسكرة 220 كلم، أضف إلى ذلك العامل التاريخي، حيث ترسخ الرحلة بين سوف ومناطق الجنوب التونسي، خاصة بلاد الجريد، وهذا ما يؤكد قوة الروابط بين المنطقتين.

تعرف الطلبة أثناء وجودهم بالجنوب التونسي، على فضاء جديد مكّنهم من اكتساب المعارف والمهارات، ورغم سياسة التسلط الاستعماري، والفاقة وقساوة الظروف الطبيعية، أثبت أبناء سوف جدارتهم، في التحصيل العلمي. شكلت الجالية الطلابية من أهل سوف في الجنوب التونسي، إضافة جديدة في رصيد المهاجرين السوافة، وهو ما زاد في تمتين جسر العلاقات الثقافية بين المنطقتين، فكان لهؤلاء الطلبة دور فعّال في تمتين عرى وروابط

(99) نفسه، ص ص31-48.

الأخوة وتعزيز أواصر اللحمة بين سكان المنطقتين.

ساهم الطلبة السوافة مساهمة فعّالة في الحياة العلمية، بالمنطقة وما جاورها بعد عودتهم من المهجر كنخبة مثقفة، حيث قاوموا السياسة التعليمية الفرنسية، فحافظوا على شخصية الأمة الجزائرية بصبغتها العربية والإسلامية من الذوبان والانحلال، إلى غاية استعادة السيادة الوطنية، وبعد الاستقلال كانوا المسؤول الكفء، والإطار الناجح، الذي تحمّل عبء معركة البناء والتعمير.

كما كان لزيارات العلماء المتبادلة خاصة من الجنوب التونسي إلى وادي سوف أثر في التواصل، هذه التنقلات التي كانت؛ بحكم الأصل أحيانا، وبحكم الروابط الروحية عبر الطرق الصوفية أحيانا أخرى، أو الإحساس بالواجب تجاه أهل الملة الواحدة وعلاقات الجوار، فكانت زياراتهم بذرة مبكرة لحركة الإصلاح، وإرهاصا لنهضة فكرية بتجديد العلوم، ونشر الوعي، وتشجيع الطامحين للسير في هذا الطريق بخطى وئيدة واثقة مستبصرة، فاستطاعت هذه المنطقة النائية، بين كثبان العرق الشرقي أن تنجب ثلة من العلماء كانوا روادا في القيام بحركة علمية وفكرية بالمنطقة، وكانت سببا في استماتة المجتمع أمام مخططات السياسة الاستعمارية في المجال الثقافي.

إزاء السياسة الاستعمارية المبنية على التجهيل وتزييف تاريخ المنطقة وجغرافيتها، والرامية إلى طمس هويتها، فإن الجزائريين ومنهم أهل سوف لم يقفوا مكتوفي الأيدي، بل أخذ طلاب العلم على عاتقهم، إحياء ما اندرس من التعليم العربي الإسلامي، وتجديد قديمه والنهوض به، ولم يفتّ في عضدهم سعي الاحتلال بكل الوسائل لإخماد جذوة الإسلام عبر القضاء على اللغة العربية بهذه الربوع، وهو ما مكّن من تكوين نخبة ذات توجه عربي إسلامي، أبقى للأمة هويتها وانتمائها الحضاري العربي والإسلامي.

مصادر ومراجع البحث:

أولا: المصادر

- أحمد توفيق المدني: **جغرافية القطر الجزائري**، مطبعة الشريف، تونس، دت.
- الأرشيف الوطني التونسي: مجموعة A. علبة 278. ملف 1/14.
- إبراهيم العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني العوامر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1397هـ/ 1977م.
- أبو القاسم سعد الله: **تجارب في الأدب والرحلة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
- أحمد توفيق المدني: **كتاب الجزائر**، المطبعة العربية، دم، دت.
- أحمد توفيق المدني: **هذه هي الجزائر**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1956.
- أوغست–أنطوان دي باتي دي كلام: **ومضات من تاريخ نفطة**، تع لطفي الطرودي، مطبعة الجريد، نفطة، 2009.
- جان بول سارتر: **عارنا في الجزائر**، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، دت.
- جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين **في وفد الجمعية بالجنوب**، ع95، 12 ذي القعدة 1356هـ/14 جانفي 1938م.

- عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر**-من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت-لبنان، ط2، 1400هـ/1980م.
- فرحات عباس: **ليل الاستعمار**، تر عبد العزيز بوباكير، دار القصبة- الجزائر، 2005م.
- محمد الطاهر ابن عاشور: **أليس الصبح بقريب؟** "التعليم العربي الإسلامي"، دار سحنون، تونس، ط3، 2010م.
- Ahmed Nadjah: **Le souf des Oasis**, Edition la maison des livres, Alger, 1971.
- Académie d'Alger: **bulletin Scolaire du du département de Constantine "Enseignement primaire"**, n° 7-8-9, Juillet-Aout-septembre, Année 1912.
- Capitaine Ferry: **traveaux dans l'annexe, plan d'urbanisme,** 1947-1948.
- Ecole d''indigénes d''Eloued: **Registre Matricule des éléves admis à l''ecole du 1886 à 1904.**
- Ecole primaire preparatoire de garçons de Kuinine: **Registre Matricule des éléves de l''ecole du 01 Octobre 1921.**
- Général P. J. André: **Confreries Religieuse Musulmanes,** Edition la maison de livre, Alger, 1956.
- Gouverneur générale de l'Algerie: **Commissariat générale du centenaire, les territoires du sud de l'Algérie, Alger,1929.**
- Jamel Haggui: **les Algériens du sud dans la ville de Tunis pendent l'époque colonial 1881-1956 "Mozabite, Soufis, Ouarglias",** mémoire de D. E. A., Université de manouba, Année Universitaire 2003-2004.
- La Scolarisation dans les territoires du sud: Réalisation des années 1945-1946-1947, document Algérien N° 14, 15 mars 1948.
- Réalisation dans l'annexe d'El-oued, Document Algerien n°21, serie politique, 15 dec 1948.

ثانيا: المراجع

1- الكتب

- إبراهيم مياسي: **الصحراء الجزائرية في ضلال وادي سوف**، دار هومة، الجزائر، 2014.
- أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط4، 1992م.
- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1998.
- أبو القاسم سعد الله: **خارج السرب - مقالات وتأملات**، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- أبو القاسم سعد الله، **أفكار جامحة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.
- أبو القاسم سعد الله، **قضايا شائكة**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990.
- أحمد مريوش وآخرون: **الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، الجزائر، 2007.
- تركي رابح: **أصول التربية والتعليم**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1990.
- حمادي الساحلي: **فصول في التاريخ والحضارة**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1992.
- سعد العمامرة وأحمد منصوري: **أعلام من سوف**، شركة مزوار للطباعة والنشر والإشهار، الوادي.
- عاشوري قمعون: **الشقيقان**، مطبعة مزوار، الوادي، ط1، 2010.
- عاشوري قمعون: **العلامة الموسوعي حمزة بوكوشة**، مطبعة سخري-الوادي، الجزائر، ط1، 1433/2012.
- عاشوري قمعون: **ديوان الشيخ العلامة إبراهيم بن عامر السوفي 1351-1292/1875-1932م**، مديرية

الثقافة، مطبعة مزوار-الوادي، الجزائر، ط1، 2013.
- عبد الحميد زوزو: **الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985.
- عبد الرشيد زروقة: **جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر 1913-1940**، دار الشهاب، بيروت- لبنان، ط1، 1420/1999.
- عبد العزيز الشهبي: **الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار الغرب للنشر والتوزيع.
- عبد الوهاب جعفر: **البنيوية في الانثربولوجيا وموقف سارتر منها**. دار المعارف، مصر، 1989م.
- علي غنابزية: **دراسات في تاريخ المقاومة الثقافية بالجزائر للحفاظ على الهوية الوطنية**، مطبعة مزوار، الوادي-الجزائر، ط1، 2011.
- علي غنابزية: **مساهمات علماء وادي سوف في النهضة العلمية والحركة الصحفية الوطنية 1900-1986**، إصدار مديرية الثقافة بالوادي، مطبعة مزوار-الوادي، الجزائر، ط1، 2014.
- عمار عمورة: **موجز في تاريخ الجزائر**، دار ريحانة للنشر والتوزيع، القبة- الجزائر، ط1، 2002م.
- عمار هلال: **العلماء الجزائريون في البلدان العربية الاسلامية فيما بين القرنين 19-20م/13-14 هـ**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995. 1400هـ/1980م.
- مالك بن خليف: **الفكر السياسي عند العلامة عبد الحميد بن باديس**، دار طليطلة، الجزائر، ط1، 1432هـ/2010م.
- محمد الصالح الجابري: **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م-1962م**، الدار العربية للكتاب، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس والجزائر، 1983م.
- محمد الصالح مرمول: **السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- محمد العيد قدع: **الجهود التعليمية للشيخين ابن عاشور وابن باديس- دراسة مقارنة**، مطبعة نور للنشر، ألمانيا، 2017.
- محمد العيد قدع: **الشيخ الحسين حمادي دوره الاجتماعي ونشاطه العلمي والتربوي بتونس ووادي سوف 1902-1982م**. مطبعة ذويب، الوادي-الجزائر، ط1، 2013.
- محمد عبد العزيز بن عاشور: **جامع الزيتونة، المعلم ورجاله**، دار سراس للنشر، تونس، 1991.
- محمد علي دبّوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1971م.
- محمد مواعدة: **محمد الخضر حسين-حياته وآثاره**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974.
- محمد مورو: **الجزائر تعود لمحمد ﷺ**، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، 1992م.
- يحي بوعزيز: **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954**، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.

2- الصحف:

- الشيخ عبد الحميد بن باديس: **العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز**، مجلة الشهاب، ج1،مج13، عدد 01 محرم 1356هـ/14 مارس 1937م.
- صابر سميح: **نفطة بوابة الصحراء تخلّد خليّف**، جريدة دنيا العرب، تونس، الجمعة 2010/10/08.
- طارق البشري: **حول تجديد الخطاب الديني ومشاكله**، مجلة الحج والعمرة، شهرية تصدر عن وزارة الحج، السعودية، السنة57، ع05، رجب 1423هـ/سبتمبر-أكتوبر 2002.
- عاشوري قمعون: **الشيخ الهاشمي حسني 1320-1410/1902-1989 ودوره في الحركة الإصلاحية والوطنية**، مجلة الباحث-المركز الجامعي بالوادي-الجزائر، ع1، يونيو 2010م.

- عاشوري قمعون: **العلاقات الثقافية بين منطقة سوف وبلاد الجريد التونسية**، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، س41، ع 160، جويلية/يوليو 2015.
- عبد القادر حميد: **لماذا حُرقت كتب جان بول سارتر بالجزائر؟** مقال نشر في جريدة المستقبل الالكترونية، يوم 2010/03/20.
- علي غنابزية: **النشاط السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بوادي سوف 1931-1938**، القباب، ع01، جوان 2004.
- علي غنابزية: **دراسة تاريخية لمناهج تعليم القرآن الكريم بين الماضي والحاضر** "مجتمع وادي سوف نموذجا"، مجلة البحوث والدراسات-المركز الجامعي بالوادي-الجزائر، ع4، محرم1428هـ/يناير2007م.
- علي غنابزية: **رحلات الشيخ محمد الخضر حسين للجزائر 1903-1905 أهدافها الاستراتيجية وأثرها على الحركة العلمية بالمجتمع الجزائري**، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات مؤسسة التميمي-تونس، س41، ع 155/154، فيفري/شباط 2014.
- محمد السعيد عقيب: **جمعية الشباب السوفي الزيتوني**، مجلة البحوث والدراسات-المركز الجامعي بالوادي-الجزائر، ع3، جمادى الاولى 1427هـ/جوان 2006م.
- محمد الشاذلي النيفر: **زيتونة يكاد زيتها يضيء**، جريدة الزيتونة، السنة 01، العدد 02، نوفمبر1953.
- محمد المختار بن محمود: **حكم الله في التجنيس**، الزيتونية-مجلة شهرية تصدر عن جامع الزيتونة، مج01، ج10، ربيع الثاني 1356هـ/جوان 1937.
- محمد عمارة: **من أعلام الاجتهاد الإسلامي الحديث الإمام الأكبر الشيخ الخضر حسين**، مجلة الدوحة، ماي1986.
- يحي بوعزيز: **أوضاع الجزائر خلال ثورة أول نوفمبر**، مجلة الشهاب الجديد، عدد03، الجزائر، 2004.

3- الملتقيات:

- عبد الكامل عطية: 11/10 نوفمبر2013، **نماذج من الرحلات العلمية للطلبة "السوافة" نحو القطر التونسي قبل اندلاع الثورة التحريرية 1954م**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.
- عثمان زقب: 11/10 نوفمبر2013، **نماذج من سياسة التقييد والرقابة للإدارة الاستعمارية على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881-1954 وادي سوف أنموذجا**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.
- علي بن حراث: 11/10 نوفمبر2013، **أسباب تركيز الرحلة العلمية الجزائرية على تونس**، مداخلة ضمن الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.
- محمد السعيد عقيب: 11/10 نوفمبر2013، **الشيخ الحسين حمادي ونشاطه التعليمي في تونس ووادي سوف**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.
- محمد السعيد قاصري: 11/10 نوفمبر2013، **الطرق الصوفية ودورها في التواصل الحضاري والثقافي بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس**، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس، قسم العلوم الإنسانية جامعة الوادي-الجزائر.
- **هجرة الجزائريين إلى تونس بين تلبية الحاجيات الاجتماعية وإحداث التكامل الثقافي في النصف الأول**

من القرن 14هـ/20م. وادي سوف أنموذجا، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس 11/10 نوفمبر2013، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي-الجزائر.

4- الرسائل الجامعية:

- إبراهيم شويخ: 2018/2017، **الرحلات العلمية وأثرها في الحياة الثقافية بمنطقة وادي سوف 1931-1969م**، مذكرة ماستر، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الوادي، الجزائر.
- بشيرة شكيمة: 1438-1439هـ/2017-2018، **الإسهامات الإصلاحية والفكرية للمهاجرين السوافة بتونس "الشيخ العربي بن عمار أنموذجا" 1947-2015**، مذكرة ماستر، شعبة التاريخ، جامعة الوادي، الجزائر.
- رابح فلاحي: 1428هـ/2007-2008م، **جامع الزيتونة والحركة الإصلاحية في الجزائر 1908-1954**، ماجستير التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر.
- عثمان زقب: 2006/2005، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا**، رسالة ماجستير، مخ، قسم التاريخ، جامعة باتنة، الجزائر.
- عز الدين معزة: 2009-2010م، **فرحات عباس والحبيب بورقيبة "دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، 1899-2000"**، دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر.
- علي غنابزية: 2008-2009، **مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية** 1300-1374هـ / 1882-1954م، رسالة دكتوراه، مخ، قسم التاريخ، جامعة الجزائر.
- موسى بن موسى: 1426-1427هـ/2005-2006م، **الحركة الإصلاحية بوادي سوف-نشأتها وتطورها 1900-1939**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة.

5- المقابلات الشفوية:

- لقاء مع الشيخ حمد توبة، بمنزله بقرية جلمة بلدية المقرن-ولاية الوادي، يوم 2012/01/14، 16:00
- لقاء مع الطالب محمد الكبير خالدي، ببيته الكائن بحي الصحن الأول-بلدية الوادي، يوم 2012/03/11.
- لقاء مع محمد الأمين حمادي، ببيته الكائن بحي الشهداء-بلدية الوادي، يوم 27 أكتوبر 2011.
- لقاءات متعددة مع الأستاذ مصباح مصباحي، ببيت إبنته بحي الرمال بلدية الوادي، وغيرها من الأماكن خلال عامي 2016-2018.

6- المذكرات الشخصية والمخطوطات

- مبروك الشامسي: **مذكرات نفيسة**، مؤسسة إيموبال المطبعة العصرية-الوادي، الجزائر، د.ط، دت.
- محمد الطاهر التليلي: **من تاريخ وادي سوف**، مخ، "لدي نسخة منه".
- محمد الطاهر التليلي: **هذه حياتي**، من إصدارات دار الثقافة-ولاية الوادي، سامي للطباعة والنشر والتوزيع، الوادي-الجزائر، 2017.
- مصباح مصباحي: **ومضات-من تجاربي التعليمية في تونس ومصر**، مخطوط لدي نسخة منه سلمه لي كاتبه.
- مصطفى سالمي: **الدر المصفى من تقاييد الشيخ سالمي مصطفى**، جمع وتصنيف وتعليق علي غنابزية، مخ، "لدي نسخة منه".

الشيخ محمد التركي وجهوده الإصلاحية والتربوية في وادي سوف (بلدة الخبنة بالرقيبة أنموذجا)

Sheikh Muhammad Al-Turki and his educational reform efforts in Oued Souf (the town of Al-Khbna in Al-Raqeeba as a model)

د/ وداد صالحي
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية،
جامعة الوادي (الجزائر)
Salhi-ouidad@univ-eloued.dz



الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على رائد من رواد الإصلاح في الجنوب الشرقي الجزائري، وهو الشيخ محمد التركي، وإبراز جهوده في ترسيخ مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الإسلام واللغة العربية والوطنية لدى سكان وادي سوف، في زمن حاول فيه الاستعمار الفرنسي طمسها.

وخلصت الدراسة إلى أن رواد الإصلاح المتمثلة في شخص الشيخ محمد التركي، نجحوا في ترسيخ مقومات الشخصية الجزائرية عن طريق الدعوة والتعليم، لدى سكان المناطق الجنوبية الجزائرية، وتكللت بإنشاء مراكز تعليمية تدرس شتى العلوم، لتكون منطلقا في نشر الوعي الديني والوطني تحت ظل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأنشئوا جيلا مكافحا للاستعمار الفرنسي، مدافعا عن مقوماته، حاملا راية النهضة الدينية والثقافية في المنطقة.

الكلمات المفتاحية: محمد التركي؛ الإصلاح؛ وادي سوف؛ المقوماتالشخصية؛ الوطنية.

Abstract

This study aims to shed light on one of the pioneers of the reform in the southeast area of Algeria, Sheikh Muhammad al-Turki. It also seeks to highlight his efforts in consolidating the components of the Algerian personality represented in Islam, the Arabic language, and patriotism among the residents of Wadi Souf, at a time when French colonialism tried to obliterate them.

The study concluded that the pioneers of reform, represented by the personality of Sheikh Muhammad al-Turki, succeeded in consolidating the components of the Algerian personality through advocacy and education, among the inhabitants of the southern Algerian regions. Moreover, this Algerian personality was enthroned by the establishment of educational centers that teach various sciences, as a starting point for spreading the religion and national awareness under the umbrella of the Association of Muslim Algerian Scholars and to create an anti-colonial generation that defends its components, carrying the banner of religious and cultural renaissance in the region

Keywords: Muhammad Al-Turki; reforma; Wadi Souf; ingredientes; patriotismo.

1. مقدمة

إن المتمعن في أجندة الاستعمار الفرنسي بعد سيطرته على مناطق الجنوب الشرقي، يجد أنها سعت بكل الطرق والوسائل إلى طمس عادات ومقومات سكان المنطقة، حيث شرع في بث وتطبيق مخططاته الخبيثة، من خلال احتلال عقول السكان بتشجيع الخرافات والبدع، ومحاربة الهوية الفكرية والثقافية، وسلخهم عن معتقداتهم الدينية والتربوية.

لكن الله قيض رجال وشيوخ الإصلاح المنبثقين عن جمعية العلماء المسلمين للتصدي لهذه الدسائس والمخططات، نذكر منهم الشيخ المصلح محمد التركي الذي لم يدخر جهدا ولا علما في الأخذ بأيدي سكان بلدة الخبنة بمنطقة الرقيبة بوادي سوف، وانتشالهم من براثن الجهل والخرافة والأمية، وإعدادهم لحمل اللواء للدفاع عن الوطن والعروبة، من خلال زرع الروح الوطنية والمحافظة على الهوية الإسلامية واللغة العربية، متخذا طريق الدعوة والتعليم كنشاط إصلاحي وتربوي في المنطقة. فإلى أي مدى ساهم الشيخ محمد التركي في محاربة الجهل والأمية، وترسيخ المقومات الوطنية لدى سكان بلدة الخبنة خصوصا ووادي سوف عموما؟

إنه من بين أهداف هذه الدراسة هو تسليط الضوء على السيرة النضالية لرائد من رواد الإصلاح في الجنوب الشرقي الجزائري، الممثلة في شخصية شيخ الإصلاح محمد التركي، مع إبراز جهوده في ترسيخ مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الإسلام واللغة العربية والوطنية لدى سكان وادي سوف عموما وسكان منطقة الخبنة خصوصا، في زمن حاول فيه الاستعمار الفرنسي طمسها. وللإجابة عن هذه الإشكالية اتبعت المنهج التاريخي الوصفي لأنه الأنسب لهذا المواضيع.

2. سيرة الشيخ محمد التركي

2.1. مولده:

هو الشيخ محمد بن بالقاسم التركي، وأمه تسمى أم الهناء بنت علي عزوز المولود خلال(1919م/ 1337هـ) من أسرة بسيطة تمتهن الزراعة بمنطقة قمار ولاية الوادي[1]. نشأ وترعرع في بيئة ريفية وأسرة بسيطة، محافظة على عادات وتقاليد المنطقة، محبة للعلم

1- **وادي سوف**: يقع إقليم وادي سوف جنوب شرق الجزائر، وهو جزء من العرق الشرقي الكبير، يحده من الشمال بلاد الزاب " بسكرة والزرائب"، ويمتد حتى جبال الأوراس، والنمامشة، وإلى منطقة نقرين، ومن الشرق الحدود التونسية من نفطة ونفزاوة، مرورا ببيررومان حتى غدامس، ومن الجنوب واحات غدامس، ومن الغرب وادي ريغ(تقرت وتماسين) وورقلة. ينظر: علي غنابزية (2008. 2009م): **مجتمع وادي من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1300. 1374هـ/ 1882. 1954م**، قسم التاريخ ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ، جامعة الجزائر، الجزائر، ص 13.

والعلماء[2]، تتكون من 8 أفراد وهم الأب والأم و6 أولاد منهم 5 ذكور أولهم محمد ثم علي وعبد القادر، ويليه مصطفى، ثم إبراهيم، وبنت اسمها زينب[3]، حيث هاجر أخوه مصطفى نحو بلد الحجاز رفقة البشير سعد الله[4]، أما هو فقد كان من المترددين على المجالس العلمية للشيخ عمار بن الأزعر[5]، وقد امتلكت أسرته غيطان نخيل بقرية الداغرة[6]، التي كانت تقيم بها أسرته أحيانا وتنتقل أحيانا أخرى للإقامة بريف قمار[7].

2.2. **أسرته:**

تزوج الشيخ محمد التركي ثلاثة مرات، الزوجة الأولى تسمى أم الخير نصري والتي أسكنها بلدة الداغرة، بعد أن قام جماعة مسجد الداغرة ببناء غرفة للشيخ بجوار غيطان عائلته، ولكنه سرعان ما طلقها بعد خروجه لتونس، بغية طلب العلم ولعدم قدرته على إعالتها، وأنجبت له بنت اسمها مريم، أما الزوجة الثانية تدعى بوجلخة هنية بنت بالقاسم تزوجها سنة (1955 م/ 1374هـ) وله منها 10 أولاد منهم 5 ذكور وهم: سليم، وبالقاسم ، وعبد الحكيم ونجيب ومباركة ، وتسمى الزوجة الثالثة جبلون فريدة من بلدة حساني عبد الكريم تزوجها سنة (2001م/ 1422هـ)[8].

2- التجاني العقون: **أعلام من قمار بوادي سوف**، مطبعة سخري، حي المنظر الجميل، الوادي، الجزائر، 2013، ص 361.

3- **زينب:** وهي أخت الشيخ محمد التركي، تزوجها ابن عمها أحمد التركي بالبياضة. ينظر، عبد الرزاق هزبري: شخصية اليوم، عنمدونة الأخبار الوطنية والمحلية ليوم، 3أفريل 2020م.

4- **البشير سعد الله:** وهو أخو الدكتور أبو القاسم سعد الله من أبيه، توفي في مكة المكرمة، له 3 بنات، وأحفاده متواجدون حاليا في السعودية. لقاء مع بالقاسم بن علي زبيري، بمدينة قمار، 16 أفريل 2022م على الساعة 08:22.

5- **معار بن الأزعر:** وهو عمار بن عبد الله بن الطاهر بن أحمد لزعر الهلالي، القماري السوفي الجزائري، ولد ببلدة قمار في عام 1898م، وهو رائد من رواد الإصلاح بمنطقة قمار. ينظر، عبد الحميد بسر: **الأمجاد من أبناء سوف**، سامي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، 2019، ص 24.

6- **قرية الداغرة:** تقع شرق بلدة الخبنة، وسميت القرية بذلك الاسم " الداغرة" بمعنى الدغرة أو الهجمة، ويقال أن أصل كلمة الداغرة كما أخبر به أحد أول رجلين سكناها ألا وهو عبد القادر زوزو(المعروف بقويدر قسوم)، يرجع إلى فترة انتشار ظاهرة قطاع الطرق(الجياشة) في سوف قبل الاحتلال الفرنسي، حيث كان الناس عندما تهاجم قراهم ولا سيما قمار، ينادون بعضهم بعضا للاختباء منهم في منطقة الداغرة الحالية، قائلين: ادغروا منا، ادغروا منا، ومعناها اهربوا نحو هذه الجهة(المنطقة)، فكانت مهربا ومكانا ممتنعا عن الجياشة، وينطبق عليها وصف المؤرخ العدواني لمنطقة سوف بأنها مانعة الهارب فتداولت هذه الكلمة عند سكان الجهة إلى يومنا هذا. لقاء قدادرة المولدي بن البشير مع أحد سكان منطقة الداغرة يوسف زغوان، نشرت في مدونة قدادرة المولدي يوم 3 أفريل 2019م.

7- يوسف زغوان(2015. 2016م): **التعليم العربي الحر بوادي سوف(1931- 1962م) من خلال الوثائق المحلية والروايات الشفوية**، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الوادي، الجزائر، ص 106.

8- ترجمة للشيخ محمد بن بالقاسم التركي أعدها الأستاذ عبد الرزاق هزبري في 3 أفريل 2020م.

3. نضاله الإصلاحي الدعوي التربوي بوادي سوف

3،1. شيوخه ومسيرته العلمية:

تلقى الشيخ محمد التركي مبادئ القراءة والكتابة بمسقط رأسه قمار، حفظ القرآن الكريم في مسجد الطلبة أولا الموجود جهة السوق، ثم في مسجد بيت الشريعة، على يد الشيخ بالقاسم بن الساسي صالحي[9]، الملقب بالمجلخ، دفين المدينة المنورة والشيخ سي الطيب بالزا، الذي كان إماما ومعلما في ذات المسجد، ودرس الشيخ أيضا على الشيخ سي عمار حمايتي[10]، الذي قدمه أمامه ليصلي التراويح بالناس. وعند بناء أهل الداغرة لمسجدهم[11] في سنة 1943م/1362هـ، طلبوا من ابن منطقتهم الشيخ محمد التركي أن يقيم فيهم ليعلم أبناءهم القرآن الكريم ويؤمهم في الصلاة، واتفقوا على أن تكون البداية في فصل الخريف شهر أكتوبر من نفس السنة. فكان الشيخ يؤم المصلين بالمسجد، ويعلم أبناءهم القرآن الكريم أحيانا بالمسجد، وأحيانا أخرى ينتقلون إليه في غوط نخيله بالمنطقة[12].

لكن حبه للعلم وشغفه به جعله يشد الرحال إلى جامع الزيتونة، وذلك نتيجة نقاش دار بينه وبين رفيقه سي ميلود النيس سنة(1943م/ 1362هـ)، حول أحوال أترابهم، حيث

9- **الشيخ بالقاسم بن الساسي صالحي**: هو الشيخ بالقاسم بن الساسي بن صالح بن أحمد صالحي، الملقب بالمجلخ، ولد حوالي عام (1889م/ 1310هـ)، وهو صهر وزميل الشيخ الطاهر التليلي أيام طلب العلم، وعرف على الشيخ حبه للعلم، قرأ القرآن الكريم في صغره وحفظه على يد الشيخ سي محمد خدة، وقرأ ميادين الدين والفقه واللغة العربية على الشيخ محمد بن البرية، والشيخ أحمد بن الثا، والشيخ عمار بن الأزعر، وعلى غيرهم أيضا ممن وفد على قمار مثل: الشيخ محمد اللقاني، ثم صار مؤدبا يعلم القرآن لأولاد الزاوية التجانية بتاغزوت عند الشيخ العيد، ثم انتقل معلما للقرآن في قمار، ومن تلاميذه الشيخ محمد التركي، ثم سافر إلى تونس، ثم عاد إلى قمار معلما للقرآن في جامع السوق- الجامع الكبير – ثم هاجر إلى المدينة المنورة سنة 1358هـ / 1937م. وعين إماما للصلاة في عدة مساجد من مساجد المدينة ، توفاه اللهفي المدينة المنورة يوم 8 من ذي القعدة سنة 1394هـ/ 22 نوفمبر عام 1974م عن عمر يناهز 85 عاما. ينظر: عاشوري قمعون: من علماء بلدة قمار، الشيخ بالقاسم بن الساسي صالحي، مدونة بتاريخ 18 فيفري 2020م، اطلع عليها في 20 مارس 2022م.

10- **الشيخ سي عمار حمايتي**: هو حمايتي عمار بن محمد بن سالم بن محمد بن بشير بن مبارك، ولد بقمار خلال سنة 1908م، وسجل إداريا سنة 1913م، حفظ القرآن الكريم وعمره 8 سنوات، وبعد انقطاعه على حفظه ،ثم عاد إليه مرة أخرى وعمره 13 سنة، درس مع الشيخ النوار ، وتتلمذ على يد عمار الأزعر والشيخ عبد القادر الياجوري، ودرس على شيخ مغربي الأصل استقر مدة قصيرة بقمار أي لمدة 6 أشهر ، ثم رحل إلى المدينة المنورة، عين معلما بأحد المساجد فعمل مدرسا للصغار، ولازمه الشيخ الطاهر الجيلاني خطيب مسجد السنة بالبياضة، توفي يوم 11 أكتوبر سنة 2008م، ودفن في مقبرة قمار. لقاء مع أحد أقاربه الأستاذ: محمد الصالح حمايتي ، بقمار، في 18أفريل 2022م.

11- سمي بمسجد الداغرة نسبة للقرية التي بني فيها.

12- يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق ، ص 106.

قال الشيخ: أرأيت كيف أصبح بن عيشة عالما"، فكان هذا الكلام محفزا لميلود النيس فشد الرحال لجامع الزيتونة عام (1944م/ 1363هـ)، ولحق به الشيخ محمد التركي بعد حوالي عام أي سنة(1945م/ 1364هـ)، درس على يد شيوخ أجلاء منهم العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب كتاب التحرير والتنوير وشقيقه محمد الفاضل بن عاشور. وكان عند عودته إلى مسقط رأسه في العطلة الصيفية يعمل في الفلاحة ليحصل على مصروف يستعين به على الدراسة، وإلى جانب هذا كان يقدم دروسا ببلدة الخبنة[13] بطلب من أهلها، واتفقوا معه على أن ينشئوا مدرسة لتعليم أبنائهم فيها بعد تخرجه من الزيتونة وتحصله على شهادة التطويع[14]، وهو ما تجسد فعلا سنة(1952م/ 1371هـ)[15]. وأصبح الشيخ محمد التركي فيما بعد من رجال الإصلاح وأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويعد من أواخر الذين صحبوا رائد الإصلاح الشيخ العلامة محمد الأزعر بمدينة قمار، وهو العالم الوحيد الذي سافر من وادي سوف للمشاركة في تأسيس جمعية العلماء المسلمين.

درّس في مسجد الداغرة بعد بنائه من طرف سكان المنطقة سنة(1944م/ 1363هـ)، ثم بمدرسة الفلاح بالحي الجنوبي بخبنة الرقيبة حتى سنة(1956م/ 1375هـ)، وهو سنة إغلاقها من طرف الاستعمار، ثم انتقل للتدريس بمدرسة النجاح بقمار إلى غاية سنة (1963م/ 1383هـ)، وبعد الاستقلال انتقل الشيخ محمد التركي إلى مدينة بسكرة، وعمل في قطاع التربية والتعليم كأستاذ للتعليم المتوسط، وعين أيضا إماما وخطيبا في مسجد قريب من بيته، كما أنه شغل منصب رئيس للمجلس العلمي لولاية بسكرة[16].

3.2. **تلاميذه:**

تتلمذ على يد الشيخ محمد التركي في مدرسة الفلاح[17] لوحدها قرابة 30 تلميذا،

13- **بلدة الخبنة:** هي إحدى قرى الجهة الجنوبية لبلدية الرقيبة، امتهن سكانها الفلاحة المتمثلة في زراعة النخيل والتبغ، جل سكانها قدموا من مدينة قمار، تبعد عن مقر البلدية مسافة 3كلم تقريبا . تحدها شمالا قرية العوائسة، ومن الغرب قرية العرفجي، ومن الجنوب قرية بقوزة التابعة لبلدية تاغزوت، ومن الشرق قرية الداغرة التابعة لبلدية قمار، لقاء مع الأستاذ عبد اللطيف عويني، ابن بلدة الحبنة، في منزله يوم 1 أفريل من سنة 2022م/ 1443هـ

14**شهادة التطويع**: وهي أعلى شهادة علمية كان يمنحها جامع الزيتونة بتونس واستمر العمل بها الى سنة 1933م ، وهي تعادل شهادة الباكلوريا حاليا عند وزارة التربية الجزائرية. ينظر ، بوطيبي محمد: التعليم في جامع الزيتونة خلال النصف الأول من القرن العشرين (دراسة في المنهج والبرنامج)، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، المجلد 1، العدد 13، 2017-09-15، ص192 -226.

15 يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق ، ص 107.

16 سعيد حاجي: من أعلام الجزائر، موقع بسكرة اليوم، نشرت يوم 8 يوليو 2021م

17**مدرسة الفلاح:** هي ثاني مدرسة أهلية تتبع جمعية العلماء المسلمين بعد مدرسة النجاح بقمار، بنيت حوالي سنة 1951م على مساحة 50متر مربع (بطول 10 أمتار وعرض 5أمتار)من طرف سكان القرية بمواد محلية كالجبس والحجارة، وجلبت الطاولات التي لا تزال موجودة إلى يومنا هذا من مدرسة النجاح بقمار ،ثم استمرت المدرسة في التدريس لسنة 1957م،حيث أغلقت من طرف الاستعمار، وأعيد فتحها بعد الاستقلال سنة 1963م. ينظر

معظمهم من أبناء الحي الجنوبي لبلدة الخبنة بالرقيبة، ومنهم أيضا من خارج البلدة ، وكلهم كانوا من أبناء الفلاحين، نذكر منهم التلميذ عبد الرحمان كمرشو والتلميذ لمين بلقط وهما من بلدة الرقيبة، أما التلميذ عبد الحميد الوثري من منطقة الداغرة، وكان يغلب على أوليائهم انتمائهم للحركة الإصلاحية.

- **أسماء بعض تلاميذه**

التلاميذ الذكور[18]	ملاحظة
محمد بريبش	من بلدة الخبنة من مواليد سنة(1939م/ 1358هـ) وكان عمره أثناء التمدرس بين 12 – 13 سنة، وهو من الطبقة الأولى
البشير زبدي	من بلدة الخبنة
البشير غندير مبروك	من بلدة الخبنة، من مواليد سنة(1937م/ 1356هـ)، وهو من الطبقة الثانية
عبد العزيز بن عمار بن صالح فالح	أبوه مالك الأرض التي بنيت عليها مدرسة الفلاح، وهو من بلدة الخبنة، من مواليد(1942م/ 1361هـ)، وهو من الطبقة الثانية
عبد العزيز بريبش	من بلدة الخبنة وكان عمره أثناء التمدرس بين 12 – 13 سنة، وهو من الطبقة الأولى
محمد الطاهر بريبش المدعو عمر	من بلدة الخبنة
محمد خريف	من بلدة الخبنة، وكان عمره أثناء التمدرس بين 12 – 13 سنة، وهو من الطبقة الأولى
عبد الحميد خريف	من بلدة الخبنة، وهو من الطبقة الثالثة لايزال على قيد الحياة
الطاهر عويمر	من بلدة الخبنة وكان عمره أثناء التمدرس بين 12 – 13 سنة، لايزال على قيد الحياة وهو من الطبقة الأولى
حسن حسونة	أبوه التجاني وأمه مباركة، وهو من بلدة الخبنة
عبد الرزاق حسونة	من بلدة الخبنة
عبد الكريم سقني	أبوه عبد الله بن محمد المعروف ب دلايل، وهو من بلدة الخبنة بالرقيبة.
أحمد حمايتي	من بلدة الخبنة، وهو من الطبقة الثالثة
علي العاتي	ابن عماره العاتي من بلدة الخبنة
عز الدين سقني المدعو عبد الحفيظ	من بلدة الخبنة
عبد المجيد عويني	ابن عبد القادر عويني من بلدة الخبنة
مصطفى جحيدر	من بلدة الخبنة، وهو من الطبقة الثالثة

مطوية المنتدى العلمي الأول لمدرسة الفلاح بخبنة الرقيبة، التي أشرفت على تنظيمه شعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فرع الرقيبة، برئاسة الأستاذ صالح فالح. وينظر ملحق رقم 5.

18- لقاء مع الأستاذ عبد اللطيف عويني بمنزله في الوادي، يوم 1أفريل 2022م. ينظر أيضا يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق، ص 107.

عبد الكريم دويس	من بلدة الخبنة، وهو من الطبقة الثالثة
عبد المالك دويس	من بلدة الخبنة
محمد العاتي	من بلدة الخبنة
عبد الوهاب سقني المدعو عبيد	من بلدة الخبنة
مصطفى دبيلي	من بلدة الخبنة
عبد الحميد الوثري	من بلدة الداغرة، وكان عمره أثناء التمدرس بين 12 – 13 سنة، وهو من الطبقة الأولى
عبد الرحمن كمرشو	من بلدة الرقيبة، وهو من الطبقة الثالثة
لمين بلقط	من بلدة الرقيبة، وهو من الطبقة الثالثة

التلاميذ الإناث[19]	**ملاحظة**
تبر بنت عمار بن صالح فالح	وهي زوجة الصادق بن عبد الله بن محمد، من قاطني بلدة الخبنة بالرقيبة.
فاطمة فالح بنت عمار	من بلدة الخبنة
نجمة فالح بنت مصطفى	من بلدة الخبنة
مسعودة حمايتي بنت لخضر	من بلدة الخبنة
تبر قريون	من بلدة الخبنة
مريم تركي ابنة الشيخ محمد التركي	من بلدة الخبنة
التومية بريبش المدعوة تبر	من مواليد : 29ماي 1945م درست في مدرسة الفلاح بين سنتي 1955 و 1957، وهي من سكان بلدة الخبنة.
غالية بريبش	انقطعت عن الدراسة بعد حوالي أسبوع من الدراسة
بنت ابريزة	هكذا كان زميلاتها ينادونها، وهي من بلدة الخبنة

والملاحظ على هؤلاء التلاميذ حفظهم للقرآن الكريم بأجزاء متفاوتة ذكورا كانوا أو إناثا وكان حفظهم له خصوصا في فترة العطلة الصيفية[20]. وكانت لكل طبقة(فوج) حجرة خاصة، ولقلة عدد الإناث المتمدرسات على يد الشيخ محمد التركي في مدرسة الفلاح، ولصغر سنهن، ولعدم توفر عدد كاف من الحجرات الدراسية، كن يدرسن في نفس الحجرة مع الذكور، كما كان معمولا به في مدرسة النجاح بقمار[21].[22]

19- تسجيلات صالح فالح مع تلميذات مدرسة الفلاح بالخينة، مارس 2013م؛ ولقاء مع الأستاذ عبد اللطيف عويني: نفس المرجع السابق. ينظر أيضا يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق، ص 107.

20- تسجيل مصور للأستاذ صالح فالح مع التلميذة تبر بريبش المعروفة بالتومية ببلدة الخبنة في شهر مارس (2013م/ 1434هـ). وينظر أيضا يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق، ص 107.

21- **مدرسة النجاح**: تأسست سنة (1931م/ 1349هـ)، وبنيت بجوار مسجد الطلبة بقمار، في مكان منزل التجاني بوعزيز والفلاح هالي، وكانت تحت إدارة الشيخ محمد الطاهر التليلي، وأول من درّس بها الشيخ عمار الأزعر. ينظر محمد الحسن فضلاء: **المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر(1) القطاع القسنطيني**، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999م،ص 115.

وكان الشيخ يدرس حوالي 13 مادة للمستوى الواحد مثل التوحيد والفقه والسيرة والتاريخ والجغرافيا وكان يخصص جزءا منها لدراسة تاريخ الجزائر، وجغرافيته، ودرس أيضا الحساب والهندسة، والنحو والصرف والإملاء والأخلاق والمحفوظات، وكان الشيخ محمد التركي يقسم السبورة إلى ثلاثة أقسام لكل طبقة (فوج) من التلاميذ، حيث خصص لكل فوج جزءا منها، إلى جانب مادة القرآن الكريم، وكانت مدة الدراسة 07 ساعات يوميا مقسمة إلى فترات، فخصص للفترة الصباحية 04 ساعات من الساعة 8:00 إلى الساعة 12:00، أما الفترة المسائية فكانت من الساعة 14:00 إلى الساعة 17:00[23]، وكانت البرامج التعليمية في مدرسة الفلاح مستمدة من برامج مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فالملاحظ عنها أنها كانت متطورة في كل المواد[24].

كما كان الشيخ محمد التركي يؤدب تلاميذه إذا أخطأوا بعدة أساليب نذكر منها: أسلوب الضرب بالمسطرة على الأصابع أو يعاقب بالوقوف في آخر حجرة الدراسة، أو المكوث في هيئة ركوع، وعموما فكان الاحترام هو السائد في المعاملة بين التلاميذ وشيخهم، ولم يبخل الشيخ جهدا في رفع مستواهم التعليمي ولم يقصر فيه، هذا ما شهد عليه تلاميذه، وكما كان الشيخ متعففا عن حضور الولائم بالبلدة، لأنه متفرغ كليا للتعليم والوعظ والإمامة، وليس لديه وقت فراغ ليذهب لهذه الأمور؛ مما جعل أهل بلدة الخبنة يرسلون له بعض الهدايا والوجبات أحيانا إلى بيته[25]. وهذا من أجل ترسيخ الفكر النهضوي الواعي، وترسيخ مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين الإسلامي والعروبة، وترسيخ الروح الوطنية الجزائرية لدى سكان منطقة الخبنة بالرقيبة، وغرس بذرة العلم لدى مجتمع ريفي أمي يقطن منطقة نائية، فتكللت جهود الشيخ بالنجاح، حيث سعى إلى محو أمية سكان القرية، ويشهد بعض معلمي مدرسة النجاح بقمار على أن تلاميذ مدرسة الفلاح نجباء محبون للعلم، وأقر بذلك الشيخ محمد التركي.

ولحبهم الشديد للعلم وتعطشهم له، قام الشيخ بتوجيه مجموعة كبيرة من تلاميذ مدرسة الفلاح للمشاركة في الشهادة الابتدائية التي تقام في مدينة بسكرة[26]، وقد نجح فيها ثلاثة وهم التلميذ البشير غندير مبروك ومحمد بريبش، وعبد الحميد الوثري، وبذلك أصبحوا مؤهلين للالتحاق بمعهد ابن باديس بقسنطينة، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، بسبب اشتداد

22- ينظر أيضا يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق، ص 109.

23- تسجيل مصور لصالح فالح مع تلاميذ مدرسة الفلاح بالخبنة في شهر مارس من سنة (2013م/ 1434هـ)

24- بشير خلف: **المنتدى العلمي الأول لمدرسة الفلاح بخبنة الرقيبة**، مدونة سوف أوراق ثقافية، الجزائر، الخميس 24 مارس 2022م.

25- تسجيل مصور للأستاذ صالح فالح مع خالتي خير ة فالح أخت التلميذة تبر فالح بالخبنة في مارس (2013م/ 1434هـ).

26- يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق، ص 114.

وطأة الثورة، وغلق المعهد في سنة 1957م/ 1376هـ[27]، بالرغم من هذا فقد درس التلميذ محمد بريبش في جامع الزيتونة بتونس لمدة 06 أشهر، ودرس بمعهد ابن باديس في قسنطينة لمدة قصيرة قبل غلقه من طرف الإدارة الاستعمارية ولظروف شخصية خاصة بالتلميذ[28].

3،3. **نضاله الإصلاحي**:

عانى الشيخ محمد التركي كثيرا من ممارسات الاستعمار الفرنسي، وتضييق الخناق عليه، حيث ظل الاستعمار ينظر لمدرسة الفلاح بعين الريبة والشك، ويتحسس دوريا ما تقدمه لتلاميذها من مادة تعليمية، فإذا قدم لهم غير حفظ القرآن الكريم كتاريخ الجزائر وغيرها، مما يعتبرونه تحريضا عليهم، فسيقومون بغلقها دون مراعاة لأدنى حقوق التلاميذ في التعليم، أو حقوق الأهالي الذين أسسوها بجهودهم الخاصة. وكان بعض ضعاف النفوس يشون بالشيخ محمد التركي ومدرسة الفلاح بأنها لا تدرس التلاميذ أمور الدين فقط، بل يحرض في دروسه على الحكومة الفرنسية، ويدرسهم السياسة، ونتاج هذا التحريض قام أحد المسؤولين بزيارة لبلدة الخبنة ليقابل شيخ المدرسة، فقامت جماعة الحي بنقل الطاولات والسبورات إلى المزارع وبساتين النخيل وأفرشوا أرضية المدرسة بالحصير، وجلس التلاميذ في حلقات يقرؤون ويكتبون القرآن على الألواح، فلما حضر وجدهم على هذه الحالة فزالت عنه التهمة الموجهة له[29].

وتم التبليغ عن الشيخ للسلطات الفرنسية بأنه أمر الناس ألا يضحوا في عيد الأضحى، لأن الثورة انطلقت، فزار مسؤول فرنسي المنطقة للتحقق من الأمر في صباح عيد الأضحى، فقام مصطفى بريبش، وهو والد التلميذ محمد بريبش بذبح تيس كأضحية للعيد، وترك رأسه ظاهرا ليراه المسؤول ، ليزيل التهمة عن الشيخ محمد التركي، ولم يكتفوا بهذا بل قدموا له طبق الجلبانة حيث أحضروا امرأة من زاوية بكوينين تحسن طبخه وإعداده، وهذا لأن المسؤول الفرنسي كان يحب هذه الطبخة. ولم تتوقف التهم ومراقبة الشيخ، فقد أتهم بأن له علاقة بمجموعة من المواطنين الذين يساهمون في العمل الثوري بالخبنة، ففي العطلة الصيفية التي كان يقضيها بمدينة قمار تم استدعاؤه من طرف القائد العسكري بالرقيبة، مع 05 أو 06 أشخاص آخرين من أصدقاء الشيخ بتهمة العمل لصالح الثورة، وكان الشيخ على رأس القائمة، وبدأ القائد العسكري بمحاكمته قبل الآخرين، ولكنه لم يستطع أن يثبت عليه أي تهمة، ومن بين الأسئلة التي كانت طرحت عليه، هل ستدرس في

27- تسجيل مصور مع التلميذ بشير غندير مبروك، حاوره الأستاذ صالح فالح في شهر مارس 2013م. ينظر أيض يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق، ص 114.

28- حصة إذاعية بإذاعة الوادي بعنوان: " الحوار الهادئ"، مارس (2013م/ 1434هـ)، من إعداد وتقديم الأستاذ صالح فالح مع تلميذ مدرسة الفلاح محمد بريبش؛ يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق، ص 114.

29- المرجع نفسه.

المستقبل بالخبنة؟ فرد عليه الشيخ قائلا: لا أدري كيف تصنع المقادير، ثم أطلق سراحه. أما الأشخاص الآخرون لم يطلق سراحهم واستشهدوا جميعا، وبعد هذه الحادثة قرر الشيخ التنقل من بلدة الخبنة إلى قمار، ودرس في مدرسة النجاح إلى سنة (1963م/ 1382هـ)، ومع هذا ظل الشيخ محمد التركي يتعرض للمضايقات والمراقبة من طرف أعوان الاستعمار الفرنسي، وبهذا الانتقال توقفت مدرسة الفلاح عن النشاط وأغلقت[30]، وكل هذا بسبب الدور الإصلاحي لهذه المدارس وشيوخها، الذين عقدوا العزم على نشر العلم والوعي واليقظة والنهضة بإنسان منطقة وادي سوف، للتخلص من براثن الاستعمار والجهل والتخلف عن ركب باقي مناطق الوطن.

4. وفاته

توفي الشيخ المصلح محمد التركي يوم الجمعة 08 نوفمبر 2019م الموافق لـ 11 ربيع الأول 1441هـ، بمدينة بسكرة عن عمر ناهز 100 عام، وقد شيع في جنازة مهيبة من طرف أهله وتلاميذه وجيرانه، ودفن رحمه الله[31] في مقبرة العزيلات بولاية بسكرة، بعد أن قام بدوره العلمي والجهادي التحرري على أكمل وجه، من خلال وقوفه أمام الجهل والأمية، حيث عمل على إنشاء وتكوين جيل واع بحقوقه الوطنية، منهم من التحق بجامع الزيتونة بتونس، وقام آخرون بمواصلة مسيرة محو الأمية العلمية ونشر العلم والوعي.

5. خاتمة

كان سعي واجتهاد أهالي بلدة الخبنة النائية بمنطقة الرقيبة في جلب الشيخ محمد التركي، الذي كان يدرس ويعلم في منطقة قريبة منهم بمسجد الداغرة، خيارا ناجعا، حيث استطاع الشيخ القيام بمهمات كثيرة كانت على رأسها التدريس في مدرسة الفلاح، فكان - رحمه الله - مدرسا لجميع المستويات من أقسام السنة الأولى إلى نهاية المرحلة الابتدائية، وقد وفقه الله نتيجة حرصه وإخلاصه في تعليم النشء الذي بين يديه، كما كان يؤم المصلين في المسجد، ويحرص على مهمة الوعظ والتوجيه والإرشاد للنساء والرجال على حد سواء في بيته المجاور للمدرسة، فاستطاع في حوالي أربع سنوات، وهي مدة استمرار المدرسة قبل التضييق عليه وغلقها من طرف الإدارة الفرنسية، أن يغرس بذرة حب العلم والوطن، وترسيخ المقومات الشخصية الجزائرية عن طريق الدعوة والتعليم ، في قرية نائية، سكانها من الفلاحين البسطاء.

وكان من نتاج جهود الشيخ محو أمية سكان المنطقة وجلساء حلقته، من خلال إعطائهم الضروري من علوم الدين، وتاريخ الجزائر العام وجغرافيتها وغيرها من فنون العلوم، إلى حد توجيه مجموعة من التلاميذ للمشاركة في شهادة الابتدائي في مدينة بسكرة،

30- يوسف زغوان: التعليم العربي الحر بوادي سوف، المرجع السابق، ص 116.

31- سعيد حاجي: الموقع السابق.

وقد برهنوا فعلا على اجتهادهم، منهم التلميذ غندير البشير، وغيره كثيرون، وحملوا راية الإمامة والدعوة والتعليم بعد أستاذهم إلى يومنا هذا. وقد تكللت جهود رجال الإصلاح المتمثلة في شخص الشيخ محمد التركي بإنشاء مراكز تعليمية تدرس شتى العلوم، لتكون منطلقا في نشر الوعي الديني والوطني تحت ظل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأنشئوا جيلا مكافحا للاستعمار الفرنسي، مدافعا عن مقوماته، حاملا راية النهضة الدينية والفكرية في منطقة الجنوب الشرقي.

وعليه يجب تكثيف البحث والملتقيات حول هذه الشخصية التربوية التي عرفت بالدفاع عن الثوابت، وهي دعوة للتعريف أكثر بمعالم ومدارس، ومساجد وعلماء منطقة وادي سوف، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ بلقاسم بن الساسي صالحي، والشيخ سي عمار حمايتي وغيرهم.

7. قائمة المراجع

أ- المؤلفات:

- العقون التجاني: **أعلام من قمار بوادي سوف**، مطبعة سخري، الوادي، الجزائر، 2013.

- ابن عاشور محمد الطاهر: **شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام**، تح: ياسر بن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2010.

- بسر عبد الحميد: **الأمجاد من أبناء سوف**، سامي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، 2019.

- فضلاء الحسن محمد: **المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر(1) القطاع القسنطيني**، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999م.

ب- الأطروحات:

- غنابزية علي(2008. 2009م): **مجتمع وادي من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1300. 1374هـ/ 1882. 1954م**، قسم التاريخ ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر.

-زغوان يوسف(2015. 2016): **التعليم العربي الحر بوادي سوف(1931- 1962م) من خلال الوثائق المحلية والروايات الشفوية**، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الوادي، الجزائر.

ت- المقالات:

-بوطيبي محمد: التعليم في جامع الزيتونة خلال النصف الأول من القرن العشرين (دراسة في المنهج والبرنامج)، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، المجلد 1، العدد 13، *15-09-2017*، ص*192 -226* .

-العقيل عبد الله: الفقيه العلامة محمد الفاضل بن عاشور، **مجلة المجتمع**، الكويت، العدد 1707، 2006م، ص 46.

ث- المواقع الالكترونية:

- حاجي سعيد: من أعلام الجزائر، موقع بسكرة اليوم، نشرت يوم 8 يوليو 2021م.

-خلف بشير :**المنتدى العلمي الأول لمدرسة الفلاح بخبنة الرقيبة**، مدونة سوف أوراق ثقافية، الجزائر، الخميس 24مارس 2022م.

-قمعون عاشوري: من علماء بلدة قمار، الشيخ بالقاسم بن الساسي صالحي، مدونة بتاريخ 18 فيفري 2020م، اطلع عليها في 20 مارس 2022م.

-هزبري عبد الرزاق: شخصية اليوم ترجمة للشيخ محمد بن بلقاسم تركي، عن مدونة الأخبار الوطنية

والمحلية اليوم، 3أفريل 2020م.

ج- اللقاءات والتسجيلات:

- **اللقاءات:**

- لقاء لمولدي قدادرةابن البشير مع إمام مسجد الداغرة يوسف زغوان، نشرت في مدونة قدادرة المولدي يوم 3 أفريل 2019م.

- لقاء مع الأستاذ عويني عبد اللطيف ، في منزله يوم 1 أفريل من سنة 2022م/ 1443هـ.

- لقاء مع الأستاذ عويني عبد اللطيف ببيته بالوادي يوم 18 أفريل 2022م، على الساعة 21:30.

- لقاء مع بالقاسم بن علي زبيري، بمدينة قمار، 16 أفريل 2022م.

- لقاء مع حمايتي محمد الصالح قريبالشيخ سي عمار حمايتي ، بقمار، في 9 أكتوبر 2020م.

- لقاء الأستاذ زغوان يوسف مع الشيخ محمد التركي بمنزله ببسكرة يوم 14أوت من سنة(2014م/ 1435ه).

- **التسجيلات:**

- تسجيل مصور لفالح صالح مع تلاميذ مدرسة الفلاح بالخبنة في شهر مارس من سنة (2013م/ 1434ه)

- تسجيل مصور للأستاذ فالح صالح مع التلميذ بشير غندير مبروك، في شهر مارس 2013م.

- تسجيل مصور للأستاذ فالح صالح مع التلميذة تبر بريبش المعروفة بالتومية ببلدة الخبنة في شهر مارس(2013م/ 1434ه).

- تسجيل مصور للأستاذ فالح صالح مع خالتي خيرة فالح أخت التلميذة تبر فالح بالخبنة في مارس (2013م/ 1434ه).

- تسجيلات فالح صالح مع تلميذات مدرسة الفلاح بالخينة، مارس 2013م.

- حصة إذاعية بإذاعة الوادي بعنوان " الحوار الهادئ"، مارس (2013م/ 1434ه)، من إعداد وتقديم الأستاذ فالح صالح مع تلميذ مدرسة الفلاح محمد بريبش.

جهود الأئمة ومعلمي القرآن ببلدة ورماس في المقاومة الثقافية والحفاظ على الهوية الجزائرية الإسلامية

The efforts of the imams and teachers of the Qur'an in the town of Ourmes in the cultural resistance and the preservation of the Algerien Islamic identity.

د/ بشير بوساحة
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية،
معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
Bousaha-bachir@univ-eloued.dz



ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على جانب من جوانب المقاومة الثقافية أثناء المرحلة الاستعمارية للجزائر من 1900 إلى 1962. وذلك من خلال بيان الدور الفعال للأئمة ومعلمي القرآن الكريم في تحفيظ القرآن، وتأكيدهم على تطبيق ما جاء فيه، وتثبيت التمسك باللغة العربية. واعتمدت الدراسة على منهج تاريخي، بعرض نماذج من الأئمة ومعلمي القرآن في بلدة ورماس بوادي سوف. وطريقتهم في تحفيظ القرآن وزرع القيم في أوساط طلبتهم، وقد خلصت هذه الدراسة إلى أن ما تشهده المنطقة من كثرة في حفاظ القرآن الكريم هو ثمرة تلك المجهودات الكبيرة التي يبذلها الأئمة ومعلمي القرآن، مع تضافر جهود كل أبناء المنطقة لتوفير الظروف المناسبة لتحقيق ذلك، رغم كل العوائق والتحديات، خاصة منها تلك التي كانت بفعل المستعمر الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: المقاومة الثقافية؛ معلمي القرآن؛ بلدة ورماس؛ وادي سوف؛ القيم.

Abstract :
This study aims to stand on an aspect of cultural resistance during the colonial phase of Algeria from 1900 to 1962. This is done by clarifying the effective role of imams and teachers of the Holy Quran in memorizing the Quran, and their emphasis on the application of what was stated in it, and the consolidation of adherence to the Arabic language. The study relied on a historical approach, by presenting examples of the imams and teachers of the Quran in the town of Ourmes in Oued Souf. And their method of memorizing the Quran and instilling values among their students. This study concluded that the large number of memorizing the Holy Quran that the region is witnessing is the result of the great efforts made by the imams and teachers of the Quran, with the combined efforts of all the people of the region to provide the appropriate conditions to achieve this, despite all the obstacles and challenges, especially those that were caused by the colonizer French.

Keywords: cultural resistance; teachers of the Quran; Ourmes; Oued Souf; Value.

1. **مقدمة**

تعد منطقة الجنوب الشرقي من المناطق التي حافظت بشدة على هويتها الجزائرية الإسلامية، في مختلف الحقب، ومنها بلدات ولاية الوادي. هذا الأمر لم يأتِ من فراغ، بل هو نتيجة حرص وجهد يبذله أبناء هذه المناطق للحفاظ على هويتهم، وجعلها أساسا لثقافتهم وحياتهم. وكان الانتماء الإسلامي ومقوماته دائما هو أساس تلك الهوية. وهو ما انعكس كاهتمام شديد، في حفظ القرآن الكريم وتحفيظه والحرص على حلق الذكر والدروس الدينية والالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية.

ورغم الممارسات الغاشمة من طرف المستعمر الفرنسي، وسعيه بمختلف السبل لطمس الهوية الجزائرية الإسلامية، إلا أن المجتمع الجزائري قابل كل تلك التحديات والعقبات الاستعمارية، بإصرار وعزم للمحافظة على هويته. فشكّل بذلك العمل الدؤوب والمساعي الحثيثة ما يسمى بالمقاومة الثقافية، والتي شملت جوانب عدة، لها ارتباطها بمكونات الهوية الجزائرية الإسلامية. وكان من بين أوجه ذلك النشاط، الجهد الذي بذله الأئمة ومعلمي القرآن، للحفاظ على كتاب الله محفوظا في الصدور، ومن ثم الحفاظ على اللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

فكيف كانت الأوضاع العامة لمنطقة الجنوب الشرقي في الفترة الاستعمارية بين 1900 إلى 1962م؟ وما مدى المضايقات التي مارسها المستعمر الفرنسي للحد من المقاومة الثقافية؟ وكيف كان دور الأئمة ومعلمي القرآن في الحفاظ على كتاب الله، كونه الركيزة الأساسية للهوية الجزائرية الإسلامية؟

وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على هذا الجانب من جوانب المقاومة الثقافية، وبيان مدى أهميته ودوره في الحفاظ على الهوية الجزائرية الإسلامية. ومن الأهداف كذلك إبراز بعض من الأئمة ومعلمي القرآن في بلدة ورماس، كان لهم دور مهم في هذا الإطار قبل استقلال الجزائر سنة 1962م، وقد استمرت جهودهم بعد الاستقلال كذلك، من أجل المحافظة على الهوية الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم.

وتهدف هذه الدراسة كذلك للمساهمة في الحفاظ على الذاكرة المحلية، والدفع نحو دراسات أخرى مماثلة لخدمة مثل هذه الأهداف، وتدوين الروايات الشفوية، التي تحمل في طياتها فصولا من تاريخ المقاومة بكل أشكالها منها المقاومة الثقافية، هذه الروايات لا يجب الاستهانة بها أو التقليل من شأنها، كيف لا وهي تحمل في طياتها تاريخا لتلك النشاطات والتحركات، التي كانت نتيجة جهد لم يّدخر أصحابه منه شيء، بل كان بعضه يمثّل تحديّا للمستعمر الفرنسي وتهديدا لفاعله بالموت. ويُعدّ المنهج التاريخي هو المنهج الأنسب لمعالجة موضوع هذه الدراسة، مع اعتماد أسلوب العرض لبعض الأحداث والممارسات الاستعمارية،

وكيف واجهها المجتمع الجزائري. ثم عرض سيرة مختصرة لنماذج من الأئمة ومعلمي القرآن ببلدة ورماس، مع إبراز دورهم وطريقتهم في تحفيظ القرآن الكريم والقيم التي غرسوها بين تلاميذهم وبين أفراد المجتمع.

2. الوضع العام لمنطقة وادي سوف والجنوب الشرقي في عهد الاستعمار الفرنسي:

وصلت جيوش الاستعمار الفرنسي إلى منطقة الجنوب الشرقي، بعد أن بسطت سيطرتها على شمال الجزائر، وبدأت تتوغّل في أطرافها وتفرض وجودها بالقوة، للقضاء على بذور المقاومة المستميتة التي اصطدمت بها دون سابق إنذار. وقد ساهمت تلك المقاومة في تعطيل توغل القوات الفرنسية في أعماق الصحراء. ما أخّر وصول المستعمر الفرنسي إلى مناطق الجنوب الشرقي والصحراء إلى ما يقرب خمسة عقود بعد احتلال الجزائر سنة 1830م[1]. وفي سنة 1882م بسط المستعمر الفرنسي سيطرته على منطقة وادي سوف، وأصبحت ضمن المناطق العسكرية في الجنوب[2].

وقد كانت منطقة وادي سوف تعيش خارج الممارسة السياسية الثورية، بسبب الحظر الاستعماري لأي نشاط سياسي وطني. ومع ذلك عرفت المنطقة تحركات معارضة لسياستها الاستعمارية، كان أبرز محرك لها هو الشيخ الهاشمي الشريف، خاصة بعد إقدام فرنسا على تجنيد عدد من شباب وادي سوف بالقوة للعمل في مصانعها، التي احتاجت إلى اليد العاملة، وقد كان قانون التجنيد الإجباري على الأهالي الجزائريين الصادر في جويلية 1917م، لا يشمل سكان المناطق العسكرية في الجنوب[3]. كما عرفت المنطقة تشديد الرقابة الفرنسية على الحدود الجزائرية الليبية، ما أدّى إلى شلّ حركة التجارة مع منطقة غدامس الليبية، فأثّر ذلك على مستوى معيشة السكان. فضلا عن دفع الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهلهم، خاصّة وأنّ المنطقة حينها عرفت موجة جفاف زادت من حدّة الأزمة الاقتصادية[4].

وعرفت المنطقة قُبيل الحرب العالمية الثانية، فترة نشاط سياسي ثوري، تزعّمه الشيخ عبد العزيز الشريف[5]، الذي اتخذ من جمعية العلماء غطاءً سياسيا. لكنّه اعتمد المنهج

1- علي غنابزية، فصول ودراسات في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية بوادي سوف (19621854)، مطبعة سامي، الوادي-الجزائر، ط1، 2022، ص13، 24، 66.

2- إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، مطبعة ثالة، الجزائر، 2007، ص323.

3- علي غنابزية، فصول ودراسات في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية بوادي سوف (19621854)، المرجع السابق، ص36.

4- المرجع نفسه، ص37.

5- إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، مصدر سابق، ص30.

الثوري والمعارضة الراديكالية المتعنّة، مخالفا بذلك الخط الذي تنتهجه الجمعية حينها، كما ربط علاقات مع الحركة الوطنية التونسية. وقد احتجّ على الممارسات الفرنسية للمساس بالأحوال الشخصية للجزائريين، فأرسل برقية احتجاج شديدة اللهجة، إلى السلطات العليا الفرنسية في 26 فيفري 1938م. وشنّ بعدها حملة واسعة ضد القيّاد وأعوان الاستعمار، وكثّف تحركاته في قرى سوف مندّدا بالسياسة الاستعمارية وأعوانها. ورفض غلق المدرسة الإصلاحية التي أزعجت فرنسا، وطالبته بإغلاقها بحجة أنها تعمل بدون ترخيص، فردّ الشيخ عبد العزيز الشريف: "بأن الزوايا من قديم الزمان تعمل بدون رخصة...". كل ذلك جعل السلطات الفرنسية تتحيّن الفرصة لمعاقبته. كما نظّم احتجاجا شكّل واحدة من أبرز الانتفاضات الشعبية في المنطقة، وذلك يوم 12 أفريل 1938م، تجمهر فيها الآلاف أمام مقر الحاكم العسكري بالوادي، أثناء زيارة المدير العام للشؤون الأهلية ومناطق الجنوب الجزائري (ميليوت) ونائب مدير مناطق الجنوب الكولونيل (بيلوند). أدت إلى عقد لقاء على انفراد بين الشيخ عبد العزيز الشريف والمدير العام (ميليوت)، قدّم له فيها عريضة مطالب، لرفع الظلم الاستعماري عن الأهالي، وعدم تدخل الإدارة الفرنسية في الشؤون الدينية للمسلمين، واحترام تعاليم الدين الإسلامي، والمحافظة على مقدساته. وإعادة فتح المساجد التي أغلقت، وتسهيل مهام علماء الإسلام، كما تسهل فرنسا مهام البعثات التبشيرية في مناطق ورقلة وبلاد القبائل. مع التأكيد على احترام الحرية الدينية والعقائدية للسكان، وطالب بإعادة الاعتبار للمدارس الحرة، لتقوم بدورها التعليمي في نشر اللغة العربية. ودعا للعمل على التخفيف من حدة الأزمة الاقتصادية، في وادي سوف ومناطق الجنوب.[6]

وقد شهدت منطقة الجنوب الشرقي كغيرها من مناطق الوطن سعيا حثيثا من المستعمر الفرنسي لطمس الهوية الإسلامية، بمختلف الطرق والوسائل، والسعي لاستبدالها بهوية فرنسية. ولذلك تم اعتماد التعليم باللغة الفرنسية، وبناء المدارس الفرنسية في كل ربوع الجزائر، وتكثيف عمل المنصّرين لنشر الديانة المسيحية، وصرف الجزائريين عن دينهم، وقد صاحبتها حملات الصليب الأحمر لتقديم المساعدات الاجتماعية والطبية في القرى والمداشر. وصاحب كل ذلك تضييق على المدارس القرآنية والكتاتيب والدروس المسجدية. ومحاصرة لنشاطات الشيوخ والعلماء والحركة الوطنية عموما. وهو ما أدّى إلى استمرار الاحتجاجات في وادي سوف خلال شهر أفريل من سنة 1939م، التي اعتبرها المستعمر إعلانا للحرب، ومبرّرا لإنهاء نشاط العلماء، فاعتقلت الشيخ عبد العزيز الشريف، مع مجموعة من العلماء والأتباع وبعض أعيان وادي سوف، وعُوقب بعضهم بالسجن والنفي

6- علي غنابزية، فصول ودراسات في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية بوادي سوف (1962.1854)، المرجع السابق، ص39.38.

والأعمال الشاقة.[7]

ومع ذلك الوضع الأمني، ورغم الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة، حافظ أبناء الجزائر ومنهم أهل الجنوب الشرقي على هويتهم. فالوضع العام في ظل الاستعمار حينها، كان يُراد منه أن ينحصر اهتمام الجزائريين، في مجرد الحفاظ على حياتهم وتوفير الأساسيات الضرورية للمعيشة، ويكون شغلهم الشاغل هو مجرد توفير لقمة العيش. ليصبح مجرد الحصول على الحد الأدنى من ضروريات الحياة إنجازا كبيرا بالنسبة للجزائريين، كل ذلك في ظل فقر يغلب على حياة الناس، وظهور للأوبئة من حين لآخر تتسبب في موت الكثيرين، خاصة الأطفال منهم.

وقد نجح المستعمر الفرنسي أحيانا، في أن يجعل من تلك الظروف المعيشية الصعبة، سببا في صراعات بين العروش والقبائل في كل منطقة من ربوع الوطن، في سبيل السعي للحفاظ على أمنها الغذائي. وزادتها سياسة (فرق تسد) الاستعمارية تأججا من حين لآخر. فقد تم اعتماد تلك السياسة بين الجزائريين، من خلال خلق صراعات بين الطرق الصوفية، ودس السموم داخل الزوايا وإذكاء النعرات العنصرية والعرقية بين قبائل وعروش كل منطقة. ونجح المستعمر الفرنسي في إفساد حياة شباب الجزائر حينها، فانغمس كثير منهم في اللهو والخمر والميسر وما إلى ذلك من المحرمات[8].

وقد شارك الجزائريون مع جنود الحلفاء(فرنسا، إنجلترا وروسيا وأمريكا) في الحرب العالمية الثانية (1939. 1945م)، فقد وعد الحلفاء الشعوب المستعمرة بالاستقلال بعد الانتصار على معسكر المحور (ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية). ولما انتصر الحلفاء على دول المحور، وطلع فجر 8ماي 1945 خرج العالم ليحتفل بانتهاء الحرب وزوال النازية. فشارك الشعب الجزائري كغيره في احتفال ذلك اليوم معبرا بدوره عن رغبته في الحرية. لكن السلطات الاستعمارية بالجزائر قابلت ذلك بالحديد والنار، فانقلبت الاحتفالات إلى ثورة قتل فيها الجزائريون، خاصة في نواحي قالمة وسطيف[9].

أما في وادي سوف فقد بدأ النضال السياسي في سنة 1943م، بتشكيل أول خلية سرية لحزب الشعب الجزائري، فأصبح محل أحمد ميلودي للخياطة، في سوق مدينة الوادي، مقر الخلية الأولى، يقصده المناضلون من داخل المنطقة وخارجها. وبدأت الخلية تبثّ الوعي النضالي وتنبّه السكان للعمل من أجل الحرية والاستقلال، وتعمل على تأسيس الخلايا وتكوين المناضلين سياسيا. إلا أنّ هذا النشاط أُصيب بالركود بعد أحداث 8 ماي 1945م،

7- نفسه، ص40.

8- إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، مصدر سابق، ص10.

9- المصدر نفسه، ص324.

حيث تمّ اعتقال بعض الأفراد من المناضلين. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وصدور العفو العام سنة 1946 أُفرج عن الزعماء، وجاء قانون سنة 1947م فأزال الحكم العسكري بأراضي الجنوب، لتعرف منطقة وادي سوف نشاطا سياسيا، تمثّل في تأسيس فرع لحركة الانتصار والحريات الديمقراطية، بقيادة أحمد ميلودي، الذي تعرض نشاطه السياسي للمضايقات الاستعمارية. فعجّل ذلك في تجسيد قناعة المناضلين بضرورة العمل العسكري، وعملا منهم بما جاء في كتاب الله عز وجل، قال تعالى: **﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾** سورة الحج: 39. وتمثلت النواة الأولى في تأسيس فرع المنظمة الخاصة السرية بوادي سوف، عُيّن على رأسه عبد القادر العمودي، وبدأ التكوين العسكري للمناضلين، وعمليات جمع الأسلحة وجلبها من المناطق الحدودية مع تونس وليبيا، ثم الإشراف على نقلها للولايات الأخرى.[10]

واستمر دورها في الإعداد وجمع السلاح وتوزيعه، إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية، وقد قرّرت قيادة الثورة بقاء وادي سوف منطقة عبور فقط، بعيدة عن أنظار المستعمر الفرنسي ومراقبته، لتحقق النجاح في ذلك الدور المنوط بها. ورغم ذلك وقعت بعض المعارك، منها معركة حاسي خليفة (17 نوفمبر 1954) ومعركة صحن الرتم بين الجديدة والمقرن (15 مارس 1954) ومعركة غوط شيكة الجديدة (10.8 أوت 1955)، ومعركة الدبيديبي بالرباح (15 جانفي 1956) ثم معركة غوط سلطان بتغزوت (16 جانفي 1956). استمر بعدها النشاط الثوري في المنطقة، قابلته القوات الاستعمارية بالقمع، والانتقام من المدنيين والتضييق عليهم.[11]

في ظل هذه الظروف الصعبة وهذا الواقع المعيشي المُزري، الذي يصعب فيه على أغلب أبناء الجزائر الالتحاق بالزوايا والكتاتيب والمدارس الحرة، المعروفة هنا وهناك في ربوع الجزائر. كان للأئمة ومعلمو القرآن الكريم في كل مساجد الجزائر دور فعال في توفير فرصة التعليم القرآني للجزائريين كان له أثر كبير في الحفاظ على الهوية الجزائرية الإسلامية بتعليم القرآن الكريم والحفاظ على اللغة العربية. فقياسا على تلك الظروف القاسية وذلك الواقع الصعب والبائس، فإن تلك الجهود تُعتبر عملا جليلا لا يُستهان به. ورغم أن أغلب أولئك الأئمة ومعلمي القرآن لم يتركوا آثارا مكتوبة تخلّد أسمائهم وتُبرز دورهم، إلا أنّه لا زالت ذكراهم حاضرة على لسان أبنائهم وأهليهم وتلاميذهم، يشهدون لهم ويرددون مواقفهم في مختلف المناسبات. حتى لا يغيب ذكرهم مع الجيل الذي عايشهم وتعلّم منهم وحفظ القرآن على أيديهم، ولتحفظ مآثرهم ذاكرة الأجيال، فإنه من المهم اليوم تدوين تلك الشهادات،

10- علي غنابزية، فصول ودراسات في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية بوادي سوف، المرجع السابق، ص71. 73، 77.

11- نفسه، ص 88.80.

وتسجيل جهود أولئك الأئمة ومعلمي القرآن من باب الوفاء لهم والاعتراف بجهودهم، وتثمينا لأعمالهم ودورهم في الحفاظ على الهوية الجزائرية الإسلامية، ولا شك أن كل ذلك يندرج ضمن مفهوم المقاومة الثقافية.

وقد عُرف بعضهم بدوره في دعم الحركة الوطنية والثورات الشعبية ثم الثورة التحريرية المباركة، وجمع المساعدات والأموال لها، وفتح بيوتهم ومساجدهم للمجاهدين. كل ذلك في ظل مساعي المستعمر الفرنسي لطمس الهوية الجزائرية ومحاربة الدين الإسلامي والقضاء على اللغة العربية. بنشر سياسة التجهيل والتضييق على تعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم، ومحاولة استبدال كل ذلك بتعليم فرنسي في مدارس تُشرف عليها الإدارة الفرنسية. وقد قاوم الجزائريون كل ذلك في مختلف ربوع الوطن، كان في طليعتهم الأئمة ومعلمو القرآن الكريم، وهو ما فعله إخوانهم في بلدة ورماس.

3. تعريف ببلدة ورماس:

ورماس هي واحدة من التجمعات السكانية، التي انبثقت خلال القرن التاسع عشر، عن بلدة كوينين في منطقة وادي سوف من الجنوب الشرقي للجزائر. كان ذلك في رحلة البحث عن الماء وتوسيع غيطان النخيل، الذي شكل حينها مصدر الرزق الأساسي وسبب استقرار السكان في هذه المنطقة. وقد عُرفت ورماس بقرب مياهها الجوفية، وسُهولة حفر الغيطان فيها، ما سهّل عملية غرس النخيل وتوسيع الغيطان. إضافة إلى أنها منطقة عُبور، فيها معالم تهتدي بها القوافل العابرة جنوبا نحو منطقة تقرت. وُيرجح أن سبب تسمية هذه المنطقة بورماس، يعود إلى اسم رجل مشهور اسمه (ورماس) من سكان زناته، الذين عاشوا في وادي سوف، فلما عبر هذا الرجل مع بعض قومه إلى تقرت، حطّوا رحالهم في هذه المنطقة. حينها مرض ورماس فأقام فيها مدة ثم توفي ودفن فيها، فأصبح الناس يسمون هذه المنطقة ورماس[12].

تقع بلدة ورماس في الجهة الشمالية الغربية لمنطقة وادي سوف. وقد أصبحت بلدية بعد التقسيم الإداري لسنة 1984م، وهي تبعد عن مقر ولاية الوادي بـ 11كم، وتقع على بعد 14كم من مقر دائرة قمار. بلغ عدد سكانها 8 ألاف نسمة سنة 2016م. وهي تتربع على منطقة واسعة تمتد من كوينين شرقا إلى حدود جامعة والطيبات غربا، ومن تغزوت شمالا إلى حدود واد العنلده وأميه ونسة جنوبا.

4. أبرز معلمي القرآن في بلدة ورماس خلال الفترة الاستعمارية (1900 ـ 1962م):

بلدة ورماس كغيرها من مناطق وادي سوف اهتم أهلها بحفظ القرآن الكريم وتحفيظه،

12- إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، مصدر سابق، ص 116.115.

عملا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، **(خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه)**[13]، وطلبا منهم لما فيه من فضل وخير عظيم، لقوله تعالى: **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾** سورة الإسراء: 09.

وقد عرف أهل المنطقة بذلك الحرص على القرآن الكريم، حتى أن الكاتبة الفرنسية سيللي ميللي سجلت هذه الملاحظة بقولها: " ليس من الغريب أن نجد واحدا مقابل عشرة ممن يحفظ القرآن كله بوادي سوف بينما في باقي إفريقيا الشمالية فإن هذه المعرفة محصورة في الطلبة وبعض الخواص بنسبة واحد من الألف..." [14]. وقد كان تحفيظ القرآن الكريم من مهام إمام المسجد، ويتم أحيانا تخصيص معلم قرآن لأداء مهمة تحفيظ القرآن، فقد عُرفت جلّ المساجد الجزائرية بفتحها لحلقة تحفيظ القرآن الكريم، وقد يتم ذلك في مكان آخر خارج المسجد أحيانا نظرا لبعض الظروف. فبرز خلال فترة الاستعمار الفرنسي مجموعة من الأئمة ومعلمي القرآن، بقي إلى اليوم يذكرهم من تتلمذ على يديهم، لدورهم البارز في تحفيظ القرآن، والحفاظ على الهوية الإسلامية للمجتمع، نذكر منهم:

ـ الشيخ محمد الصالح هادفي:

عُرف الشيخ محمد الصالح هادفي في ورماس باسم الطالب (ابيهي)، ولد سنة 1876م وتوفي سنة 1945م. حفظ القرآن الكريم في بلدة كوينين، وعُرف بحفظه الجيد للقرآن الكريم وتمكنه من علم الفرائض، فكان يقسّم الميراث في بلدة ورماس. ونظرا لمعرفته وحكمته كان القاضي مسعود المكلّف بالقضاء في منطقة الوادي يُراجعه في القضايا المتعلقة ببلدة ورماس[15].

كان للطالب (ابيهي) الدور الرئيسي في تأسيس مسجد حي بربري (مسجد النعمان بن بشير حاليا) سنة 1918م، وهو من أبرز من قام بالإشراف على بناءه وعمارته. فقد كان وإلى أواخر حياته إماما لهذا المسجد والقائم على شؤونه. اهتم بالبحث في العلوم الشرعية، فحظي بمجموعة من الكتب الشرعية، جلبها له ابنه (المكي) من مدرسة عبد الحميد بن باديس بقسنطينة. ما جعله مقصد المستفتين من أبناء ورماس ومن خارجها[16]. ومن أبرز من

13- رواه الإمام البخاري في صحيحه، تح: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 2002م، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ج6، ص191، رقم الحديث:5027

14- J. Scelles millie: Contes sahariens du souf, Maisonneuve et la Rose, Paris, p24.

ينظر أيضا: يوسف زغوان، التعليم الحر بوادي سوف (1931-1962م) من خلال الوثائق المحلية والروايات الشفوية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الوادي، 2015/2014.

15- لقاء مع الحاج علي المكي مرابط، في بيته، يوم: 2022/06/03.

16- لقاء مع الحاج علي المكي مرابط، في بيته، يوم: 3/ 6/ 2022.

تتلمذ على يدي الشيخ وختم حفظ القرآن الكريم في حلقاته نذكر: الطالب عماره مرابط، وابنه علي هادفي، وحفيده إبراهيم هادفي، والطالب الساسي معامير (الطالب عمر)، الطالب علي بوساحة والحاج علي مرابط. وقد كان لهؤلاء دورهم المهم بعده في تحفيظ القرآن وإمامة الناس في مساجد ورماس[17].

ـ الشيخ لخضر زيدان:

ولد الشيخ لخضر زيدان سنة 1901م، وهو إمام مسجد عبد الله بن صالح، المعروف اليوم بمسجد (عبد الله بن حذافة) بورماس، في الفترة الممتدة بين 1925 إلى غاية 1933م. حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ (عبد الله بوزنة)، هذا الأخير هو أحد الحفظة ومعلمي القرآن الوافدين من حي أولاد حمد بالوادي إلى بلدة ورماس، وكان له دور كبير في تحفيظ القرآن في بلدة ورماس. وقد كان من تلاميذ الشيخ بوزنة إضافة إلى الطالب لخضر زيدان، جلالي أحمد، جلالي بلقاسم، مأمون محمد العيد، مأمون سعد ومأمون السايح[18]. وقد توفي الطالب لخضر زيدان سنة 1949م، وكان من أبرز تلاميذه[19]:

– رحال عبد القادر (وهو من مواليد1920) الذي أصبح إماما ومعلّما للقرآن في مسجد الدويرة، وبعدها إماما في مسجد السبطي بكوينين. وتجدر الإشارة إلى أنه تعاقب على الإمامة وتحفيظ القرآن في مسجد الدويرة القديم قبل الطالب عبد القادر رحال، كل من الطالب مبارك بلعيد، ثم الطالب خليف محمد (ولد سنة 1877م)، ثم الطالب العرشي عبد الحفيظ (ولد سنة 1894م).[20]

– مناصير إبراهيم ومناصير بلقاسم، هذا الأخير أصبح إماما في المسجد المعروف حاليا باسم: (عقبة بن نافع) بورماس.

– المجاهد محمد واده (وهو أحد المسبلين لجمع الأموال والمساعدات للثورة التحريرية).[21]

ـ الشيخ البشير بن معيوة:

الشيخ البشير بن معيوة هو أحد أبرز الأئمة ومعلمي القرآن الوافدين إلى بلدة ورماس، فقد كان له فيها دور مهم في تعليم القرآن، وذلك في الفترة الممتدة بين 1946 إلى 1959م،

17- لقاء مع الحاج عبد الله معامير، في مسجد النعمان بين بشير، يوم 25/ 05/ 2022.

18- لقاء مع الأستاذ إبراهيم زياد، في بيته، يوم 2022/06/06.

19- لقاء مع الأستاذ الحبيب سالم، في بيته، يوم 2/ 06/ 2022.

20- لقاء مع الأستاذ العروسي مكاوي، في بيته، يوم 2022/08/23.

21- لقاء مع الأستاذ الحبيب سالم، في بيته، يوم 2/ 06/ 2022.

كان حينها قائما على الإمامة بمسجد عبد الله بن صالح (المعروف اليوم بمسجد عبد الله بن حذافة). انتقل بعدها إلى قرية لقويرات بورماس إماما لمسجدها ومعلّما للقرآن فيه. من أبرز من ختم القرآن عنده: ابنه التجاني بن البشير بن معوة (الذي خلف والده في إمامة مسجد عبد الله بن صالح)، ومقدود علي سلطان، معمر سالم، محمد البشير سالم وعبايدي معمر. وقد كان لبعضهم دوره البارز في إمامة الناس وتحفيظ القرآن. كما تتلمذ على يد الشيخ البشير بن معوة الشهيد عبايدي محمد الحبيب، والمجاهد سالم العربي بن محمد الصغير، والمجاهد بلموشي أحمد، عليهم رحمة الله[22].

ـ الشيخ عماره مرابط:

ولد الشيخ عماره مرابط سنة 1887م، عُرف باسم (الطالب عمارة)، حفظ القرآن الكريم عند الشيخ محمد الصالح هادفي (الطالب ابيهي). فحظي لضبطه وقوة حفظه بمكانة خاصة عند شيخه، حتى أنه زوّجه ابنته، وأورثه كُتبه قبل وفاته، وقد كانت الكتب حينها نادرة، قليل من يحظى بفرصة امتلاكها. توفي الطالب عماره عليه رحمة الله سنة 1977م.

كان للطالب عماره حلقة تحفيظ للقرآن الكريم في عهد شيخه، في أحد البيوت التي وهبها له صاحبها لذلك الغرض، بعد رحيله عن منطقة ورماس. ثم أصبح الطالب عماره إماما لمسجد حيّه، وهو المسجد المعروف اليوم باسم: (مسجد النعمان بن بشير) في حي أول نوفمبر (حي بربري) بورماس. وقد كان قائما على شؤونه، إمامة وتدريسا وخطابة وتعليما للقرآن[23]. من أبرز من تتلمذ على يديه: ابنيه أحمد وعبد الرزاق، ومسعود بن محمد مرابط، بلقاسم ريان بن عبد القادر، وإبراهيم مرابط بن الهاشمي، أحمد بن إبراهيم مرابط، ومسعود شتيوي، محمود شتيوي، محمد بوساحة بن علي. ومن تلاميذه كذلك[24]:

- الطالب علي حجاجة، الذي قام بالإمامة في مسجد النعمان بن بشير بورماس متطوعا لمدة زمنية معتبرة.

- الطالب الطيب الزاوي، الذي علّم القرآن في المدرسة القرآنية لمسجد النعمان بن بشير بورماس. وقد ختم القرآن على يديه بعض من تلاميذه.

- الشيخ البشير الشابي التغزوتي، الذي ختم عنده القرآن الكريم، ثم درس في الزيتونة، ثم في جامعة العراق وفي مصر، وشغل بعد استقلال الجزائر منصب مفتش للتعليم الثانوي

22- لقاء مع الأستاذ الحبيب سالم، في بيته، يوم 2/ 6/ 2022.

23- لقاء مع الحاج علي المكي مرابط، في بيته، يوم 3/ 6/ 2022.

24- لقاء مع الحاج عبد الله معامير، يوم 25/ 05/ 2022.

في مقاطعة ورقلة.[25]

- أحمد بن لكحل رحماني وأخوه محمد العيد رحماني: فقد أتم أحمد رحماني ختم القرآن الكريم عند الطالب عماره، ثم انتقل للدراسة في تونس والعراق ثم في مصر، التي تخرّج منها ضابط شرطة، وعمل مع جيش التحرير الوطني قبل الاستقلال في جلب السلاح من تونس إلى الجزائر. وبعد الاستقلال أصبح إطارا في الجيش الشعبي الوطني. ثم تحوّل إلى التعليم بمدرسة أشبال الأمة بالقليعة سنة 1969م، وبعد تقاعده تفرغ للدروس المسجدية والتأليف[26].

وجدير بالذكر أن البشير الشابي وأحمد بن لكحل رحماني، كان كل واحد منهما يعقد أحيانا حلقة علم في ورماس، لشرح شيء من (متن ابن عاشر والأجرومية وتفسير الجلالين)، كان ذلك في أوقات عودتهما من الدراسة خارج الجزائر خلال فترة الاستعمار[27]. فتركا عليهما رحمة الله أثرا طيبا ورغبة في التزوّد العلمي، وحفظ القرآن الكريم وعلوم الشريعة الإسلامية لدى سكان المنطقة.

ـ الشيخ علي بوساحة:

ولد الشيخ علي بوساحة المعروف بالطالب علي بوساحة سنة 1910م، في بلدة ورماس، التي نشأ وترعرع وعاش أغلب حياته فيها، إلى أن وافته المنية سنة 1996م.

بدأ الطالب علي بوساحة حفظ القرآن الكريم عند الطالب محمد الصالح هادفي (الطالب ابيهي) في مسجد بربري، وختم القرآن الكريم كاملا عند الشيخ عبد الله بوزنة، فعُرف بقوة حفظه للقرآن الكريم[28]. تفرغ في أربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين لتحفيظ أبناء جامع فيصل (جامع الفتح حاليا) في حيّهم بورماس، وممن تتلمذ على يديه قبل الاستقلال: بلبي مسعود بن عمار، بلبي السعيد الطاهر، محمود بوحامد وسعد بوحامد ومحمد العيد دواشي، وابنيه محمد وأحمد بوساحة [29]. اهتم عليه رحمة الله بتعليم البنات القرآن الكريم، وبدأ ذلك مع بناته وبعضا من بنات الحي. وقد واصل تعليم القرآن الكريم بعد عودته من فرنسا سنة 1956م، التي ذهب إليها عاملا لمدة خمس سنوات، وزاد نشاطه في التعليم القرآني بعد الاستقلال[30].

25- لقاء مع الطالب علي حجاجة، في بيته، يوم 2022/06/02.

26- لقاء مع الطالب علي حجاجة، يوم 2022/06/02.

27- لقاء مع الطالب علي حجاجة، يوم 2/6/ 2022. واكد ذلك الحاج علي المكي في مقابلة معه يوم 2022/6/3.

28- لقاء مع الحاج عبد الله معامير، يوم 25/ 05/ 2022.

29- لقاء مع الحاج مسعود بلبي بن عمار وأحمد بوساحة، في بيته، يوم 2022/08/19.

30- لقاء مع ابنه بوساحة جمال، في مسجد النعمان بن بشير، يوم 2022/08/15.

ـ الشيخ معمر سالم:

ولد الشيخ معمر سالم سنة 1933 وتوفي سنة 2004م بورماس، حفظ القرآن في سن 17، على يد الطالب البشير بن معيوة. ونظرا لاحتفاء أهل ورماس بالقرآن الكريم وأهله، أقام جدّه وليمة كبيرة لأهل الحي بمناسبة ختمه هو وابن عمه سالم محمد البشير، وأهدى كل واحد منهما خمسة نخلات، وهي بمقياس ذلك الزمان هدية عظيمة ورزق كبير.

صلّى الطالب معمر التراويح بالناس في مساجد ورماس والطريفاوي، وأصبح سنة 1960م إماما لمسجد عبد الله بن صالح بورماس (عبد الله بن حذافة حاليا)، فكان يقوم على كل شؤون المسجد وبدأ حينها بتحفيظ القرآن الكريم. ومن بين تلاميذه: دريدي محمود، سالم عبد الحميد بن أحمد، حجاجة محمد العربي، قريوي محمد بن إسماعيل، رحال محمد بن عبد القادر، سالم الحبيب بن أحمد، سالم الحبيب بن المشري ومحمد عكيشي بن علي وغيرهم بعد الاستقلال. دامت إمامته لمسجده 44 سنة، إلى آخر حياته، منها 21 سنة متطوعا، وقد خطب بالناس وصلّى بهم إلى آخر جمعة في حياته. اهتم بتعليم البنات القرآن الكريم عليه رحمة الله، وشجعهنّ على المواصلة، لإدراكه أهمية ذلك في بناء الفرد والأسرة والمجتمع[31].

5. طريقة التحفيظ:

قد تختلف طريقة التحفيظ من شيخ إلى شيخ آخر، لكن في الغالب كانت بداية التحفيظ تكون بعد صلاة الفجرة. أما الفترة الثانية من التحفيظ، فعادة تكون مساءً، إما بعد صلاة العصر أو بعد صلاة المغرب. ويُستعمل في التحفيظ لوح من الخشب والدواية وتتم الكتابة بقلم من قصب.

تبدأ المرحلة الأولى بتعلم المبتدئين الحروف العربية، لغة القرآن الكريم، وضبط مخارجها وأصواتها رفعا ونصبا وكسرا، وما إلى ذلك. في هذه البداية يتكفّل الشيخ أو أحد مساعديه من تلاميذه النجباء والمتقدّمين في الحفظ، بكتابة الحروف وتلقينها للمبتدئين. وعادة ما يكون التلقين في هذه المرحلة والتكرار من أجل الحفظ والضبط جماعيا. فمن أتقنها ينتقل إلى مرحلة ثانية، يتم فيها كتابة ما تيسّر من قصار السور، على لوح التلميذ، ثمّ تبدأ المرحلة الثالثة بعد تمكّن التلميذ من عملية الكتابة الصحيحة وحده. فيكتب على لوحه مجموعة الآيات المقررة عليه حفظها من القرآن الكريم.

وعادة ما يقوم التلاميذ بكتابة الجزء المقرّر عليهم من القرآن الكريم على الألواح في الفترة الصباحية، في جلسة جماعية، يُملي فيها الشيخ على كل واحد منهم الجزء المعني به، آية آية إلى أن ينتهي من الجزء المقرر عليه. فتتم بذلك الكتابة على اللوح وفي نفس الوقت

31- لقاء مع الأستاذ الحبيب سالم، في بيته، يوم 02/ 06/ 2022.

تلقين التلميذ ما سيحفظه، لضمان أن الحفظ سيكون على الوجه الصحيح، دون لحن أو تحريف في النطق. وبعدها يقوم كل واحد من التلاميذ بتكرار ما كتبه، إلى أن يصل إلى درجة حفظه عن ظهر قلب. فيقوم بعرض ما حفظه على الشيخ، ليُجيزه على حفظه أو يطلب منه زيادة التكرار لتحقيق الإتقان في الحفظ، وربما صحّح له ما لم يتم ضبطه كتابة أو نطقا.

وفي الفترة المسائية يُعيد التلميذ تكرار ما كتبه بالأمس على لوحه، وبعد تأكيد حفظ الجزء المكتوب، يعرض التلميذ ذلك الجزء على شيخه، ليُجيزه في حفظه وربما طلب منه التكرار أكثر. فإذا تمت عملية الحفظ الجيد، يقوم التلميذ بمسح اللوح في مكان مخصص لذلك، باستعمال الماء والطين لوجه اللوح المحفوظ مساء. وهكذا تستمر هذه العملية كل يوم ما عدا يوم الخميس والجمعة فقد كانا يومي راحة. ويتم من حين لآخر تكرار السور والأجزاء التي سبق حفظها مجتمعة، ثم حفظها على الشيخ. وهكذا إلى غاية ختم القرآن الكريم كاملا، لمن وفقه الله في ذلك واجتهد وجدّ واستمر في الحفظ. لتبدأ بعدها الختمة الثانية، للضبط وترسيخ الحفظ.

6. القيم التي زرعها الشيوخ بين تلاميذهم وبين أفراد المجتمع:

غرس الأئمة ومعلمو القرآن قيما رفيعة في المجتمع الورماسي، على رأسها قيمة طلب العلم والحرص على حفظ القرآن الكريم، فلا تجد بيتا في ورماس إلا ويحرص أهله على تحفيظ أبناءهم القرآن الكريم، فيرسلونهم منذ صغرهم إلى حلقات التحفيظ. حتى أنّه في بعض الفترات التي تتعثر فيها حلق التحفيظ في بعض المساجد، ترسل الأسر أبناءها إلى حلقات تحفيظ القرآن الكريم ولو كانت بعيدة على بيوتهم.

كما رّسخ الشيوخ مبدأ الموازنة بين الدين والدنيا والتوفيق بين مطالب الروح ومطالب الجسد، فقد عمل جلهم إضافة إلى مهمة الإمامة وتحفيظ القرآن، فيما اشتغل فيه أترابهم، خاصة في غيطان النخيل. فكانوا قدوة لسكان المنطقة في حسن أخلاقهم وورعهم في تعاملاتهم اليومية. كما ظهر جليا دور العملية التعليمية لتحفيظ القرآن الكريم، في غرس قيم تنظيم الوقت والحرص عليه، والحرص على النظافة والحفاظ على وسائل التعليم وكل الممتلكات الخاصة منها والعامة، على قلّتها في تلك الفترة الاستعمارية. كما ساهمت طريقة الكتابة والتحفيظ السابقة الذكر، في تعلم وإتقان التلاميذ للكتابة ورسم الخط العربي. ومن ثم الإعلاء من شأن الحرف العربي واللغة العربية. وتُعتبر تلك الطريقة أفضل الطرق لضبط الرسم القرآني وترسيخ الحفظ في الأذهان.

ومن القيم الحاضرة بين أفراد المجتمع القيمة العالية والمكانة الكبيرة للشيخ ومعلّم القرآن وللأئمة وطلبة القرآن، وهو ما جعل منهم أعيانا في المجتمع، لهم هيبتهم وكلمتهم مسموعة بين أفراد المجتمع. وقد سعى أغلب الأئمة للحفاظ على الهوية الإسلامية وحفظ القرآن الكريم،

بحرصهم على تشييد المساجد وعمارتها، وإنشاء حلق تحفيظ القرآن الكريم فيها، والسعي الدائم لضمان استقرار الإمام في المسجد بتوفير كل ما يشجع الإمام ومعلم القرآن، سبل العيش الكريم من تأمين البيت له وتسهيل سبل العيش له وكذا توفير الوسائل التعليمية وحسن اختيار المكان المناسب للتدريس. فرغم صعوبة الوضع الاجتماعي والاقتصادي في الفترة الاستعمارية، إلا أن المجتمع الورماسي كانت يتكاتف لتوفير ما يحتاجه الإمام ومعلم القرآن، تقديما منهم للمصلحة العامة ولو كان ذلك على حساب مصالحهم الخاصة. قال تعالى: **﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾** سورة التوبة: 18.

ولإدراكهم أن هذا العمل من أشراف الأعمال وبه صلاح مجتمعهم كان كل فرد يسعى لنيل شرف المساهم فيه ويرغب في تحصيل الأجر والثواب منه، على اعتبار أن كل ذلك يندرج ضمن باب الصدقات الجارية، التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله: **(إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)**[32]. ومن مظاهر ذلك الاهتمام أن حلق تحفيظ القرآن كان يتم خصها بوجبات متنوعة، في المناسبات الاجتماعية المختلفة. وكتعبير على فرح العائلات بختم أبناءها عند كل حزب، يرسلون وجبة خاصة لإطعام الشيخ وتلاميذه والمصلين في المسجد.

ونظرا للدور الريادي للمسجد في حياة أهل ورماس، سهروا على بناء مسجد في كل حي أو تجمع سكاني جديد. بالرغم من أنّ الكثافة السكانية لبلدة ورماس ليست بالكبيرة إلا أن أهلها كغيرهم في ربوع الجزائر، يرون أن المسجد من المرافق الضرورية في حياتهم. فهو مكان لأداء الصلوات الخمس والجمعة والأعياد الدينية والتراويح والتهجد في رمضان، وتقديم دروس الإرشاد والتوجيه وإجابة المستفتين والسائلين وإقامة عقود الزواج وإيواء عابري السبيل وغيرها. فهناك دائما من المصلين من يقوم على شؤون المسجد، قال تعالى: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** سورة النور: 36-38.

ونظرا للوضع الاستعماري التي كانت تعايشه المنطقة آنذاك كان للأئمة ومعلمي القرآن في ورماس أثر كبير في الشد على يد تلاميذهم وأهل المنطقة للتصدي للاستعمار الغاشم، وتعزيز قيمة حب الوطن والدفاع عنه والجهاد في سبيل الله، ما دفع البعض للانخراط في

32- رواه الإمام مسلم في صحيحه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ج3، ص 1255، رقم الحديث: 1631.

صفوف جيش التحرير الوطني، منهم المجاهد بلموشي أحمد والمجاهد جابر شويه والمجاهد العربي سالم، ومنهم من استشهد أثناء حرب التحرير كالشهيد بلبي الصادق والشهيد عبايدي الحبيب.

كما شارك غيرهم كمسبيلين لمساعدة جيش التحرير وجمع الأموال من أهل ورماس للثورة، وضمان مرور آمن للمجاهدين منهم العزوزي الجلالي ومحمد واده، جديع أحمد، شوية محمد، احمودة الطاهر، دحمان أحمد، بطينة إبراهيم، بطينة بلقاسم وبوساحة محمد الصغير[33]. قال تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ سورة الأحزاب: 23.

7. خاتمة

تعددت أوجه وسبل المقاومة الثقافية أثناء الحقبة الاستعمارية، في القطر الجزائري، وبالخصوص في منطقة الجنوب الشرقي. فقد ساهم فيها العلماء والأعلام وطلبة العلم بما نشروه من مؤلفات وما كتبوه في الصحف والمجلات، وما نشروه من دروس ومواعظ بين الناس، رغم قلة الإمكانيات المادية والمعنوية. كما شارك في تلك المقاومة الثقافية الأئمة ومعلمو القرآن الكريم، من خلال أداءهم للدور المنوط بهم في كل مسجد من مساجد الجزائر، رغم المضايقات من طرف المستعمر الفرنسي.

والمتتبع لأحوال مجتمعاتنا الإسلامية، يجد أنه كلما ازدادت المحنة ومحاربة الدين، ومحاولات طمس مقومات الهوية الإسلامية، كلما ازداد حرص المسلمين عموما ومنهم أبناء الجزائر، على دينهم والحفاظ على قرآنهم ولغتهم ومقومات هويتهم الإسلامية. ومن مظاهر ذلك التمسك الدائم بالقرآن الكريم حفظا وتحفيظا وتفسيرا وعملا بما جاء فيه. إضافة إلى الحرص على بناء المساجد كمرفق لا بد منه في حياة الناس في كل تجمع سكاني جديد.

ورغم أن عموم المجتمع الجزائري معروف بأنه مجتمع محافظ على تعاليم الإسلام، إلا أن بعض المناطق منه تُعرف بين الجزائريين بأنها أكثر حرصا على القرآن الكريم، حفظا وتحفيظا وإعلاء من شأن القرآن وأهله، ومنها منطقة الجنوب الشرقي وعلى رأسها منطقة وادي سوف. هذه السيرة الحسنة والصورة المشرقة لم تأت من فراغ، بل هي ثمرة الجهد الكبير والعمل الدؤوب والاستمرارية والمداومة على النشاط التعليمي الذي يقوم به الأئمة ومعلمو القرآن الكريم، في كل البلدات والقرى والمداشر.

وقد أصبح من نافلة القول أن نجاح الإمام ومعلم القرآن في أداء الدور المنوط به، مرهون باستقراره في المسجد، ولا يمكن أن تنجح المدارس القرآنية إلا بالاستمرارية والانضباط في العمل، والصرامة مع التلاميذ والالتزام بطرق التحفيظ التي أثبتت نجاحها

33- لقاء مع المجاهد محمد وادة، في بيته، يوم 2022/08/21.

ونجاعتها.

توصيات:

- إن الحفاظ على الهوية الوطنية الإسلامية، والحفاظ على وحدة المجتمع الجزائري، تتطلب اهتمام أكثر من الجهات الرسمية، ومن طرف أفراد المجتمع وهيئاته كذلك بالمؤسسة الدينية، والإعلاء من شأن الأئمة ومعلمي القرآن وتحسين ظروفهم الاجتماعية، ليتفرغوا لمهمتهم الجليلة، ويبذلوا في سبيلها كل جهدهم.

- الاهتمام أكثر بتحفيظ القرآن وتشجيع الحفظة، لأن كل ذلك يساهم في العملية التربوية، وتحقيق النجاح في الدنيا والآخرة، وحماية الأبناء من الآفات الاجتماعية والأفكار والعقائد الهدامة التي تُحدق بهم.

- فتح مناصب عمل دائمة خاصة بالأئمة ومعلمي القرآن تتناسب مع عدد المساجد في كل القطر الجزائري. وتعميم التجارب الناجحة للمدارس القرآنية.

- تخليد ذكرى البارزين من الأئمة ومعلمي القرآن بنشر سيرتهم، وتسمية بعض المرافق كالمساجد والمدارس القرآنية بأسمائهم. فذلك يَصب في إطار الرفع من قيمة القرآن وأهله، والإعلاء من شأنه بين النشء.

8. قائمة المراجع:

. **القرآن الكريم.**

- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 2002م.

- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، مطبعة ثالة، الجزائر، 2007.

- علي غنابزية، فصول ودراسات في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية بوادي سوف (1854 -1962)، مطبعة سامي، الوادي . الجزائر، ط1، 2022.

- يوسف زغوان، 2015/2014، التعليم الحر بوادي سوف (1931- 1962م) من خلال الوثائق المحلية والروايات الشفوية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية الإنسانية والاجتماعية، جامعة الوادي، الجزائر.

- لقاء مع الحاج عبد الله معامير، في مسجد النعمان بن بشير بورماس، يوم 25/ 05/ 2022.

-. لقاء مع الأستاذ الحبيب سالم، في بيته، يوم: 02/06/ 2022.

- لقاء مع الطالب الحاج علي حجاجة، في بيته، يوم: 2022/06/02.

- لقاء مع الحاج علي المكي مرابط، في بيته، يوم: 2022/06/03.

- لقاء مع الأستاذ إبراهيم زياد، في بيته، يوم: 2022/06/06.

- لقاء مع ابنه بوساحة جمال، يوم 2022/08/15.

- لقاء مع الحاج مسعود بلبي بن عمار وأحمد بوساحة، يوم 2022/08/19.

- لقاء مع المجاهد محمد وادة، في بيته، يوم 2022/08/21.

- لقاء مع الأستاذ العروسي مكاوي، في بيته، يوم: 2022/08/23.

من أعلام الإصلاح في خبنة عميش (وادي سوف)

From the flags of reform in the Omeish Khbna (Oued Souf)

أ/ مراد فرجاني
جامعة الوادي (الجزائر)
fredjanimourad@gmail.com

ط.د/ وحيدة فرجاني
مخبر التكامل المعرفي بين علوم اللغة العربية وآدابها
والعلوم الاجتماعية - جامعة الوادي (الجزائر)
ferdjani_ouahida@univ_eloued.dz



ملخص:

تروم هذه الدراسة إلى المساهمة في التعريف بأعيان الحركة الإصلاحية الثقافية بمنطقة خبنة عميش؛ وهم عمامرة الهادي، ولقرع محمد الضيف، ولقرع محمد الطيب، الذين كان لهم دور فعال وإيجابي في إعادة الناس إلى الطريق القويم والمنهج السليم في تلك الحقبة العصيّة التي مرت بها الجزائر خاصة مطلع القرن العشرين، متخذة هذه المسألة المنهج الوصفي والتحليلي مطية لتوضيح ماهية الإصلاح، وكذا المنهج التاريخي لعرض نبذة عن حياة هؤلاء الرواد، وأبرز أعمالهم الإصلاحية والدعوية والتربوية وأثرها على الفرد والمجتمع.

الكلمات المفتاحية:

الإصلاح؛ خبنة؛ عميش؛ أعيان.

Abstract :

This study aims to contribute to the definition of the notables of the reform movement in the Kbenet Omeish area. They are Amamra Al-Hadi, Laqra Muhammad Al-Dhaif, and Laqra Muhammad Al-Tayyib, who had an active and positive role in bringing people back to the right path and the right approach in that difficult era that Algeria went through, especially at the beginning of the twentieth century, taking this issue the descriptive and analytical method as a means to clarify the nature of reform. As well as the historical approach to present an overview of the lives of these pioneers, and the most prominent reform, advocacy and educational works and their impact on the individual and society.

Keywords:

Reform; Khbna, Omeish, Notables.

1. مقدمة:

شهدت الجزائر خلال الفترة الاستعمارية انتكاسات وتقلبات أثرت سلبا على كيان الفرد والمجتمع عقائديا وفكريا، الأمر الذي استدعى نهضة إصلاحية تجلت في بزوغ نجم حمل على عاتقه مسؤولية تقويم ما أفسدته يد المحتل الغاشم وأتباعه؛ ألا وهو الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس الذي دعا طلابه وأصدقائه إلى ضرورة تأسيس جمعية للعلماء المسلمين، تهدف إلى إخراج الشعب الجزائري من براثن الاستعمار، وذلك بالدعوة إلى التعليم العربي الحر، وإلى التمسك بمبادئ الشريعة الإسلامية الغراء.

والملفت للانتباه أن أبناء الجنوب الشرقي الجزائري لم ينأوا عن ركب الحركة الإصلاحية، بل واكبوها وانخرطوا في صفوفها رغم العنت والحنق اللذين وقفا حجر عثرة في طريقهم، إلا أنهم كابدوا تلك العراقيل، وتصدوا لها بالبحث عن بدائل وحلول لضمان بقاء وانتشار دعوتهم في كل قطر من أقطار الوطن، فمنهم من وجد في تونس الشقيقة الملاذ للفرار من بطش الاحتلال، وللالتحاق بجامع الزيتونة للتفقه والتزود بالعلوم الشرعية، ولتوطيد عرى التواصل مع التونسيين والاستفادة من خبراتهم، ومن ثمة العودة للتراب الوطني لخدمة أبناء جلدتهم، ومن أبرز الولايات الحدودية التي عرف أبناؤها نزوحا كبيرا نحو تونس، وادي سوف وأخص بالذكر منطقتنا خبنة عميش. لذا ارتأينا تسليط الضوء عليها، للتعريف بأبرز أعيان الإصلاح كالشهيد لقرع محمد الطيب، ولقرع محمد الضيف، وعمامرة الهادي الذين احتضنتهم تونس طلاب علم ثم معلمين وخطباء... في وادي سوف.

فمن هي تلك الشخصيات؟ وكيف التحقت بتونس؟ وما هو السبل التي انتهجتها لإحداث التأثير الإصلاحي في منطقتها خاصة وفي الجزائر عامة؟

ومن الأعراف المنهاجية الراسخة في مضمار البحث العلمي أنه يلزم لتحديد أي مصطلح الوقوف عند محطتين متكاملتين؛ أولاهما تعنى بالجانب اللغوي، وثانيهما تهتم بالجانب الاصطلاحي، وهو ما سنقف عليه قبل الخوض في تقديم نبذة عن حياة هؤلاء الأعيان وأهم أعمالهم الإصلاحية.

2. تعريف الإصلاح:

1.2. لغة:

من صَلُحَ: الصلاح: ضد الفساد، ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء، ومصلح في أعماله وأموره، وقد أصلحه الله وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه[1]، و(الإصلاح) ضد

1- ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة (صلح)، 2 / 516.

الإفساد. و(المصلحة) واحدةُ (المصالح) و(الاستصلاح) ضد الاستفساد[2] والصلاح والفساد مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال قال تعالى: :﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحًا وَآخرَ سَيِّئًا**﴾ [التوبة:102]، وقال تعالى: ﴿إليه **يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر:10[3]].

والإصلاح والفساد مفردتان متلازمتان لا ينفكان عن بعضهما، حيث يصعب فهم وتعريف إحداهما دون فهم وتعريف الأخرى، فمن الناحية اللغوية يصعب الاستدلال على معنى الفساد دون اعتباره حالة تتنافى مع مبدأ الصلاح والإصلاح.[4] وانطلاقا مما تم طرحه يتضح أن الصلاح ضد الفساد، وبأن صلاح الفرد يعني أن يصدر عنه كل فعل حسن، وكذلك إزالة أعمال العداوة والبغضاء بين الناس.

2.2. اصطلاحا:

على الرغم من كثرة التعريفات المعاصرة للإصلاح سنقتصر على تعريفين فقط وهما:

- الإصلاح هو الرجوع إلى الإسلام، ويصحب ذلك منهج كامل متكامل يشمل الأفراد والمجتمعات، يصلح العقيدة والفكر والثقافة، ويصلح السلوك والعبادة، فهو إصلاح اجتماعي واقتصادي وسياسي، وهو إصلاح دعوي تربوي تنظيمي شامل متكامل[5].

- هو تصويب ما أعوج في ممارسة أمور الدين والدنيا عند المسلمين، والعودة بها إلى الأصل الذي لم يلحقه زوائد ومحدثات[6].

2- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، عنى بترتيبه محمود خاطر، دار المعارف، القاهرة، ص 367.

3- الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم، دمشق، ط 3، 2002م، ص489.

4- الزبيدي، باسم، الإصلاح جذوره ومعانيه وأوجه استخدامه، مؤسسة الناشر للدعاية والإعلام، ط1،2005م، ص11.

5- محمود، علي عبد الحليم، فهم أصول الإسلام في رسالة التعاليم، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط1، 1994م، ص15.

6- بلقزيز، عبدالله – الخطاب الإصلاحي في المغرب، دار المنتخب، بيروت، ط1، 1997م، ص15.

* **الخبنة**: هي احدى قرى بلدية النخلة بولاية الوادي/ الجزائر، سميت بهذا الاسم لوقوعها في مكان منخفض ومنبسط بين منطقتي الرباح والنخلة، يحدها من الشمال الطريفاوي والبياضة وجنوبا الرباح والنخلة وشرقا النخلة الشمالية ودوار الماء وغربا الرباح، مساحتها (53,5هكتار).

عميش: هي منطقة تاريخية بالجهة الجنوبية من ولاية الوادي الجزائرية، وقد اختلفت الروايات حول تسميتها لكن الراجح منها: أنها سميت هكذا نسبة إلى رجل من زناته أعمش العينين مات هناك ويعرف هذا الرجل باسم عميش وكان رجلا جوادا لا يفارق بيته الدخان ولا يخلو من الفقراء والمحتاجين،

والمتأمل في هذين التعريفين يرى أنهما يركزان على العودة إلى الأصل، وهو صفاء الدين حيث خلق الله الإنسان على الفطرة، التي تحبذ تعلم القرآن والسنة، والنشوء في بيئة سليمة، نقية من الأمراض الاجتماعية والانحرافات والتقليد الأعمى، وبذلك يبقى المنهج الذي أراده الله تعالى له هو الأمثل لتقويم الاعوجاج.

3. بعض أعيان الإصلاح لمنطقة الخبنة:

3.1.1. نبذة عن الشيخ والشهيد لقرع محمد الضيف:

وهو الشهيد محمد الضيف بن لمام بن سعد بن فرجاني لقرع، أمه جمعة سوفية، ولد سنة 1913بقرية خبنة عميش* (ببلدية النخلة حاليا)، إخوته من الذكور محمد الطيب وعبد المجيد، ومن الإناث الزهرة ومسعودة.

نشأ وتربى بقرية الخبنة، بدأ تعليمه على يد والده وحفظ القرآن الكريم الذي أتمه مبكرا على يد والده، هذا الأخير الذي كان مولعا بالعلم والتعليم، وكان أغلى شيء عنده وعند أهل سوف قاطبة هو النخيل، لذا فقد قال لابنيه الشهيدين محمد الطيب ومحمد الضيف يوما:" واصلوا دراستكم حيثما رغبتم وأنا مستعد أن أبيع من أجل تعلمكم ما أملك من النخيل"[7]. كانت حياة الصبي كعادة أطفال القرى بسيطة وطبيعية، خاصة وأن الحياة الاجتماعية للعائلة كانت ضعيفة ماديا.

3.2.1. انتقال الشهيد محمد الضيف إلى تونس:

وكما أسلفنا القول إن والده شجعه كثيرا لمواصلة دراسته، بل كانت أمنيته الأولى والأخيرة في أن يلتحق ابنيه بجامع الزيتونة كعادة أبناء المنطقة المحبين للعلم وهو ما تحقق ففي بداية الأربعينيات بعد اجتيازه لامتحان الدخول مع أخوه محمد الطيب وقد تزامن التقائهم بالشيخ الحسين والذي سبقهم بعام. فتلقي محمد الضيف مختلف العلوم بالزيتونة على عدد من المشايخ المتخصصين في عدد من العلوم ومنهم:

- الشيخ محمد عبد العزيز النيفر

وكانت له مكانة خاصة ومرموقة بين البدو.

ينظر: العوامر إبراهيم محمد الساسي، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، منشورات ثالة، الجزائر، د.ط، 2007، ص 110.

7- والتي تقارب 60 نخلة تقريبا. لقاء شخصي مع: أخو الشهيد عبد المجيد لقرع بالمسجد العتيق بالخبنة في 11أ فريل 2022 صباحا على الساعة 6:20 حتى الساعة 7:00 تقربا وكذلك كتاب:-محمد الصالح بن علي، شهداء الثورة التحريرية ببلدية النخلة، مطبعة مزوار الوادي، الجزائر، ط1، 2014، ص 68.

- الشيخ أحمد بن عثمان

- الشيخ محمد التارز

- الشيخ إبراهيم النيفر

- الشيخ محمد البشيرالنيفر

- الشيخ محمد الزغواني

والتي أهلته بأن يكون من رجال العلم المشار إليهم بالبنان في الجهة.[8]

3،3،1. عودة الشهيد محمد الضيف إلى أرض الوطن مدرسا ومصلحا ومجاهدا:

آمن وعمل الشهيد محمد الضيف بمنهج جمعية العلماء المسلمين وقاد حركة إصلاحية علمية بالجهة الجنوبية من الوادي بعد رجوعه من جامع الزيتونة، حيث شرع في تدريس وتعليم القرآن الكريم وعلومه من الفقه والنحو والصرف..، بمدارس جمعية العلماء وبمدينة الوادي بمدرسة شيحات[9]، والتي قدرت بـ 70 طالبا كما سعى إلى نشر الوعي الفكري عن طريق الحلقات والمحاضرات والنشاط الكشفي مع تعرضه للظرب من السلطات الفرنسية كل يوم جمعة[10]، إضافة إلى نشاطه العلمي لم يخف محمد الضيف توجهه السياسي وموقفه الداعم للحركة الوطنية والتحضير للثورة المسلحة، المتجسد في انخراطه المبكر في التنظيم القاعدي والمدني المساند للثورة بالتجنيد والتعبئة وجمع المال وتوعية الشباب، وكان ذلك في شهر ديسمبر 1954.

ونظرا لنشاطه الإصلاحي البارز قامت جمعية العلماء بتعينه مدرسا بإحدى مدارسها بمنطقة القبائل[11]، وبالضبط في قرية آيت أو عبان[12] فانتقل مع عائلته إليها سنة 1955، وفي هذه المنطقة صار الشهيد محمد الضيف المعلم والمربي والمؤذن والمصلح والمسؤول والقاضي التقليدي الذي يتقاضى عنده الناس، في حين واصل نشاطه الثوري ضمن المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني في منطقة تعج بالنشاط الثوري والعدد الكبير من

8- المرجع نفسه، ص 69.

9- نسبة إلي المسؤول عن المدرسة عبد الباقي شيحة. لقاء شخصي: مع أخو الشيخ والشهيد عبد المجيد لقرع، يوم 2022/04/11.

10 نفس المرجع

11- وكان أحمد ميلودي من أجوال أم الشهيد المنسق الرئيسي لذلك ، نفس المرجع.

12- آيت أو عبان: قرية نائية تقع بقلب الحظيرة الوطنية لجرجرة، على بعد 80 كلم بأقصى جنوب ولاية تيزي وزو، حاليا تتبع إداريا لبلدية أقبيل دائرة الحمام.

المجاهدين[13] في طبيعة وعرة تساعد على ذلك، فغدا بيته مقرا سياسيا ومأوى ومطعما للثوار، وأقلق ذلك السلطات الفرنسية فعمدت إلى مداهمة البيت عدة مرات[14] والتضييق على نشاطه واعتبرته المحرك الرئيسي للثورة بالمنطقة، ومصدر قلق وشخصية غير مرغوب فيها وجب التخلص منها بأي ثمن وبشتى الطرق، وهو ما فعلته في ضحوة أحد أيام شهر ذي القعدة 1376هـ / الموافق لجوان 1957[15] حين داهمت قوات عسكرية بيته[16]، والقت القبض عليه، ثم أخرجته إلى الساحة بعدما عصبت عينيه بقطعة قماش سوداء، لكن عندما تأكد الشهيد محمد الضيف من نيتهم السيئة فك العصابة السوداء ورماها بعيدا ثم صلى ركعتين وقال لجلاديه الآن افعلوا ما شئتم، فنال الشهادة برصاصات الغدر رحمه الله وجعل مأواه الجنة.[17]

3.1.2. نبذة عن الشيط والشهيد لقرع محمد الضيف:

وهو الشيخ والشهيد لقرع محمد الطيب بن لمام بن سعد بن فرجاني لقرع، أمه جمعة سوفية، ولد خلال 1916بقرية الخبنة، (بلدية النخلة) أخو الشيخ والشهيد لقرع محمد الطيب بدأ حياته بالمهنة المتداولة بالقرية آنذاك وهي غراسة النخيل والفلاحة، وقد طلب منه والده لمام حفظ القرآن الكريم كما فعل أخوه الأكبر محمد الضيف لكنه تمنّع في بادئ الأمر، وبعدما أتعبته الأشغال الشاقة المتمثلة في رفع الرمال على الظهور والتي فرضها عليه والده تأديبا له، ورأى أخاه الأكبر محمد الضيف ينعم بالتعليم في جامع الزيتونة، حزّ ذلك في نفسه وندم على تصرفه وقرر الدخول إلى المدرسة القرآنية الملحقة بمسجد الخبنة والتي يديرها آنذاك والده لمام، وبعزيمة منه حفظ القرآن في مدة ثلاث سنوات، وصلى به صلاة التراويح في العام الثالث، وكان ذلك حوالي 1944.[18]

3.2.2. انتقال لقرع محمد الطيب إلى تونس:

لقد وعده والده بأن يبيع من أجل تعلمه ما يملك من نخيل، حيث أرسل ابنه محمد

13- ومن بينهم القائد عميروش. لقاء شخصي مع: أبرز أعيان العمومة الحاج محمد لقرع بالمسجد العتيق بالخبنة في 15أفريل2022

14- يقال أربع مرات. لقاء مع أخو الشهيد عبد المجيد لقرع، يوم2022/04/11.

15- ويقال في 7ماي1957. لقاء مع الحاج محمد لقرع، يوم 2022/04/15

16- ويقال أنه كان مع الشهيد عميروش والذي أصر عليه بالهروب سويا ولكنه رفض. نفس المرجع

17- محمد الصالح بن علي، شهداء الثورة التحريرية ببلدة النخلة، ص 69، 70

18- المرجع نفسه، ص 88.

* كرنبوا: وينطق لدى العامة كرنبا، وهو PIERRE CORNE BOIS رئيس وقائد مركز لاصاص بالرباح، وهي المصالح الإدارية المختصة (SAS).

الطيب إلى جامع الزيتونة ليلتحق بأخيه الأكبر الشهيد محمد الضيف في السنة الدراسية 1945/ 1946، ومنها تحصل على شهادة الأهلية في سنة 1949/1948، أما شهادة العالمية فقد تحصل عليها في الموسم الدراسي 1952/1951، وبعد ذلك رجع إلى مسقط رأسه سنة 1954.

3.2.3 الشهيد محمد الطيب المناضل والمعلم والإمام:

فبد عودته من جامع الزيتونة انظم إلى أخيه في التدريس بمدية الوادي مع الانضمام والمشاركة بنشاطات جمعية العلماء المسلمين، ومع اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954 انضم محمد الطيب لصفوفها في شهر ديسمبر من نفس السنة وهو التاريخ ذاته الذي التحق فيه اخوه الأكبر بالثورة، داعما لها بنضاله الذي تمثل في التوعية والتعبئة والتجنيد وجمع الأموال والسلاح سرا. ففي شهر فيفري 1955 وبعد عودته من مدينة إلى مسقط رأسه بقرية الخبنة مع العمل بالتدريس والصلاة واصل مسيرته النضالية السرية فأجتمع مع الشهيد حمه لخضر في أحد بيت الزنقي. وإلى غاية خريف سنة 1956 حين اشتداد الرقابة عليه أبلغه الحاج محمد لقرع بضرورة الخرج من القرية ومن منطقة الوادي ككل والالتحاق بأخيه في منطقة القبائل[19].

وبعد تفكير عميق قرر الشهيد محمد الطيب الالتحاق بأخيه في منطقة القبائل الكبرى وبالضبط في قرية آيت أو عبان بلدية أقبيل دائرة عين الحمام حاليا، وامتهن التدريس هناك بقرية مجاورة لقرية آيت أو عبان تسمى" تروال". وفي قرية " تروال " حظي الشهيد محمد الطيب بوافر التقدير والاحترام من طرف سكانها، وصنفوه كعين من أعيانها، وعلم من أعلامها فاندمج معهم كأخ ومعلم وإمام ومجاهد حين حمل السلاح وصعد يقاتل العدو في جبال جرجرة بالليل ويزاول مهنة التدريس بالنهار[20].

وعندما علم باستشهاد أخيه محمد الضيف في 7 ماي 1957 بالقرية المجاورة آيت أو عبان، صدم وفجع وأدرك أن العدو الذي غدر بأخيه سيغدر به آجلا أم عاجلا، فغير في مجرى مسيرته الجهادية بتخليه عن التدريس نهائيا والنزول إلى منطقة الأوراس، ليأخذ مكانه بين صفوف جيش التحرير الوطني وشاء قدر الله أن يلقى ربه ويستشهد في أول معركة جرت عند التحاقه بجيش التحرير بالأوراس[21]، وكان ذلك في شهر صفر 1378هـ / الموافق

19- لقاء شخصي: مع لقرع الحاج محمد بمسجد الخبنة العتيق يوم 2022/04/15. ولقاء مع أخو الشهيد في نفس المكان يوم 2022/04/11

20- محمد الصالح بن علي، المرجع السابق، 89، 90.

21- سعد العمامرة، الجيلاني العوامر، شهداء الحرب التحريرية بوادي سوف، مطبعة النخلة، د، ت، ص 140.

لأوت من سنة 1953، فرحمه الله واسكنه فسيح جناته.

3.1.3 نبذة عن الشيط عمامرة الهادي:

ولد الشيخ عمامرة **الهادي** بن علي بن مبروك بن فاطمة خلال 1890 بالخبنة (بلدية النخلة)، انتقل إلى مدينة الوادي تقريبا عام 1968/ 1967، ظل الشيخ عمامرة الهادي يوجه وينصح ويزرع بـذور العلم والمعرفة طوال مشوار حياته إلى أن وافته المنية في 28أكتوبر 1972 بالوادي.

3.2.3 الشيط عمامرة الهادي مفتيا ومعلما وإماما:

كان الشيخ عمامرة الهادي طموحا ومحبا للتعلم والتعليم، فبعد دراسته بالزيتونة واستيعابه العديد من العلوم كحفظه للموطأ للإمام مالك وغيرها وبعد عودته قام بتدريس القرآن الكريم ومبادئ اللغة والحساب وغيرها في الجامع العتيق بقريته الخبنة، حوالي سنة 1943،[22] مع ذالك كان مفتيا في الحلال والحرام يقصده الناس لاستفتائه في أمور دينهم ودنياهم، والأخذ بمشورته في القضايا الاجتماعية وحتى السياسية، فكان ينتقل حتى خارج المنطقة إلى حل العديد من المشكلات فعرضت عليه السلطات الفرنسية منصب الإفتاء لمنطقة وادي سوف ولكنه رفض بحجة وجود الاحتلال الفرنسي مما تعرض إلي مضايقات أدت به إلى اعتقاله و محاولة قتله من رئيس وقائد مركز لاصاص بالرباح (كرنبا) إلا أن أهالي منطقة الرباح وما جاورها خرجوا على بكرتهم وضغطوا بفك اعتقاله[23].

وقد كان ينتقل من حين إلى آخر لمنطقة واد ريغ كسيدي خليل (بجامعة حاليا) ليواصل نشاطه الإصلاحي والدعوي هناك[24]، وقد تتلمذ عليه العديد من الشيوخ ومن بينهم الشيخ حسين حمادي والشيخ لقرع محمد الضيف والشيخ لقرع محمد الطيب والشيخ دربال عبد القادر **وغيرهم**[25].

22- ثم إماما بالصحن الأول بجامع شادو بعد الاستقلال. لقاء شخصي: مع فرجاني محمود بالمسجد العتيق بالخبنة في صيف 2021

23- لقاء شخصي: مع ابن الشيخ، الشيخ خليل عمامرة عبر خدمة الوتساب يوم 20أفريل 2022.

24- لقاء شخصي: مع لقرع محمد بالمسجد العتيق بالخبنة في 2022/4/15.

25- لقاء شخصي: مع ابن الشيخ، الشيخ خليل عمامرة عبر خدمة الواتساب يوم 2022/4/20.

4. خاتمة:

في آخر المطاف نخلص إلى جملة من النتائج أو السمات المشتركة لهؤلاء الأعيان بمنطقتنا في مجال الإصلاح الدعوي والتربوي ولعل أهمها ما يلي:

- هؤلاء الأبطال عاشوا للقرآن ومع القرآن متعلمين ومعلمين في قريتهم خبنة عميش، وفي بعض نواحي وطنهم كواد ريغ والقبائل.

- ولم يصل هؤلاء الأشاوس لهذه المكانة من العلم إلا بعد جهود مضنية وإرادة قوية وتشجيع من طرف عائلتهم التي دفعت النفس والنفيس بغية ارتقاء أبناءها إلى أعلى مراتب في العلم رغم بعدهم عن مراكز التعلم الرائدة آنذاك.

- هؤلاء الأعيان كان لهم فضل كبير في إخراج الناس كبارا وصغارا من ظلمة الجهل والأمية إلى نور العلم والحق، بتعليمهم مبادئ القراءة والكتابة، وتلقينهم تعاليم دينهم الحنيف.

- لم يكتف هؤلاء الرواد بتعليم القرآن فحسب، بل تقلدوا منصب المفتي والإمام والمناضل السياسي والمصلح الاجتماعي والقاضي في الخصومات والنزاعات والناصح والمرشد والواعظ لمرتكبي الزلات، والأب والصديق الحنون الذي تفشى له الأسرار وقت الشدائد والأزمات.

5. قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- **المصادر:**

- ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة (صلح)، د،ط ، د،ت،
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، عنى بترتيبه محمود خاطر، دار المعارف، القاهرة، د،ط ، د،ت.
- الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم، دمشق، ط 3،
2002م.
- العوامر إبراهيم محمد الساسي، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، منشورات ثالة، الجزائر، د،ط، 2007.

- **الروايات الشفوية:**

- لقاء شخصي: مع لقرع الحاج محمد بمسجد الخبنة العتيق يوم 2022/04/15. ولقاء مع

أخو الشهيد في نفس المكان يوم 2022/04/11

- لقاء شخصي: مع ابن الشيخ، الشيخ خليل عمامرة القاطن بفرنسا عبر خدمات الواتساب يوم 20أفريل 2022.

- لقاء شخصي: مع فرجاني محمود بالمسجد العتيق بالخبنة في صيف 2021

- **المراجع:**

- بلقزيز، عبدالله – الخطاب الإصلاحي في المغرب، دار المنتخب، بيروت، ط1، 1997م.

- الزبيدي، باسم –الإصلاح جذوره ومعانيه وأوجه استخدامه، مؤسسة الناشر للدعاية والإعلام، ط1 ،2005م.

- سعد العمامرة، الجيلاني العوامر، شهداء الحرب التحريرية بوادي سوف، مطبعة النخلة، د، ت.

- محمد الصالح بن علي، شهداء الثورة التحريرية ببلدية النخلة، مطبعة مزوار الوادي، الجزائر، ط1، .2014

- محمود، علي عبد الحليم، فهم أصول الإسلام في رسالة التعاليم، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط1، 1994م. 5

جهود الشيخ عبد العزيز الشريف السّوفي
في المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي

Efforts of Sheikh Abdul Aziz Al-Sharif al-Soufi\r\nIn the cultural resistance to French colonialism\r\n

د/ أحمد غمام عمارة

مخبر الدراسات الفقهية والقضائية،

معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)

ghemamamara-ahmed@univ-eloued.dz



ملخص: ساهم العلاّمة عبد العزيز الشريف بقسط وافر في إبراز عظمة هذه الأمة ومجدها التليد، والدفاع عن مقومات أمّته العربية، وشخصيتها الإسلامية، وتعليم النشء قواعد اللغة العربية الصحيحة، وبذل عطاءات في سبيل إحداث نهضة علمية، وفكرية رائدة، للمحافظة على شخصية المجتمع من التفسخ والذوبان، حتى يواكب التطورات المستجدة التي برزت في العالم الأوربي المتمدّن، فمن هو العلاّمة عبد العزيز الشريف؟ وما هي أبرز جهوده في المقاومة الثقافية للمستعمر الفرنساوي؟

حاولت هذه الدراسة أن تميط اللثام عن هاته الشخصية، وتعيد الاعتبار للشيخ عبد العزيز الشريف، وتثبت أنه عالم من علماء "وادي سوف" ضرب بحظ وافر في حماية بلده خصوصا، ووطنه الجزائر عموما، بما قام به من إنجازات.

وتوصي الدراسة الطلبة، والباحثين في الدراسات الأكاديمية على اختلاف تخصصاتها؛ الشرعية، أو الأدبية، أو التاريخية أن يتولّوا التعريف بعلماء منطقة وادي سوف، ودورهم في خدمة أمّتهم، ووطنهم.

الكلمات المفتاحية: عبد العزيز الشريف؛ وادي سوف؛ الاستعمار الفرنسي؛ الزاوية؛ الإصلاح.

Abstract:

The mark Abdul Aziz Al-Sharif contributed a great deal to highlight the greatness of this nation and its glory, defend the elements of his Arab nation, its Islamic personality, teach young people the correct Arabic grammar, and make tenders for the creation of a pioneering scientific and intellectual renaissance, to preserve the personality of society from disintegration and melting, in order to keep pace with the new developments that have emerged in the civilized European world, who is the mark Abdul Aziz Al-Sharif? What are his most prominent efforts in the cultural resistance of the French colonist?

This study tried to reveal this personality, restore consideration to Sheikh

Abdelaziz Al-Sharif, and prove that he is a scholar of the 'Wadi Souf' who was struck with great luck in protecting his country in particular, and his homeland Algeria in general, with his achievements.\r\nThe study recommends that students and researchers in academic studies of all disciplines; legal, literary or historical, be introduced to the scholars of the Wadi Souf region, and their role in serving their nation and their homeland.
Keywords: Abdelaziz Cherif; Wadi Souf; French colonialism; Zawiya; Reform.

1. مقدمة:

شنّ الاستعمار الفرنسي على بلدنا الجزائر حربا لا هوادة فيها بغية طمس هوية الشعب الجزائري؛ حتى يقنعه بأنه جزء لا يتجزّأ من فرنسا، وظلّ هذا الاستعمار الغاشم يحاول دون كلل طمس الهوية الوطنية، والمبادئ الراسخة، المتمثلة في العقيدة الإسلامية، واللغة العربية، وإطفاء نورهما في عقر دارهما. وصاحب هذا كله إذلال الجزائريين، وإشعارهم أنهم فقدوا كل شيء في وطنهم، لأنه أصبح في نظر الغاصب جزءا من "الوطن الأم" فرنسا، وظن أنه استطاع اجتثات جذور الشعب الجزائري، ومحو خصائصه الروحية والثقافية؛ أي العروبة، والإسلام، وذلك حسب مقولة الكاردينال "لافيجري" سنة 1930م: "إن عهد الهلال في الجزائر، قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ وإنه سيستمر إلى الأبد[1].

وقد شهر المخلصون من أبناء الجزائر؛ علماء، ومثقّفون في وجه الاستعمار شعارا لامعا وسمُوه "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، ردّا على إصرار الاستعمار البغيض جعل هذه الأوطان العربية الإسلامية العزيزة جزءا لا يتجزأ من فرنسا الأوروبية المسيحية، والبنت المدللة للبابا في روما، فتصدّى الشعب الجزائري الأبيّ لهذه الحرب الثقافية تحت قيادة العلماء والفقهاء، والشيوخ أبرزهم في بلدتنا "وادي سوف" الشيخ عبد العزيز الهاشمي الشريف، الذي لا يعرفه الكثير من أبناء بلدته.

الإشكالية المطروحة: من هو الشيخ عبد العزيز الشريف، وما هي أبرز مظاهر المقاومة الثقافية للاستعمار التي مارسها هذا العالِم البطل الضرغام؟

الهدف من هذه الدراسة:

- إبراز الجهود العظيمة التي بذلها هذا الرجل في خدمة بلدته ووطنه.
- الدعوة إلى العناية بتاريخ وادي سوف، وإبراز علم أبطاله في مختلف التخصصات.

المنهج المتبع في هذه الدراسة:

تقتضي طبيعة الدراسة اعتماد المنهج التاريخي بصفة أساس؛ لأنه المنهج الذي يقوم

1- عبد الحميد بن باديس الصنهاجي(ت: 1359هـ)، تفسير ابن باديس "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط:1، 1416هـ-1995م، ص: 12.

على رصد الأحداث التاريخية، ثم تحليلها، والتعقيب عليها.

خطة الدراسة:

واشتملت على مقدمة تعرّف بعناصر الدراسة، وأربعة مطالب، وانتهت بخاتمة.

المطلب الأول: التعريف بالشيخ عبد العزيز الشريف.

المطلب الثاني: دعم الشيخ عبد العزيز الشريف الفكر الإصلاحي.

المطلب الثالث: قيام الشيخ عبد العزيز الشريف ببناء المدارس.

المطلب الرابع: قيام الشيخ عبد العزيز الشريف بمظاهرات احتجاجية ودعمه الثورة التحريرية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

2. التعريف بالشيخ عبد العزيز الشريف

1- نسبه: هو عبد العزيز بن محمد الهاشمي بن إبراهيم بن أحمد الشريف، الذي تنحدر أصول أسرته من البوازيد -أبو زيد- وهي من القبائل العربية المنتشرة بين طولقة، وبسكرة، هاجر جدّه الشيخ إبراهيم بن أحمد إلى الجريد بالجنوب الغربي التونسي، واستقر بنفطة لينشط ضمن الزاوية القادرية، وقد أنجب هناك ابنه محمد الهاشمي سنة: 1853م الذي رجع إلى أرض الوطن سنة: 1892م؛ حيث أسس زاوية قادرية بالبياضة على غرار أجداده، ليواصل نشاطه الديني والفكري هناك[2].

2- **مولده ونشأته:** ولد مترجمنا عبد العزيز الشريف بزاوية أبيه محمد الهاشمي سنة: 1898م بقرية البياضة الواقعة جنوب وادي سوف الجزائرية، وكان توأما لأخته، كما أنه الابن الثالث للشيخ محمد الهاشمي[3]. ففي قرية البياضة نشأ، وترعرع، وعاش طفولته، وشبابه في كنف أمّه المدعوة "خديجة النّانة"، وأبيه الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة القادرية، وبطل المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، فنشأته كانت دينية، ووطنية بامتياز، وخلّد صاحب الإلياذة مفدي زكريا الشيخ الهاشمي الشريف قائلا:

أننسى ثلاثة أيام نحس ... و"سوستال" يندب في النائحين

وأخضر يحصد حمر الحوا ... صل ويقطع منها الوتين

2- عاشوري قمعون، دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية، مجلة البحوث والدراسات، العدد:03، جامعة الوادي، جوان: 2006م، ص: 72.

3- إبراهيم مياسي، "جهاد الشيخ عبد العزيز الشريف"، مجلة الثقافة، العدد: 109، الجزائر، جويلية-أوت 1995م، ص: 164.

وضرغامها الهاشمي الشريف ... يذيق "بواز" العذاب المهين

وكم كان سوف لضم الصفوف ... وجمع شتات الحريص الأمين[4]

3- **تكوينه العلمي**: تفرّس الشيخ الهاشمي الخير في ابنه عبد العزيز علائم الفطنة، والنجابة، وسرعة البداهة؛ ذلك لأنه حفظ القرآن الكريم في سنّ مبكرة حفظا جيدا[5]، إضافة إلى تلقيه بعض مبادئ العلوم الدينية، واللغوية في زاوية أبيه، وأخذه بعض المبادئ العلمية المتنوعة عن شيوخ البلدة الذين غرسوا فيه حبّ العلم، وشجّعوه على الالتحاق بجامع الزيتونة[6]؛ وفعلا في سنة: 1913م غادر الفتى الشاب عبد العزيز الشريف ولاية الوادي، ليلتحق بجامع الزيتونة المعمور بتونس، ويزاول تعليمه هناك، وكان هذا بتوجيه من والده الهاشمي، إذ جعل له ولأخيه عبد الرزاق راتبا شهريا يضاهي راتب مدرّس من الطبقة الثانية بجامع الزيتونة، وجعل الإشراف في ذللك للنضارة العلمية بجامع الزيتونة[7]، وكان أول الناجحين ضمن أقرانه، وإخوانه؛ إذ تحصّل على شهادة "التطويع"[8] في حياة والده بامتياز، ثم عاد إلى الوادي سنة: 1923م، فوجد والده محمد الهاشمي قد أوقف زاوية "عميش"، وفروعها على أولاده الثلاثة، واشترط في وصيته أن من يخلفه على رأس الزاوية، وإدارة أملاك العائلة أن يكون حائزا على شهادة "التطويع".

ولم يخْفِ الشيخ عبد الحميد بن باديس إعجابه بالشيخ الهاشمي الشريف فقال: "كان الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة القادرية -رحمه الله- رجلا قويًّا ذكيًّا، واسع الحيلة بعيد النظر، فأدرك بثاقب رأيه أن ما عليه الطرقية من الجهل والجمود، لا يمكن أن يستمرَّ طويلا في عصر العلم والنهوض، وأن المستقبل للعلم لا محالة، فولّى وجهه شطر العلم، وقَدَّم أبناءه لجامع الزيتونة المعمور، وحبس أملاكه كلَّها على العلم، واشترط في حبسه، أن تعمر زواياه بأهل العلم من أئمة ومدرّسين ومتعلّمين، واشترط في أبنائه أن لا حظَّ لأحدهم في الحبس إلاَّ إذا حصل على شهادة العالِمية "التطويع" من جامع الزيتونة، وجعل الإشراف على الحبس لنظارة جامع الزيتونة"[9].

وبعد وفاة الشيخ الهاشمي الشريف في شهر سبتمبر 1923م، لم يتوفر هذا الشرط إلا في

4- مفدي زكريا، الإلياذة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص: 76.

5- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص: 104.

6- محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2002م، 139/3.

7- حمزة بكوشة، "الشيخ الهاشمي وانتفاضة وادي سوف 1918م، محاضرة مرقونة، ألقيت في ثانوية "علي ملاح" بورقلة، بمناسبة الموسم الثقافي: أفريل 1987م، ص: 07.

8- التطويع: شهادة تعادل الباكالوريا اليوم، ولكنها بصفة أعمق وأغزر علما، ينظر: إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص: 223.

9- البصائر، العدد: 123، السنة الثالثة، الجمعة 24 جمادى الأولى1357هـ، 22 جويلية 1938م.

الابن الأصغر عبد العزيز، وكان عمره آنذاك حوالي 25 سنة، ورغم ذلك فقد آلت مشيخة الزاوية إلى الأخ الأكبر عبد الرزاق[10]، ولكنه لم يعمر طويلا في هذا المنصب بسبب حالته الصحية المتدهورة، فتوفي بعد ثلاثة أشهر من تنصيبه على رأس الزاوية في شهر ديسمبر 1923[11].

4- الشيخ عبد العزيز الشريف رئيسا للزاوية القادرية:

صدقت فيه فراسة أبيه الشيخ الهاشمي الشريف، فصار نجله الأوسط عبدالعزيز الشريف المؤهل الوحيد لمشيخة الزاوية باعتباره المتخرّج الأول من جامع الزيتونة، فضلا عن كونه مشهورا بذكائه، وفصاحة لسانه، ووضوح بيانه، كما كان الشيخ أديبا ظريفا لبقا، لهذا تم الإجماع على أن يتولى مشيخة الزاوية القادرية في سوف مع ملحقاتها في كل من تقّرت، وبسكرة، وسكيكدة، والجزائر العاصمة، كما يقوم بالإشراف على شؤون العائلة، وعلى إخوانه الذين يزاولون تعليمهم بجامع الزيتونة، بالإضافة إلى العمل المستمر في تطوير أملاك الزاوية، وخاصة في غابات النخيل، واستثمار تجارة التمور المزدهرة، والمربحة عبر مناطق الجنوب، حتى أصبح الشيخ عبد العزيز يعرف بـ"ملك التمور"[12]، وهذا ما أثار غيظ المحتكرين الأجانب نذكر منها المرابي باوو "BAÄOU" والذين عزموا على إبعاده من هذا الميدان، والسّطو وحدهم على تجارة التمور، واحتكارها لأنفسهم، وهذا ما تمّ لهم فعلا فيما بعد[13]. واستمرّ الشيخ عبد العزيز الشريف في ممارسة نشاطه على رأس الزاوية القادرية إرث أبيه، وجدّه من قبل بصورة طبيعية لمدة اثنتي عشْرة سنة.

3. دعم الشيخ عبد العزيز الشريف الفكر الإصلاحي:

ومقصد الفكر الإصلاحي طرد المستعمر، وعدم التعايش معه، ورفض قوانينه المسيئة للإسلام، والعروبة، وشخصية الأمة الجزائرية، ومن أبرز مظاهر دعم العلاّمة عبد العزيز الشريف للفكر الإصلاحي ما يأتي:

1- التحوّل من الفكر الصوفي الطرقي إلى الفكر الإصلاحي:

حجّ الشيخ عبد العزيز الشريف بيت الله الحرام سنة 1936م، وفي هذه السنة كان العالم الإسلامي يعيش في هرج، ومرج، من جراء اشتداد وقائع سياسية، وتاريخية، تتمثل

10- عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر 1830م-1962م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص:48؛ إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م، ص:223.

11- عمار هلال، أبحاث ودراسات، مرجع سابق، ص: 322.

12- إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص: 223.

13- حمزة بكوشة، مرجع سابق، ص: 07.

في مواجهة الدول العربية، والإسلامية للاستعمار الأوروبي، عايش الشيخ عبد العزيز البعض من هذه الأحداث؛ حيث مكث بالمشرق طيلة سنة أثرت فيه، وتشبع بأفكار جديدة، غيّرت مجرى حياته، فبعد ما حجّ فكر في أحوال بلاده، وقارن أوضاع الجزائر التي ترزخ تحت نير الاحتلال الفرنسي بأحوال إخوانهم في المشرق، وتفطّن إلى رسالته الحضارية، التي تقتضي أن يناضل باعتباره من رجال الفكر، والثقافة العربية الإسلامية.

وبما أن الشيخ عبد العزيز الشريف اغترف من الينابيع الصافية للعلم، وأصول الدين الحق نتيجة لتكوينه في جامع الزيتونة المعمور، فإنه لما رجع إلى الوطن من رحلة الحج أعجب بأفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسّست في الخامس من شهر ماي سنة: 1931م بالعاصمة، و"ضمت اثنين وسبعين عالما جزائريا جاؤوا من مختلف أنحاء الجزائر، وقد وجهت الدعوة إلى علماء سوف، منهم الشيخ الطاهر بن العبيدي، والشيخ إبراهيم العوامر، اللذان اعتذرا عن الغياب، وحضر الشيخ الأمين العمودي، ومحمد العيد آل خليفة، وحمزة بوكوشة، وغيرهم"[14].

وصرّح مؤسسها الشيخ ابن باديس بأن هدفها علمي وديني، لأنه كرّس حياته للتعليم، وكونه من دعاة التفاهم بالحكمة، والموعظة الحسنة؛ سواء مع رجال الدين غير المصلحين، أو الإدارة الفرنسية[15]. ومن خصائص هذه الجمعية أن علماءها يتبرؤون من التصرفات البعيدة عن هدي الشرع الحنيف، والتي لا تمت للإسلام بأي صلة؛ مثل ما" اخترع طوائف من المسلمين الرقص، والزمر، والطواف حول القبور، والنذر لها، والذبح عندها، ونداء أصحابها، وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها، وحرق البخور عندها، وصب العطور عليها ..."[16].

ويرى أعضاؤها أنها تصرفات في مجملها خارجة عن تعاليم الإسلام، ومخالفة لسنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه من بعده، فهي ابتداعات ابتدعها بعض أتباع الطرائق الصوفية، فـ"تجد السواد الأعظم من عامتنا -كما يقول ابن باديس- غارقا في هذا الضلال، فنراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، ويذهبون إلى الأضرحة ... ويدقون قبورهم، وينذرون لهم ... وتراهم هناك في ذلّ، وخضوع، وتوجّه، قد لا يكون في صلاة من يصلّي منهم"[17].

14- الإبراهيمي البشير، مجلة مجمع اللغة العربية، سنة: 1966م، 143/21–144.

15- المرجع نفسه، في الموضع نفسه.

16- عبد الحميد بن باديس الصنهاجي (ت: 1359هـ) تفسير ابن باديس "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، مرجع سابق، ص: 56.

17- تفسير ابن باديس، المصدر السابق، ص: 119.

ولم يكتف عبد العزيز الشريف بمجرّد الإعجاب بجمعية العلماء؛ بل طلب الانخراط في هاته الجمعية المباركة، وخاصة بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري العام في شهر جوان: 1936م، وذهاب الوفد الإسلامي بمطالب الأمة الجزائرية إلى باريس لعرضها على الحكومة الفرنسية، وثّق العلاّمة ابن باديس طلب انخراط عبد العزيز الشريف قائلا: "في السنة الماضية قبل الاجتماع العام كاتبني الشيخ عبد العزيز يرغب مني الانخراط في جمعية العلماء، فأجبته بأنَّ الجمعية مفتَّحة الأبواب لجميع المسلمين وخصوصا لأمثاله من العلماء، وأحسب أنِّي ذكرت له أنَّ الجمعية تأسست وفي المؤسسين لها جمع كثيرٌ من شيوخ الطرق، وأنَّ القانون الأساسي الذي وُضِع باتفاق من الجميع ما زال معتمدا هو بنفسه، فلمَّا كان الاجتماع العامَ الماضي رُشِّح للمجلس الإداري بصفته عالما وشيخ الطريقة القادرية، فانتُخب بِما يقرُب من الإجماع"[18]. فصار عبد العزيز عضوا فعالا، وبارزا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بحكم امكانياته العلمية، والمالية، والاجتماعية، ففي المؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي بدأ أعماله يوم 24 سبتمبر 1937م بنادي الترقي بالعاصمة، قدم الشيخ ابن باديس بعض كبار الرجال الذين لهم أكبر الأثر في بعث النهضة الجزائرية من جمعية العلماء، منهم الشيخ الفضيل الورتلاني، والشيخ سعيد صالحي ... ثم تقدم هو بنفسه، وألقى خطابه الرسمي مقترحا أن يسمى هذا الاجتماع بعيد النهضة الجزائرية، ثم "عهد الأستاذ الرئيس ابن باديس إلى داعية الإصلاح الأستاذ الطيب العقبي بتقديم الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي إلى الحاضرين لإلقاء كلمات فقام الأستاذ العقبي وقال: أيها الإخوان، إنكم تعرفون قبل اليوم الشيخ عبد العزيز شيخًا من شيوخ الطرق؛ أما اليوم فيجب أن تعرفوه بأنه جنديٌّ من جنود الإصلاح، وعضو من أعضاء جمعية العلماء، يعمل على نشر مبادئها، ويصدُّ من يريد الاعتداء عليها"، ثم انتخبت الإدارة الجديدة للجمعية، فكان الشيخ عبد العزيز عضوًا استشاريًا فيها[19]. وكان لهذا التقديم مغزاه العميق، إذ هو شهادة في الواقع بانتهاء المعركة مع مناهضي جمعية العلماء من أتباع الطرق الصوفية.

ثم أحيلت الكلمة إلى الشيخ عبد العزيز الذي أبدى تأسفه لتأخره عن الانضواء تحت لواء الجمعية، ووعد بأنه سيبذل كل مجهوداته في خدمة الإصلاح، لأنه انخلع من الطرقية إلى الإصلاحية، وتبرع للجمعية بمبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك، وهو مبلغ هام في ذلك

18- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط:1، 1412هـ-1991م، 398/5.

19- حول نص الخطاب، ينظر: الشهاب، الجزء الثامن، من العدد 13، شعبان: 1356هـ، أكتوبر، 1937م، ص: 344.

الوقت[20]. وقد أثار هذا النشاط المتزايد للشيخ عبد العزيز حفيظة السلطات الفرنسية بالوادي، وأظهروا مخاوفهم من تسرب أفكار الحركة الإصلاحية إلى المنطقة، فيزعزع كيانهم، ويكذب ادعاءاتهم بأن الصحراء هادئة، وآمنة، وراضية بحالها.

2- **التبرؤ من الطرقية والطائفية في مؤتمر الطرقية:**

انعقد مؤتمر للطرقية في الجزائر العاصمة ما بين 15 و19 أفريل 1938م، وكان ممن دعي إليه الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي شيخ الطريقة القادرية في الجزائر وفي كل الشمال الإفريقي يومها، فأعد خطابا ليلقيه في هذا المؤتمر، وكلف شقيقه الأصغر محمد الصالح بقراءته، وقد وقع هذا الخطاب[21] كالصاعقة على شيوخ الطرق الحاضرين، لأنه تضمن فضحهم، وفضح سبب اجتماعهم، وأراد أن يوجه الاجتماع إلى الوجهة الصحيحة التي تخدم الأمة، ولا تخدم الاستعمار الذي خطط لهذا الاجتماع وأمر به. كما تضمن إعلان براءته من الطرقية، والتزامه بمنهج العلماء ونصرته لهم، وقد حاول بعضهم أن يمنع الشيخ محمد الصالح من إكمال قراءة الخطاب لو لم يحل دونهم تكاثر المصلحين بينهم.

3- **استضافة وفد جمعية العلماء إلى ولاية الوادي:**

وبعد إعلان انخراطه في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ذات الطابع الإصلاحي، استضاف الشيخ عبد العزيز الشريف زيارة وفدا من جمعية العلماء بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس إلى الوادي في شهر ديسمبر 1937م، لتدعيم نشاطه، وتكريس أفكار الحركة الإصلاحية في المنطقة، فـ"انتشرت وفود جمعية العلماء المسلمين في كل مكان، وفي الوفود التي شاركت فيها، وفد الصحراء الذي تكون من الشيخ عبد الحميد بن باديس ... والشيخ مبارك الميلي، زار هذا الوفد وادي سوف، وكانت معقلا من معاقل الطرقية التي تناهض الحركة الإصلاحية، ولكن الحركة الإصلاحية، سرت في كل مكان، وأصبح لها أتباع ينتصرون بها، وتنتصر بهم، ومن جملة الشخصيات التي انضمت إلى حركة الإصلاح، وأصبحت عضوا عاملا في إدارة الجمعية: عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي رئيس الطريقة القادرية ..."[22]. وفعلا، كان لهذه الزيارة الوقع الكبير في المنطقة؛ حيث سجل لنا الأستاذ حمزة بوكوشة -رحمه الله- العضو الإداري لجمعية العلماء، وأصيل الوادي تفاصيل هذه الزيارة في جريدة البصائر منها: "... وما كادت الصحافة المحلية تنشر نبأ إيفاد هذا الوفد حتى هبّ دعاة الفتنة، والشقاق وحاولوا تصوير الجمعية، وأتباعها لرئيس الملحقة السيد

20- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص: 169.

21- البصائر، العدد 113، 13 ربيع الأول، 1357هـ، ص2-3؛ عاشوري قمعون، زاوية الشيخ الهاشمي الشريف مفخرة الحركة الإصلاحية بسوف، المنشور بتاريخ: 2018/09/23. https://eljadidelyawmi.dz .

22- الشيخ محمد خير الدين، مذكرات، الجزائر، 1985م، 280/1.

القبطان بصورة شوهاء، وقاموا بأدوار في الجوسسة الدينية المدعّمة بالاختلاق، والافتراء التي يعجز عنها شياطين الإنس، والجنّ ..."[23].

وهكذا بدأ أصحاب الطرقية في تحريك أعوانهم ليهاجموا الحركة الإصلاحية، فجعل هؤلاء يصفون الرئيس الشيخ ابن باديس بأنه وهابي، رغبة في تنفير الناس منه، وسعيا إلى وأد الحركة في مهدها، ولكن استقبال الوفد كان فوق كلّ تصور أينما حلّ، فلسان حال أهل سوف الترحيب، والفرح، والإعجاب، -رغم أنوف الأعداء- فهذا الشيخ محمد الطاهر بن بلقاسم التليلي، يلقي قصيدة ترحيبية مطلعها:

هبيّ يا قرية الرمال وهبي ... واجبات اللقاء إلى خير وفد

مرحبا بالذين هبوا لحق ... أهله ضيعوه عن غير عمد

نفخوا في البلاد روحا فأمست ... أمة تعرف الحقوق وتفدي

وتوجه الوفد إلى مناطق مختلفة من ولاية الوادي، بعد أن قام بزيارة مجاملة للقبطان الذي ثارت مخاوفه من هذه الزيارة، لكن الشيخ ابن باديس طمأنه وقال له: "أنا كفيل بأن لا يحدث إلا ما تحمده عقباه، وستفرحون بالأثر الحسن الذي يتركه أثر رحلتنا في قلوب السكان، فقال له الحاكم العام العسكري: "إن الوادي لا تتوفر على قاعات مناسبة للخطابة"، فردّ عليه الشيخ عبد العزيز بأن الخطب تكون في زاويتي، وهي أوسع محل في البلد[24]. وتميّزت التجمعات والحفلات التي ينشطها ابن باديس وجماعته بحضور كثير، رغم تشويش بعض الطرقيين على مثل هاته المهرجانات بغية إفشالها، وحتى يقاطعها الناس؛ مروّجين أن رئيس الوفد هو "ابن إبليس"، يحمل أفكارا وهابية شيطانية، وذلك لتشويه سمعة الإمام ابن باديس.

وكان لهذه الزيارة الأثر العميق عند الشيخ عبد العزيز، دفعته لتكثيف نشاطه، وتنقلاته عبر القرى، والمداشر شمالا وجنوبا؛ كالبهيمة، والزقم، والدبيلة، والمقرن معقل التجانية لهذا تعرض في المقرن إلى مضايقات القياد، ومقاديم التجانية، كما زار قمار، والعلندة، والرباح، والعقلة، وغيرها لنشر أفكار الحركة الإصلاحية[25]، والدعوة لها ضمن التوجيهات الدينية والعلمية لإحياء نفوس الناس، وتنبيههم من غفلتهم، وإيقاظ ضمائرهم لإنارة الطريق الصحيح لهم، محذرا من الطرقية، والبدع قائلا: "إن الطرق بدعة لا أصل لها في الدين فحسبكم التمسك بالكتاب والسنة"، وقال أيضا: "انظروا أيها الإخوان إلى الفرق بين العلماء، وشيوخ الطرق يأتونكم متفرقين في سباق لأخذ الزيارات ... الطرق شتّتتكم

23- البصائر، العدد: 93، الجمعة 27 شوال 1356هـ-31 ديسمبر1937م.

24- البصائر، العدد: 93.

25- الشيخ محمد خير الدين، مذكرات، الجزائر، 1985م، 1/280-281.

وأضرّت بكم في دينكم، ودنياكم، والعلماء يريدون إرجاعكم إلى الكتاب، والسنة، وتعليمكم العلم الصحيح"[26]. كما نظم الشيخ عبد العزيز أيضا زيارة للشيخ الفضيل الورتلاني إلى الوادي في آخر شهر جانفي 1938م بدون رضا خلية الوادي.

وكان الشيخ الورتلاني يتقد حماسا بمواقفه الصريحة، ونقده اللاذع، فكان لهذه الزيارة الصدى الواسع عند الناس؛ لما طرحته من مواضيع ساخنة أغضبت الحاكم العام الفرنسي، الذي بدأ يترصد خطوات الشيخ عبد العزيز ويضمر له الشرّ، ولكن الشيخ لم يبال بملاحقات الإدارة المحلية، وزاد من تحركاته، وعقد عدة اجتماعات بالوادي، وعميش؛ ليفضح أعمال القياد، وأعوان الإدارة الاستعمارية، الذين يستغلّون الشعب[27]، وهذا ما دفع الحاكم إلى دعوة الشيخ عبد العزيز الشريف، وطلب الرخصة منه، فردّ عليه الشيخ بأن الزوايا من قديم تعلّم دون رخصة، وتكرّر الأخذ والرّدّ حتى كانت الكارثة[28].

4. قيام الشيخ عبد العزيز الشريف ببناء المدارس

اهتم الشيخ عبد العزيز بتأسيس المدارس لنشر العلم، والتعليم وفق مناهج جمعية العلماء، فحوّل جزء من زاوية البياضة إلى أقسام للتعليم العصري، وفي شهر مارس 1938م، وبعد بيع محصول التمور، وظّف نقود هذه العملية في تهيئة زاوية الوادي - التي شرع فيها أبوه منذ سنوات خلت - لجعلها جامعة إسلامية تستوعب أكثر من خمسمائة طالب، جزء منهم يخضع للنظام الداخلي، ولهذا الغرض جهزت قاعتان كبيرتان للمحاضرات، وعشرين غرفة فردية، كما خزّن لهم التمور، والأرز واستقدم لها أساتذة أكفاء؛ كالشيخ علي بن ساعد، والشيخ عبد القادر الياجوري، المعروفين بغزارة علمهما، وبراعتهما في ميدان التعليم، والإرشاد، كما درس في هذه المدرسة الأستاذ لعروسي ميلودي، والشيخ معراج دربال، وغيرهم، فعرفت المنطقة بذلك حركة علمية تعمل على البعث الحضاري، ونشر الوعي الفكري، أثارت مخاوف السلطات الاستعمارية[29]، فحاولت معارضتها، وهدمها عن طريق أعوانها الذين سربوا الإشاعات، بأن التلاميذ الذين يزاولون تعليمهم بهذه المدرسة وبهذه الطريقة العصرية - داخل أقسام وعلى المقاعد والمناضد - سيمسخهم الله إلى قرود، وقد انتظر بعض الأطفال الفضوليين عملية تحول هؤلاء إلى قرود من وراء نوافذ الأقسام[30]؛ لأن بعض الناس كانوا لا يرون التعليم، والإسلام إلا في الطرقية.

ورغم ملاحقات السلطات المحلّية، لكنّ الشيخ عبد العزيز لم يتوقف؛ بل واصل

26- البصائر، العدد: 95.

27- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص: 174.

28- البصائر، العدد: 113، 24 جمادى الأولى الموافق لـ 22 جويلية 1938م.

29- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص: 175-176.

30- المرجع نفسه، في الموضع نفسه.

مشروعه التعليمي، ولم يعترف بمرسوم 10 أكتوبر 1892م، واعتدّ بمرسوم 8 مارس 1938م، الذي يراقب التعليم في المدارس القرآنية؛ لأن الشيخ يعتقد أن التعليم في الزوايا غير مراقب، ونستشهد في هذا الصدد بمقال ابن باديس في "البصائر" تحت عنوان "الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح: "... شرع عبد العزيز بعمارة زواياه بالعلم، وعين رجلين للتعليم من أبناء سوف المتخرجين من جامع الزيتونة المعمور؛ هما: الشيخ علي بن سعد، والشيخ عبد القادر الياجوري ... وجمع عددا من الطلاب، وحضر لهم مؤونتهم، وأخذت حركة العلم تدب بين الناس، والرغبة فيه تنمو في الطلاب، دعا الحاكم الشيخ عبد العزيز في شأن التعليم، وطلب الرخصة، وردّ الشيخ بأن الزوايا من قديم الزمان تعلم بدون رخصة، وتكرر الأخذ والرد في الأمر، وفهم أن الإدارة مستثقلة لتلك الحركة العلمية، وتخوف الناس حتى كانت الكارثة..."[31].

وحتى في منفاه لم يتخلّ الشيخ عبد العزيز الشريف عن العلم، والمساجد، والمدارس، فقد مكث الشيخ عبد العزيز الشريف مع رفاقه بالسجن بعد مظاهرته السّلمية ضد المستعمر حوالي أربع سنوات[32]، وحكم عليهم بالإبعاد والإقامة الجبرية، فأقام الشيخ عبد العزيز في أول الأمر في شرشال، التي بنى بها مسجدا، ومدرسة الرشيدية أشرف على تسييرها بنفسه، وتخرّج منها كثير من العلماء، ثم انتقل إلى آزفون بولاية تيزي وزو، التي بنى بها مسجدا، وأخيرا إلى الجزائر العاصمة، التي بنى بها مدرسة لتعليم العربية في المدنية "صالمبي"، وكانت كلها مراكز للإشعاع الحضاري، ونشر العلم، والثقافة بين أبناء الوطن[33].

ولا يفوتنا أن نذكر أنّ الشيخ عبد العزيز الشريف اشترى قصر الداي عام: 1940م بثمانية ملايين فرنك[34] وأصلحه، وجعله مدرسة، وكان من بين تلاميذها الوزير الأسبق الدكتور بوعلام بن حمودة، غير أن الإدارة الاستعمارية استرجعته عام: 1947م، وعوضت له المبلغ نفسه[35]. وبعد الاستقلال فتح زاويته -أيضا- من جديد بالوادي؛ لتكون أول معهد إسلامي تدرس فيه مناهج التعليم الأصلي، والشؤون الدينية.

5. قيام الشيخ عبد العزيز الشريف بمظاهرات احتجاجية ودعمه الثورة التحريرية

سارعت الإدارة الفرنسية إلى الاعتراف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ووافقت على قانونها الأساسي؛ لأن قانونها يشير إلى أنها جمعية إرشادية تهذيبية، لا يسوغ لها أن

31- البصائر، عدد: 113، 24 جمادى الأولى الموافق لـ 22 جويلية 1938م.

32- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص: 181.

33- عمار هلال، أبحاث، ودراسات، المرجع السابق، ص: 50.

34- عاشوري قمعون، دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص: 83.

35- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص: 29.

تخوض أو تتداخل في المسائل السياسية، وأن قصدها هو محاربة الآفات الاجتماعية، لكن الجمعية قد وجدت نفسها منغمسة في خضم المعترك السياسي، فها هو الشيخ عبد العزيز بعد اطمئنانه على توطين الحركة الإصلاحية في ولاية الوادي، قرّر أن يسافر إلى باريس لغرض العلاج، ولكنه تراجع، وألغى هاته الرحلة العلاجية؛ لمّا علم أن المدير العام للشؤون الأهلية وأقاليم الجنوب "ميلييوت MILLIOT" سيقوم بزيارة تفقدية إلى الوادي يوم 12 أفريل 1938م، وبالفعل رجع إلى الوادي يوم 10 أفريل 1938م[36]، وعزم على تنظيم مظاهرة احتجاجية ضد تصرفات السلطات المحلية بحضور هذا المسؤول الفرنسي؛ متحدّيا الحاكم العسكري بالوادي الذي استدعاه يوم 12 أفريل في الصباح ليعلمه رسميا أنّ أي مظاهرة ممنوعة، فردّ عليه بأن المظاهرة ستنظم مهما كانت التكاليف[37]، وفعلا: بعد صلاة الظهر من يوم 12 أفريل 1938م، وبمجرد وصول السيد المدير العام؛ تظاهرت جماهير غفيرة قدرتها الوثائق الاستعمارية بحوالي 1200 شخص، اعتصموا أمام مقر الحاكم العسكري إلى منتصف الليل[38].

واضطر ميلييوت حينها -تحت ضغط المتظاهرين من أهل سوف- أن يستقبل الشيخ عبد العزيز الشريف في المكتب، ودارت بينهما مفاوضات عسيرة استغرقت حوالي ثلاث ساعات[39]، تمحورت حول عريضة السكان، الذين يعبرون فيها عن غضبهم على تصرفات المصالح الاستعمارية، كما قدم شكوى بالحاكم العسكري بالوادي المتواطئ مع قياد المقرن، وشيوخها الذين ضايقوه، ولم يفعل لهم أي شيء.

ويمكن إجمال ما جاء في عريضة السكان في النقاط التالية:

- رفع الظلم والتعسف على السكان من قبل الإدارة الفرنسية، وأعوانها خاصة القياد.

- المحافظة على المقومات الحضارية للأهالي بانتشار التعليم باللغة العربية، واحترام تعاليم الإسلام، ورجاله؛ مثل ما تفعله الإدارة مع الآباء البيض التي تزكي حركتهم التبشيرية.

- مساعدة الفقراء والمحتاجين بالحبوب والغذاء، وطالب بتزويدهم بـ 10 قناطير من القمح[40].

36- أحمد صاري، عبد العزيز الهاشمي والإصلاح، ص: 569. عمار هلال، "من الشخصيات الجزائرية"، مجلة الثقافة، المرجع السابق، ص: 282.

37- عمار هلال، أبحاث ودراسات، ص: 331. النشاط السياسي لجمعية العلماء"، المرجع السابق، ص: 37.

38- إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ص: 234.

39- إبراهيم مياسي، المرجع نفسه، ص: 235.

40- عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص:48؛ إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص: 235.

وافق الموظف السامي على هذه المطالب، وأخبر الشيخ عبد العزيز أنه سيرفعها إلى السلطات العليا، ولكن الأمور تطورت، واشتد الغضب بالشعب فاندلعت ثورة في البلاد، أسفرت عن اصطدامات دموية بين السكان، وقوات الطوارئ الفرنسية التي حاصرت المنطقة بحشود ضخمة؛ للقضاء على هذه الثورة، وخلالها علقت بالمساجد بيانات تدعو الناس إلى الهدوء، والعودة لمصالحهم، ومن بين ما جاء في هذه المعلقات: "لا تتبعوا هذه الفئة الضالة، وعودوا إلى أعمالكم، إن فرنسا عظيمة، وهذا هو بسبب حلمها إلا أنها تعامل بقوة فعالة عندما تلجؤها الضرورة لذلك"[41]. وبعد هدوء العاصفة ألقت السلطات الفرنسية القبض على الشيخ عبد العزيز، وزملائه الشيخ خرن علي بن سعد، والشيخ عبد القادر الياجوري، والتاجر المناضل السيد عبد الكامل النجعي، وزجت بهم في السجن.

خلّد هذه الوقائع عبد الحميد ابن باديس في جريدة "البصائر"، في عددها: 121 تحت عنوان "وقائع كارثة سوف الأليمة" بما يلي: "... عج وادي سوف يوم 18 أفريل بالجنود والعتاد، ورصّعت رباه بالمدافع الرشاشة، وأرعدت أجواؤه بأزر الطائرات فأوشك أهله، ونساؤه، وأطفاله وبيوته، ونخيله أن تنسفهم قنابل الأرض، أو تمحقهم صواعق السماء، فذهلت المراضع، ووضعت نحو الثلاثين امرأة حملها ... وأصبح الوادي على حين بغتة، وقد عطلت أسواقه، وسدت طرقاته، ومنع عنه الداخل، والخارج، وضرب عليه نطاق شديد محكم الحصار ... ألقي القبض على الشيخ عبد العزيز الهاشمي، والشيخ، والشيخ علي بن سعد، والشيخ عبد القادر الياجوري، والسيد عبد الكامل بن الحاج عبد الله، وسيقوا إلى السجن بقسنطينة، وحشرت جماعات من الناس إلى المركز الإداري، وزجّ بهم في السجن، ثم حكم على عدد وفير منهم بالنفي والسخرة، كلّ هذا والناس معتصمون بالصبر، ومنتظرون الفرج ... ثلاثة أسابيع ذاق فيها أهل الوادي ما ذاقوا، وطافت فيها الجنود شرقا، وغربا، وشمالا، وجنوبا..."[42].

جاءت لجنة البحث للكشف عن أصل الحوادث والاطلاع على حقيقة الواقع، وساق إليها القياد الناس ليشهدوا، وقد جدّوا، واجتهدوا في جمع الشهود تحت مظاهر الرهبة والخوف. قامت لجنة البحث بواجبها بنزاهة وإنصاف، وتحققت أن لا ثورة، ولا هيجان، وأن لا شيء دبّر ضد الحكومة أو الأمن العام، ففك الحصار عن البلد وسرح الموقوفون وقفلت الجنود راجعة ... ورفع ذلك الكابوس الثقيل عن الوادي الهادي المطمئن إلا ما بقي من مظالم بعض القياد"[43]. ورغم ذلك فإن الشيخ عبد العزيز، ورفاقه بقوا في السجن بدون

41- موسى بن موسى، الخطاب الإصلاحي بين تأصيل المواطنة، ونبذ الشخصانية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات، العدد: 17، ص: 77.

42- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص: 394.

43- المرجع نفسه في الموضع نفسه.

محاكمة، وتكفّلت جمعية العلماء بالدفاع عنهم، وتخليصهم من السجن، مستعينة بالمحامين، ورجال القانون. وقد عالج ابن باديس هذا الموضوع في عدة مناسبات في جريدة "البصائر" فقال في إحداها أن هؤلاء الشيوخ دخلوا السجن "... ضحية عقيدتهم الإسلامية، وقيامهم بواجبهم الديني نحو إخوانهم المسلمين أهل ديار سوف ..."[44].

وفي مقال آخر كتبه ابن باديس في "البصائر"، عدد: 178، تحت عنوان: هل في سجن "الكدية" ما يذكرنا بـ"الباستيل"؟ تحدث في بدايته عن سجن الباستيل، والثورة الفرنسية 1789م، والذكرى 150 سنة التي مرت على سقوط هذا المعتقل الرهيب، ثم ربط هذا الموضوع بمساجين العلماء التي جاء فيه: "وها نحن في الجزائر نرى ذلك ونتجرع آلامه، ففي سجن "الكدية" بقسنطينة قد ألقى أربعة من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دون جرم معلوم، ودون أن يقدموا للمحاكمة أربعة من العلماء: الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي، والشيخ عبد القادر الياجوري، والشيخ علي بن سعد، والسيد محمد الكامل مضت عليهم في السجن سنة وأربعة أشهر مع المجرمين ... إننا لا نطلب العفو والإفراج عنهم، وإنما نطلب تقديمهم للمحاكمة، ونشر قضيتهم أمام العدالة، والرأي العام، إننا على ثقة من براءة أصحابنا ... فإلى المحاكمة إن كنتم تريدون نصرة العدل وجمال الحرية"[45]. ثم طالب ابن باديس معاملة هؤلاء المساجين العلماء معاملة تليق بمكانتهم الثقافية والاجتماعية؛ حيث لا يمكن حشرهم مع اللصوص والمجرمين؛ لأنهم سجناء الرأي والأفكار والسياسة.

نُفي الشيخ عبد العزيز من التراب الوطني في سنة 1953م، وأُبعد إلى القطر التونسي الشقيق، فوجد الحالة السياسية متأزمة إبان الثورة التونسية؛ حيث تطارد السلطات الاستعمارية الزعماء، والمجاهدين، وتتابع الدستوريين، مما جعل الشيخ يركن للهدوء، ويستكين للاستقرار، فلم يقم بأي نشاط سياسي، واستقر الشيخ بتونس العاصمة، وحين اندلاع الثورة الجزائرية في أول نوفمبر 1954م أيد الشيخ عبد العزيز الثورة بكل حماس، وقدم الدعم، والتأييد لجبهة التحرير الوطني؛ حيث تبرّع لمصالحها بتونس بمحلات، ودكاكين من أملاكه؛ لتستعملها الجبهة في أغراض الثورة، كإيواء المجاهدين وأبناء الشهداء، ومكاتب إدارية وغيرها، واستمر الشيخ في تدعيم الثورة حتى تحصلت الجزائر على استقلالها، غير أن الشيخ لم يرجع إلى أرض الوطن بل بقي بتونس، ولازم داره، ولم يقم بأي عمل سياسي أو ثقافي يذكر، إلى أن توفي في تونس في الفاتح جوان سنة: 1965م بعد أن بلغ من العمر ما ينيف على السبعة وستين سنة، ودفن بتونس رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه[46].

44- البصائر، عدد: 134، 13 شعبان 1357هـ، الموافق لـ7 أكتوبر 1938م.

45- البصائر، عدد: 178، جمادى الثانية 1358هـ، الموافق لـ 11 أوت 1939م.

46- بوصبيع العايش علي، "الشيخ الشريف المصلح الثائر"، محاضرات الندوة الفكرية السادسة، محمد الأمين العمودي، ماي، 1993م، ص: 38.

6. خاتمة:

أولا: نتائج الدراسة:

• عبد العزيز الشريف عالم من علماء "وادي سوف" ضرب بحظ وافر في إبراز عظمة هذه الأمة ومجدها التليد، ولكن تاريخه مغمور.

• عاش لونين من الفكر: الصوفي الطرقي، والإصلاحي على الترتيب.

• ظهرت مقاومته الثقافية للمستعمر في الدفاع عن مقومات الأمّة العربية الجزائرية، وشخصيتها الإسلامية، في مرحلتي فكره.

• كان شغله الشاغل بناء مدارس العلم، لتعليم النشء قواعد اللغة العربية الصحيحة، وأصول الإسلام الأصيلة، الخالية من شوائب الجاهلية، واختيار العلماء المشهود لهم بالكفاءة العلمية لتأطير هاته المدارس العلمية.

• استخدام أسلوب الاحتجاج والتظاهر السّلميين، لاسترجاع الحقوق المصيرية للأمة.

• استثمار ما حصدته زاويته -القادرية ابتداء، والإصلاحية انتهاء- من أموال لخدمة المسلمين كافة، ولا أدل على ذلك من قول مؤسسها الأول والده الشيخ الهاشمي الشريف: "هذه أموال المسلمين، فلتعد بالنفع على المسلمين".

ثانيا: التوصيات:

• القيام بدراسات تضطلع بالتعريف بهذه الشخصية كسرا لحاجز التهميش، والنسيان، والتجاهل الذي خيّم عليها، ومثله بعض رجال هذه الأمة المجيدة، الذين يحتاجون إلى المزيد من البحث والتنقيب.

• دعوة الطلبة والباحثين في الدراسات الأكاديمية على اختلاف تخصصاتها؛ الشرعية، أو الأدبية، أو التاريخية بأن يتولّوا التعريف بعلماء منطقة وادي سوف، وأن يهتموا بمؤلفاتهم، دراسة، وتحقيقا، وإثراءً.

وفي الختام فإني أحمد الله على ما منّ به عليّ من إتمام هاته الدراسة، وأسأله مزيد التوفيق، وصلى الله وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

7. قائمة المراجع:

- **المؤلفات:**

- مياسي إبراهيم، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م.
- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط:1، 1412هـ-1991م.
- خير الدين محمد، مذكرات، الجزائر، 1985م.
- ابن باديس عبد الحميد الصنهاجي(ت: 1359هـ)، تفسير ابن باديس "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط:1، 1416هـ-1995م.

- هلال عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر 1830م-1962م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
- فضلاء محمد الحسن، من أعلام الإصلاح في الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2002م.
- زكريا مفدي، الإلياذة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

- **الأطروحات:**

- موسى ابن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها،1900-1939م، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، فيفري 2006.

- **المقالات:**

- مياسي إبراهيم، "جهاد الشيخ عبد العزيز الشريف"، مجلة الثقافة، العدد: 109، الجزائر، جويلية-أوت 1995م.
- قمعون عاشوري، دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية، مجلة البحوث والدراسات، العدد:03، جامعة الوادي، جوان: 2006م.
- موسى بن موسى، الخطاب الإصلاحي بين تأصيل المواطنة، ونبذ الشخصانية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات، العدد: 17.
- ابن باديس عبد الحميد، البصائر، العدد 113، 13 ربيع الأول، 1357ه.
- ابن باديس عبد الحميد، البصائر، العدد: 113، 24 جمادى الأولى الموافق لـ 22 جويلية 1938م.
- ابن باديس عبد الحميد، البصائر، العدد: 123، السنة الثالثة، الجمعة 24 جمادى الأولى1357ه، 22 جويلية 1938م.
- ابن باديس عبد الحميد، البصائر، العدد: 93، الجمعة 27 شوال 1356ه-31 ديسمبر1937م.
- ابن باديس عبد الحميد، البصائر، العدد: 95.
- ابن باديس عبد الحميد، البصائر، عدد: 134، 13 شعبان 1357ه، الموافق لـ7 أكتوبر 1938م.
- ابن باديس عبد الحميد، البصائر، عدد: 178، جمادى الثانية 1358ه، الموافق لـ 11 أوت 1939م.
- ابن باديس عبد الحميد، الشهاب، الجزء الثامن، من العدد 13، شعبان: 1356ه، أكتوبر، 1937م.
- الإبراهيمي البشير، مجلة مجمع اللغة العربية، سنة: 1966م.

- **المداخلات:**

- علي بوصبيع العايش، "الشيخ الشريف المصلح الثائر"، محاضرات الندوة الفكرية السادسة، محمد الأمين العمودي، ماي، 1993م.
- بكوشة حمزة، "الشيخ الهاشمي وانتفاضة وادي سوف 1918م، محاضرة مرقونة، ألقيت في ثانوية "علي ملاح" بورقلة، بمناسبة الموسم الثقافي: أفريل 1987م.

- **المواقع الالكترونية:**

- قمعون عاشوري، زاوية الشيخ الهاشمي الشريف مفخرة الحركة الإصلاحية بسوف، المنشور بتاريخ: 2018/09/23. https://eljadidelyawmi.dz

الشيخ عبد القادر الياجوري
ودوره الإصلاحي في منطقة وادي سوف

Sheikh Abd-el-Kader AlYajouri
and his reformist role in Wad Souf region

عبد القادر تركي
مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر
جامعة الوادي (الجزائر)
terki-abdelkader@univ-eloued.dz



ملخص: عرفت الجزائر مع بداية القرن العشرين نهضة ثقافية وفكرية نشطة، وما عززها هو تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 التي ساهمت في بث روح الوعي والدعوة إلى التجديد وفي انتشار روح الإصلاح وإحداث صحوة دينية ونهضة ثقافية، أدت بالفرد الجزائري بالنفور من كل ماله علاقة بالتقاليد البالية التي ورثها عن الاستعمار ومعاونيه، وتعتبر وادي سوف من بين المناطق التي عرفت حركة إصلاحية نشيطة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وذلك بفضل جهود علمائها المصلحين كالشيخ عبد القادر الياجوري؛ الذي كانت له جهود معتبرة في إدخال منطقة وادي سوف في طريق الإصلاح.

هذه الدراسة سوف تستعرض جهود الشيخ عبد القادر الياجوري الإصلاحية في واد سوف وكيف أثرت فيه رحلته للعلم في جامع الزيتونة في تعزيز روح الإصلاح لديه وبثها في منطقة واد سوف، وكيف أن الشيخ الياجوري كان من بين أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على حياة أحد أهم العلماء الإصلاحيين في منطقة الجنوب الشرقي الجزائري، وهو الشيخ العالم عبد القادر الياجوري، وكذلك إبراز دوره الإصلاحي والتربوي بمنطقة قمار والجزائر عموماً.

الكلمات المفتاحية: الياجوري؛ وادي سوف؛ الإصلاح؛ التعليم؛ الاستعمار.

Abstract :
With the beginning of the twentieth century, Algeria experienced an active cultural and intellectual renaissance and strengthened by the establishment of the Association of Algerian Muslim Scholars 1931, which contributed to raising awareness and advocating for renewal and the spread of the spirit of reform, religious awakening and cultural renaissance, The Algerian individual's distaste for all his money related to the outdated traditions he inherited from colonialism and his collaborators Wadi Souf is one of the areas in which a reformist movement was active after the end of the Second World War, thanks to the efforts of its reformed scientists, such as Sheikh Abd-el-Kader Alyajouri; which had considerable efforts in bringing the Wadi region into the path of reform.

This study will review the reform efforts of Sheikh Abd-el-Kader AlYajouri in Wade and how his journey to science at the Zaytouna Mosque has enhanced his spirit of reform and broadcast it in Wade AlYajouri, and how Sheikh AlYajouri was among the most prominent members of the Algerian Muslim Scholars Association. This research aims to highlight the life of one of the most important reformist scholars in the South-East region of Algeria, Sheikh Abd-el-Kader Alyajouri, as well as his reformist and pedagogical role in the Guemar region and Algeria in general.
Keywords: Alyajouri; Wadi Souf; Reform; Education; Colonialism.

1. مقدمة:

مثلت بداية القرن العشرين بالنسبة للجزائر مرحلة جديدة في الكفاح، حيث بدأت تتبلور ملامح الكفاح السياسي، ولا نبالغ هنا القول إذا أرجعنا جذور الكفاح السياسي سواء في الجزائر أو في المغرب العربي؛ إلى تلك الصحوة الإصلاحية التي قادها علماء تأثروا خاصة بتلك التغيرات الحاصلة في المشرق العربي، لقد تعززت الصحوة الإصلاحية في الجزائر بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين1931، والتي ضمت علماء من مختلف نواحي الجزائر، منطقة وادي سوف انضمت لنشاطات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ممثلة بعدة علماء ومشايخ، وكان من بينهم الشيخ عبد القادر الياجوري سليل منطقة قمار، في هذه المداخلة والتي تحمل عنوان: "**جهود الشيخ عبد القادر الياجوري الإصلاحية في منطقة وادي سوف**"، ومن هنا من هو الشيخ عبد القادر الياجوري؟ وأين تلقى تعليمه؟ وكيف ساهمت جهوده الإصلاحية في توعية سكان المنطقة؟

إننا نهدف من خلال هذه الدراسة إلى شرح أوضاع منطقة وادي سوف خاصة الثقافية والدينية، ومدى مساهمة دعوة عبد القادر الياجوري الإصلاحية في إحياء الروح الوطني، كما سنقوم بتتبع مسيرة الشيخ النضالية سواء أثناء فترة الحركة الوطنية، أو خلال الثورة التحريرية.

2. مولده وتعليمه:

ولد عبد القادر بن الحاج عمار يجور في قمار بولاية الوادي، حوالي سنة 1912م، كان أبواه من الفلاحين، وقد حفظ القرآن الكريم على والده، ثم اغترب من أجل العلم و عمره لا يتجاوز الثالثة عشر، ومن هنا بدأت عصاميته واعتماده على نفسه في مواجهة الحياة دامت غربته تسعة سنوات من (1925 إلى 1934) قضى بعضها في توزر بجريد تونس، حيث درس على عدد من علماء الجزائر وتونس أيضا أمثال الشيخ العربي التبسي والشيخ محمد الخضر حسين والشيخ المكي بن عزوز، وقضى بعضها الأخر في جامع الزيتونة، ومهما كان الأمر فقد انتهت غربته بحصوله على شهادة التطويع سنة 1934، ثم رجع على قمار مسقط رأسه، وكان عمره عندئذ اثنين وعشرين سنة، ورغم شح موارد الرزق والبطالة لأمثاله من

خرجي الزيتونة، فإنه حصن نفسه بالزواج منذ فاتح 1935[1].

إن الفترة الزمنية التي واكبت عودة الشيخ الياجوري من جامع الزيتونة شهدت حركة إصلاحية للعلماء في الجزائر، فعقد العشرينات كان مرحلة تخمر فكرة الإصلاح وذلك منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وقد شهدت هذه الفترة أيضا بدورها حواضر سوف الأساسية الوادي وقمار والزقم حركة علمية بعد عودة العديد من طلبة العلم من جامع الزيتونة، وكانت متشبعة بالفكر الإصلاحي والروح العلمية[2]. وقد أشرنا إلى مرحلة التعلم والغربة والتي امتدت من سنة 1925 حتى سنة 1934، وكان خلالها يتعلم من المدرسة ومن البيئة والحياة عموما، وإذا كان الطلبة عادة يرجعون من رحلتهم في طلب العلم بزاد من العلوم اللغوية والأدبية والفقهية والدينية، فالشيخ الياجوري لم يكتف بهذا الزاد إنما أضاف أليه رصيدا من السياسة والوعي وفصاحة اللسان[3].

لابد أن دراسة الشيخ في الزيتونة كان لها الأثر الكبير في مسيرة الشيخ الإصلاحية، فقد تزامنت دراسته هناك بنهضة علمية كبيرة في تونس، التي شهدت تأسيس الجمعيات والمدارس التي أخذت على عاتقها إحياء التراث العربي والإسلامي إضافة إلى الجهود التي قام بها شيوخ الزيتونة، كما تزامنت وبداية تبلور الوعي السياسي وذلك من خلال الجهود التي قام بها الشباب التونسي في نشر الصحف والمجلات التي بثت الوعي السياسي والديني وأعادت ربط التونسيين بروح الإسلام وبداية المطالبة بالتجديد، كما أن الشيخ عندما كان يدرس بالزيتونة احتك بهذه الأفكار التجديدية وحين عودته للديار أراد نقل هذه التجارب لأهل بلدته خاصة لما رأى فيها تفشي البدع والخرافات وتفشي الجهل وأمية نتيجة السياسات الاستعمارية. فجامع الزيتونة كان له الفضل الأول في محاربة الاستعمار الفرنسي في البلاد التونسية، وإلية ترجع جذور كل عمل نضالي بصفته الأمين عن التراث القومي والحضارة العربية الإسلامية، إضافة إلى أن جامع الزيتونة قد لعب دورا هاما وكبيرا في تثبيت معالم القومية العربية والثقافة العربية الإسلامية بطرق ووسائل مختلفة ففيه تتمثل أسمى معاني المجد القومي، كما تتمثل فيه أعرق القيم الروحية وأسماها[4].

تتلمذ الشيخ الياجوري في قمار على يد الشيخ الجليل عمار بن الأزعر الذي يعتبر وبحق رائد الإصلاح في منطقة قمار بصفة خاصة ووادي سوف بصفة عامة، فلقد تأثر العديد من

1- أبو القاسم سعد الله، «مجاهد من نوع آخر»، **مجلة الثقافة الجزائرية**، د.ع، 1993، ص 57.

2- الجباري عثماني، «المصلح الشيخ عمار بن الأزعر وجهوده في التحرير والتنوير بالديار السوفية»، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، جامعة الوادي، العدد 13، جوان 2017، ص ص: 101-102.

3- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 59.

4- الطاهر عبد الله، **الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة 1830-1956**، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ص219.

طلابه به حتى أن البعض سلك طريقه في الوعظ والإرشاد، وفي طلب العلم أيضا فقد حذا حذوه مجموعة من تلاميذه أين توجهوا لجامع الزيتونة لطلب العلم، وعادوا إلى قمار مشبعين بروح الإصلاح الديني والسياسي، فقد تزامنت هجرتهم لجامع الزيتونة بالأوضاع السياسية السائدة هناك وتأثروا بالعمل الإصلاحي الذي قام به شيوخ وطلبة جامع الزيتونة وبما تقدمه الجمعية الخلدونية[5] وغيرها من الجمعيات والنوادي، وزعماء الحركة الوطنية التونسية أمثال عبد العزيز الثعالبي والحبيب ثامر وغيره، فتأثروا بمطالب الحركة الوطنية المطالبة بالتجديد والتغيير، نختص بالذكر تلميذه عبد القادر الياجوري الذي أصبح من زعماء الحركة الإصلاحية في المنطقة[6].

3. الانتماءات السياسية للشيخ الياجوري:

تعتبر شخصية الشيخ الياجوري من الشخصيات المتفردة والمتميزة في كثير الأشياء، فلم يكن الشيخ من أولئك الأشخاص النمطيين، ففي كثير من الأحيان جمعت شخصيته بين متناقضات بعض الفترات[7]، فمثلاً نذكر أنه خلال فترة الحركة الوطنية الجزائرية كان الكثير من الجزائريين منقسمين منهم من هو إصلاحي في صف جمعية العلماء ومنهم من هو وطني استقلالي في صف حزب الشعب الجزائري، ونادراً ما نجد شخصاً يجمع بين هاذين الاتجاهين، لكن الشيخ الياجوري كان كذلك فقد كان عضواً في جمعية العلماء وفي نفس الوقت كان ناشطاً من نشطاء حزب الشعب المحرضين على الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي ونيل الاستقلال[8].

وفي قصة أخرى تثبت تميز الشيخ الياجوري نجد ظهور صراع فكري في المنطقة العربية، هذا الصراع كان بين طرفين الأول يتمثل في التيار القومي أو القومية العربية، والثاني يتمثل في التيار الإسلامي متمثلاً في الحركات الإسلامية التي ظهرت والتي تدعو إلى التجديد والإصلاح، وهذين الاتجاهين كان بينهما صراع كبير خاصة في المجالين السياسي والفكري، فكان أغلب الناس بين هذين الاتجاهين فنجد الشخص إما أن يكون إسلامي بحت أو أن

5- تأسست سنة 1896م على يد مجموعة من الشباب التونسي في مقدمتهم البشير صفر، الهدف من تكوينها هو إدخال الإصلاح على جامع الزيتونة ومساعدة طلبة جامع الزيتونة على تحسين مستواهم التعليمي، وقد لعبت هذه المؤسسة دورا كبيرا في نشر العلم والثقافة الحديثة وإذكاء الروح الوطنية في الشباب التونسي وذلك عن طريق إلقاء الدروس والمحاضرات وتلقين اللغات العصرية حتى أصبحت محط أنظار رجال عموم إفريقيا الإسلامية وطلبة شمال إفريقيا .**ينظر:** الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص35.

6- محمد الطاهر بن بلقاسم التليلي، **منظومات في مسائل قرآنية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص8.

7- مقابلة شفوية مع السيد مصطفى ياجور (ابن أخ العلامة عبد القادر الياجوري)، قمار، سنة 2019.

8- نفسه.

يكون عروبي بحت، وقليلاً ما نجد شخصاً يجتمع فيه مناصرة ودعم هاذين الاتجاهين بنفس النسبة، لكن الشيخ الياجوري كان كذلك فقد كان عالماً عروبياً إسلامياً، والدليل على ذلك أنه كان إسلامياً مصلحاً من زعماء جمعية العلاء المسلمين، وفي نفس الوقت كان من أنصار الوحدة العربية فقد شجع على الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا سنة 1958م وألقى خطبة على المساجين في معتقله بآفلو أثنى فيها على هذه المبادرة[9].

4. الشيخ الياجوري عالماً:

كان الشيخ يعقد حلقات دروس حرة في مساجد قمار أو لقاءات مع بعض التلاميذ وأنصار الإصلاح، وقد تحصل سنة 1936 على رخصة التعليم في المدرسة القرآنية الموجودة في جامع "الطلبة بقمار"، وهذا الجامع كان قد جدّد حوالي سنة 1930، وكان المترددون عليه غالبا من أنصار الإصلاح، وأولئك الذين تكونوا أو تأثروا بدروس الشيخ عمار بن الأزعر[10]. وقد عدد الشيخ الياجوري الأماكن التي مارس فيه التعليم بين 1936- 1954 فيما يلي: قمار، البياضة[11]، بسكرة، عزابة، وهران، معسكر، سيدي بالعباس وغليزان، ولكنه لم يذكر قسنطينة إلا منذ تعيينه في معهد ابن باديس الذي انشأ سنة 1947[12].

بالإضافة إلى ذلك فقد كان الشيخ الياجوري مفتياً، فأثناء الحرب العالمية الثانية اشتد بالجزائريين الجوع والفقر...فأتاه رجل في قمار وسأله عن زراعة الدخان حلال أم حرام فقال له حلال...ثم جاءه في الثمانينات فقال له حرام...وهذا يدل على أن الشيخ الياجوري من العلماء المجددين وليس من العلماء الجامدين الذين يتقيدون بالنص فقط[13].

5. الشيخ الياجوري والطرق الصوفية:

ربما نجد الكثير من الناس يعتقدون أن الشيخ كان ضد الطرق الصوفية ومعادياً لها بحكم أنه كان من أعضاء جمعية العلماء المسلمين وتبنيه للنهج الإصلاحي التجديدي، لكن ذلك غير صحيح فالشيخ الياجوري لم يكن لديه حكم أو موقف واحد تجاه الطرق الصوفية، والدليل على ذلك أنه درس في الزاوية القادرية في توزر[14]. إضافة إلى ذلك فإن رفيق درب الشيخ الياجوري هو لشيخ عبد العزيز الشريف بن الشيخ الهاشمي الشريف شيخ الطريقة القادرية في وادي سوف، هذا الشيخ (عبد العزيز الشريف) وأتباع الطريقة القادرية كان لهم دور كبير في تنظيم زيارة للشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية

9- نفسه.

10- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 60.

11- كلتاهما بالوادي وكانت البياضة تعرف بمنطقة عميش في تلك الفترة.

12- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 71.

13- مقابلة شفوية مع السيد مصطفى ياجور، المصدر السابق.

14- نفسه.

العلماء المسلمين إلى وادي سوف سنة 1937، وقد كان هذا حدثاً بارزاً وهاماً في تاريخ المنطقة[15].

كان الوفد بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ العربي التبسي، وخير الدين، وقد استقبله وحضر للزيارة أعضاء جمعية العلماء من أبناء الوادي مع أنصار من علماء الناحية، وكان عدد من هؤلاء العلماء ممن شاركوا في تأسيس جمعية العلماء نفسها مثل الشيخ عمار بن الأزعر المذكور والشيخ محمد الأمين العمودي، الذي تولى أمانة الرأي فيها، وكان العمودي من أبرز المترجمين والعدول، وقد أعلن الشيخ عبد العزيز الشريف خلال هذه الزيارة انضمامه إلى جمعية العلماء المسلمين[16].

6. الشيخ الياجوري وجمعية العلماء المسلمين:

من الذين اعتمد عليهم الشيخ ابن الهاشمي في التعليم بالزاوية على طريقة جمعية العلماء وحسب برامجها، الشيخ عبد القادر الياجوري، وكان الشيخ الهاشمي من خريجي جامع الزيتونة أيضا، ولعله كان رفيقا للشيخ الياجوري في الدراسة، ولم يكتف الشيخ الهاشمي بجلب الياجوري فقط للتدريس بل جلب معه أيضاً عالما آخر؛ وهو الشيخ علي بن سعد[17]، الذي تخرج مثلهما من جامع الزيتونة ، وهكذا تكونت من خلال هذا الثالوث المتحد في المشرب والميول خلية قوية لجمعية العلماء بوادي سوف، وقد ازدادت هذه الخلية نشاطا وحيوية بزيارة الشيخ ابن باديس وصحبه وزيارة ابن باديس ليست زيارة عادية، بل كانت حدثا له ما بعده، فهو قد جاء لدعم مشروع وبث فكرة وإرساء قاعد ثابتة لحركة الإصلاح، ومن ثمة اشتمل البرنامج على تفقد شعب (فروع) الجمعية، وإلقاء الدروس في المساجد لتوعية العامة، وعقد اجتماعات مع علماء الناحية وأنصار الإصلاح، وكان الشيخ الياجوري من العناصر الفاعلة في هذه الأثناء؛ فهو الخطيب وهو المعلم، وهو الداعي للقاء

15- في هذه السنة تكونت أيضا مدرسة تابعة لجمعية العلماء باسم مدرسة النجاح بقمار - تولاها الشيخ الياجوري في البداية ثم الشيخ محمد الطاهر التليلي فترة طويلة، و قد جاء في (البصائر) عدد 109 (تاريخ 22 أبريل 1938) أن الشيخ التليلي قد ترأس شعبة قمار لجمعية العلماء وأن نائبه فيها هو الشيخ الحفناوي هالي، نظرا لانتقال الشيخ الياجوري إلى عميش حيث زاوية (معهد) الشيخ الهاشمي.

16- مقابلة شفوية مع السيد مصطفى ياجور، المصدر السابق.

17- علي بن سعد أحد أبر تلاميذ الشيخ لزعر الذين ساهموا بشكل بارز في تنشيط الحركة الإصلاحية، فبعد أن هاجر للزيتونة لطلب العلم اقتداء بشيخه عمار بن الأزعر رجع لقمار سنة 1932 وعمل كمدرس هناك ضمن مدارس جمعية العلماء المسلمين، وكان له نشاط صحفي فأصدر جريدة "الليالي" سنة 1936، ذات الطابع الإصلاحي، واهتمت الجريدة بنقد الأوضاع الداخلية وما فيها من فساد إداري واجتماعي وانحراف ديني. **ينظر:** جمال زواري أحمد، «مساهمة أعلام سوف في تأسيس الصحافة الإصلاحية في الجزائر (1925-1940)»، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، جامعة الوادي، عدد: 09، ، جانفي 2017، ص 185.

ابن باديس والحديث إليه[18].

وبالرجوع للوراء قليلا نجد أن علاقة الحركة الإصلاحية بمنطقة وادي سوف تعززت بانضمام شيخ الطريقة القادرية عبد العزيز بن الهاشمي الشريف إلى جمعية العلماء المسلمين سنة 1937 وذلك بعد تواصله مع رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس، لينتخب بالإجماع لعضوية مجلسها الإداري، ونظرا لنفوذه الديني والاجتماعي رتب الشيخ عبد العزيز زيارة لوفد من ضم أبرز علماء وقادة الجمعية لوادي سوف، في أواخر ديسمبر من نفس السنة التي انظم فيها لصفوف الجمعية، وتشكل الوفد من الشيخ عبد الحميد بن باديس والعربي التبسي ومبارك الميلي ومحمد خير الدين وحمزة بكوشة، وقد كان لهذه الزيارة الأثر العميق والصدى الواسع بين السكان[19].

ومما لاشك فيه أن الشيخ عبد القادر الياجوري كان عضو عاملا في جمعية العلماء منذ ميلادها سنة 1931 أي قبل أن يرجع هو من تونس ولا شك أنه كان من أولئك الطلاب الذين اعتبروا أنفسهم مجندين منذ حياتهم الطلابية للفكر الإصلاحي الذي قامت عليه الجمعية[20]، وقد انتخب الشيخ عبد القادر الياجوري بدوره كعضو في المكتب الإداري لجمعية العلماء المسلمين سنة 1944 وعين كأستاذ بمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة سنة 1948، ونائب لرئيس لجنة التعليم العليا للجمعية ومندوبها المتجول في الناحية الغربية للوطن[21].

يقول الشيخ الياجوري عن نفسه أنه اعتنق: «مبادئ دعوتها (جمعية العلماء) الثقافية- الدينية، والاجتماعية، والقومية، والوطنية، والكفاحية»، وتأكيده على هذه التعابير يعتبر بمثابة الرد على من يزعم أن جمعية العلماء هيئة دينية ثقافية أو على من يذهب إلى أنها لم تلعب دورا قوميا وطنيا نضاليا، وقد أكد ليس علي انتمائه فقط، ولكن أضاف إلى ذلك قوله: «وحتى النفس الأخير» فهو عضو في الجمعية منذ نشأتها هي إلى وفاته هو[22].

ونشاط الشيخ عبد القادر الياجوري اتسم بطابع خاص جمع فيه بين انتمائه لحركة إصلاحية وذلك بنشاطه ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبين نشاطه كسياسي داخل صفوف حزب الشعب الجزائري؛ وبذلك جسد جسرا يربط بين كفاح جمعية العلماء وكفاح حزب الشعب، فقد أخذ من الجمعية حرارة الإيمان بالقضية الوطنية وبالعروبة والإسلام، وأخذ من الحزب الشجاعة في المواجهة وارتياد السجون و العقيدة الراسخة في

18- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 62.

19- جمال زواري أحمد، المرجع السابق، ص165.

20- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 58.

21- جمال زواري أحمد، المرجع السابق، ص167.

22- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 58.

حرية الوطن واستقلاله[23]. ومن إسهامات الشيخ الياجوري في إنجاح أهداف جمعية العلماء المسلمين نجد أن الشيخ قام بجمع الأموال في بلدته قمار رفقة الشيخ علي المغربي بهدف تأسيس معهد ابن باديس في قسنطينة، وكان ذلك في 15 جانفي 1952، فجمعا سبعة وستين ألفاً من الفرنكات القديمة[24].

إن المرحلة مابين 1946- 1956 هي مرحلة الإنتاج التعليمي والمسؤوليات على مستوى جمعية العلماء، فقد سبق القول أنه انتخب غضواً في المجلس الإداري للجمعية سنة 1944 على إثر خروج الشيخ الإبراهيمي من معتقله في آفلو ومباشرته رئاسة الجمعية، وكان الشيخ الياجوري عندئذ ما يزال "هاربا" من عدالة فرنسا، وفي سنة 1946 صدر العفو العام على إثر أحداث الثامن ماي 1945، فعاد النشاط يدب ببطء في حي أوصال الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، وقد ظهرت الأحزاب الجديدة وجدَّدت جمعية العلماء مجلسها الإداري فكان الشيخ الياجوري من الذين جددت عضويتهم، وظل كذلك إلى 1956 حين انضمت الجمعية إلى جبهة التحرير الوطني علينا، وكانت الجمعية قد اتخذت مواقف وقررت قرارات تهم الجزائر وغيرها، وكان مجلسها الإداري هو الهيئة العليا التي تدرس وتحكم وتصدر القرارات والمواقف، فالشيخ الياجوري إذا كان مسؤولاً وحاضراً في كل ما صدر عن الجمعية في هذه المرحلة[25].

7. الإدارة الاستعمارية ونشاط الشيخ الياجوري:

إن تحركات الشيخ الياجوري ضمن جمعية العلماء المسلمين شدت انتباه الإدارة الاستعمارية وأقلقتها، خاصة بعد أن حول الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي الشريف مقرات الزاوية القادرية بالمنطقة إلى مدارس شبه عصرية على نهج جمعية العلماء المسلمين وحسب برامجها، واستدعى لها بعض خريجي الزيتونة وفي مقدمتهم الشيخ عبد القادر الياجوري، وتعقد الأمر أكثر بزيارة الشيخ ابن باديس لوادي سوف، هذا الأمر لم تستسغه السلطات الاستعمارية واتهمت زعماء الإصلاح بالتحضير للثورة والتمرد عليها في أفريل 1938، فكانت حجة للقضاء على الحركة الإصلاحية والخلية النشطة لجمعية العلماء بواد سوف وسجن زعمائها ونفيهم، واستمرت الأحداث مدة ثلاث أسابيع وكان من بين المعتقلين الشيخ عبد القادر الياجوري[26].

ويتحدث الشيخ ابن باديس عن أحداث الثامن أفريل فيقول:« يوم 18 أبريل 1938

23- نفسه، ص 69.

24- الشيخ محمد الطاهر التليلي، **هذه حياتي**، إعداد وتنسيق: بشير خلف، مكتبة سامي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص82.

25- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص ص:69- 70.

26- جمال زواري أحمد، المرجع السابق، ص165.

عجت وادي سوف بالجنود والعتاد، ورصعت رباه بالمدافع الرشاشة، وأرعدت أجزاؤه بأزيز الطائرات، فأوشك أهله ونساؤه، وأطفاله وبيوته ونخيله أن تنسفهم قنابل الأرض أو تمحقهم صواعق السماء، فذهلت المراضع ووضعت نحو ثلاثين امرأة حملها... أصبح الوادي على حين بغتة وقد عطلت أسواقه سدت طرقاته ومنع عنه الداخل والخارج، وضرب عنه نطاق شديد محكم من الحصار»، وقد دام ذلك ثلاثة أسابيع على الأقل، وهكذا ألقت السلطات القبض على الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي وعبد القادر الياجوري وعلي بن سعد وعبد الكامل، باعتبارهم نواة التعليم بالزاوية ومن أنصار جمعية العلماء، ومن التهم التي وجهة إلى الشيخ الهاشمي أنه نظم ثورة ضد أمن الدولة وأن له صلة بجهة أجنبية، وسيق الجميع إلى سجن الكدية بقسنطينة، ولكن قبل ذلك بقوا في الوادي فترة للتحقيق، والتهمة التي وجهت إلى الشيخ الياجوري هي العداء لفرنسا، وقد ظل في سجن الوادي فترة في زنزانة لا يتصل به أحد، ثم حمل في سيارة إلى سجن الكدية وبقي هناك دون محاكمة واحد وعشرين شهراً، ثم حوكم عسكريا وفرضت عليه غرامة هو وزملاؤه، ثم ألزم الإقامة الجبرية الحضورية، أي عليه أن يثبت حضوره اليومي لمركز الأمن التابع له، ودام ذلك من سنة 1938 إلى صدور العفو العام سنة 1946[27].

وبعد محاكمته عسكرياً في قسنطينة نفي إلى مليانة في 16 جانفي 1940، وأجبر على الإقامة بها سنتين، ولازمت الشرطة تحريتها معه، وفي العشرين من جانفي 1942 أثناء حكم فيشي، أخذه الدرك وسلمه للشرطة العسكرية التي حملته إلى سعيدة حيث أودع السجن العسكري بثكنة اللفيف الأجنبي، ومن سعيدة إلى بشار حيث زج به في السجن العسكري أيضاً، ثم نفى من بشار إلى بني عباس التي قضى فيها ثلاثة و ثلاثين شهراً تحت الإقامة الجبرية، وكانت بني عباس تابعة للسلطة العسكرية الاستبدادية[28].

غير أن وضعه قد تغير قليلا بحلول أكتوبر سنة 1944، عندما حكموا عليه بالخروج من بني عباس ومغادرة المناطق التابعة للحكم العسكري، ولكنهم منعوه من الرجوع إلى مسقط رأسه، ودامت حالته هذه إلى عيشة أحداث الثامن ماي 1945، فقد كان قد نزل بسكرة ليكون قريبا من أهله ولكنهم قبضوا عليه هناك أيضا وأودع السجن، وقد اغتنم حوادث الثامن ماي واختفى عن الأنظار إلى أن صدر العفو العام سنة 1946، فاستفاد الشيخ الياجوري من ذلك ورجع إلى التعليم في مدارس جمعية العلماء، وكانت الجمعية أخذت تنظم نفسها في ضوء الرئاسة الجديدة لها في شخص الشيخ الإبراهيمي وضوء القوانين الجديدة التي جاء بها دستور الجمهورية الرابعة وقانون الجزائر الصادر سنة 1947[29].

27- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص ص:62- 63.

28- نفسه، ص 65.

29- نفسه.

8. الشيخ الياجوري والثورة التحريرية:

كان الشيخ الياجوري مخلصا لمبادئ الجمعية وكان في نفس الوقت صلة وصل متينة بينها وبين حزب الشعب بالذات، فرغم انتماء الشيخ الياجوري إلى لجمعية العلماء، فإنه كان يعتقد في مبادئ حزب الشعب القائمة على تحرير الجزائر بقوة السلاح، وقد ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله أن الياجوري قد روى له شخصياً سنة 1989 بقمار أن الشيخ ابن باديس نصحهم بإتباع حزب مصالي إذا انهزمت فرنسا ووقع له هو مكروه، وعندما اندلعت الثورة التحريرية أصبح المندوبون ومتجولي "البصائر" والمفتشون وسيلة ناجعة لأداء مهمة الثورة في الاتصال بين أجزاء الوطن، وفي جانفي 1956 أعلن المجلس الإداري للجمعية قراره التاريخي بالتأييد الصريح للكفاح المسلح والانضمام العلني والرسمي إلى جبهة التحرير الوطني، ويبدو من الأكيد أن الشيخ الياجوري كان حاضراً في صنع ذلك القرار[30].

ومهما كان الأمر فإن مرحلة أخرى من حياة الشيخ الياجوري تبدأ في سنة 1956 وتستمر إلى الاستقلال، والواقع أن قرار الجمعية بالانضمام إلى الكفاح المسلح واحتضان الثورة قد أدى إلى اعتقال الشيخ من جديد، يوم 29 مارس 1956 وإذا كان الكثير ممن اعتقلتهم السلطات الفرنسية عندئذ لم يعرفوا السجون والمعتقلات من قبل، فالشيخ الياجوري قد عاش النفي والسجن والمحاكمة وما إلى ذلك سنوات طويلة من قبل، وقد استمر اعتقاله هذه المرة ست سنوات متواصلة، أي إلى 19 مارس 1962 تاريخ إعلان وقف القتال وقد جرى القبض عليه في مدينة معسكر، ثم انتقل في السجون والمعتقلات الآتية: آفلو، أركول، بوسوى وسيدي الشحمى... الخ، ويذكر في سيرته الذاتية أنه ترأس بأمر من جيش التحرير الوطني لجنة قضائية مؤقتة، وأن ذلك قد دام إلى إعلان الاستقلال[31].

وقد كان الشيخ الياجوري من أعضاء لجنة الأساتذة في معتقل آفلو، فيقول المناضل محمد الطاهر الأطرش:«من أهم ما قمنا به في هذه الفترة تكوين لجنة ثقافية تقوم بدراسة المواضيع الأدبية والفلسفية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت لدينا في هذا المعتقل مصادر وكتب مكنتنا من إثراء معلوماتنا حول هذه المواد الهامة، ومن ضمن أعضاء هذه اللجنة: الأستاذ عبد القادر الياجوري من الوادي، عباس سليمان من أربعاء بني إيراثن، محمد المحاجي من محاجة، أحمد الثابي من باتنة، عبد القادر بودربالة من وهران، محمد الجزائري من معسكر، مصباح الحويذق من مستغانم، وغيرهم وكنت كاتباً لهذه اللجنة»[32]،

30- أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص ص: 72- 73.

31- نفسه، ص 73.

32- محمد الطاهر الأطرش، «المعتقلات والسجون الاستعمارية في الفترة ما بين 1 نوفمبر 1954 و20 أوت 1956»، **الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، المجلد الثاني**، الجزء الثاني، حزب جبهة التحرير

كما يذكر المناضل محمد الطاهر الأطرش أن الشيخ الياجوري قد قدم خطباً وكلمات للمعتقلين في آفلو، وأنه قد أجاد في كلماته وأفاد المعتقلين[33].

9. خاتمة:

من خلال البحث في سيرة الشيخ المصلح عبد القادر الياجوري تبين لنا مدى مساهمته في النهضة الإصلاحية، ليس على مستوى منطقة واد سوف فحسب بل على مستوى الجزائر ككل، ففي كل منطقة تواجد فيها شرع ينشر أفكاره الإصلاحية التي استمدها من جوهر مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والداعية إلى الرجوع إلى العمل بأقوال وأفعال السلف الصالح، والمحافظة على مقومات الهوية الوطنية الجزائرية، فكان يركز خلال إلقائه دروس الوعظ والإرشاد على مقاومة الاستعمار الفرنسي وكل ما يمثله، هذا ما سبب له متاعب كثيرة وفي مقدمتها تعرضه للسجن والإقامة الجبرية.

10. قائمة المراجع:

- الأطرش محمد الطاهر، من 8 إلى 10 ماي 1984، «المعتقلات والسجون الاستعمارية في الفترة ما بين 1 نوفمبر 1954 و20 أوت 1956»، **الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، المجلد الثاني**، الجزء الثاني، حزب جبهة التحرير الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين، ، طبع ونشر قطاع الإعلام والثقافة والتكوين، **الجزائر**.
- التليلي الشيخ محمد الطاهر، **هذه حياتي**، إعداد وتنسيق: بشير خلف، مكتبة سامي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2017.
- التليلي محمد الطاهر بن بلقاسم، **منظومات في مسائل قرآنية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- زواري أحمد جمال،«مساهمة أعلام سوف في تأسيس الصحافة الإصلاحية في الجزائر (1925-1940)»، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، جامعة الوادي، عدد: 09، ، جانفي 2017.
- سعد الله أبو القاسم، «مجاهد من نوع آخر»، **مجلة الثقافة الجزائرية**، د.ع، 1993.
- الطاهر عبد الله، **الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة 1830-1956**، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، تونس.

الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين، من 8 إلى 10 ماي 1984، طبع ونشر قطاع الإعلام والثقافة والتكوين، ص90.

33- نفسه، ص91.

- عثماني الجباري، «المصلح الشيخ عمار بن الأزعر وجهوده في التحرير والتنوير بالديار السوفية»، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، جامعة الوادي، العدد 13، جوان 2017.
- مقابلة شفوية مع السيد مصطفى ياجور (إبن أخ العلامة عبد القادر الياجوري)، قمار، سنة 2019.

النشاط الصحفي للشيخ عمر شكيري
من خلال جريدة البصائر 1935 ـ 1956م

The journalistic activity of Cheikh Omar Chekiri through the Al-Bassair newspaper 1935-1956

د/ عمر لمقدم

جامعة الوادي (الجزائر)

omarlemkadem@gmail.com

lemkadem-omar@univ-eloued.dz



ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالشيخ عمر شكيري باعتباره شخصية وطنية، وأحد علماء الحركة الإصلاحية بمنطقة الجنوب الشرقي الجزائري، كما تهدف إلى التعرف على توجهه الفكري ونشاطه الصحفي من خلال جريدة البصائر، وهو ما يعتبر من عوامل المقاومة الثقافية للمخططات الاستعمارية في الجزائر.

من خلال تفحص منشورات الشيخ عمر شكيري التي تراوحت بين القصائد الشعرية والمقالات، تبين أنه شخصية متعلمة تمتاز بروح التحرر، كما عرض بعض القضايا المختلفة التي تعتبر ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية كالتعليم ومؤسساته، النشاط الدعوي لجمعية العلماء والتعريف بمؤلفات رجالها، التعريف بتاريخ الجزائر وانتمائها العروبي والإسلامي ومناهضة الظاهرة الاستعمارية.

الكلمات المفتاحية: عمر شكيري؛ البصائر؛ الحركة الاصلاحية؛ المقاومة الثقافية؛ وادي سوف.

Abstract :

This study aims to introduce Cheikh Omar Chekiri as a national figure and one of the reformist movement scholars in the southeastern region of Algeria. It also aims to identify his intellectual orientation and journalistic activity through Al-Bassair newspaper, which is considered one of the factors of cultural resistance to colonial plans in Algeria.

By examining Cheikh Omar Chekiri's publications, which ranged from poems to articles, it was found that he is an educated personality characterized by the spirit of liberation. He also presented some different issues that are among the interests of the reform movement, such as education and its institutions, the advocacy activity of the Association of Scholars and introducing the writings of its men, introducing the history of Algeria and its Arab and Islamic affiliation and against the colonial phenomenon.

Keywords: Omar Chekiri; Al-Bassair Newspaper; reform movement; cultural resistance; oued Souf.

1. مقدمة

مع بداية ثلاثينات القرن العشرين، عرفت الجزائر ظهور حركة إصلاحية امتد نشاطها وتأثيرها إلى مناطق كثيرة، ومن جملتها منطقة الجنوب الشرقي الجزائري التي شهدت نشاطا إصلاحيا، ساهم فيه العديد من شخصيات المنطقة، مما افرز حالة من الوعي الثقافي، وزرع روح المقاومة الثقافية أيضا. من الشخصيات التي تعتبر ثمرة للمد الإصلاحي في منطقة وادي سوف نجد شخصية عمر شكيري الذي كان له دور في دعم الحركة الإصلاحية عموما، وكانت له مساهمات صحفية عبر جريدة البصائر في سلسلتها الثانية.

إن إشكالية هذا العمل تتمثل في البحث عن النشاط الإصلاحي والثقافي للشيخ عمر شكيري من خلال أعماله الصحفية عبر جريدة البصائر، وعليه نطرح التساؤل التالي: كيف كان النشاط الصحفي للشيخ عمر شكيري وكيف ساهم في نشر الفكر الإصلاحي وبث روح المقاومة الثقافية من خلال جريدة البصائر؟

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على شخصية عمر شكيري، باعتباره أحد أعلام الإصلاح بمنطقة الجنوب الشرقي الجزائري، وهي شخصية بقيت غير معروفة لدى الكثيرين حتى من أبناء المنطقة أو حتى لدى العاملين في الحقل الثقافي عموما، كما تهدف إلى الاطلاع على أفكاره ودوره ضمن نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

خلال بحثي حول شخصية عمر شكيري وأعماله، عثرت على مقال واحد فقط تناول شخصية عمر شكيري، وهو للدكتورة رواق حورية بعنوان: سجنية عمر شكيري: المضمون والبناء، وقد تناولت فيه الباحثة أشعار عمر شكيري التي ألفها في السجن خلال فترة الثورة التحريرية.

تم خلال هذا البحث توظيف المنهج التاريخي لدراسة واسترجاع الأحداث التاريخية التي تم تناولها من خلال منشورات عمر شكيري في جريدة البصائر، أما المنهج الوصفي فتم استخدامه في وصف الوقائع الواردة وصفا موضوعيا، كما تم توظيف منهج تحليل المحتوى لتفسير وتحليل مضمون المنشورات من قضايا وأحداث.

2. نبذة عن حياة الشيخ عمر شكيري:

ولد الشيخ عمر أبو بكر شكيري عام 1920م في بلدة قمار بولاية واد سوف، حفظ القرآن على المرحوم الحاج عمار ياجوري ثم على المرحوم الحاج بلقاسم بن الساسي. في سنة 1936 سافر إلى تونس لينخرط ضمن تلاميذ الكلية الزيتونية، وتخرج منها عام 1944 بشهادة التحصيل. وعاد إلى قمار، ولم يمكث بها أقل من شهر حتى نادى منادي التعليم أن حي على العمل. وكانت بسكرة أول محطة، أخذ بها قسما وسبورة في مدرستها التابعة لجمعية العلماء. وجاءت حوادث 8 ماي 1945 وحفظه الله من ويلاتها.

في العام الدراسي 46/45 نُقِل إلى مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ليكون ضمن معلميها، وتعرف خلال بقائه في قسنطينة على السيدة نعناعة ونيسي[1] وتزوجها. انتدب لإدارة مدرسة شلغوم العيد (شاطودان) فانتقل إليها برفقة زوجه في بداية العام الدراسي 48/47، ولم يمكث بها سوى عام واحد حتى طلب إليه الانتقال إلى برج بوعريريج لإدارة مدرستها، جيث مكث بها أربع سنوات كاملة، ثم نُقِل إلى الجزائر العاصمة في بداية العام الدراسي 53/52 لإدارة مدرسة حي المدنية (سلامباي) والقيام بمهام صلاة الجمعة بمسجدها.

وفي أفريل من عام 1956 أُلقِيَ القبض عليه وسِيق إلى معتقل البرواقية ثم بطيوة ثم سيدي الشامي ثم بوسوي ثم الشامي ثم أركول[2]. وفي جوان 1961 أفرج عنه ليبقى تحت المراقبة اليومية طيلة ستة أشهر، وجاء عام 1962 بالفرج على البلاد كلها، وخلال فترة اعتقاله كتب كثيرا من القصائد الشعرية[3]، كانت وقودا في المحيط الذي تصله. وفي بداية الاستقلال عُيِّنَ أستاذا بثانوية بوفاريك، ولما أنشئت وزارة الأوقاف آثر الالتحاق بها على التعليم العام. حيث كان بالوزارة كأستاذ منتدب موظف، ثم مديرا للمعهد الإسلامي بحسين داي، ثم نائب مدير بالوزارة[4] على اختلاف أسمائها إلى نهاية عام 1988 حيث نفض الجراب وأوصد على نفسه الباب[5]. له مشاركات كثيرة في الحياة الأدبية بمقالاته وقصائده الشعرية، ولكن شعره لم يطبع في ديوان حتى الآن[6]. توفي الشيخ عمر شكيري في 09 جانفي 2012م[7].

1- نعناعة ونيسي: أخت الكاتبة الشهيرة زهور ونيسي، كانت من بين عشر تلميذات معينات لمواصلة الدراسة بدمشق في الموسم الدراسي 1940/39م، أرسلهن الشيخ ابن باديس بعد أن علم بوجود مدرسة للبنات تحت إشراف حفيدة الأمير عبد القادر السيدة عادلة بيهم، غير أن الأمر لم يتم بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية وقد أصبحت لاحقا من المعلمات في مدارس جمعية العلماء.

2- بطيوة إحدى بلديات ولاية وهران. سيدي الشامي المقصود بها بلدية سيدي الشحمي بولاية وهران. سيدي الشامي المقصود بها بلدية سيدي الشحمي بولاية وهران. معتقل بوسوي (Boussuet) يقع بمنطقة الضاية بولاية سيدي بلعباس حاليا. المقصود بها بلدية سيدي الشحمي بولاية وهران. معتقل أركول يقع شرق مدينة وهران.

3- للاطلاع أكثر أنظر مقال: حورية رواق، سجنية عمر شكيري: المضمون والبناء، مجلة مقاليد، جامعة ورقلة (الجزائر)، المجلد 2، العدد 3، 2012، ص ص 75-84.

4- أكد لي الأستاذ بوبكر عمار شنه أنه قد شاهد منذ سنوات شهادات الأهلية وغيرها من شهادات التعليم الأصلي ممضاة من طرف الشيخ عمر شكيري، حوار معه يوم 2022/04/16 على الساعة 13:00 زوالا.

5- عمر شكيري، نبذة مخطوطة بخط يد الشيخ عمر شكيري، سلمها لنا ابنه الدكتور أحمد شكيري، بتاريخ 22 مارس 2022.

6- كامل سلمان جاسم الجبوري، معجم الشعراء 1-6 من العصر الجاهلي إلى سنة 2002م، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 79.

7- معلومة أدلى بها لنا السيد أحمد شكيري ابن الشيخ عمر شكيري بتاريخ 2022/04/16.

3. منشوراته في جريدة البصائر:

تحتل جريدة البصائر الرتبة الرابعة في ترتيب جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بعد تعطيل الإدارة الاستعمارية الفرنسية لثلاث جرائد، وهي السُّنة والصراط والشريعة، آخرها في سنة 1933م، وبعد عامين من المنع، ، بادرت جمعية العلماء إلى إصدار جريدة البصائر، والتي استمرت في الصدور ضمن سلسلتين منفصلتين زمنيا، الأولى خلال فترة الثلاثينات والثانية من أواخر الأربعينات حتى سنة 1956م.

3،1. السلسلة الأولى من جريدة البصائر:

صدر أول أعداد هذه السلسلة في 27 ديسمبر 1935م، وكان الشيخ الطيب العقبي مديرا للجريدة ورئيس تحريرها، ليخلفه الشيخ مبارك بن محمد الميلي اعتبارا من العدد 84 الصادر بتاريخ 29 أكتوبر 1937م إلى غاية العدد 180 الصادر بتاريخ 25 أوت 1939م وهو آخر عدد في هذه السلسلة، قبل اندلاع الحرب العلمية الثانية بنحو أسبوع، حيث قررت إدارة جمعية العلماء تلقائيا إيقاف صدور الجريدة تفاديا لضغوط الحكومة العامة في الجزائر[8]. في هذه السلسلة الأولى لم يكن لعمر شكيري أي مقال، حيث أن عامل السن قد يكون سببا في ذلك، حيث كان صغيرا في فترة صدور هذه السلسلة، وهي مرحلة التكوين وتلقي العلوم، فقد انتقل إلى جامع الزيتونة سنة 1936م وله من العمر 16 سنة[9].

3،2. السلسلة الثانية من جريدة البصائر:

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عاودت جريدة البصائر الظهور مرة أخرى، وصدر أول أعدادها بتاريخ 20 جويلية 1947م، واستمرت الجريدة في الصدور يوم الجمعة من كل أسبوع إلى غاية العدد 361 الصادر بتاريخ 06 أفريل 1956م، وكان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس تحريرها طيلة هذه الفترة، وبفعل ظروف الحرب وملاحقات الإدارة الاستعمارية رأت إدارة جريدة البصائر ايقاف صدورها[10]. كانت كل منشورات الشيخ عمر شكيري في جريدة البصائر ضمن السلسلة الثانية منها، وقد بلغ تعدادها 12 منشورا، منها 6 قصائد و6 مقالات، وقد جاء منشوره الأول في العدد رقم 2 الصادر بتاريخ 1 أوت 1947م، وهو عبارة عن مقال بعنوان الشعور الحي في نفوس أطفالنا[11]، أما آخر ما نشر له فقد كان بالعدد رقم العدد 359 الصادر في 23 مارس 1956م، وحمل عنوان على هامش رسالة

8- محمد صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ألفاديزاين، الجزائر، ط 2، 2006، ص ص 220-221.

9- عمر شكيري، نبذة مخطوطة، مرجع سابق.

10- المرجع نفسه، ص 268.

11- عمر شكيري، الشعور الحي في نفوس أطفالنا، جريدة البصائر، العدد 2 من السلسلة الثانية، الجزائر، 1 أوت 1947، ص 5.

القاهرة[12]، وهو مقال تضمن ردا على مقال للدكتور أبو القاسم سعد الله لما كان مراسلا لجريدة البصائر من القاهرة.

4. قضايا وموضوعات عمر شكيري في جريدة البصائر:

على الرغم من العدد القليل نسبيا لما نشر للشيخ عمر شكيري عبر صفحات جريدة البصائر، إلا أنه تطرق إلى العديد من القضايا والمواضيع، التي تصب وتبين في مجملها التزامه باهتمامات جمعية العلماء ونهجها الإصلاحي، حيث تناول من خلال مقالاته وقصائده مجالات التربية والتعليم، الوعظ والإرشاد، الثقافة والتاريخ والأدب، مما يدل على ثقافة واسعة كانت لدى الشيخ عمر شكيري بالإضافة إلى كونه شاعرا، وللإشارة فقد نشر الشيخ عمر شكيري مقالاته وقصائده كلها باسمه الحقيقي الكامل، وليس باسم مختصر أو مستعار.

1.4. الاهتمام بتربية وتعليم النشء:

كان من قواعد الإصلاح التي ركزت عليها جمعية العلماء المسلمين الاهتمام بفئة الأطفال والعمل على تربيتهم وتعليمهم، بهدف إعداد أفراد مثقفين ومحصنين من كل عوامل التغريب، التي سعى المستعمر من خلالها إلى سلب مقومات هوية الأمة وتراثها، ومن خلال مطالعاتنا لمنشورات الشيخ عمر شكيري، وجدنا فيها إشارات تنم عن اهتمامه الكبير بفئة الأطفال الناشئة وتربيتهم، باعتبارها فئة اجتماعية لها أثرها وتأثيرها وخطرها، كما تعد امتدادا للمجتمع وديمومة عاداته وتقاليده، فهي الفئة الوارثة التي ستتحمل المسؤولية مستقبلا، وقد طرق الشيخ شكيري جوانب مهمة في هذا المجال، ففي مقال حمل عنوان "الشعور الحي في نفوس أطفالنا" تناول الكاتب جزئية الاهتمام بمفهوم الشعور الحي لدى الأطفال سواء الذين كان لهم حظ من التعليم أو الذين حرموا منه، وضرورة أن يتشكل لديهم شعور واهتمام بقضايا المجتمع وعاداته، ويعتقد شكيري أن ذلك مرجعه إلى ما يتلقاه هؤلاء الأطفال في مدرسة الحياة من الكبار خلال أحاديثهم والدلائل التي يسوقونها. كما يشير عمر شكيري أن الطفل في هذه المرحلة العمرية يخزن في نفسه ما يتلقى من فئة الكبار ويشكله كما يشاء، ويمكن أن يتأثر الأطفال بقدوة لها روح الزعامة فينقادون إليها[13].

أبدى الشيخ عمر شكيري اهتمامه مرة أخرى بفئة الناشئة من خلال مقال آخر بعنوان "المسؤولية وحظ ناشئتنا منها"[14]، أشار فيه إلى مخططات الإدارة الاستعمارية التي تهدف إلى

12- عمر شكيري، على هامش رسالة القاهرة، جريدة البصائر، العدد 359 من السلسلة الثانية، 23 مارس 1956، ص 2.

13- عمر شكيري، الشعور الحي، مرجع سابق، ص 5.

14- عمر شكيري، المسؤولية وحظ ناشئتنا منها، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، العدد 9، الجزائر، 3 أكتوبر 1947، ص 3 وص6.

الإساءة ومحو التاريخ القومي الجزائري، ووصفه بغير حقيقته المعلومة، حتى ينخدع النشء ويتكون لديه عداء لبني قومه وعاداته، ويتبنى لسان المستعمر وثقافته بهدف تشكيل نخبة متغربة عن أمتها ومقوماتها، كما تناول اهتمام الإدارة الاستعمارية بمصالح السكان من غير أهل البلاد في إشارة إلى المستوطنين الأوروبيين والاهتمام بأطفالهم[15]، في مقابل ذلك عرض شكيري مقارنة بين أطفال السكان الأصليين الجزائريين وأنهم ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، مشيرا إلى أن أبناء الطبقة الثرية منهم لا يهتم بهم ذووهم ومقصرون في واجبهم نحوهم بالتعليم وغيره، حيث تترك الطائفة الثرية طفلها ينشأ دون مراقبة أو إشعار بما يطلبه منه المستقبل من استعداد لحمل العبء، وحتى إن درس فيدرس بكبرياء وأنفة، رغم أنه قادر على متابعة الدروس مهما علت أو غلت، فينشأ غير آبه لنفسه ولا لعائلته ولا مجتمعه في ظل الثراء والتدلل، ويعتقد شكيري أن الطبقة الفقيرة هي التي تسعى إلى تحسين وضع أبنائها، ويراها ناقمة على الوضع الذي تسبب فيه المستعمر الاستيطاني الذي وجه كل اهتماماته لأبناء الأوروبيين، باعتبارهم امتدادا له وضمانا لسيطرتهم على المستعمرة. يقول شكيري: "إن معاناة الأطفال خلال فترة الاستعمار واضطرارهم للعمل لسد احتياجاتهم، ومحاولة الحصول على التعليم ما أمكن، حتى يحسنوا من أوضاعهم، تجعل من هذا الطفل في مثل هذه السن يشعر هذا الشعور بالواجب ويحس هذا الإحساس بالعبء، فكيف يا ترى يكون لو وجد مؤسسات وطنية تعنى به وتعلمه، ووجد حكومة منه وإليه ترعاه وتربيه"[16]، وفي هذا يشير الكاتب إلى جانب تحرري سينمو داخل هؤلاء الأطفال ويدفعهم إلى الثورة على المستعمر.

وفي منشور آخر وهو عبارة عن قصيدة حملت عنوان: "وداع الطفولة"، يؤكد شكيري الشاعر على أهمية تربية وتعليم النشء ودعا الأولياء والكبار في المجتمع إلى الاهتمام بفئة الأطفال، حيث يقول[17]:

هم أبناؤنا روحا وعقلا *** و أخلاقا و إحساسا و دينا
وهم أبناؤكم في الصلب لكن *** لكم فضل ونحن الأفضلونا
ففي تثقيفهم ذقنا ضروبا *** من البلوى و أعناتا وهونا
وفي ترويضهم نطقا صحيحا *** ركبنا مركبا صعبا حرونا
وهزوا للجزائر بند علم *** به عند المخاض تحتمونا
وفكوا هذه الأغلال عنا *** بمالكم وكونوا منقذينا

15- المرجع نفسه، ص 3.

16- المرجع نفسه، ص 6.

17- عمر شكيري، وداع الطفولة، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، العدد 49، الجزائر، 13 سبتمبر 1948، ص 6.

وأكد أن طلب الحقوق ومغالبة العدو سلاحها الأول هو العلم لاسيما لدى النشء، مشيرا إلى قضية بالغة الأهمية ألا وهي تعليم البنات[18] وانعكاساته على الأسرة والمجتمع وإعداد الفرد الصالح لخدمه الوطن وتحريره، وهو جانب مهم حظي باهتمام جمعية العلماء، حيث يقول[19]:

وما علموا بأن الجهل أسر *** وقيد لن يفك ولن يلينا
ومن طلب الحقوق بغير علم *** أضاع جهوده في الغابرينا
وما غلب العدو لمثل شعب *** غدا أبناؤه متسلحينا
هنيئا للبنات هناء سعد *** وطوبى للمجد من البنينا
وعشتم –والجزائر- في ازدهار *** بتاج الانتصار متوجينا

4،2.الاهتمام بالمؤسسات التعليمية وشؤونها:

من أجل تحقيق الغايات المنشودة والحفاظ على مقومات الأمة من لغة ودين وشعور وطني، سعت جمعية العلماء إلى إنشاء مؤسسات لمختلف المستويات التعليمية، وقد أشار الشيخ عمر شكيري إلى أهمية هذه الهياكل العلمية من خلال ما نشره في جريدة البصائر، وفيما يلي أهم ما تناوله:

1.2.4. معهد ابن باديس:

كانت جمعية العلماء تؤكد على دور التعليم في إطار المقاومة الثقافية للمخططات الاستعمارية، لذلك كانت حريصة على بناء المدارس وغيرها من المؤسسات التي تحقق هذا الهدف للمجتمع الجزائري، حتى توجت جهودها بإنشاء معهد ابن باديس سنة 1947م بقسنطينة، ويعتبر أول معهد للتعليم الثانوي ومنه يتم توجيه الطلبة إلى جامعة الزيتونة وباقي جامعات المشرق العربي، بمثابة ملحقة لمعهد الجامع الأخضر. والمعهد إذ أنشئ سنة 1947 بعد سبع سنوات من وفاة الشيخ ابن باديس وحمل اسمه، إنما يدل على وفاء من رجالات الجمعية للنهج الذي سلكه ابن باديس، وقد كان الشيخ عمر شكيري معلما للخط بمعهد ابن باديس[20]، وفيه نشر قصيدة حملت عنوان "تحية المعهد"، حيث يقول[21]:

18- كان تعليم البنات محل اهتمام من طرف جمعية العلماء، حيث كان تعليمهن بمدارس الجمعية مجانيا، انظر: عبد الرشيد زروقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر 1913-1940، دار الشهاب، الجزائر، ط 1، 1999، ص ص 174-175.

19- عمر شكيري، وداع، المرجع السابق، ص 6.

20- الحسين عزة، معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسطينة ودوره في نشر التعليم العربي (1947-1956)، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعريريج (الجزائر)، المجلد 1، العدد 1، جانفي 2020، ص144.

21- عمر شكيري، تحية المعهد، جريدة البصائر، العدد 44 من السلسلة الثانية، 26 جويلية 1948، ص 9.

عبد الحميد دعا فأحيا ميتا *** وسعى لشعب بالفناء مهدد

كما وصف شكيري المعهد وصفا رائعا بقوله[22]:

المعهد المعمور كعبة قطرنا *** شمس المعارف عن سناه تهتدي

تناول الشيخ عمر شكيري المرامي البعيدة من خلال هذا المعهد؛ وهو التحضير لجيل واع لتحرير البلاد من سيطرة الاستعمار ونلمس ذلك في قوله[23]:

يسعى لتحرير البلاد بهمة *** ما أن تلين لمبرق أو مرعد

2.2.4. دار الطلبة بقسنطينة:

من أجل تيسير أحوال الطلبة الذين يفدون إلى قسنطينة لطلب العلوم، وفقت جمعية العلماء إلى افتتاح ما يسمى بدار الطلبة قصد تسهيل استقرارهم و سكنهم، وهو أمر يحسب للجمعية، فكان افتتاح دار للطلبة بقسنطينة حدثا علميا هاما ضمن النشاط التعليمي الإصلاحي لجمعية العلماء حضرته وفود عديدة، ولم يفوت الشيخ عمر شكيري المناسبة، حيث أشاد بهذا الانجاز الكبير الذي حققته جمعية العلماء وبالدور الذي يرجى منه لصالح الطلبة، وتوجه بالتحية إلى الوفود التي حضرت افتتاح الدار من خلال قصيدة حملت عنوان "تحية الوفود"، حيث قال[24]:

أهلا بمن وفدوا أهلا بمن زاروا *** سرت بمقدمكم وازدانت الدار
شدتم لنشئكم صرحا ومكرمة *** سمت وكان لها في القطر أخبار
وذي قسنطينة الشماء شرفها *** أن يستظل حماها النور والنار
بأمس كان لها ماض تتيه به *** واليوم معهدها المعمور والدار[25]

3.2.4. المدارس ومواردها المالية:

لم تغب شؤون المدارس الحرة وقضية تسييرها عن اهتمامات الشيخ عمر شكيري، فقد كانت حلقة هامة لتنفيذ المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومع توسع النشاط التعليمي للجمعية وتزايد المدارس الحرة، ازدادت الحاجة إلى تأمين الموارد المالية لتسيير شؤونها، ففي مقال حمل عنوان "المدارس ومواردها المالية"[26] تناول الشيخ

22- المرجع نفسه.

23- المرجع نفسه.

24- عمر شكيري، تحية الوفود بمناسبة افتتاح دار الطلبة بقسنطينة، جريدة البصائر، العدد 251 من السلسلة الثانية، 17 ديسمبر 1953، ص 5.

25- المقصود معهد ابن باديس ودار الطلبة بقسنطينة.

26- عمر شكيري، المدارس ومواردها المالية، جريدة البصائر، العدد 93 من السلسلة الثانية، 31 أكتوبر 1949، ص 10.

عمر شكيري هذا الجانب المهم، حيث دعا إلى ضرورة تأمين مشاريع اقتصادية متجددة الدخل، بدل الاعتماد على الاستخلاص الشهري من التلاميذ أو الاشتراكات السنوية أو التبرعات من ذوي الإحسان مع الإشارة إلى أن اغلب أولياء منتسبي هذه المدارس من الفقراء في البوادي والقرى.

4.3. رجال الحركة الإصلاحية:

تناول الشيخ عمر شكيري في منشوراته بعضا من شخصيات الحركة الاصلاحية، من جملتهم:

1.3.4. الشيخ ابن باديس ودوره:

تعتبر شخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس شخصية رئيسية ومؤسسة للحركة الإصلاحية في الجزائر، وكان تأثيرها كبيرا سواء على منتسبي هذه الحركة أو خارجها، وقد حظيت باحترام كبير من طرف الشيخ عمر شكيري، حيث تناولها ضمن منشوراته بجريدة البصائر، ومن ذلك أن خصه بقصيدة رثائية حملت عنوان "أمام قبر عبد الحميد"[27] منها قوله:

هذا الذي انتشل الجزائر فجأة *** من هوة كادت بها تغتال
بعث الجزائر بعد طول سباتها *** فدنت منى وتحققت آمال
عبد الحميد إمام نهضتنا التي *** ضربت بها في العالم الأمثال
نم هادئا وانعم فغرسك مثمر *** والشعب بعدك عامل فعال

ويشير شكيري إلى أهمية شخصية ابن باديس و تأثيرها في أتباعه حيث يقول في قصيدة أخرى[28]:

أرووا لنا كيف كنتم في جهادكم *** لما امتطى العزم من باديس كرار
فكان عبد الحميد الحبر قائدنا *** وسار في ركبه سود وأحرار

2.3.4. الشيخ ابن ذياب البسكري[29]:

نُشِر للشيخ عمر شكيري قصيدة حملت عنوان: "تعزية وذكرى"[30]، وجهها إلى صديقه ابن ذياب القنطري البسكري، وهو من رجالات جمعية العلماء، وتؤكد هذه القصيدة مدى

27- عمر شكيري، أمام قبر عبد الحميد، جريدة البصائر، العدد 121 من السلسلة الثانية، 29 ماي 1950، ص 7.

28- عمر شكيري، تحية الوفود، مرجع سابق، ص 5.

29- حول ترجمته، ينظر: رابح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، الجزء الأول، منشورات الحضارة، الجزائر، 2014، ص ص 389-390.

30- عمر شكيري، تعزية وذكرى، جريدة البصائر، العدد 62 من السلسلة الثانية، 3 جانفي 1949، ص 7.

التضامن والتآزر[31] الذي كان بين رجال الإصلاح المنضوين تحت لواء جمعية العلماء، وبسلوكه هذا يعطينا الشيخ شكيري نموذجا يحتذى لدى تلاميذ وطلبة مدارس الجمعية، وهو سلوك تربوي راقي يدعو إلى الوحدة والتضامن بين أفراد المجتمع الجزائري ونبذ الفرقة التي سعى المستعمر إلى بثها بشتى الطرق.

3.3.4. المؤرخ أبو القاسم سعد الله:

في مقال حمل عنوان "على هامش رسالة القاهرة"[32]، ورد في العدد 359 من السلسلة الثانية لجريدة البصائر، وجه الشيخ عمر شكيري من خلاله نقدا للمقال المعنون برسالة القاهرة، التي كان يرسلها أبو القاسم سعد الله من القاهرة إلى جريدة البصائر، وتطرق فيه لموضوع الواقعية في الأدب الفرنسي. وفي كتابه مسار قلم، تناول سعد الله هذه القضية، حيث أشار أنه بتاريخ 27 مارس 1956 وصلته جريدة البصائر التي تضم مقالا لعمر شكيري، ولكن ما يلفت الانتباه أن سعد الله ذكر أن شكيري قد علق بغضب على مقاله، بل قال أن مراسلته التي وجهها إلى البصائر قد وقع تشويهها[33]، وهنا نتساءل كيف يتم تشويه مقال أرسله سعد الله للنشر في جريدة البصائر ويتعرض إثر ذلك لنقد شكيري؟!

يشير سعد الله أنه في اليوم الموالي 28 مارس 1956 فكر في كيفية الرد على نقد عمر شكيري، ووصفه بالزميل في البصائر، لكنه من ناحية أخرى أشار أن شكيري يريد أن يضايقه بعدة اتهامات[34]، ولسنا ندري لماذا يقول سعد الله هذا الكلام عن شخصية إصلاحية لها مكانتها في جمعية العلماء ومن كُتّاب جريدة البصائر. من ناحية أخرى هناك تساؤل يطرح أيضا، كيف لا نجد ذكرا لشخصية عمر شكيري في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي الذي ألفه أبو القاسم سعد الله؟! رغم المكانة الهامة لشخصية عمر شكيري الإصلاحية، هذا فضلا عن كونهما أصيلي منطقة واحدة، وهي قمار في وادي سوف، ويعرفان بعضهما جيدا.

ينبغي أن نشير أنه بعد تفحصنا للعددين الأخيرين 360 و361 من السلسلة الثانية لجريدة البصائر، لم نجد فيهما ردا من سعد الله على نقد شكيري، رغم أن هيئة تحرير جريدة البصائر قد فتحت له الباب للرد من خلال العبارة الواردة في آخر مقال شكيري: "والكلمة الآن للأستاذ سعد الله". وهذه خاصية مهمة جدا تميزت بها جريدة البصائر، وتدل

31- عرف هذا باسم أدب التعزية، وقد دأبت جريدة البصائر في سلسلتها الثانية على نشر نماذج من التعازي الأدبية. انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998، ص 164.

32-عمر شكيري، على هامش رسالة القاهرة، جريدة البصائر، العدد 359 من السلسلة الثانية، 23 مارس 1956، ص 2.

33- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم (يوميات) ، ج 1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 1، 2005، ص 54.

34- المرجع نفسه، ص 55.

على نضج صحفي لدى هيئة التحرير المشرفة عليها، وللإشارة فقد كان شكيري لبقا في انتقاده من خلال إيراد عبارات تدل على احترامه لشخص سعد الله، كافتتاحه المقال بعبارة: "أخي سعد الله أسعدك الله".

4.3.4. الاهتمام بتاريخ الجزائر وانتمائها العروبي الإسلامي:

في قصيدة ليست طويلة عنوانها "من وحي الذكرى" أبان الشيخ عمر شكيري عن اهتمامه بتاريخ الجزائر والبعد العربي والإسلامي الذي يميزها، حيث تضمنت القصيدة افتخارا بالجزائر ومقاومتها لكل عوامل التغريب والمسخ التي تعرضت لها عبر عقود خلال الفترة الاستعمارية، حتى ظن أنها لن تعود إلى حياضها الأولى ومشاربها الأصلية، حيث يقول في ذلك[35]:

فمن قائل ذابت وما بقيت سوى *** هياكل لا ترجو سوى حفرة القبر
ومن قائل ماتت عروق حياتها *** بموت لسان الضاد والأثر النضر

انبرى لهذه الأمة من يعيدها إلى أصولها الأولى، في إشارة إلى جمعية العلماء ودورها في ربطها بأمجاد الرعيل الأول من الصحابة والفاتحين، حيث يقول الشيخ شكيري معتزا بذلك[36]:

فإنا ليوث من ذؤابة طارق *** وبيض كساها بالدماء عقبة الفهري
رمت بابن باديس الحميد جحافلا *** فأبلى بلاء خلدته يد الدهر

ضمن الشيخ شكيري قصيدته أيضا إشادة رائعة بالشيخ مبارك الميلي وكتابه القيم تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الذي يعتبر ضربة قاصمة دحرت افتراءات الفرنسيين حول تاريخ الجزائر، حيث يقول[37]:

مبارك الميلي فخر بلادنا *** وباعث تاريخ الجزائر للنشر
فشمر عن ساق العزيمة وانبرى *** يزيح غبار الشك عن كامن الصدر
وسطر من تاريخها كل آية *** من المجد واستجلى التراب عن التبر
واظهر ما شادت عليه عصابة *** صياصيها واستودعته يد الكفر

5.3.4. التعريف بالإنتاج العلمي لعلماء الجمعية:

من السنن الحسنة التي اعتمدتها جريدة البصائر التعريف بالمؤلفات عبر صفحاتها، لاسيما تلك التي أنجزها علماء الإصلاح، مما يحفز السعي للحصول عليها والاستفادة منها، ويرتفع بذلك مستوى المقروئية لدى الأفراد والطلبة خصوصا، وقد ساهم الشيخ عمر

35- عمر شكيري، من وحي الذكرى، جريدة البصائر، العدد 28 من السلسلة الثانية، 22 مارس 1948، ص 7.
36- المرجع نفسه.
37- عمر شكيري، من وحي، مرجع سابق، ص 7.

شكيري في ذلك بمقال تضمن التعريف بكتاب "المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي"[38] لمؤلفه موسى الأحمدي نويوات[39]، ويبدو أن اختيار عرض الشيخ شكيري لهذا التأليف بالذات إنما يعود أولا إلى ميوله الخاصة إلى الشعر، كما يبدو أيضا أنه قد وجد فيه قيمة علمية كبيرة، حيث أشار أن مؤلف الكتاب قد بحث فيه جميع ما يتعلق بالقوانين والأوزان والضرورات المتعلقة بالشعر ووصفه بأنه ذو قيمة علمية وعظيم النفع.

لا نستغرب أن يبادر الشيخ شكيري للتعريف بهذا الكتاب بالذات، حيث يذكر أنه كان متابعا لمسار صدوره، وذكر أن مؤلفه كان يأمل أن يصدره قبل أعوام إلا أن الحرب عطلت كل شيء، بل قضت الحرب على المسودة الأصلية للكتاب، وذكر أن المؤلف بادر إلى جمع شتات الكتاب ورصعه بمنتخبات الأشعار، وما يزيد على 60 ترجمة لأدباء وشعراء متقدمين، ولم ينس الشيخ شكيري التوجه إلى مؤلف الكتاب بالشكر الجزيل على هذا الجهد العلمي الكبير.

من خلال من أشرنا إليه آنفا، يتضح جليا الاهتمام الكبير من الشيخ عمر شكيري باللغة العربية وآدابها وضرورة إدراجها ضمن البرامج التعليمية في مدارس جمعية العلماء، فهو بذلك يدعو إلى مقاومة التغريب ومناهضة مؤامرات المستعمر التي يحيكها ضد اللغة العربية في الجزائر.

6.3.4. النشاط الدعوي والإرشادي لجمعية العلماء:

وفي مقال هام حمل عنوان "رمضان ونشاط جمعيه العلماء فيه"[40]، - يبدو أن الشيخ عمر شكيري قد كتبه من برج بوعريريج - تناول فيه جانبا من نشاط جمعية العلماء لا سيما خلال شهر رمضان؛ لما له من خصوصية، حيث يذكر أنه مع اقتراب شهر رمضان من كل عام حتى يكون كل واعظ من وعاظ جمعية العلماء في مركزه المعين فيه، وقد كان هؤلاء محل تقدير وترحاب من طرف الجمهور بمنطقة برج بوعريريج، الذي كان يستقبلهم بحفاوة

38- عمر شكيري، المتوسط الكافي، جريدة البصائر، العدد 47 من السلسلة الثانية، 30 أوت 1948، ص 3.

39- ولد الشيخ موسى بن محمد بن الملياني بن النوي الأحمدي الدراجي المسيلي في 15 جانفي 1903م بمشتى الحمائد بالطبوشة بلدية أولاد عدي لقبالة شرقي المسيلة، من تلاميذ الشيخ ابن باديس، درس بجامعة الزيتونة بتونس، عين سنة 1937م مدرسا بمدرسة التهذيب ببرج بوعريريج ثم توجه إلى مدرسة التربية بقلعة بني عباس، نشر في العديد من الصحف الجزائرية؛ كالبصائر والشعلة، وصحف، له عدة مؤلفات منها كتاب المحادثة العربية للمدارس الجزائرية وكتاب كشف النقاب عن تمارين اللباب في الفرائض والحساب، توفي في 17 فيفري 1999م. للتوسع انظر: السعيد رحماني، الشيخ موسى الأحمدي نويوات حياته وآثاره الفقهية والأدبية، مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد 3، العدد 6، المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 16 جوان 2007، ص ص 107-121.

40- عمر شكيري، رمضان ونشاط جمعية العلماء فيه، جريدة البصائر، العدد 235 من السلسلة الثانية، 3 جويلية 1953، ص ص 6-7.

وإقبال على إحياء ليالي رمضان وحضور المحاضرات والدروس.

كما أن الشيخ عمر شكيري يعتقد جازما أن نفسية الشعب الجزائري لا تنصهر في بوتقة جمعية العلماء كل الانصهار إلا إذا خصصت الجمعية ثلة من دعاتها الأكفاء يجوبون القطر للدعوة والإرشاد، وقد تناول الشيخ شكيري نشاط الوعظ والإرشاد بمنطقة برج بوعريريج على الخصوص، وذكر أنه سعى بنفسه لدى إدارة جمعية العلماء حتى تنتدب واعظا لبلدة البرج، وذكر أن معلمي مدرسة التهذيب بالبرج لا تنقصهم الكفاءة العلمية وإنما دوام المخالطة تزيل الكلفة وتزيد في الألفة، وطبيعة البشر مجبولة على التطلع إلى كل ما هو جديد، فكان وقع اختيار إدارة الجمعية على الشيخ أحمد حسين لانتدابه للبرج واعظا ومرشدا في فترة شهر رمضان، وتكرر انتدابه لعام آخر لما لقي من إقبال على دروسه، وقد تلقاه أهالي البرج بما يليق به من اهتمام ، وقد كان يقدم دروسه بنادي الفنون الجميلة حتى ضاقت رحاب النادي بروداه ما دعا جمعيه النادي أن تطلب من البلدية السماح لها بنصب مكبر صوت أمام النادي حتى تعم الفائدة.

5. خاتمة

ختاما يمكن القول:

- أن منطقة الجنوب الشرقي الجزائري قد أنجبت شخصيات إصلاحية ساهمت بصورة فعالة في دعم المقاومة الثقافية لمخططات المسخ، والمحاولات الاستعمارية للقضاء على مقومات الهوية الجزائرية.

- شخصية عمر شكيري من الشخصيات التي ساهمت في الدفع بالعمل الإصلاحي في المجالات الدينية والاجتماعية والثقافية، داعما في ذلك مساعي جمعيه العلماء المسلمين في الحفاظ على مقومات الأمة من دين ولغة ووطن، فقد تتلمذ الشيخ على يد رجالات الإصلاح، كما مارس الشيخ شكيري بنفسه العملية التعليمية بمدارس الجمعية لاحقا.

- امتاز الشيخ عمر شكيري بوطنية مفرطة وبفكره المناهض للظاهرة الاستعمارية، فقد ساهم ببث روح المقاومة الثقافية ونال حظه من الاضطهاد في سجون الاستعمار، ونلمس في منشوراته وأشعاره روح التحرر والنقمة على المستعمر.

- امتاز الشيخ عمر شكيري ببعد نظره واهتمامه بضرورة توظيف البعد الحضاري والتاريخي للأمة، ودوره الهام في ترقية المجتمع ودعم قضايا التحرر الوطني.

وأخيرا ومن خلال هذا العمل أرجو وأدعو إلى الأخذ بعين الاعتبار ما يلي:

- ضرورة البحث والتنقيب عن الشخصيات الوطنية عموما التي طالها الإخفاء والتهميش.

- ضرورة الاهتمام بكتابات ونشاطات هذه الشخصيات الوطنية والعمل على دراستها ونشرها، ومنها شخصية الشيخ عمر شكيري.

6. قائمة المراجع

1.6. المخطوطات:

- عمر شكيري ، نبذة مخطوطة بخط يد الشيخ عمر شكيري، سلمها لنا ابنه الدكتور أحمد شكيري، بتاريخ 22 مارس .2022

2.6.الحوارات:

- بوبكر عمار شنه، حوار مع الشيخ عمر شكيري بقمار، يوم 2022/04/16 على الساعة 13:00 زوالا.

3.6. الكتب:

- الجبوري كامل سلمان جاسم، معجم الشعراء 1-6 من العصر الجاهلي إلى سنة 2002م، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- رابح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، الجزء الأول، منشورات الحضارة، الجزائر، 2014.
- عبد الرشيد زروقة ، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر 1913-1940، دار الشهاب، الجزائر، ط 1، 1999.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998.
- محمد صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ألفاديزاين، الجزائر، ط 2، 2006.

4.6. المقالات:

- عمر شكيري، الشعور الحي في نفوس أطفالنا، جريدة البصائر، العدد 2 السلسلة الثانية، 1 أوت 1947.
- عمر شكيري، الشعور المسؤولية وحظ ناشئتنا منها، جريدة البصائر، العدد 9 السلسلة الثانية، 3 أكتوبر 1947.
- عمر شكيري، من وحي الذكرى، جريدة البصائر، العدد 28 السلسلة الثانية، 22 مارس 1948.
- عمر شكيري، تحية المعهد، جريدة البصائر، العدد 44 السلسلة الثانية، 26 جويلية 1948.
- عمر شكيري، المتوسط الكافي، جريدة البصائر، العدد 47 السلسلة الثانية، 30 أوت 1948.
- عمر شكيري، وداع الطفولة، جريدة البصائر، العدد 49 السلسلة الثانية، 13 سبتمبر 1948.
- عمر شكيري، تعزية وذكرى، جريدة البصائر، العدد 62 السلسلة الثانية، 3 جانفي 1949.
- عمر شكيري، المدارس و مواردها المالية، جريدة البصائر، العدد 93 السلسلة الثانية، 31 أكتوبر 1949.
- عمر شكيري، أمام قبر عبد الحميد، جريدة البصائر، العدد 121 السلسلة الثانية، 29 ماي 1950.
- شكيري عمر، رمضان ونشاط جمعية العلماء فيه، جريدة البصائر، العدد 235 السلسلة الثانية، 3 جويلية 1953.
- عمر شكيري، تحية الوفود بمناسبة افتتاح دار الطلبة بقسنطينة، جريدة البصائر، العدد 251 السلسلة الثانية، 17 ديسمبر 1953.
- عمر شكيري، على هامش رسالة القاهرة، جريدة البصائر، العدد 359 السلسلة الثانية، 23 مارس 1956.
- حورية رواق، سجنية عمر شكيري: المضمون والبناء، مجلة مقاليد، جامعة ورقلة (الجزائر)، المجلد 2، العدد 3، 2012.
- الحسين عزة ، معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسطينة ودوره في نشر التعليم العربي (1947-195)، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعريريج (الجزائر)، المجلد 1، العدد 1، جانفي 2020.
- السعيد رحماني، الشيخ موسى الأحمدي نويوات حياته وآثاره الفقهية والأدبية، مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد 3، العدد 6، المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 16 جوان 2007.

الثقافة السياسية في الفكر الإصلاحي عند علماء وادي سوف
ـ محمد الأمين العمودي – أنموذجاـ

Political culture at reforming thought in the consideration of Oued Souf scientists, Mohammed Al-Amin Al-Amoudi

ط.د/ حفناوي عتوسي
مخبر التحولات القانونية والدولية في التشريع الجزائري
جامعة الوادي(الجزائر)
attoussi.af.39@gmail.com

د/ عبد الحميد فرج
مخبر التحولات القانونية والدولية في التشريع الجزائري
جامعة الوادي (الجزائر)
Hamid.fj.39.dz@gmail.com



ملخص: تناولت هذه الدراسة جوانب من حياة الشيخ محمد الأمين العمودي، الذي يعد من أعلام الفكر الجزائري الذين كان لهم دور كبير في المقاومة والحركة الوطنية الجزائرية، خاصة على المستوى الثقافي والسياسي، اللذان يتجليان لنا في المجال الصحفي للشيخ، وذلك في عديد من الجرائد؛ ومن ضمنها جريدة الدفاع 1936 (La Défense) التي أسسها لتصدر باللغة الفرنسية، ويظهر هذا الدور في الجانب الإصلاحي من خلال عضويته في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بصفته أمينا عاما لها، حيث كان رافضا للمشاريع الاستعمارية المتجددة، وقد كانت جريدته منبرا للأهالي الجزائريين للتنديد بالسياسة الاستعمارية المنتهجة، والدفاع عن مقومات شخصيتهم الجزائرية العربية الإسلامية ، كما كان لمحمد الأمين العمودي نشاط مكثف في المؤتمر الإسلامي الجزائري 1936، من خلال تأسيسه لمنظمة " شباب المؤتمر عام 1937، ودوره الرافض للقانون الظالم "قانون شوطان في 08 مارس 1938 " الذي ينص على منع ومعاقبة التعليم العربي دون رخصة مستهدفا بذلك العلماء ومدارسهم الحرة.

الكلمات المفتاحية: الأمين العمودي؛ الحركة الوطنية؛ المؤتمر الإسلامي؛ المقاومة الثقافية.

Abstract :

This study dealt with aspects of the life of Sheikh Muhammad Al-Amin Al-Amoudi in terms of upbringing, education, training and the environment in which he grew up, He is considered as one of the most important Algerian media figures who had a major role in the Algerian national movement, in addition to the role he played in the cultural, political and journalistic resistance in many newspapers and founding the Defense newspaper in 1936, issued in French, and his role especially in the reformist trend, and that was during his membership in the Association of Algerian Muslim Scholars as a general secretary in it, where he was rejecting the renewed colonial projects and used his newspaper as a platform for the Algerian people to denounce the adopted colonial policy and defending the components of their Algerian Arab-Muslim

personality .Mohammed Al-Amin Al-Amoudihadintense activity in the Algerian Islamic Conference in 1936 and his foundationto the Conference Youth Organization in 1937, and his opposition to the unjust law, the Chotan Law in March 8th, 1938 .This law stipulates the prevention and punishment of Arab education without a license, targeting these Scholars and their free schools.
Keywords: Al-Amin Al-Amoudi, the national movement; the Islamic conference; the cultural resistance**.**

1.مقدمة

شهدت الجزائر منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حركة فكرية وتعليمية ساهمت بشكل كبير في تفعيل الساحة السياسية والثقافية، حيث أخذ زمام هذه المبادرة العديد من العلماء والمفكرين والشخصيات المهتمة بهذا الشأن من كل ربوع الوطن، كان لمنطقة الشرق الجزائري نصيبا هاما ودورا بارزا فيها، فأجتهد أعلامها وثابروا من أجل النهوض بالمنطقة فكريا وعلميا وسياسيا ودعم الحركة الوطنية ومواكبتهم في مقاومة المستعمر، وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور "محمد الأمين العمودي" في الحركة الإصلاحية من خلال مواقفه السياسية الرامية إلى تحرير المجتمع الجزائري من قيود الطرقية والإدارة الفرنسية، وكذا تسليط الضوء على منطقة هامة استراتيجية من مناطق الشرق الجزائري والتي كان لها دور محوري في مقاومة المستعمر الفرنسي؛ وهي منطقة " وادي سوف " التي أنجبت العديد من القادة الثوريين والمفكرين والعلماء الذين ساهموا بأقلامهم وأسلحتهم وأموالهم في مقاومة هذا الاستعمار الغاشم، ونذكر منهم " حمزة بوكوشة– الحفناوي هالي – الأمين العمودي - عبد العزيز الهاشمي – أبو القاسم سعد الله، حيث كان لهم مساهمة بارزة في دفع وتطوير حركة الإصلاح الفكري والثقافي والسياسي بالمنطقة وما جاورها، وكان لهم الفضل في دفع المجتمع إلى التحرر والانفتاح على الحياة الوطنية والعالمية والمشاركة في مختلف التظاهرات السياسية والثقافية الوطنية والدولية.

وقد تم استخدام المنهج التاريخي نظرا لطبيعة هذه الدراسة التي تعود إلى حقبة زمنية انقضت، بالإضافة إلى استخدام المنهج الوصفي التحليلي الذي نوضّح من خلاله الدور السياسي للأمين العمودي وما قدمه للحركة الإصلاحية بنضاله وحكمته، ودوره الصحفي المتمثل في كتاباته السياسية عن طريق جريدته " الدفاع ".وهذا ما دفع بنا لطرح الإشكالية التالية: كيف كانت مساهمة الأمين العمودي في الحركة الإصلاحية الجزائرية، وفي التوعوية على المستوى الثقافي والسياسي والفكري من خلال ما قام به؟

ولمعالجة هذه الإشكالية تم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة محاور؛ حيث تطرقنا في المحور الأول إلى مفهوم الثقافة السياسية والتعريف بمنطقة وادي سوف، وفي المحور الثاني تطرقنا للوضع الإصلاحي والسياسي العام للمنطقة، وفي المحور الثالث: التعريف بشخصية محمد

الأمين العمودي وإبراز الدور السياسي والصحفي والثقافي الذي لعبه.

2. مفهوم الثقافة السياسية والتعريف بمنطقة وادي سوف

1.2 .مفهوم الثقافة السياسية:

تعرف الثقافة السياسية على أنها فرع من فروع الثقافة العامة التي تهتم بطبيعة العلاقة بين الأفراد من ناحية القيم والمعايير السلوكية مع السلطة السياسيّة في مجتمع ما، كما يمكن تعريف الثقافة السياسيّة بأنها جُملة من المعارف والآراء والاتجاهات الخاصة بمجتمع ما تجاه الشؤون السياسيّة والسلطة والحكم في المنطقة. تشمل الثقافة السياسيّة الولاء والانتماء والشرعية والمشاركة والسياسة والحكم والدولة، بذلك يمكن القول إن الثقافة السياسيّة هي ذلك الفرع المنبثق عن الثقافة العامة ويمتاز باستمرارية تغيرّه وتطوّره، وتُبنى هذه الثقافة تبعاً لما ينتهجه مجتمع ما من قيم واتجاهات وسلوكيات يتأثر ويؤثر فيها، وتتفاوت الثقافة السياسيّة بين المجتمعات والأفراد وتتفاوت الثقافة السياسيّة بين المجتمعات والأفراد.

2.2. التعريف بمنطقة وادي سوف:

تقع منطقة وادي سوف في الجنوب الشرقي من الجزائر، وهي تنتمي الى العرق الشرقي الكبير، يحدّها من الشمال إقليم بسكرة والزرائب، ويمتد حتى جبال الأوراس، والنمامشة، والى منطقة نقرين[1]. ومن جهة الشرق: الحدود التونسية عبر نقطة ونفزاوة، وبلدة نقرين التابعة لولاية تبسة، ومن الجنوب: الحدود الليبية عبر واحات غدامس، ومن جهة الغرب[2]: توقرت وتماسين بمنطقة ورقلة[3]. تمتد الرقعة الترابية لإقليم سوف من الجنوب إلى الشمال بين خطّي عرض 31° - 34° شمالا، وبين خطّي طول 6° - 8° شرقا[4]. وتقدر المسافة الرابطة بين سطيل شمالا إلى غدامس جنوبا بحوالي: 620 كلم، وبين وادي ريغ غربا إلى الحدود التونسية شرقا بحوالي: 160 كلم، أما المساحة الإجمالية لوادي سوف فتقدر بحوالي:

1- إبراهيم مياسي، (**من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة**)، مجلة الثقافة، الجزائر، 1996، العدد 113، ص 194.

2- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، **تعليق الجيلالي العوامر**، الدار التونسية للنشر، تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1977، ص37.

3- للتنبيه فإن توقرت قد انفصلت عن ولاية ورقلة وأصبحت ولاية مستقلة في التقسيم الأخير الذي أصبحت تحمل فيه رقم:55، وتماسين أصبحت تابعة لتوقرت، كما ننبه على أن المساحة والخطوط قد تغيرت كذلك عندما انفصلت لمغير عن الوادي بنفس المرسوم الذي انفصلت فيه توقرت عن ولاية ورقلة، ينظر: الجريدة الرسمية، العدد 22، المرسوم الرئاسي رقم: 21 – 117، الذي يحدد الولايات الجديدة.

4- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص194.

82.800 كلم[2]، وهي محاطة بثلاثة شطوط هي: ملغيغ، مروانة، والغرسة من جهة الشمال، وشط الجريد التونسي من الجهة الجنوبية[5].

3.2. الأوضاع العسكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية بمنطقة وادي سوف:

1.3.2- عسكريا وسياسيــا:

إن التواجد الاستعماري الفرنسي في منطقة وادي سوف لم يختلف عن غيره من المناطق الأخرى في الجزائر، خاصة المناطق الصحراوية التي تعتبر دوما عبارة عن قواعد عسكرية في شكل محميات تسهل الطريق وتراقب وتؤمن طرق التنقل لمختلف القوافل التجارية القادمة والذاهبة من الشمال إلى الجنوب، ثم إلى أفريقيا، كل ذلك من أجل تقييد حركة الأهالي ومتابعة تحركاتهم الخفية، حيث كان ذلك في الفترة الممتدة بين 1882 إلى 1939، وذلك راجع إلى ضعف قوة المقاومات الشعبية من حيث القيادة ووحدة الصف من جهة، وقوة المستعمر من جهة ثانية، واقتناع غالبية الأهالي بعدم جدوى الكفاح المسلح، وهذا ما جعل فرنسا تمارس سياسة استعمارية تتماشى والوضع السائد في المنطقة، ففرنسا لم يكن لها سبق الفضل في تنظيم الشؤون العامة بمنطقة وادي سوف، وإنما الفضل يعود إلى شيوخ ووجهاء المنطقة في إدارة الشؤون العامة لمنطقتهم،[6]. وبهذا أوجدوا "مجلس الوجهاء" الذي ينظر في مختلف القضايا السياسية أو القضائية ، كالخصومات بين القبائل، ليبقى هذا النظام قائما إلى حين الاحتلال الفرنسي لمنطقة وادي سوف ليستبدل فيما بعد بنظام القياد والخلفاء، الشبيه بالنظام المعمول به أثناء الدولة العثمانية[7].

أ - نظام القياد: أعتمد هذا النظام منذ الإطاحة بالإمارة الجلابية بتوقرت سنة 1854، حيث أصبح هذا النظام بديلا عن السلطان الذي كان يحكم منطقة توقرت ووادي سوف على حد سواء، حيث يتواجد مقره في الغالب بمنطقة توقرت وله نواب يسمون " بالخلفاء "[8]، ومنهم القايد : علي بن فرحات بن سعيد (1854-1871)، وهو من صف بوعكاز تولى المنصب على توقرت وسوف سنة 1854، وكان يتردد بين سوف وتوقرت، وقد كان له خلفاء يعينونه بمنطقة وادي سوف بالتنسيق من السلطة الفرنسية[9].

---

5 -Andrés- Roger Voisin**: Le souf – Monographie, El –walid**, El oued, 2004, p 15.

6 -Gaid Zobidi: **Histoire succinct de l'administration de souf dans les deux derniéressiécle avant des francais**. 1952 Archives de direction des Modjahidines, El – Oued.

7- شارل أندري جوليان : **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص ص377 – 378.

8-علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ /19**، رسالة ماجستير (مخ)، قسم التاريخ، جامعة الجزائر،2002/2001،ص 54.

9- إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 248.

ب - نظام الخلفاء والشيوخ: أتت التسمية نسبة للخليفة الذي يخلف " القايد " في تسيير شؤون منطقة وادي سوف وعند غيابه في منطقة توقرت أو بعد وفاته كخلافة القايد "محمد موسى بن موسى" للقايد " العربي المملوك " عند وفاته، ومنذ سنة 1871 بدأ العمل بنظام " الشيوخ "، وهم ممثلو القبائل، ويتبعون للخلفاء في السلم الإداري كما يتبع الخلفاء للقياد، وذلك حتى سنة 1877 عندما تحول الشيوخ الثلاثة إلى خلفاء مستقلين مرتبطين بمنطقة بسكرة[10].

غير أن هذا الوضع الذي كانت عليه المنطقة كان ينبئ بحركية فاعلة ونجاح كبير لحركات المقاومين[11]، ومن أهمها حرة سي النعيمي، وحرة بوعلاق اليعقوبي[12].

2.3.2- اجتماعيا:

حيت يظهر على مستوى وضع شبكة من طرق المواصلات الحديدية والبرية وأسلاك الهواتف من أجل تنقل القوات والمغامرين في ظروف آمنة بين أرجاء الصحراء المترامية، وعليه قاموا بدراسة الظواهر الطبوغرافية والتضاريسية والمناخية بالمنطقة لرصد أطول مدة زمنية يمكن أن تعيشها السكة الحديدية، ويمكن فيها شق الطرق البرية، مع دراسة محاسن وصعوبات عملية الإنجاز وتقديم المقترحات بهذا الشأن[13]، حيث كان المستعمر يمارس سياسة الترغيب والترهيب للضغط على السكان وأهالي المنطقة، ونلمس ذلك من خلال رسالة " ديفو " إلى سكان وادي سوف سنة 1858[14]، ومنذ الاستقرار الفرنسي بمنطقة الدبيلة - وادي سوف شرع في إجراء دراسات ميدانية؛ اجتماعية واقتصادية قصد الاستفادة منها، فعلى مستوى الخدمات العامة شرع المستعمر في صيانة وتشييد طرق المواصلات قصد فك العزلة بين وادي سوف والمناطق المجاورة لها، حيث تذكر المصادر أنه لا توجد طرق صالحة بوادي سوف ما عدا طريق الوادي جامعة مرورا بقمار.

3.3.2- ثقافيا:

تميز الوضع الثقافي بوادي سوف بحركية فاعلة ونشطة نتيجة التأثيرات الاجتماعية والثقافية التونسية من خلال الحدود المتاخمة للإقليم، حيث كان هذا التأثير له من الأهمية بمكان في الحياة الثقافية بسوف، كما نجد أن غالبة رجال الطرق الصوفية - خاصة الطريقة القادرية منهم - كانوا وافدين من الجريد التونسي، بالإضافة إلى حجم الروابط

10- علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف**، المرجع نفسه، ص 55.

11- إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 250.

12- يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين 19-20**، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1980.

13- يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.

14- أحميدة عميرات، **بحوث تاريخية**، دار البعث، قسنطينة، 2001.

الأسرية بين المنطقتين – وادي سوف وتونس – لكن مع هذا لم يختلف الإنسان السوفي عن غيره من أبناء الوطن، حيث ظلت العلاقة قائمة بين الأهالي بمنطقة سوف وباقي سكان الوطن وفي كل المناطق، وهذا راجع إلى الدور الذي لعبته الطرق الصوفية من تمتين روابط روحية بين مختلف المناطق الجزائرية، وذلك بإنشاء زوايا تابعة للزاوية الأم بسوف مثل : الطريقة القادرية بكل من بسكرة والأغواط وسكيكدة، والطريقة التيجانية وعلاقتها الوطيدة بزاوية تماسين، والعلاقة القائمة بين الطريقة الرحمانية بزاوية طولقة، والترابط بين الزاوية العزوزية بوادي سوف وزاوية الهامل ببوسعادة، وعلى هذا الأساس اتضحت ملامح الوضع الثقافي لوادي سوف المماثلة لباقي أرجاء الجزائر في مطلع القرن العشرين، وهذا الوضع يتمثل في:

أ - المساجد: إن تشييد المساجد ظل على الدوام يرتبط بالحياة الدينية للمجتمع منذ قرون بعيدة، فكان مسجد العدواني الذي قيل أنه بني منذ ثمانية قرون، والشيخ العدواني عاش في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، ولهذا قد يكون الشيخ العدواني مرمّما له فسمي باسمه في بلدته[15]،

أما في القرن التاسع عشر فقد شهد إنشاء ستة عشر مسجدا نصفها في الوادي، والنصف الأخر في باقي مداشر وقرى سوف، حيث تحتل قمار المرتبة الثانية من حيث عدد المساجد، وقد بلغ العدد الإجمالي لها بوادي سوف في نهاية القرن التاسع عشر حوالي ستة وثلاثون مسجدا[16].

ب - المكتبات: إن الوضع الثقافي الذي كان يعيشه المجتمع السوفي أثر على استقرار واستمرار وبقاء هذه المكتبات، حيث غلب عليها التلف والإهمال خاصة المكتبات الأهلية، وقد اختلفت هذه المكتبات من حيث طبيعتها ومهامها، والأهداف التي أنشئت من أجلها، وهي إما أهلية خاصة أو فرنسية عامة، أو عسكرية.

ج - التعليم: إن طبيعة المجتمع السوفي التوّاقة دوما إلى تحسين المستوى التعليمي جعلته يسعى جاهدا للبحث عن السبل الأكثر نجاعة لتطوير الأداء والتحصيل العلمي، لهذا نجد الدور الذي لعبته الطرق الصوفية في مختلف أرجاء الأقاليم الأخرى[17]، سعى جاهدا لتوسيع رقعة التعليم لتشمل عددا كبيرا من فئات المجتمع، لكن المستعمر - منذ الاحتلال - حاول التظاهر بملمح التحضر، وذلك في محاولة إدخال التعليم المنظم، لكن الأهالي ظلوا

---

15 - Andrés- Roger Voisin: Le souf – Monographie, El –walid, El oued, 2004, p 118.

16- علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف**، المرجع السابق، ص173.

17- فاني كولونا، **مثقفون في الأطراف، من كتاب الأنتلجانسيا في المغرب العربي**، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ص ص 280-281.

متحفظين منه، وعليه نجد أن التعليم بوادي سوف شهد ثلاثة أنواع، وهي:

النوع الأول - التعليم القرآني : التعليم القرآني يمثل النسبة الأكبر من التعليم في الجزائر في القرن التاسع عشر، وخاصة في منطقة وادي سوف[18].

النوع الثاني - تعليم المعاهد الإسلامية : إن تعدد المهام عند علماء سوف لم يمنعهم من القيام على تعليم كبار السن المبادئ الدينية والأصول الشرعية، وهذا كان في المساجد والزوايا وحتى بيوتهم، حيث كانت مقصدا لطلب العلم، وقد عملت بهذا الأسلوب بعض الطرق الصوفية؛ كالطريقة القادرية بمنطقة عميش التي فتح فيها الشيخ الهاشمي الشريف مدرسة مشابهة لزاوية سيدي المولدي.

النوع الثالث - التعليم الفرنسي : كان التعليم الفرنسي في منطقة وادي سوف يهدف لتعليم الأهالي قصد استخدامهم في وظائف لا تليق بمقام المعمرين حسب رأيهم، وليس الهدف منها تقوية الشخصية للفرد الجزائري مثلما وصفه بعض الإصلاحيين، حيث كان التعليم من أهم التحديات التي يراهن عليها المستعمر في كل المناطق العربية المتواجد بها[19].

إن الوضع الثقافي لمنطقة وادي سوف كان له أثر بالغ في نشوء الحركة الإصلاحية، باعتبار المنطقة كانت دوما تسعى إلى رفع مستويات الإصلاح نتيجة للوضع الاجتماعي الذي كانت تعيشه المنطقة، بالإضافة إلى السياسة المنتهجة من طرف المستعمر الفرنسي في حق سكان وأهالي المنطقة.

3. عوامل ظهور الحركة الإصلاحية بوادي سوف بين (1919-1939):

1.3. الحركة الإصلاحية بوادي سوف (1919-1939):

بدأت مرحلة تبلور الحركة الإصلاحية خلال العقد الثاني من القرن العشرين، وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، مما دفع بالعديد من العلماء والمفكرين - وعلى رأسهم العلامة عبد الحميد بن باديس - إلى رفع لواء الحركة التعليمية، وتطهير الثقافة الإسلامية بالبلاد من التخلف والانحطاط الذي آلت إليه، حيث كان هؤلاء العلماء يفكرون في إيجاد آليات منظمة تضمن لهم التكفل بأكبر قدر ممكن من أجل رفع مستوى الثقافة الإسلامية بالجزائر المستعمرة. حيث كان من بين هذه الآليات، إحياء البعثات الطلابية من طرف الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى تونس للدراسة بجامع الزيتونة، والذي كان له دور بارز في توعية ورفع همم الجزائريين، وكان هذا بعد أن عمدت فرنسا إلى تقليص بعض المدارس العربية، ومحاربة الدين الإسلامي والثقافة العربية، وفرض اللغة الفرنسية بدلا عن اللغة العربية في

18- محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية**، ص 48.

19- أنور الجندي، عبد العزيز الثعالبي رائد النهضة الإسلامية (1879- 1944)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ص ص 46-49.

كل المعاهد والمدارس[20].

خلال الفترة الزمنية نفسها، شهدت منطقة وادي سوف عودة مجموعة من الطلاب الذين تخرجوا من جامع الزيتونة بعدّة شهادات، فكان لهم أثر بالغ في محاربة الأفكار الفرنسية المتعفنة، حيث كان من بين هؤلاء الطلبة الشيخ عمار بن الأزعر، الذي كان له دور هام بمنطقة قمار، وذلك من خلال تشجيع العديد من الطلبة بالهجرة إلى تونس والالتحاق بجامع الزيتونة لمواصلة تعليمهم، إلا أن هذا الشيخ لاقى تضييقا من طرف السلطات الفرنسية فما كان عليه إلا الهجرة من جديد[21].

2.3.عوامل ظهور الحركة الإصلاحية بوادي سوف:

كانت الهجرة من أبرز عوامل نشأة الحركة الإصلاحية بمنطقة وادي سوف، خاصة الهجرة إلى تونس، حيث كان لها دور مهم في دفع حركة الإصلاح إلى الأمام وتطويرها عبر فترات زمنية، وكان القصد من ذلك هو إزاحة كل ما له دور في عرقلة حقيقة النهوض بالوضع الثقافي بالمنطقة، دون السماح في الوقت نفسه لتواجد الطرق الصوفية لوحدها على مستوى مختلف التفاعلات الثقافية ودون الاستسلام لفرنسا التي تكرس ما تصب إليه باستغلال الطرق الصوفية عن طريق تعميق النزاع بين القادرية والتيجانية[22].

ومن بين الآليات أيضا، النخبة المحافظة ونخبة المعاهد الإسلامية والنخبة المفرنسة، حيث كان للنخبة المحافظة دور بارز من خلال التعليم العربي الإسلامي، فكان دورهم في تربية النشء دون التخلي عن وظائفهم الأساسية، لكون بعضهم قضاة في المحاكم الشرعية، ورجال فتوى وأئمة مساجد، ومؤدبين للصبيان، وعلى هذا الأساس كانت وادي سوف مقسمة لثلاث حواضر علمية أساسية، هي: الوادي، قمار، الزقم، ومن هؤلاء النخبة، الشيخ محمد العربي موساوي، والشيخ عبد الرحمان العمودي والد الأمين العمودي، والشيخ علي بن صابر، وغيرهم[23]. أما نخبة المعاهد الإسلامية فهي مجموعة الطلاب الذين تلقوا تعليهم من شيوخ النخبة المحافظة في الزيتونة، فكان تكوين طلبة وادي سوف وعلمائها في مرحلة دراستهم هناك على يد ثلة من علماء الإصلاح، أمثال: الشيخ الطاهر بن عاشور، ومحمد

20- محمد صالح الجابري، **التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس**، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ص ب (المقدمة).

21- موسى بن موسى، **إرهاصات الحركة الإصلاحية بوادي سوف في القرن العشرين**– قمار نموذجا، من كتاب العلامة المصلح محمد الطاهر تليلي، من تقديم أبو القاسم سعد الله، مطبعة مزوار، الوادي، 2006، ص 69.

22- موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939م)، رسالة ماجستير، قسنطينة، الجزائر، 2005-2006م، ص 117.

23- موسى بن موسى، المرجع نفسه، ص119.

الأخضر بن الحسين، ومحمد النخلي، وسالم بوحاجب[24] وغيرهم.

وأما على مستوى النخبة المفرنسة فإن جهود فرنسا الأولى في إرساء المدارس الفرنسية بوادي سوف جاء نتيجة الاستقرار الذي عرفته الإدارة الفرنسية بالمنطقة، غير أن الدور الذي قامت به المساجد والعلماء وكذا النخبة المعربة، استطاع أن ينبه النخبة المفرنسة لمشروع الاستعمار حتى لا تنخدع، وعليه استطاعت النخبة المفرنسة أن تبرز على مستويات محلية رغم ضآلة التحصيل، انطلاقا من التكوين العصامي الذي ساهم بشكل وافر في رفع تحديات هؤلاء الذين استطاعوا فضح نوايا المستعمر من خلال قوانينهم وجرائدهم، والتي لعبت دورا هاما في عرقلة الإصلاح والتعليم العربي. بالإضافة إلى زيارات بعض علماء تونس إلى وادي سوف التي ساهمت بشكل كبير في نشأة وظهور الحركة الإصلاحية بالمنطقة، ومن أبرز هذه الزيارات كانت زيارة، الشيخ محمد المكي بن عزوز، والبشير التوزري.

4.التعريف بشخصية محمد الأمين العمودي

1.4. ميلاده ونشأته:

ولد محمد الأمين العمودي بوادي سوف عام 1890 حسب ما ذكره بنفسه في مراسلته للهادي السنوسي الزاهري (1902-1974) صاحب كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، وما ذكره حمزة بوكوشة فكان ميلاده في 1891، وأما ما ورد في السجل الوطني الفرنسي بوادي سوف فهو عام 1892، فهي تواريخ مختلفة ويمكن الأخذ بما صرح به بنفسه[25]، ووالده هو الأمين بن يوسف العمودي، وأما أمه فهي مبروكة بنت علي عبيدي، ويذكر صاحب كتاب "الصروف في تاريخ سوف" بأن العمودي تعود الى أصول تونسية. نشأ العمودي في عائلة ميسورة ماديا لكن سرعان ما أفلست ودخلت في أزمات مالية، وعاش العمودي طفولته يتيما إذ فقد والده فكفله عمه عبد الرحمان الذي يعرف كشخصية مثقفة ثقافة عربية وإسلامية[26].

2.4. تعليمه ونشاطه:

أ - **تعليمه:** تحصل العمودي على الشهادة الابتدائية في دورة ماي 1905 ليلتحق بثانوية

24- علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف**، المرجع السابق، ص 75.

25- محمد الهادي السنوسي الزاهري، **شعراء الجزائر في العصر الحاضر**، المطبعة التونسية، تونس،ط1، د.ت، ص 103. ويمكن الجمع بين تصريحه وما سُجل في السجلات الفرنسية، بأن ميلاده كان عام 1890، وأما تسجيله في الدوائر الإدارية الفرنسية فكان 1892، أي بعد عامين، وهذا حصل للكثيرين بسبب التأخر في عملية التسجيل لا غير.

26- حمزة بوكوشة، **شخصيات منسية الأمين العمودي**، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر،ع 6، جانفي 1972، ص47.

بسكرة لكن تم طرده منها... ولما بلغ سن السادسة عشرة دخل المدرسة الفرنسية الإسلامية بقسنطينة، ورغم إنكاره لأي فضل لها في تكوينه إلاّ أن الواقع والدراسات والنماذج تثبت أن دورها كان كبيرا في إعداد كثير من الجزائريين وتكوينهم تكوينا جيدا مقارنة بغيرها من المؤسسات رغم أهدافها الاستعمارية الواضحة ، ويذكر حمزة بوكوشة الذي كان مرافقا وصديقا مقربا من العمودي بأنه بسبب التقارير التي كانت تحرر ضده في المدرسة فقد تم حرمانه من أتمام دراسته العليا في المدرسة الإسلامية الفرنسية بالجزائر ولعل هذه التقارير هي التي جعلت العمودي يردد دائما أن لا فضل لهذه المدرسة في تكوينه[27].

ب - **نشاطه:** تخرّج العمودي من المدرسة الفرنسية الإسلامية ليلتحق بعالم الشغل متدرجا من كاتب عدل الى مساعد ترجمان إلى وكيل شرعي، حيث تنقل بين محكمة " فج إمزالة " ومحكمة بسكرة ثم الجزائر، وقد استقال من العدالة الفرنسية وانتقل إلى مهنة مساعد مترجم ثم أصبح وكيلا شرعيا في بسكرة ثم باتنة ثم الجزائر كما تم انتخابه رئيسا لجمعية الوكلاء الشرعيين، ونتيجة لمواقفه المعادية للسياسة الاستعمارية تم توقيفه عن العمل لمدة ستة أشهر، وهو ما أدى به إلى ترك هذه المهنة نهائيا والتفرغ لعالم الكتابة والصحافة[28].

د - **استشهاده:** لقد حظي محمد الأمين العمودي بنهاية مشرفة لكل مجاهد، جعل نصب عينية عزة الجزائر، فرغم أنه تخلى عن مجال السياسة وانعزل عن الحياة السياسية والإعلامية، إلاّ أن يد الغدر تمكنت منه، وهو ما سجله الأستاذ محمد الأخضر عبد القادر السايحي في كتابه بعد جمع المعلومات التي تفيد الطريقة أو الكيفية التي تم استشهاده فيها، إذ تحدث " أحمد العمودي " الابن البكر للشهيد عن استشهاد والده في ندوة الموقار مساء يوم 29 نوفمبر 1977 بعد أن أخبره أخوه كمال بأنهم عثروا عليه قرب السكة الحديدية عند قرية العجيبة في 10 أكتوبر 1957[29].

ففي يوم الخميس حيث كان الشهيد متجها إلى عمله بمحكمة الجزائر لقي مصرعه، وقد تم إخبار عائلته في الغد بواسطة الدرك، يقول أحمد العمودي " والسبب في ذلك هو أن شيخ بلدية البويرة كان من الفرنسيين الرافضين للحرب ضد الشعب الجزائري، وكان يعرف

27- محمد بك، **محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع**، ماجستير في تاريخ الأوراس الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر،2009/2008،ص48.

28- محمد بك، **محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع**، ماجستير في تاريخ الأوراس الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر،2009/2008،ص ص 52-48..

29- محمد الأخضر السايحي، **الأمين العمودي الشخصية المتعددة الجوانب**، ط2، دار هومة، الجزائر،2001، ص 31.

النشاط السياسي والصحفي للشيخ العمودي، فيما كان مقررا أن يلقى ضمن مجموعة الأبرياء الذين اغتالتهم الأيدي الآثمة من الاستعماريين على الطريقة البشعة المتمثلة في حفرة كبيرة تلقى فيها جميع الجثث، فلما عرف شيخ البلدية المذكور بأن الأمين العمودي من بين حصيلة حفير ذلك اليوم رفض التصريح للدرك بالدفن الجماعي وأمرهم بالاتصال بأسرته[30] بهذه الطريقة تعرفت أسرة الشهيد أن اليد الحمراء التي اختطفته، إذ أنها لم تقض عليه تماما عند تقاطع طريق السيارات مع السكة الحديدية قرب قرية العجيبة، ولكنهم رموه هناك بعد أن ضربوه ضربة قاتلة على قفاه، ونقل إلى مستشفى البويرة، ولم تنفعه الإسعافات فتوفي رحمه الله.

5. مظاهر الفكر السياسي عند محمد الأمين العمودي

لا شك أن الحركة الإصلاحية الجزائرية بفعل امتداد نشاطها وتعدد مجالاتها واتساع نطاقها الجغرافي قد أتاحت لكثير من الطاقات والجهات في الجزائر الإسهام فيها بدرجات مختلفة وفي مستويات متعددة، ولعلى من أهم المناطق التي سجلت حضور أبنائها وتفاعلها مع الحركة الإصلاحية هي منطقة وادي سوف، وقد اشتهر منها كل من: محمد الأمين العمودي (1890-1957)، وحمزة بوكوشة (1909-1994)، والحفناوي هالي (1911-1965)، وعبد العزيز الهاشمي (1889-1962)، وأبو القاسم سعد الله (1930-2013)، حيث كانت إسهامات محمد الأمين العمودي في الحركة الإصلاحية من خلال دوره الصحفي والسياسي والفكري والثقافي.

1.5. الدور الصحفي للأمين العمودي:

برزت موهبة العمودي في المجال الصحفي منذ نعومة أظافره، حيث كان يمتلك الثقافة العربية، ويتقن الكتابة باللغتين العربية والفرنسية، ويجيد فن الخطابة، ويخط القصائد الشعرية، ويكتب في الجرائد، ومن بين الجرائد التي كتب فيها باللغتين العربية والفرنسية، نذكر الإقدام والنجاح والمنتقد والإصلاح وصدى الصحراء وجريدة الجزائر (سعيد الزاهري) والشهاب والجحيم والشريعة والصراط السوي والبرق وAlgérie République (الجزائر الجمهورية) والبصائر...كما كتب أيضا في الجرائد التونسية، وقد كتب باسمه وبأسماء مستعارة، مثل: الفتى الزيباني وسمهري..[31] وبعض مقالاته في التيار الإصلاحي والطرقية بالمنطقة، بالإضافة إلى اسهاماته في جريدة الإصلاح للشيخ الطيب العقبي (1889-1960) ببسكرة، وكانت في أجزاء: - الحركة الإصلاحية سيرها ونتيجتها ومستقبلها، ع4، 03 أكتوبر

30- نفسه، ص31.

31- أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح مذكرات**، ج2، (1925-1954)، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1977، ص 230.

1929. وأيضا الإصلاح وقضية التجنيس، ع6 ،24أكتوبر 1929. توّج الأمين العمودي تجربته الصحفية بإنشاء جريدة باسمه صادرة باللغة الفرنسية (La Défense) أي (الدفاع)، حيث صدر عددها الأول في 26 جانفي 1934، وكانت تصدر أسبوعيا واستمرت لخمسة سنوات ولم تتوقف إلا بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، كان محورها السياسي يتمثل في الدفاع عن الأهالي الجزائريين ضد تجاوزات وتعسف المعمرين وممثلي الإدارة الفرنسية، وأيضا الدفاع عن التيار الإصلاحي[32].

إن إصدار جريدة " الدفاع" أحدث تطورا كبيرا في استراتيجية الإصلاح بصفة عامة، وذلك كتعبير عن إدراك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأهمية صدور جريدة باللغة الفرنسية لإيصال الرسالة الكاملة والواضحة للمستعمر عن مبادئ المشروع الإصلاحي الجزائري، وللرد على الإشاعات والأحكام التي تلفقها دولة الاستعمار وحلفائها من الجزائريين والفرنسيين حول التيار الإصلاحي، والمضي قدما لإخراجه من القيود الفكرية المفروضة عليه[33].

حيث كان الأمين العمودي مدافعا قويا وبصورة مستمرة على منطقة بسكرة، وما جاورها من خلال مقالاته في جريدة الدفاع التي كانت تظهر الصراع القائم بين التيار الإصلاحي والطرقية، بالإضافة إلى رصد الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المزرية، واستنكار ونبذ الإصلاحيين للممارسات الفرنسية والتجاوزات الإدارية والبدع والخرفات، كما كان لها الفضل في معالجة عدة قضايا دينية وفكرية، مُستهدفة النخبة من الجزائريين والفرنسيين، وذلك من خلال التكوين الذي حظي به العمودي، وإتقانه للغة الفرنسية مستخدما أسلوبه الراقي، وقد ذكر الشيخ "حمزة بوكوشة" في هذا الصدد بأن مدير الشؤون الأهلية " ميرانت " الذي اشترط أبعاد الأمين العمودي عن الكتابة في جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حتى يسمح لها بالصدور من قبل الإدارة الفرنسية[34].

ومن الملاحظ أن الحركة الإصلاحية قد استفادت من جريد الدفاع في تبليغ شكاويها للسلطات الفرنسية في الجزائر وباريس ضد تعسف شيخ بلدية بسكرة وشيخ العرب بن قانة، كما تولت طمأنة الإدارة الفرنسية بأن البعد الحضاري للمشروع الإصلاحي لا يختلف عن البعد الحضاري الفرنسي.

---

32 -La Défense, N1, 26 janvier 1934.

33- عبد القادر قوبع، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920-1954، دار طليطلة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2015، ص 152.

34- حمزة بوكوشة، مرجع سابق، ص 56.

2.5. موقف الأمين العمودي من قانون "شوطان" 08 مارس 1938 والتنديد به:

صدر هذا القانون والذي ينصّ على منع ومعاقبة التعليم العربي دون رخصة مستهدفا بذلك العلماء ومدارسهم الحرة، حيث وقف الأمين العمودي وتصدى لهذا القانون الجائر مع مجموعة من الذين طالبوا بإلغائه، وقد برز هذا التنديد بشكل واضح حين اعتقل الشيخ عبد العزيز الهاشمي من طرف السلطات الفرنسية، والذي دفع ثمن تأييده للعلماء، ومنهم الشيخ الزاوية القادرية بوادي سوف الذي احتج على سوء الأوضاع المعيشية بالمنطقة، وذلك بمناسبة زيارة مدير الشؤون الأهلية "Milliot" لوادي سوف في 12 أفريل 1938، وأسفر ذلك عن احتجاجات كبيرة أدت إلى اعتقال الشيخ عبد العزيز الهاشمي وآخرون من أهالي المنطقة، حيث أصدر الحاكم الفرنسي منشورا ينص على توقيف وسجن كل شخص ينتمي إلى جمعية العلماء المسلمين في الجنوب[35].

3.5. دور الأمين العمودي في جمعية العلماء المسلمين وسبب استقالته:

أ - دور الأمين العمودي في جمعية العلماء المسلمين: يعد الأمين العمودي من الشخصيات الجزائرية القلائل الذين فكروا في إنشاء جمعية العلماء المسلمين، والتي هدفها تحرير المجتمع وترقيته والنهوض به فكريا، والوقوف في وجه المؤامرات الفرنسية التي تعمل ضد الهوية الوطنية والمعتقدات الدينية، حيث دعا إلى ذلك في مقال له في جريدة الإصلاح عام 1929[36]. حيث دافع عن تدخل العلماء في الشأن السياسي، ورد على من أنكر ذلك عليهم، فكتب في إحدى مقالاته: "ونرى أنهم جديرون - إن لم نقل أجدر - وأولى من غيرهم كائنا من كان بالدفاع عن إخوانهم في الدين ويكشفوا الغطاء عن مختلف الأمراض والمصائب المتسلطة عليهم، والمطالبة بما يلزمهم من الإصلاحات، والمشاركة في أوسع نطاق ممكن وبأنجع الوسائل في الحركة الإصلاحية التي تهمّ شعبهم"[37]. هذا الموقف من الأمين العمودي جعل إدارة جريدة البصائر تعلق بقولها: "هذا المقال الذي عرّبناه ونشرناه ليطلع من كانت الحقيقة- فقط- ضالته المنشودة على ما ينويه ويريده العلماء لهذه الأمة ونتمنى أن تكون آخر جواب عن كل سؤال يتعلق بهذا الموضوع"[38].

ونظيرا لمجهوداته الفكرية ودوره السياسي ومواقفه النبيلة اتجاه قضيته، ودفاعه عن الحركة الإصلاحية ومكانته الثقافية والقانونية تم تنصيبه كاتبا عاما (أمينا عاما) للجمعية منذ تأسيسها إلى غاية سنة1935، ومن خلال هذه المكانة المرموقة التي وصل إليها العمودي

---

35 -La Défense, N199, 17 -08- 1939.

36- محمد الأمين العمودي، **الحركة الإصلاحية سيرها ونتيجتها ومستقبلها**، ع3، 03 أكتوبر 1929.

37- الأمين العمودي، **العلماء والسياسة**، البصائر، ع57، 22 ذي الحجة 1355هـ/05 مارس 1937.

38- البصائر، ع57، 22 ذي الحجة 1355هـ/05 مارس 1937.

تم اختياره من طرف الشيخ عبد الحميد بن باديس لمرافقته في رحلة وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري نحو باريس 1936، بصفته مترجما بينه وبين الحكومة الفرنسية فقال: "لا أرضى بغير العمودي ترجمانا لي، فهو الذي يستطيع تبليغ أفكاري وترجمة كلامي إلى المسؤولين الفرنسيين، وينقل أليّ كلامهم بأمانة وإخلاص، فالأمين العمودي لساني الأمين الذي لا أبغي به بديلا"[39].

ومن خلال الدراسات والشهادات حول شخص الأمين العمودي نلاحظ أنها تكاد تجتمع على أن دوره المحوري سواء في الحركة الإصلاحية أو جمعية العلماء المسلمين هو الدور نفسه على أنه ذلك السياسي الثائر الذي لا يخشى العواقب باتساع فكره السياسي الذي ساهم في ترقية وتطوير مطالب الجمعية كالتجنيس وإنشاء الأحزاب السياسية وغيرها..[40]. كما قاد حملة لانضمام الجمعية للأحزاب السياسية خاصة فيدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين، وذلك من خلال مقالاته التي عنونها بـ " واجب الساعة الراهنة "[41]. حيث دعا من خلال جريدته "الدفاع" سنتي 1934-1935 إلى انضمام الحركة الإصلاحية - بصفة عامة، وجمعية العلماء بصفة خاصة، وعلى وجه الخصوص - إلى الأحزاب السياسية الجزائرية باعتبار ذلك هو المخرج السهل لحل القضية الجزائرية، كما دعا أيضا إلى تأسيس حزب سياسي جزائري.

وأثبت العمودي لمناصري الحركة الإصلاحية والقضية الوطنية عموما سمو هدفه وابتعاده عن عالم الأشخاص لمناقشة عالم الأفكار، فرغم ما أشيع بأن الشيخ الطيب العقبي هو من كان وراء إخراجه من جمعية العلماء إلا أنه تضامن مع العقبي في اتهام الإدارة الفرنسية باغتيال الشيخ "كحول " 1870-1936، فكتب الكثير من المقالات المنددة بالسياسة الاستعمارية والمطالبة ببراءة الشيخ الطيب العقبي معتبرا أن هذه الحرب[42] حرب على الجزائريين كلهم، ففي إحدى مقالاته جدد دعوته لوحدة الجزائريين والتفافهم حول مطالب موحدة، فقال: "كيف يمكننا الحصول على هذا النجاح؟ فقط بواسطة الاتحاد والتنظيم وتناسى خلافاتهم التافهة، هذا الذي أعلنا عليه خلال العديد من السنوات، والذي نقّر به اليوم والذي لا نمل بذكره دائما... سجن العقبي بالأخص يعتبر إنذارا موجها من أجل إعلامنا بالنوايا الحقيقية للإدارة، ومن جهة أخرى لاستفزاز المناضلين الصالحين". كما مثّل العمودي المحامي والمدافع القانوني عن الجمعية ضد الإدارة الاستعمارية، فردا على قانون 08 مارس 1938 طلب الشيخ محمد الطاهر فضلاء الشيخ الطيب العقبي الذي

39- محمد بك، مرجع سابق، ص76.

40- العمودي، **التجنيس والتفرنج**، الإصلاح، ع6، 24 أكتوبر 1929.

41- بوكوشة مرجع سابق، ص ص 57-58.

42- محمد بك، **مرجع سابق**، ص 108، نقلا عن الدفاع ع117، 1936/08/28.

اقترح عليه التريث حتى يتصل بالأمين العمودي للسعي لدى الدوائر المختصة، وقد قام العمودي بما طلبه منه رجال الجمعية رغم استقالته منها منذ مدة وتمكن من إبطال هذا القانون الظالم[43].

ب - استقالة محمد الأمين العمودي من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: يروي الأستاذ حمزة بوكوشة الذي يعتبر من الأصدقاء المقربين من العمودي، بأن سبب استقالته، كان حفاظا على تماسك الجمعية من المؤامرات وضغوطات الإدارة الفرنسية التي كانت تترصد له منذ زمن بعيد؛ خاصة أن قلمه الصحفي كان ثائرا[44]. كما ينحاز آخرون إلى أن سبب استقالته كان بطلب من الشيخ الطيب العقبي الذي توترت علاقته بالعمودي والضغوطات التي سببها للجمعية من طرف الإدارة الفرنسية من جراء كتابته خاصة في الدفاع والجحيم التي استنكرها العلماء، بالإضافة إلى الاتفاق الذي عقده مدير الشؤون الأهلية مع الشيخ الطيب العقبي سنة 1935 الذي يقضي بحل الجمعية في حال عدم استقالة العمودي منها، لكل هذه الأسباب وحفاظا على تماسك الجمعية استقال العمودي.

4.5. دور الأمين العمودي في المؤتمر الإسلامي الجزائري:

يعد محمد الأمين العمودي أول من دعا إلى انعقاد مؤتمر الإسلامي جزائري، ليجمع من حوله من مختلف الأطياف الجزائرية على اختلاف تياراتهم وانتماءاتهم لتقديم مطالب موحدة لحكومة الجبهة الشعبية، حيث نشر في جريدته نشر دعوة الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى تجمع الأحزاب الجزائرية بهدف توحيد المطالب بصياغة موحدة تخدم كل الجزائريين، وقد نشر هذا النداء على صفحات جريدة "الدفاع" في عددها 88 الصادر بتاريخ 03 جانفي 1936، حيث تمثل دور العمودي في التنسيق بين مختلف الشخصيات والأحزاب السياسية الجزائرية الراغبة في هذا المشروع، وترأس العمودي الاجتماع الذي جمع كل من الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد الصالح بن جلول في 17 ماي 1936، والذي أسفر على الدعوة لانعقاد مؤتمر جزائري شامل في 07 جوان 1936.

وقد كان المؤتمر المنعقد موافقا لطموحات الأمين العمودي وهي تأييده للجبهة الشعبية ومشروع "فيوليت" الذي اقترح عليه تعديلات محددة، فقد كتب عدة مرات في هذا المعنى: "كمسلم متمسك بالمبادئ الأولى مطالبا إلى إخواننا بالحقوق السياسية الحقيقية فسأقبل بالمشروع الذي يكرس هذه الحقوق لهذا السبب فقط أيدنا المشروع (فيوليت) لكن اعترف أن هذا المشروع لا يلبي طموحات النخبة فضلا عن العامة، فالأحرى به أن يراجع، وأن

43- المرجع نفسه.

44- بوكوشة مرجع سابق، ص ص 57-58.

ينقح، وأن يكمل من طرف أولئك الذين لهم الشرف العظيم لتمثيل الشعب الجزائري"[45]. ومن مظاهر تحمسه لمشروع فيوليت مشاركته رفقة قادة الجمعية وممثلي الشعب الجزائري في استقبال فيوليت استقبالا وديا على متن الباخرة التي أقلته إلى الجزائر، فكتبت البصائر:"... وقد ألقى بالنيابة عن الجميع الأستاذ الأمين العمودي كلمات التحية والترحيب بعدما صافح الوزير كل واحد منا (وفد العلماء) مصافحة الوداد"[46].

ويدافع العمودي عن فكرة المؤتمر وأهميتها بقوله: " إننا نبرهن للطاعنين فينا رغم استغلالهم لمحنتنا وشقائنا أننا نستطيع أن نتوحد كلما اقتضت الظروف والمصالح وأننا كنا وما زلنا قادرين على دفع مرمي أعدائنا"[47].

وتتلخص أهم مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري في:

- إبطال القوانين الاستثنائية؛
- ضم الجزائر إلى حكومة باريس رأسا؛
- إبقاء المسلمين على ما هم عليه من حالتهم الشخصية؛
- فصل الديانة عن الحكومة؛
- نسخ جميع القوانين الصادرة ضد اللغة العربية؛
- تأسيس جمعيات لمساعدة الفلاحة؛
- توزيع الأراضي؛
- مطالب سياسية: العفو عن المجرمين السياسيين وتوحيد الانتخاب[48].

وهكذا ونظرا لدوره الكبير في التحضير للمؤتمر وفكرته السباقة وبدعم من العلماء تم انتخابه نائبا لرئيس المؤتمر محمد الصالح بن جلول، وسافر العمودي ضمن أول وفد للمؤتمر الإسلامي نحو باريس ممثلا للعلماء، كما اعتبره حمزة بوكوشة ممثلا للصحراء التي لم يكن ضمن الوفد من يمثلها.[49]

وساهم العمودي أيضا من خلال جريدته الدفاع في الانتصار لمطالب المؤتمر الإسلامي،

45- محمد بك، **مرجع سابق**، ص 109، نقلا عن الدفاع ع101، 1936/04/17.

46- البصائر، زيارة م فيوليت وحليلته لعاصمة الجزائر، ع75، 7 جمادى الأولى 1356هـ/16 جويلية 1937.

47-محمد بك، مرجع سابق، ص 117.

48- محمد البشير الإبراهيمي، المؤتمر الإسلامي الجزائري، البصائر، ع23، 22 ربيع الأول 1355هـ/ 12جوان 1936.

49- حمزة بوكوشة ، تشكيل الوفد الجزائري ورحلته إلى باريس، البصائر، ع29، 05 جمادى الأولى 1355هـ/ 24 جويلية 1936.

والرد على خصومه من أعضاء حزب الشعب الجزائري أو المعمرين أو الإدارة الفرنسية، ففي مقال له بتاريخ 18 ديسمبر 1936 كتب: "نحن نطالب في إطار التبعية لفرنسا كمستعمرة بإنشاء نظام حكم يكون عادلا ويعطي الحقوق للمسلمين الذين يؤدون نفس الواجبات" دون أن ينسى مطالب العلماء المتمثلة في عناصر الهوية: "نحن سنكافح وبكل قوة للمحافظة على قانوننا الإسلامي الذي لن نتخلى عنه أبدا ويجب أن تمنح اللغة العربية حقها كي تصبح رسمية، فهذه الحقوق سالت من أجلها دماء كثيرة في الماضي"[50]. وفي رحلة وفد المؤتمر الإسلامي الثانية إلى باريس كان العمودي حاضرا باعتباره نائبا للرئيس، والهدف هو " تأييد المطالب وشرحها لدى اللجان البرلمانية ".[51]

5.5. العمودي رئيسا لمنظمة "شباب المؤتمر الإسلامي":

في سبيل توسيع قاعدته الشعبية وردا على الدعاية المضادة لعناصر حزب الشعب الجزائري لجأ المؤتمر الإسلامي الجزائري إلى إنشاء منظمة شبابية لأنصار المؤتمر الإسلامي تضم مختلف التيارات السياسية الجزائرية والجمعيات المؤيدة وعلى رأسها جمعية العلماء المسلمين، وقد تنازل الفضيل الورتلاني (1900- 1959) عن رئاسة منظمة "شبيبة المؤتمر الإسلامي" لصالح الأمين العمودي تكريما وتشريفا له واعترافا بدوره الكبير في المؤتمر الإسلامي الجزائري، ويروي الشيخ محمد الطاهر فضلاء هذه الحادثة وتصريح الورتلاني عن العمودي أمام الجماهير الحاشدة في الحفل الذي احتضنه نادي الترقي: "هذا هو العالم العامل المجاهد والأديب الشاعر العبقري، هذا هو لا غيره من يكون ربان السفينة وقائدها إلى سواحل النجاة إنه الأستاذ محمد الأمين العمودي الرئيس القائد الكفء لحزب شباب المؤتمر الإسلامي الجزائري"[52]. كان برنامج هذه المنظمة مستوحى من برنامج المؤتمر الإسلامي، وهدفها تحقيق مطالبه والإسراع في ذلك. وبفضل النشاط الدؤوب للعمودي وأعضاء إدارة منظمة شبيبة المؤتمر استطاعت إنشاء 20 شعبة لها في مختلف المناطق الجزائرية، وبلغ عدد أعضائها حوالي أربعة آلاف عضو، وقد تنوعت نشاطاتها بين التربية والتعليم والتوعية والتكوين السياسي لأتباعها ولعامة الشعب.

في أحد نشاطات هذه المنظمة التي كانت في شكل قافلة عام 1937 انطلقت من مدينة الجزائر نحو قسنطينة تم تكريم العمودي في سيدي عيسى ببجاية، حيث ألقى محاضرة باللغتين العربية والفرنسية حول التعسف الإداري الفرنسي ووجوب التصدي له والدفاع عن الهوية الوطنية. وفي مختلف محطات هذه القافلة التي مرت بها (بجاية، جيجل، الميلية، ميلة، قسنطينة، تبسة، قسنطينة ثانية، العلمة، سطيف، برج بوعريريج، البويرة، الجزائر،

50- محمد بك، مرجع سابق، ص 126 نقلا عن الدفاع، ع 129، 18 ديسمبر 1936.

51- من آثار المؤتمر الإسلامي الجزائري، البصائر، ع52، 10 ذو القعدة 1355هـ/22 جانفي 1937.

52- محمد بك، مرجع سابق، ص 127.

الأغواط) كان العمودي يلقي خطاباته النارية الثائرة باللغتين العربية والفرنسية[53]. وفي زيارته للأغواط علّقت "البصائر" بأنها رحلة موفقة معتبرة ذلك: "انتصارا له ولجريدته كما كان استيلاء حسنا على المشاعر والقلوب"، كما علّقت وتابعت مختلف زيارته كزيارة إلى تبسة في أوت 1939[54].

6. خاتمة :

من خلال ما تقدم، نخلص للنتائج التالية:

- في مداخلتنا تم تسليط الضوء على الثقافة السياسية لعلماء منطقة وادي سوف وأفكارهم السياسية للنهوض بالمجتمع الجزائري وتحريرهم من قيود المستعمر الفرنسي، ونخص بالذكر من أولئك الأشاوس الشيخ "محمد الأمين العمودي".

- لعب محمد الأمين العمودي دورا هاما في مسار الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية على وجه الخصوص، هذا الدور تميز بالكفاءة والفعالية والحضور القوي لشخصه، سواء في المجال السياسي أو الصحفي من خلال مقالاته القوية والثائرة وتحليلاته العميقة التي توّج بإصداره لجريدة "الدفاع" باللغة الفرنسية، التي تعد منبرا للمواطنين الجزائريين للرّد على السياسية الهمجية والظالمة للإدارة الفرنسية اتجاههم.

- كما برز دور محمد الأمين العمودي في إضفاء الفكر السياسي داخل الحركة الإصلاحية، حيث كان من السباقين للدعوة إلى إنشاء جمعية تمثل العلماء الجزائريين، فعضويته داخل الجمعية باعتباره كاتبا عاما بها ونشاطه داخل المؤتمر الإسلامي الجزائري وعضويته ضمن وفد المؤتمر إلى باريس ورئاسته لمنظمة شبيبة المؤتمر الإسلامي الجزائري، كلها نشاطات تحسب للأمين العمودي بالإضافة إلى مواقفه الصحفية في مختلف الجرائد، خاصة جريدة "الدفاع".

7- قائمة المراجع

- المؤلفات والرسائل:

- إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلالي العوامر**، الدار التونسية للنشر ،تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977.

- أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح مذكرات**، ج2، (1925-1954)، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1977.

- أحميدة عميرات، **بحوث تاريخية**، دار البعث، قسنطينة، 2001.

- أنور الجندي، عبد العزيز الثعالبي رائد النهضة الإسلامية (1879- 1944)، ط1، دار الغرب

53- المرجع نفسه، ص127.

54- الأستاذ العمودي في الأغواط، البصائر، ع 167، الجمعة 06 ربيع الثاني 1358هـ/ 26 ماي 1939

الإسلامي، بيروت،
- شارل أندري جوليان : **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.
- عبد القادر قوبع، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920-1954، دار طليطلة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2015.
- فاني كولونا، **مثقفون في الأطراف، من كتاب الأنتلجانسيا في المغرب العربي**، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1984.
- محمد الأخضر السايحي، **الأمين العمودي الشخصية المتعددة الجوانب**، ط2، دار هومة، الجزائر،2001.
- محمد الهادي السنوسي الزاهري، **شعراء الجزائر في العصر الحاضر**، المطبعة التونسية، تونس،ط1، د.ت.
- محمد صالح الجابري، **التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس**، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ص ب (المقدمة).
- محمد ناصر، **المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، نطورها أعلامها من 1903إلى 1931**، م2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.
- موسى بن موسى، **إرهاصات الحركة الإصلاحية بوادي سوف في القرن العشرين**– قمار نموذجا، من كتاب العلامة المصلح محمد الطاهر تليلي، من تقديم أبو القاسم سعد الله، مطبعة مزوار، الوادي، 2006.
- يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين 19-20**، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1980.
- يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
- علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ /19**، رسالة ماجستير (مخ)، قسم التاريخ، جامعة الجزائر،2002/2001.
- محمد بك، **محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع**، ماجستير في تاريخ الأوراس الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر،2009/2008.
- موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939م)، رسالة ماجستير، قسنطينة، الجزائر، 2005-2006م.
- الجرائد والمجلات:
- إبراهيم مياسي، (**من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة**)، مجلة الثقافة، الجزائر، 1996، العدد 113.
- الأستاذ العمودي في الأغواط، البصائر، ع 167، الجمعة 06 ربيع الثاني 1358هـ/ 26 ماي 1939
- الأمين العمودي، **العلماء والسياسة**، البصائر، ع57، 22 ذي الحجة 1355هـ/05 مارس 1937.
- البصائر، زيارة م فيوليت وحليلته لعاصمة الجزائر، ع75، 7 جمادى الأولى 1356هـ/16 جويلية

1937.
- جريدة الدفاع ع101، 1936/04/17.
- العمودي، **التجنيس والتفرنج**، الإصلاح، ع6، 24 أكتوبر 1929.
- جريدة الدفاع، ع 129، 18 ديسمبر 1936.
- حمزة بوكوشة ، تشكيل الوفد الجزائري ورحلته إلى باريس، البصائر، ع29، 05 جمادى الأولى 1355هـ/ 24 جويلية 1936.
- حمزة بوكوشة، **شخصيات منسية الأمين العمودي**، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر،ع 6، جانفي 1972.
- محمد الأمين العمودي، **الحركة الإصلاحية سيرها ونتيجتها ومستقبلها**، ع3، 03 أكتوبر 1929.
- محمد البشير الإبراهيمي، المؤتمر الإسلامي الجزائري، البصائر، ع23، 22 ربيع الأول 1355هـ/ 12جوان 1936.
- من آثار المؤتمر الإسلامي الجزائري، البصائر، ع52، 10 ذو القعدة 1355هـ/22 جانفي 1937.
- مراجع باللغة الأجنبية
- Andrés- Roger Voisin**: Le souf – Monographie, El –walid**, El oued, 2004.
- Gaid Zobidi: **Histoire succinct de l'administration de souf dans les deux derniéressiécle avant des francais**. 1952 Archives de direction des Modjahidines, El – Oued.
-La Défense, N1, 26 janvier 1934.
- La Défense, N199, 17 -08- 1939.

الجهود الإصلاحية للشيخ عمار بن لزعر
في منطقة وادي سوف

The reform efforts of Sheikh Ammar bin Lazaar in Wadi Souf

أيوب شرقي
مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية،
جامعة البليدة02 (الجزائر)
ayoubcharguiO@gmail.com

رفيقة مرابطي
مخبر المخطوطات في إفريقيا،
جامعة أدرار (الجزائر)
rafika.81@univ-adrar.edu.dz



ملخص: يعد الشيخ عمار بن لزعر واحدًا من الأعلام الجزائريين الذين بذلوا جهودا كبيرةً في المجال الثقافي والديني من أجل الحفاظ على مقومات الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية، التي سعى الاستعمار الفرنسي لِطمسها والقضاء عليها، وقد برزت مجهودات الشيخ بن لزعر الإصلاحية في منطقة وادي سوف من خلال ما قام به من إصلاح للفكر والعقيدة واهتمامه بالجوانب الثقافية والاجتماعية والأخلاقية داخل مجتمعه عن طريق التدريس والتأليف، بالإضافة إلى مساهمته في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أين تم تعيينه رئيسا لشعبتها بمنطقة "قمار" في الجنوب الشرقي، و التي كان لها دور مهم في الحفاظ على الهوية الجزائرية بِثوابتها ومرتكزاتها الأساسية وهو ما فضح السياسة الاستعمارية، و شكل تهديدا لها بعرقلة مخططاتها التغريبية، ونتيجة لهذا النشاط تعرض الشيخ كغيّره من منارات الإصلاح لمضايقات كبيرة من قبل سلطة الاحتلال، ما اضطره للهجرة إلى الحجاز، فآثر الاستقرار فيها إلى غاية وفاته، وقد شهد أهل "قمار" بعد هذه الهجرة بطشًا استعماريًا فضيعًا، نتيجة نهضتهم العلميَّة والدينية وإتباعهم لتلك الأفكار الإصلاحية.

الكلمات المفتاحية: عمار بن لزعر؛ الإصلاح؛ جمعية العلماء المسلمين؛ المقاومة؛ الجنوب الشرقي.

Abstract :
Sheikh Ammar bin Lazaar is one of the Algerian figures who made a great effort in the cultural and religious field in order to preserve the elements of the Algerian Islamic Arab personality, which the French colonialism sought to obliterate and eradicate. Sheikh Bin Lazaar's reformist efforts in the Wadi Souf region have emerged through his reform of thought and belief and his interest in

the cultural, social and ethical aspects within his community through teaching and authorship, in addition to his contribution to the establishment of the Association of Algerian Muslim Scholars, where he was appointed head of its division in the "Gammar" region. in the southeast, Which had an important role in preserving the Algerian identity with its three basic principles, which exposed the colonial policy and posed a threat to it by obstructing its Westernization plans. As a result of this activity, the Sheikh, like other beacons of reform, was subjected to great harassment by the occupation authority, which forced him to migrate to the Hijaz, so he preferred to settle there until his death.
Keywords: Ammar bin Lazaar; repair; Association of Muslim Scholars; Resistance; southeast.

1. مقدمة

من أجل أن تحقيق فرنسا أهدافها الاستعمارية في الجزائر، اتبعت عدة أساليب ممنهجة في كل المجالات ركزت في مجملها على طمس الهوية الجزائرية، على اعتبار-حسب الادعاءات الاستعمارية-أن الشعب الجزائري قطعة تابعة لفرنسا، بناءً على هذا باشرت منذ بداية الاحتلال سياسة القضاء على عقيدة المجتمع بإفساد الأخلاق ونشر البدع، وسلخ المجتمع من أصوله، ومحاربة الثقافة العربية الإسلامية للأمة الجزائرية، من خلال إلغاء التعامل باللغة العربية، والمس بالدين والمقدسات الإسلامية، والتمكين للثقافة الغربية، وقد كان لهذه السياسة تأثيرات خطيرة كادت أن تقضي على كيان الأمة الجزائرية لولا ظهور الوعي الوطني والفكر الإصلاحي مع مطلع القرن العشرين، وقد ساهمت عدة ظروف في بلورته وانتشاره على يد مجموعة من العلماء، الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية إصلاح حال المجتمع الجزائري عن طريق المطالبة بتحسين الأوضاع المزرية، والدعوة إلى نفض غبار الاستعباد وتوحيد الجهود لمقاومة المستعمر.

وعلى غرار مختلف مناطق القطر الجزائري، عرفت منطقة وادي سوف انتشارا للفكر الإصلاحي، من خلال العودة إلى تفعيل دور الزوايا والمساجد والكتاتيب لتساهم في نشر التعليم العربي، والعقيدة الإسلامية الصحيحة، وبرزت بذلك مجموعة من الشخصيات والنخب الإصلاحية في الجنوب الشرقي، قاوت الثقافة التغريبية للمستعمر وسياسة التجهيل التي مارسها ضد سكان المنطقة، على رأس المصلحين في المنطق نجد الشيخ عمار بن لزعر، فما هي الجهوده الإصلاحية التي قام بها الشيخ بوادي سوف خاصة والجنوب الشرقي عامة خلال الفترة الممتدة ما بين 1898و 1962م؟

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية التساؤلات الثلاث التالية: من هو الشيخ عمار بن

لزعر؟ وفيم تمثلت جهوده الإصلاحية بمنطقة وادي سوف؟ وما هي الإسهامات التي قدمها للمنطقة عند توليه رئاسة جمعية العلماء المسلمين بمنطقة الجنوب الشرقي الجزائري؟

والهدف من هذه الدراسة هو البحث بموضوعية في دور رجالات الإصلاح خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وإبراز مدى مساهمتهم في المحافظة على الهوية الجزائرية وإماطة اللثام عن مواقفهم النضالية، بعيدا عن الأفكار التي كرس لها المستعمر.

أما بالنسبة للمنهج المعتمد فإن طبيعة الموضوع تفرض توظيف المنهج التاريخي الوصفي لتتبع خلفيته التاريخية، مع المزاوجة بالمنهج التحليلي لدراسة المشكلة بأسلوب متعمق.

2. التعريف بشخصية الشيخ عمار بن لزعر:

هو، الشيخ العلامة لزعر عمار المدعو[1] عمار بن الأزعر بن عبد الله بن الطاهر بن أحمد الهلالي[2] لقماري[3] المدني[4]، ولد في بلدة قمار بوادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري خلال سنة 1316هـ[5] الموافق لسنة 1898م[6]. ويقول في ترجمة لنفسه كتبها له محمد سعيد دفتردار: " ولدت في بلدة قمار، في عام 1316 هـ..."[7]. ينتمي إلى عائلة فقيرة محافظة ومتمسكة بالدين[8]، و هو الذي يقول عن نفسه: "كنت في مبدأ حياتي فقيرا وابن فقير[9] إلاَ

1- سعد بن البشير لعمامرة، منطقة وادي سوف، ج2، دار المعارف لولايات الجنوب الشرقي، ص 282. "غير مطبوع وموجود في المكتبة المنزلية للشيخ سعد لعمامرة"

2- الهلالي: ويعود نسبه إلى "بني هلال" اللذين حلوا بإفريقيا سنة 446هـ، وقد اشتهروا بالمجد بين العرب أنذاك أنظر: سمير سمراد: الشيخ عمار بن لزعر القماري السوفي، أعلام منسية مدونة الزقم، تم النشر في يوم الاربعاء2016/03/23م، على الساعة 10:36ص، تاريخ الزيارة 2021/04/02م، https://djazairsalafia.yoo7.com/t264-topic.

3- أحمد بن الطاهر منصوري وسعد بن البشير لعمامره، أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، جمعية الجماعة السوفية، شركة مزاور للطباعة، الوادي، 2006م، ص 61.

4- التجاني العقون، أعلام من قمار بوادي سوف، مطبعة سخري، الوادي، 2013م، ص 278.

5- البشير خلف، مرايا حديث في الثقافة والجمال والفنون، مطبعة مزاور، ط1، الوادي، 2012م، ص 125.

6- عبد الحميد بن نصر بسر، الأمجاد من أبناء سوف، ج1، مطبعة سامي، الوادي، 2019م، ص 24.

7- محمد السعيد دفتردار، "من أعلام المدينة المنورة"، مجلة المنهل، ج8، م35، م30، شعبان 1389هـ/ أكتوبر- نوفمبر 1969م، ص ص 4-11.

8- أنس يعقوب إبراهيم الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، ج2، (د.د.ن)، (د.ت.ط)، ص 377.

9- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، عالم المعرفة، الجزائر، 2015م، ص 222.

من الإيمان بالله"[10]، فلم يكن الفقر عائقا بينه وبين تحصيل العلم، وهو ما يؤكده الشريف أنس كتبي قائلا: "بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وذلك في بلدة "فلياش"[11] ببسكرة، وعند بلوغه سن الثالثة اصطحبه والده إلى بلدة سيدي عقبة لإتمام حفظ كتاب الله، و بعد الانتهاء منه عاد إلى بلدته -بقمار- والتحق بالكُتَاب، و بما أن كان شغوفا بالعلم والتعلم فقد قصد زاوية سيدي المولدي بتوزر بالقطر التونسي[12]، التي كان نظام التدريس بها داخلي، تستقبل الفقراء وأبناء الجهات المجاورة لتلقي كتاب الله وحفظ المتون الفقهية، وفي العاشرة حفظ كتاب الله وأتقن حفظه[13].

ورغم الدرجة العلمية التي وصلها إليها في حفظ كتاب الله والتفقه فيه، إلا أن طموحه لم يتوقف عند هذا الحد، وقرر السفر مرة أخرى إلى تونس عام1334هـ مشيا على الأقدام، قاصدا جامع الزيتونة[14]،رفقة الطاهر التليلي وعبد القادر الياجوري الذين اكتروا في وكالة الجريدية أو وكالة ابن عرفة[15]، ولم تمر السنة الأولى من تعليمه هناك حتى انخرط في سلك التعلم، واستغل وقته في مطالعة الكتب وحضور حلقات الدروس، وتوجت جهوده بالحصول على شهادة التطويع سنة 1343هـ الموافق لـ 1927م[16]. وقد دامت فترة الدراسة ما يقارب التسع سنوات نظرا لطبيعة المقررات الحافلة بالمواد، والكتب غزيرة المعارف، يُدَرسُها شيوخ أفاضل، كل شيخ له تخصصه المتمكن منه"[17]، من بينهم الشيخ الصادق النيفر، والشيخ أبو الحسن النجار، والزغواني و الطاهر بن عاشور، ثم عاد إلى بلدته ليتفرغ للعمل[18].

10- سمير سمراد ، المرجع السابق، أعلام منسية مدونة الزقم.

11- فلياش، وهي قرية من مدينة بسكرة الواقعة في جنوب شرقها بـ 5كلم أنظر: أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المرجع السابق ص 222.

12- يحي بكلي، العلماء الجزائريون المدرسون في المسجد النبوي من العصر المملوكي إلى يومنا هذا، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2017م، ص ص 348 - 349.

13- الشريف أنس بن يعقوب الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، دار المجتبى، ط 1، الحجاز المدينة المنورة، 2016م، ص 378.

14- محمد الطاهر التليلي، من تاريخ سوف، مخطوط، ص 86.

15- عبد القادر عزام عوادي، "المهاجرين السوافة بتونس العاصمة أوضاعهم المعيشية وأماكن استقرارهم خلال (1912 – 1962م) من خلال الروايات الشفوية" مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع 3، جامعة الشهيد حمه الأخضر، الوادي، ص 114.

16- أنس يعقوب إبراهيم الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، ص 379.

17- عبد الوهاب بن محمد زمان، وآخرون، معلمو المسجد النبوي الشريف، مكتبة دار الزمان، ط1، المدينة المنورة، 2016م، ص 514.

18- سعد بن البشير لعمامرة، الشيخ عمار لزعر مدرس المدينة المنورة، برنامج جلسات تاريخية، ج2،

ومما يذكره الشيخ العيد كرام أنه اقترح على الشيخ قائلا: "أنت عليك أن تختار زوجةً ونحن علينا ببقية المصاريف"[19]. حيث ذكر في هذا الصدد "ابن العيد كرام" في مراسلة إلى الشيخ "سعد بن البشير لعمامره": "... مما زاد العلاقة توطيدا بين الشيخ عمار ووالدي... أن الشيخ كان حينها شابا أعزب، فأقترح عليه والدي أن يتزوج ولكن الشيخ اعتذر لفراغ ذات اليد... فقام والدي خِفية عن الشيخ بحملة لجمع التبرعات لدى رجال الإصلاح بقمار، وجمع ما أمكن جمعه من مساعدات في ذلك الوقت، وكانت الأمور بسيطة عكس ما عليه الحال الآن... فأكمل والدي من عنده جهاز العروس وخطب له واحدة من بنات تلاميذه وتم الزواج..."

كان الشيخ متوسط القامة، لباسه الغترة ولا يضع عليها عقالا ويرتدي العباءة العربية، وهذا زي العلماء في العصر الحديث[20]، وقد تميز بالذكاء الحاد وقوة البصيرة، أخذ من تقوى وعفة المصلحين، ولازم الحق، وكان نزيها في تعاملاته، تغلب عليه طيبة القلب، وسلامة النية، والتواضع للآخرين، وكان يكره التملق والتكبر، وكلها صفاة وسِمَاتُ تعطي صورة عن الوقار الذي تميز به العلماء عن غيرهم[21]. وأهم ما عرف عنه هو انضباطه في الوقت والمواعيد، والصرامة والحزم في التعامل مع الأمور، وكان لا يجيب إلا إذا سُئِلَ مستفتيًا[22]، وهي ميزة ينفرد بها قلة من علماء الإصلاح.

3. الجهود الإصلاحية للشيخ عمار بن لزعر بمنطقة الجنوب الشرقي الجزائري:

1.3. جهوده في التدريس والتأليف وفي مجال اللغة العربية:

إن ما ميز الوضع في منطقة وادي سوف، خلال القرن العشرين هو سيطرة الاستعمار الفرنسي وإحكام قبضته على الأرض و العباد في جميع الميادين، بما فيها المجال الثقافي

الحلقة9، تم النشر على صفحة علي لعمامرة على اليوتيوب، في يوم 2020/05/09م، تاريخ الزيارة 2021/04/01م،

https://www.youtube.com/watch?v=JEtFb1sBdnQ

19- سعد بن البشير لعمامرة، الشيخ عمار بن لزعر مدرس المدينة المنورة.

20- عبد الوهاب بن محمد زمان وأخرون، مرجع سابق، ص 513.

21- أنس يعقوب إبراهيم الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، ج2، (د.د.ن)، (د.ت.ط)، ص 139.

22- ياسين بن محمد باهي، ترجمة لشيخ العلامة عمار بن لزعر السوفي الجزائري، تم النشر في صفحة د. ياسين بن محمد باهي في يوم 2020/03/11م، تاريخ الزيارة 2021/04/01م،

https://www.youtube.com/watch?v=mlZ-jAaOSMI.

والديني والتعليمي، فنشر الأمية وسط الأهالي، انحرفت أخلاق النشء[23]. ولكن رغم هذا الوضع السيء إلا أن المساجد بقمار كانت تقوم بدور فعال في إصلاح حال المجتمع السوفي، عن طريق علماء ورجال الدين الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية إعادة بعث النشاط التعليمي وسط الأهالي، فانتشرت المدارس والكتاتيب بقمار، وكان لها إسهام كبير في الوقوف ضد السياسة الاستعمارية ومخططاتها التغريبية[24].

ونظرا لطبيعة أهل منطقة وادي سوف المتشبثين بثقافتهم العربية، والمتمسكين بعقيدتهم الإسلامية، بالإضافة إلى انتشار الزوايا وقيامها بدورها التعليمي في المجتمع السوفي، فإن حركة الإصلاح استطاعت أن تتغلغل إلى أعماق المجتمع السوفي وتتوج بإنشاء شعبة جمعية العلماء المسلمين بالمنطقة التي كان لها إسهام كبير في الفكر التوعوي عن طريق التعليم و التدريس العربي. ومن بين المدرسين الذين كانوا يدرسون في قمار نجد "الشيخ محمد السائح اللقاني" الذي كان يلقي دروسا في مسجد الطريقة التيجانية بقمار سنة (1343هـ/1923م) ، وبها اجتمع أعيان من قمار في أمر طَلبِ مدرس لتدريس أبنائهم، فبعثوا برسالة إلى الشيخ عمار بن لزعر، المتواجد بتوزر "جامع الزيتونة"[25].

وفي هذا الموضوع يقول الشيخ الطاهر التليلي: "... في سنة 1924م اجتمعت لجنة من أهل قمار وطَلَبَتِهَا، وأهل الإصلاح بها، واتفقوا على تأجير مدرسٍ يُقيم عندهم في قمار لِتثقيفهم، وتعليم أبنائهم، وكان الشيخ بتونس وقد تحصل على التطويع فأجمعوا على أن يبعثوا إليه ليأتيهم إلى قمار التي حل بها وشرع في التدريس حسب رغبتهم..."[26]، وبناءً على هذا كتب الشيخ مقاله الذي أرسله إلى المرتحلين إلى تبسة وقتها، وقد ورد المقال في جريدة النجاح وهذا نصه: "بعث مكاتبٌ من بلدة تبسة (سنة 1346هـ/1927م) إلى جريدة النجاح القسنطينية، بهذه الكلمة التي نشرت، تحت عنوان "من تبسه إلى قمار": سعادة السيد مدير جريدة النجاح... وبعد: فنطلب من سيادتك أن تنشر على لسان جريدة النجاح ما هو واقع بقمار، في مدة ثلاثة أعوام مضت من الله على هذه البلدة بالفقيه النبيه العالم

23- عثماني الجباري، المصلح الشيخ عمار بن الأزعر وجهوده في التحرير والتنوير بالديار السوفية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، العدد13، (97-113)، ص 99.

24- موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها و تطورها (1900-1939م)، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005-2006، ص 132.

25- يوسف زغوان، مرجع سابق، ص 68.

26- بشير خلف، مرجع سابق، ص 128.

العلامة السيد عمار بن لزعر المتطوع "بالزيتونة"، فبث علمه في البلدة فجزاه الله عنا كل خير والأهالي فرحون مستبشرون مسرورون بهذا البدر الطالع الذي أضاء على قمار ونواحيها..." [27]، وكان الشيخ يتقاضى أجرته من أهل المنطقة كشكر له على تقديم الدروس، لكنهم تأخروا بعد ذلك في استكمال مبلغ الأجر، و هو ما نشرته جريدة النجاح في عددها 506 سنة 1927م. وبعد سنة نشرت النَّجاح عن طريق مكاتبها "بوادي سوف" الوضع العام في المنطقة خلال تلك الفترة، و ما جاء عن الحالة العِلميَّة: "أمَّا الحالة العلميَّة فهي خائبة للنّهاية بحيث لا يوجد في الوادي كلّه مدرّس غير قمار الَّتي يوجد بها العالم المتطوّع الشَّيخ عمَّار بن لزعر الَّذي كُنَّا نشرنا مقالاً عن زُهد أهل قمار فيه وتهاونهم بحقوقه في الصَّائفة الفارطة، فكان الأمر أن جمعوا فُضلاءهم وجدَّدوا عِنايتهم به..."[28].

وقد أصبح مسجد الطلبة ومنزل الشيخ عمار بن لزعر مع مرور الوقت مركزا علميا يقدم دروسا في كتاب الله والسيرة النبوية، والعمل بوصايا السلف الصالح ما جعله يؤثر كثيرا في حياة الناس، الذين كانوا يقصدونه للتحصيل العلمي الصحيح للعلوم، وهو ما سمح بتخرج العديد من الطلبة على يد الشيخ، وبدأت نسبة الأمية تتناقص، وهو ما يؤكده عدد كبير من أهالي قمار المتتبعين للحركة الإصلاحية بها، فهم يقرون أن الفضل في قيام هذه النهضة يرجع لله أولاً ثم إلى "الشيخ عمار بن لزعر" بفضل جهوده المضنية، وأفكاره الإصلاحية التي استغرقت إحدى عشر عاما قضاها مُدرسا وواعظا"[29]. وكان لهذا الجامع تأثيرا كبير على الفكر الإصلاحي للشيخ. وبعدما تخرج "الشيخ عمار بن لزعر" من جامع الزيتونة، ونال الإجازة منه قرر العودة إلى بلدته، حيث بدأ يُلقي دُروساً بمسجد السوق العتيق، وقد ركز على التوحيد السلفي والفقه الإسلامي، والتاريخ، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة، وعروض وشِعر، وأصبح يؤمُ حلقته جمعٌ غفير من الكبار والصغار، وبَدأ الوعي الديني ينتشر في المجتمع[30].

ويَذكر الشيخ التليلي: "أنهُ دَرَسَ على يد الشيخ عمار بن لزعر العديد من الكُتب مثل: مختصر خليل، وصحيح البخاري، وكفاية الطالب على الرسالة، وتفسير الجلالين، والأجرومية،

27- ميدة علي بن عمار، "من تبسة إلى قمار"، جريدة النجاح، ع 506، الأربعاء 22 ربيع الثاني 1346هـ/ 1927/10/19م، ص 2.

28- سمير سمراد، مرجع سابق، ص 61.

29- بشير خلف، مرجع سابق، ص 129.

30- أنس يعقوب إبراهيم الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، ج2، ص ص 140 – 141.

والقطر، ومقدمة الإعراب، والرحبية في الفرائض، والورقات في الأصول، وشرح ميارة على بن عاشر، وشرح الشرخيتي على الأربعين النووية، والجزرية في التجويد، وشرح بانت سعاد، وشرح الهمزية، والكثير من الشفا للقاضي عياض، وشرح إيساغوجي في المنطق، وكذلك شرح السلم، وكله مختصر في الأشهر الثلاثة وهي: رجب، شعبان، رمضان من كل سنة[31].

يقول الشيخ أبو القاسم سعد الله: "... وفي زيارة لي سابقة للمدينة المنورة خلال السبعينيات تعمدت زيارة منزل "الشيخ عمار بن لزعر" القريب من الحرم. وكان بِطِرَازٍ عربي عُثْمَاني يبدو عليه الاتساع والرَوْنَقُ، دَخَلتهُ وسألت عن آثار الشيخ فقيل لي أن المكتبة قد اِحترقَت وأن الشيخ لم يترك آثارًا مكتوبة وإنما ترك بعض الإملاء في المواد التي كان يُدَرسِهَا في الحَرم وغيرِهِ، وهي متفرقة في أيادي تلاميذه. فخرجت من المنزل صِفر اليدين، ولكني كنت أتساءل مع نفسي: "كيف أن عَالِمًا في حجم "الشيخ عمار بن لزعر" تحترق مكتبته وتُفقَدُ آثارهُ ولم يمض على وفاته عقدٌ من الزمن؟" ومما زاد الطين بلة أن المباني التي كانت بجانب الحرم كُلُهَا أُزيلت في نِطاق توسيع الحرم". ويقول أيضا: "في إحدى زياراتي لمكة المكرمة اِلتقيت بالشيخ "محمد علي حروز" (المعروف أيضا غدور)، وجُري الحديث عن "الشيخ عمار بن لزعر"، وكان "الشيخ حروز" يعرف الشيخ عمار بن لزعر جيدا، وهو اِبن بَلدِهِ ورَفيقُ دَربِهِ في الهِجرة. فناولني بهذه المناسبة ثلاث وثائق"[32]:

- ورقة مكتوبة على وجهين بخط الشيخ عمار بن لزعر لَخَصَ فيها سيرة حياته.

- صورتين معًا تَضُمَان صورة "الشيخ عمار بن لزعر" ووالد "الشيخ حروز" (محمد علي بن الحاج أحمد بن غدور حروز).

- "دفتر في أصول الفقه" بخط "محمود بن بكر" يقول كاتبه لشيخه "العلامة أبو عبد الله عمار بن عبد الله"، نفع الله بعلومه، ولكن الدفتر فيه أيضا فصل في أصول الحديث مكتوب على شكل سؤال وجواب. والرسالة المشار إليها لا تحمل تاريخًا، ولكن يبدو أنها كُتِبَتْ عندما تقدمت السن "بالشيخ لزعر " لأن رعشة الأصابع ظاهرة على حروفها[33].

31- محمد الطاهر التليلي، مجموعة مسائل تاريخية متفرقة تتعلق بصحراء سوف وقراها وغيرها، مخطوط، مكتبة محمد ماني المنزلية، ص ص 89 – 90.

32- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، ص 220.

33- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المرجع السابق، ص 219.

3.2. جهوده في مجال الفكر والعقيدة:

ومِما سَبق ذِكره أن "الشيخ عمار بن لزعر" وبعد عودته من الزيتونة إلى قمار، أتى وبِرأسه أفكارٌ إصلاحية كثيرة، وبدأ بتغيير تلك المعتقدات، من ذبح، ونذر، وتقديس[34]، وكان يُوَاجَهُ بالصَدِ، ولكنه بروح الصَبْرِ، اِستطاع أن يُغير الباطل، ويُعَرف الناس بمعنى "لا إله إلا الله محمداً رسول اللَه" وقد ركز على التوحيد السلفيِ... وبدأ الوعيُ الديني يَنتشرُ...[35]. ومِنْ بين هذه الأفكار التي سعى "عمار بن لزعر" لإصلاحها:

- **تغيير المعتقدات الفاسدة مثل: الذَبحُ، والنذر، والتقديس**: والذَبحُ هو إزهاق الرُوح بإراقة الدَم، ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿**قُلِ اِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَآىْ وَمَمَاتِيَ لِلَّهِ رَبِّ اِلعَٰلَمِينَ**﴾[36]، أما النذر فهو جميع العبادات التي فرضها الله عز وجل، فإن العبادات الواجبة إذا شرع فيها الإنسان فقد اِلتزم بها، ودليل ذلك قوله تعالى[37]: ﴿**ثُمَّ لِيَقضُواْ تَفَثَهُم وَليُوفُواْ نُذُورَهُم وَلِيَطَّوَّفُواْ بِٱلبَيتِ ٱلعَتِيقِ**﴾[38]، وقوله أيضا: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذرِ وَيَخَافُونَ يوما كَانَ شَرُّهُۥ مُستَطِيرا**﴾[39]، فيما التقديس يعني التقديس لله أي تنزيهه، وتعظيمه، وتمجيده. لقوله تعالى: ﴿**وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[40]، أي، نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون[41].

- **تعريف الناس بمعنى لا إله إلا الله** ومعناها: لا معبود إلا الله؛ نافياً جميع ما يُعبد من دون الله "إلا الله" مثبتا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في مُلكه[42]، لقوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اَللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ العِلمِ قَآئِمَا بِالقِسطِ لَآ**

34- أنس يعقوب إبراهيم الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، ج2، ص ص 140 – 141.

35- إبراهيم الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، ج2، المرجع السابق، ص 141.

36- سورة الأنعام، الآية 162.

37- محمد بن صالح العثيمين، شرح ثلاثة الأصول، دار الثريا، إع: فهد بن الناصر بن إبراهيم السليمان، ط3، الرياض، 2003م، ص ص 66 – 67.

38- سورة الحج، الآية 29.

39- سورة الإنسان، الآية 07.

40- سورة البقرة، الآية 30.

41- محمد أحمد لوح، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، ج1، دار ابن القيم ودار ابن عفان، ط1، القاهرة، 2002م، ص 45.

42- محمد بن صالح العثيمين، المرجع السابق، ص 81.

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[43].

- **التركيز على التوحيد:** والتوحيد هو الإخلاص لله عز وجل من غير مَيلٍ إلى الشِرك، فمن لم يخلص لله لم يكن موحدا، ومن جعل عبادته لغير الله لم يكن موحدا. لقوله تعالى: **﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾**[44]، وللتوحيد ثلاث أقسام وهي: (توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات)[45].

وقد بذل "الشيخ عمار بن لزعر" جهودًا كبيرة في سبيل نشر العقيدة ويبرز ذلك من خلال ما جاء في كتاب "أعلام من أرض النبوة" أن الشيخ عمار بن لزعر: "عمل بعد عودته من الزيتونة على فتح صفحة جديدة من صفحات الجهاد المقدس في سبيل نشر العقيدة والدعوة للرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ومحاربة الخرافات"، حيث أن "عمار بن لزعر" اجتهد في نشر العقيدة الصالحة والدعوة إلى الله وذلك من خلال: الدعوة إلى إتباع الكتاب والسنة، وجهوده في محاربة البدع والخرافات. كما قاوم "الشيخ عمار لزعر" الانحراف الديني، وعمل على إحباط مخططات الاستعمار الفرنسي، فلم يخضع لأحكامهم الجائرة وغاياتهم السيئة في نشر الفساد بهذه البلاد الإسلامية، وأخذ في نشر دعوته سرًا بين أتباعه لمقاومة الاستعمار، ونشر الوعي بين المواطنين الذين اِستجابوا له واتبعوه، وعندما شعر الفرنسيون بمبادئ الحركة، بدأوا يقبضون على الزعماء ويلقونهم في المعتقلات أو يقتلونهم، ولكن كل هذه الأحداث لم تُضعف من عزم الشيخ في نشر العلم والدعوة إلى الله[46].

3.3. جهوده في المجال الأخلاقي والاجتماعي:

ومن أجل تقويم أخلاق المجتمع الجزائري يذكر الشيخ "محمد الطاهر التليلي" رواية عن شيخه "عمار بن لزعر" بخصوص جهوده المبذولة في الجانب الأخلاقي: "... وكذلك من أثره الأدبي إجبار نساء البلدة، وفتياتها على عدم الخروج متبرجات من بيوتهن، والاختلاط بشباب القرية، ومغازلة فتياتها، ولاسيما أيام الأعياد، والاحتفالات العامة..."[47]. ومما راج في

43- سورة آل عمران، الآية 18.

44- سورة البينة، الآية 05.

45- عبد الفتاح بن عمر، المرجع السابق، ص 73.

46- سمير سمراد، المرجع للسابق، ص 62.

47- محمد الطاهر التليلي، مجموعة مسائل تاريخية متفرقة تتعلق بصحراء سوف وقراها وغيرها، المرجع

هذه المنطقة من فساد أخلاقي في بعض الجوانب، بسبب السياسة التجهيلية الاستعمارية، وقد تطرق الأستاذ الطاهر سعد الله إلى هذا الجانب قائلا: "... أما النساء فكُن يتزين ويخرجن كذلك لإقامة الحفل فيتكون من ذلك مَجْمَعَيْنِ، أحدهما للرجال والأخر للنساء لكل منهما طقوسه وأغانيه... وهذا الموسم بما يحتوي عليه من تجمعات ... فرصة تُمَكِنُ المتباعدين سَكنيًا أن يتعارفوا ويتزاوروا في المستقبل وتكون بينهم الأخوة والمودة، وهو من جهة أخرى موسم تقارب بين الناس إذ تتعرف الأمهات والشبان على السواء على البنات الكواعب، تتحادث معهن بمحضر أمهاتهن خلال التجمع فيكون التعرف أولا ثم التقارب عن طريق التصاهر، فمن هذه الناحية فان **موسم الدبيلة** يحول بين البنات وبين البوار والتعنس فكأن موسم المهرجان من هذه الناحية خطبة ... لشبان كثيرين جاءت بمحض الصدفة"[48].

وهذا مَّا تجنَّد له المصلحون، أمثال الشيخ عمار بن لزعر، و اجتهدوا للقضاء على: التَّبرُّج وترك الحجاب، وقد كان السُّفور[49] ببلدة قمار منتشرًا بأتمِّ معناه، فقاومته هذه الفئة القليلة حتَّى اقتلعته من جذوره لقوله عز وجل[50]: **(كَم مِّن فِئَة قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَة كَثِيرَةَ بِإِذنِ اِللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ اَلصَّٰبِرِينَ)**[51].كما كانت للشيخ جهود اجتماعية كان لها أثر كبير في إصلاح المجتمع وتماسكه مثل ما قام به من الإصلاح بين الزوجين، حيث يذكر لنا الشيخ عبد الله الديب – صهر عمار بن لزعر – أن الشيخ عمار بن لزعر كان يصلح بين الزوجين في حالة وقوع مشاحنة بينهما أو خصومة، فيحل هذا المشكل ويزيله عن طريق استدعاء زوجته، وتأتي بلباسها الشرعي مع زوجة الشيخ "عمار بن لزعر"، فيسمع منها ثم يَعِظُهَا ثم يستدعي الرجل ويَعِظُهُ على انفراد، وبعد الاقتناع بالكلام يرجع الزوجان لحياتهما الزوجية[52]. كما كان له دور في تعميق المحبة والأخوة بين الناس امتثالا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا**

السابق، ص 89.

48- الطاهر سعد الله، "العادات"، مجلة المهرجان، (د . م)، (د . ن)، (د . ع)، (د . ت)، ص 25.

49- السُفور: و"سَفَرَتِ" المرأة "سُفُوراً" كشفت وجهها فَهِيَ، أي التبرج وهو إظهار ما يجب إخفاؤه في المرأة. وقد أستعمل في خروج المرأة من الحشمة وإظهار مفاتنها وإبراز محاسنها أمام غرباء عنها غير محرمين عليها أنظر: رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الاسلامية في المصباح المنير، دار الافاق العربية، ص1، القاهرة، 2002م، ص 138.

50- سمير سمراد، المرجع للسابق، ص 63.

51- سورة البقرة، الآية 249.

52- عبد الفتاح بن عمر، المرجع السابق، ص 95.

اَلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[53] فهذه دعوة واضحة للتآخي والتلاحم بين المسلمين فالأخوة منزلتها عظيمة في الإسلام.

وعند ذلك تظهر آثار التعارف والأخوة في الله من خلال ترابط أفراد المجتمع وانسجامهم، وهذا الدور كان واضحا من خلال الخُطَب التي كان يلقيها الإمام في المنابر أو دروس الوعظ التي يلقيها بعض المصلحين مثل الشيخ عمار بن لزعر الذي ألقى دروسا في المسجد العتيق، وعمل على إزالة الفوارق بين الناس بالحِكمَة بين طُرقي وغير طُرقي، فأصبح يَؤُم حلقته جمع غفير من الكبار والصغار، وكان يحضر دروسه حتى أبناء الزاوية التيجانية فحاول المؤاخاة بينهم ونبذ التفرقة وتوحيد قوتهم ضد المستعمر الفرنسي[54].

كما أن جريدة البصائر كتبت في هذا الصدد: "عُرف أهل سوف من قديم بالتدين والتشدد في العقيدة والتفاني فيها. وقد شطرتهم الطريقة التيجانية والطريقة القادرية لشطرين بلغت العداوة والبغضاء ما بينهما مبلغاً انعدمت فيه المصاهرات بينهما، وصار من كان في فريق لا يصلي خلف الفريق الآخر[55]، وفي بلدة الرقيبة إلى اليوم مسجد قُسمَ لشطرين وضرب فيه بحائط بين المصلين، حتى لا يسمع كِلاَ الفريقين إمام الآخر، فازداد الجفاء والقطيعة بين أتباع الجانبين. ولما ارتفعت دعوة الإصلاح بالجزائر كان في طليعة رجالها نبهاء من أبناء سوف المثقفين وعلمائها المستنيرين، فدعوا إخوانهم بسوف إلى كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم والخلف الناصح من أئمة المسلمين، فاستجاب لهم الكثيرون من أهل سوف، لِمَا تلقوه من الايمان القوي واليقين الثابت والتدين المتين، وأخذ عددهم يزداد، وأخذت تلك الأحقاد تنطفئ، وأخذ الناس يتقربون ويتوادون، حتى الذين استمروا على اتباع شيوخ طريقتهم قللوا مما كانوا عليه لِمَا رأوه من تسامح للمصلحين ووصلهم لمن يقاطعهم وتجاوزهم عمن يظلمهم، وما كانوا يسمعون من العلماء المصلحين من الدعوة بالقرآن والهدي النبوي الكريم، وقد كان من أعظم مظاهر الإصلاح في قمار، سعي المصلحون و على رأسهم الشيخ عمار بن لزعر لصد هذه الفوارق الاجتماعية"[56].

53- سورة الحجرات، الآية 10.

54- رحمة لعويد وسمية عربية، المرجع للسابق، ص ص 36 – 37.

55- عبد الحميد ابن باديس، "سوف قبل الإصلاح وبعده"، جريدة البصائر، السنة الثانية، ع 122، 17 جمادى الأولى 1357هـ / 15 جويلية 1932م، ص 263.

56- عبد الحميد ابن باديس، المصدر السابق، ص 263.

4. إسهامات الشيخ عمار بن لزعر في جمعية العلماء بمنطقة الجنوب الشرقي الجزائري:

ونظرا لأهمية الجمعية فإن علماء وادي سوف لم يتأخروا عن حضور اجتماع مؤتمرها التأسيسي، حيث نقل الدكتور أبو القاسم سعد الله عن المرحوم الشيخ الهاشمي حسني في جلسة معه يوم 11 فيفري 1980م: "أن الدعوة وجهت لجميع علماء الوادي منهم: الشيخ إبراهيم بن عامر والشيخ الطاهر العبيدي، وأخوه أحمد العبيدي والشيخ الميداني موساوي، فلم يحضر سوى الشيخ عمار بن لزعر "[57]، وهو الوحيد من شيوخ السوافة المستقرين بالمنطقة، والذي أجاب الدعوة التي وجهت له سنة 1931م[58]. وقد حضر المؤتمر التأسيسي كُلاً من محمد الأمين العمودي[59] وحمزة بكوشة[60] من السوافة المقيمين خارج الوادي آنذاك، والشيخ عمار بن لزعر من قمار،

وهكذا اتسع نطاق الحِسِ والتفاعل مع الحركة الإصلاحية بالجزائر، فكانت وادي سوف من المناطق المتأثرة به، وتشكلت لجنة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد تكون الشعبة التي تكلم عنها الشيخ عمار بن لزعر حين قال: "... وكنت أحد المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين ورئيساً لشُعبتها في جنوب الجزائر"، وقد تشكلت هذه اللجنة (الشعبة) من: الشيخ عمار بن لزعر، حمزة بوكوشة، وعبد الكامل بن عبد الله النجعي، والهاشمي الدراجي، والهاشمي بن حميدة (حسني) [61]، وقد تكون هذه الشعبة الأولى بالوادي حسب بعض الروايات. وتذكر رواية الشيخ التليلي أن الشيخ عمار بن لزعر كان ممثل جمعية العلماء بالجنوب الجزائري ورئيس شعبتها في قمار[62]. بينما يذكر الشيخ حمزة بوكوشة عن تأسيس شعبة الوادي، أنه في إحدى زياراته لوادي سوف بمناسبة العيد الأضحى شرع يعرف بالجمعية ويشرح لهم مبادئها، فشكوا له عدم زيارة وفد جمعية العلماء

57- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص 102. (الهامش رقم 1)

58- الجباري عثماني، المرجع السابق، ص 103.

59- عبد القادر عزام عوادي، هجرة سكان وادي سوف إلى تونس خلال (1912 – 1962م) -تونس العاصمة أنموذجا-، دار الألمعية، مراجعة، عاشور قمعون، ط1، قسنطينة، 2014م، ص 90.

60- سعد بن البشير لعمامرة، قاموس الشهداء لمنطقة سوف ولاية الوادي، دار هومة، الجزائر، 2014م، ص 51.

61- موسى بن موسى: مرجع سابق، ص 169.

62- يوسف زغوان، المرجع السابق، ص 60.

لسوف فشرح لهم أن وفد جمعية العلماء لا يستطيع أن يزور المنطقة إلا إذا أسست شعبة تابعة لها[63].

فتأسست شعبة تابعة للجمعية بالوادي يوم 14 مارس 1937م[64]، وكان ذلك قبل زيارة وفد جمعية العلماء المسلمين بقيادة "الشيخ عبد الحميد بن باديس" وهذا بحوالي تسعة أشهر وتمت الزيارة في الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر 1937م بطلب من الشيخ عبد العزيز الشريف[65] وقد زار وفد الجمعية أثناء إقامته بالوادي عدة مناطق منها: تغزوت وقمار وكوينين وتكسبت والزقم والبهيمة والبياضة والرباح والخبنة والطريفاوي والرقيبة[66] والتي تم فيها تأسيس مكتب شعبة قمار الفعلي[67]. وأما شعبة قمار فقد ظهرت نواتها الأولى بعد عودة عمار بن لزعر من المؤتمر التأسيسي بالجزائر سنة 1931م، وإن كان النشاط الإصلاحي قد بدأ على يد هذا الشيخ قبل ذلك بكثير، لذلك نجد الشيخ عبد القادر الياجوري وهو أحد تلاميذ "عمار بن لزعر" قد انخرط في الجمعية وهو لا يزال طالباً، حيث يقول: "انخرطت في صفوف جمعية العلماء وأنا تلميذ فور تأسيسها سنة 1931م، ثم عملت تحت لوائها وحسب مبادئها بتزكية من الشيخ عمار بن لزعر". وقد تميز نشاط رجال الجمعية وشُعَبِها في هذه المرحلة بنوع من السرية لعدة أسباب، حيث يقول الشيخ عمار بن لزعر: "... ولقد لقيت في نشر الدعوة في تلك الأيام ما يلاقيه أمثالي من جور الاستعمار... ودامت الصفحة من الجهاد إحدى عشرة سنة ثم أعقبت ذلك الهجرة إلى البلاد المقدسة خوفاً على الأهل والذرية من الفتن، وذلك سنة 1353هـ"[68].

ورغم هذه العراقيل فإن الشيخ عمار بن لزعر رائد الإصلاح بالمنطقة، لم يَعْدَم الأنصار

63- حمزة بكوشة، "سير الجمعية وأعمالها تأسيس شعبة جديدة في وادي سوف"، جريدة البصائر، السنة الثانية، ع 59، الجمعة 6 محرم 1356هـ/ 19 مارس 1937م، ص75.

64- نور الإيمان مدني، المرجع السابق، ص 19.

65- عبد العزيز الشريف، ولد عام 1898م بالوادي التحق بجامع الزيتونة 1913م، عاد إلى الوادي عام 1923م خلف أخاه وصار شيخاً لطريقة القادرية بوادي سوف، وانطوى تحت لواء الجمعية كما نظم انتفاضة ضد السلطات الفرنسية في سنة 1938م، توفي سنة 1965م أنظر: مجلة البحوث والدراسات، ع 3، المركز الجامعي الوادي، جوان 2006م، ص ص 80 – 81.

66- السعيد ديدي: وادي سوف كنوز من الجزائر نظرة عامة حول وادي سوف، ج1، (د. ن)، (د. ط)، ص ص 17 - 18.

67- التجاني العقون، أضواء على مدينة قمار بوادي سوف، المرجع السابق، ص 353.

68- موسى بن موسى، المرجع السابق، ص ص 168 – 169.

والمدافعين عنه، حتى من بعض الشخصيات الحكومية الرسمية من أنصار الإصلاح[69] ، غير أنه وإن كانت السلطة لم تنل من الشيخ، فلم يتعرض للنفي أو الإبعاد مثلاً، إلا أنها لم تمنع ما لحق به من أذى الخصوم المناوئين[70] ما اضطره للهجرة إلى الحجاز خوفاً على الأهل والذرية من الفتن في سنة1937م[71].

4. خاتمة

من خلال ما تقدم في هذا البحث توصلنا إلى النتائج التالية:

- ساهم الشيخ "عمار بن لزعر" في تأسيس أول مدرسة بقمار وهي "مدرسة النجاح" وتوسيع "مسجد الطلبة"، ويعتبر أول مؤسس لمنهج علمي في التدريس، فقد درس في عدة أماكن في قمار وخارجها وأجاد بعدة علوم لتلاميذه، كما ترك بعض الكتب والرسائل والمخطوطات من تأليفه وفتاويه، ومن ما يؤسف عليه هو ضياع مكتبته -رحمه الله- بسبب تعرضها للحرق.

- صبت جهوده الإصلاحية في عدة مجالات منها: التدريس والتأليف والفكر والعقيدة واللغة العربية، كما حارب البدع والخرافات وعمل على نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة، في المجال الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي، وبهذا أصبح الشيخ عمار بن لزعر رائد للحركة الإصلاحية ومؤسساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعضواً فيها، ورئيساً لشعبتها بقمار.

- يتبين لنا أن الشيخ "عمار بن لزعر" قد لعب دورا كبيرا للدفع بحركة الإصلاح كغيره من مصلحي عصره الذين عملوا على نشر العلم والتعليم ومبادئ الإصلاح.

- رغم أن "الشيخ بن لزعر" ساهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكذا وضع النواة الأولى لتكوين شعبة ببلدته وكان رئيسا عليها، إلا أن غيابه عنها ترك فراغاً كبيراً لم يعوضه أحد في قمار بل في منطقة سوف عموماً خلال النهضة الإصلاحية، نظرا لبقائه بالمسجد النبوي الشريف يدرس فيه إلى غاية وفاته بالمدينة المنورة عام 1968م/ 1389هـ، ودفن بها رحمه الله .

69- محمد الطاهر التليلي، مجموعة مسائل تاريخية متفرقة تتعلق بصحراء سوف وقراها وغيرها، المرجع السابق، ص 89.

70- يوسف زغوان، المرجع السابق، ص 61.

71- علي غنابزية، "النشاط السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بوادي سوف 1931-1938م"، مجلة القباب، ع1، الوادي، دار الثقافة، 2004م، ص 34.

- تعرض الشيخ لعدة مضايقات من قبل الاستعمار ومن بعض الطرق الصوفية الذين اختاروا طريقا لا صلاح فيه، وبسبب هذا وذاك هاجر الشيخ عمار بن لزعر نحو الحجاز، تاركا هُوةً كبيرة لم يعوضها أحد مِنْ مَنْ حَملوا المشعل عَنهُ، وبقي بالمدينة المنورة إلى أن وافته المنية هناك.

- إن الصحوة الإصلاحية التي وضع أسسها الشيخ عمار بن لزعر كان لها دور كبير في الدفع بالدعوة الإصلاحية قدما في المجتمع، عن طريق تولي تلاميذ الشيخ لمسؤولية مواصلة مسار الإصلاح بعد هجرته إلى البقاع المقدسة، وبذلك بقي تأثيره في المجتمع السوفي ممتدا إلى أجيال لاحقة، من خلال رفضه للسياسات الاستعمارية ومخططات التغريب و طمس الهوية الجزائرية.

5. قائمة المراجع

- **القرآن الكريم:**
- **المراجع بالعربية:**
- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، عالم المعرفة، الجزائر، 2015م.
- أحمد بن الطاهر منصوري وسعد بن البشير لعمامرة، أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، جمعية الجماعة السوفية، شركة مطبعة للطباعة، الوادي، 2006م.
- أنس يعقوب إبراهيم الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، ج2، (د.د.ن)، (د.ت.ط).
- البشير خلف، مرايا حديث في الثقافة والجمال والفنون، مطبعة مزوار، ط1، الوادي، 2012م.
- التجاني العقون، أعلام من قمار بوادي سوف، مطبعة سخري، الوادي، 2013م.
- حمزة بكوشة، "سير الجمعية وأعمالها تأسيس شعبة جديدة في وادي سوف"، جريدة البصائر، السنة الثانية، ع 59، الجمعة 6 محرم 1356هـ/ 19 مارس 1937م، ص75.
- رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2002م.
- سعد بن البشير لعمامرة، الشيخ عمار بن لزعر مدرس المدينة المنورة، برنامج جلسات تاريخية، ج2، الحلقة9، تم النشر على صفحة علي لعمامرة على

اليوتيوب، في يوم 2020/05/09م، تاريخ الزيارة 2021/04/01م.

- https://www.youtube.com/watch?v=JEtFb1sBdnQ.

- سعد بن البشير لعمامرة، قاموس الشهداء لمنطقة سوف ولاية الوادي، دار هومة، الجزائر، 2014م.
- سعد بن البشير لعمامرة، منطقة وادي سوف، ج2، دار المعارف لولايات الجنوب الشرقي، ص 282. "غير مطبوع وموجود في المكتبة المنزلية للشيخ سعد لعمامرة"
- السعيد ديدي، وادي سوف كنوز من الجزائر نظرة عامة حول وادي سوف،ج1،(د. ن)،(د.ط).
- سمير سمراد، الشيخ عمار بن لزعر القماري السوفي، أعلام منسية مدونة الزقم، تم النشر في يوم الاربعاء2016/03/23م، على الساعة 10:36ص، تاريخ الزيارة.
  - 2021/04/02https://djazairsalafia.yoo7.com/t264-topicم،
- الشريف أنس بن يعقوب الكتبي الحسني، أعلام من أرض النبوة، دار المجتبى، ط 1، الحجاز المدينة المنورة، 2016م، ص 378.
- الطاهر سعد الله، "العادات"، مجلة المهرجان، (د . م)، (د . ن)، (د . ع)، (د . ت).
- عبد الحميد ابن باديس، "سوف قبل الإصلاح وبعده"، جريدة البصائر، السنة الثانية، ع 122، 17 جمادى الأولى 1357هـ / 15 جويلية 1932م.
- عبد الحميد بن نصر بسر، الأمجاد من أبناء سوف، ج1، مطبعة سامي، الوادي، 2019م.
- عبد القادر عزام عوادي، "المهاجرين السوافة بتونس العاصمة أوضاعهم المعيشية وأماكن استقرارهم خلال (1912 – 1962م) من خلال الروايات الشفوية" مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع 3، جامعة الشهيد حمة الأخضر، الوادي.
- عبد القادر عزام عوادي، هجرة سكان وادي سوف إلى تونس خلال (1912 – 1962م) -تونس العاصمة أنموذجا-، دار الألمعية، مراجعة، عاشور قمعون، ط1، قسنطينة، 2014م.
- عبد الوهاب بن محمد زمان، وآخرون، معلمو المسجد النبوي الشريف، مكتبة دار الزمان، ط1، المدينة المنورة، 2016م.
- علي غنابزية، "النشاط السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بوادي سوف 1931-1938م"، مجلة القباب، ع1، الوادي، دار الثقافة، 2004م.
- العمامرة سعد ومحمد العيد كرام، العمامرة سعد عن محمد العيد كرام، الوادي، 2021/04/1م. "مطبوعة موجودة في المكتبة المنزلية لسعد بن البشير لعمامرة" .
- مجلة البحوث والدراسات، ع 3، المركز الجامعي الوادي، جوان 2006م.

- محمد أحمد لوج، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، ج1، دار ابن القيم ودار ابن عفان، ط1، القاهرة، 2002م.
- محمد السعيد دفتردار، "من أعلام المدينة المنورة"، مجلة المنهل، ج8، م35، م30، شعبان 1389هـ/ أكتوبر- نوفمبر 1969م.
- محمد الطاهر التليلي، مجموعة مسائل تاريخية متفرقة تتعلق بصحراء سوف وقراها وغيرها، مخطوط، مكتبة محمد ماني المنزلية.
- محمد الطاهر التليلي، من تاريخ سوف، مخطوط.
- محمد بن صالح العثيمين، شرح ثلاثة الأصول، دار الثريا، إع: فهد بن الناصر بن إبراهيم السليمان، ط3، الرياض، 2003م.
- ميدة علي بن عمار، "من تبسة إلى قمار"، جريدة النجاح، ع 506، الأربعاء 22 ربيع الثاني 1346هـ/ 1927/10/19م.
- ياسين بن محمد باهي، ترجمة لشيخ العلامة عمار بن لزعر السوفي الجزائري، تم النشر في صفحة د. ياسين بن محمد باهي في يوم 2020/03/11م، تاريخ الزيارة 2021/04/01م
  - https://www.youtube.com/watch?v=mlZ-jAaOSMI.
- يحي بكلي، العلماء الجزائريون المدرسون في المسجد النبوي من العصر المملوكي إلى يومنا هذا، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2017م.
- موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939م)، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005-2006.

الشَّيخ الحسين حمادي
وجهوده الإصلاحية والثقافية ببلدته النَّخلة

Sheikh Hussein Hammadi and his reform and cultural efforts in his palm town

د/ مليكة زيد

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)

malikazid@yahoo.com



ملخص: إنَّ مدنَ الجنوب الشَّرقي الجزائري تزخر بعددٍ كبير من رجالِ الإصلاح والفكر، قدَّموا جهودًا في سبيل خدمة الدِّين والوطن والعلم، ومدينة وادي سوف أحدها شهدت انتعاشًا علميًّا قبل الاستقلال بفتحِ مدارس لتكوين الفرد الصَّالح، وتحرير سكَّانها من الجهل، والتخلُّف، وكانت بلدة النَّخلة إحدى مناطق المدينة وُلِد من صلبِها أعلام أبلوا بلاءً حسنًا في خدمةِ الدِّين ونشر العلوم، والشَّيخ الحسين حُمّادي أبرزهم، ورث عن أبيه الإمامة، والتَّعليم، والتَّدريس، وخاض تجربته العلمية الممزوجة بالعطاء الفكري في القطر التونسي؛ حيث جامع الزَّيتونة،فهدف البحث إلى التَّعرف على شخصيته، وإبراز أهمِّ جهوده الإصلاحية، والثَّقافية في بلدته النَّخلة؛ مستخدما المنهج الوصفي والتَّاريخي، فخلص إلى أنَّ شخصية الشَّيخ الحسين حمّادي من الشَّخصيات الإصلاحية النَّشطة؛ وعظًا، وإرشادًا، وتعليمًا، والصِّفات التي يحملها جعلت منه شخصية تتميَّز بالعزيمة والثَّبات، والظُّروف الاستعمارية التي عاشها لمْ تنقص من عزيمته، فآتى جهده أكله وثماره.

الكلمات المفتاحية: الحسين حمادي؛ الجهود؛ الإصلاحية؛ الثقافية؛ النَّخلة.

Abstract:
The cities of the southeast of Algeria are replete with a large number of reformist and intellectual men, who have made efforts in the service of religion, homeland and science, and the city of Oeud Souf, one of them witnessed a scientific recovery before independence by opening schools to form the good individual and liberate its population from ignorance and backwardness, and the town of Al-Nakhla was one of the areas of the city. Among them are figures who have done well in the service of religion and the dissemination of science, and Sheikh Hussein Hommadi is the most prominent of them. He inherited from his father the imamate, education, and teaching. He went through his scientific experience mixed with intellectual giving in the region of Tunis, where the Zaytuna Mosque was located. The descriptive and historical approach, so he concluded that the personality of Sheikh Hussein Hommadi is one of the active reformist personalities, preaching, guiding and teaching, and the qualities he carries made him a character characterized by determination and steadfastness, and the colonial conditions in which he lived did not diminish his determination, so his effort paid off.

Keywords: Hussein Hammadi; efforts; reformatory; cultural; palm.

1. مقدمة

شهدت مدينة وادي سوف حركة إصلاحية خلال القرن العشرين،زاخرة بجهودِ شيوخها وعلمائها خرّيجي جامع الزَّيتونة بتونس والأزهر الشَّريف بمصر، وممَّن تلقّوا العلم من شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فشهدت انتعاشًا وانتاشًا لبزوغ بذرة التَّعليم والإصلاح، فأخرج شطأه واستوى على سوق علومها الشَّرعية المزدانة بأوراقها الأدبية والفكرية، فخلَف من بعدها شغف ساكنة المدينةِ إقبالاً والتفافا للريّ من ظئْرِ حملة الرِّسالة؛ لإصلاح ما أفسدته ترسانة الجهل، والتَّخلُّف الذي خلَّفه الاحتلال الفرنسي، فمسخ الهوِّية الوطنية، وأجهضَ المقوِّمات الدِّينية التي ما فتئت الجمعية تعمل على إحياء مواتها، وجبر ما صدع منها من جدران العروبة، وعرصات الدِّين الإسلامي. فكان لخرّيجي هذه المعاهد الإصلاحية اليد الطولى، والبصمة العليا في مجال العمل الإصلاحي،ومنْ أبرزهم ما نأمل أنْ يسعفنا دراسة نشاطه، وجهوده الإصلاحية والثَّقافية " الشَّيخ الحسين حُمّادي بن علي حمادي" عليه رحمة الله،والذي عُرِف بدوره التَّعليمي، والإصلاحي في تونس، وفي منطقته وادي سوف؛ وتحديدًا ببلدة النَّخلة.

وهو ما سنسِّلط عليه الضَّوء من خلال هذه الورقة البحثية؛ بتقديمِ نافذة مضيئة عن شخصية الشَّيخ، وحياته العلمية، والإصلاحية، وهو شخصية فاعلة لمْ ينلْ حظَّه الأوفى من عنايةِ أهلِ الفكرِ والعلم إلاَّ كلمات قليلة من الأوفياء، فكان من حقِّهِ علينا - وعلى رجال الفكر في منطقة الجنوب الشَّرقي بوادي سوف- أنْ تقف على حياته وقفة الذَّاكر بالجميل؛ اعترافًا لما قام به من جهدٍ إصلاحيٍ وثقافي، وما حمله من إنجازات بحكم معايشته لمرحلتي الاحتلال الفرنسي، وبعد الاستقلال، فعُرِف عنه شديد التَّأثُّر بشيوخه بالزَّيتونة وجهوده بنفطة. ونظرًا لعمقِ الموضوع وأهمِّيته التَّاريخية عمدت هذه الورقة البحثية لتحقيقِ الأغراض الآتية:

- الرَّغبة الذَّاتية في التَّعرف على أحدِ روَّاد الفكر الإصلاحي بالجنوب الشَّرقي بمدينةِ وادي سوف؛ للمآثر التي خلَّدها في خدمة العلم، والتَّعليم؛ وتحديدًا التَّعليم القرآني، وولائه لدينه، ووطنه، وعروبته.

- معرفةِ جهود الشَّيخ العلمية، والإصلاحية، إضافة إلى تقديم ما هو جديد، ومستحدث في تاريخ الفكر الإصلاحي، والثَّقافي بمنطقة وادي سوف.

- حيويَّة الموضوع، ومحدودية الدِّراسات الأكاديمية التي تناولت شخصيات إصلاحية

بمنطقة وادي سوف بصفةٍ عامَّة، ومنْ صنعوا الأحداث بصفة خاصَّة.

- أهمِّية هذه الشَّخصية، ونشاطها المزدوج ما بين منطقتي المكناسي بنفطة، ووادي سوف، وتحديدا بالنَّخلة،والمكانة العلمية التي تميَّز بها.

- معرفة الجهود التي بذلها الشَّيخ في نشر العلم، وممارسة التَّعليم، ومساهمته في بناء المجتمع فكريًّا وعلميًّا.

مستخدمة في ذلك المنهج الوصفي؛ لوصف الأحداث التَّاريخية التي رافقت الشَّيخ الحسين حمادي عليه رحمة الله، والمنهج التَّاريخي لتتبُّع تسلسل الأحداث التَّاريخية زمانًا ومكانًا. ولفهمِ الجوانب النَّشطة في حياةِ الشَّيخ "الحسين حمَّادي "عليه رحمة الله، ونشاطه في بلدته النَّخلة التَّابعة لولاية وادي سوف، انطلق البحث في الحديث حول حياة الشَّيخ من حيث؛ نسبه، ومولده ونشأته، وتفاصيل مسيرته الشَّخصية بين مرحلتي التَعليم، والتَّكوين، بداية بالتحاقه بمدينة "المكناسي" معلِّمًا و"بالزَّيتونة" طالبًا، والمكانة اللاَّئقة التي حظي بها في تونس؛ وتحديدًا بين أولاد العمامي، ثمَّ التَّطرق إلى تفاصيلِ عودته إلى بلدته النَّخلة، والمهام التي تولاَّها أثبت جدارته في خوضِ النِّضال، والإصلاح، ومقاومته الثقافية. وللتعمُّق في معرفة حيثيات الموضوع وتفاصيله يمكننا الإجابة عن التَّساؤلات الآتية:

- من هو الشَّيخ الحسين حمَّادي عليه رحمة الله؟
- ما هي الدَّواعي التي جعلت الشَّيخ الحسين حمادي يلتحق بجامع الزَّيتونة بتونس؟
- فيم تمثَّل الدَّور الإصلاحي والثقافي للشَّيخ الحسين حمادي في بلدته النَّخلة؟
- ما هي أهمِّ الجهود الإصلاحية التي مارسها الشَّيخ في بلدته النَّخلة؟

2. الشَّيخ الحسين حمادي مولده و نشأته وتعليمه

1.2. نسبه ومولده:

هو الحسين بن علي بن حمادي بن علي بن سالم بن نصيب بن علي بن بلقاسم بن عجال بن بلقاسم بن العزال، والعزال هو جدّ العزازلة، ويرتقي نسبه إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، وابن فاطمة الزَّهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى أبيها رضي الله عنها[1]. ولد ببلدة النَّخلة بمنطقةِ الجنوب الشَّرقي لولايةِ وادي سوف خلال

1- بن علي محمَّد الصَّالح، الشَّيخ الحسين حمادي حياة علم وكفاح، إصدارات دار الثَّقافة لولاية الوادي، مطبعة سخري، 1433هـ/ 2012م، ص: 37.

سنة: 1900م[2]، وكان ميلاد الشَّيخ خلال مرحلة هامَّة من التَّاريخ الجزائري، وهي فترة مرور سبعين عامًا على احتلال الجزائر سنة 1830م، والتَّحوُّل الكبير الذي حصل سنة 1900م بحصول المستوطنين الفرنسيّين في الجزائر على استقلالهم المالي عن دولتهم فرنسا؛ حيثُ تمَّ انفرادهم بثرواتِ، وخيراتِ الجزائر في إطارِ الاستقلالِ الذَّاتي[3]. والده الشَّيخ "علي حمادي" عليه رحمة الله إمام مسجد النَّخلة، وقدْ توفِّي في شهرِ رمضان الموافق لشهرِ أكتوبر 1940م عن عمر ناهز الثَمانين، ووالدته مريم بنت عبد الله عباسي من حيِّ العبابسة بالبياضة، توفِّيت سنة: 1937م، تزوَّج بعدها والده خديجة بنت العربي كنيوة ولمْ ينجبْ منها وتوفِّيت بعده بعدَّة سنوات، وقدْ كان الشَّيخ سادس إخوته وأصغرهم سنًّا[4]، إخوته من الذُّكور؛ الطيِّب، وحمادي، وميداني، وإبراهيم، وعبد القادر، ومنَ الإناث؛ ساسية، فقط. تزوَّج سنة: 1934م، له أولاد من الذُّكور: لمين، علي، بوبكر، وله بنات[5].

2.2: **نشأته**:

نَشَأَ الشَّيخ "الحسين حمادي" عليه رحمة الله في ظروفٍ، وأحداثٍ سياسيَّةٍ كان لها الأثر في تكوين شخصيته، وتحصيله العلمي قبل الاستقلال وبعده، سواء في طفولته أو عندما كان شابًّا، أو طالبًا بالزَّيتونة، كاندلاع الحرب العالمية الأولى؛ من سنة: 1914إلى 1918، والثَّانية؛ من سنة: 1939م إلى1945م، ووقوع الانتفاضة الشَّعبية بمدينته وادي سوف (هدَّة عميش)؛ الأولى سنة: 1918م، والثَّانية سنة: 1938م، تمثَّلت مطالبها رفع الضَّرائب التي فرضها الاحتلال في حقِّ سكَّان المدينة، وتحسين الظُّروف الاجتماعية، ورفع التَّضييق عن المدارس والزَّوايا، بالإضافة إلى أحداث ميلاد الحركات الوطنية، وتأسيس بعض الأحزاب؛ كحزب شمال إفريقيا 1926م،وحزب الشَّعب 1937م،وتأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة: 1931م؛ حيث كان النَّشاط الإصلاحي، والثَّقافي من طرف شباب الجمعية، وشيوخها،

2- إبراهيم شويخ، الرَّحلات العلمية وأثرها في الحياة الثَّقافية بمنطقة وادي سوف (1931م، 1969م) مذكرة ماستر، تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، جامعة الوادي، 2018/2017م، ص :39.

3- عاشور نبيل، صفقة القرن بين الجزائر 1900، وفلسطين 2018، بتاريخ 4/4/2018، تمت مشاهدته 2022/2/20م على السَّاعة 20:21.

2018/https://www.aljazeera.net/blogs/2018/4/4/

4- أعلام سوف، مديرية الثَّقافة، إصدارات دار الثَّقافة لولاية الوادي، مطبعة مزوار، 2006م، ص: 24.

5- محمَّد العيد قدع، الشَّيخ الحسين حمادي ودوره الاجتماعي ونشاطه العلمي والتَّربوي بتونس ووادي سوف، 1902م/1982م، مطبعة ذويب، الوادي، ط1، 2003م، ص-ص 38-42؛ ومحمَّد السَّعيد عقيب، الشَّيخ الحسين حمادي ونشاطه التعليمي في تونس ووادي سوف، مجلَّة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية،المجلَّد 6، العدد :1، ص :2.

وتنظيمات الهجرة الطُّلَّابية العلمية، وبروز الحركات الوطنية التَّحرُّرِية، وأحداث 8 ماي 1945م، بدايات التَّحول من المقاومة السِّياسية إلى المقاومة المسلَّحة، وتبلور بداية التَّفكير الجدِّي للثَّورة[6].

كما نَشَأَ في أسرةٍ فقيرةٍ لا تملك ما تسدُّ حاجاتها من كفافِ العيشِ؛ حيث كانت الحياة بسيطة وطرق العيش، والكسب تكاد تكون معدمة لكونها خاضعة للحكم العسكري الفرنسي، فلمْ تتوفَّر لأهالي منطقة النَّخلة سوى مهنة الرَّعي، وغراسة النَّخيل الشَّاقَّتين، كما نشأ الشَّيخ في وسطِ أسرةٍ محافظة، تهتمُّ بتعليم أبنائها العلم، وحفظ القرآن، حيث كان والده معلِّمًا للقرآن، وإمامًا بالمسجدِ العتيق بالنَّخلةِ، ومن وجهاء، وأعيان البلدة؛ لما رأى فيه النَّاس من خلقٍ قويمٍ، وتوجُّه نحو العلم، وخدمة الغير بدون مقابل. حفظ جزءًا من القرآن الكريم على يد والده؛ لكنَّه لمْ يستمرْ عندما قام بمحاولاتٍ للالتحاق بزوايا الجنوب التُّونسي[7].

3.2. تعليمه بالزّيتونـة:

شهدت مدينة وادي سوف نهضة ثقافية، وإصلاحية كبيرة، كانت مقوِّماتها الأولى المدارس القرآنية في بدايات القرن 19، وكذلك الرَّحلات العلمية والثَّقافية المتبادلة بين زوايَا، ومدارس القطر التُّونسي خاصَّة جامع الزَّيتونـة، يخوضها شيوخ أفاضل ورجال علم أمثال الشَّيخ " الحسين حمادي" وغيره كثير، كلُّ هؤلاء نالوا الحظَّ الأوفر في تكوينهم علميًّا، وفكريًّا ودينيًّا، فحملوا الفكر الإصلاحي لتكوين جيل متعلِّم مثقَّف، يقود الحركة العلمية والثَّقافية في زمنٍ ما بعد الاستقلال، وما قبل الاستقلال نجد "الشَّيخ الحسين حمادي" من روَّاد هذه النَّهضة.

1.3.2. التحاق الشّيخ بالمكناسي بنفطة:

ممَّا أثَّر في الشَّيخ الحسين حمادي ما سمعه من أخبارٍ حول تونس، وما تتمتَّع به من ازدهارٍ للزَّوايا، والتَّعليم؛ جعلت منه هذه المسامع يتوق إلى السَّفر للزَّيتونة لمزاولة تعليمه، وتوسيع مداركه الفكرية والثَّقافية، فكان مولعًا بجامعِ الزيتونة والدُّروس التي يقدِّمها الطَّلبة الزَّيتونيين؛ ليستفيد من دروسهم، وشروحهم، وحديثهم عن تونس وعلومها، وثقافتها، وهو الأمر الذي جعله يحنُّ إلى الزَّيتونة. وعلى إثر ذلك سافر إليها بعد عدَّة

6- بن علي محمَّد الصَّالح، المرجع السَّابق، ص: 37.

7- بن علي محمَّد الصَّالح، المرجع السَّابق، ص-ص: 37-38.

محاولات، وفي المرة الثَّالثة - حين بلغ ثماني سنين - نقله والده إلى زاوية "سيدي إبراهيم بن الشريف" بنفطة بمحاذاة وادي سوف على الحدود الشَّرقية، كان نظام التَّدريس فيها داخليا، يقصدها جميع الطَّلبة من كلِّ الجهات؛ لتلقِّي كتاب الله، وبعض العلوم الأخرى، كالمتون الفقهية وغيرها[8]. حفظ القرآن الكريم كاملاً على يدِ أحدِ شيوخها الشَّيخ" الحبيب"، والذي كان أكثر من تعلَّق، وتأثَّر به، وكان ذلك في أوائل شهر شوال سنة: 1329هـ الموافق لأواخر شهر ديسمبر 1911م على أرجح الرِّوايات، وعمره آنذاك 18 سنة، وقدْ درس على يدِ شيوخها منهم: " الشَّيخ التابعي"، و"ابن أحمد" و"الشَّيخ إبراهيم الصمادح"، وقدْ أعجب مشايخه بذكائه، وسرعة حفظه، ونال احترامهم، وتبوَّأ مكانة مرموقة عند الجميع، فمكث في نفطة حوالي ستّ سنوات تقريبًا[9]. وبحكمِ انتقال الشَّيخ من نفطة إلى المكناسي كان من الطَّبيعي أنْ لا يضيِّع فرصته التي ظلَّ يسعى جاهدًا بلوغها، فمكثَ في المكناسي بين أولاد **العمامي** عشر سنوات؛ لتعليم، وتحفيظ أبنائهم كتاب الله،فحظي بينهم بالاحترام، والتَّقدير إلى أنْ عرضوا عليه تزوجيه، وتمليكه قطعة أرض فلاحية، لكن الشَّيخ رفض بحجَّة مواصلة تعليمه،وهو السَّبب الذي أخَّر زواجه إلى سنة 1934م [10]، فلمْ يستقرَّ طويلاً بينهم، واختار مواصلة رحلته العلميَّة، فانتقل إلى الزَّيتونة سنة: 1928م .

2.3.2 الشّيط الحسين حمادي طالبا بالزّيتونة:

التحاقُ الشَّيخ الحسين حمادي بالزَّيتونة لمْ يكن صدفة، أو لإحراز شهادات عليًا، وإنَّما رغبته الجامحة، والملحَّة للتَّعلُّم، واكتساب فنون، وعلوم يحتاجها في مساره العلمي، ومشواره الإصلاحي بصفةٍ أشمل، فحينما يجتمع الدَّافع الذَّاتي الجامح مع توفُّر الصِّفات الخلقيَّة، والمعنويَّة كالصِّدق والإخلاص، يبنى عليها اكتمال الشَّخصية العلمية المتينة التي تكوَّنت من مؤسَّسات التَّعليم الدِّينية؛ سواء في تعليمه الأوَّل على يدِ والدهِ في "المسجد العتيق" بالنَّخلة، أو في زاوية "سيدي إبراهيم بن أحمد الشريف بنفطة أو التحاقه بجامع الزَّيتونة العريق، وما تلقَّاه من علومٍ شرعيَّةٍ متعدِّدة كالقراءاتِ رواية ودراية، الرسم التوقيفي، والتَّفسير والحديث، وعلومه والفقه وأصوله، وعلم الأخلاق والسِّير، وعلم اللُّغة والبلاغة[11]. وكان انخراطه للدِّراسة في الزَّيتونة بعد اجتيازه امتحانِ الدُّخول، فدرس بها

8- نفسه، ص-ص: 24-22.

9- بن علي محمَّد الصَّالح، المرجع السَّابق، ص: 39؛ محمَّد السَّعيد عقيب، المرجع السَّابق،ص ؛170.

10- بن علي محمَّد الصَّالح، المرجع السَّابق، ص: 45.

11- نفسه، ص: 61.

سبع سنوات، قضى السَّنوات الأربع الأولى منها بالانتساب، ومن السَّنة الخامسة صار طالبًا نظاميا بالزَّيتونة، بداية من موسم: 1930م إلى 1931م، واجتاز السَّنة الخامسة، والسَّادسة بنجاح واقتدار[12]. وفي السَّنةِ السَّابعة الموافقة للسَّنة الدِّراسية 1933/1932م لمْ يُكملْ دراسته في سبيلِ الحصول على شهادة التَّطويع، وذلك بسببِ الأحداث، والظُّروف السِّياسية التي عاشتها تونس، وشهدها جامع الزَّيتونة ضدَّ عميد الجامع الفقيه المالكي" الشَّيخ محمَّد الطَّاهر بن عاشور"، وبسبب الأحداث التي انطلقت من "بنزرت"؛ حيث راجت شائعة في ديسمبر 1932م، مُفادها أنَّ رئيس المتجنِّسين بتلك المدينة المسمَّى "محمَّد شعبان" قدْ توفِّي، فأصرَّ السكان على عدم دفنه بمقابر المسلمين، وصاحب هذا الحدث فتاوى علماء الزَّيتونة منهم الشَّيخ الفقيه محمَّد الطَّاهر بن عاشور مفتيًا بجوازِ التجنِّس إنْ لم يخرج من الدِّين وشهد بالإسلام، ونتيجة لهذه الاضطرابات لمْ تتمْ الدِّراسة خلال تلك السَّنة، واحتسبت سنة بيضاء لكلِّ الدَّارسين في جامع الزَّيتونة[13].

وفي الزَّيتونة درس الشَّيخ على عددٍ من المشايخ المتخصِّصين في عددٍ من العلوم منهم: الشَّيخ محمَّد عبد العزيز النيفر، الشَّيخ محمَّد الحطاب بوشناق، الشَّيخ أحمد بن عثمان، الشَّيخ محمد التارزي، الشَّيخ إبراهيم النيفر، الشَّيخ محمَّد إبراهيم النيفر، والشَّيخ محمَّد الزغواني[14]. وبعد سنوات من النِّضال حتَّ سنة: 1982م توفِّي الشَّيخ بتاريخ: 15 أفريل 1982م، بعد مرضه بأيامٍ قلائلٍ فشهدت جنازته حضورًا مهيبًا شهد عليه القاصي، والدَّاني القريب، والبعيد لشيمِ أخلاقهِ، ومثابرتهِ في مهامه، وجهوده التي أينعت، وآتت أكلها، فكان مثالاً، وقدوة يحتذى به[15].

3. النَّشاط الإصلاحي والثَّقافي للشَّيط الحسين حمادي في بلدته النَّخلة:

كانت مدينة وادي سوف حاضرة علمية إصلاحية، فكلُّ مساجدها تحوي مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومبادئ اللُّغة العربية، والفقه، وبقية العلوم، ويعود الفضل إلى الجهود التي بذلها شيوخ، وعلماء المنطقة ممَّن تطوَّعوا لإعدادِ نشءٍ متعلِّم، ومثقَّف، ثمَّ إرسالهم في بعثات طلاَّبية إلى مدارس، ومعاهد جمعية العلماء المسلمين، أو إلى زوايا

12- علي الزيدي، الزَّيتونيون ودورهم في الحركة الوطنية التُّونسية 1945/1904، دار نهى، سفاقس، 2007م، ص: 360.

13- المرجع نفسه، ص: 52.

14- محمَّد السَّعيد عقيب، المرجع السَّابق، ص: 173.

15- المرجع نفسه، ص: 6.

الجنوب التُّونسي؛ مثل زاوية سيدي إبراهيم وزاوية مصطفى بن عزوز بنفطة، وزاوية سيدي المولدي بتوزور، وجامع الزيتونة. ومن بين هؤلاء الطَّلبة كان الشَّيخ "الحسين حمادي" والذي تكوَّن، وتعلَّم على يدِ مشايخ، وعلماء الزَّيتونة، فتلقَّى منهم علومًا عديدة جعلت منه شخصية علميَّة، ودينيَّة قادرة على تولِّي مهمَّة التَّعليم،فقضى تقريبًا سبع سنوات طالبًا بالزَّيتونة، ومعلِّما بأحدِ مناطقها المعروفة، ليعود إلى مسقط رأسه في صيف: 1940م في زيارةٍ لأهلهِ، وبني عشيرته بمناسبةِ حلولِ شهرِ رمضان المبارك،لكن شاءت الأقدار أنْ توفِّي والده الشَّيخ "علي بن حمادي" 1940/10/23م وأوصاه خيًرا بالمسجد، والمدرسة القرآنية، والجماعة، وهنالك كان على الشَّيخ الاستقرار نهائيًّا في بلدته النَّخلة تنفيذًا لوصيَّةِ والدهِ[16]، فانطلق في تطبيق مشروعه الإصلاحي المتنوّعِ بدايـةً بـ :

1.4. **المسجد**:

اتَّخذ الشَّيخ من المسجد فضاءً للتَّعليم حتَّى جعل منه مؤسَّسة إسلامية مؤثِّرة، إذِ المسجد في الإسلام هو مركز الإشعاع؛ فكان المسجد النَّواة الأولى للتَّعليم والتَّربية، وهو ما جعل الشَّيخ يكرِّس جهوده لتنظيم دروس الوعظ، والإرشاد الدِّيني وتهذيب النَّاس، ومحاربة الأمراض الاجتماعية، والعقائدية،وتهذيب السُّلوك وتحسين الأخلاق. فقدَّم من خلاله – المسجد - دروسا في العلوم الإسلامية؛ من تفسير، وعقيدة، وأخلاق، ونحوٍ، وصرف.. وغيرها من العلوم الأخرى، فارتكز على النَّشء بضرورةِ تعليمهم، ومعرفـةِ لغتهم وإحياء تاريخهم وأمجادهم، وكان يؤمن إيمانًا راسخًا بدور التَّعليم المسجدي للحفاظ على الأمَّة. فارتكز نشاطه بالمسجد على:

1.1.4. **الإمامة**:

إضافة إلى ممارسة مهمَّة التَّعليم القرآني نجد الشَّيخ متعدِّد المهام، ومترامي الأهداف، فقدْ كان إلى جانب التَّعليم القرآني يمارس الإمامة، وهي مسؤولية عظيمة، وأمانة ثقيلة، وتكليف جسيم ليست بالمسؤولية السَّهلة، يسخِّرها الله لمن تتوفَّر فيه صفة الإخلاص، والعزيمة، والثَّبات، والمواظبة والاستمرارية مع الالتزام، والتَّواضع، فقال عنه الشَّيخ العيد عقيب: "منذ عرفت الشَّيخ الحسين لمْ أر، أو أسمع أنَّه غاب عن الإمامة، أو التَّعليم القرآني إلاَّ لضرورةٍ ملحَّة، أو عذر قاهر؛ كالمرضِ، أو رحلةِ حجٍّ ونحو ذلك"[17]، ويذكر أيضا أحد

16- بن علي محمَّد الصَّالح، المرجع السَّابق، ص: 71.

17- بن علي محمد الصالح، المرجع السابق، ص: 101.

تلامذته الشَّيخ الطَّاهر بقاص في قوله: كان الشيخ الحسين مواظبا على المسجد، وتعليم القرآن للتلاميذ، وللصَّلوات الخمس، وليس له عمل آخر إلاَّ خدمة الله سبحانه وتعالى، والقرآن، والصَّلاة، والعبادة"[18]. وهو في هذا كله عامل بوصيَّة والده؛ ليكون خلفًا له بتدريس القرآن، وإمامة الجماعة في صلواتهم، زيادة على تعليم القرآن، وهكذا أقحم الشَّيخ خلفا لوالده الشَّيخ علي حمادي عليه رحمة الله.

2.1.4. **التدريس:**

لمْ يكتف الشَّيخ الحسين بالإمامة، وتعليم القرآن فحسب؛ بل كان يدرِّس عددا من العلوم منها الفقه، والنَّحو، والصَّرف، وله دراية كبيرة بالنَّحو، فعكف على تعليم تلاميذه متون اللُّغةِ العربية، وبعض المتون في ما يتعلَّق بعلوم القرآن مثل: مورد الضمآن، والمصباحي في رسم القرآن، ومتون الفقه كمتن" ابن عاشر"، و"سيدي خليل"، والموطأ، والرحبية في علم المواريث، وكذا الخلاصة الفقهية وغيرها من المتون وبعض العلوم الشَّرعية، فتخرَّج على يديه عدد كبير من الحافظين لكتاب الله بقدر 95 طالبا؛ أبرزهم "الطاهر حميداتو"، "عمر شويرفات"،"عبد الله دوش"، "أحمد سواكر"، "الضيف بن علي"،"عبد الرحمن بن علي"،"عمار حميداتو"، "لزهاري حميداتو" وغيرهم.[19] يقول عنه أحد تلامذته الشَّيخ "عبد القادر مرزوقي": "درسنا عند الشَّيخ الحسين الصَّرف والنَّحو والأجرومية والفقه والسِّيرة النَّبويـة"[20].

3.1.4. **الوعظ والخطابة:**

تميَّزت مواعظ الشَّيخ وخطبه بالمرونة، واليسر والتَّرغيب بدل التَّرهيب، وكان ينزل النَّاس منازلهم فيختار الموضوع المناسب في الوقت المناسب، وكانت جلساته الوعظية متنوِّعة بين الوعظ والإرشاد والنُّصح، والإفتاء والتَّرفيه من الشِّعر؛ فحظي بالمكانة والمنزلة المرموقة في بلدته النَّخلة، وثقة النَّاس به جعلتهم يرجعون إليه في قضاياهم التي يختلفون فيها، فكان مفتيًا وقاضيًا يرضى بحكمه الجميع، ويأخذون بنصائحه وتوجيهاته، وحلوله خصوصًا في قضايا الميراث، وما يتعلَّق بها، وفي الاختلافات الأسرية، والاجتماعية، وقضايا أخرى؛ كالبيوع، والإجارة، والدُّيون وغيرها،فكان دائمًا يدعوهم إلى التَّمسُّك بالقيم الأخلاقية،

18- نفسه، ص: 102.

19- محمَّد السَّعيد عقيب، المرجع السَّابق، ص: 174.

20- بن علي محمَّد الصَّالح، المرجع السَّابق، ص: 73.

والمبادئ الدِّينية، والوطنية السَّامية،ويدعوهم إلى الهداية، وفعل الخير[21].

2.4. المدرسة القرآنية:

كانت المؤسَّسات التَّعليمية قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، عبارة عن غرفٍ صغيرةٍ لصيقةٍ بالمسجدِ، أو الزَّوايا يتمُّ فيها تدريس القرآن، وتحفيظه للصِّغار[22]؛ حيث كان لهذه الزَّوايا،والكتاتيب الدَّور الأكبر في رواجِ التَّعليم بمنطقة وادي سوف[23]. وقد كان الشَّيخ الحسين من الذين بذلوا جهودًا كبيرة في مجال التَّعليم القرآني. وكانت طريقته في تعليم القرآن تقليدية باللَّوح، قبل شروق الشَّمس إلى وقت الضُّحى للصِّغار، وكبار السِّنّ، وخصّص للكبار دروسًا في محو الأمية، وتحفيظ السُّور القصار، ولمْ تكن دروسًا منتظمة، وإنَّما دروسًا يلقيها حسب المناسبات، والنَّوازل[24]. فتعدَّدت مستويات الوافدين إليه من مختلف الأعمار؛ بل حتىَّ ذوي الاحتياجات الخاصَّة، ليصل عددهم الثَّابت سبعين طالبًا، وأحيانًا يصل إلى 99 أو المئة، وهو ما يتوجَّب على الشَّيخ التَّوفيق في التَّكفُّل بهؤلاء الطَّلبة حفظًا، وتلقينًا فقدْ اعطاه الله من النَّباهةِ وسعة الصدر، والفطنة، وحضور البديهة ما يجعله قادرًا على تصنيفهم، ودراسة قدراتهم العقلية، وملكاتهم الكامنة،[25] بنيَّةِ تنشئتهم، ومتابعتهم حتَّى يكون جيلاً متفتحًا؛ لأنَّ الاستعمار من أهدافه جعلُ الأمَّة تعيش حالة من الضَّياع، والتِّيه كيْ لا تطالب بحقوقها.

وأمَّا أسلوبه في تعليم وتحفيظ القرآن كان مميَّزا، فامتاز بالسَّلاسة، والمعاملة الحسنة، والدِّقَّة وسرعة البديهة، والقدرة على ضبط النَّفس، وعدم اتباع أساليب العنف التي تجعل المقبلين للحفظِ على يديهِ ينفرون منه، فكان يملك القدرة على التَّعامل مع جميعِ قدراتهم، ومستوياتهم من الصِّغار والكبار،إضافة إلى الحنوِّ على طالب العلم[26]، فيقول عنه أحد

21- علي خضرة، الشَّيخ الحسين حمادي السُّوفي ودوره في خدمة المذهب المالكي في جنوب سوف والجنوب التونسي، مجلَّة البحوث والدِّراسات العدد 20، 2015م، ص: 229.

22- لحسن أوري، السِّياسة التَّعليمية الاستعمارية في إفريقيا (نموذج المغرب العربي) دورية كان التَّاريخية، العدد12، 2011م، ص 35.

23- البشير مقدود، التَّعليم الفرنسي بمنطقة سوف خلال العهد الاستعماري بين الرَّفض والتَّأثير، مجلَّة المعارف للبحوث والدِّراسات التَّاريخية، جامعة الشَّهيد حمَّة لخضر، الوادي العدد4، ص: 140.

24- علي خضرة، المرجع السابق، ص: 12.

25- بن علي محمَّد الصَّالح، المرجع السَّابق، ص :75.

26- يُنْظَر: محمَّد الصَّالح بن علي، المرجع السَّابق ص-ص: 164-165؛ محمَّد السَّعيد عقيب، المرجع السَّابق، ص:4.

تلامذته الشَّيخ " محمَّد الكبير خالدي" : "كان لا يضرب إلاَّ من ظلم غيره، أو وصل متأخِّرًا، أو من تلفَّظ بما لا يليق، وكانت له فراسة لطلبته"[27]. وقال عنه أحد تلامذته مادحًا: "كل من التقيت بهم من معلمِّي القرآن في ربوع هذه الولاية –الوادي –؛ قديمهم، وحديثهم ما وجدت شخصًا يشبهه حتَّى الشَّبه، فضلًا بأن يكون مثله، والسرُّ في هذا توفُّر شرطين: الشَّرط الأوَّل: الكفاءة، وحفظه لكتاب الله، والشَّرط الثَّاني: فهمه لأسرار هذا الكتاب، والعربية التي يتمتَّع بها والفقه[28].

4. خاتمة

بعد الإطلالة الفكرية لعلم من أعلامِ الفكرِ الإصلاحي في مدينة وادي سوف، وتحديدًا ببلدة النَّخلة تحدَّدت نتائج هذا البحث كالآتي:

- إنَّ السِّياسة التي انتهجتها السُّلطات الاستعمارية في مدن الجنوب الشَّرقي، والمتمثِّلة في القضاء على الشَّخصية الجزائرية، وطمس الهوِّية الإسلامية، قدْ جوبهت من قبلِ الإصلاحيِّين؛ ومنهم الشَّيخ الحسين حمادي عليه رحمة الله.

- عظم المسؤولية الملقاة على عاتق شيوخ، ورجال الإصلاح؛ سيما خرِّيجي الزَّيتونة من أجلِ إصلاحِ أحوالِ الشَّعب الجزائري عمومًا، وسكَّان مدينة وادي سوف خصوصًا، قصد انتشالهم من حمْأة الجهل، والتَّخلُّف التي فرضتها السُّلطات الاستعمارية منذ دخولها إلى المدينة.

- الشَّيخ الحسين حمادي، من الشَّخصيات الإصلاحية النَّشطة إبَّان الاحتلال وبعده؛ وعظًا، وإرشادًا، وتعليمًا. والصِّفات التي يحملها جعلت منه شخصية تتميَّز بالعزيمة، والثَّبات.

- إنَّ خدمة التَّعليم القرآني التي قدَّمها الشَّيخ تميَّزت ببساطة وسائلها، وقوَّة تأثيره .

- رغم الظُّروف البيئيَّة، والمعيشية، والسِّياسية والاقتصادية، والثَقافية المزرية لمْ تنقصْ من عزيمة الشَّيخ في مواصلة العمل الإصلاحي، وسعيه الحثيث لإخراج أبناء بلدته من الجهل والأمّية، والتخلف.. آتى أكله، وثماره، فشهد له تلامذته وأقاربه، وأبناء بلدته وأثنوا عليه خيرًا.

27- المرجع نفسه، ص:5.

28- علي خضرة، المرجع السَّابق، ص: 11.

6. قائمة المراجع

- محمَّد الصَّالح بن علي، الشَّيخ الحسين حمادي حياة علم وكفاح، إصدارات دار الثَّقافة لولاية الوادي، مطبعة سخري، ط1، 1433هـ/ 2012م.

- أعلام سوف، مديرية الثَّقافة، إصدارات دار الثَّقافة لولاية الوادي، مطبعة مزوار، 2006م.

- شويخ إبراهيم، الرَّحلات العلمية وأثرها في الحياة الثَّقافية بمنطقة وادي سوف (1931م-1969م) مذكرة ماستر، تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، جامعة الشَّهيد حمة لخضر، الوادي، 2017/ 2018م.

- قدع محمَّد العيد، الشَّيخ الحسين حمادي ودوره الاجتماعي ونشاطه العلمي والتَّربوي بتونس ووادي سوف 1902م/1982م، مطبعة ذويب، الوادي، 2003م.

- عقيب محمَّد السَّعيد، الشَّيخ الحسين حمادي ونشاطه التعليمي في تونس ووادي سوف، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية،المجلد 6، العدد :1.

- الزيدي علي، الزَّيتونيون ودورهم في الحركة الوطنية التُّونسية 1904 /1945، دار نهى، سفاقس، 2007م.

- خضرة علي، الشَّيخ الحسين حمادي السُّوفي ودوره في خدمة المذهب المالكي في جنوب سوف والجنوب التُّونسي، مجلَّة البحوث والدِّراسات، العدد: 20، السنة :2015م.

- أوري لحسن، السِّياسة التَّعليمية الاستعمارية في إفريقيا (نموذج المغرب العربي) دورية كان التَّاريخية، العدد:12، 2011م.

- مقدود البشير، التَّعليم الفرنسي بمنطقة سوف خلال العهد الاستعماري بين الرَّفض والتَّأثير، مجلَّة المعارف للبحوث والدِّراسات التَّاريخية،جامعة الشَّهيد حمَّة لخضر، الوادي العدد:4.

- بوالصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931م /1945م، ط:5، دار البهاء، عن وزارة الثقافة الجزائرية، 2013م.

- عاشور نبيل، صفقة القرن بين الجزائر 1900، وفلسطين 2018، بتاريخ 2018/4/4، تمت مشاهدته 2022/2/20م على السَّاعة 20:21.

//https://www.aljazeera.net/blogs/2018/4/42018

المقاومة الثقافية
في شعر محمد العيد آل خليفة

Cultural resistance in the poetry of Muhammad Al-Eid Al-Khalifa

أ.د/ عبد الكريم حاقة

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية،

معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)

Ahaga66@gmail.com



ملخص: منذ أن وطئت أقدام المحتلين أرض الجزائر والشعب يقاوم، تارة بالسلاح، وطورا بالفكر، وقد برزت المقاومة الثقافية مطلع القرن العشرين. وفي هذه الورقة البحثية حاولت الإجابة عن الإشكال الرئيس الآتي: كيف تبلورت المقاومة الثقافية في شعر محمد العيد آل خليفة؟ حيث تمت الإجابة وفق خطة تبدأ بمقدمة وتنتهي بخاتمة، وتتضمن عدة مباحث أهمها المبحث التطبيقي الذي رصدت فيه شعر المقاومة الثقافية عند محمد العيد من خلال ديوانه. وقد توصلت إلى نتيجة هامة هي: أن شعر المقاومة الثقافية كان مبثوثا في ثنايا الديوان لا تكاد تخلو منه قصيدة.

الكلمات المفتاحية: الشعر؛ المقاومة الثقافية؛ الوطن؛ اللغة العربية؛ الإسلام.

Abstract :

Since the occupiers set foot on the land of Algeria, the people have been resisting, sometimes with weapons, and sometimes with thought, and cultural resistance has emerged at the beginning of the twentieth century. In this research paper, I tried to answer the following main problem: How did cultural resistance crystallize in the poetry of Muhammad Al-Eid Al Khalifa? Where the answer was carried out according to a plan that begins with an introduction and ends with a conclusion, and includes several topics, the most important of which is the applied topic in which I monitored the poetry of cultural resistance by Muhammad al-Eid through his poetry. And I reached an important conclusion: that the poetry of cultural resistance was spread in the folds of the Diwan, almost devoid of a poem.

Keywords: Hair; cultural resistance; Motherland; Arabic; Islam.

1 . مقدمة:

الأدب للحياة، والأدب للمجتمع، والأدب للواقع، ولا مكان للخرافة التي تقول: الفن للفن، أو الفن للهو واللعب، أو السوريالية التي تتخطى الواقع لتجعل الفن شيئا فوق – واقعي، أو فوق – حقيقي. ولقد كان الشاعر محمد العيد آل خليفة شاعرا واقعيا، عاش هموم شعبه، وقضايا وطنه، وقد فرض عليه واقعه الوجودي أن يجد نفسه في سجن كبير، سجانه رجل أبيض غريب، يلكن بلهجة غريبة، قد ملك زمام الأمور، ومقاليد الحكم في هذا الوطن السليب. لقد فرض عليه هذا الواقع أن يكون شاعرا مناضلا، وأن يكون شعره نضاليا خاليا من كل ألوان العبث وضروب الترف والقصف واللهو، شعرا جادا رساليا حرا، له مهمة صعبة يؤديها وسط الأشواك والألغام، فقام برسالته خير قيام. وقد اخترت أن أتناول المقاومة الثقافية في شعر هذا الشاعر العظيم، بغية إبرازها من مكامنها، لذلك طرحت هذه الأسئلة التي تمثل الإشكال الذي يحاول البحث الإجابة عنه، وهي كالآتي:

- كيف تبلورت المقاومة الثقافية في شعر محمد العيد آل خليفة؟

- وكيف عالج الشاعر قضايا الوطن وهموم الشعب؟

- وما المبادئ التي كان يرتكز عليها في مقاومته؟

وقد حاولت الإجابة عن هذه الأسئلة في هذا البحث المعنون بـ: **المقاومة الثقافية في شعر محمد العيد آل خليفة**. وقد اتبعت منهجا وصفيا تحليليا، حيث أقوم برصد النماذج ووصفها وتحليلها، محاولا الوصول إلى مكامن المقاومة الثقافية في شعر هذا الشاعر. وقد اقتضت المنهجية العلمية تقسيم هذا البحث إلى مقدمة بينت فيها الخطوط العريضة لهذا البحث والمعالم الهامة التي توقف القارئ على حقيقته. بعد المقدمة يأتي مبحث مخصص لمعرفة حياة الشاعر، لأن لحياة الشاعر والظروف المختلفة التي مر بها دورا انعكاسيا على شعره، فكان لزاما أن نتعرف على ظروف نشأة الشاعر، لنهتدي إلى ما أثر في فنه وأدبه. ثم خصصت مبحثا تناولت فيه الحديث عن المقاومة الثقافية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي الظالم، فبينت فيه أن شعب الجزائر شعب أبي وحر بفطرته، لا يقبل الضيم، ولا يغض على الظلم، ولا يرضى بالهوان، فقاوم أولا بسلاحه، ودفع الأرواح رخيصة في سبيل الله تعالى، ثم لما سكت الرصاص، أخذ يقاوم عن طريق الكتابة في الصحف، فظهرت المقاومة الأدبية الثقافية التي استمرت حتى انفجار الشرارة الكبرى وانطلاق الثورة العظمى، التي كلل الله جهادها بالنصر والتحرر والاستقلال، ولم يكفّ الأدب عن المقاومة، بل رافق الثورة التحريرية، فكان يشد أزر المقاتلين، ويسند ظهر المجاهدين، ويقدم لهم الدعم النفسي، ليصمدوا في وجه الآلة الاستعمارية المدمرة التي تأتي على الأخضر واليابس.

ثم يأتي المبحث التطبيقي، وهو موضوع البحث، وقد عنونت له بـ: نماذج من شعر

المقاومة الثقافية عند محمد العيد، حيث رحت أجوس خلال الديوان، وتقلب في جنباته، وأنقب في أرضه، وأتنقل بين حدائقه وبساتينه، باحثا عن شعر المقاومة الثقافية، ولكن الأمر لم يكن سهلا، لأن الشاعر كان ذكيا جدا وحذرا جدا، لأنه كان في وسط الأتون بين ظهراني اللهب محاطا بالنار والحديد، وجنود مدججين بالأسلحة الحديثة، والسجون التي تنتظر المخالفين في الرأي، فكان الشاعر يبطن نفسا ثائرة متوقدة، ويظهر لسانا ودودا، فمن الصعب إدراك مرامي الشاعر، ولذلك احتجت إلى أدوات الحفر لأنبش في تربة القصيدة عن بيت هنا أو بيت هناك فيه إشارة أو إيماء إلى الثورة والدفاع عن حياض الأمة. ثم كان مسك الختام خاتمة أجملت فيها كل النتائج المتوصل إليها من البحث. وقد اعتمدت على مراجع أهمها ديوان الشاعر بطبعتيه، وكتاب: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب لعمر بن قينة، وكتاب: الشعر الجزائري الحديث – اتجاهاته وخصائصه الفنية لمحمد ناصر، وبعض المعاجم المتخصصة، وفي الختام أسأل الله تعالى أن يضع لبحثي القبول، ويجعله نافعا لمن قرأه، حاديا للشادين من الشعراء كي ينهجوا نهجا قويما في نظم الشعر كما قال ابن الوردي في لاميته:

انظم الشعر ولازم مذهبي   في اطراح الرفد لا تبغي النحل

فهو عنوان على الفضل وما   أحسن الشعر إذا لم يبتذل.

2 . نبذة عن حياة الشاعر محمد العيد وآراء في شعره:

هو محمد العيد بن محمد علي آل خليفة من مواليد عين البيضاء في 28 أوت 1904 "الجزائر" وفيها تلقى تعليمه الابتدائي، وانتقل إلى بسكرة 1918 حتى سنة 1921 حين غادر بسكرة متوجها إلى تونس حيث درس بجامع الزيتونة سنتين عاد بعدهما إلى بسكرة ليشارك في النهضة العلمية والصحافية، فشارك بقلمه في (الإصلاح) و(صدى الصحراء) و(الشهاب). وفي 1927 انتقل إلى العاصمة معلما فتخرج على يديه العديد من شعراء الجزائر، وغادر العاصمة في 1940 متنقلا بين باتنة وعين مليلة معلما، وبعد اندلاع الثورة ألقي عليه القبض وفرضت عليه الإقامة الجبرية ببسكرة حتى الاستقلال، وقد عاش في بسكرة في عزلة صوفية انقطع فيها إلى نفسه، وأصبح قليل الإنتاج. وفي صيف 1979 توفاه الله بمدينة باتنة[1]. وأسرة الشاعر تنحدر من قبيلة المحاميد العربية التي سكنت ليبيا في العهد الفاطمي، وانتقلت إلى الجزائر في العهد العثماني واستقرت بواد سوف جنوب شرق الجزائر ثم انتقلت

1- ينظر: الشعر الجزائري الحديث – اتجاهاته وخصائصه الفنية، محمد ناصر، دار الغرب الإسلامي، ط: 2، لبنان، 2006، ص: 666. وينظر أيضا: قاموس الأدباء والعلماء المعاصرين، محمد بوزواوي، دار مدني ، (دط)، الجزائر، (دت)، ص: 31.

أسرة الشاعر أواخر القرن التاسع عشر إلى مدينة عين البيضاء حيث ولد الشاعر[2]. كان الشاعر (محمد العيد) إلى جانب عمله في التعليم يسهم بفكره وشعره في الصحف العربية الجزائرية الوطنية، خصوصا صحف جمعية العلماء المسلمين وكان عضوا فيها منذ تأسيسها عام 1931 ملتزما خطها الوطني الإصلاحي[3].

كان الشاعر (محمد العيد) صوت العروبة والإسلام في وجه الاحتلال الأوروبي الفرنسي النصراني، فحمل لذلك ألقابا كثيرة منها شاعر الشباب لقبه به أمير البيان المغاربي الشيخ البشير الإبراهيمي في وقت مبكر، ومنها أمير شعراء الجزائر وشاعر المغرب العربي ورائد الشعر الجزائري في العصر الحديث[4]. ويرى أمير البيان شكيب أرسلان رحمه الله أن (محمد العيد) يشبه الشاعر العباسي بهاء الدين زهير فيقول تحت عنوان: "البهاء زهير ينشر في هذا العصر، إن كان في هذا العصر شاعر يصح أن يمثل البهاء زهيرا في سلاسة نظمه، وخفة روحه، ودقة شعوره، وجودة سبكه، واستحكام قوافيه التي يعرفها القارئ قبل أن يصل إليها، وإن التكلف لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه، فيكون محمدا العيد الذي أقرأ له القصيدة المرتين والثلاثة ولا أمل وتمضي الأيام وعذوبتها في فمي"[5]. هذا كلام الأمير رحمه الله وهو جزء من قطعة نشرت بخطه في مجلة الشهاب ج: 1، م: 13، 1356 هـ . 1937م، وفي هذه القطعة يثني الأمير ثناء جميلا على شعر (محمد العيد) ويشبهه بشعر الشاعر الرائع بهاء الدين زهير الذي يعرفه الأدباء والشعراء بسلساله الرائق ونميره العذب ومورده الفرات، وشهادة الأمير هذه يعتز بها كل جزائري أصيل يشعر بفخر بانتمائه إلى هذه الأمة ولسانها المجيد.

وهذه شهادة أخرى وثناء آخر من عالم ضليع في العربية وهو رائد الأدباء وأمير البيان المغاربي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله يقرظ بها شاعرنا العظيم (محمد العيد)، يقول: " شاعر مستكمل الأدوات، خصيب الذهن، رحب الخيال، متسع جوانب الفكر، طائر اللحمة، مشرق الديباجة، متين التركيب، فحل الأسلوب، فخم الألفاظ، محكم النسج ملتحمه، مترقرق القوافي، لبق في تصريف الألفاظ وتنزيلها في مواضعها، بصير بدقائق استعمالات البلغاء، فقيه محقق في مفردات اللغة علما وعملا، وقاف عند حدود القواعد

2- ينظر: ملامح المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة، مذكرة ماجستير في أدب الحركة الوطنية الجزائرية ، إعداد: الطالب إبراهيم لقان، إشراف : أ د يحيى الشيخ صالح، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري . قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية: 2006 . 2007، ص: 2، نقلا عن كتاب: محمد العيد آل خليفة . دراسة تحليلية لحياته، محمد بن سمينة، ص: 7/ 9.

3- ينظر: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، عمر بن قينة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2000، ص: 81.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص: 80.

5- ديوان محمد العيد آل خليفة، محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، (دط)، الجزائر، 2010، ص: 8.

العلمية، محترم للأوضاع الصحيحة في علوم اللغة كلها، لا تقف في شعره- على كثرته – على شذوذ أو رخصة أو تسمح في قياس، أو تعقيد في تركيب، أو معاظلة في أسلوب، بارع الصنعة في الجناس والطباق وإرسال المثل والترصيع بالنكت الأدبية والقصص التاريخية"[6].

إن شعر (محمد العيد آل خليفة) رحمه الله كان مرآة صادقة لتدينه وتقواه ومبادئه وأخلاقه، وكان تعبيرا صادقا عن خطه الإصلاحي خط جمعية العلماء المسلمين الذي تمثله المبادئ الثلاثة: الهوية الإسلامية، والعروبة، والوطنية. فلقد كانت مبادئ الشاعر تقف دائما وراء شعره، فلقد خلا شعره من سفساف القول وفضول الكلام، واتسم دائما بالجدية والعملية، وفي هذا يقول الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله: " ومن يعرف (محمد العيد) ويعرف إيمانه وتقواه وتدينه وتخلقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره إنما هي من آثار صدق الإيمان وصحة التخلق ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء"[7].

3 . أدب المقاومة في الجزائر إبان الاحتلال:

أدب المقاومة "هو الأدب الذي يصور مقاومة الشعوب للاحتلال والاستعمار، وغالبا ما يشتمل هذا الأدب على أبعاد رئيسية ثلاثة: البعد الإنساني والقومي والاجتماعي"[8] وأدب المقاومة نبع في الجزائر ليندد بالسيطرة الاستعمارية التي قوضت الوجود الثقافي للشعب وأنكرت واقعه القومي، فأدب المقاومة يدعو الشعب بأسره إلى النضال، فهو أدب نضالي لأنه يلهم الوعي القومي وينيره ويرسم حدوده، ويتيح أمامه مجالات جديدة لا حدود لها[9]. والحقيقة أن الشعب الجزائري، وإن قهره الاستعمار بقوة الحديد والنار، لم تنطفئ في جوانحه روح المقاومة، فقد وقف في وجه الاحتلال منذ أن وطئت أقدامه هذه الأرض الطاهرة، فتجسدت الروح الإسلامية المقاومة في البداية في شكل مقاومات مسلحة، كمقاومة الأمير عبد القادر والباي أحمد، والشيخ الحداد ولالة فاطمة نسومر وثورة أولاد سيدي الشيخ وغيرها، لكنها مع مطلع القرن العشرين اتخذت شكلا جديدا عرف بالمقاومة السياسية، حيث كان مضمارها الصحف التي كانت تصدر في الجزائر، وقد وجد الأدباء في هذه الصحف أرضا خصبة لنشر أدبهم المقاوم بلغة المستعمر وباللغة الوطنية الأصيلة أي اللغة العربية، ومن أبرز من مارسوا المقاومة الثقافية الأدبية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كانت تمثل المرجعية والأصالة لهذا الشعب المقاوم، فانبرى كتابها وأدباؤها

6- المرجع نفسه، ص: 6.

7- المرجع نفسه، ص: 6.

8- المعجم الأدبي، نواف نصار، دار ورد، ط: 1، الأردن، 2007، ص: 11.

9- ينظر: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، عبد العزيز شرف، دار الجيل، ط: 1، لبنان، 1991، ص: 65.

يكتبون ويفضحون خطط المحتل الغاشم ولعل أشهرهم في مجال الأدب الكاتب العملاق الشيخ البشير الإبراهيمي، والشاعر العظيم محمد العيد آل خليفة . رحمهما الله برحمته الواسعة.

وأدب المقاومة في الجزائر بدأ باكرا، فمع سكوت آخر رصاصة في مرحلة المقاومات الأولى، حتى تكلم القلم واستلم الراية، وانبرى الكتاب والشعراء يفضحون خطط المحتل ويكشفون عن المواضع التي يضع عليها عينه مثل مسألة اللغة العربية، وقضية الانتماء الحضاري للأمة الإسلامية، وقضية البعد العروبي، ومسألة الهوية الوطنية، والشخصية الجزائرية التي ترفض الإدماج، ومسألة التفريق بين أبناء الشعب سواء على أساس الإثنية العرقية، أو على أساس الانتماء الصوفي الطرقي، وقد استطاع المحتل الظالم أن يستخدم مريدي بعض الطرق في صفه حتى بعد شروق شمس الجهاد المسلح، وهكذا كان الأدب وراء فضح المحتل ومقاومته بالتلميح والترميز أحيانا، وبالإفصاح والتوضيح أحيانا أخرى.

4 . نماذج من شعر المقاومة الثقافية عند محمد العيد:

الشاعر محمد العيد آل خليفة حمل همّ القضية الجزائرية وهمّ العروبة والوطن وهمّ القضايا الإسلامية عموما في شعره منذ باكورة شعره، ولم يعرف شعره نزعات الهوى ونزغاته، ولا مال بشعره إلى ما يميل إليه الشباب في سنه من غزل ونسيب وتشبيب بالنساء، ولكن شعره كان كما وصفه الشيخ البشير الإبراهيمي حين قال: رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها، وفي كل طور من أطوارها، وفي كل أثر من آثارها، القصائد الغر، والمقاطع الخالدة، فشعره . لو جمع . سجل صادق لهذه النهضة، وعرض رائع لأطوارها[10]. وقد تحققت أمنية الشيخ البشير فطبع الديوان بعد الاستقلال على نفقة وزارة التربية الوطنية يوم كان على رأسها الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي الذي كتب تقديما للديوان، وبين يديّ من الديوان نسختان، إحداهما من طبع دار الهدى بعين مليلة سنة 2010 ولم يذكروا رقم الطبعة، والنسخة الثانية من طبع المؤسسة الوطنية للكتاب، وقد حملت رقم الطبعة الثالثة ولم تذكر تاريخ الطبع، ولكن تبدو متأخرة عن طبعة دار الهدى لأنها تضمنت تقديم الدكتور عمر بن قينة معنونا بتقديم الطبعة الثالثة. والظاهر أن الطبعة الأولى كانت سنة 1965 بدليل أن الشاعر كتب مقطوعة بعنوان (اعتراف بالجميل) أرخ لها بتاريخ 10 شعبان 1385هـ الموافق لـ 8 ديسمبر 1965م قال فيها:

سيحمد ديواني ل(أحمد طالب) يدا منه طولى قدمته لينشرا
تحمل أعباء الوزارة قادرا فأورد عن رأي سديد وأصدرا

10- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق) ، ص: 7.

ووكل بالديوان أكفأ نخبة بتبصرة أعطى بها القوس من برى

لقد أدلجت والصدق رائد ركبها فلا ريب عند الصبح أن تحمد السرى[11]

والديوان كما في طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب يتكون من 593 صفحة، وهو مرتب على حسب الموضوعات دون مراعاة التواريخ ولا أحرف الهجاء، فقسم للأدبيات والفلسفيات، وقسم للإسلاميات والقوميات، وقسم للأخلاقيات والحكميات، وقسم للاجتماعيات والسياسيات، وقسم للزوميات، وقسم للإخوانيات، وقسم للثوريات، وقسم للذكريات، وقسم للمتفرقات، وقسم للأناشيد. وفي هذا المبحث سأحاول أخذ نماذج من شعره تعبر عن روح المقاومة المتوثبة في نفس الشاعر منذ كان شابا، فقد عاش بهذه النفس الحرة التواقة إلى شمس الحرية، إلى أن أشرقت على هذه الربوع الأنيقة الجميلة، ورفرف فوقها علمنا الأخضر البديع، بألوانه الزاهية المشرقة، وتحققت أمنية الشاعر الكبرى، فقد عاش شاعرنا حاملا بين جوانحه نفسا ثورية مكتومة، ولكنها كانت تتنفس في شعره تارة رمزا وإيحاءا، وتارة تظهر سافرة في عبارات ظاهرة معبرة عن روح المقاومة الثقافية الشعرية. يقول الدكتور عمر بن قينة: "كان الشاعر (محمد العيد) ذا دور معتبر، وصاحب كلمة واعية، وذا ضمير وطني إنساني حي "[12] ؛ ثم يردف قائلا: " و(محمد العيد) الشاعر لم يخرج قط عن موروثه الحضاري العام، إيمانا صادقا في القول وتعبيرا شعريا عن قناعة وموقف وانفعال، وقد صارت وظيفة الشعر عربيا عموما وجزائريا خصوصا وظيفة نضالية في مسيرة الكفاح السياسي من أجل الحرية والاستقلال"[13].

والمقاومة الثقافية في شعر (محمد العيد) يلمسها الدارس لشعره في كل الفنون الشعرية التي نظم فيها الشاعر، حتى في القصيدة التي استهل بها الديوان وكتبها كمقدمة له واستهلال وهي بعنوان: "فاتحة ثناء وابتهال" يثني فيها على الله عز وجل ويشكره ويسأله العون، ويختمها بالصلاة على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وفي هذه القصيدة لا ينسى دوره النضالي فيقول مبينا الغاية التي سخر شعره من أجلها:

جعلت الشعر في الدنيا نجيي فكان لخاطري كالترجمان

ولم أكفف عن استنهاض شعبي به لأراه في أعلى مكان

لذاك رجوت أن يبقى كذخر لشعبي رافعا للذكر باني[14]

11- ديوان محمد العيد آل خليفة، محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 3، الجزائر، (دت) ، ص: 587.

12- المرجع نفسه، ص: 5 من المقدمات.

13- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

14- ديوان معمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)، ص: 9.

أما قصيدة الإهداء التي أهداها إلى شعب الجزائر البطل الثائر، وهي ثاني قصيدة تتصدر الديوان، يقول في أولها:

تحرر من أمسه القاهر   وهب إلى غده الزاهر

ثم يقول عن دور الشعر النضالي في المقاومة الثقافية:

لقد بذر الشعر فيه الفدى   وحسبك بالشعر من باذر

وما الشعر إلا شعور سما   خيالا بإيحائه الساحر

يهز النفوس بتياره   فتسمو إلى الأوج كالطائر

أذبت عليه حشا مهجتي   وما كل من طرفي الساهر

وعرضت نفسي لأخطاره   بما ليس يعرض بالخاطر

وقفت على الشعب جهدي به   وكرست عمري إلى الأخر

فديوان شعري بمرآته   جلا غابر الشعب للحاضر

إن الشاعر يبين لنا في وضوح وجلاء رسالته الشعرية، تلك التي نأى فيها عن سفساف القول، وارتقى بها إلى القول الجاد المجاهد الذي يستنهض الهمم، ويبعث الحياة في الخشب، فلم يكن ينظم الشعر لأغراض فنية، بل كان شعره مقاوما للاستعمار وخططه التدميرية التي أراد بها إنهاء الإسلام والعربية من هذا البلد، وإلحاقه بالغرب مسخا لا يصلح لشيء، وكما قال هو عن نفسه، فلقد جعل شعره وقفا على الشعب، وكرس حياته، وأفنى عمره، وأذاب مهجته ونور عينيه من أجل أن يحيا هذا الشعب كريما بدينه ولغته وانتمائه الحضاري. أما في شعره التأملي[15] الفلسفي[16]، وهذا الشعر وإن كان ينحو نحو الحكمة والتدبر في الكون وما يحيط بالشعر من مظاهر الحياة وتقلباتها إلا أن الشاعر في هذا النوع من الشعر، يطالعنا أحيانا بما يوحي بوعيه بدوره النضالي المقاوم، ففي قصيدة أسطر الكون وهي من قصائده التي نظمها في شبابه، ومطلعها:

سئمت على شرخ الشباب حياتي   فحرت ولم أملك علي ثباتي[17]

وهي قصيدة تأملية فلسفية يتحدث فيها الشاعر عن تأملاته في هذا الكون ويصف

15- التأمل : حالة من الاستغراق الذهني في عملية جد واعية لتداعي الصور والأفكار. ينظر: المعجم الأدبي جبور عبد النور، دار العلم للملايين، ط: 2، لبنان، 1984، ص: 57.

16- الشعر الفلسفي هو الذي يتضمن حكمة مفيدة، تألفها النفوس، وترتاح لصدق القول فيها، وما أتت به من التجارب منها. ينظر: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ط: 2، لبنان، 1984، ص: 214.

17- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)، ص: 17.

الكثير من مظاهر البؤس والفاقة والحرمان التي كان الشعب يعانيها ويقاسيها ويتجرع علقمها، فكان الشاعر وهو يتأمل في صفحات الكون يشده إلى شعبه ومعاناته شعور خفي لا يستطيع الفكاك منه، فيدفعه إلى السأم من الحياة التي كان يحس نفسه فيها سجين أغلال القهر والذل، من طرف استعمار كبل الشعب بأغلاله، وحطم كل آماله، وأيسه من حاضره ومن العيش الكريم فوق أرضه، فالذي يحيا في تلك الأجواء الاستعمارية الخانقة بغازاتها وغبارها، فإنه لا جرم يجتاح نفسه القنوط واليأس، ويتمنى الموت ولو كان في يفاع العمر وريعان الشباب. ومع أن القصيدة كما أسلفنا قصيدة فلسفية ومع ذلك نجد الشاعر يغمز بمن يقفون ضد مصالح الشعب الحقيقية فيقول وهو يتحدث عن شعره:

وقوم رموها في غياهب جبهم   ويا كثر ما في الجب من حشرات

أذقتهم كأسا من السم علقما   وأوسعتهم طعنا بحد قناتي

وقلت لهم من يعش عن نفع قومه   أقيض له جيشا من الكلمات

فكلمات الشاعر هي لكمات موجعة يوجهها لمن لا يقفون مع قضايا الشعب وهذا من لب رسالة الشاعر النضالية المقاومة للاستعمار وأذنابه. وللشاعر قصائد يمكن تصنيفها ضمن الشعر الرمزي[18]، وهي قصائد تحمل في ظاهرها معنى لا يريده الشاعر، وإنما يغطي به على موضوع آخر ومن هذه القصائد قصيدة (أين ليلاي؟) التي مطلعها:

أين ليلاي أينها   حيل بيني وبينها[19]

فهذه القصيدة صاغها الشاعر في شكل غزلي، لكن من يعرف الشاعر وتربيته الدينية، وأخلاقه الإسلامية، وأهدافه النضالية، وروحه الوطنية، ومشاعره القومية، ومن يعرف آماله وتطلعاته، يدرك بلا شك أن هذه قصيدة رمزية، وأنه يرمز بليلاه إلى ليلى أخرى، وهذا ما دفع الإمام المجدد عبد الحميد بن باديس إلى التعقيب على هذه القصيدة في مجلة الشهاب التي نشرت فيها بقوله: " إن محمد العيد الذي يشعر شعور الشعب، ويتخيل خيال

18- الرمزية هي تقديم الموضوعات والأفكار بواسطة الرموز، أو إعطاء الأشياء معنى وطابعا رمزيا. ينظر: معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، (دط)، تونس، 1986، ص: 172. ومن تعريفات الرمزية أيضا أنها: كل اتجاه في الكتابة فيه استعمال الرمز إما بذكر الملموس وإعطائه معنى رمزيا، أو بالتعبير عما هو مجرد من خلال تصويرات حسية مرئية. ينظر: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب (مرجع سابق)، ص: 181. وتعرف الرمزية أيضا بأنها: اتجاه فني تغلب عليه سيطرة الخيال على ما عداه سيطرة تجعل الرمز دلالة أولية على ألوان المعاني العقلية، والمشاعر العاطفية، حيث يترجم الشاعر أفكاره ومشاعره إلى إشارات تعبر عن المعاني والعواطف بالصورة الرامزة فقط. ينظر: المعجم الأدبي، (مرجع سابق)، ص: 126.

19- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)، ص: 41

الشعب... لا تفتنه وهو البلبل الغريد في قفص إلا الحرية "[20].

وفي ديوان الشاعر قصائد كثيرة تدخل ضمن شعر المناسبات[21]. وقد تناول الشاعر عدة مناسبات دينية وغير دينية، وفي كل قصيدة تلحظ روح المقاومة الوطنية متطلعة وثابة مستوفزة متحفزة تود لو تنقض على جموع الغاصبين فترمي بهم في البحر الذي جاء بهم، أو ترمي بهم في أتون نار تلظى تشوي عظامهم ووجوههم، ففي قصيدة له قالها بمناسبة المولد النبوي الشريف، عنواها: (ذكرى المولد النبوي[22])، أنشدت هذه القصيدة في احتفال بالمولد النبوي أقامته جمعية الشبيبة الإسلامية بنادي الترقي على عادتها، ونشرت في جريدة البصائر سنة 1937م. في هذه القصيدة ظاهر وباطن، أما الظاهر فسرد لسيرة الرسول . صلى الله عليه وسلم . أما الباطن فحقد على الظالمين ودعوة للثورة عليهم، كما أن فيها تحفيز ديني يستميل عواطف الناس للتمسك بالعربية لغة الإسلام ولغة النبي . صلى الله عليه وسلم . الذي يحبه الجزائريون حبا عظيما فيقول:

نحي داعي الحسنى   نحي راعي الضاد

وهو يقصد أن النبي . صلى الله عليه وسلم . كان حاميا للضاد، أي اللغة العربية، فإذا كان الشعب يحبه حقا، ويحتفل بموله حبا، فعليه أن يحمي اللغة العربية من مخططات الفرنسيين الصليبيين الحاقدين، وبعد حديث عن سيرة الرسول الأعظم . صلى الله عليه وسلم ، ينتهي إلى مساءلة التاريخ عن أمجاد المسلمين:

ألا يا حبذا ذكرى   أقمناها لميعاد

بها نستعرض التاريخ   من خاف ومن باد

ثم يمضي في مساءلة التاريخ في تسعة عشر بيتا، إلى أن يصل إلى مخاطبة جمهور الشعب يستنهض همته، فيقول:

فردوا مجد ماضيكم   وحوطوه بأرصاد

وقوا أنفسكم نا   ر عداوات وأحقاد

يزيد الخصم إيقادا   لها من بعد إيقاد

20- المرجع نفسه، ص: 42. نقلا عن مجلة الشهاب، ج: 7، و14، في سبتمبر 1938.

21- شعر المناسبات شعر يكتب أو يقال خصيصا لمناسبات معينة، هي عادة الاحتفال بذكرى بحدث اجتماعي أو تاريخي أو أدبي، أو ديني، وقد يكتبه الشاعر بمحض إرادته، أو بتكليف رسمي. ينظر: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، (مرجع سابق)، ص: 215. وينظر أيضا: معجم المصطلحات الأدبية، (مرجع سابق)، ص: 219.

22- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)،ص: 72.

أتنشقون أضدادا   وما أنتم بأضداد؟
فلستم غير أعضاء   على الإصلاح أعضاد
أجيبوا كل إبراق   من الباغي بإرعاد
ولا تعنوا لظلام   ولا تحنوا لجلاد
بغت واستكبرت عاد فلم تغلب أخا عاد
دعا الله فلباه   بإنجاء وإنجاد
وقيسوا الأمر إصدارا   من الدنيا بإيراد
أعدوا نشأكم للخير   فيها خير إعداد[23]

ومن أجود قصائد الشاعر، التي تظهر فيها المقاومة الثقافية واضحة جلية، قصيدة وجهها الشاعر إلى الشباب، ناهيا إياهم عن الذوبان في الغرب، داعيا إياهم إلى إحياء الروح الشرقية العربية الإسلامية في نفوسهم، دافعا إياهم إلى امتطاء المعالي، وركوب الأمجاد، والطير على أجنحة العز إلى أبراج الخلود، والنهوض من سبات الأماني والأحلام الجميلة، إلى أرض الواقع الصلبة، وقدّ صخورها لبناء صروح الحضارة العربية الإسلامية الجديدة يقول فيها:

أنت من عنصر الخلود لباب   كن إلى المجد طامحا يا شباب
لك دين على الزمان عزيز   يُبذل المال دونه والرقاب
لك ماض ما مثله قط ماض   تتباهى بمجده الأحقاب
ولسان لم يدن منه لسان   وكتاب لم يدن منه كتاب
يا شباب اتجه إلى الشرق واحفظ   كل كنز له إليه انتساب
إنما الشرق نسبة العرب الأحرار لم تنقطع لها أسباب
إنما الشرق للعروبة كهف   آمن الظل بالأذى لا يصاب
فادرس الكتب باحثا عن معاليك وسل صحفها ففيها الجواب
وتنكب عن السراب فما يغنيك شيئا عن الشراب السراب
ساءنا من شبابنا ناشئات   طائشات تغرها الألقاب
عاكفات على مذاهب سوء   وفساد كأنها أنصاب

23- المرجع نفسه، ص: 75.

نتمنى لك الثبات على الرشد وما أنت عندنا مستراب

نتمنى بالدين أن تتحلى   من تحلى بالدين لا يعاب

إنما الدين لليوث عرين   لا تغرنك بالعواء الذئاب

فاشأ للمجد طائرا في مجاليه طليقا كما يطير العقاب

هذه الأرض سوف تنبت عزا   إن تصافت في ظلها أحزاب

أيها الشعب أنت موضع شعري   وشعوري لا زينب لا رباب

أيها التاعبون في عمل الخير ستأتي بأجرها الأتعاب

اصمدوا للعدى وإن ضايقوكم   لا تهابوا من العدى لا تهابوا[24]

هذه القصيدة البديعة تقطر ثورة وتحد، تكاد تميز من الغيظ، ترى الشرر يتطاير من جنباتها، وإن تكن جاءت في كلمات هادئة وادعة مسالمة، إلا إن بداخلها نارا تلظى، فلا يظهر للمتعجل إلا كلمات عابرة تعبر عن شجون شاعر، لكن المتمعن يدرك عمق الكلمات ومدلولاتها: فهو يقول للشباب أنت من عنصر الخلود معدنك فكيف يليق بك أن تستسلم للعدو وتنصاع إلى مغرياته وتذوب في حضارته الشيطانية الزائفة، ثم يحفز فيه روح المتوثب المستوفز المتحفز الذي يهم بالقفز ليحطم عدوه ويأخذ فريسته، فيقول:

كن إلى المجد   طامحا يا شباب

وما المجد الذي يريده الشاعر إلا مجد الأولين، وهذا لا يكون أبد إلا باسترداد الأرض السليبة، واستعادة الوطن المستباح. بعد هذا التحفيز يدعو الشاعر الشباب إلى التمسك بمبادئ جمعية العلماء التي تحارب فرنسا ولا تزال في حرب مع أبنائها إلى اليوم، فيدعوه إلى التمسك بالإسلام والعربية والانتمائي الحضاري للشرق الإسلامي، فيقول:

لك دين على الزمان عزيز   يُبذل المال دونه والرقاب

لك ماض ما مثله قط ماض   تتباهى بمجده الأحقاب

ولسان لم يدن منه لسان   وكتاب لم يدن منه كتاب

يا شباب اتجه إلى الشرق واحفظ   كل كنز له إليه انتساب

إنما الشرق نسبة العرب الأحرار لم تنقطع لها أسباب

إنما الشرق للعروبة كهف   آمن الظل بالأذى لا يصاب

ثم يدعو الشاعر الشباب إلى ما يحقق له الأمجاد فعليا ألا وهو العلم، هذا العلم ينبغي

24- المرجع نفسه، ص: 237.

أن يدرسه ويأخذه من مظانه، وهي الأمهات في كل باب من أبواب العلم، وأن لا يقنع بكاذبات الأماني التي سماها الشاعر سرابا، فالفرق شاسع بين الموارد العذبة والمناهل السلسبيل والمجاري الفرات، وهذه مراجع الكتب العلمية، وبين سراب ووهم يعده به شيطان الاستدمار، ليوقعه في الغفلة ويلهيه بالشهوات من خمر ونساء وقمار كما يفعلون في باراتهم مع نسائهم ونساء أصحابهم لا يغارون على حرمهم، قد قتلت الدياثة فيهم روح الرجولة فماتت، فما يبالي الواحد منهم ما فعلت امرأتهم ولا مع من، يقول الشاعر:

فادرس الكتب باحثا عن معاليك وسل صحفها ففيها الجواب

وتنكب عن السراب فما يغنيك شيئا عن الشراب السراب

ثم يحذر أولئك الذين تأثروا بخطط الاستدمار، واستطاع العدو أن يستدرجهم إلى أوكار الفساد، وشوه أفكارهم، ولوث فطرهم، فيدعوهم الشاعر إلى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا إلى وعيهم، فيقول:

ساءنا من شبابنا ناشئات طائشات تغرها الألقاب

عاكفات على مذاهب سوء وفساد كأنها أنصاب

نتمنى لك الثبات على الرشد وما أنت عندنا مستراب

نتمنى بالدين أن تتحلى من تحلى بالدين لا يعاب

إنما الدين لليوث عرين لا تغرنك بالعواء الذئاب

وفي الختام يدعو مجددا إلى طلب المجد، فهذه الأرض مزرعة خير وأمجاد، وهي أرض عزيزة منيعة لا تخضع لجبار عنيد، ويدعو أصحاب العمل الدعوي إلى مواصلة الجهود دون كلل ولا ملل ، وأن لا يعبأوا بمضايقات المستوطنين والإدارة الاستدمارية، فيقول:

فاشأ للمجد طائرا في مجاليه طليقا كما يطير العقاب

هذه الأرض سوف تنبت عزا إن تصافت في ظلها أحزاب

أيها الشعب أنت موضع شعري وشعوري لا زينب لا رباب

أيها التاعبون في عمل الخير ستأتي بأجرها الأتعاب

اصمدوا للعدى وإن ضايقوكم لا تهابوا من العدى لا تهابوا[25]

وبالجملة فهذه القصيدة مثال على قصائد (محمد العيد)، التي إذا قرأتها قراءة سطحية وجدتها مجرد مواعظ باردة، فإن أنت تعمقت فيها عرفت أن تحت الرماد وميض نار، وأن تحت تراب القصيدة أتونا مشتعلة، توشك أن تلتهم كل شيء أمامها. لذلك لم

25- المرجع نفسه، ص: 237.

تتفطن فرنسا إلى خطورة أشعاره إلا بعد قيام الثورة المباركة، فألقي عليه القبض، وقدم للمحاكمة، وكان اتجاه المحكمة نحو إعدامه، ولكن الله تعالى أراد نجاته منهم، فاستطاع محاميه أن يؤثر على هيئة القضاة، وقال لهم: متى كانت الجمهورية الفرنسية، والقضاء الفرنسي يقتل من أجل الكلمة والرأي، فعدل عن قتله، وحكم عليه بالسجن، ثم بالإقامة الجبرية، إلى أن فرج الله كربته بالاستقلال والحرية.

5 . الخاتمة:

إن الشعب الجزائري شعب مقاوم، رافض لكل أنواع الضيم والإكراه بجبلّته، ولكونه شعبا مسلما فإنه لم يتقبل الدخيل الذي جاء يأخذ أرضه وينتهك عرضه، ويحطم بنيانه، ويزلزل أركانه، ويهدم دينه، ويبعد ويحارب لغته، ويمحو شخصيته، ويقطع صلته بأبناء أمته الكبيرة والصغيرة، لذلك لم تتوقف المقاومة المسلحة في الجزائر طيلة القرن التاسع عشر، ولكنها مع مطالع القرن العشرين اتخذت شكلا جديدا، إنها المقاومة السياسية والفكرية والأدبية، وكان مضمار المعركة الصحف الصادرة في الجزائر باللغة الوطنية العربية أو بلغة المستدمر، وقد نتج عن هذا الوضع الجديد ظهور مجاهدين بأقلامهم، كانوا سببا في فضح مخططات الاستدمار، وكشف كيده وتلاعباته بالقضية الوطنية، ومن بين الأدباء الشعراء الذين ظهروا في هذه المرحلة الشاعر المجاهد (محمد العيد آل خليفة).

لقد كان الشاعر (محمد العيد) متشبّعا بمبادئ جمعية العلماء المسلمين التي كان أحد أعضائها المؤسسين، وقد ظهرت هذه المبادئ في شعره بجلاء، من خلال دفاعه عن الإسلام، واللغة العربية، والهوية الوطنية، والانتماء الحضاري للأمة الإسلامية والعربية، كما كان يدعو أبناء الجزائر إلى التمسك بهذه المبادئ في كل مناسبة من المناسبات.

وقد خلا شعر (محمد العيد) من الغزل والتشبيب بالنساء حتى في باكورة شعره، لأن الشاعر شعر وأحس بهموم شعبه منذ شبابه وبداياته الشعرية الأولى، فكان منصرفا عن مراتع اللهو، ومقاصف المجون، وما يتقصده الشباب عادة من التعلق بالإناث عند تفتح الغريزة الجنسية، وما يحدث في الجسم من تغيرات فيزيولوجية، وما يتبعها من تغيرات نفسية، وميول فطري نحو الأنثى، وكل هذه الأمور عالجها الإسلام قبل أن تقع المحاذير، فأمر الإناث بستر المحاسن مع البلوغ وعدم إبداء الزينة، ومنع الخلوة بين الذكر والأنثى، وفصل بين الجنسين، ليمنع وقوع الكوارث الإنسانية، وشاعرنا (محمد العيد) قد تخطى هذه المرحلة مستظلا بظلال القرآن الوارفة، فلم يظهر في شعره شيء من الغزل والتصبي، ولكن شعره كله أوقفه على شعبه، يسر حيث يسر الشعب، ويحزن لحزنه، وقد أخذ على عاتقه رسالة التنوير والإصلاح، لإنقاذ الشعب من كيد الاستدمار الذي كان يمكر بالليل والنهار لإبعاد الشعب عن دينه ولغته وأمته، وربطه بفرنسا انتماء ووجودا.

كان الشاعر (محمد العيد) يحمل في جوانحه نفسا ثائرة، وكان بداخله نار انعكست على حياته وشعره، وفرضت عليه حزنا دفينا، فكانت النار التي يحملها حقدا على الكفار الصليبيين قد تحولت إلى نار في شعره، ولكنها نار مدفونة تحت تراب الكلمات والعبارات، تحتاج إلى حفريات ذكية للوصول إلى طبقتها والكشف عنها، فالشاعر كان يبدو لطيفا في كلماته، ربما لأن القبضة الاستدمارية الحديدية جعلته ينأى عن التصريح إلى التلميح في أكثر الأحيان، حتى يتجنب العراقيل، والحيلولة دون أداء رسالته.

تنوعت الأغراض في شعر (محمد العيد)، وتعددت الموضوعات، ورغم ذلك كله فلا تكاد تجد قصيدة في الديوان تخلو من تحريض مبطن، أو رفع للمعنويات الوطنية، أو دفاع عن القيم الإسلامية، أو تجسيد لمبادئ جمعية العلماء، فكل ديوانه دفع نحو الثورة، وتوق إلى شمس الحرية ونسيمها العليل، فكأن الدنيا بما رحبت كانت على الشاعر سجنا محكم الغلق مفتول القضبان، وكأنه مختنق لا يجد هواء يستنشقه، فشعره يدل على روح مقاوم، ونفس مناضل، ويدل على نار الثورة تتأجج بداخل الشاعر، يكتمها حينا، وتنفلت منه أحيانا في عبارات لا تحتمل تفسيرا إلا التحريض على الثورة، فتجده يغلفها حينا بألفاظ العمل الخيري ومثيلاتها، وأحيانا تجدها عبارات سافرة صاعقة لجماعات المعمرين وإداراتهم.

إن المقاومة الثقافية في شعر (محمد العيد)، تبدو للمتأمل المدقق حاضرة في كل شعره، هذه المقاومة الثقافية كان لها دور بارز في إفساد مخططات فرنسا في الجزائر، والتي لا تزال مستمرة إلى اليوم على أيدي أبناء (فافا)، الذين يسهرون على مصالحها في بلادنا، وقد توصلت تلك المخططات إلى ما لم تتوصل إليه إبان الاحتلال، وقد يكون ذلك راجع إلى اطمئنان الكثير من المثقفين بعد الاستقلال، فالوضع مختلف، فلا فرنسا حاضرة بوضوح، ولا عساكرها تجوب البلاد، ولا أعلامها ترفرف فوق الربوع، مما يجعل المثقفين يركنون إلى الدعة والخمول، بدل مقاومة الأفكار المسمومة التي تزرعها فرنسا عبر أبنائها في عقول الناشئة، لكن إبان الاحتلال كان مجموع الشعب يشعر بالمذلة والهوان، ويعلم أنه شعب مغتصب، وأرضه مغتصبة، فلا حرمة له ولا مكانة، ويعلم كل الشعب أن لا سبيل إلا بالمقاومة، لذلك آتت المقاومة الثقافية أكلها في الثورة المباركة المجيدة التي كلل الله مجهوداتها بالحرية والاستقلال.

6 . المصادر والمراجع:

- أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، عمر بن قينة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2000.
- ديوان محمد العيد آل خليفة، محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، (دط)، الجزائر، 2010.

- ديوان محمد العيد آل خليفة، محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 3، الجزائر، (دت).
- الشعر الجزائري الحديث – اتجاهاته وخصائصه الفنية، محمد ناصر، دار الغرب الإسلامي، ط: 2، لبنان، 2006
- قاموس الأدباء والعلماء المعاصرين، محمد بوزواوي، دار مدني ، (دط)، الجزائر، (دت).
- المعجم الأدبي جبور عبد النور، دار العلم للملايين، ط: 2، لبنان، 1984.
- المعجم الأدبي، نواف نصار، دار ورد، ط: 1، الأردن، 2007
- معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، (دط)، تونس، 1986.
- معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ط: 2، لبنان، 1984.
- المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، عبد العزيز شرف، دار الجيل، ط: 1، لبنان، 1991.
- ملامح المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة، مذكرة ماجستير في أدب الحركة الوطنية الجزائرية، إعداد: الطالب إبراهيم لقان، إشراف: أ د يحي الشيخ صالح، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري . قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية: 2006 . 2007.

حمزة بكوشه
نشاطه التربوي والاصلاحي
(1994-1907)
Hamaza Bakoucha,
hiseducational and reformactivities
(1907-1994)

د/ محمد الطيب رزوق

المدرسة العليا للأساتذة مسعود زغار سطيف

medtayeb039@Gmail.com



ملخص: تتمحور هذه المداخلة عل إبراز شخصية تربوية إصلاحية من منطقة وادي سوف ممثلة في شخص حمزه بكوشه (شنوف) ونشاطه التربوي والإصلاحي بداية بالمولد والنشأة، دراسته الأولى، نشاطه بالجزائر، أدواره المتنوعة سواء كانت صحفية أو أدبية أو نضالية، في الأخير تعرضت لبعض من مؤلفاته. لأتوصل في ختام هذا البحث إلى استنتاج مفاده أن حمزة بوكوشه يعد علم من أعلام وادي سوف خاصة والجزائر عامة، تمكن من أن يرتمي في أحضان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ نشأتها ويكون من الفاعلين فيها.

الكلمات المفتاحية: حمزة بكوشة؛ النشاط الاصلاحي؛ النشاط التربوي؛ النشاط الأدبي؛ نضاله.

Abstract :

This intervention focuses on highlighting a reformist educational figure from the Oued Souf region represented in the person of Hamza Bakoucha (Chenouf) and his educational and reform activities beginning with birth and upbringing, his first study, his activity in Algeria, his various roles, whether journalistic, literary or militant, in the last I was exposed to some of his writings. At the end of this research, I came to the conclusion that Hamza Boukosha is one of the flags of Wadi Souf in particular and Algeria in general, who was able to fall into the arms of the Association of Algerian Muslim Scholars since its inception and be one of the actors in it.

Keywords: Hamza Bakoucha; reform activity; educational activity; literary activity; his struggle.

1.مقدمة

إن حمزة بوكوشه من القلائل الذين جاد بهم الزمان، في وقت كان العلم تجارة بائرة لا تجلب المنفعة المادية لصاحبها، وبذلك امتطى بكوشة ذروة شامخة في الحركة الإصلاحية بوّأته المكانة التي يستحقها، وجعلته رقما مهما يستحق الدراسة التاريخية، مثله مثل العديد من الدراسات التاريخية السالفة التي تناولت موضوع الحركة الإصلاحية في الجزائر، خاصة أشخاصها البارزين من أمثال الشيخ ابن باديس والشيخ الإبراهيمي والشيخ التبسي، وفق مجال محدد للدراسة وهو اهتمام هؤلاء بالدين واللغة، على هذا المنوال كانت دراستي لهذه الشخصية، حيث عنونت هذه المداخلة بـ:(حمزة بوكوشه نشاطه التربوي والإصلاحي) تناولت في هذا البحث: المولد والنشأة، دراسته الأولى، نشاطه بالجزائر، أدواره المتنوعة سواء كانت صحفية أو أدبية أو نضالية، ثم في الأخير تعرضت إلى بعض من مؤلفاته وأخيرا وفاته.

اعتمدت في هذا البحث على جملة من المراجع أهمها كتاب للدكتور عاشوري قمعون من جامعة الوادي تحت عنوان :(العلامة الموسوعي حمزة بوكوشه) وكذا كتابات لمحمد الصالح رمضان في مجلة الثقافة (الجزائر 1995) العددين105-106 تحت عنوان: (حمزة بوكوشه العالم المصلح) وكتابين لـ: محمد الصالح الجابري الأول بعنوان: (رحلات جزائرية) والثاني بعنوان: (النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962). ويمكن في الأخير أن أسجل بعض الصعوبات التي اعترتني أثناء القيام بهذا البحث منها قصر المدة وقلة المادة.

2. المولد والنشأة:

حمزة بوكوشه هو ابن البشير بن احمد بن بوكوشه بن شنوف بن علي. هذه العائلة من عرش الأعشاش. تزوج البشير ثلاث نساء أولهنّ (مبروكه رزاق زحاف) من عرش المصاعبة فأنجبت له (الهاشمي) حاصل على شهادة التطويع من الزيتونه. و(الأمين) وعند وفاة الزوجة الأولى تزوج (مباركه مجور) من عرش الأعشاش فأنجبت له أربع أولاد وبنت وتوفت قبله بأربع سنوات، ثم بنى بـ(مريم بنت عمار حشيه) من عرش الأعشاش فولدت له (حمزة وفاطمة)(حيث ولد (حمزة) خلال عام 1907م بحي أم سلمى بالوادي. لقد كان حصول أولاد البشير على جزء من التعليم بسبب غنى والدهم الذي كان يمارس التجارة، ولكن بظهور الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929 رجع البشير إلى الوادي وأضحى عاجزا حتى على تسديد مصاريف تعليم أبناءه في الكتّاب، فتخلّفوا عن الدراسة مما جعل شيخهم ومعلمهم الطالب (العزوزي بن العيد قديري)[1] يستفسر عن غيابهم، وعندما عرف السبب أمره بإعادتهم

1- مدرس قرآن بالجامع ولد عام 1895 توفي 1963/01/09 بالوادي.

لمواصلة الدراسة بدون مقابل. وقد سلك معظم إخوته طريق التجارة باستثناء (المكي) الذي توقف عنها بمجرد استقلال البلاد وتوجه لسلك التعليم.

1.1- دراسته الأولى:

كان أبوه مولعا بحب العلم وكان له ارتباط وعلاقة مودة بالعالم الجليل الشيخ (المكي ابن عزوز)[2] الذي كان يكاتبه من الأستانة وكان يرسل له مؤلفاته من هناك وهكذا باشر البشير التعليم الأول لحمزة في الكتاتيب وأدخله خاله زاوية (سيدي سالم) بالوادي وسنه خمس سنوات، فحفظ القرآن وعمره أربعة عشر سنة أي عام 1920، بعدها التحق للعيش مع أبيه في مدينة بسكرة، وهناك أتمّ دراسته بالزاوية القادرية حيث كان أصغر التلاميذ بها رفقة صديقه (محمد العيد آل خليفة)، واستمر في ذلك التعليم مدة عامين. وعند بلوغه سن السابعة عشر من عمره توجّه إلى قبلة العلم جامع الزيتونة، حيث التحق بأخوه (الهاشمي) الذي كان مقيما هناك. كما كان يمرّ كل عام على بلدة (المتلوي) القريبة من (قفصة)، ليستلم من أحد تجار منطقة وادي سوف الزكاة ليوزع جزءا منها على طلبة جامع الزيتونة. وقد أمضى فيه ست سنوات حتى نال منه شهادة التطويع عام 1930م، وهي آخر ما يُمنح للطالب وقتئذ، حيث تلقى العلوم على يد شيوخ فخام مثل: الشيخ حسن بن يوسف[3]. توجه حمزة بكوشه بعد ذلك إلى الحياة الأدبية والصحفية في القطر التونسي، وشرع يكتب المقالات الصحفية وينشر القصائد في المناسبات المختلفة وهذا في مجلة التي تسمى (الوزير) لمؤسسها (الطيب بن عيسى)[4].

2- نشاطه التربوي والإصلاحي:

عند رجوعه إلى وطنه، نظّم دروسا للطلبة في بسكرة والوادي مدة. وقد أصيب بخيبة أمل لما لاحظه من جمود وجهل بحقيقة الدين والبدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، بعدها انتقل إلى الجزائر فاشتغل تاجر تمور، وصاحب بعض العلماء و الأدباء من أمثال (أحمد توفيق المدني)[5]، (عبد الرحمان الجيلالي) وزميله بالزاوية القادرية ببسكرة الشاعر

2- هو محمد المكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز ولد 1854، وتعلم بزاوية والده حفظ القرآن عمره11سنة، توجه إلى الزيتونة 1878 حتى تحصل على شهادة التطويع، ولي خطة الإفتاء في نفطة، ثم مدرسا بجامع الزيتونة 1890 من بين المتخرجين عنه عبد العزيز الثعالبي.

3- درس بجامع الزيتونة، صار مدرسا حنفيا من الطبقة الثانية عام 1905، ثم ارتقى الى مرتبة الطبقة الأولى 1942 وبعد انتهاء ح ع 2 اختير مفتيا على المذهب الحنفي.

4- الطيب بن عيسى(1885-1966) من أصل جزائري (قرية قريبة من البليدة)، ولد تونس درس بالزيتونة انشأ (المشير 1911) (الوزير1920).

5- من أصول جزائرية استوطن أهله تونس ولد عام 1899، درس بالزيتونة، انتمى للحركة الوطنية، أصبح عضو في الحزب الدستوري، نفي إلى الجزائر عام،1925 تولى عدة مناصب منها: وزير الثقافة في

(محمد العيد آل خليفة).

ولقد قام الشيخ بن باديس بدعوة الرجل لحضور المؤتمر التأسيسي لجمعية العلماء رفقة الوالد الذي تعذر عليه الحضور بسبب المرض. اكتفى الوالد بإرسال ابنه ممثلا له ولشخصه، وشارك الشيخ حمزة رفقة الشيخين (الأمين العمودي) و(عمار الأزعر) ممن حضر من وادي سوف، من ذلك الحين أضحى رئيس الجمعية يعول عليه كثيرا، وصار من أقرب مساعديه في التدريس، وبعد مدة عُيّن عضوا في اللجنة الممثلة للجمعية بوادي سوف. وبمرور الأيام صار الشيخ عضوا نشيطا عاملا في صفوف الجمعية؛ معلما في مدارسها وكاتبا صحفيا وناقدا أدبيا ومحللا سياسيا في أعمدة جرائدها، وعندما اشتكى الشيخ (محمد خير الدين)[6] من قلة الرجال لمساعدته همس له الشيخ عبد الحميد: "كيف تشكو قلة الرجال وبقربك أمثال حمزة بكوشه"[7]، كما دعي الشيخ للتدريس بالجامع الجديد، فقدّم فيه للحاضرين جميع متن الأربعين حديثا النووية[8]، وقد ذكر الشيخ حمزة أنّ الجمعية كلفته عام 1932م بإدارة مدرسة الإصلاح وتدريس اللغة العربية ب(دلس) بلاد القبائل بولاية بومرداس حاليا، ولما باشر مهامه زاره عام 1935 الشيخ (الطيب العقبي) بهدف تدعيم العلاقات بين رجال الإصلاح وجمعية العلماء، فخاطبه الشيخ حمزة بالقصيدة التالية :

يا بلبل الشرق ما أشجاك أشجاني ... قم ناج قلبي بتغريد وتحنان
فإن مثلي كئيب حل في شرك ... وأنت مثلي غريب بين أوطاني
لولا فروض علينا العلم يفرضها ... ما كنت ألقاك بل ما كنت تلقاني[9]

وقد تعرض الشيخ إلى المضايقات والمتابعة، بحجة أنه أجنبي عن المنطقة، وأنه يعلّم لغة أجنبية، كما أن الشيخ حمزة قد ارتبط بعلاقة مصاهرة مع إحدى العائلات القبائلية التي رغبت في تزويج ابنتهم (الضاوية زبيري)[10]. ثم عاد الشيخ إلى مدينة الجزائر، فاشتغل بتجارة التمور غير أنه لم يفلح. ويذكر الشيخ (محمد الحسن فضلاء) أن أحدهم دخل دكانه

الحكومة المؤقتة 1958 توفي عام1983

6- محمد بن خير الدين من مواليد 1902 ببسكرة، درس بها، ثم انتقل إلى قسنطينة أين واصل تعليمه، ليلتحق في سنة 1918 بجامع الزيتونة، حصل على شهادة التطويع سنة 1925، باشر التدريس بالمدارس الحرة، أسندت له مهام في جمعية العلماء توفي في 10-12-1993.

7- الزبير بن رحال: الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية.

8- محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح ج2. مطبعة دار هومه بالجزائر 200 ص 62

9- جريد الوزير عدد 442 بتاريخ 1935/08/22 المكتبة الوطنية التونسية، يسلي مقران: الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل(1920-1945)، دار الأمل للطباعة 2007 ص 204-205.

10- هي الزوجة الثانية بعد أن توفت الأولى ابنة عمه، مقابلة شفهية مع ابن أخت الشيخ حمزة المحامي الجيلاني شنوف بالوادي 2011/06/21 أجراها الدكتور عاشوري قمعون، أستاذ محاضر بمادة التاريخ جامعة الوادي.

وأخذ تمرة من كيس وأكلها فباغته الشيخ يقول: "يا آكل التمر إن التمر ممنوع"، وكان الشيخ محمد العيد جالسا ينظر فأكمل البيت: "إلا على رجل قد مسه الجوع"[11]. أُستدعي إلى البليدة فأقام فيها مدة يلقي الدروس والأحاديث في نادي التقدم، بمناسبة الاحتفال بتدشين النادي الذي أُسّس في البليدة في 24 نوفمبر1935، وألقيت في النادي خطب وكلمات، وافتتح الاحتفال الشيخ العقبي ثم ألقى الشيخ حمزة كلمة، وفي هذا اللقاء ألزمه الأستاذ العقبي على مسمع من الحاضرين وبطلب من جماعة النادي أن يكون محاضرا لهم مدة شهر رمضان لهذا العام[12].

ثم تحول الشيخ بعدها إلى مدينة تيزي وزو عام 1936 ليشرف على مدرسة الشبيبة التي أنشئت هناك، وعند وصوله التمس الرخصة من الإدارة الاستعمارية، غير أن السلطات منعته من القيام بتلك المهمة بعد إقامة طال أمدها متحججة بدعوى أنه عربي لاحق له العمل في بلد قبائلي[13] . خلال عامي 1936 و1937 عيّنه الشيخ عبد الحميد بن باديس معلّما بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، وأستاذا مساعدا له في إحدى فروع الجامع الأخضر[14] ، وهو مسجد سيدي بومعزة فكان جل وقته يعلّم التلاميذ الصغار في مدرسة التربية والتعليم ويعطي ساعة أو ساعتين لطلبة ابن باديس في مسجد سيدي بومعزة والمسافة بين المسجد والمدرسة قريبة جدا[15] . وقد مكث على هذه الحالة عاما واحدا تخرج على يديه كثير من الطلبة .

وفي عام 1937 أُوفد إلى مدينة ليون بفرنسا، بصفته واعظا ومرشدا للجالية الجزائرية هناك، وقام بإلقاء محاضرات ودروس توجيهية للعمال الجزائريين المهاجرين. يقول الشيخ حمزة: "انتخبت عضو مستشارا في مكتب جمعية العلماء، فأوفدتني الجمعية إلى فرنسا، كما أوفدت غيري من شبابها آنذاك؛ لمساعدة الشيخ الفضيل الورتلاني، فكنت ممن أُرسل إلى مدينة ليون، فمكثت بها سنة 1938م[16] . وقد التأم شمل نوادي التهذيب بفرنسا في شهر ديسمبر 1937م، وحضر ممثلو 35 فرعا، صادقوا في الاجتماع على برنامج جمعية العلماء، وتمّ تعيين الشيخ حمزة ممثلا للجمعية في مدينة ليون. وبعد عودته من فرنسا زار الشيخ

11- من أعلام الجزائر ج2 ص 63

12- الشهاب، م 11، ج9، رمضان 1345هـ /ديسمبر 1935م ص 521.

13- سمير سمراد: الشاعر الناقد حمزة بكوشه . جريدة الإصلاح، العدد التاسع (الجزائر :ماي وجوان 2008) ص 65

14- محمد الصالح الجابري: رحلات جزائرية دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان 2001، ص 7، ص139

15- محمد الصالح رمضان، حمزة بوكوشه العالم المصلح، الثقافة، العدد 105-106 (الجزائر :1995) ص101

16- سمير سمراد، مرجع سابق، ص 74

مسقط رأسه بالوادي ضمن وفد الجمعية، وبدأ في التبشير بالحركة التعليمية والتهذيبية التي عايشها في فرنسا، فانتقمت منه الإدارة الاستعمارية وأبعدته عن الوادي وبسكرة لأفكاره التقدمية والتحدث باسم جمعية العلماء، و يقول هو عن نفسه : وعندما رجعت إلى الجزائر كانت الحرب العالمية على الأبواب ولما أُعلنت الحرب أوقفت جمعية العلماء أعمالها، وعطلت جرائدها حيث أن الجرائد أصبحت لا تصدر إلا تحت الرقابة[17].

وفي سنة 1939 اجتمع الشيخ حمزة بشيخه ابن باديس بنادي الترقي بساحة الشهداء بالجزائر، وذلك بحضور تلميذه الشيخ محمد الصادق الملياني، وبعد مناقشات طويلة انتفض وقال: هل لكم أن تعاهدوني، فقال له محمد الملياني: لا أستطيع قبل أن أعرف، ثم توجه إلى الشيخ حمزة وقال: وأنت؟ فأجابه الشيخ حمزة: إذا كان على شيء أنت فيه معي، فإني أعاهدك، قال: طبعا! أنا لا أكلّف غيري بما لا أكلف به نفسي، فمدّ الشيخ حمزة يده وصافحه قائلا: إني أعاهدك ولكن على ماذا؟ قال: إنني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها ايطاليا الحرب. ثم افترقنا، ولم يعد بعدها إلى الجزائر، وهكذا كانت نيته[18]. بعد وفاة الشيخ بن باديس 16 أفريل 1940 واصل الشيخ حمزة نشاطه الإصلاحي مع الجمعية في عهدها الجديد، فقد كان يرافق الرئيس البشير الإبراهيمي في جولاته وتنقلاته، وقد اعتمد عليه الشيخ البشير واستخلفه في غيبته. وقد قال الشيخ حمزة: "في سنة 1944 أسندت لي نيابة الكاتب العام للجمعية، وفي سنة 1948عينت في هيئة تحرير جريد البصائر"[19]، كما أُوفد من طرف الجمعية إلى مدينة غليزان لزيارة مدير مدرستها الشيخ محمد الصالح رمضان[20]، الذي أعلمه أن الشيخ البشير قد رشحه لإدارة مدرسة الحديث بتلمسان، ووافق المجلس الإداري بالإجماع على ترشيحه، وكان الشيخ حمزة يزوره في تلمسان في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات، وهو مندوب تجاري لشركة آمال في مهمات تلك الشركة[21].

17- المرجع نفسه، ص 74

18- مراسة السيد حسين شنوف (مفتش بالضرائب ومن مواليد1958 9بالوادي) بن المكي أخ الشيخ حمزة، عاشوري قمعون: الشيخان، مطبعة مزوار بالوادي ط1 ،2010 ص 38.

19- سمير سمراد، مرجع سابق، ص 74-75

20- ولد محمد الصالح رمضان في 1914/10/20 بالقنطرة جنوب بسكرة، حفظ القرآن ببلدته، خريج جامع الزيتونة، التحق 1934بدروس الإمام عبد الحميد بن باديس، عين مفتشا جهويا للتعليم العربي الحر بتلمسان، واصل جهاده التربوي عقب الاستقلال إلى أن أحيل على التقاعد 1979م توفي يوم 22-07-2008 .

21- محمد الصالح رمضان، مرجع سابق، ص 104-105

3. **ثقافته المتنوعة:**

يوصف الشيخ حمزة بالرجل الموسوعي لتضلعه في شتى نواحي العلوم والمعارف؛ فهو كاتب اجتماعي، وشاعر وجداني، وناقد بصير وفقيه إسلامي وحقوقي مدني. توزع معظم نشاطه في الصحافة والتعليم والتجارة، وأخيرا في القضاء والمحاماة. ترك بصماته في كل الميادين وخاصة الصحافة[22] .

ولقد اشتهر بالنثر أكثر من الشعر، وبعض القراء وخاصة رواد المساجد عرفوه واعظا ومرشدا. وعرفه أصحاب المحاكم ورجال القانون في القضاء والمحاماة، كما عرفه رجال الأعمال تاجرا، والطلاب عرفوه أستاذا، مع العلم بأنه دأب على مواصلة الدراسة حتى في سن الشيخوخة، إذ التحق بجامعة الجزائر عام 1968م ونال منها شهادة الليسانس في الحقوق 1971م[23].

ولقد كانت له مواقف وأدوار في الجانب الثقافي؛ فحينما نتكلم مثلا عن اللغة نجد أن اللغة العربية قد أهملت في هذه الفترة، ولم يكن يُتصور أن يكون التعليم مستقبلا باللغة العربية، في هذه الأثناء كان للشيخ حمزة موقف أشار إليه في قوله :"وقد كنا نفر من قراءة الفرنسية فرار السليم من الأجرب، لأننا لُقِنّا أن قراءة الفرنسية طريق إلى الكفر، إن لم تكن هي الكفر عينه. وقد يبدو أن هذا جمود وركود ولكنه فيما أرى لا يخلو من صواب. هو أن قراءة الفرنسية في تلك الآونة من الشبهات ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. فلو أننا فيما مضى أقبلنا على الفرنسية لزاحمنا العربية أو أهملناها، وتفتح لنا الفرنسية نوافذ على الشهوات والملذات، وهي لغة الغالب ، والمغلوب مولع بتقليد الغالب [24].

4. **نشاطه الصحفي:**

كان الشيخ حمزة صديقا حميما لمحمد بورقيبة محرر الركن الأدبي في جريدة الوزير التونسية، مما جعله ينشر فيها أغلب إنتاجه النثري والشعري، ففي عام 1932 نشر قصيدة رثاء لشيخه وصديق والده الشيخ (إبراهيم بن عامر)، كما رثى والده المتوفى عام 1933م، وقد اتفق على أن الرجل كان صحفيا بامتياز حيث كتب مقالات أدبية ونقدية هامة، ومواضيع سياسية جريئة، إذ كتب في جريدة الثبات (1934-1935) مقالا تحت عنوان المرأة والإصلاح العدد الثامن بتاريخ 16-03-1934، وكتب في جريدة (البصائر) لسان حال الجمعية فيما بين 1935-1939، كتب في فصول الأدب وقضاياه، وفي سنة 1936 ساهم

22- المرجع نفسه، ص 100

23- مراسلة السيد حسين شنوف ابن أخ الشيخ حمزة.

24- مراسلة الشيخ حمزة بكوشه للأستاذ الدكتور علي غنابزية في جانفي عام 1994.

رفقة الشيخ علي بن ساعد[25] في إنشاء جريدة (الليالي) وكان من أبرز محرّريها، طلب منه الشيخ بن باديس في جوان 1937 أن يشرف في وهران على تحرير (جريدة المغرب العربي) [26]، فلم يصدر منها إلا أربعة أعداد ثم صودرت، وقد قال عنها الأستاذ أحمد رضا حوحو: فعاشت بعض الوقت، ثم ماتت جوعا وهي في عهد الرضاعة، وفي عام 1947 عين الشيخ حمزة في هيئة تحرير جريدة البصائر مع الأستاذ أحمد توفيق المدني وباعزيز بن عمر والشيخ أحمد سحنون وكان يواصل الكتابة في هذه الصحف وغيرها.

اتصف الشيخ حمزة بالجرأة في كتابة مقالاته التي ينشرها في الصحف، ولا أدل من ذلك على ما كتبه في مقال بجريدة البصائر تحت عنوان (على من نعوّل في توحيد المسلمين؟)، وهذا من أجل مواجهة بعض زملائه الأعضاء في الجمعية، الذين ما فتئوا يتسترون بأسماء مستعارة عند كتابة مقالاتهم مثل: (الفتى الزواوي) و(الفتى القبائلي) و(الصنهاجي) الذي كان يستعمله الشيخ بن باديس نفسه، وهذا ما أثار ضجر الشيخ حمزة حيث كتب يقول: كنت أطالع تلك الصحف التي هي لسان الجمعية فيلوح لي فيها ما يستوجب لاذع الانتقاد كإمضاء (الفتى القبائلي) و(الفتى الزواوي)، تلك الإمضاءات التي تبعث كامن العنصريات، وتذكي نار الفرقة التي أخمدها الإسلام.

كما ساهم في إنشاء صحيفة "الجحيم"[27] هذه الصحيفة لم تكن بأمر من قيادة الجمعية، بل كانت مبادرة من (الأمين العمودي) و(السعيد الزاهري) و(حمزة بوكوشه)، ونشير إلى أنها توقفت بعد صدور عددها السابع بتاريخ 11ماي 1933 حيث حققت الغاية من صدورها، وهي إسكات صحيفة (المعيار) .

ولم يتوقف عن كتابة المقالات حتى بعد الاستقلال حيث كتب مقالات تاريخية وسجّل مواقف تتطلبها الحياة الثقافية في (جريدة الشعب) و(مجلة الثقافة)، إذ عرّف ببعض رجالات الحركة الإسلامية، وألقى عدة محاضرات في ملتقيات ثقافية. كما كان جريئا في قول الحق، ولو كان المخطئ من أقرب الناس إليه ولذلك نجده يردّ بكل قوة على ما جاء في كتاب (حياة كفاح) لصاحبه أحمد توفيق المدني، إذ نشر مقالا في جريدة (الشعب الوطنية)، يقول فيه: ولو أن هذه المذكرات كانت خاصة بحياته الشخصية وذكر مناقبه ومآثره، ولم يمس أحدا بسوء لا من قريب ولا من بعيد لتركناه وشأنه، لكنه عرض بأناس وجرح في آخرين.

25- ولد بقمار خلال 1908، متحصل على شهادة التطويع من الزيتونة 1933، عمل مدرسا في مدارس جمعية العلماء، توفي إثر نوبة قلبية وهو يدرس 1974.

26- جريدة أدبية سياسية اجتماعية. لسان حال الشبان المسلمين مديرها محمود بلة ورئيس تحريرها الشيخ حمزة بكوشه.

27- جريدة فكاهية تصدر عن بعض أعضاء الجمعية، جاءت ردا على المعيار، تطبع بالجزائر وتصدر أسبوعيا، عددها الأول مارس 1932

وربما في بعض الأحيان رام نفعا فضرّ من غير قصد أو عن قصد، محاولا أن تكون مذكراته سجلا تاريخيا، وأن يكون كشاهد أمام التاريخ. لهذا نرى لزاما علينا أن نتبع بعض ما في هذه المذكرات بتوضيحات وتعليقات خدمة للحقيقة وتذكيرا للأستاذ إن نفعت الذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين ولنقتصر في هذه النظرة الأولى على مناقشته في مسألتين: جمعية العلماء والشيخ الطيب العقبي"[28].

5. نشاطه في المجال الأدبي:

إن حرفة الأدب لدى الشيخ حمزة صناعة اشتغل بها طوال حياته، فهو أديب ذاع صيته في الوسط الأدبي الجزائري والتونسي. كان كاتبا صحفيا، يكتب المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية، فقد كتب في جريدة البصائر مقالات تحت عناوين: الأخلاق، قيمة المرأة في المجتمع[29]، وقد تفوق في ميدان النثر حيث كان ناقدا وكاتب مقالات أدبية وسياسية بشكل جريء، كما كان له باعٌ في أدب الرحلات مثل: رحلته إلى المغرب تحت عنوان (أربعون يوما في المغرب الأقصى) ورحلته إلى سوف تحت عنوان (جولة من التلال إلى الرمال)[30]، وممّا يتصف به الشيخ أنه ناقد بصير. وقد رأى فيه الأديب أحمد رضا حوحو[31] في الشعلة[32] أديبا مغالبا. إذ قال فيه: "حمزة بوكوشه أديب ساخر وناقد ماكر، جريء في أدبه، جريء في آرائه، تحتل نفسه ثورة متزنة، أثقلت جوانبها الحكمة والعقل، قليل الكلام، كثير التفكير، منخفض الصوت، مقلٌ الإنتاج ولكنه مجيد ... ويقول عنه ساخرا: أصيب صديقنا حمزة في أيامه الأخيرة بنزعة التشكيك، فأكثر من التساؤل: هل عندنا أدباء؟ هل عندنا زعماء؟ هل عندنا شعراء؟ حتى تركنا نتساءل: هل عندنا حمزة بوكوشة ؟ ثم طبق عليه هذا المذهب وهو تارة حمزة بوكوشة، وأخرى بكوشة. وقد تمثلت جرأته وثورته في مواقف متعددة تدل على سخريته منها: أنه كان –أحيانا-يوقع على بعض مقالاته النقدية، ولاسيما ما كان جدالا بينه وبين بعض أعداء الإصلاح ومناوئي الجمعية، بإرداف العبارة التالية بعد اسمه الصريح: (صاحب مستودع التمر)[33].

28- جريدة الشعب الوطنية في 30صفر 1398 هـ /08-02-197م ص، 8؛ محمد الطاهر فضلاء : التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح، ط1 1402هـ/1982، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة

29- جريدة البصائر، السنة الأولى، العدد 3-8

30- حمزة بوكوشة : جولة من التلال إلى الرمال في جريدة الوزير التونسية عام 1932 م

31- من مواليد 1910/12/15 ببلدة سيدي عقبة، وعند بلوغه 6 سنوات دخل الابتدائية ونال منها الشهادة الابتدائية 1928، حصل على الأهلية في عام 1930سافر مع عائلته إلى الحجاز، ودخل مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة، في عام 1945 رجع إلى بلاده وانضم إلى جمعية العلماء أسّس أسبوعية الشعلة عام 1946، اغتيل يوم 29-03-1956

32- جريدة أسبوعية لسان الجمعية رئيس تحريرها رضا حوحو صدر عددها الأول 15 ديسمبر 1949

33- سمير سمراد: مرجع سابق، ص 75 .

فكما عرفنا الشيخ حمزة ناثرا جريئا فقد كتب في الشعر، وقد جمع شعره في ديوان مخطوط بيده في كراسه، سماه (خواطر الشباب والمشيب)، والبعض منه مضروب على أوراق موجودة داخل تلك الكراسة جمع فيه ما تيسر له من شعره الموزع بين صحف تونس والجزائر. وقد طلب من صديقه (محمد الصالح رمضان) أن يقدمه للطباعة قائلا له: "طالما حرضتني على جمع شعري وطبعه في ديوان، وتثاقلت لأنه غير ممكن لي العثور على كل الصحف التونسية والجزائرية التي نشرت فيها. وكنت تقول لي: اجمع ما تيسر لك منه وأطبعه ولو لم يكن كل شعرك. فإليك الآن ما جمعت منه، فأجل فيه نظرك وقل لي: إن كان يصلح أن يقدّم للنشر، فتسلمت المخطوط شاكرا مبتهجا وبعد الاطلاع عليه وضعت له مقدمة أو تقديم، وشجعته على الطبع فقال: أنت أدرى بالطابعين والناشرين اليوم، فتول أنت القيام بالمهمة مع الطابعين. وبعد محاولات مع بعضهم، وهم تجار لا يهمهم سوى الربح فهم يقرؤون لي ألف حساب وحساب لا النظر في القيمة الأدبية أو العلمية للكتاب، قالوا لي إن سوق الشعر غير نافعة ولا يمكن طبعه إلا على حسابكم وعلى مسؤولياتكم، يعني أنهم لا يتولون نشره وتوزيعه[34]. لقد كان للرجل بصماته في هذا الميدان، فلا تمر مناسبة أو ذكرى دون أن يتحرك الشاعر وهكذا استهل شعر بالتناجي بمسقط رأسه : وادي سوف عام 1932

سقاك الغيث يا وادي الرمال   وصانتك الأسنة والعوالي
ولازالت بك الحصباء درا   حصاها فائق حسن اللآلي
تذكرني مرائي البحر ليلا   بنور البدر من فوق الرمال
فتبعث في الفؤاد هوى دفينا   فيلهي النفس عن مرأى الجمال
وكثبان تناجي السحب دوما   تغار لطولها شم الجبال

6. **دوره نضاله**:

دأب الشيخ على النضال في إطار الحركة الإصلاحية والوطنية، ويتجلى عمله النضالي في تعرضه للاستنطاق والمتابعة والاعتقال بمنطقة دلس، عندما كان موفدا من طرف إدارة جمعية العلماء لتدريس اللغة العربية هناك، كما توبع في الحوادث التي جرت في سوف 1937 وقد تعرض للسجن خلال حوادث 1945، واعتقل كذلك مع رفاقه إبان ثورة التحرير المجيدة، حيث صرح قائلا: وفي سنة 1956 باشرت التدريس بفرع معهد عبد الحميد بن باديس بحي سيدي امحمد (بلكور) تحت إدارة الشيخ العربي التبسي، ومن هناك اعتقلتني السلطة الاستعمارية، فقضيت قرابة العامين بين معتقل وادي سار (بول قزال) ومعتقل الضاية (بوسوي)[35].

34- مراسلات السيد حسين شنوف ابن الشيخ حمزة، محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، ص 106-107
35- سمير سمراد، مرجع سابق، ص 75

وعندما حصلت البلاد على الاستقلال، انبرى الشيخ يعمل مع وزارة الأوقاف منذ ظهورها في أكتوبر 1962م، وقد قيل إنه أول شيخ عالم قام بإلقاء الدروس الدينية[36] وحينما أُدمج المعلمون الأحرار في الإطار العام للتعليم والوظيف العمومي، وأُعترِف لهم بالأقدمية وجميع الحقوق المدنية، سلك الشيخ طريق التعليم كأستاذ اللغة العربية في ثانوية (عمر راسم)، ثم في ثانوية عقبه بباد الواد بالجزائر العاصمة. ولم يمنعه كبر سنه من مواصلة الدراسة بجامعة الجزائر حيث التحق بكلية الحقوق عام 1968م، حتى حصل على الليسانس فيها عام 1971 م ،كما أنّه عمل لوزارة العدل كزيتوني خبير في الفقه الإسلامي وما تعلق به، ثم انتدب كمستشار في المجلس الأعلى للقضاء وعُيّن عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى في بداية تأسيسه، وشارك في مهامه[37].

وبعد أن أمضى الشيخ عمرا طويلا دام حوالي 87 عاما، انتقل إلى جوار ربه يوم الجمعة 14جمادى الثانية عام 1415 هـ / 18 نوفمبر 1994 م، وذلك عقب مرض لازمه. وشيعت جنازته إلى مثواه الأخير، حيث دفن في مقبرة القطار بباب الوادي بالعاصمة، زوال اليوم الموالي. وصلّى عليه رفيق دربه وصديقه الشيخ علي المغربي. وتكلّم عنه كذلك الأستاذان أحمد حماني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والكاتب المسرحي محمد الطاهر فضلاء[38].

7. خاتمة

نصل في ختام هذه المداخلة إلى استنتاج مفاده، أن حمزة بكوشه يعد علم من أعلام وادي سوف خاصة والجزائر عامة، استطاع نتيجة عبقريته أن يتجاوز ما كانت تقاسيه المنطقة من جهل واعتقادات فاسدة، مكّنه هذا التجاوز من أن يرتمي في أحضان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ نشأتها ويكون من الفاعلين فيها، بهذا الانتماء وما كان يمتاز به من الاطلاع الواسع والنظرة الثاقبة جعله الرجل الموسوعي المتعدد الاختصاصات فهو أديب وشاعر وصحفي وأستاذ ومؤرخ ورجل قضاء ومحامي وفقيه. هذه الشخصية بهذه المواصفات لم يعطَ لها حقّها بحيث أنها أُقبرت في عقر دارها. حريّ بنا نحن الباحثين أن ننقّب عن مثل هذه المعادن ونستفيد مما خلفته، لرسم مستقبل واضح وجلّي لهذه الأجيال اللاحقة رحم الله الشيخ حمزة وأسكنه فسيح جنانه.

36- عاشوري قمعون، حمزة بوكوشة 1907-1994 ، مطبعة سخري- الوادي، 2012، ص 118.

37- محمد الصالح رمضان، مرجع سابق، ص 107

38- نفسه، ص 100.

8. قائمة المراجع

*** المؤلفات:**

- بن رحال الزبير، الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية
- فضلاء محمد الحسن، من أعلام الإصلاح، مطبعة دار هومه، الجزائر، 2004.
- فضلاء محمد الطاهر، التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة، ط1 ،1982
- الجابري محمد الصالح، رحلات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001.
- قمعون عاشوري، الشيخان، مطبعة مزوار، الوادي، ط1، 2010 .
- قمعون عاشوري، حمزة بوكوشة 1907-1994، مطبعة سخري، الوادي، الجزائر، 2012.
- مقران يسلي، الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل(1920-1945)، دار الأمل للطباعة، 2007 .

*** المقالات:**

- جريدة الوزير التونسية، عدد 442بتاريخ 1935/08/22.
- الشهاب، م 11، ج9، رمضان 1345هـ /ديسمبر 1935م.
- سمير سمراد، الشاعر الناقد حمزة بكوشه، جريدة الإصلاح، العدد التاسع، (الجزائر: ماي وجوان 2008).
- محمد الصالح رمضان، حمزة بوكوشه العالم المصلح ، مجلة الثقافة، العدد 105-106 (الجزائر: 1995).
- جريدة الشعب الوطنية، في 30صفر 1398 هـ /08-02-1978 م.
- جريدة البصائر، السنة الأولى، العدد 3-8.

مدارس جمعية العلماء المسلمين
ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية
ـ مدرسة الإصلاح بحاضرة الزقم أنموذجا ـ

Muslim Scholars Association Schools And its role in preserving national identity Al-Islah School in the city of Zuqm as a model

د/ مختار قديري
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
guediri-mokhtar@univ-eloued.dz



ملخص: يتضمن هذا البحث التعريف بأحد مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلال فترة الاحتلال الفرنسي، المسماة" مدرسة الإصلاح بالزقم"، والتي لعبت دورا كبيرا في نشر العلم، ومحاربة الجهل والخرافات، ودعم الثورة التحريرية، وإبطال خطط المستعمر التي كانت ترمي لطمس الثوابت الوطنية والهوية الإسلامية لدى الشعب الجزائري.

ومن أهم النتائج: مدرسة الإصلاح كان لها دور كبير في المحافظة على عناصر الهوية الوطنية، وذلك من خلال نشر التعليم وتحفيظ القرآن ومحاربة التنصير وتوعية الشعب من خلال الدروس والمحاضرات، ومن التوصيات: العمل على إعداد معجم للتعريف بشيوخ ورجالات مدرسة الإصلاح بالزقم، وذلك بالاستعانة بتلاميذها الذين ما زالوا على قيد الحياة، أمثال الشيخ: أحمد منصوري-حفظه الله، وبيان دورهم في المقاومة الثقافية.

الكلمات المفتاحية: مدرسة؛ الإصلاح؛ الزقم؛ جمعية؛ العلماء؛ الهوية الوطنية.

Abstract:
This research includes the definition of one of the schools of the Association of Algerian Muslim Scholars during the period of the French occupation, called the “Reform School in Zaqm”, which played a major role in spreading science, fighting ignorance and superstition, supporting the liberation revolution, and nullifying the colonizer’s plans that aimed to obliterate the national constants and Islamic identity among the The Algerian people.

Among the most important results: Al-Islah School had a major role in preserving the elements of national identity, through spreading education, memorizing the Qur’an, fighting Christianization and raising people’s awareness through lessons and lectures. Those who are still alive, like Sheikh: Ahmed Mansouri - may God protect him, and an explanation of their role in the cultural resistance.

Keywords: School; repair; swarm association; scholars; National Identity.

1. مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فقد لعبت المدارس التعليمية في منطقة واد سوف دورا كبيرا في نشر العلم ومحاربة الجهل، ومقاومة المستعمر، وإبطال سياساته الرامية لطمس الهوية، ومن خلال هذا البحث أردت التعريف بأحد الحواضن التعليمية بمنطقة وادي سوف التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المسمّاة: "مدرسة الإصلاح بالزقم" (بلدية حساني عبد الكريم حاليا) خلال فترة الاحتلال الفرنسي. وما دفعني للكتابة في هذا الموضوع -إضافة إلى رغبتي في المشاركة في هذا الملتقى- هو جهل الكثيرين من سكان وادي سوف بهذه المدرسة العريقة، وبجهودها في نشر الوعي ورفع الجهل ومحاربة المستعمر، فعقدت العزم على التعريف بها وبشيوخها وطلابها ومناهجها ودورها العلمي والتربوي والثقافي الذي لعبته إبان الحقبة الاستعمارية.

أهداف الدراسة:

- التعريف بقلاع التعليم العربي الحر التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- إبراز دور المدارس الإصلاحية في الحفاظ على عناصر الشخصية الجزائرية.
- التعريف برجال الإصلاح الذين كان لهم دور كبير في التصدي للمستعمر الفرنسي وخططه لطمس الهوية الوطنية.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي، وذلك من خلال رصد الأحداث التاريخية التي مرّت بها مدرسة الإصلاح بالزقم منذ افتتاحها، وإبراز دورها التعليمي والتربوي الذي لعبته في منطقة وادي سوف، وفي مقاومة المستعمر الفرنسي.

2. دوافع تأسيس مدارس جمعية العلماء المسلمين وأهم محاضنها بحاضرة الوادي

يتضمن هذا المحور بيان دوافع تأسيس مدارس التعليم الحر التابعة لجمعية العلماء المسلمين، وأهم محاضنها بحاضرة الوادي، من خلال النقطتين الآتيتين:

1.2. دوافع تأسيس مدارس التعليم الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين:

بعد أن خيم الجهل والخرافة اهتدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الى بناء المدارس الحرة لمواجهة المشروع الفرنسي التغريبي الاستعماري، لتكون هذه المدارس منارات يهتدى بها الشعب الجزائري وتضيء له طريق التحرر من ربقة الاستدمار الفرنسي الغاشم الثقافي والعسكري، وقد شيدت هذه المدارس بأموال الأمة، وبتكاتف جهود المخلصين من أبناء الشعب، وكان الغرض من إنشائها هو المحافظة على الهوية الوطنية وتربية الناشئة

التربية الإسلامية. وقد بلغ عدد مدارس الجمعية منذ تأسيسها سنة 1931م، وحتى سنة 1954م مائة وخمسون مدرسة يتردد عليها أكثر من ألف تلميذ وتلميذة يدرسون فيها مبادئ اللغة العربية وأصول الدين. مع العلم أنه وفي سنة 1946م تمّ تأسيس هيئة الإشراف على هذه المدارس، أُطلق عليها اسم "لجنة التعليم العليا" أسندت لهذه اللجنة مهمة تعيين المعلمين والمفتشين وترقيتهم وتنقلاتهم، ووضع المناهج والبرامج والامتحانات[1].

2.2. **مدارس جمعية العلماء المسلمين بحاضرة الوادي:**

وهذه أسماء المدارس الحرة في ولاية الوادي التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

1.2.2. مدرس النجاح: تعد هذه المدرسة من أوائل مدارس الجمعية على مستوى الوادي، بل على مستوى الوطن، حيث يقول الشيخ محمد الطاهر تليلي أن المدرسة تأسست سنة 1931م التاريخ الذي تأسست فيه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأن أول من درس بها هو الشيخ عمار بن الأزعر[2].

2.2.2. مدرسة الإصلاح: وهي المدرسة الثانية للتعليم الحر بحاضرة الوادي بعد مدرسة النجاح، وقد كان لرجوع الشيخ إبراهيم كلكامي من جامع الزيتونة أثر كبير على الحركة الإصلاحية بالمنطقة ومن أهمها تأسيس مدرسة الإصلاح بالزقم سنة 1943م، وسيأتي خلال المحورين القادمين التعريف بها وبدورها في المقاومة الثقافية[3].

3.2.2. مدرسة الفلاح: تبع تأسيس مدرسة الإصلاح بالزقم تأسيس مدرسة الفلاح بالخبنة بالرقيبة ما بين سنة 1950م و1951م، وترجع فكرة تأسيس المدرسة إلى تأثر أهل الخبنة بمدرسة النجاح بقمار خاصة بعد بعثها من جديد سنة 1949/1948م وترأس الشيخ محمد الطاهر تليلي لها[4].

3. **التعريف بمدرسة الإصلاح ونشأتها**

يتضمن هذا المحور بيان نشأة مدرسة الإصلاح والإشارة إلى أهم شيوخها وتلاميذها من خلال النقاط الآتية:

1- إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 252.

2- يوسف زغوان، التعليم العربي الحر بوادي سوف (1931-1962)، رسالة ماجستير التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف علي غنابزية، جامعة الوادي، شعبة التاريخ، 2014-2015، ص83-84.

3- نفسه، ص117-119.

4- نفسه، ص103.

1،3. نشأة مدرسة الإصلاح

هي مدرسة حرّة أُنشئت في بلدة الزقم[5] بمنطقة وادي سوف إبان الفترة الاستعمارية، وكانت تعمل كباقي المدارس التعليمية في نشر العلم، ومحاربة الخرافات والبدع، وكان رجال الإصلاح بالمنطقة يتردّدون عليها لإلقاء الدروس والمحاضرات نظرا لموقعها المتميّز المقابل للمسجد الغربي العريق من الناحية الشمالية.

وعقب افتتاح شعبة جمعية العلماء المسلمين بالمنطقة، بعد الزيارة التاريخية لوفد الجمعية بقيادة رئيسها العلامة عبد الحميد بن باديس لبلدة الزقم سنة 1937م6، بدأ التفكير من طرف رجال الإصلاح بالمنطقة في فتح فرع مدرسة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين على غرار مدرسة النجاح بقمار ومدرسة الفلاح بالخبنة (الرقيبة). وكان لرجال الإصلاح الذين تأثروا بالحركة العلمية بجامع الزيتونة دورا كبيرا في تأسيسها، ويرجع الفضل في تأسيس هذه المدرسة للشيخ إبراهيم كلكامي، فبعد عودته من الزيتونة حوالي سنة 1943م بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، توجهت همّته إلى تأسيس مدرسة تربوية تعليميّة تضاهي مدارس الجمعية، واختار لها اسم: "الإصلاح"، الذي يُوحي بخطِّها الفكري الدّاعي إلى التربية والإصلاح والتغيير.

بدأت المدرسة عملها في بيت صغير تطوع به الشيخ الطاهر منصوري، والواقع غرب المسجد الغربي، تمّ نُقل مقرها إلى زاوية أولاد لخضر بنفس المنطقة في حجرة واقعة شمال الزاوية، واستمرت المدرسة في عملها إلى غاية سنة 1957م، أين تمَّ توقيفها بعد اكتشاف المستعمر دورها ورجالاتها في دعم الثورة، فاعتقلت مديرها ومؤسسها الشيخ إبراهيم كلكامي، وقامت بإعدامه في مجزرة رمضان سنة 1957م، التي راح ضحيتها عدد كبير من علماء منطقة وادي سوف[7].

2،3. شيوخ المدرسة:

أدخل هنا محتوى الشيخ الوحيد الذي نال شرف التدريس في هذه المدرسة، هو مؤسسها العلامة إبراهيم كلكامي، الذي تأثر بالحركة العلمية بجامع الزيتونة، فأراد نقل هذه التجربة إلى بلدته، وقد تخرَّج على يديه عدد كبير من الطلبة، وهذه ترجمة مختصرة للشيخ إبراهيم كلكامي:

5- هي أقدم قرى وادي سوف، تقع شرق عاصمة الولاية، اشتهر أهلها بالعلم والإصلاح، وهي الآن تابعة إداريا لبلدية حساني عبد الكريم.

6- ينظر: تفصيل الزيارة التي رواها الشيخ حمزة شنوف المدعو بكوشة في جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين، الأعداد: 93، 94، 95، 96.

7- لقاء مع أحد تلاميذ المدرسة الشيخ: أحمد منصوري بتاريخ: 31-01-2020، المرجع السابق، ص117-119.

هو إبراهيم بن سليمان كلكامي، أحد رجالات الإصلاح بمنطقة وادي سوف، من مواليد بلدة الزقم سنة 1902م، بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة على يد الشيخ مسعود عباسي8 بالجامع الأصفر، وتلقى طرفاً من علوم اللّغة والدين على عدد من علماء المنطقة كالشيخ الطاهر عمري الذي عمَّق فهمه للدِّين وحبَّ الوطن. وفي سنة 1936م رحل الشيخ إبراهيم إلى تونس لطلب العلم، والتحق بجامع الزيتونة ليتم تعليمه؛ لكن ظروف الحرب العالمية الثانية اضطرته إلى العودة لوطنه ليمارس التعليم والإرشاد، ينتقل بين المدرسة والمسجد مدرسا وواعظا حيث كان يستقبل طلبة الزقم والقرى المجاورة لها ملتزما بالطريقة الزيتونية في التعليم.

اهتم الشيخ بالتاريخ الإسلامي والوطني فاجتهد في تقريبه بالروايات والتمثيليات إلى جمهور الناس، مستغلاً في ذلك المناسبات والأعياد الدينية، وكان للشيخ عدد من الكتب والرسائل في الجغرافيا والتاريخ والأدب، ...لكنها ضاعت وأُتلفت عمداً من المستعمر الفرنسي. ولمّا اندلعت الثورة سارع الشيخ إلى الانضمام لها واضطلع بمسؤولية النشاط في بلدة الزقم مجاهداً صابراً محتسباً؛ حتى تاريخ إعدامه على يد منظمة "لاصاص"[9] في شهر رمضان من سنة 1957م رفقة زميله الشيخ معمري عبد الرحمن[10] رئيس شعبة الزقم[11].

3.3. تلاميذ المدرسة:

كَثُرَ طلاب المدرسة من داخل البلدة والقرى المجاورة لها؛ كسيدي عون وحاسي خليفة

8- هو مسعود بن محمد بن سالم عباسي، ولد سنة 1893م ببلدة الزقم، حفظ القرآن على يد والده محمد، والشيخين الجليلين: محمد أم الهناء، والمقدم بالأخضر، بدأ تعليمه بزاوية سيدي المولدي بنفطة بالجمهورية التونسية، ثم بجامع الزيتونة، اشتهر بكتابته للقرآن الكريم بخط يده، عمل الشيخ مدرسا يحفظ الصبيان القرآن الكريم بالمسجد الغربي، واختير أمينا للمال بشعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالزقم، التي أشرف على تنصيبها العلامة عبد الحميد بن باديس، تعرض الشيخ كباقي إخوانه للمضايقات من قبل المستعمر والسجن للحد من نشاطه، بعد خروجه من السجن واصل عمله الإصلاحي والتربوي، توفي رحمه الله في شهر نوفمبر 1954م. يُنظر: أعلام من سوف، ص 55-58.

9- هو مركز عسكري فرنسي خاص بالقرى الشرقية للولاية، كان مقره بقرية الدبيلة.

10- هو عبد الرحمن معمري، من مواليد سنة 1898م ببلدة الزقم، حفظ القرآن الكريم حفظا متقنًا ودرس مبادئ العلوم بمسقط رأسه على يد جدّه يونس، ثم رحل إلى جامع الزيتونة، وتخرج منه بشهادة التطويع، بعد عودته إلى الوطن ساهم بدور كبير في الحركة العلمية الإصلاحية ببلدة الزقم، وعند تشكيل شعبة جمعية العلماء المسلمين بالبلدة تمّ اختياره لرئاستها سنة 1937م، واصل الشيخ عمله الإصلاحي ومقاومته للمستعمر إلى استشهاده رحمه الله في أفريل سنة 1957م رفقة رفيق دربه الشيخ إبراهيم كلكامي. يُنظر: محمد المولدي سيشي، مقتطفات من تاريخ بني عدوان وعمارة سوف، ص22، ومديرية الثقافة، أعلام سوف، شركة مزوار، ط1، 2006، ص15، 16.

11- ينظر: مديرية الثقافة بالوادي، أعلام سوف، شركة مزوار وأبنائه، الوادي، ط1، 2006م، ص 17، 18.

والطريفاوي...، ومن أبرز تلاميذها[12]: عز الدين عباسي[13]، أحمد منصوري[14]، محمد العربي خطراوي[15]، وأخوه محمد العيد الذي رحل إلى المملكة العربية السعودية وتوفي بها، منصوري جاب الله بن الطاهر وأخوه أحمد، عبد العزيز عصامي[16]، معمر حيلة، الساسي

12 أخبرني بتلاميذ المدرسة الشيخ أحمد منصوري في لقاء معه بتاريخ: 31-01-2020.

13- هو محمد عز الدين عباسي بن مسعود المالكي، بدأ حياته بإتقان حفظ القرآن الكريم ومبادئ العلوم على يد والده، ثم على الشيخ إبراهيم كلكامي، رحل إلى تونس ليتم تعليمه بجامع الزيتونة سنة 1948م، وتخرج منه بشهادة التطويع سنة 1954م، ثم عاد لوطنه وتفرغ للدعوة ونشر العلم، والتحق بالتدريس في مدارس جمعية العلماء المسلمين سنة 1955م. عاد الشيخ سنة 1957م إلى مسقط رأسه، وواصل عمله الإصلاحي، وبعد الاستقلال التحق بوزارة الشؤون الدينية، وتقلد عددا من المناصب السامية بها، كان آخرها مديرا للشؤون الدينية والأوقاف بالوادي، من أهم مؤلفاته: كتابه "فتاوى وإرشادات في رحاب الدين والحياة"، توفي رحمه الله يوم السبت الفاتح من شهر ربيع الثاني سنة 1435ه (ينظر: العيد بلالي، حصة "الدين والحياة"، إذاعة الجزائر من الوادي، 2014/02/06م، الساعة: 9:00 صباحا، وعز الدين عباسي، تحفة السالك إلى خير المسالك، 1/(الإهداء)، ومحمد إدير مشنان، أعلام الجزائر، القناة الجزائرية الخامسة، 2010م، فيديو منشور، تاريخ التصفح: 2020/01/10م، على الرابط: (https://www.youtube.com/watch?v=aoOf2xuXOpk).

14- هو أحمد بن الطاهر منصوري، ولد ببلدة الزقم سنة 1932م، من شيوخه والده الذي درس عليه عددا من المتون، والشيخ إبراهيم كلكامي، درس بمدرسة الفلاح ثم بجامع الزيتونة، وبعد الاستقلال واصل تعليمه النظامي بالمدرس النظامية إلى أن تحصل على شهادة الليسانس في الآداب، كانت له جهود كبيرة في الدعوة والإرشاد، من مؤلفاته: الدر المرصوف، وهو لحد الآن يواصل عمله في نشر العلم والمعرفة والمشاركة في الحياة العلمية بالولاية، فنسأل الله أن يبارك فيه وفي جهوده. لقاء مع الشيخ أحمد منصوري بتاريخ: 2020/01/31.

15- هو، محمد العربي خطراوي، من مواليد سنة 1918م بالزقم، نشأ وحفظ القرآن بالزاوية الرحمانية بالمسجد الشرقي بالزقم، وفي سنة 1939م التحق بجامع الزيتونة، وتخرج منه بشهادة التحصيل، وبعد عودته للوطن التحق بجمعية العلماء المسلمين، واستدعي للتدريس بأحد مدارسها بدائرة أريس –منعة- سنة 1947م، تعرض هو الآخر للمضايقات والسجن من طرف المستعمر، وبعد خروجه من السجن واصل عمله الإصلاحي بتنظيم اللقاءات للشباب المثقف، وندوات فكرية واجتماعية في بيته، و كانت له مكتبة كبيرة بالمسجد الشرقي، وانضم لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ونشط في الوعظ والإرشاد، توفي سنة 1957م. يُنظر: أعلام من سوف، 104، 105، ومحمد المولدي سيشي، مقتطفات من تاريخ بني عدوان وعمارة سوف، ص22.

16- هو الشيخ عبد العزيز بن الساسي بن ميلود بن محمد، ولد سنة 1923م، حفظ القرآن وتلقى مبادئ العلوم الدينية واللغوية على يد الشيخ إبراهيم كلكامي، تحصل على شهادة التطويع من الزيتونة، وبعد عودته انضم إلى شعبة جمعية العلماء بالزقم، واستدعي للتدريس بإحدى مدارس الجمعية بالجزائر العاصمة، تعرض الشيخ للمضايقات من قبل المستعمر، وتم سجنه، وتنقل بين عدّة سجون، وكان مع ذلك يواصل نشاطه في تدريس إخوانه المناضلين المسجونين معه، وخلالها تعرف على عدد كبير من مشاهير وقادة الجزائر، كعبد العزيز مهري، وبوعلام بن حمودة، أُطلق سراحه من السجن يوم 14

مناني[17]، ومحمد الربيعي شوية[18]...

4. دور مدرسة الإصلاح في المقاومة الثقافية

من خلال هذا المحور الرئيس في هذا البحث نحاول إبراز معالم المقاومة الثقافية لمدرسة الإصلاح بالزقم إبان الحقبة الاستعمارية، وذلك من خلال بيان دورها في ترسيخ عناصر الهوية الوطنية من خلال النقاط الآتية:

1.4. الدور الثقافي والعلمي والتربوي الذي لعبته المدرسة:

لقد لعبت مدرسة الإصلاح بالزقم كباقي مدارس الجمعية دورا كبيرا في تسليح الشعب بالعلم والمعرفة، وتحرير العقول، ونشر الوعي، وتصحيح العقائد، ومحاربة الجهل والغفلة، الأمر الذي ساهم في كشف المستعمر ومحاربة مخططاته الرامية لتجهيل الشعب وطمس الثوابت الوطنية والهوية الإسلامية، ويظهر ذلك جليا من خلال النقاط الآتية:

1،1،4.مناهج التدريس والكتب المقررة بالمدرسة:

تميّز المنهج التعليمي لمدرسة الإصلاح كباقي مدارس جمعية العلماء بالصبغة العربية الإسلامية، والتوجّه الوطني الإصلاحي، ومقررات المدرسة مستمدة من برنامج جامع الزيتونة للسنوات الأربع الابتدائية، حيث يُصبح التلميذ الذي يُكمل السّنوات الأربع بالمدرسة مؤهلاً لنيل شهادة الأهلية بجامع الزيتونة، وذلك بعد إجراء امتحان عام في المواد المدروسة، وهذه أهم المواد والمقررات بالمدرسة على حسب السنوات الأربعة[19]:

السنة الأولى: يدرس فيها التلميذ المواد الآتية:

- التوحيد: نظم الشرنوبي الذي يحوي 25 بيتا.
- القواعد: متن الآجرومية.
- الفقه: شرح ميارة على متن ابن عاشر.
- المنطق: إيساغوجي.

جوان 1961م، وبقي تحت الإقامة الجبرية ، ولم يعف عليه إلا بعد توقيف القتال يوم 19 مارس 1962م، بعد الاستقلال عمل إطارا بوزارة التربية والتعليم، توفي رحمه الله يوم 20 فيفري 2005م، ودفن بمسقط رأسه بلدة الزقم بالمقبرة الشمالية. يُنظر: أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، ص109-111.

17- درس بجامع الزيتونة، وتخرج منه بشهادة التطويع (لقاء مع الشيخ أحمد منصوري بتاريخ: 2020/01/31).

18- درس بالزيتونة، إلا أنه لم يتم دراسته، نظرا للظروف المادية الصعبة، انتقل إلى مدينة عنابة، واشتغل بقطاعي التربية والشؤون الدينية (لقاء مع الشيخ أحمد منصوري بتاريخ: 2020/01/31).

19- أخذت هذا البرنامج من الشيخ أحمد منصوري أحد تلاميذ المدرسة، بتاريخ: 31-01-2020.

بالإضافة إلى مواد أخرى كالحديث والتجويد والبلاغة. السنة الثانية: يدرس فيها التلميذ المواد الآتية:

- التوحيد: متن السنوسية، وجوهرة التوحيد للقاني.
- القواعد: قطر الندى وبل الصدى.
- الفقه: الجزء الأول من رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

بالإضافة إلى مواد أخرى كالبلاغة والجغرافيا والصرف والمنطق والتاريخ. السنة الثالثة: يدرس فيها التلميذ المواد الآتية:

- القواعد: الجزء الأول من ألفية لابن مالك.
- الفقه: الجزء الثاني من الرسالة لابن أبي زيد القيرواني.
- البلاغة: الجوهر المكنون في الثلاثة فنون.

بالإضافة إلى مواد أخرى. السنة الرابعة: يدرس فيها التلميذ المواد الآتية:

- القواعد: تتمة ألفية ابن مالك.
- الصرف: جوهر المكنون للأخضري.
- الفقه: مختصر خليل (عُوِّضَ بـ "أقرب المسالك").
- البلاغة: شرح تلخيص المفتاح للقزويني.
- الحديث: موطأ الإمام مالك، والبخاري، والبيقونية.
- الأدب: الأمالي لأبي علي القالي، وديوان الحماسة.
- التاريخ: مقدمة ابن خلدون.
- إملاءات في الحساب والجغرافيا.
- الفرائض: الرحبية.

وهذه البرامج لا تختلف عن برنامج جمعية العلماء المسلمين[20]، إلا في بعض الجزئيات البسيطة؛ كالتاريخ والجغرافيا الذي كان يُركِّز فيه على تاريخ الجزائر، وكان الشيخ يُخصّص لكلّ مستوى ساعة واحدة في الصباح، ويُخصّص للعامة دروساً بين المغرب والعشاء بالمسجد.

20- ينظر: طاهر التليلي، هذه حياتي (مخطوط)، ص 21، 22، وعلي محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، دار ابن كثير، سوريا، ط1، 2016م، ص451-453.

2،1،4. **تحفيظ القرآن الكريم ومبادئ العربية للصبيان:**

اعتنت مدرسة الإصلاح بتعليم الصبيان القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية والأدب، وممن تصدى للتعليم القرآني بالمدرسة مديرها الشيخ إبراهيم كلكامي ورئيس الشعبة عبد الرحمن معمري ونائب أمين المال محمد حامد محضي[21]. وكان التعليم القرآني يتم في الصباح الباكر، وذلك للتمويه على السلطات الاستعمارية بأن المدرسة عبارة عن كتّاب قرآني، وليست مدرسة تعليمية، وبعد خروج أفواج التعليم القرآني تنطلق الدراسة في المدرسة[22].

3،1،4. **إقامة الدروس للعوام لنشر الوعي ومحاربة الجهل والخرافات:**

إلى جانب المقررات التي كانت تُدرّس بالمدرسة، كانت هناك دروس أخرى للعوام يُشرف عليها رئيس وأعضاء شعبة الزقم، وذلك ضمن خطة الجمعية لرفع الجهل والخرافات ونشر العلم وتصحيح العقائد، فكان لرئيس الشعبة عبد الرحمن معمري دروس في التفسير، وللكاتب العام محمد حامد23 دروس في النحو، ولأمين المال دروس في الفقه.

كما كان لمدير المدرسة الشيخ إبراهيم كلكامي نشاط كبير خارج المدرسة فكان يلتقي بالناس في مجالسهم ويعضهم ويدعوهم، فمن ذلك مجالسه بالقهوة المعروفة بـ" القهوة البرّاء" وقد استجاب له عدد كبير من الناس[24]. ورغم المضايقات التي كانت تتعرض لها مدارس الجمعية من المستعمر الفرنسي، ومنها قرار منع التدريس إلا برخصة الصادر في 8 مارس 1938م، إلا أن المدرسة صمدت، وقامت بأداء رسالتها على أحسن وجه.

21- يُنظر: البصائر، العدد :99، السنة الثالثة، 10 ذي الحجة 1356هـ الموافق 11 فيفري 1938م.

22- هو أحمد بن الطاهر منصوري، ولد ببلدة الزقم سنة 1932م، من شيوخه والده الذي درس عليه عددا من المتون، والشيخ إبراهيم كلكامي، درس بمدرسة الفلاح ثم بجامع الزيتونة، وبعد الاستقلال واصل تعليمه النظامي بالمدرس النظامية إلى أن تحصل على شهادة الليسانس في الآداب، كانت له جهود كبيرة في الدعوة والإرشاد، من مؤلفاته: الدر المرصوف، وهو لحد الآن يواصل عمله في نشر العلم والمعرفة والمشاركة في الحياة العلمية بالولاية، فنسأل الله أن يبارك فيه وفي جهوده(لقاء مع الشيخ أحمد منصوري بتاريخ: 2020/01/31).

23- هو محمد بن حامد بدير، ولد سنة 1917م بالزقم، وبها نشأ وترعرع، تحصل على شهادة الأهلية من الزيتونة، مارس مهنة التدريس بمسقط رأسه، مواقفه السياسية ضد المستعمر، جعلت المضايقات ضده تتكرر، ففرّ من المنطقة إلى مدينة تبسة وعمل كمراسل صحفي لجريدة البصائر باسم مستعار أحمد بن حامد، ثم دخل تونس سنة 1943م، وبعد عودته منها سنة 1945م عمل مدرسا بالأربعاء بالعاصمة، ثم بالغرب الجزائري، توفي رحمه الله سنة 1947م (أعلام من سوف في الفقه والثقافة، ص 102، 103).

24- لقاء مع الشيخ أحمد منصوري بتاريخ: 2020/01/31.

2.4. محاربة امتداد الحركة التنصيرية في بلدة الزقم:

حاول المستعمر نشر التنصير في منطقة الوادي والمناطق المجاورة لها عن طريق تسهيل مهمة "الآباء البيض" الذين كانوا ينشرون نسخا من الإنجيل في الأسواق والمساجد والأماكن العامة، ومن ذلك قيام أحد " الآباء البيض" الذي كان يأتي من الوادي مشيا على الأقدام، حاملا معه نسخا من الإنجيل، ويقوم بتوزيعها في على المعلمين والتلاميذ في الكتّاب، وكان الشيخ إبراهيم كلكامي يأمرهم بأخذ هذه النسخ منه، وأن يقوموا بحرقها بعد انصرافه[25]. وهذا الدور الذي عبته المدرسة في الإصلاح الديني والاجتماعي في بلدة الزقم والوادي عموما مهّد الطريق للمساهمة الفعالة لرجالات المدرسة والجمعية في الكفاح المسلح والثورة التحريرية كما سيأتي بيانه في النقطة الموالية.

3.4. دور المدرسة في مكافحة المستعمر والدفاع عن الوطن

ساهمت المدرسة في الثورة التحريرية، عن طريق صناعة الرجال الذين ساهموا في الجهاد ودعم الثورة منذ اندلاعها وحتى نيل الاستقلال، وسأكتفي بذكر نماذج من مساهمة رجال المدرسة في الكفاح المسلح والثورة التحريرية في النقاط الآتية:

مدير المدرسة الشيخ إبراهيم كلكامي كان من السبّاقين للعمل في صفوف الثورة، وذلك عن طريق عضويته في المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني، وساهم في جمع التبرعات والاشتراكات للمجاهدين، إلى أن اكتشف المستعمر نشاطه، وألقى عليه القبض رفقة عدد كبير من علماء المنطقة، بالإضافة إلى ذلك فإن الشيخ كان له أثر كبير في رفع همم الطلبة وحثّهم على الجهاد في الثورة، ممّا نتج عنه التحاق عدد من طلابها بصفوف المجاهدين[26].

كما قامت السلطات الفرنسية بمحاولة عرقلة نشاط المدرسة عن طريق الزج بروادها في السجون، وذلك خلال حوادث سوف الأليمة أفريل 1938م، مما اضطر عددا من الشيوخ إلى الهجرة إلى مناطق أخرى، كمحمد حامد بدير، وأحمد الغولي، وصمد بعضهم كمسعود عباسي، وعبد الرحمان معمري.فالمدرسة كانت كباقي المدارس الأخرى تحت الرقابة الشديدة للسلطات الاستعمارية، رغم الحذر الكبير من مدير المدرسة وزملاءه المخلصين الذين حاولوا إظهار المدرسة وكأنها كتّاب قرآني، يُعنى بتحفيظ القرآن فقط دون غيره من العلوم الأخرى، حيث كانت الدراسة تتم بعد خروج أفواج القرآن الكريم[27]. هذا ورغم

25- يوسف زغوان، المرجع السابق، ص120.

26- سعيدة عمان، التربية والتعليم بوادي سوف، رسالة ماجستير تخصص تاريخ حديث، إشراف شاوش حباسي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2008م، ص20، 21، 174؛ ولقاء الشيخ أحمد منصوري بتاريخ: 2020/01/31.

27- يوسف زغوان، المرجع السابق، ص116-117.

فقدان المدرسة لأقطابها خاصة بعد وفاة الشيخ مسعود عباسي سنة 1954م، وإعدام الشهيد عبد الرحمان معمري وإبراهيم كلكامي في رمضان 1957م، إلا أن النشاط الإصلاحي التعليمي لم يتوقف إلى غاية الاستقلال، بل استمر حتى بعد الاستقلال كما سيأتي بيانه.

4.4. مساهمة أبناء المدرسة في بناء الدولة الجزائرية المستقلة

كان لتلاميذ المدرسة دور كبير غداة الاستقلال في التربية والتعليم، من خلال المساهمة في الدروس المسجدية، والتعليم في المدارس النظامية، وتقلُّد المناصب السامية في مجال التعليم والشؤون الدينية وفي مختلف المجالات الأخرى، من أجل بناء الدولة الجزائرية المستقلة. ويظهر ذلك جليا من خلال تلاميذ المدرسة الذين واصلوا العمل الإصلاحي وساهموا بدور فعّال في بناء الجزائر المستقلة، وسأكتفي بنموذج واحد، وهو الشيخ محمد عز الدين عباسي الذي ساهم غداة الاستقلال بالانضمام إلى قطاع الشؤون الدينية وتدرج فيه وشغل عددا من المناصب الوزارية السامية، ثم عاد بعد ذلك لمسقط رأسه ووضع اللبنات الأولى لمديرية الشؤون الدينية والأوقاف بالوادي سنة 1985م، ثم مفتشا بها إلى أن تقاعد سنة 1991م.

الشيخ رحمه الله كانت له جهود أخرى حتى بعد تقاعده؛ كرئاسته لعدد من المجالس العلمية التابعة لمديرية الشؤون الدينية بصفة تطوعية بعد أن كان يديرها قبل تقاعده؛ كالمجلس العلمي، ومجلس اقرأ، ومجلس التجهير، ومجلس سبل الخيرات[28]. فالشيخ رحمه الله كان نموذجا لمشايخه من رجال الإصلاح في الجد والعطاء والمثابرة في خدمة دينه ووطنه فرحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح جنانه.

5. خاتمة

من أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث:

- تُعد مدرسة الإصلاح ببلدة الزقم من أهم المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين بمنطقة وادي سوف على غرار مدرسة النجاح بقمار، ومدرسة الفلاح بالرقيبة...

- الشيخ إبراهيم كلكامي رجل من رجالات الإصلاح ساهم بدور كبير في الحركة التعليمية والإصلاحية ببلدة الزقم ومنطقة وادي سوف، وكان له دور كبير في بناء جيل من العلماء والأدباء والمفكرين.

- مساهمة مدارس الجمعية في المحافظة على الشخصية والهوية الإسلامية لدى الشعب الجزائري.

28- علي زواري أحمد العلامة محمد عز الدين عباسي حياته وجهوده العلمية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، المجلد:7، العدد:1، ماي 2021، ص66-68.

- يظهر الدور الكبير لجامع الزيتونة في تكوين واحتضان الطلاب الجزائريين، والمساهمة الفعّالة في تأطير مناهج ومقررات مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- مدرسة الإصلاح كان لها دور كبير في المحافظة على عناصر الهوية الوطنية، وذلك من خلال نشر التعليم وتحفيظ القرآن ومحاربة التنصير وتوعية الشعب من خلال الدروس والمحاضرات....
- ساهم عدد من طلاب مدرسة الإصلاح والمدارس الأخرى التابعة للجمعية في تلبية نداء الثورة، والالتحاق بالثورة التحريرية المضفرة، وبعد الاستقلال كان لهم دور كبير في بناء الدولة الجزائرية المستقلة.

من أهم التوصيات:

- على السلطات والجهات المعنية إعادة الاعتبار لمقر مدرسة الإصلاح بالزقم والمدارس التاريخية الأخرى بالولاية، وذلك بصيانتها وترميمها، والمحافظة عليها.
- العمل على إعداد معجم للتعريف بشيوخ ورجالات مدرسة الإصلاح بالزقم، وذلك بالاستعانة بتلاميذها الذين ما زالوا على قيد الحياة، أمثال الشيخ: أحمد منصوري-حفظه الله، وبيان دورهم في المقاومة الثقافية.
- عقد الملتقيات والمحاضرات، وتوجيه طلبة الدراسات العليا للكتابة وتناول تاريخ المدارس القرآنية خلال فترة الاحتلال الفرنسي، لتعريف الأجيال بتضحيات الأسلاف، فتأخذ منها العبر.

5. قائمة المراجع

المؤلفات:

- سعد بن البشير العمامرة، أحمد بن الطاهر منصوري، أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، جمعية الجماعة السوفية، مطبعة مزوار، الجزائر، 2006م.

- طاهر التليلي، هذه حياتي (مخطوط).

- عز الدين عباسي، تحفة السالك إلى خير المسالك، مطبعة مزوار، الوادي.

- علي محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، دار ابن كثير، سوريا، ط1، 2016م.

- محمد المولدي سيشي، مقتطفات من تاريخ بني عدوان وعمارة سوف، مدونة محاضرات الندوة الفكرية الأولى للشيخ العدواني، الزقم من ديسمبر 1996 إلى يناير 1997.

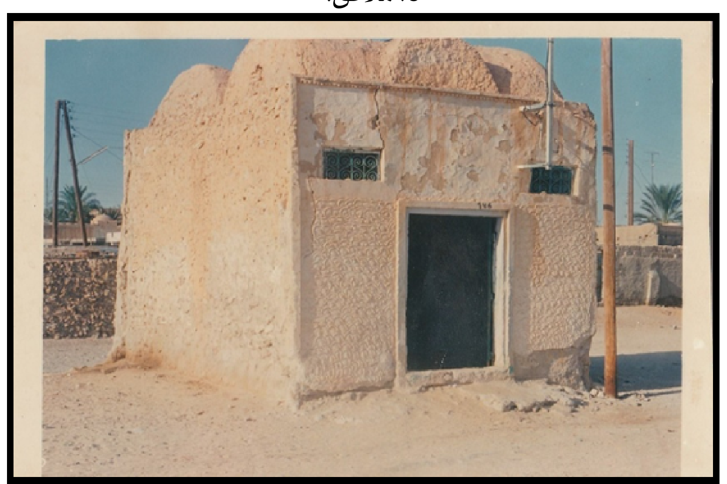
- مديرية الثقافة بالوادي، أعلام سوف، شركة مزوار وأبنائه، الوادي، ط1، 2006م

الرسائل الجامعية:

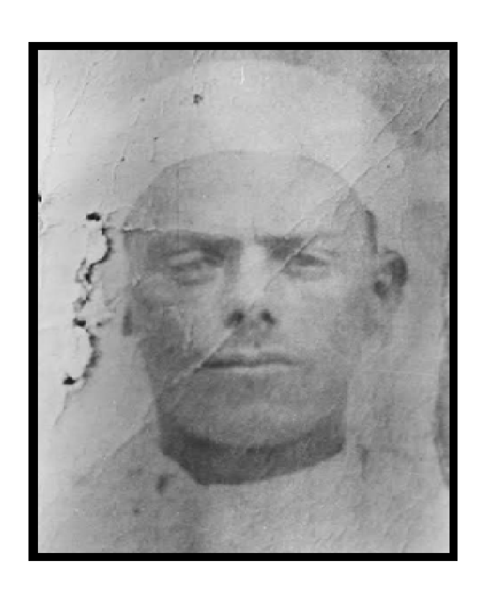
- سعيدة عمان، التربية والتعليم بوادي سوف، رسالة ماجستير تخصص تاريخ حديث،

إشراف شاوش حباسي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2008م.
- يوسف زغوان، التعليم العربي الحر بوادي سوف (1931-1962)، رسالة ماجستير التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف علي غنابزية، جامعة الوادي، شعبة التاريخ، 2014-2015.
المجلات:
- البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين، الأعداد: 93، 94، 95، 96.
اللقاءات والبرامج:
- لقاء أحد تلاميذ مدرسة الإصلاح بالزقم الشيخ أحمد منصوري في بيته، بتاريخ: 31-01-2020.
- العيد بلالي، حصة "الدين والحياة"، إذاعة الجزائر من الوادي، 2014/02/06م.
المواقع الإلكترونية:
- القناة الجزائرية الخامسة، 2010م، فيديو منشور على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=aoOf2xuXOpk

6. ملاحق:



مقر مدرسة الإصلاح بالزقم
مقابل المسجد الغربي من الناحية الشمالية



الشيخ إبراهيم كلكامي مؤسس مدرسة الإصلاح بالزقم



الشيخ محمد عز الدين عباسي تلميذ من تلامذة مدرسة الإصلاح بالزقم

منطقة وادي ريغ بالجنوب الشرقي الجزائري
ـ الجغرافيا، السكان، الاحتلال ـ

Oued Righ region in South east of Algeria
geography, inhabitants, occupation

د/ معاد عمراني
جامعة الوادي (الجزائر)
amrani.mouad18@gmail.com

ط.د/ أحمد مجوري
جامعة الوادي (الجزائر)
medjouri-ahmed@univ-eloued.dz



ملخص: يتناول هذا المقال بالبحث والدراسة منطقة وادي ريغ بالجنوب الشرقي الجزائري، خلال البدايات الأولى للاحتلال الفرنسي لهذه المنطقة، حيث تطرقت فيه إلى جغرافية هذا الإقليم من حيث الموقع الجغرافي والتسمية، وبخصوص السكان، فقد تناولت فيه التركيبة البشرية، وكذا تطور النمو السكاني لهذه المنطقة، وذلك من بداية احتلالها سنة 1854م إلى غاية النصف الأول من القرن العشرين، وفي فترة الاحتلال الفرنسي، ركزت الحديث حول الاستعدادات الفرنسية الأولى لاحتلال مدينة توقرت عاصمة وادي ريغ، ثم أحداث معركة المقارين سنة 1854م، حيث سقطت فيه هذه الأخيرة في أيدي القوات الفرنسية.

الكلمات المفتاحية: وادي ريغ؛ الجنوب الشرقي؛ الجغرافيا؛ السكان؛ الاحتلال.

Abstract :
This article studies and digs deep into the region of Oued Righ in the south east of Algeria at the very beginning of the French occupation. I tried to explore the geography the region in term of the place and name, and concerning the inhabitants, I tried to know its human construction, and its inhabitant growth development from the beginning of the occupation in 1854 to first half of twentieth century, During the French occupation, I focused on talking about the French first preparation for the occupation of Touggourt city, the capital of Oued Righ, and then on the battle of Megarine in 1854, when this city afterwards succumbed to the French forces.

Keywords: Oued Righ; South East of Algeria; geography; inhabitants; occupation .

1.مقدمة:

تقع منطقة وادي ريغ بالجنوب الشرقي الجزائري، وتعود الحياة في هذه المنطقة إلى فترة ما قبل التاريخ، وكبقية مناطق الوطن الجزائري، عرفت هذه المنطقة فترة الاحتلال الفرنسي، خلال بداية منتصف القرن التاسع عشر ميلادي، وقبل مرحلة الاستعمار، خضعت هذه المنطقة لعدة أنظمة سياسية، كان آخرها أسرة بني جلاب، التي بسطت سيطرتها ونفوذها على وادي ريغ لمدة ناهزت الثلاثة قرون، انطلاقا من مدينة توقرت العاصمة السياسية للإقليم، كما سكنت هذه المنطقة عدة قبائل وأعراش مختلفة ومتنوعة على امتداد هذا الإقليم، ومنه نطرح السؤال الآتي: كيف أثّر الموقع الجغرافي لمنطقة وادي ريغ على احتلالها من قبل الفرنسيين، وما هي أبرز مكونات المجتمع الريغي خلال النصف الأول من القرن العشرين، وكيف تطور النمو السكاني خلال هذه الفترة، ما موقف بنو جلاب(حكام وادي ريغ)، وسكان وادي ريغ من المستعمر الفرنسي لما شرع في التحضير لغزو واحتلال مدينة توقرت عاصمة الحكم الجلابي؟

ونهدف من خلال هذه الدراسة إلى إبراز أهمية الموقع الجغرافي لمنطقة وادي ريغ، خاصة خلال الفترة الاستعمارية، وكذا التنوع السكاني، الذي امتازت به هذه المنطقة، ثم دور هذه الأخيرة في مقاومة المستعمر الفرنسي، معتمدين في دراستنا هذه على المنهج التاريخي، الذي يجمع بين الوصف والتحليل.

2. جغرافية المنطقة

2 ،1. الموقع والحدود:

يقسم الجغرافيون الصحراء الجزائرية الشمالية إلى قسمين، الصحراء المنخفضة (Bas Sahara) والصحراء المرتفعة (Haut Sahara)، وعموما، فإن منطقة الدراسة -وادي ريغ- تقع في قلب الصحراء المنخفضة، وهي منطقة ارتوازية غنية بالمياه الجوفية كانت مهدا لنشأة الواحات[1]، وبالتحديد يقع إقليم وادي ريغ في الشمال الشرقي من الصحراء الجزائرية في منخفض مستطيل الشكل، طوله 160 كم، وعرضه يتراوح ما بين 30 و 40 كم، يبتدئ شمالا من قرية عين الصفراء قرب بلدة أم الطيور، وينتهي جنوبا بقرية قوق[2]. يحد الإقليم من الشمال، الجنوب الغربي لشط ملغيغ، ومن الجنوب مدينة ورقلة، ومن الشرق العرق الشرقي الكبير، ومن الغرب منحدر حصوي وهضبة ميزاب[3]، وأهم ما يميز منطقة وادي ريغ

1- Edmont Sergent, Le Peuplement Humain du Sahara, Institut Pasteur d'Alger ,T.31, Alger,1953, p.23.

2- عبد الحميد قادري، التعريف بوادي ريغ، د.ط، منشورات جمعية الوفاء للشهيد، تقرت، د.ت، ص.1.

3- أبو عبد الله محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج.1، د.ط، مكتبة الثقافة الدينية،

من الناحية التضاريسية هو البساطة والاستواء، حيث تتميز بانحدار خفيف من الجنوب إلى الشمال، وبارتفاع عن سطح البحر مقداره 35م، مع مرتفعات بسيطة لا تفوق 300م[4].

2.2. **التسمية:**

سمى ياقوت الحموي إقليم وادي ريغ بالزاب الصغير أو ريغ[5]، وسماه ابن خلدون بلاد ريغ أو أرض ريغ[6]، وسماه ابن سعيد أيضا ببلاد ريغة[7]، أما في الوقت الحاضر، فيعرف بوادي ريغ، تمييزا له عن وادي سوف ووادي ميزاب[8]. ومن حيث تسمية المنطقة، فقد تعددت الروايات حول تفسير كلمة "ريغ"، إذ يرى ابن خلدون أن سبب التسمية يعود إلى ريغة أحد بطون مغراوة، وفي هذا الصدد يقول: «وأما بنو ريغة فكانوا أحياء متعددة .... ونزل الكثير منهم ما بين قصور[9] الزاب ووراكلا، فاختطوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحصر من الغرب إلى الشرق، ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة والأطم، وقد رفّ عليها الشجر ونضدت حوافيها النخيل، وانساحت خلالها المياه، وزهت بينابيعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد»10. وإن كان ياقوت الحموي يرى بأن ريغ كلمة بربرية معناها السبخة[11]، فإن العدواني يقول بأن اسم المنطقة يعود إلى رجل اسمه

القاهرة، 2002م، ص.85، وكذلك:

Bouzid Touati ‹‹ les potentialités hydrique et la phoeniciculture dans la vallée de l'oued Righ , Bas-Sahara algérien›› thèse de doctorat de 3eme cycle, laboratoire de géographie physique, université de Nancy, Février 1986, P.13

4- Rouvillois Brigol, Oasis du Sahara Algérien, Institut géographique National, Paris,1978,p.09.

5- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط.1، تح: فريد عبد العزيز جندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ / 1990م، ص.129.

6- عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ بن خلدون، د.ط، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، مج.7، ج.13، ص.98.

7- علي بن سعيد بن موسى، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1970م، ص.190.

5- قادري، المرجع السابق، ص.1.

9- يختلف مفهوم القصر هنا عن المعنى الشائع وهو البناية الفخمة، فالقصر في المناطق الصحراوية هو عبارة عن قرى محصنة، أو بالأحرى هو عبارة عن تكتلات سكنية متراصة ومتلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية، تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة، ويحيط بهذه التكتلات أحيانا سور سميك، للمزيد من المعلومات ينظر: علي حملاوي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، م. و. ف. م، الجزائر،2006م، ص.18.

10- ابن خلدون، المصدر السابق، مج.7، ج.13، ص.98.

11- الحموي، مصدر سابق، ص. 113

ريغ، موضحا بالحرف الواحد: «ثم قلت له أخبرني عن وادي ريغ؟ وعن مسكنه؟ قال لي: يا سيدي ريغ اسم رجل يقال له ياهوت بن شملخ من كعب بن عاوية من ولد أندلس بن يافث بن نوح»[12].

كان إقليم وادي ريغ قبل الاحتلال الفرنسي، يتكون من حوالي 35 مدينة وقرية ودشرة، تشكل في مجموعها واحات وادي ريغ، ونذكر منها: منطقة المغير التي تضم (أم الطيور، نسيغة، سيدي خليل، البارد، تندلة، والمغير أيضا)، ومنطقة جامعة وبها (لغفيان، الزاوية، مازر، تقددين، سيدي عمران، تمرنة، سيدي يحي، ناهيك عن جامعة) وكذا منطقة توقرت وتشمل (سيدي سليمان، لهرهيرة، مقر، القصور، غمرة، المقارين، توقرت، تماسين، قوق..)[13]. وتعتبر مدينة توقرت عاصمة إقليم وادي ريغ[14]، أي العاصمة السياسية والعسكرية، أما العاصمة الدينية في الفترة الحديثة والمعاصرة، فهي مدينة تماسين[15] التي يوجد بها مقر الزاوية التجانية [16].

3. السكان:

3 .1. التركيبة البشرية:

سكنت بوادي ريغ قبائل وأجناس متعددة، وتعاقبت عليها أمواج بشرية كثيرة، وهذا منذ قرون عديدة، وقد امتزجت هذه المجموعات البشرية مع بعضها البعض، حتى أصبح الدارس يجد صعوبة بالغة في التمييز بين هذه القبائل والجماعات، وعلى الرغم من ذلك،

12- محمد بن عمر العدواني، تاريخ العدواني، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005 م، ص138.

13- معاد عمراني ‹‹أسرة بني جلاب في منطقة واي ريغ، من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1962م، دراسة سياسية واجتماعية›› مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1422هـ-1423هـ/2002م-2003م، ص90.

14- تقع مدينة توقرت في الجنوب الشرقي الجزائري، حيث تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 620 كم، وقد تعددت الروايات حول تفسير كلمة توقرت، فهناك من ينسبها لامرأة جميلة سكنت توقرت، اسمها البهجة، وهناك من يقول أن معناها هو القمر أو الجوهرة، لكن الراجح أن كلمة توقرت مصطلح أمازيغي، ومعناه المنطقة القاسية والتي تصعب فيها الحياة، للمزيد من المعلومات حول مصطلح توقرت. ينظر: معاد عمراني « البعد الأمازيغي في أسماء مدن وقرى وادي ريغ ووادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري» أعمال الملتقى الوطني حول التخطيط اللغوي أيام 03 – 04 – 05 ديسمبر 2012م، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري بتيزي وزو.

15- تبعد تماسين بحوالي 12كم جنوب توقرت، وقد تعدّدت الروايات حول تسمية تماسين، لكن الراجح منها هو أن كلمة تماسين مصطلح أمازيغي، ومعناه المنطقة التي تكثر بها المياه الجوفية، للمزيد من المعلومات ينظر: عمراني «البعد الأمازيغي ....»، المرجع السابق.

4- Zaccone (J), de Batna à Touggourt et au Souf, librairie militaire j.dumaine, Paris, 1865 , p.224

فإنه يمكن أن نقسم الخارطة البشرية لوادي ريغ إلى أربعة عناصر، وهي: الأمازيغ (الرواغة) والعرب والزنوج والمولدون.

أ- الرواغة: يعتبر الرواغة من أهم وأقدم المجموعات السكانية التي استقرت بوادي ريغ، وتعود أصولهم إلى قبيلة ريغة البربرية (الأمازيغية) وهي إحدى بطون مغراوة التي عمّرت هذا الاقليم منذ قرون عديدة، حيث سكنوا هذه المنطقة وكانوا هم الجنس الغالب، فالقصور التي أنشأت على أطراف وادي ريغ كانت عامرة بهم، حتى نسبت هذه الجهة إليهم، فسميت بوادي ريغ باعتبار الكثرة والغلبة، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء وبهم تعرف لهذا العهد"[17]. ويفهم من كلام ابن خلدون، الذي زار وادي ريغ في القرن السابع الهجري أنه وإلى غاية هذه الفترة كان البربر هم الجنس الغالب والمسيطر، خاصة إذا علمنا أن المغرب الأوسط (الجزائر) قد شهد توافد مجموعات بشرية جديدة، منذ أواسط القرن الخامس للهجرة، تمثلت في القبائل العربية من بني هلال وبني سليم[18].

وما يدل على الوجود الأمازيغي وقدمه في هذه المنطقة، أنه ولغاية يومنا هذا مازالت مختلف أسماء المدن والقرى والغابات، ومختلف أنواع التمور تنطق بالأمازيغية، فنذكر على سبيل المثال لا الحصر، اسم توقرت وتماسين وتالة وتمرنة ومازر وغمرة ووغلانة وتاغفونت وتايزرت وغيرها، كلها مصطلحات أمازيغية[19]، بل مازالت هناك مناطق بأكملها في وادي ريغ لا تستعمل إلا اللهجة الأمازيغية، والتي تسمى محليا بالشلحة، ونذكر من بينها بلدة عمر القريبة من مدينة توقرت، أما مدينة تماسين وبلدة غمرة فإن استعمال الشلحة فيهما الآن بقي مقتصرا على كبار السن، وإن كان الصغار يفهمونها، ولكنهم لا يستعملونها في حياتهم اليومية، والسؤال الذي نطرحه هنا هل هذه المجموعات التي مازالت تستعمل اللهجة الأمازيغية (الشلحة)، تمثّل قبيلة ريغة التي تحدث عنها ابن خلدون؟.

في الواقع أن الأمازيغ بصفة عامة في وادي ريغ، وعلى مر القرون قد اختلطوا بغيرهم من الأجناس، فلم نعد نميز بين ريغة وغيرها من الجماعات، وقد لاحظ هذه النقطة الكاتب الفرنسي جورج رولاند (George Rolland)، الذي زار منطقة وادي ريغ في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي، إذ يرى أن الرواغة بربر، لكنهم يمتازون بسواد البشرة وتجعيد

17- ابن خلدون، المصدر السابق، مج7، ص.98.

18- يعتبر الشيعة الفاطميون بمصر هم سبب هجرة هذه القبائل العربية إلى المغرب الأوسط (الجزائر) وهذا عقابا لبني زيري، الذين تركوهم خلفاء لهم بالمغرب، إلا أنهم انقلبوا عليهم وتحولوا إلى المذهب السني المالكي، وكانت بداية الزحف الهلالي السليمي إبتداء من سنة 442هـ، للمزيد من المعلومات ينظر: رابح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ج.2، ط.2، ش.و.ن.ت، الجزائر،1981، ص ص.192-200.

19- للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ينظر: عمراني « البعد الأمازيغي ...» مرجع سابق.

الشعر، وهذا يتناقض مع الصفات الخلقية للبربر، والذين يمتازون ببياض البشرة، إلا أنه يجيبنا أن هذه الصفات ليست أصلية عند الرواغة، بل هي صفات اكتسبوها من خلال زواج آبائهم، ومنذ قرون عديدة بالآمات، والذين كانوا يجلبون من السودان[20].

ب- **العرب**: ذكرنا فيما سبق، أن موجات جديدة من العرب قد توافدت على المغرب الأوسط (الجزائر)، وكان ذلك بتشجيع من الفاطميين بمصر، حيث نفذوا من ثلاث جهات، وهي جهة الساحل، وجهة الهضاب ما بين سلسلتي الأطلس التلي والصحراوي، وجهة الصحراء[21]، وكان نفوذهم من البوابة الأولى أكثر من غيرها[22]، أما جهة الصحراء، فقد تصدت لهم جموع زناتة في بداية الأمر[23]، إلا أنهم في آخر الأمر تمكنوا من التوغل في هذه المنطقة، وتمازجوا مع القبائل المحلية خاصة مغراوة، وانتشروا في تلك التخوم الصحراوية[24]، والتي حدّدت ببلاد النمامشة شمالا، ووادي ريغ جنوبا[25]. ومن أهم القبائل العربية التي سكنت بوادي ريغ، نذكر قبيلة أولاد مولات، والتي كانت تتشكل من ثلاثة أعراش وهي: أولاد دباب المنحدرين من أولاد زيد ويمثلون الأعيان، أولاد حامد، الواته، وكانت هذه القبيلة تمارس حياة الحل والترحال بين مختلف مدن وقرى وادي ريغ، كما كانت تملك محلات ودكاكين في أغلب أنحاء هذه المنطقة، يضاف إليهم قبائل أخرى، نذكر منها الفتايت وأولاد سلمية وأولاد رحمان (العرب لغرابة)، وأولاد سايح وسعيد أولاد عمر[26].

ج- **الزنوج**: هم بقايا العبيد الذين جلبهم تجار النخاسة، لأن سوق تقرت كان سوقا عاما يأتيه التجار من كل الجهات لقضاء مآربهم، فبعضهم جاء إلى المنطقة فارا من أسياده، وبعضهم كانوا موالي وعبيدا عند سلاطين بني جلاب[27] وأغنياء الإقليم، ثم تحرّروا من ربق العبودية، وبعضهم وفد على المنطقة من بلاد السودان، وهم منتشرون في كامل الإقليم وينتسبون إلى المداشر والقرى التي سكنوها[28].

20- George Rolland, La Conquête du désert, Biskra,Touggourt, Oue Ri, éditeur librairie coloniale, Paris, 1889, p.56.

21- محمد خير الدين، مذكرات، ج1، د.ط، م.و.ك، الجزائر، د.س، ص ص.19-20.

22- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج.2، م.و.ك، الجزائر، 1989م، ص.182.

23- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية، د.ط، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، د.س، ص.54.

24- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، د.ط، م.و.ك، الجزائر، 1983م، ص.163.

25- علي غنابزية «مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/ 19م» رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص.111. دراسة وصفية لواحة وادي ريغ:

26- A.O.M, , B.N°,1H229,

A.O.M, B.N°,1H229, Annexe de Touggourt, Rapport annuel :

27- بنو جلاب: هم حكام توقرت ووادي ريغ، من سنة 1531م إلى 1854م.

28- عبد الحميد قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد جزائرية، دراسة تاريخية، ج.1، ط.1، دار الأوطان للنشر

د- **المولدون:** المولدون هم خليط من الدماء الأمازيغية أو العربية بالدماء الزنجية نتيجة التزاوج بين السكان الأصليين أو العرب بالنساء الزنجيات، وينتسبون إلى القرية أو البلد الذي ولدوا ونشئوا فيه ولا ينتسبون لأصولهم، وبطول الزمن وتعاقب الأجيال اندمجت جميع هذه العناصر في بوتقة واحدة، وقد انمحت سلسلة الأنساب، ولم يعد باستطاعة الإنسان أن يفرق بين الأمازيغي الأصل والعربي، أو بين المولد وغيره من الأجناس[29].

3 ،2. تطور النمو السكاني:

إن كل معلوماتنا حول إحصائيات السكان في منطقة وادي ريغ أخذناها من المصادر الفرنسية، سواء كانت كتب رحالة أو تقارير بعض القادة العسكريين، والذين قاموا بعمليات إحصائية متعددة لهذه المنطقة، ونستنتج من خلال هذه المصادر أن التعداد السكاني لوادي ريغ بعد الاحتلال الفرنسي أواخر سنة 1854م، أخذ يزداد شيئا فشيئا، ففي شهر ماي سنة 1856م بلغ عدد سكان هذا الإقليم 6772 ساكن، وفي شهر جوان سنة 1879م وصل التعداد إلى 12872ساكن و2878 منزل[30]. ونلاحظ أن هذه الإحصاءات غير دقيقة ولا تعكس الواقع، لأن صاحبها ركز على السكان المستقرين بالقرى والمداشر، مع إغفال القبائل غير المستقرة، والتي كانت تجول وتصول في أرجاء هذا الإقليم بحثا عن الكلأ والمراعي والأسواق، ونذكر على سبيل المثال العرب الغرابة، وأولاد سايح والفتايت وسعيد أولاد عمر وغيرهم.

مع بداية العقد الأول من القرن العشرين ميلادي، أصبحت الإحصاءات أكثر دقة، إذ أصبحت تأخذ بعين الاعتبار كل مكونات المجتمع الريغي، ففي إحصاء 1908م، بلغ عدد سكان وادي ريغ 30582 ساكن، منهم 7185 في توقرت لوحدها، أما إحصاء سنة1921م، فقد ارتفع عدد سكان وادي ريغ إلى 54248 ساكن منهم 11655 شخص في توقرت، ويتوزعون على عشرة قبائل وأعراش، وتضم كلا من عرش توقرت، وتماسين، والطيبات القبلية، وسعيد أولاد عمر، وأولاد السائح، والعرب لغرابة، وأولاد مولات، والمقارين- تمرنة، وجامعة، والمغير[31]. وقدّر عدد سكان وادي ريغ في إحصاء مارس سنة 1931م بحوالي 60606 ساكن، منهم 10578 شخص في توقرت، أما إحصاء سنة 1948م، فقد وصل تعداد السكان إلى 85193 ساكن، منهم 16099 في توقرت[32].

والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص.191.

29- قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد، مرجع سابق، ص ص.191-192.

30- Les Oasis de L'Oued Rir en 1856-1879, Imprimerie de L.Marle, Constantine,1879, pp.10-12.

31- A.O.M, B.N° 23H99, Annexe de Touggourt,Rapport annuel 1921.

32- Ibid, Rapport annuel 1931.

4. غزو واحتلال مدينة توقرت عاصمة الحكم الجلابي (1853م-1854م)

1،4. التحضيرات الفرنسية لاحتلال مدينة توقرت:

منذ أن احتلت فرنسا مدينة بسكرة سنة 1844م، بقيت تتطلع إلى احتلال بقية الجنوب الجزائري، وخصوصا مدينة توقرت عاصمة الحكم الجلابي، ولم يتحقق لها ذلك، إلا بعد عقد من الزمن، أي في سنة 1854م. وبين سنتي 1844م و1854م، حدثت عدة أحداث ووقائع، أخّرت احتلال فرنسا لمدينة توقرت، نذكر من أبرزها جهاد الأمير عبد القادر بالغرب الجزائري، وجهاد أحمد باي في الشرق الجزائري، لكن ما إن تمكنت فرنسا من القضاء على هذين المقاومتين، حتى يمّمت وجهها شطر منطقة توقرت لاحتلالها. وبذلك بقيت السلطات الاستعمارية تتحين الفرصة المناسبة، لتنفيذ ذلك، فقد كانت العلاقة بين بني جلاب والسلطات الاستعمارية حسنة في عهد عبد الرحمان بن جلاب، ولكن بوصول سلمان بن علي إلى الحكم في توقرت، تغيّرت العلاقة بين الطرفين، وذلك بسبب تصرفات سلمان المعادية للفرنسيين، فوجد المستعمر في ذلك فرصة مناسبة، لغزو هذه المنطقة واحتلالها.

يعتبر سلمان بن علي الجلابي آخر حاكم في الأسرة الجلابية، فلما استولى على الحكم في شهر مارس 1852م، فتح أسواق مدينة توقرت أمام أعداء فرنسا كناصر بن شهرة[33] والشريف محمد بن عبد الله[34]، فاضطر سلمان لإيهام الفرنسيين بالولاء ودفع لهم

33- هو ابن ناصر بن شهرة بن فرحات، ولد عام 1804م، وتزوّج بنت السيد أحمد بن سالم، سلطان مدينة الأغواط قبل الاحتلال، ولما جاء المستعمر الفرنسي، رفض الخضوع له، وتوجه إلى أعماق الصحراء، وقد دام كفاحه أكثر من 24 سنة ضد المستعمر الفرنسي (1851م -1875م)، ولما وقعت حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا، استأنف ناصر بن شهرة الكفاح، فكان بطلا بارزا من أبطال ثورة 1871م، ونازل الاحتلال إلى أن انتهت الثورة، فسافر إلى بيروت = الشام، حيث أمضى بقية حياته، إلى أن توفي سنة 1884م، للمزيد من المعلومات، ينظر: أحمد بوزيد قصيبة «إبن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة1871م» في الأصالة، ع.6، السنة الأولى ذو الحجة 1391هـ/جانفي 1972م، ص ص.56 – 58.

34- ينتمي محمد بن عبد الله إلى أولاد سيدي أحمد بن يوسف، فرع قبيلة أهل روسل قرب عين تيموشنت، تعاون في بداية حياته مع السلطات الاستعمارية في الغرب الجزائري، فخلعوا عليه لقب السلطان، ثم انقلب بعد ذلك على الاستعمار وأعلن عليه الثورة، حيث بدأ حياته الجهادية بالاستيلاء على ورقلة سنة 1851م، ثم واصل جهاده بعد ذلك، فامتدت فترة كفاحه حوالي نصف قرن، وشملت الجزائر وتونس وطرابلس، ينظر:

(V) Colomieu, Voyage dans le Sahara algérien, de Géry ville à Ouargla 1862, ,Paris,1863, p.-164 162

وكذلك: يحيى بوعزيز«كفاح الشريف محمد بن عبد الله» في <u>الثقافة</u>، ع.33، السنة السادسة جمادى

الضريبة، حتى يسمحوا له بشراء التموينات التي يحتاجها في توقرت، وكان الفرنسيون قد اشترطوا على سلمان أن يغلق سوق توقرت في وجه الثوار، لكنه لم يفعل، وقدّم 500 جمل محملة بالمؤونة للشريف محمد بن عبد الله وناصر بن شهرة، واكتشف الفرنسيون ذلك فيما بعد[35]. ولتأكيد العلاقة الطيبة مع محمد بن عبد الله، استقبل استقبالا مهيبا بتوقرت في صيف 1853م، وتزامن ذلك مع لجوء الشيخ سلمان إلى وضع تحصينات إضافية في المدينة استعدادا لأي حرب مع الفرنسيين، أما ناصر بن شهرة، فقد كان تحت رعاية سلمان بن جلاب في نهاية 1853م، وهذا بعد ما أصيب بجروح بليغة أثناء الدفاع عن مدينة ورقلة[36].

بالتوازي مع تحضيرات سلمان الجلابي للدفاع عن مدينته، شرعت القوات الاستعمارية في التحضير لاحتلال منطقة وادي ريغ جديا، فأمرت جميع وحدات قواتها المسلحة المتواجدة في بسكرة بالتجمع ببرج طاير راسو يوم 18 نوفمبر 1854م، وتحرك فيلق القائد مارمي (Marmier)، لاستكشاف المنطقة محملا من المؤونة ما يكفيه لمدة شهر كامل، كانت على متن ما يقارب الألف من الإبل، وصل بها إلى المغير يوم 22 نوفمبر 1854م، ثم إلى وغلانة يوم 24 نوفمبر، ثم سيدي راشد يوم 27 نوفمبر، ثم إلى غمرة التي لم يجد فيها مارمي إلا النساء والشيوخ والأطفال؛ لأن الشباب كلهم ذهبوا إلى معسكر توقرت، للمشاركة ضمن قوات سلمان[37].

2.4. معركة المقارين وسقوط مدينة توقورت (نوفمبر 1854م):

بعد أن قطعت القوات الفرنسية المسافة ما بين بسكرة إلى توقرت، دون مقاومة تُذكر من سلمان ومناصريه[38]، وصل الجيش الفرنسي إلى منطقة المقارين بعد الظهر[39]، وبدأ يحضر للمعركة وقد قدّر عدد القوات الفرنسية المشاركة في هذه المعركة بـ 250 جندي نظامي، و2400 من الاحتياطيين وقوات الصبايحية بقيادة العربي المملوك مكونة من 150

الثانية ،رجب 1396 هـ/ يونيو، يوليو 1976م، ص ص.11-24 .

(C) Trumelet, Les Français dans le désert , 2 édition, Paris, Challamel aine, éditeur librairie Algérienne et coloniale, 1885, P.44.

35- (Ch) Feraud ‹‹Note historique sur la province de Constantine, Les Ben Djellab Sultans de Touggourt ››R.A, N° 25, P.135.

36- عبد المجيد بن نعمية «مواقف شيوخ بني جلاب في تقرت من الاحتلال الفرنسي» الملتقى التاريخي الثالث، بتوقرت (ولاية ورقلة)، يومي23 و24 أفريل 1998م، ص.125.

37- A.O.M, 10H76, Mémoires siroka, cahier n°3.

8 (J) Zaccone, Batna à Touggourt et au Souf, Paris: Librairie mitaire J, dumaine , 186 , P.208.

39 تبعد لمقارين بحوالي 12كم شمال توقرت.

فارس، ويذهب الفرنسيون إلى أن جيش المقاومين كان يتألف من 2000 من الفنطازية و400 خيالة[40]، أما القائد العام للحملة، فهو العقيد ديفو (Desvaux) حاكم مقاطعة باتنة[41]. باقتراب القوات الفرنسية من مدينة توقرت عاصمة الحكم الجلابي، نصح الشريف محمد بن عبد الله صديقه سلمان بأن لا يبقى قابعا في مدينة توقرت، بل عليه أن يجمع قواته ويضايق مسيرة الفرنسيين إلى توقرت، أي أن سلمان ينتقل من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم[42]. ويبدو أن سلمان هاجم الفرنسيين من غير خطة، فقد كان هناك رجل من جماعة وادي سوف يقال له كرباع، صال في القوم وكان في وقت الاستراحة، فقال لهم: كيف تصبرون على القتال إلى الآن، فقام الناس من غير استعداد ولا انتظام، وهاجموا القوات الفرنسية في المقارين، وكانوا ينتظرونهم واقفين على قدم وساق[43]، وبذلك بدأت المعركة يوم 29 نوفمبر 1854م بين المعسكرين في بورخيس[44] على وجه التحديد.

في أول الأمر، انهزم الجيش الفرنسي، ثم تعزز بقوة جديدة، رجحّت الكفة لصالحه[45]، ويلخص لنا النقيب سيروكا (Seroka) مجريات هذه المعركة، وذلك باعتباره أحد القادة الفاعلين، إذ يخبرنا بأن قوات سلمان والشريف محمد بن عبد الله، حاولت التسلل داخل قرية المقارين، لجلب انتباه الجنود الفرنسيين ناحية الشرق، في حين كانت كوكبة أخرى تتأهب، لدخول القرية والتحصن بداخلها، لكن هذه الخطة لم تعرف أي نجاح، حيث أمر القائد مارمي (Marmier) جنوده بتطويق واحة المقارين، وحاول الملازم الأول عمار قائد مفرزة من الصبايحية، صد المهاجمين الذين كانوا على الجهة اليسرى، في حين تكفل النقيب فاندريوس (Vindrios) مع مجموعته المتكونة من القناصين بتوقيف زحف الفرسان، الذين كانت جثثهم قد غطت جوانب الخندق المحيط بالمقارين[46]. ورغم الاستماتة

40- A.O.M, 10H76, Mémoires siroka, cahier n°3.

وكذلك: جريدة المبشر، ع.176، 31ديسمبر 1854م، إن هذه الإحصاءات حسبما صرح به سيروكا أحد قادة الحملة على توقرت، شملت جيش الشريف محمد بن عبد الله التي قدم بها من منطقة وادي سوف وضواحيها، فهي بالتالي قد أغفلت قوات سلمان الجلابي، ويدخل فيها مختلف الشباب، الذين استنفرهم من قرى ومداشر وادي ريغ بالإضافة إلى مختلف القبائل العربية المتحالفة معهم، وبالتالي، فإننا نرى أن العدد قد يكون أكثر من ذلك بكثير.

1- A.O.M, 10H76, Mémoires siroka, cahier n°3.

42 Feraud « Notes Historiques ... » Op.Cit, N°25 ,P.199.

43- العوامر، مرجع سابق، ص ص.247 – 248.

4- بورخيس موضع يقع في الشمال الشرقي للمقارين بحوالي 7كم، ويبدو أن هذه المعركة مازالت حاضرة في أذهان سكان المنطقة، ففي كل خريف، وهو الفصل الذي جرت فيه المعركة، تقام حضرة بورخيس في هذا المكان، مقابلة مع المجاهد محمد الصالح زوزو، في 2001/09/10م بالمقارين (ولاية ورقلة).

45- بن دومة، مرجع سابق، ص.37.

6Feraud, « Notes Historiques ... » Op.Cit, N°25, PP.218-220.

التي أظهرها الملازم الأول عمار، وما سبّبه ذلك من خسائر في صفوف سلمان والشريف، إلا أن فرسان هؤلاء تمكنوا من استعادة أنفاسهم ورفع رايتهم والتقدم بها نحو الأمام، ليجدوا في مواجهتهم فرقة النقيب كورتيفرن (Cortivern) التي طوّقتهم من كل مكان، فوجدوا أنفسهم يبحثون عن سبل النجاة، وبذلك تحولت المعركة إلى مطاردة تزعّمها كورتيفرون مع الفرقة الأولى للقناصة[47].

أما الملازم الأول جوهانو (Johanneau) قائد الفرقة الثانية، فقد شرع في محاصرة المدينة ومطاردة أهلها، ونتيجة لذلك سارع سلمان الجلابي والشريف محمد بن عبد الله للهروب تاركين وراءهم جنودهم وفرسانهم، الذين كانوا يحاولون الفرار في كل الاتجاهات، حيث لحق بهم الملازم الأول رابوت (Rabotte) إلى منطقة السبخة، وفي هذه الأثناء أخبر النقيب سيروكا قائده مارمي بوجود تجمع كبير للمشاة في إحدى غابات المقارين، وقد أبدوا استعدادهم للتضحية والموت من أجل الدفاع عن بلادهم بقيادة مقدم النزلة بوشمال بن قبي، وعند ذلك تقدمت فصيلة القناصين نحو هذه الغابة، واقتحموها بوابل من الرصاص، لتكون الحلقة الأخيرة من حلقات الصراع في ذلك اليوم، حيث كان الوقت يشير إلى حوالي الثانية بعد الزوال، علما أن هذه المعركة، بدأت عند الساعة التاسعة صباحا[48]. وأما عن نتائج هذه المعركة، وفي غياب المصادر الجزائرية، فإن الخسائر البشرية في جيش سلمان والشريف قدرت بـ500 مابين قتيل وجريح، وغنم الفرنسيون 1000 بندقية، و100 سيف وخمس رايات، أما الخسائر في صفوف الفرنسيين، فقدرت بـ11 قتيلا و46 جريحا[49].

بعد هذه الهزيمة، دخل الملازم روز إلى توقرت في 03 ديسمبر 1854م، متبوعا بالرائد مارمي، وفي 05 ديسمبر 1854م دخل الجنرال ديفو إلى توقرت، واستولى على عاصمة بني جلاب باسم فرنسا، ومعلنا طرد بني جلاب[50]. وفيما يخص مصير سلمان الجلابي، فقد فرّ إلى الجريد التونسي بعد أن ترك ابنيه علي ومباركة في حماية الزاوية التيجانية بتماسين، ومنها انتقل إلى مدينة طنجة المغربية، حيث توفي هناك سنة 1877م[51]، أما الشريف محمد بن عبد الله، فقد واصل جهاده ضد الفرنسيين إلى أن قبض عليه سنة 1861م، فسجن في

1-Ibid, PP.218-220.

2Feraud « Notes Historiques ... » Op.Cit, N°25, PP.220-218, et (M) Prax, «Rapport sur le combat de Meggarin, livré le 29 novembre 1854, aux contingents réunis du Cheikh de Touggourt et de Cheikh de Chérif Mohamed Ben Abdalah», in R.A, N°39, 1895, PP.155-159.

49- A.O.M, 10H76, Mémoires, Op.Cit.

وكذلك المبشر، ع.176، مصدر سابق.

4(E) Mercier, Histoire de Constantine, P.559, et Henri Garrot,Histoire Général de L'Algérie,Alger,1910, pp.191-192.

3- Feraud « Notes Historiques ... » Op.Cit, N°26, P.116.

فرنسا، ثم حول إلى عنابة، ومنها إلى تونس أين توفي بها سنة 1876م[52]. وهكذا إذن، خضعت منطقة وادي ريغ للاحتلال الفرنسي بعد السيطرة الجلابية على هذه المنطقة لمدة قاربت الأربعة قرون[53]، وبالتالي لم تعد وادي ريغ تخضع لأي حاكم، فقرّرت السلطات الاستعمارية تنصيب أحد الموالين لها، وهو علي باي بن فرحات بن سعيد[54]، حيث عينته آغا على توقرت ووادي سوف.

5. خاتمة:

إن موقع منطقة وادي ريغ في شمال الصحراء الجزائرية، وتوسطها لعدة مناطق مهمة، كبسكرة وورقلة ووادي سوف، جعل من هذه المنطقة مقصدا للعديد من القبائل والأعراش والجماعات العرقية المختلفة، التي كان عددها ينمو ويزداد، خاصة خلال النصف الأول من القرن العشرين، حيث انصهرت مع بعضها البعض في هذا الإقليم، فشكّلت بذلك لوحة فسيفسائية بشرية، فأصبح من الصعب التمييز بينها، على الرغم من تعدّد مشاربها وأصولها.

شكّل إقليم وادي ريغ بتنوعه العرقي المتعدد خطرا على الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فغالبا ما كان مأوى للعديد من الثائرين على هذا المحتل الغاصب، خاصة في المناطق القريبة من هذا الإقليم، وخير مثال على ذلك، الثائر الشريف بن عبد الله، وناصر بن شهرة وغيرهما، لذلك فكرت السلطات الاستعمارية في احتلال منطقة وادي ريغ، لتضع حدا لهؤلاء الثوار، ولتوسّع من مجالها الاستعماري في الجزائر، وبالتالي تستفيد من خيرات البلاد، فكان لها ذلك، إذ احتلت مدينة توقرت عاصمة وادي ريغ يوم 05 ديسمبر 1854م، بعد معركة حامية الوطيس في منطقة المقارين يوم 29 نوفمبر 1854م، ثم دخلت القوات الفرنسية هذا الإقليم معلنة بذلك سقوط الحكم الجلابي، وبداية السيطرة الفرنسية على هذه المنطقة.

52- عبد الحميد زوز، محطات في تاريخ الجزائر على ضوء وثائق جديدة، ط.1، دار هومة، الجزائر، 2004، ص.96.

53- André Voisin, Le Souf monographie d'une région Saharienne, révisé par Ali Abid, El Walid Ed, 1985, P.47.

54- هو علي باي بن فرحات بن سعيد، من عائلة بوعكاز الذواودية، وأصوله من ضواحي بسكرة، عينه الفرنسيون قائدا على توقرت خلفا لبني جلاب بعد سقوط حكمهم، وقد ادّعى هذا القائد أنه من نسل بني جلاب، ولعله أراد بذلك أن يجعل لنفسه هيبة لدى سكان توقرت، فاعتماده على هذا النسب يجعل له قيمة كبيرة في مدينة كان الحكم فيها مقتصرا على بني جلاب منذ سنوات طويلة. ينظر: مالتسان، ج.3، مرجع سابق، ص ص.177-178

لقد قاوم سلمان بن علي آخر حاكم جلابي، ومعه سكان وادي ريغ، المحتل الفرنسي بكل ما أوتوا من قوة، وقد تضامنت معهم ووقفت إلى جانبهم بعض المناطق المجاورة كوادي سوف، لكن ذلك لم يمنع من احتلال هذه المنطقة، فثمة عوامل عديدة ساهمت في ذلك، من أبرزها عدم تكافؤ ميزان القوى بين الطرفين.

وما نستنتجه في الأخير هو أنّ الجغرافيا والسكان يعتبران عاملا مهما في المعلم المتعامد المتجانس، الذي رسمه المستعمر الفرنسي لاحتلال الجزائر، فعلى ضوئهما كان المحتل يخطط ويوجه مساره التوسعي، إذ كلما كان هذان العاملان أكثر أهمية في منطقة ما، كلما كان التعجيل في وتيرة احتلالها متسارعا.

6. قائمة المراجع:

-A.O.M, B.N°,1H229, Annexe de Touggourt, Rapport annuel

-A.O.M, B.N° 23H99, Annexe de Touggourt, Rapport annuel 1921.

-A.O.M, B.N° 23H99, Annexe de Touggourt, Rapport annuel 1931.

-A.O.M, 10H76, Mémoires siroka, cahier n°3.

- بن دومة، محمد الطاهر، مذكرة أخبار تاريخية لواحة توقرت وبعض ضواحيها، تقديم وتحقيق: عبد الجواد محمد الطاهر، وبوبكر محمد السعيد، المطبعة العصرية للواحات، توقرت(ولاية ورقلة) 1415هـ/1995م.

- خير الدين، محمد، مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، ج1، د.س.

- فون مالتسان، هاينريش، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، تر: أبو العيد دودو، الجزائر، ج.3، د.ط، 1980م.

- مقابلة مع زوزو، محمد الصالح (مجاهد) يوم 10سبتمبر 2001م بالمقارين (ولاية ورقلة).

- بورويبة، رشيد، الدولة الحمادية، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، د.ط، د.س.

- زوزو، عبد الحميد، محطات في تاريخ الجزائر على ضوء وثائق جديدة، دار هومة، الجزائر، ط.1، 2004.

- العربي، إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1983م.

- العوامر، إبراهيم، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تح: العوامر الجيلاني، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1977م.

- قادري، عبد الحميد، وادي ريغ تاريخ وأمجاد جزائرية،دراسة تاريخية، دار الأوطان للنشر والتوزيع، الجزائر، ج.1، ط.1، 2013م.

- الميلي، مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج.2، 1989م.

- غنابزية، علي، (2000-2001م)، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/ 19م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر.

- المبشر (جريدة)، عدد 176، 31 ديسمبر1854م.
- بوعزيز، يحيى، كفاح الشريف محمد بن عبد الله، مجلة الثقافة، ع.33، السنة السادسة جمادى الثانية، رجب 1396 هـ/ يونيو، يوليو 1976م.
- قصيبة، أحمد بوزيد، ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة1871م، مجلة الأصالة، ع.6، السنة الأولى ذو الحجة 1391هـ/جانفي 1972م.
- بن نعمية، عبد المجيد،(23 /24 أفريل 1998م)، مواقف شيوخ بني جلاب في توقرت من الاحتلال الفرنسي، الملتقى التاريخي الثالث حول بني جلاب، توقرت (ولاية ورقلة)، الجزائر.
- André Voisin, **Le Souf monographie d'une région Saharienne**, révisé par Ali Abid, El Walid Ed, 1985.
- Colomieu(V), **Voyage dans le Sahara algérien, de Géry ville à Ouargla 1862**, ,Paris,1863
- Marle(L), **Les Oasis de L'Oued Rir en 1856-1879**, Imprimerie de, Constantine, 1879
- Mercier (E), **Histoire de Constantine,** J.Marl et F.Biron, Imprimeurs-Editeurs, Constantine, 1903.
- George Rolland, **La Conquête du désert, Biskra,Touggourt, Oued Righ,** éditeur librairie coloniale, Paris, 1889.
-Henri Garrot, **Histoire Général de L'Algérie**, Alger,1910.
-Trumelet(C),**Les Français dans le désert,** 2édition, Challamel ainé, éditeur librairie Algérienne et coloniale, Paris, 1885.
-Zaccone (J), **de Batna à Touggourt et au Souf,** librairie militaire j.dumaine, Paris,1865 .
- Feraud(Ch)‹‹**Note historique sur la province de Constantine, Les Ben Djellab Sultans de Touggourt** ››R.A, N° 24
- Prax(M), **«Rapport sur le combat de Meggarin, livré le 29 novembre 1854, aux contingents réunis du Cheikh de Touggourt et de Cheikh de Chérif Mohamed Ben Abdalah»**, in R.A, N°39, 1895.

الشيخ لزهاري بن الأخضر ثابت
وجهوده الإصلاحيَّة بمنطقة وادي ريغ
(1923ـ1962م)

Sheikh Lazhari bin Al-Akhdar Thabet and his reform efforts in the Wadi Reg region (1923-1962)

د/ العيد بلالي
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية،
معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
ballalied@gmail.com

ط.د/ نورة بنين
جامعة القيروان (تونس)
nourbayane15@gmail.com



ملخص: الشيخ لزهاري بن الأخضر ثابت هو أحد الشخصيات التي أنجبتها مدينة المغير بمنطقة وادي ريغ بالجنوب الشرقي الجزائري، وقد تربى في بيئة علم وإصلاح، واستفاد من رحلاته العلمية داخل الجزائر وخارجها، فهو من تلاميذ الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، وخرّيج جامع الزيتونة بتونس، إذْ يعتبر من رموز الحركة العلمية والإصلاحية بمنطقة المغير، وأحد رجال المقاومة الوطنية والكفاح المسلح في ثورة نوفمبر 1954-1962م. وفي هذه الورقة العلمية نتناول التعريف بمنطقة وادي ريغ إبَّان الاحتلال الفرنسي لها والسياسة الاستعمارية الرامية إلى طمس الهوية الدينية وكيفية محاولته القضاء على اللغة العربية في المجتمع الجزائري بمنطقة المغير بوادي ريغ، كما نتطرق أيضا للتعريف بشخصية لزهاري بن الأخضر ثابت ودوره في الإصلاح والتنوير المجتمعي والحركة الوطنية، وكذا نضاله في الكفاح المسلح لطرد المحتل الفرنسي من أرض الجزائر، ومساهمته في نشر العلم والعقيدة الصحيحة وغرس قيم ومبادئ جمعية العلماء المسلمين في المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الشيخ لزهاري ثابت؛ الحركة الإصلاحية؛ وادي ريغ؛ الاحتلال الفرنسي.

Abstract :
Sheikh Lazhari ben Al-Akhdar Thabet is one of the personalities that the city of Al-Mughir gave birth to in the Wadi Rig region in the southeast of Algeria. The latter was raised in the environment of science and reform, and benefited from his scientific trips inside and outside Algeria. A graduate of Al-Zaytouna Mosque in Tunisia, he is one of the symbols of the scientific and reform movement in the Al-Mughayer region, and one of the men of the national resistance and the armed struggle in the November Revolutio.

This scientific paper deals with the definition of the region of Wadi Reg, the French occupation of it and the colonial policy aimed at obliterating

the religious identity and eliminating the Arabic language of the Algerian society in the Al-Mughir region in the Wadi Reg, and it deals with the definition of the personality of Lazhari Ibn Al-Akhdar Thabet and its role in reform, social enlightenment and the national movement, and his role in the armed struggle 1954 1962 - To expel the French invader from the land of Algeria, and his struggle for the dissemination of science and the correct faith and instilling the values and principles of the Association of Muslim Scholars in the Algerian society.
Keywords: Sheikh Lazhari Thabet; reform efforts; Wadi Reg region; During the French occupation..

1. مقدِّمة:

إنّ منطقة الجنوب الشرقي الجزائري، ومنها منطقة وادي ريغ ومنطقة المغير، تزخر برجال أجلاء أفذاذ، وعلماء مصلحين مخلصين، لا يمكن إنكار أو إغفال إنجازاتهم ومجهوداتهم وأعمالهم الكبيرة في نشر العلم والإصلاح، ومقاومة سياسة المستعمر الفرنسي الرامية لنشر الجهل والدجل بين الجزائريين، ومن هؤلاء الأعلام المصلحين والمناضلين البارزين بمنطقة وادي ريغ، الشيخ العلامة لزهاري بن الأخضر، الذي يعدّ من أبرز شيوخ منطقة المغير ومن تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس –رحمه الله- بقسنطينة، وأحد أساتذة مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن رجال الحركة الوطنية والعلمية بالجنوب الشرقي. وهذه كانت من أهم الدواعي التي دفعتنا للمشاركة في الملتقى الدولي السَّابع المعنون بـ "المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشرقي الجزائري" متناولين بالدراسة والبيان شخصية الشيخ الفاضل لزهاري ثابت مبرزين حياته العلمية ودوره الإصلاحي ونضاله السياسي والكفاحي -خلال العهد الاستعماري- كأحد أبرز رجال الحركة العلمية والإصلاحية ببلدة المغير بمنطقة وادي ريغ الواقعة بالجنوب الشرقي الجزائري. وعليه يمكننا طرح الإشكال الرئيس الذي نود الإجابة عنه في هذه الورقة العلمية:

من هو الشيخ لزهاري ثابت؟ وما هي أبرز نشاطاته العلمية والإصلاحية بوادي ريغ؟ وكيف تصدَّى للمخططات والسياسات الاستعمارية الفرنسية المتبعة في الجنوب الشرقي الجزائري؟

وللإجابة عن هذه التَّساؤلات جاءت هذه المداخلة بعنوان: **الشيخ لزهاري بن الأخضر ثابت وجهوده الإصلاحيَّة بمنطقة وادي ريغ (1923-1962م)** وتهدف مشاركتنا هذه في الإسهام بإبراز دور العلماء المصلحين – كالشيخ لزهاري ثابت- في تعليم الدين الإسلامي ونشر العلم وإصلاح المجتمع، ومحاربة الجهل والخرافة والتصدي لسياسة المستعمر الفرنسي. متبعين في ذلك المنهج التَّاريخي أثناء الترجمة للشيخ لزهاري ثابت رحمه الله، والمنهج الوصفي التحليلي في ذكر جهوده الإصلاحيَّة بمنطقة وادي ريغ خلال الاحتلال الفرنسي.

2. منطقة وادي ريغ، المجال والاستعمار:

يقع إقليم وادي ريغ في الشمال الشرقي للصحراء الجزائرية في منخفض مستطيل الشكل، يبدأ من مدينة المغير شمالا، يمتد بشكل مستطيل على نحو 160 كلم جنوبا إلى بلدة عمر، بمساحة تقدر بحوالي 6400 كلم²، محصورة بين خطي طول 57.5 و 37.6 درجة شرقا ودائرتي عرض 54.32 و58 درجة شمالا[1]، عاصمته مدينة تقرت يضم عدة واحات ومدن أهمها من الشمال إلى الجنوب: أم الطيور، المغير، سيدي خليل، تندلة، المرارة، جامعة، تقددين، سيدي عمران، تمرنة الجديدة، سيدي راشد، مقّر، بلدة عمر، وكان الإقليم مقسما إداريا بين ولايتي الوادي وورقلة[2]، قبل انتقاله إلى ولاية مستقلة في التقسيم الأخير لولايات القطر الجزائري، وجاء في كتاب "جغرافية القطر الجزائري" وصف وادي ريغ على أنه واد من أودية الجنوب الشرقي، ويقال أنه ينحدر من هضبة الصحراء نحو شط ملغيغ فتكون موالية لواحات تقرت وتماسين ثم جامعة وغيرها من بدائع الواحات الجزائرية[3].

ويمكن القول أن الإقليم يحده من الجهة الشمالية شط ملغيغ، ومن الجنوب ولاية ورقلة، ومن الشرق العرق الشرقي الكبير، ومن الغرب منحدر حصوي وهضبة وادي ميزاب، وهو على بعد 618 كلم من الجزائر العاصمة، و161 كلم عن ورقلة، و171 كلم عن حاسي مسعود، و95 كلم عن وادي سوف، و232 كلم عن بسكرة[4]، وما يتميز به إقليم وادي ريغ هو الموقع الاستراتيجي حيث يعتبر حلقة وصل بين الجنوب الشرقي والشمال الشرقي. واختلفت الآراء حول تسمية هاته المنطقة فيسميها ياقوت الحموي بالزاب الصغير أو ريغ[5]، في حين نجد ابن خلدون يحدد اسم الإقليم وجنس أهله في قوله:"ريغة وسنجاس من بطون مغراوة وقد اختطوا قرى كثيرة في عدوة وادٍ ينحدر من الغرب إلى الشرق، ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة والأطم، وقد رفّ عليها الشجر ونمت بحوافها النخيل وانساحت خلالها المياه، وزهت بينابيعها الصحراء، وكثر بقصورها العمران، وبهم تعرف لهذا العهد"[6].

1- محمد بغداد، تماسين جوهرة الصحراء، دار الحكمة، الجزائر، دن، ص: 31.

2- عبد الحميد قادري، (23-24 افريل 1998)، التركيبة التاريخية لسكان وادي ريغ، الملتقى التاريخي الثالث حول فترة حكم بني جلاب لمنطقة وادي ريغ، منشورات جمعية الوفاء، تقرت، ص: 19.

3- أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، دم، الجزائر، 1948م، ص: 41.

4 - رضوان شافو، دور منطقتيْ وادي ريغ ووادي سوف في دعم وتموين منطقة الأوراس قبيل وخلال الثورة التحريرية، مجلة البحوث والدراسات، العدد: 9، 2010م، ص: 61.

5 - الحموي ياقوت، معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز جنجي، دار الكتاب العربية، بيروت، 1999م، ص: 129.

6- عبد الرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الكتاب، بيروت، 1959م، 98/7.

أما مصدر وأصل الكلمة حسب المصادر الإباضية فهو مصطلح يطلق على المنطقة المنخفضة الواقعة في الجنوب الشرقي الجزائري. وتوجد رواية أخرى أيضا تقول أن معناها السبخة، ومنها يقال "رغي" وتمثل تقرت العاصمة السياسية والإدارية للإقليم، وقد وصفها الأغواطي في رحلته التي حققها أبو القاسم سعد الله بقوله: "تعتبر بلدة الثروة والرخاء فهي تنتج التمر والتين والعنب والرمان والتوت وسوقها كبيرة جدا، وهذه البلدة هي عاصمة المنطقة ولها نفوذ على أربع وعشرين قرية، ومن أعالي منابر البلدة يمكن مشاهدة عدد من القرى... أما لون بشرة سكانها فأسود، وهم يسمون الرواغة"[7].

ويعتبر احتلال منطقة وادي ريغ حلقة من حلقات التوسع الاستعماري بالجنوب الشرقي الجزائري، نظرا لأهميتها الجغرافية والاستراتيجية والاقتصادية واستكمالا لحملتها المتجهة نحو الجنوب[8]، حيث استبقت حملتها مجموعة من البعثات الاستكشافية، ووظفت السلطات الاستعمارية مجموعة من الرحالة لدراسة الحالة الجغرافية ومناخ المنطقة وخيراتها الاقتصادية وأوضاعها السياسية والاجتماعية، ومن أهم هاته الرحلات، نذكر الرحلة التي قام بها لوار مونتقازون Montagazon إلى منطقة تقرت وضواحيها، وقدم وصفا جغرافيا لها، بالإضافة إلى ملاحظات عن الحركة التجارية وأهم السلع سواء كانت صادرات أو واردات، أو عن تجارة العبيد التي كانت تستقبل من مختلف المناطق الداخلية الأفريقية. بالإضافة إلى بعثة الرحالة براكس prax في شهر نوفمبر عام 1847م رفقة تجار من وادي سوف، لتكون دافعا جديدا للتوغل إلى الجنوب الشرقي، حيث أشار براكس في هاته الرحلة إلى أهمية سوق تقرت وازدهار الحركة التجارية الصناعية، وفي نفس الفترة قام "ماريوس غارسين M.garcin، و"ديشافنير" Dechavenir برحلة إلى المنطقة لأهداف تجارية، وقام ليون روش سنة 1838م ضمن وفد تجسسي برحلة لمعرفة أخبار تقرت[9]. وبتاريخ 02 ديسمبر 1854م سقط إقليم وادي ريغ تحت الاحتلال الفرنسي[10]. وقد عمل الاحتلال الفرنسي، واستخدم كل وسيلة من أجل إخضاع سكان منطقة وادي ريغ إخضاعا تاما له، حيث عمدت الإدارة الفرنسية إلى تفكيك البنية الاجتماعية للسكان وطمس الهوية الدينية ومحاربة مقومات المجتمع بالمنطقة وادي ريغ، ذلك ما سنتناوله فيما يأتي:

7- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، 263/2.

8- عبد العزيز شهبي، (29- 30ديسمبر2004م)، تقرت في اهتمامات الرواد الأوروبية خلال منتصف القرن التاسع عشر، الملتقى التاريخي لبلدية تقرت، تقرت، 2004م، ص: 1.

9- رضوان شافو،2007م، مقاومة منطقة تقرت وما جاورها للاستعمار الفرنسي، مذكرة ماجستير تاريخ معاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ص: 60.

10- علي غنابزية، الكفاح السياسي والعسكري للثورة التحريرية بالصحراء الجزائرية 1954– 1962م، دار الثقافة، الوادي، دن، ص: 23.

2. التعريف بشخصية الشيخ لزهاري بن الاخضر ثابت ودوره الإصلاحي بمنطقة وادي ريغ

2، 1. مولده ونشأته وحياته العلمية:

ولد الشيخ لزهاري ثابت سنة 1923م بمدينة المغير[11]، منطقة وادي ريغ، أبوه الأخضر[12]، وأمه مسعودة ثابت، ينحدر من أسرة كريمة تحب العلم وتوقر العلماء، بدأ تعليمه الأول على يد والده الأخضر بن ثابت، ثم دخل الكتّاب فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وبعدها أخذ علوم اللغة العربية عن شيخه علي بن خليل[13]، وشيوخ آخرين[14]. وفي سنة 1935م انتقل الشيخ لزهاري إلى الجزائر العاصمة لمواصلة دراسته، فكان يحضر دروس الشيخ الطيب العقبي[15] الذي ينشط بنادي الترقي بالعاصمة، وفي سنة 1940م سافر إلى مدينة قسنطينة ليلتحق بالجامع الأخضر حيث انظم إلى حلقات الدروس العلمية التي يقدمها إمام النهضة والإصلاح الشيخ عبد الحميد بن باديس[16]، وانتظم في سلك الطلاب

11- معاذ عمراني، منطقة وادي ريغ في ظل الاحتلال الفرنسي (1854-1962م) دراسة سياسية، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر (2015-2016م)، ص: 109.

12- الأخضر ثابت والد الشيخ لزهاري، عالم من أعلام وفقهاء منطقة لمغير، هو من حفظة القرآن الكريم، إمام ومرشد ومدرس بالمسجد العتيق. اشتغل بالفلاحة والإصلاح الاجتماعي. كان الذراع الأيمن لجمعية العلماء بالمغير، لديه العديد من الأعمال التي تهتم بالقضايا الوطنية، توفي سنة 1964م. ينظر: عبد القادر بومعزة، الشيخ لخضر ثابت (1878-1951م) حارب العصبيات وآمن بتعليم الفتاة، البصائر، العدد: 206، 20 شعبان 1425هـ الموافق لـ: 27 سبتمبر 2004م.

13- هو الشيخ علي بن خليل بن محمد، ولد سنة 1885م بكونين ولاية الوادي، حفظ القرآن الكريم منذ صغره على يد شيوخ بلدته، التحق بجامع الزيتونة لطلب العلم، انتقل علي إلى المغير سنة 1925م بتوجيه من والده والشيخ عبد العزيز الشريف، وأقام ودرس بها شتى العلوم، توفي سنة 1948م. ينظر: سعد بن بشير العمامرة، قاموس الشهيد، **دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر**، 2014م. ص: 48.

14- عبد الحميد إبراهيم قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد جزائرية، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2013م، 591/2.

15- الطيب العقبي: ولد سنة 1889م بمدينة سيدي عقبة بولاية بسكرة، قرأ القرآن بالحجاز برواية حفص عندما سافر مع عائلته إلى المدينة المنورة، شرع بقراءة العلم بالحرم النبوي، ثم عاد إلى مدينة بسكرة سنة 1920م، توفي سنة 1960م. ينظر: مازن مطبقاني، "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية" رسالة ماجستير، قسم الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، المدينة المنورة، 1984-1985م، ص: 50.

16- عبد الحميد بن باديس: هو العلامة عبد الحميد بن محمد المصطفى ولد سنة 1889م بقسنطينة، من عائلة ذات علم وجاه، حفظ القرآن الكريم من رجال الإصلاح والدين في الجزائر والوطن العربي، رائد النهضة الإسلامية في الجزائر، رئيس جمعية العلماء المسلمين، توفي في 16 أفريل 1940م. ينظر: مازن

ينهل من معين العلم ويتشبع بروح الإصلاح الذي انتهجه الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس[17]. ويعتبر الشيخ لزهاري هو الطالب الوحيد من منطقة وادي ريغ الذي درس على يد الإمام العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس[18].

وفي سنة 1942م[19] انتقل الشيخ لزهاري ثابت إلى مدرسة الشيخ العربي التبسي[20] بتبسة، ليأخذ من علمه وجهاده، وقد كانت كل رحلات الشيخ لزهاري العلمية داخل الجزائر وخارجها بتوجيه من أبيه لخضر ثابت، ورعايته وعنايته[21]. وفي سنة 1946م سافر الشيخ لزهاري إلى تونس ليلتحق بجامع الزيتونة، وبعد ثلاث سنوات من التحصيل نال شهادة الأهلية عام 1948م، والتي كانت في ذلك الوقت تعادل في مستواها البكالوريا الأدبية[22].

2.2. دور الشيخ لزهاري ثابت في الحياة الثقافية والنهضة الفكرية بمنطقة المغير بوادي ريغ:

التحق الشيخ لزهاري ثابت سنة 1948م بجامع الزيتونة بتونس للدراسة، وقد انتخب مع مجموعة من رفاقه من طلبة وادي ريغ عضوا في جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين[23]. وهذه النخبة المثقفة أصبح لها فيما بعد شأنٌ في الحركة الوطنية والثورة التحريرية المباركة إلى أن بزغ فجر الاستقلال، وبمساهمة بعض طلبة وادي ريغ في الحياة الثقافية والفكرية بتونس فقد نشط حوالي أحد عشر طالبا في جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين وكانوا أعضاء في طاقمها الإداري[24]. ولما أصدرت جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين عددها الثاني

صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين، مرجع سابق، ص: 17.

17- عبد الحميد إبراهيم قادري، شخصيات وأعلام في الذاكرة، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2017م، ص: 198.

18- معاذ عمراني، مرجع سابق، ص: 109.

19- قادري عبد الحميد إبراهيم، شخصيات وأعلام في الذاكرة، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2017م، ص: 198. -بتصرف-

20- العربي التبسي: ولد سنة 1895م بالشريعة، أحد أعمدة الإصلاح في الجزائر وأمين عام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذي تعتمد طريقته على قراءة نص قرآني أو حديث نبوي فيفسر مفرداته، وهو مجاهد خطفته يد الغدر والتعصب الفرنسية عام 1957م. ينظر: محمد شبوب، الجزائر في الحرب العالمية الثانية (1939-1945م)، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة وهران 1، الجزائر، 2014-2015م، ص: 39.

21- ينظر: معاذ عمراني، مرجع سابق، ص: 109.

22- قادري، وادي ريغ، مرجع سابق، ص: 591.

23- جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين: هذه الجمعية أنشأها الطلبة الجزائريين بالزيتونة سنة 1934م بتونس، وهي بمباركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان الهدف منها هو جمع شتات الطلبة الجزائريين وتوحيد صفوفهم وتسهيل أوضاعهم المادية والمعنوية. ينظر: معاذ عمراني، منطقة وادي ريغ، مرجع سابق، ص: 108-109.

24- معاذ عمراني، منطقة وادي ريغ، مرجع سابق، ص: 108.

من نشرية[25] عنوانها "الثمرة الثانية" سنة 1948/1947م، قام الطالب لزهاري بنشر مقال له بعنوان (مسؤولية المجتمع الجزائري) إذ يرى أنها مسؤولية عظيمة وعبؤها ثقيل وخاصة في شعب مستعمر منكوب مثل الجزائر العربية المسلمة، التي أراد قوم أن يفرنسوها وآخرون أن يهودوها، وهو يحصر مسؤولية النهضة في ثلاث طبقات، هم السياسيون والعلماء والتجار ولكل منهم دور واضح، فالسياسي بعزيمته الصادقة وإرادته القوية، والعالم بشجاعته وحكمته وأناته، والثري بما له من مال وقدرة على التضحية والافتداء بهذا المال[26]. كان للشيخ لزهاري الكثير من الأعمال والمقالات، نشرتها له صحف تونسية أيام كان طالبا بالزيتونة، فتفكيره هو تفكير الرجل الذي يناضل من أجل التمكين للثقافة الإسلامية العربية، فهو منبع للعلم والمعرفة وخاصة في ميدان اللغة والدين والتاريخ[27].

وبعد عودته إلى وطنه من رحلة طلب العلم بجامع الزيتونة بتونس انخرط في المسرح الاجتماعي والحركة الوطنية، وفي سنة 1950م عينته لجنة التعليم العليا التابعة لجمعية العلماء معلما ومديرا لمدرسة التربية والتعليم بالقل، وفي تلك المدة التي قضاها هناك استفاد منه الكثير من طلبة العلم، وترك فيهم أثرا طيبا وعلما نافعا. ثم رجع إلى المغير مسقط رأسه، فعينه أعيانها ورجالها معلما ومديرا لمدرسة النجاح، التي أسسها الشيخ علي بن خليل بمؤازرة أعيان لمغير ورجالها[28]. وفي سنة 1953م فتح مدرسة الهلال رفقة أحد رفقائه الشيخ إبراهيم بوحنيك، ومن أبرز الطلبة الذين تتلمذوا على يده الدكتور عبد الرزاق قسوم، محمد الحسن الزغيدي، عمر بوحنيك، بشير بوحنيك، الشهيد إبراهيم بوزقاق، الشهيد محمد شهرة، إسماعيل بوزوايد وغيرهم[29].

وبعد الاستقلال التزم بالتعليم في أولاد جلال التابعة لولاية بسكرة، وبعدها باشر العمل في الحزب ومنظمة المجاهدين ونقابة المعلمين وعضوية المجلس الشعبي البلدي 1971-1975م. بالإضافة إلى ذلك قام بتأسيس نادي المعلمين للندوات والمحاضرات إلى جانب دور

25- أصدرت جمعية الطلبة الجزائريين بتونس نشرية عنوانها "الثمرة الأولى" سنة 1937م، ثم "الثمرة الثانية" سنة 1947م، حيث صدر العدد الأول لها سنة 1937م، واختير لها هذا الاسم تعبيرا عما كان يساورها من شعور بالفخر، وهي تقدم أولى ثمراتها وبادرة أعمالها، ولقد اشتملت "الثمرة الأولى" على ملف حافل بالدراسات الدينية، وفي سنة 1948/1947م صدر العدد الثاني، والذي سمي بالنشرية الثانية، حيث يختلف مضمونه عن الثمرة الأولى، فالثمرة الثانية أظهرت هذه المرة مدى جدوى وأهمية العمل السياسي. ينظر: معاذ عمراني، منطقة وادي ريغ، مرجع سابق، ص: 110.

26- معاذ عمراني، منطقة وادي ريغ، مرجع سابق، ص: 110.

27- قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد جزائرية، دار الأوطان للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، 597/1.

28- مرجع سابق، ص: 593.

29- كحيحة عبد الحميد، مقابلة مع الشيخ 2011/11/30م على الساعة 12،10:00 . https://binbadis.net/archives/100

المساجد، وفي أواخر سنة 1978م تقاعد نظاميا وتفرغ للوعظ والإرشاد وإلقاء الدروس والمحاضرات، نال العديد من الشهادات من عدة جهات تقديرا له على مجهوداته المبذولة سواء العلمية أو الجهادية، ورغم أن لزهاري ثابت تقدم به العمر إلا أنه لم يبتعد عن الملتقيات والمحاضرات كأنَّ هاته الأخيرة هي مصدر قوته التي يتمسك بها، فمن الملتقيات التي حضرها، نذكر ملتقى الفكر الإسلامي الثاني والعشرين بتبسة سنة 1988م، والذي استرسل في الحديث عنه إذ حضره الدكاترة والشخصيات المرموقة والوزراء، وكان للشيخ لزهاري مداخلات ونقاشات في هذا الملتقى، كما نذكر أيضا حلقات العلم بالعديد من مساجد الوطن لإحياء المناسبات الدينية مثل ليالي رمضان أو مناسبات وطنية، ومن المساجد نذكر المسجد العتيق بأغادير بتلمسان، المسجد العتيق بتقرت والزاوية العابدية والمقارين بمناسبة إحياء الأسبوع الثقافي وحتى بفرنسا حيث ألقى دروسا للمغتربين بصالون "استر فبترول" (حيث كانت دروس توجيهية وتوعوية)[30].

2.3. دور الشيخ لزهاري بن الاخضر ثابت في الحركة الاصلاحية بمنطقة المغير بوادي ريغ:

يعتبر الشيخ لزهاري ثابت من الشخصيات والعلماء الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ في الحركة الإصلاحية في منطقة المغير فقد تأثر الشيخ لزهاري ثابت بمنهج جمعية العلماء المسلمين التي قادها عبد الحميد بن باديس والعربي التبسي والطيب العقبي وغيرهم، فقد اتخذ من رجال الجمعية قدوة له في حياته العلمية والعملية، وأشاد بعلمائها الذين جمعته بهم الحركة الإصلاحية والنشاط التعليمي والمجالسات الأدبية، ومن العلماء في منطقة المغير الذين اتخذهم قدوة وأصدقاء شيخه الشيخ علي خليل الذي تعلم منه أبجديات الدعوة ومحاربة الشعوذة والكهنوت، والشيخ محمد العربي المصمودي الذي كان أستاذه وصديقه في آن واحد، والشيخ عبد المجيد حبة الذي يشيد دائما بأعماله ويعتبره نموذجا للعالم المتمكن الذي استفاد من خبرته في طريقة التواصل بطلاب العلم والعوام للتوجيه والنصح والإرشاد والتشجيع، والشيخ نعيم النعمي الذي عاش معه في حلقات ابن باديس ورافقه في النشاط التعليمي والتربوي، فالشيخ لزهاري ثابت احتضنته جمعية العلماء تلميذا ومعلما بمدارسها، ونشأ في بيئة إصلاحية في أوج نشاطها بالمغير[31].

وما إن تحكم الشيخ لزهاري ثابت في المادة العلمية واستقامت له أدوات الإقناع راح يناضل في صفوف رجال الإصلاح الديني والاجتماعي بالوعظ والإرشاد والتربية والتعليم، فإذا حضر مجالس فقهية علمية وجه وأرشد ليستفتيه الناس فيفتيهم ويسألونه فيجيبهم وهذا بما يملكه من قدرات علمية مستقاة من روح التربية الإسلامية. وكانت أغلب دروس الشيخ لزهاري هي التوعية والوعظ الديني وكان ينشط المحيط الثقافي ببلده في مستوى الإمكانات

30- كحيحة، مرجع سابق.

31- ينظر: قادري، وادي ريغ، ص: 540/2 -541.

التي بين يديه، ألف المسرحيات والتمثيليات، ودرب الشباب على الإنشاد وغرس بذور الوطنية كما حفز الطلاب على خوض معركة الوجود الحضاري الذي كان مهددا، فشهد له الجميع أنه أول من أدخل إلى المغير الأناشيد الإسلامية التي تغرس الروح الوطنية، فقد حول الاحتفاء بالمناسبات من اللهو والعبث والدجل والدروشة إلى تجسيد التاريخ الإسلامي وأيامه الخالدة وتصوير الأمجاد الوطنية في شكل مسرحيات وأوبرات[32]...

وبعد الاستقلال واصل جهاده التعليمي والإصلاحي، فانخرط في سلك التعليم أستاذا بأولاد جلال فقضى فيها وقتا، وإلى جانب عمله أستاذا انتصب للوعظ والإرشاد بمختلف مساجد الوطن خصوصا مساجد مدينة بسكرة والتي استقر بها أستاذا بإحدى متوسطاتها، وبمسجد حي فرحات حيث يقيم مدرسا ومحاضرا ومفسرا، وكانت مضامين دروسه كلها تصب في الإصلاح الديني والاجتماعي والدعوة إلى الحفاظ على القيم الأخلاقية والروح الإسلامية في المجتمع، فلا يخلو منها درسه يوم الجمعة في سنوات السبعينات، فضلا عن إحياء المناسبات الدينية كالاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف وليالي رمضان المباركة، كما كان سجل حضوره بالملتقيات الإسلامية التي كانت في وقتها جامعات متنقلة، وحضوره للمهرجانات والأسابيع الثقافية التي تنظم عبر الوطن فكان من أنشط المشاركين بالمداخلات والمعقبين على المحاضرين[33]. فقد كان الشيخ لزهاري ثابت رمزا للحركة التعليمية التنويرية واليقظة الفكرية والإصلاحية التي مست العقول، مع رفاقه من الطلبة والشباب الزيتونيين الذين احتكوا بالإصلاحيين بتونس عن قرب، وأسهموا في إنشاء المدارس الحرة ونشر العلم والإصلاح في منطقة المغير بوادي ريغ[34].

3. دور الشيخ لزهاري بن الاخضر ثابت في الثورة التحريرية

إن الانطلاقة الفعلية للعمل الثوري بمنطقة المغير التابعة لمنطقة وادي ريغ (المنطقة الثالثة للولاية الأولى)، وهي الإطار المكاني الذي كان يعيش فيه الشيخ لزهاري ثابت، كانت في سنة 1955م في منطقة المغير، حيث تم تشكيل لجنة ثورية برئاسة "قانة مصرلي"، وذلك في أواخر سبتمبر 1955م، وضمت مجموعة من الأعضاء وهم: لزهاري ثابت، قسوم عبد الله بن عمر، حبة محمد، بوحنيك إبراهيم، وقرميط عبد القادر، وبوليف محمد بن أحمد، حبة عبد المجيد، بن عدي عبد الرحمان، حشاني بن ناصر، لزهاري العلمي، وكانت منطقة شمال وادي ريغ (المغير) كغيرها من مناطق الوطن التي احتضنت الثورة ورحبت بها باعتبارها قريبة من منطقة الزيبان والتي هي بدورها قريبة من منطقة الأوراس[35].

32- المرجع نفسه، ص: 540.

33- نفسه، ص: 540/2 -541.

34- نفسه، ص: 541.

35- شافو رضوان، معاذ عمراني، سلسلة محطات من تاريخ بلادي، الحلقة العاشرة، 2020/08/11م.

كما انضم الطلبة الزيتونيون إلى الخلايا الثورية والتي سماها المستعمر بخلية الزيتونة، وهذا بسبب مؤسسيها الذين كانوا كلهم طلبة في جامع الزيتونة، منهم الشيخ لزهاري ثابت والمولدي بن احميدة طالب سابق بالزيتونة وغيرهم[36]. وفي أواخر 1956م اجتمع جماعة المغير مرة أخرى ببيت قانة وتشكلت لجنة موسعة ضمت في عضويتها: الشيخ عبد المجيد حبة، وعبد الله قسوم، والشيخ إبراهيم بوحنيك، ولزهاري ثابت، العيد بن رمضان، ومحمد البرجي، وبهذه الطلائع الأولى التي احتضنت الثورة أشرفت على تشكيل وتأسيس اللجان والخلايا، وتكفلت بجلب الشباب إليها وتجنيدهم في صفوفها مسبلين وفدائيين وجنود في صفوف جيش التحرير الوطني[37].

وبهذه العناصر والخلايا الثورية دخلت المغير في أتون حرب التحرير وكان لها الريادة والدور الفعال في تعميم الثورة ونشرها في ربوع المغير ووادي ريغ، وامتدت بواسطتهم إلى جامعة وتقرت، ولقد جمعت الشيخ لزهاري ثابت علاقات وطيدة مع قادة الثورة التحريرية، نذكر منهم سي الحواس قائد المنطقة الثالثة التابعة للولاية الأولى الأوراس، حيث قام سي الحواس بزيارة إلى جامعة والمغير سنة 1956م، واجتمع برؤساء الخلايا الثورية، ومنهم الشيخ لزهاري ثابت الذي كان يرأس الخلايا الثورية بمنطقة المغير[38]. وقد أسندت للشيخ لزهاري مجموعة من المسؤوليات التي كان ينفذها بكل جد وفخر، خصوصا لما كان في الحدود بناحية توزر مع جيش التحرير الوطني الجزائري، وكان الشيخ لزهاري ثابت محبوبا من قبل المجاهدين، فقد كتب فيه الشيخ نعيم النعمي مجموعة من الأبيات الشعرية ارتجلها أثناء حرب التحرير في الحدود التونسية سنة 1959م (ناحية توزر والرديف) حيث قال فيه:

رأيت الفتى لزهاري مغير *** الشباب فحيوا الفتى الثابتي

وقولوا له عشت في مأمن *** من الحادثات التي تعتري

إلى أن تؤدي للشعب ما *** بعنقك في مقبل الأعصر[39]

وقد أرسل الشيخ ثابت لزهاري سنة 1960م من طرف اللجنة الطبية لجبهة التحرير الوطني إلى دولة يوغسلافيا ضمن مجموعة معطوبي الحرب للعلاج، وامتد به العلاج إلى سنة إعلان الاستقلال 1962م، ليعود بعدها إلى الوطن مواصلا مسيرة النضال والإصلاح[40].

36- معاذ عمراني، منطقة وادي ريغ، مرجع سابق، ص: 108.

37- قادري، الولاية السادسة التاريخية وقائع وأحداث من المنطقة الرابعة 1956-1962م، دار عطاء الله، طبعة خاصة، 2018م، ص: 94.

38- ينظر: معاذ عمراني، مرجع سابق، ص: 195-196.

39- معاذ عمراني، منطقة وادي ريغ، مرجع سابق، ص: 108.

40- ينظر: قادري، وادي ريغ، ص: 596/2.

4. وفاة الشيخ لزهاري بن الاخضر ثابت وآثاره

4، 1. **وفاته:**

رزئت الحركة الإصلاحية والتعليمية في الجنوب الشرقي الجزائري بمنطقة المغير بوادي ريغ مساء يوم الخميس 15 جمادى الثانية 1442 هجرية الموافق لـ: 28 جانفي 2021م ميلادية بوفاة الشيخ لزهاري ثابت عن عمر يقارب 98 سنة، بعد مرض عضال ببلدية المغير[41]. فرحمه الله وأسكنه جنته وتقبله في الصالحين.

4، 2. **آثاره:**

إن آثار الشيخ كلها مخطوطات مكتوبة بخط يده فهو "خزانة العلم المتنقلة خاصة من ناحية اللغة والأدب ومصدرٌ للأرشيف العلمي والثوري بما تحتويه مكتبته من كتب قيمة ومخطوطات ألفها، بالإضافة إلى الوثائق التاريخية النادرة والصور وغيرها"[42]، وأعماله عبارة عن مخطوطات كما صرح بذلك الشيخ لزهاري[43] وهي كما يلي:

- "مذكراتي" وتقع في 21 مصنفا مزودا بالرسائل الخاصة بكل فترة من الفترات.

- مخطوط في ترتيب نزول الوحي.

- "أسرار التكرار في القرآن" للكرماني، قام بإعادة ترتيبه مع إضافات مفيدة مركزا على الجانب اللغوي في ذلك.

- مقتطفات من صفوة التفاسير مع تعليقاته المبنية على أسس علمية ولغوية.

- الرواة والأئمة للمذاهب الأربعة.

- السيرة النبوية والتاريخ لبعض الصحابة.

- مصنف خاص بأدب الرحلات (فيه وصف لرحلاته التي قام بها منذ كان عمره ثلاث عشرة سنة).

- مصنف خاص بالمحاضرات التي شارك فيها في كل الملتقيات والندوات، كما خصص جزءا آخر لكلمات التأبين لبعض الشخصيات العلمية لمنطقة الزيبان والمغير، ومن بين هذه المحاضرات: الشيخ محمد العيد آل خليفة (شعره ببسكرة)، وهي دراسات أدبية اعتمد فيها التحليل والوصف.

- الشيخ عبد الحميد بن باديس في كل مناطق الجزائر، مبديا أراءه حول مساهماته

41- جريدة البصائر، العدد: 1050، الاثنين 26 جمادى الآخرة 1442هـ الموافق لـ: 8-2-2021م

42- مجلة العربي العدد:87، 2005م، ص: 151.

43- كحيحة عبد الحميد، مرجع سابق.

الأدبية والثقافية باعتباره رائد النهضة الفكرية والإصلاحية في الجزائر.

- ذكرى الشيخ اطفيش بغرداية.
- ذكرى حرب التحرير 1383هـ/1954م.
- محاضرة المرأة في المجتمعات قديما وحديثا.
- محاضرة الوصايا العشرة في الوعظ والإرشاد.
- ذكريات رحلات الزيتونة.
- ذكريات الالتحاق بالثورة.

5. الخاتمة:

في ختام هذه الورقة العلمية يمكن تسجيل النتائج والتوصيات الآتية:

- يعتبر الشيخ لزهاري بن الأخضر ثابت شخصية إسلامية علمية وإصلاحية أسهمت في الحركة المعرفية والتنويرية بمنطقة المغير في وادي ريغ.

- تأثر الشيخ لزهاري بن الأخضر ثابت بمنهج عبد الحميد بن باديس في الإصلاح من خلال نشر العقيدة الصحيحة ومحاربة الدجل والكهنوت، وباعتباره أول من تتلمذ على ابن باديس بمنطقة المغير بوادي ريغ.

- إسهام الشيخ لزهاري بن الأخضر ثابت في الحركة الوطنية والمقاومة التحريرية، من خلال انخراطه في النضال السياسي والتحاقه بالعمل المسلح ضد المحتل الفرنسي، وكان من الأوائل الذين كوَّنوا الخلية الثورية بوادي ريغ والجنوب الشرقي عموما، كما نسج عدة علاقات جيدة مع قادة الولاية الأولى في منطقة الأوراس منهم: سي الحواس ومصطفى بن بولعيد.

- مواصلة الشيخ لزهاري بن الأخضر ثابت بعد الاستقلال نضاله السياسي ودوره الإصلاحي من خلال غرس الأفكار الوطنية ومبادئ الإسلام واللغة العربية التي استمدت شعارها من شعار ابن باديس "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا".

ومن أهم التوصيات:

- دعوة الباحثين والدارسين إلى الاهتمام بالتراث العلمي والإصلاحي والتاريخ المحلي الثقافي بالجنوب الشرقي الجزائري للأعلام والعلماء المصلحين.

- الإسهام في دارسة الشخصيات الوطنية والإصلاحية، بالجنوب الشرقي وتدوين منجزاتهم وآثارهم.

- عقد أيام دارسية وملتقيات وطنية ودولية، للتعريف بالحركة الاصلاحية، والعلمية الثقافية، وأبرز رموزها وأعلامها بالجنوب الشرقي الجزائري، لتعريف الأجيال اللاحقة بكفاح

ومنجزات أسلافهم والاقتداء بعملهم.

6. قائمة المصادر والمراجع

- الحموي ياقوت، معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز جنحي، دار الكتاب العربية، بيروت، 1999م.
- شافو رضوان، دور منطقتيْ وادي ريغ ووادي سوف في دعم وتموين منطقة الأوراس قبيل وخلال الثورة التحريرية، مجلة البحوث والدراسات، العدد: 9، 2010م.
- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ج2.
- سعد بن بشير العمامرة، قاموس الشهيد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014م.
- عبد الحميد إبراهيم قادري، شخصيات وأعلام في الذاكرة، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2017م.
- عبد الحميد إبراهيم قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد جزائرية، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2013م، 591/2.
- عبد الحميد قادري، (23-24 افريل 1998)، التركيبة التاريخية لسكان وادي ريغ، الملتقى التاريخي الثالث حول فترة حكم بني جلاب لمنطقة وادي ريغ، منشورات جمعية الوفاء.
- عبد الرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الكتاب، بيروت، 1959م.
- علي غنابزية، الكفاح السياسي والعسكري للثورة التحريرية بالصحراء الجزائرية 1954– 1962م، دار الثقافة، الوادي، دن.
- قادري، الولاية السادسة التاريخية وقائع وأحداث من المنطقة الرابعة 1956-1962م، دار عطاء الله، طبعة خاصة، 2018م.
- قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد جزائرية، دار الأوطان للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، 597/1.
- مازن مطبقاني، "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية" رسالة ماجستير، قسم الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، المدينة المنورة، 1984-1985م.
- محمد بغداد، تماسين جوهرة الصحراء، دار الحكمة، الجزائر، دن.
- محمد شبوب، الجزائر في الحرب العالمية الثانية (1939-1945م)، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة وهران 1، الجزائر، 2014-2015م.

- معاذ عمراني، منطقة وادي ريغ في ظل الاحتلال الفرنسي (1854-1962م) دراسة سياسية، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر(2015-2016م) .
- شافو رضوان، معاذ عمراني، سلسلة محطات من تاريخ بلادي، الحلقة العاشرة، 2020/08/11م.
- شافو رضوان، 2007م، مقاومة منطقة تقرت وما جاورها للاستعمار الفرنسي، مذكرة ماجستير تاريخ معاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر.
- -عبد العزيز شهبي، (29- 30 ديسمبر2004م)، تقرت في اهتمامات الرواد الأوروبية خلال منتصف القرن التاسع عشر، الملتقى التاريخي لبلدية تقرت، تقرت، 2004م.
- كحيحة عبد الحميد، مقابلة مع الشيخ 2011/11/30م على الساعة 10:00، 12. https://binbadis.net/archives/100
- جريدة البصائر، العدد: 1050، الأثنين 26 جمادى الآخرة 1442هـ الموافق لـ: 8-2-2021م.

أثر محمد الأخضر السائحي في صناعة المشهد الثقافي في الجنوب الشرقي قبل الاستقلال

Mohamed al-Akhdar al-Sayihi 's impact on the cultural scene industry in the southeast before independence

د/ بسمة بله باسي
معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
bellabaci-basma@univ-eloued.dz

أ.د/ قويدر قيطون
معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
Kouider201230@gmail.com



ملخص: يعتبر محمد الأخضر السائحي (السائحي الكبير) أحد أهم أعلام الجنوب الشرقي الجزائري، الذين كان لهم دور فاعل في الساحة الثقافية والأدبية أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، مما جعله على رأس قادة المقاومة الثقافية في الجزائر عامة وفي الجنوب الشرقي خاصة؛ سواء ما تمثل في نشاطه الثقافي في تونس وخدمته للطلاب الجزائريين هناك، أو بدوره في إنشاء التعليم في منطقة تماسين وتقرت، أو بعمله في الإعلام بعد أن انتقل إلى العاصمة، أضف إلى ذلك منجزاته المتنوعة شعرا ونثرا ذات الفاعلية في هذا الحقل، وعليه تسعى هذه المداخلة إلى النظر إلى هذا العَلم المتميز من زاوية إسهامه في المقاومة الثقافية أثناء فترة الاحتلال حتى وإن كان جهده قد امتد وبشكل مهم إلى ما بعد الاستقلال، وذلك بتناول ما يأتي:

- السائحي الكبير مولدا ونشأة؛
- النشاط العلمي والثقافي في تونس؛
- أثر السائحي في المشهد العلمي والثقافي في الجنوب الشرقي؛
- النشاط الثقافي المقاوم بعد الانتقال إلى العاصمة.

الكلمات المفتاحية: محمد الأخضر السائحي؛ المشهد الثقافي؛ الجنوب الشرقي؛ قبل الاستقلال.

Abstract :
Mohamed al-Akhdar al-Sayihi (the great tourist) is considered one of the most important figures in the southeast of Algeria. He had an active role in the cultural and literary arena during the period of the French revolution that made him a leader of the cultural resistance in Algeria in general and in the southeast in particular. his cultural activity were in Tunisia and in Algerian serving students there, and establishing education in the region of Tamasin and Touggort. He also worked in the

media after he moved to the capital Algiers. Add to this his various achievements in poetry and prose that are effective in this field. Accordingly, this intervention seeks to look at this distinguished science from the point of view of its contribution to the cultural resistance during the period of French revution, even if its efforts extended in a way that important until after independence, by addressing the following topics: - The great tourist, born and raised. - Scientific and cultural activity in Tunisia. – - The impact of the tourist on the scientific and cultural scene in the southeast. - Resistance cultural activity after moving to the capital.
Keywords: Mohammed Al-Akhdar Al- Sayihi; cultural landscape; southeast; before independence words at most - Separated by semicolons..

1. مقدمة

كما تعددت أشكال المقاومة المسلحة الشعبية الجزائرية للمحتل الفرنسي بمجرد أن وطئت قدماه أرض الجزائر؛ فقد تعددت أيضا أشكال المقاومة الثقافية، تعليما وتربية، وتمسكا بالثقافة والعادات والتقاليد واللغة، وغير ذلك، ومنها ما كان جمعيا في شكل هيئات ثقافية وعلمية، ومنها ما كان فرديا متمظهرا في نشاط علماء وأدباء، كما أنهم وإن تحركوا فرديا إلا أنهم كانوا كالأمة في حرصهم وتأثيرهم، فتحلق حولهم الناس يأخذون منهم اللغة والأدب والقيم. ومن أولئك الأستاذ الشاعر محمد الأخضر لخضاري المعروف بالسائحي الكبير، والذي كان له دور بارز في الحركة الإصلاحية وقيادة المقاومة الثقافية بنشاطه الدؤوب الذي بدأ مبكرا في مسقط رأسه ، وانتقل معه إلى تونس حيث كان طالبا هناك، وتوسع بعد عودته إلى الجزائر، وهو ما تسعى هذه المداخلة إلى مقاربته وتسليط الضوء عليه.

2. السائحي الكبير مولدا ونشأة

2.1. تعريفه:

ولد محمد الأخضر السائحي شهر أكتوبر عام 1918 بقرية العالية، شمال غرب ولاية ورقلة، ابن محمد العلمي بن سيدي الأخضر بن الأخضر بن عبد القادر، ينتمي إلى عائلة الأخضري المتفرعة عن عرش أولاد السائح المنحدر من سيدي امحمد السايح بن أحمد بن علي بن يحي (أوائل القرن9هـ/15م) أحد الرجال الصالحين بالمنطقة والموجود ضريحه بمنطقة جلالة بلدة عمر دائرة تماسين، من عائلة مجيدة، محبة للعلم، قدمت للمنطقة جِلَّةً من العلماء والمفتين.

2.2. تعليمه:

انضم إلى أقرانه وهو في سن الخامسة ليحفظ القرآن الكريم، وقد امتاز بسرعة الحفظ

مما جعله يتم حفظه للقرآن الكريم في التاسعة بمسقط رأسه على يد مشايخ في قريته، أشهرهم: الشيخ محمد بن الزاوي، والشيخ بلقاسم شتحونة، وأجيز على حفظه سنة 1930، ثم أخد يعلمه للصبيان بمسقط رأسه لمدة تجاوزت السنتين[1]. انتبه والد السائحي إلى ذكائه وجودة حفظه وقد سبق له زيارة مدينة القرارة في ولاية غرداية، وعرف ما فيها من نشاط علمي، وتأثر بالأفكار الإصلاحية التي رفع لواءها الشيخ بيوض في المنطقة الذي أسهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين "في 5 ماي 1931م حيث كان ضمن أبرز علماء الإصلاح في أول مجلس إداري لها، ومن أبرز الوجوه الزيتونية التي تركت آثارا بارزة في مجال التربية والتعليم، فقرر نقل ابنه للقرارة بمعهد الحياة - مدرسة الشباب -، (الذي يعود تأسيسه إلى يوم 28 شوال 1343هـ الموافق لـ: 21 ماي 1925م على يد رائد الحركة الإصلاحية بالجنوب الجزائري الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض رحمه الله، ويعد معهد الحياة صرحا إسلاميا ومشروعا علميا تربويا، حيث كان التدريس في أول الأمر في دار الإمام الشيخ بيوض تحت اسم معهد الشباب حتى صدر الاعتراف الرسمي بجمعية الحياة سنة 1937م فتحولت تسميته إلى معهد الحياة)[2] سنة 1933، حيث أتم مقرر ثلاث سنوات في سنة واحدة، وكانت سنة دراسية واحدة كافية لتجعله يملك مفتاح المغامر نحو الرحلة في طلب العلم، ليلتحق بعدها ورغم الضائقة المالية وحالة أسرته الفقيرة بتونس ودرس بجامعة الزيتونة[3].

3. النشاط العلمي والثقافي في تونس

3،1. دوافع رحلته إلى تونس:

هناك دوافع كثيرة دفعت محمد الأخضر السائحي للرحلة العلمية نحو تونس، من أبرزها:

- النهضة التي شهدتها تونس في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين من جو علمي، وسياسي، وأدبي، والتي كان لها تأثير في نهضة المغرب العربي[4]، يقول عبد الله الركيبي: " إن دافعنا إلى الهجرة هو دافع جيل كامل بل أجيال "قبلنا تهدف إلى أن تتثقف ثقافة عربية إسلامية أصلية، خاصة وأن التعليم المتوسط والثانوي ... ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت (الزيتونة) ملجأ لمن

1- محمد الأخضر السائحي: ديوان همسات وصرخات، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص10.

2- ينظر: سعيد بكير عوشت: إبراهيم بيوض وجهاده الاسلامي في الجزائر، دط، المطبعة العربية ، غرداية، 1987، ص 43.

3- محمد الأخضر السائحي: ديوان همسات وصرخات، المرجع السابق، ص 10.

4 - محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1971م، ج2، ص16.

لحرم من ثقافته وتراثه القومي"[5].

- الاحتلال الفرنسي للجزائر وما ترتب عنه من انخفاض مستوى الدخل والمعيشة للغالبية العظمى من الجزائريين، بحيث إن أعدادا ضخمة منهم حرمت من التمتع بالخدمات العامة، كالصحة، والتعليم،[6] فقد اتبع الاستعمار الفرنسي منذ دخوله الجزائر سياسة التجهيل للشعب الجزائري، وبذل كل جهوده لتحطيم ثقافة ولغة الشعب الوطنية، ولكي يضمن النجاح لهذه السياسة سلّط الفقر والفاقة على الشعب ليلهيه وينسيه جانب الفكر والتربية والثقافة والتعليم[7]، قد أرهق الشعب الجزائري حيث عبر عن ذلك ابراهيم أبو اليقضان: "لقد تسلط على الأمة الجزائرية عوامل ثلاثة، لو تسلط عامل واحد منها على أمة كبيرة لزعزع ركنها، وهد بناءها، ألا وهي: الجهل والفقر والفرقة[8].

- تأثير العامل الجغرافي، فقرب البلاد التونسية من الجزائر جعلها وجامعها الزيتونة قبلة للجزائريين عموما وللطلبة خصوصا، خاصة سكان الحواضر الجزائرية الشرقية والجنوبية الشرقية، فقد تأثر السائحي بالهجرات الطلابية من الجنوب الشرقي إلى تونس[9].

- سعيه للاطلاع على التراث والاستزادة من كل المعطيات المعرفية التي تصقل مواهبه المختلفة.

- تأثره بالشيخ إبراهيم بيوض كونه يعد من أبرز الوجوه الزيتونية التي تركت آثارا بارزة في مجال التربية والتعليم في منطقة الجنوب الشرقي.

3.2. **انتقاله إلى تونس:**

بدأ محمد الأخضر السائحي رحلته لطلب العلم إلى تونس سنة 1934 قاصدا جامع الزيتونة (الذي أسس في العصر الأموي سنة 114هـ/732م، والذي يعتبر أقدم المعاهد التعليمية العربية في المغرب الإسلامي، والذي حمل لواء الثقافة القومية العربية وحافظ على المقومات الحضارية في الوقت الذي كانت فيه الثقافة مهددة بالمحو والمسخ، وقد

5- سعيدوني (نصر الدين): دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م، ص: 480.

6- إبراهيم مياسي: موقف الإدارة الاستعمارية من تعليم الجزائريين، في محلة الشهاب الجديد، العدد3، الجزائر ، 2004، ص 296.

7- يحي بوعزيز: أوضاع في الجزائر خلال ثورة أول نوفمبر، في مجلة الشهاب الجديد، العدد 03، الجزائر، 2004 ص، 1286.

8- حمادي عبد الله : أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، دار البعث، قسنطينة، 2001، ص27.

9- محمد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م - 1962م، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص 23.

استطاع أن ينشئ جسر تواصل دائم بينه وبين الجماهير العربية خاصة الجزائرية)[10] ، فكانت هذه فرصة له لينهل من معين هذا الصرح العلمي الذي كان قبلة لطلاب العلم من الجزائريين وحلم كل راغب، وكان الطلبة يتأهلون للدراسة في الجامع الأعظم بعد حفظ القرآن وتمكنهم من مبادئ العربية وعلومها، لقد استقطب جامع الزيتونة العديد من الطلبة الجزائريين من جهات عديدة من تبسة وعين البيضاء وقسنطينة[11]، وقد تابعت هذه الفئات الطلابية التي درست في المعاهد الإسلامية وكونت لنفسها جمعيات وتنظيمات طلابية حتى تناضل لتحسين ظروفها الصعبة ومنها تأسيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، كانت بمثابة الناطق الرسمي لجمعية العلماء المسلمين والتي تأسست يوم 05 ماي 1931 في نادي الترقي بالجزائر العاصمة، بحضور 72 عالما قدموا من مختلف أرجاء الوطن، ومن مختلف التوجهات الدينية والثقافية، فكان منهم الطرقي، والمصلح، والمتطرف والمعتدل، في هذا الاجتماع تكونت لجنة تأسيسية، تكون منها مجلس إداري من 13 عضوا على رأسهم ابن باديس الذي تم انتخابه رئيسا لهذه الجمعية[12].

أدت زيارة عبد الحميد بن باديس سنة 1937 إلى تونس إلى تقوية الإحساس الوطني في نفوس الطلبة، وربط الجالية المهاجرة بالجزائر، وتقوية العمل المشترك بين التونسيين والجزائريين، ومن الطلبة الزيتونيين في الجزائر محمد الأخضر السائحي ورفاقه محمد الشبوكي، والشيخ عبد المجيد حريش، وعبد الرحمان شيبان، والشاذلي المكي، وقد تفتقت موهبة علمنا الشعرية في سن مبكرة حيث كتب عدة قصائد من بينها قصيدة بعنوان محرم سنة 1356هـ، وقد برز نشاط محمد الأخضر السائحي في تونس من خلال القصائد التي نشرها في المحلات التونسية، وتوطدت علاقته بمجموعة من النوابغ خاصة الأديب محمد المرزوقي وعبد الله الزريبي والتابعي الأخنش[13]، كما نظم قصيدة ولم يتجاوز عمره السابعة عشرة تعبر عن التوجهات السياسية والوطنية، وأصبحت النشيد الخاص للطلبة في المناسبات الوطنية، منها قوله:

سندرأ بالسيف عند العذاب *** ونرفع بالعلم فيك العلم
فمن الجزائر غير الشباب *** نجاهد بالسيف أو بالقلم

10- ينظر: الطاهر عبد الله : الحركة الوطنية التونسية 1830 - 1956، ط2، دار المعارف للطبع، تونس، ص 226.

11- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح (مذكرات)، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1976، ص: 87

12- ينظر: سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ج3، ص 89.

13- أحمد مريوش: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كنوز الحكمة، الجزائر، ج1.

ليتوق إلى العيش حرا مهابا *** يرى الحرب مستعرا كالسلم

فأنا بنوا الفاتحين الأول *** بلادي وأشبال تلك الأسود

لنا نهجوا أسوة في العمل *** سيرضيك منا ويرضي الجدود

غدا ليتحقق ذلك الأمل *** لديك وليس غد ببعيد[14]

وقد حمل في قصيدته كل معاني الاستنهاض والثورة، وتفجير قوى الرفض والغضب، وتعددت أنشطة الطلبة حيث عين محمد الأخضر السائحي مستشارا في ديسمبر 1936 في جمعية شبيبة شمال إفريقيا الموحدة، التي ضمت عددا من الطلبة الزيتونيين، ثم أعيد تعيين السائحي مستشارا في جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين التي كان رئيسها الشاذلي المكي، كما انخرط في الحزب الدستوري التونسي، حيث كانوا يعملون في إطار نقابي وثقافي، أو ضمن لجان الدفاع عن حقوق الطلبة عموما، وقد عملت الجمعية على تكوين الطلبة وتمكينهم من التحصيل الفكري والديني وحتى السياسي حتى يتمكن طلابها من تحمل المسؤولية وقضايا الوطن والتفكير في مستقبله؛ لأنهم بعد تخرجهم سيرجعون إلى الجزائر ويواصلون نشاطهم في الحركة الوطنية تحديدا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي نشط فيها محمد الأخضر السائحي[15] وقد حصل على شهادة التطويع من جامع الزيتونة.

4. أثر السائحي في المشهد العلمي والثقافي في الجنوب الشرقي

عاد محمد الأخضر السائحي إلى الجزائر ولم تكن رحلات الطلبة بعيدة عن عيون الرقابة الفرنسية التي عززت من متابعتها لتنقلات الطلبة باتجاه جامع الزيتونة خاصة أن فرنسا اعتبرتهم يحملون أفكارا سلبية وسيأثرون على الرأي العام في المنطقة لا سيما في قطاع الجنوب، كما أنه وفي أحداث 9 أفريل 1938 الدامية بتونس كان محمد الأخضر السائحي أحد المطلوبين للسلطات الفرنسية بسبب نشاطه الصحفي وتراكيبه الشعرية الوطنية فعاد متخفيا إلى الجزائر، وبمجرد عودته سنة 1939م اعتقلته السلطات الفرنسية في السجن بمجرد نزوله من القطار لمدة أسابيع، وبفضل توسط أخواله في الزاوية التيجانية في تماسين لم يطل بقاء علمنا في السجن[16]، وقد أسهم السائحي في الحركة التنويرية بوادي ريغ حيث تمكن من بعث النهضة الثقافية بمناطق الجنوب الجزائري في وادي ريغ، كما انتقل إلى بلدة عمر فسعى لتأسيس مدرسة عربية حرة يعلّم فيها مجموعة من الشبان والكهول، ثم انتقل إلى تقرت وعمل في مدرسة الفلاح، وفي سنة 1947 طلب منه أعيان "تماسين" أن يعود إليهم ويؤسس لهم مدرسة، ففتح مدرسة حرة فيها، فصار ينتقل من تماسين إلى تقرت، كما

14- محمد صالح الجابري ، النشاط العلمي والفكري، المرجع السابق، ص 122.

15- الطاهر عبد الله: المرجع السابق، ص 226.

16- محمد الأخضر السائحي: ديوان همسات وصرخات، المرجع السابق، ص 23.

أسس جمعية الأمل الثقافية التي جمع فيها ثلة من الشباب وغرس فيهم الروح الوطنية، ينشدون الأناشيد الحماسية التي تمجد الوطن والقصائد الدينية التي تغرس القيم، وعن طريق مسرحيات تخلد التاريخ العربي والإسلامي، وكان السائحي أول من بذر بذور الإبداع الأدبي في شباب تقرت، وشجعهم على قول الشعر فقد أسس ناديا خاصا للتدريب على قول الشعر وكتابة المسرحيات، ومن قصائده في هذه الفترة قصيدته الترحيبية التي نظمها لتلاميذ مدرسة الفلاح" التي مطلعها:

مرحبا أهلا وسهلا *** أيها الوفد الجليل.

أي فجر قد أطلا *** من محياك الجليل

كما أسهم في تكوين فوج الكشافة الإسلامية مع زميله الشهيد "عضامو محمد البحري"، ونسبه إلى جمعية الأمل فسماه فوج الأمل، وكان السائحي هو صوتها الوطني بتركيباته الشعرية، وعن طريق هذا التنظيم زرع السائحي مفهوم الفكرة الوطنية العملية في أذهان الشباب ودفع بهم للعمل الوطني، وخوض غمار النضال في الحركة الوطنية في مختلف أطيافها، وجعلهم يستعدون للثورة، فجل الذين قادوا الخلايا الثورية بتقرت كانوا من تلاميذه[17] كما شكل فرقة مسرحية وأسهم في انتقال عدد من الطلبة إلى تونس ومصر لطلب العلم[18].

بعد تجربته في التدريس وإسهامه في الحركة التعليمية في المنطقة، انتقل إلى مدينة باتنة سنة 1952م إلى بيت عمه "سيدي عبد القادر "بمناسبة وليمة أقامها، حضرها السيد "فتح الله بن حسين" الذي كان يرأس القسم العربي بإذاعة الجزائر فأعجب بشخصية السائحي وقدراته الأدبية وطلب منه القدوم إلى الجزائر لتقديم بعض الأعمال الأدبية في الإذاعة فالتحق بالجزائر العاصمة، وعمل بالإذاعة وفي فترة قبل الاستقلال كان يعمل أحيانا في الإذاعة ويعمل كذلك مدرسا في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان يقرأ مع الحزابة يوميا بالمسجد الكبير، إلى أن استقر في العمل بالإذاعة، ولما أنشأت لجنة الاعتراف بقدماء المعلمين واعترف للشيخ بجهوده في التعليم قبل الثورة التحق مدرسا بثانوية "ابن خلدون" في بلوزداد، لكن قيود التدريس أثقلت عاتق محمد الأخضر السائحي، ثم انتدب إلى وزارة التربية للعمل فيها إلى غاية سن التقاعد، إلا أنّه استمر في العمل بالإذاعة، وفي الديوان الوطني لحقوق التأليف في ترشيد وجمع التراث ولم يتوقف عن النشاط والحركة

17- حمزة يدوغي: الجانب الروحي في شخصية الشاعر الأستاذ الشيخ محمد الأخضر السائحي، في مجلة الثقافة، العدد صفر، مديرية الثقافة لولاية ورقلة، 2009، ص 46.

18- إميل يعقوب: معجم الشعراء منذ بدء عصر النهضة، دار صادر بيروت، لبنان، 2004، المجلد الثالث، ص 1073.

إلى أن أقعده المرض وتوفي مساء الاثنين 4جمادى الثانية 1426هـ الموافق ل 11جويلية 2005م[19].

5. النشاط الثقافي المقاوم بعد الانتقال إلى العاصمة

إضافة إلى نشاط السائحي في تونس وخدمته لطلبة الزيتونة هناك كما سبق ذكره، ونضاله الطلابي والسياسي هناك، ومع اندلاع الحرب العظمى الثانية وسجنه لأسابيع من قبل المستعمر، فقد ظل متخفيا معلما وناشطا في فوج الكشافة الإسلامية ومنشئا لجمعية الأمل للفن والتمثيل، يهدف من ذلك إلى بعث الروح الوطنية والدفاع عن مقومات الشخصية الجزائرية من لغة ودين وتراث، إلى أن انضوى في نشاط جمعية العلماء1952 مدرسا، وقد اضطلعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمهام تعليم العربية والدين وبث الروح الوطنية والذود عن الشخصية الوطنية المستقلة تماما عن المسخ الذي أرادت فرنسا إيهام الغافلين به على أنه حقيقتم.

انتقل محمد الأخضر السائحي إلى العاصمة في 1952 ليعمل مدرسا بمدارس جمعية العلماء، ويلتحق بالإذاعة آنذاك، فعمل منتجا إلى جانب مزاولته التدريس في ثانوية القبة (حسيبة بن بوعلي حاليا)، ومدرسة السعادة بحي بلكور، ثم انقطع للإنتاج الإذاعي حتى تحرير الجزائر.

بعد الاستقلال جمع بين التعليم والعمل الإذاعي في كل من ثانوية ابن خلدون والثعالبية بالعاصمة إلى أن تقاعد في نوفمبر 1980، إلا أنه استمر للعمل في الإذاعة، وفي الديوان الوطني لحقوق التأليف في ترشيد وجمع التراث، ولم يتوقف عن النشاط والحركة إلى أن أقعده المرض وتوفي مساء الاثنين 4جمادي الثانية 1426هـ الموافق لـ 11 جويلية 2005م[20]، وأشهر ما كان يقدم من برامج إذاعية: برنامج "ألوان" و"نماذج" منقبا في التراث مازجا إياه بروح العصر والتحديث بما يراه يخدم القضية ويربي المرء على الفضيلة والوطنية، وظل ذلك دأبه حتى وافاه الأجل في 11 يوليو/تموز من عام 2005 تاركا من الدواوين: همسات وصرخات 1967 وجمر ورماد 1980 أناشيد النصر، ألوان بلا تلوين 1983 إسلاميات، وأثناء تلك الحقبة الزمنية قبل الاستقلال ظل الشاعر مدافعا عن ثقافة هذا الشعب، خادما للغة القرآن الكريم، خاصة وقد أتيح له ذلك المنبر الإعلامي الذي مكنه من مخاطبة الناس وهم يستمعون إلى تلك اللغة الجميلة الصافية النقية في حدود ما تتيحه له مساحة التعامل مع المحتل.

وقد ظل الشاعر بعد الاستقلال محافظا على النشاط نفسه الذي كان قبله مشتغلا

19- محمد الأخضر السائحي: ديوان همسات وصرخات، المرجع نفسه، ص 26.

20- محمد الأخضر السائحي ، ديون همسات وصرخات، ص26

بالإذاعة ذائدا عن تراث الأمة وثقفاتها ولغتها، وملعما متجاوزا حدود المدرسة ليدخل كل البيوتات الجزائرية عبر أثير الإذاعة بأسلوبه الشيق الذي يجمع بين المتعة والفائدة، وإضافة إلى ذلك النشاط فقد كان الشاعر حاملا للواء الدفاع والمقاومة الثقافية بما حملته قصائده من معاني الدفاع عن قضايا الوطن، والأمة العربية خاصة قضية فلسطين، وقد خلّف إنتاجا ثريا نشر جله بالجرائد والمجلات التونسية والجزائرية، وله عدد من المؤلفات المطبوعة منها "همسات وصرخات" 1967، و"جمر ورماد" 1980، أناشيد النصر 1983، و"ألوان بلا تلوين" وبه جمع النكت والطرائف التي كان يذيعها في برنامجه الإذاعي ألوان ثم نماذج، عرف رواجا كبيراً، كما ترك ديوانا للأطفال 1983، وإسلاميات 1984، بقايا وأوشال 1987، الراعي وحكاية ثورة 1988، كما كان ضمن الأعضاء المؤسسين للاتحاد الكتاب الجزائريين منذ الستينات، وشارك في جل النشاطات الأدبية والملتقيات الثقافية في الجزائر، وحضر أغلب مؤتمرات اتحاد الكتاب العرب، ومثّل الجزائر في عدد من المهرجانات الثقافية الدولية ومهرجانات الشعر في جل العواصم العربية، وقد تميز شعره بالخفة وبروح الفكاهة التي تمتع بها في برنامجه الإذاعي "ألوان" والذي امتد لأكثر من عشرين سنة بالقناة الأولى، كما أنه اهتم بالأسرة والمرأة والطفولة بالأخص، باعتبارها مدرسة الرجولة وأساس التنشئة الأولى المتحكمة في شخصيته وفي ميوله وذوقه، فألف مقطوعات شعرية وأناشيد وطنية ودينية وقصص للأطفال بلغة سلسة ضمنها القيم الوطنية والخلقية المقتبسة عن الدين الإسلامي والهوية الوطنية، فأصدر ديوان وأغاني للأطفال 55 نصا شعريا وأناشيد عام 1983.

وشعره رسالة للتحرر والبناء الوطني، فهو الشاعر الملتزم المخلص في أداء رسالاته، فضح جرائم الاستعمار وعناوين دواوينه توحي بذلك "جمر ورماد، همسات وصرخات، أناشيد النصر.."، وجند شعره في خدمة الحرية والقضية الوطنية، كما فاز بجوائز كالميدالية الذهبية بمهرجان الشعر العربي الحادي عشر بتونس في مارس 1973، كما فاز بالجائزة التي رصدها اتحاد المغرب العربي لاختيار نشيد رسمي له:

حلم جدي حلم أمي وأبي * حلم من ماتوا وحلم الحقب

فانشروا رايته خفاقة * وارفعوها فوق هام السحب

مغرب نسبته للعرب * واجعلوا القوة فيه مطلبا

بالتلاقي التآخي والوئام * نبتغي للمغرب الحرّ السلام

وفي قصيدته في ملتقى الفكر الإسلامي عام 1982 في تلمسان، وهو ملتقى فكري عالمي يعقد كل سنة في مدينة من مدن الجزائر، يتسم بالتسامح أولا، يحضره علماء من مختلف الأديان، وكل المذاهب والفرق الإسلامية، تمزج البحث في الماضي مع حاجات العصر وقد

كان يومها صورة مشرفة للجزائر الطامحة لولا أن عصفت به ريح لم تبق ولم تذر:

أرى الشعر ينأى إن دنوت ويهرب
يشرق في أغراضه ويغرب
ولا يستبيه في تلمسان منظر
وإن كان يستبي الناظرين ويسلب
فمعذرة يا ملتقى الفكر ما أنا
أغني ولكن في الحقيقة أندب
عجبت لأرض فوقها قبر خالد
وألف عظيم تحتها ليس تنجب
مذاهبهم في الخلاف كثيرة
وليس لهم في وحدة الرأي مذهب
إذا لم نصنع جيلا جديدا على التقى
ونبنيه من أعماقه سوف نخرب
وعودوا إلى الماضي البعيد فأنه
إلى أبعد الغايات أدنى وأقرب

والمحصلة أن السائحي كان شاعرا كبيرا من رواد شعر المدرسة الكلاسيكية التي ضمت فحولا من شعراء الجزائر؛ كمحمد العيد وأحمد سحنون ومبارك جلواح، وقد كان شاعرا ملتزما بأتم معنى الكلمة، جند شعره للدفاع عن الحرية ثم ساهم في البناء الوطني بعد الاستقلال .

وارتقى بالأثير بما كان يقدمه من برامج أدبية في بلد حاول المستعمر تدمير هويته ومسخ شخصيته وقد ترك لفيفا من أذنابه عاثوا فيه فسادا، غير أن توجهه للكتابة للأطفال أهم ما يميزه، ففي المكتبة الوطنية نقص كبير في أدب الأطفال ولعل هذه سمة العالم العربي برمته لولا أن رأينا انتعاشا في الراهن بتكريس جملة من الجوائز للكتابة القصصية والشعرية للأطفال، وهي لفتة تنم عن انتباه إلى خطر الطفولة في المستقبل فإهمالها يعني إهمال مستقبل علميا وخلقيا وحضاريا.

6. الخاتمة

بعد هذه النقطة البانورامية التي أدرناها في سيرة محمد الأخضر السائحي يتبين لنا ما يأتي:

- كان للمقاومة الثقافية التي قادها أفراد من الشعب الجزائر أثر كبير في إحباط مشروع المستدمر الفرنسي الهادف إلى طمس هوية الشعب الجزائري ومسخ حضارته وتاريخ أمته.

- تفطن العلماء لمخططات المحتل الفرنسي وسعيهم المبكر لمحاربتها، أسهم في الحفاظ على هوية الأمة وثقافتها، وإبقاء روح النضال متقدة في النفوس كانت ثمارها ثورة مباركة أكلت أخضر المحتل ويابسه.

- تنوع الأسلحة الثقافية للحركات الإصلاحية سد الكثير من الثغرات في التربية والتعليم التي سعى المحتل لتهديمها ومحاربتها.

- يعتبر محمد الأخضر السائحي بحق أيقونة المقاومة الثقافية في الجنوب الشرقي بالنظر إلى سجله النضالي سواء ما كان منه أثناء الاحتلال أو ما بعد الاستقلال.

- الكثير من نشاط المصلحين والثائرين ثقافيا بقي في طي النسيان لانشغال الناس بالحديث والتأريخ للجانب المسلح من الثورة، مع أن الثورة الثقافية والمسلحة صنوان لا ينفصلان.

- ضرورة التاريخ والتسجيل لحماية هذا الإرث الثقافي، لرد الاعتبار لهذه الشخصيات التي كان لها دور كبير في حماية الأمة الجزائرية والذود عنها.

- ومما نوصي به في ختام هذا العمل أن نشير إلى أهمية أن تفرد ملتقيات وندوات لكل شخصية على حدة حتى تضاء كل جوانب حياتها حفظا للتأريخ ووفاء للعهد، وتوريثا للأجيال.

7. قائمة المراجع

- أبو القاسم، سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.
- إميل، يعقوب، معجم الشعراء منذ بدء عصر النهضة، دار صادر بيروت، لبنان، 2004.
- بوعزيز، يحي، أوضاع في الجزائر خلال ثورة أول نوفمبر، مجلة الشهاب الجديد، العدد 03، 2004.
- الجابري، محمد صالح، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م - 1962م، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983م.
- حمادي، عبد الله، أصوات من الأدب الجزائري الحديث، دار البعث، قسنطينة، 2001.
- دبوز، محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1971م.
- السائحي محمد الأخضر، ديوان همسات وصرخات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- سعيدوني، نصر الدين، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م.

- الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، دار المعارف للطبع، تونس، ط2، 1830 - 1956.

- عوشت، سعيد بكير، إبراهيم بيوض وجهاده الإسلامي في الجزائر، المطبعة العربية ، غرداية، دط، 1987.

- المديني، أحمد توفيق، حياة كفاح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط1، 1976.

- مريوش، أحمد، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كنوز الحكمة، الجزائر.

- مياسي، إبراهيم، موقف الإدارة الاستعمارية من تعليم الجزائريين، مجلة الشهاب الجديد، العدد3، الجزائر ، 2004.

- يدوغي، حمزة، الجانب الروحي في شخصية الشاعر الأستاذ الشيخ محمد الأخضر السائحي، مجلة الثقافة، العدد صفر، 2009.

المقاربات التداولية
في خطابات الشّيخ محمد اللقّاني بن سايح
1886ـ1970م (1313ـ1389هـ)

The pragmatics approaches in the speeches
of Sheikh Muhammad Al-Laqani bin Sayeh

د/ حكيم بوغازي
مخبر الدراسات الأدبية في الجزائر، جامعة مستغانم
hakim.boughazi@univ-mosta.dz

د/ سعاد نكاع
مخبر الدراسات الأدبية في الجزائر، جامعة مستغانم



ملخص: تشكّل خطابات الشّيخ اللقّاني (1886- 1970م) على اختلاف مقاماتها الفكرية والعلمية والإبداعية والثورية والإصلاحية والثقافية علامة فارقة في تاريخ مشايخ الجزائر بصفة عامة، وتاريخ الإصلاح المجتمعي على نحو أخص، وترجع أهمية الإسهام الإصلاحي(الثقافي) والدّعوي للشّيخ إلى الوعي العميق الذي تكوّن لديه بضرورة استئناف القول في بناء المجتمع بطريقة إصلاحيّة جديدة ومختلفة، من أجل التأسيس لنظر ذهني ديني غير مألوف .

وقد تمثّلت فرادة هذا الإنجاز في المنهج الأصيل الذي اصطنعه الشّيخ في عرض المقرّرات النّظرية والتّطبيقية التي حرص- في استخلاصها- على التّفاعل الحي والمباشر مع الشّعب سواء في الكتاتيب التي أشرف عليها أو في مقالاته وأشعاره أو في حديث الصّباح الذي خصّه بالجانب الدّعوي مفيدا في نفس الآن من الآراء الفقهيّة التي راكمها سابقوه، اعتقادا منه أنّ ذلك سيفيده في التأصيل لقوانين المجتمع المنضبط والمتحرّر من ربقة المستعمر.

وإذ ذاك فإنّنا في هذا المجال البحثي نحاول الإبانة عن الأبعاد التداولية الخفيّة والمعلنة في خطابات الشيخ الدينية والأدبية والوعظية.

الكلمات المفتاحية: الشيخ اللقاني؛ الأبعاد التداولية؛ الخطاب الثقافي المعلن؛ المنجز الدعوي؛ الدلالة الشعرية.

Abstract :

The speeches of Sheikh al-Laqani (1886 - 1970 AD), with their various intellectual, scientific, creative, revolutionary, reformist and advocacy positions, constitute a milestone in the history of the sheikhs of

Algeria in general, and the history of societal reform in particular. The importance of the reformist and advocacy contribution of the Sheikh is due to the deep awareness that he developed of the need to resume saying in building society in a new and different reformist way, in order to establish an unfamiliar religious mental view.

The uniqueness of this achievement was represented in the original approach that the Sheikh created in presenting the theoretical and applied courses that he was keen - in extracting them - on live and direct interaction with the people, whether in the books he supervised or in his articles and poems or in the morning talk that he singled out on the advocacy side, useful in the same Now from the jurisprudential opinions accumulated by his predecessors, believing that this will benefit him in rooting the laws of a disciplined society free from the bondage of the colonizer.

And then, in this field of research, we are trying to reveal the hidden and revealed pragmatics approaches in the Sheikh's religious, literary and preaching discourses

Keywords: speeches of Sheikh al-Laqani؛ various intellectual؛ pragmatics approaches؛ original approach

1. مقدمة

تشكّل خطابات الشيخ اللقّاني (1886- 1970 م) على اختلاف مقاماتها الفكرية والعلمية والإبداعية والثورية والإصلاحية والثقافية، علامة فارقة في تاريخ مشايخ الجزائر بصفة عامة، وتاريخ الإصلاح المجتمعي على نحو أخص. وترجع أهمية الإسهام الإصلاحي والدعوي للشيخ إلى الوعي العميق الذي تكوّن لديه بضرورة استئناف القول في بناء المجتمع بطريقة إصلاحية جديدة ومختلفة، من أجل التأسيس لنظر ذهني ديني غير مألوف .وقد تمثّلت فرادة هذا الإنجاز في المنهج الأصيل الذي اصطنعه الشيخ في عرض المقررات النظرية والتطبيقية التي حرص- في استخلاصها- على التفاعل الحي والمباشر مع الشعب، سواء في الكتاتيب التي أشرف عليها أو في مقالاته وأشعاره أو في حديث الصباح الذي خصه بالجانب الدعوي مفيدا في نفس الآن من الآراء الفقهية التي راكمها سابقوه، اعتقادا منه أن ذلك سيفيده في التأصيل لقوانين المجتمع المنضبط والمتحرر من ربقة المستعمر.

إنّ المهمّة الأساس التي انتدب لها الشيخ في مسيرته الحافلة: شعرا ونثرا، هي التأصيل للدعوة الإسلامية وبيان مقاصدها الاجتماعية والروحية، فضلا عن تأسيس معان جديدة لمفهوم العبادة في الإسلام، من خلال تعبيره المزجي بين التصوف الخالص والتحرير الأدبي،

من ذلك قوله[1]: مثال التي تتكرّر في اليوم خمس مرات على الأقل ليست إلا مراكز في طريق السّير إلى الله يقف المصلي فيها لحظات ليتزود من طاقة الإيمان و العزيمة ويتفقد فيها مركبة السير فيجدد ما وهن من دواليها ويشد ما تراخى من جهازها حتى إذا استأنف السير من جديد كان أقوى ما يكون وأمتن ما يمكن وهذا إلى أن تقف به على شاطئ السلام.

وإذا كان الدّرس التَّداولي علما جديدا غايته دراسة الّلغة حال استعمالها والعناية المثلى بدراسة مقاصد المتكلِّم باعتباره طرفا في الخطاب مالكا سلطة القول، ثم بالمخاطب لامتلاكه أدوات التلقِّي، فإنه لا محالة يُعنى بالقصدية باعتبارها بؤرة تجمع بين المخاطب والمتلقي. كما أنُّ نظريَّة الأفعال الكلاميَّة من المحاور الأساسية في الدرس التداولي، و تهتمُّ التداولية في الأعمّ بدراسة الحجاج و الآليات المستخدمة في إقناع المتلقين والتَّأثير فيهم. ثم إنّنا في هذه الدراسة نحاولة رصد الأبعاد التداولية الموجِّهة للخطاب الدعوي والاجتماعي والوعظي عند الشيخ اللقّاني، من خلال الوقوف على بعض النماذج الأدبية والدينية والثقافية، وتحليلها تحليلاً تداوليّاً مبنيّاً على توظيف نظرتي الحجاج والأفعال الكلامية، وذلك بغية الوصول إلى حقيقة ما يرمي إليه الخطاب اللقّاني من مقاصد ودلالات.

ثم إن، "التحليلات التداولية تعتمد تارة على بنيات سيكولوجية وتارة على تمفصلات ذوات اجتماعية"[2]، فهذه البنيات السيكولوجية هي المعطى الحقيقي الذي ينبني عليه المصب الشعري اللقّاني، في حين تستند التمفصلات الاجتماعية على مقاربة الإصلاح الداخلي والخارجي للمجتمع،. سواء من حيث القيمة الفعلية لمفهوم الوطن، أو القيمة المضافة للفكر الوطني المتحرر. ولعل المزج بين الوطنية والدين هو الأساس المنهجي الذي يتماسف إلى حد كبير والطرح الذي شيّده الشيخ اللقّاني في مقالاته وأشعاره، والتي نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر (قصيدة إلى الشعب الجزائري، مقال مفهوم العبادة في الإسلام، وغيرها من الإسهامات التي سنقف عند عتباتها المنهجية.

وتأسيسا على ما سلف فإن شدة الرصد اللغوي والتماسك الأسلوبي الذي صاغ به الشيخ مقالاته تمتاز في مجملها بما يسمى في البحث التداولي بـ "قوة المنطوق الإنجازية"[3] فهي جزء من البنية الدلالية التي تدرك من الخطابات، من خلال الملابسات والإيحاءات التي تلامس النصوص شكلا وموضوعا. إن تحليل الخطاب التداولي لا يمكن أن يقتصر على المعنى الحرفي للمكوّن اللّفظي، وإنما يتعدّى ذلك إلى استعمال اللّغة إلى حدّ تتحقّق فيه الكفاية اللّغوية تحققا بالفعل لا بالقوّة، وهنا لا محالة الالتزام بمحدّدات الخطاب المبنية

1- اللقاني محمد، من معاني العبادة في الإسلام، مجلة جوهر الإسلام،ع2، تونس، جويلية1968،ص51

2- علوي حافظ اسماعيل، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتاب الحديث، الأردن، 2011، ص 17.

3- نفسه، ص 313

على متضمنات القول والفعل الإنجازي، كدلالات نعبر من خلالها إلى فهم مقول القول، ونحرّر بذلك الأدوات المعجمية من نصوصيّتها إلى الخطاب الاستعمالي حقيقة لا حكما.

وركحا على ما تم سرده، فإن الإشكالات التي تتناهي إلى ذات الباحث في هكذا بحوث، هو كيف استطاع الشيخ الوصول إلى قلوب وآذان المستمعين والقارئين مسلمين وغير المسلمين، من خلال خطبه ووعظه وإرشاده وكذا من خلال أشعاره؟ ما هي الأبعاد الثقافية التي نقف عليها من خلال هذه الخطابات؟ ثم كيف نقرأ المنحى الشعري تداوليا؟

وقصد الإجابة عن مثل هذه الإشكالات عنّ لنا البحث وفق مقاربتين التاريخية والتداولية؛ ففي التاريخية نقف عند حدود المسيرة والسيرة الذاتية، وعند المقاربة التداولية نقف عند الخطاب الحجاجي ومعايير الدرس التداولي الذي أثر في المتلقي.

2. الشيخ اللقاني سيرة ومسيرة

2،1. النشأة والموئل:

هو الشيخ محمد اللقّاني بن محمد بن السايح بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن مسعود بن شحشح ويلقب بابن السايح ، واسم والدته مباركه بنت الحيري[4].. كما جاء في كثير من المراجع التي ترجمة له، وإن كان الباحث قحمص قد أفادنا كثيرا في خبايا سيرته خاصة ما تعلق بسنة ولادته التي اختلف فيها بين المؤرخين. وإذا ما عدنا إلى التّأصيل الإثني القبلي للشيخ، فإنه يرجع إلى عرش أولاد عبد القادر المعروف مجتمعيا بالطيبات ، وينحدر هذا النسب من مكان الساقية الحمراء ووادي الذهب " الصحراء الغربيه حاضرا "، حيث ولد الشيخ محمد اللقّاني حسب أخر البحوث المتداولة بمدينة نفطة بالجريد التونسي سنة 1304هـ الموافق لسنة 1886م، حسب ما أكّده الباحث مسعود قحمص بالوثائق في كتابه الصادر حديثا(الشيخ محمد اللقاني بن سايح حياته وآثاره).

رجع الشيخ إلى بلدته الأصلية (الطيبات قرب تقرت على الحدود مع الواد) وقد بلغ الثامنة من عمره، أين التحق ببعض الكتاتيب، وعلى هذا الاعتبار فإنه يصح لنا القول إن الشيخ نشأ في كنف أسرة عريقة النسب، عرفت بالتربية الدينية لأبنائها، وقد برز في هذه الأسرة الكثير منهم نذكر على سبيل المثال لا الحصر: والد الشيخ اللقاني " محمد بن السايح " ، والذي عرف بتفوقه في حفظ القرآن وعلوم الدين وكما كان من المقدمين في زاوية

4- ينظر في ترجمته: محمد الهادي الزاهري السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، تقديم عبد الله حمادي،دار بهاء للنشر، قسنطينة ط2.2007؛ ناصر محمد، الشعر الجزائري الحديث: اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975)دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط2، 2006م ص668؛ قحمص مسعود، الشيخ محمد اللقّاني بن السائح، حياته وآثاره شركة الأصالة للنشر الجزائر.

تماسين[5].

2،2. **مسيرة الشيخ العلمية**[6]:

بدأ الشيخ تعلمه في الثامنة من عمره لدى مشايخ بلدة الطيبات ثم أتم حفظ القرآن على يد والده، وبعد وفاة والده أتم دراسته على يد الشيخ" التجاني ولد محمد السايح نصيري" لدى مجيئه إلى مدينة الطيبات عام 1912-1331هـ ، حيث عرف شيخنا بكثرة اجتهاده وتفوقه على أقرانه مما دفعه لاستئذان مدرسه في الذهاب إلى تونس لاستكمال دراسته. نزل الشيخ بنفطة عام 1913م أين تتلمذ على الشيخ محمد بن الكبير، والشيخ محمد بن الكبير، وغيرهم من الشيوخ الذين كانت تزخر بهم نفطة آنئذ، وفي عام 1915م-1334هـ التحق بجامع الزيتونه وانخرط في سلك تلامذته أين تتلمذ على يد الشيخ سيدي محمد الصادق النيفر القاضي المالكي(1908-1325هـ) و الأستاذ أبي الحسن النجار المفتي المالكي ، وفي سنة 1338هـ نال الشهادة العالمية (التطويع)[7].

3 :2. **أعماله وتخصصه:**

بعد أن تحصّل على شهادة التطويع سنة (1338) عاد إلى التدريس بتماسين وقمار مؤسسا بذلك مدرسة فريدة ، بصفته معلما للقرآن الكريم و العلوم الشرعية ثمة بالزّاويه التّيجانية بالتماسين قمار لمدة سبعة أعوام وكان له خلال ذلك برنامجا دينيا يدعى "حديث الصباح " ومن أهم أعماله ومواقفه الخالدة هو مناظرته ودعوته للكثير من القساوسه والنّصارى في الدّخول لدين الله و الذي والذي هدى الله منهم البعض على يده[8] ، و الملفت للنظر يجد أنّ الشّيخ سخّر وقتا طويلا من (1318هـ إلى 1341هـ) للتدريس والوعظ حيث أخذت عنه طبقات مختلفة تبوّأت مختلف المراتب فيما بعد.

ظلّ الشّيخ اللقّاني يواصل مسيرته العلمية والدعوية كأي داعية و مرشد إلى أن وافته

5- تماسين من الزوايا الكبرى للطريقة التجانية في العالم ، تقع على بعد حوالي 12 كلم من مدينة تقرت، وعن الجزائر العاصمة بحوالي 630 كلم.تتواجد الزاوية التجانية بجنوب تماسين في منطقة تسمى تملاحت وقد أسسها الخليفة الأول سيدنا ومولانا الحاج علي التماسيني بأمر من مولانا الشيخ الأكبر رضي الله عنهما، ويرجع تاريخ افتتاحها إلى سنة 1220هـ / 1805م.

6- ينظر: محمد الهادي الزاهري السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، تقديم عبد الله حمادي، دار بهاء للنشر، قسنطينة ط2.2007؛ ناصر محمد، الشعر الجزائري الحديث: اتجاهاته وخصائصه الفنية(1925-1975)دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط2، 2006م ص668؛ قحمص مسعود، المرجع السابق.

7- ينظر: محمد السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، 1318 - 1267هـ = 1850 - 1900 م.ص312

8- نفسه، 1318 - 1267هـ = 1850 - 1900 م.ص313

المنية ببيته الواقع بحي " فرانس فيل " بالعاصمة التونسية وذلك يوم السبت 15 ذو الحجة 1389هـ الموافق لـ 21 فيفري 1970م ودفن بمقبرة" سيدي يحيى" المشهورة بتونس العاصمة، كما أقيم له حفل تأبيني بزاوية تيماسين في أسبوع وفاته و التي كان من أكبر مقدميها وأعظم دعاتها ، إلى أن مات _ رحمه الله[9].

3. المقاربات التداوليّة الثّقافية والأدبية في خطابات الشّيخ اللقاني:

إنّ اهتمام التّداوليّة بادئ الأمر انصبّ على تحليل الخطاب العادي وكشف مقاصده وحجاجيته، إلّا أنّ الأمر لم يتوقف عند حدود ما أقرّه "أوستين" على أنّ الخطاب الأدبي خاصة الخيالي منه خطاب غير جاد[10]، فما لبثت بحوث التّداوليين حتّى اكتنفت تحليل الخطاب الأدبي بغية الكشف عن مدى قوّته الحجاجية في تغيير الواقع والوقوف على أساساته اللّغوية الّتي تسمح له بالتّأثير في الأشخاص، "فبالرّغم من خصوصيّة النّص الأدبيّ الّذي يتمرّد على المعيار ويتّسم بالتخيّيل والانزياح والخرق ومجانبة الحقيقة والصّدق الواقعيّ، مما يصعّب تطبيق التّداوليّة عليه إلاّ أنّه مادام يتأرجح بين الواقع والتخيّيل على حد قول محمد مفتاح، فلقد استفاد الخطاب الأدبيّ من آليات المقاربة التّداوليّة الّتي تنظر إلى النّص الأدبيّ كخطاب وسياق وإحالة وتأويل وحجاج وإقناع وتلفظ"[11]. من هنا انتقل الخطاب الأدبيّ من مجرد خطاب تخييليّ إلى خطاب تواصليّ تأثيريّ.

1.3- الإطار التداولي للخطاب الأدبي/الشّعري:

يعمل هذا العنوان على وضع الخطاب الأدبي/الشّعري في بعده التّداولي، وعندما نقول التّداولي فهذا يفضي بنا إلى (التّواصل، السّياق، المقصديّة، ومراعاة حال المخاطب)، ذلك أنّ السّعي إلى ربط التّحليل التّداولي باللّغة العاديّة هو بمثابة تحدّ، بل قد يرقى إلى درجة المفارقة، فالمفهومان يتموضعان ضمن المفاهيم المتناقضة[12]، لذلك عمدنا إلى هذه الخطاطة:

1.1.3- تواصليّة النص الشّعري:

تحمل كتابات الشّيخ اللّقاني في طيّاتها أبعادا تواصليّة، ذلك أنّ النّص الشّعري هو "رسالة نتاج لعمليّة الإنتاج وأساسا لأفعال وعمليات التّلقي، واستعمالا داخل نظام

9- نفسه، 1318 - 1267هـ = 1850 - 1900 م.ص314

10- ينظر: فيليب بلانشيه، التّداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، وعبد الرزّاق الجمايعي، عالم الكتب الحديث/ جدارا للكتاب العالمي للنشر والتّوزيع، الأردن/ لبنان، ط01، 2012، ص153.

11- جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، مكتبة المثقف، ط01، 2015، ص61.

12- ينظر: ألفي بولان، المقاربة التّداوليّة للأدب، تر: محمد تنفو، وليلى أحمياني، روية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط01، 2018، ص19-20.

التّواصل والتّفاعل"[13]. يعني ذلك أنّه فعل تواصلي مكوّن من عناصر العمليّة التّواصليّة:

ـ عناصر التواصل:

أولا- المرسل: الشّيخ محمد اللقاني بن السائح.

ثانيا- المرسل إليه: في غالب الأحيان وُجِهت خطاباته الشّعريّة للشّعب الجزائري، وذلك جليّ من خلال عباراتها النّدائيّة: من أمثلة العبارات على كثرتها والّتي وردت بصيغة التّكرار للتّأكيد: بني الجزائر، بني وطني.

ثالثا- الرّسالة: وهي مجموعة من القصائد والّتي هي محلّ الدّراسة: إلى الشّعب الجزائري، إلى رجال العمل إلى الشّباب الناهض، تحيّة الجزائريين، إلى الدين الحقّ إلى العلم الصحيح، إلى الصحافة الحرّة.

ـ الوظائف التواصليّة: إنّ أيّ فعل/عمل تواصلي يحمل في ثناياه وظائفا تواصليّة كما أقرّها رومان جاكبسون، وفي ذلك دلالة على الأبعاد التّأثيريّة والتّفاعليّة الّتي تحملها الرّسالة، وهي حاضرة في نصوص الشّيخ اللّقاني الشّعريّة:

ـ الوظيفة التعبيريّة: يمكن للقارئ أن يقف على جملة من التعابير الشّعريّة في نصوص الشّيخ والّتي في حقيقتها تجسيدٌ للوظيفة التّعبيريّة، ذلك أنّ الدّافع الرّئيس لكتابات الشّيخ هو غضبه وقهره من الحال الّتي وصل إليها أبناء وطنه من تأخر وجهل وفقر بسبب ظلم المستعمر، إذ نلفيه يدعوهم إلى النّهوض والاستيقاظ في قصيدته "إلى الشّعب الجزائري":

بَني الجَزائِرَ هَذا المَوْتُ يَكفينا***لَقَدْ أُغِلَّتْ بِحَبْلِ الجَهْلِ أَيْدينا

بَني الجَزائِرَ هَذا الفَقْرُ أَفْقَدَنا***كُلَّ اللَّذائِذِ حينا..يَقْتَفي حينا

وقال أيضا في قصيدته "إلى رجال العمل إلى الشّباب النّاهض":

سَأَلْتُ لِأَيِّ الحَسَناتِ جاؤوا؟***فَقالوا لِلْبِلادِ مُعَمِّرينا

فَقُلْتُ نَعَمْ، ولَكِنْ لِلْمَخازي***عَلى رَأْسِ الخَليقَةِ ظاهِرينا

ـ الوظيفة الإفهاميّة: يبدو أنّ خطابات الشّيخ اللّقاني في مجملها حاملة لهذه الوظيفة، ذلك أنّ استراتيجية هذه الوظيفة تتّجه نحو المخاطب، ونحن إذا ما عدنا إلى خطابات الشّيخ فجلّها موّجه إلى مخاطب بعينه، يقع بداية من العناوين(إلى الشّعب الجزائري، إلى رجال العمل...) والّتي يدرك من خلالها القارئ أنّها موجهة لمخاطب معيّن، ثمّ العبارات في الأبيات الشّعرية:

بَني الجزائر قومي مالكم غُرَبا***عَنْ نَيْلِ مَكْرُمَةٍ تُرْضي المُحِبينا

13- آيت أوشان علي، السّياق والنّص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص136.

ويقول في موضع آخر من نفس القصيدة- إلى الشّعب الجزائري-:

يا دَهْرُ مالَك لا تَرْثي لِحالَتِنا***يا دَهْرُ رِفقا بِأَقْوامٍ مُصَلَّبينا

إِنْ كانَ شَأْنُكَ إِرْضاءُ العَدُوِّ بِنا***فَدونَ هَذا يَرْضى بِهِ مُعادينا

وفي قصيدته " إلى رجال العمل إلى الشّبابِ النّاهض" يقول:

ألا فَدَعْ التّغَزُّلُ في غَوانٍ***فَتِلْكَ طَرِيقَةُ المُسْتَهْتِرِينا

ـ **الوظيفة الانتباهيّة**: يقول الشّيخ اللّقاني:

سَأَلْتُ لِأَيِّ الحَسَناتِ جاؤوا؟***فَقالوا لِلْبِلادِ مُعَمِّرِينا

فَقُلْتُ نَعَمْ، ولَكِنْ لِلْمَخازي***عَلى رَأْسِ الخَليقَةِ ظاهِرِينا

من خلال توظيفه للفعل(قالوا، قلتُ) يحاول الشّيخ أن يلفت انتباه المتلقي على أنّ أقوال المستعمر مجرّد أكاذيب وأنّ غاياته خلاف ذلك، وهاهنا نقف على محاولة منه في توعيّة الشّعب على أن يقف يدا واحدة ويبحث عن حريّته لأنّ المستعمر لن يتراجع والعالم لن يستمع إليهم:

أولَئِكَ يا أَخَ الوَطَنِ المُفدّى***أولَئِكَ نُخْبَةُ المُتَمَدِّنينا

بِهِمْ أَمْسَتْ بِلادُكَ في عَناءٍ***يَقلّ فُؤادُها داء دَفينا

فَلا مَنْ صَدَّهُمْ عَمّا أَرادوا***ولا مَنْ راقَبَ الرَّحْمنَ فينا

ـ **الوظيفة المرجعية**: تعمل هذه الوظيفة على ربط النّص بالسّياق الّذي يرد فيه، وهذا البعد هو من أهم الأبعاد الّتي تهتم بها التّداوليّة، ذلك أنّ تأويل النّص وتفسيره لا يمكن أن يقع خارج سياقه الّذي أُنْتِجَ فيه، والشّيخ اللّقاني ومن خلال النّماذج الّتي بين أيدينا نجده دائما ما يربط نصوصه بوقائع حدثت أو ستحدث، من أمثلة ذلك قوله في قصيدة "إلى الشّعب الجزائري:

النّاسُ بِالعِلْمِ شَقّوا الأَرْضَ، واخْتَرَقوا***وشَيَّدوا، وبَنوا عِزّا وتَمْكينا

النّاسُ في الجَوِّ طاروا، وحَلَّقوا، وعَلوا***ونَحْنُ نَحْسَبُهُم جَهْلا شَواطينا

ويَقول في موضع آخر من نفس القصيدة:

أَلَمْ نَكُنْ أُمَّةً عَلى الوَرى حَسَبا***أَلَمْ نَكُنْ أُمَّةً أَزْكى الوَرى دينا

أَلَمْ نَكُنْ أُمَّةً جاءَ "الكِتابُ" لَها***نورا وتَبْصِرَةً يَهْدي المُضِلّينا

ـ **وظيفة ما وراء اللّغة**: إنّ مجموع قصائد الشّيخ والّتي هي محلّ التّحليل تنقل لنا في مجملها تجارب شعب عانى من ويلات المستعمر وتصور لنا القيم الإسانية، فبالرّغم من أنّ الشّيخ اللّقاني قد عاشَ غالبية حياته بعيدا عن وطنه، إلّا أنّه ما يزال يشعر بمعاناة شعبه

وظلمه، وهذا ما نقف عليه من خلال كلامه عن ضرورة نهوض أبناء أمته بالعلم والعمل والبحث عمّا يردُّ لهم أمجاد أمّتهم:

بَني الجَزائِرَ ما هَذا التَّقاطُعُ مِنْ***دونِ البَرايا، عُيوبٌ جُمِّعَتْ فينا

فَقْرٌ! ! وجَهْلٌ! ! وآلامٌ! ! ومَسْغَبَةٌ! !***يا رَبُّ رُحْماكَ هَذا القَدْرُ يَكْفينا

ـ الوظيفة الشّعريّة: تعمل الوظيفة الشّعريّة على مسارين فهي من جهة تحفظ للنص الأدبي أدبيّته وتميّزُهُ عن لغة الخطاب العادي، ومن جهة هي تذكي قريحة المتلقي وتشحذُها وهذا ما يحقّق لنا كفاءة تواصليّة عالية. وخطابات الشّيخ اللّقاني زاخرة بالانزياحات والخروج عن كلّ ما هو مألوف، ومن جملتها: "لقد أُغلّت بحبل الجهل أيدينا": والمقصود هنا الرّكود والجمود والتّخلف الّذي آلَ إليه الشّعب بسبب الجهل،

"ودَوّخوا الأرض تنظيما وتمدينا": وهاهنا انزياح فالمراد هو تغيير وجه الأرض عمّا كانت عليه بالبناء والعمارة الإسلاميّة بفضل العلم، وأيضا قوله: "يا دهر مالك لا ترثي لحالتنا" فالدّهر لا يرثي هاهنا استعارة مكنيّة الغرض منها وصف شدّة البؤس والحرمان والفقر والجهل، حتّى وصل الأمر بالاستجداء بالدّهر حتّى يرفق لحالة شعبه.

2.1.3- **فعل القصدية في خطابات الشّيط**:

إنّ القارئ لَيَقف على قصديّة الشّيخ المصلح اللّقاني بمجرد قراءة نصوصه الشّعريّة، فكما أشرنا سابقا فإنّ السّبب الدافع والغاية الّتي يرومها الشّيخ من خلال بثّه لهذا النّوع من الخطابات هو نصح وإرشاد أبناء شعبه بغية النّهوض بهم والسّعي وراء البحث عن الحر]ة وصناعة المجد، حريّة لا تكون بالتّقاعس والرّضوخ للواقع المرير الّذي صنعه المستدمر وخرافات وترّهات رضعها الشّعب من أثداء أمس والّتي بدورها من صنع المستدمر، حريّة تكون وتبنى بالعلم والعمل. وعلى هذا نجده في الكثير من الأحيان يقف معاتبا شعبه على تقاعسه ورضوخه، كقوله:

يا أُمَّةً ضَيَّعَتْ لَها مَجْدا سَلَفا***طال النّداءُ بِنا لَوْ كانَ يُجْدينا

ويقول أيضا في مطلع قصيدته " إلى رجال العمل إلى الشّباب النّاهض":

ألا فَدَعْ التّغَزّلُ في غَوانٍ***فَتِلْكَ طَريقَةُ المُسْتَهْتِرينا

وما شَأْنُ المُدامَةِ في كُؤوسٍ***بها تُسْتَنْزَفُ العَقْلُ الثَّمينا

3.1.3- **السّياق**:

يلعب السّياق دورا هامّا في عمليّة التّحليل التّداولي، فهو يعمل على إزالة الكثير من الحجب والغموض وكشف المعنى الحقيقي المراد من الخطاب، ذلك أنّ السّياق هو "الإطار العام الّذي يسهم في ترجيح أدوات بعينها، واختيار آليات مناسبة لعمليّة الفهم والإفهام،

بين طرفي الخطاب وذلك من خلال عدد من العناصر"[14]، وبالنّظر إلى الإطار العام لجملة القصائد الّتي بين أيدينا وهي محلّ التّحليل نجد أنّ الشّيخ اللّقاني قد وضع قصائده هذه في إطارها الاجتماعي الّذي يربط بين الشّيخ والمتلقّي (الشّعب الجزائري) وهذا الرابط يتجلّى في ظلم الإنسانيّة أوّلا بسبب الاستعمار كما جسّده قوله في قصيدة "إلى رجال العمل إلى الشّباب الناهض" حيث يقول:

فَهَلْ لَكَ يا جَزائِرُ مِنْ أَبِيٍّ***يَعِزُّ عَلَيْهِ قَدْرُكِ أَنْ يَهونا

يَغارُ عَلَيْكِ مِنْ ضَيْمٍ وذُلٍّ***ويَحْميكِ حِمى الأَسَدِ العَرينا

فَأَنْتِ الأُمُّ إِنْ سَأَلَتْ أُجيبَتْ***نُدافِعُ عَنْ حَياتِكِ ما بَقينا

ثمّ ينتقل في البيت الحادي عشر وما بعده من نفس القصيدة إلى مخاطبة المستعمر الغاشم كاشفا عن حقيقته ونواياه وما حمله معه من ظلم وقهر وذلّ لأبناء هذا الوطن:

إذا ما رامَ مُصْلِحُنا نُهوضا***أَباحوا بِالعِداءِ مُجاهِرينا

سَأَلْتُ لِأَيِّ الحَسَناتِ جاؤوا؟***فَقالوا لِلْبِلادِ مُعَمِّرينا

فَقُلْتُ نَعَمْ، ولَكِنْ لِلْمَخازي***عَلى رَأْسِ الخَليقَةِ ظاهِرينا

إنّ ما نقِف عليه على إثر هذه الأبيات وغيرها ممّا تقدّم ذكره، أنّ الشّيخ اللّقاني دائم الحرص على التّواصل مع متلقيه، وذلك من خلال ربط أشعاره بسياقات مقاميّة واقعيّة، فهو إن لم يتحدث عن ماضٍ تليد، فهو يذكر واقعا مريرا، أو يدعو لبناء مستقبلٍ مشرق، فهو يقاسم أبناء وطنه آلامهم وآمالهم، إنّ هذا السّياق الّذي يتواجد فيه كل من الشيخ الشّاعر والمتلقي ساهم في فهم وتفسير وتأويل المعنى لقارئ هذه الخطابات الشّعريّة.

2.3- **الإجراء التداولي للخطابات الشّعرية اللّقانيّة:**

1.2.3- **قواعد التخاطب:**

إنّ هدف التّداوليّة الأساس هو توضيح المعنى وكشف اللّبس الّذي يؤدّي إلى فشل عمليّة التّواصل بين مستعملي اللّغة، لذلك قام التّداوليون بوضع قواعد للتخاطب من واجب المُخاطِب أن يتحرّاها مراعاة منه لحال المُخاطَب. وكما يشير غرايس فإنّ كل ظاهرة تحدّث يحكمها استلزاما حواريا يتفق على قوانينه ومعانيه كل من المتكلم والمتلقي والقائد لهذه العمليّة هو المتكلم، لذلك عمد غرايس إلى وضع قانون سمّاه مبدأ التّعاون وهو أول مبدأ يُقترح لتسيير المحادثات وينبني على قواعد أربع:

* قاعدة الكميّة: أن يحوي الخطاب قدرا من الإخبار والّذي يجب أن تلتزم به المحادثة.

14- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداوليّة-، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2004، ص17.

* قاعدة الكيفية: مفادها أن لا تقل ما تعتقد أنّه كاذب، ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه.

* قاعدة الملاءمة: لتكن مشاركتك ملاءمة.

* قاعدة الجهة: وهي تنصّ على تحرّي الوضوح في الكلام.

ثانيا مبدأ التأدب الأقصى: بالإضافة إلى مبدأ التعاون فقد أضاف ليتش مبدأ التأدب الأقصى، وهو يصاغ في قاعدتين:

* قلّل من الكلام غير المؤدب.

* أكثر من الكلام المؤدب.[15]

ثالثا مبدأ التّوجه: وهو ثالث مبدأ يضبط عمليّة التّخاطب، وهي تعني أن يكون الوجه حالة معبّرة عن المقال.

هذا كتمهيد مختصر لما سنبحث عنه في خطابات الشّيخ اللّقاني حتّى نبرهن على تداوليّة النّصوص الشّعريّة لهذا الشّيخ الفذّ، على أنّها تحمل في طيّاتها أبعادا تداوليّة هدفها التّأثير في متلقي نصوصه.

أولا- **مبدأ التّعاون**: الملاحظ على خطابات الشّيخ أنّه كان شديد الحرص لأجل أن يصل شعره بيّنا واضحا لمتلقيه، فالغرض الّذي يسعى وراءه وهو النّصح والإرشاد يفرض عليه السّير وفق نمط معيّن من الكلام، وهو بذلك يُجانب الغموض والتّعقيد الّذي من شأنه أن يخرق قواعد التّعاون، ففي جملة أشعاره تحدّث عن حال أبناء وطنه وما يعانونه من فقر وجهل واضطهاد بسبب المستدمر، وفي مواطن أخرى يذكر أبناء جلدته على أن التخلص من هذا الواقع المرير هو العلم والعمل إذ وجب عليهم الاستيقاظ من غفلتهم والعمل على بناء مستقبل مشرق لا يقل أهمية عن ماضيهم التّليد.

ثانيا- **مبدأ التّأدب الأقصى**: على الرّغم من أنّ قصائد الشّيخ اللّقاني تمثل مواقفه الثّوريّة الّتي تأبى الذّل والهوان، وكذا تجسّد أمله الخائب من أبناء وطنه، إلّا أنّ خطاباته لم تخرج عن نطاق مبدأ التّأدب الأقصى، فحتّى وهو يُخاطِب المستعمر لم يُخِلّ بهذا المبدأ:

إِذا ما رامَ مُصْلِحُنا نُهوضا***أَباحوا بِالعِداءِ مُجاهرينا

15- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، 2009، ص80. وينظر أيضا: جورج يول، التّداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط01، 2010، ص68. وأيضا: مسعود صحراوي، في الجهاز المفاهيمي للدرس التّداولي المعاصر (مقال)، حافظ إسماعيل علوي، التّداوليات علم استعمال اللّغة، عالم الكتب الحديث/ جدارا للكتاب العالمي، الأردن/ بيروت، 2010، ص45-46.

سَأَلْتُ لِأَيِّ الحَسَناتِ جاؤوا؟***فَقالوا لِلْبِلادِ مُعَمِّرِينا
فَقُلْتُ نَعَمْ، ولَكِنْ لِلْمَخازي***عَلى رَأْسِ الخَليقَةِ ظاهِرِينا

ثالثا- **مبدأ التّواجه:** بالنظر إلى تكوين الشّيخ العلمي وتوجّهات أغراضه نحو الإرشاد، نجده قد سار وفقا لهذا المبدأ لأجل الحفاظ على ماء وجه الخطاب، إذ لم توجد في قصائده أخبارا مغلوطة، وكلّ ما جادت به قريحة الشّاعر إنّما هي حقائق إنسانيّة مطلقة، ووقائع تاريخيّة مثبتة لا ينكرها أيّ إنسان، وفي ذلك دليل على أمانة الشّيخ وصدقه اتجاه قضايا وطنه وأبناء شعبه.

2.2.3- **أفعال الكلام:**

تعتبر أفعال الكلام من بين أهمّ النّظريات الّتي جاءت بها التّداوليّة، فهي الفكرة الأولى الّتي انبثقت عنها اللّسانيات التّداوليّة، بل ويمكن لنا التّأريخ منها للتّداوليّة إذ وبفضلها ارتبطت اللّغة بإنجازها الفعلي في الواقع[16]، إذ لم تعد اللّغة مجرد فعل وصف للعالم ذلك أنّ نظريّة أفعال الكلام جعلت "الاستعمال اللّغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معيّن أيضا في الوقت نفسه"[17]وقد اعتُبر كل من "أوستين" وتلميذه "سيرل" رائدين لهذه النّظرية نجملها فيما يلي حتّى يتسنّى لنا تطبيقها على خطابات الشّيخ.

فـ"الفعل الكلامي" هو كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، ويعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعال قولية لتحقيق أغراض إنجازية كالطلب والأمر والوعد والوعيد، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول، ومن ثم فهو فعل تأثيريا أي يكون ذا تأثير في المخاطب اجتماعيا أو مؤسساتيا، ومن ثم إنجاز شيئا ما. وقد توصل أوستن إلى تقسيم "الفعل الكلامي الكامل" إلى ثلاثة أفعال فرعية:

- فعل القول/ الفعل اللغوي/ الفعل اللفظي: هو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد، وهو المعنى الأصلي.

- الفعل الإنجازي/ الفعل المتضمن في القول: هو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات).

- الفعل التأثيري/ الفعل الناتج عن القول: هو الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع.

ورأى أوستين أن الفعل اللفظي لا ينعقد الكلام إلا به، والفعل التأثيري ولا يلازم الأفعال جميعا فمنها ما لا تأثير له في السامع، فوجه اهتمامه إلى الفعل الإنجازي وأنشأ النظرية

16- خليفة بوجادي، في اللسانيات التّداوليّة، المرجع السّابق، ص86.

17- فان ديك، علم النّص –مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن البحيري، القاهرة، ط01، 2001، ص18.

الإنجازية.

وقدم أوستن تصنيفا للأفعال الكلامية على أساس قوتها الإنجازية إلى خمسة أصناف:

- الأفعال الحكميّة: وهي تتمثل في حكم، وعد، وصف.

- الأفعال التّمرسيّة: تتمثل في إتخاذ قرار بعينه لصالح أو ضدّ...، أمر، قاد، طلب...

- الأفعال الوعديّة: تتمثل في تعهد المتكلم بفعل شئ مثل الوعد أو القسم أو الضمان.

- أفعال السلوكات: وهي رد فعل لحدث ما كالاعتذار أو الشكر أو المواساة أو الترحيب...

- أفعال التّعبيريّة: وتستخدم لإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأي مثل الاعتراف أو الموافقة أو التشكيك، أكّد، أنكر، أجاب، وهب...[18].

ـ أفعال الكلام في قصائد الشّيط اللّقاني:

أولا- الأفعال القضويّة: وتتمثل في المعنى الشّامل الّذي يُؤطّرُ القصائد ويشكل غرض الشّاعر وأهدافه، والمعنى الشّامل الّذي أقرّه الشّيخ هو النّصح والإرشاد والدّعوة إلى التّخلي عن أفكار الرّضوخ والرّضا بالواقع في مقابل السعي وراء بناء المستقبل مستقبل حر مجيد.

ثانيا- الأفعال الإنجازيّة:

- التمرسية:* الوصف: وهو وصف للحقائق وهو كثير في قصائد الشّيخ، مثال ذلك:

النّاسُ بِالعِلْمِ شَقّوا الأَرْضَ، واخْتَرَقوا***وشَيَّدوا، وبَنوا عِزّا وتَمْكينا

النّاسُ في الجَوِّ طاروا، وحَلَّقوا، وعَلوا***ونَحْنُ نَحْسَبُهُم جَهْلا شَواطينا

* الأمر في قولِهِ:

ألا فَدَعْ التّغَزّلُ في غَوانٍ***فَتِلْكَ طَريقَةُ المُسْتَهْتِرينا

وقوله أيضا في قصيدة "تحيّة الجزائريين":

واذْكُرْ مَفَرَّ مَجْدِها***فَالفَخْرُ في شَرَفِ البِلادِ

يا صاحِبَيَّ تَنَبَّها***فَقَدْ مَضى زَمَنُ الرُّقادِ

– الوعديّة: ومن أقواله الّتي اصطُبِغَت بصبغة الوعديات، قوله في تحيّة الجزائريين:

ونرى الجَزائِرَ يَمَمَتْ***بَحْرَ المَعارِفِ بِازْدِياد

ونرى الجَرائد أَطْفَأَتْ***نار القَطيعَةِ والبِعادِ

18- ينظر: خليفة بوجادي، المرجع السّابق، ص97.

- السّلوكات: فعل المواساة: ونلفيه عند الشّيخ قوله في قصيدة تحية الجزائريين:

حَسْبي وحَسْبُكَ أَنْ نَرى زمن التَّأَخُرِ في نَفاد

- التّعبيريّة: * الإنكار في قوله:

يا أُمَّةً ضَيَّعَتْ لَها مَجْدا سَلَفا***طالَ النّداء فينا لَوْ كانَ يُجْدينا

* الجواب عن السؤال، في قولِهِ:

سَأَلْتُ لِأَيِّ الحَسَناتِ جاؤوا؟***فَقالوا لِلْبِلادِ مُعَمِّرينا

فَقُلْتُ نَعَمْ، ولَكِنْ لِلْمَخازي***عَلى رَأْسِ الخَليقَةِ ظاهِرينا

3.2.3- **الحجاج**:

لقد ارتبط الفعل الحجاجي بالتّداوليّة فصار من بين أهم النّظريات الّتي تبنّتها التّداوليّة، خاصة إذا أخذنا بمبدأ أن التّداوليّة جاءت لتُغيّر نظرتنا حول استعمال اللّغة، فالغاية من الاستعمال اللّغوي هو التّأثير في العالم وليس كما كان سائدا سابقا (وصف العالم)، لذلك يعتبر الحجاج من بين أهم الوسائل الّتي تحقق لنا هذا المطلب. ويرتبط مفهوم الحجاج بالفعل، فهو بحث من أجل ترجيح خيار من خيارات قائمة وممكنة، بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الّذي كان قائما[19]. إنّ الممحّص للأقوال الشّعريّة للشّيخ اللّقاني يجدها قد ضمّت جملة من آليات الحجاج والّتي من شأنها أن تحمل المتلقي على التّأثُر بأقواله:

أولى الآليات: أن المخاطِب هو من أبناء الشّعب يسوؤه ما يسوء أبناء وطنه معنى ذلك أنّ أقوال الشّاعر نابعة عن صدق في المشاعر والعواطف.

ثانيا: اعتماد الشّيخ على سرد جملة من الحقائق والوقائع التّاريخيّة الحقيقيّة حتّى يدعّم بها حجِيّة أقواله وصِحّة دعواه.

ثالثا: عمد الشّاعر إلى توظيف الوسائل أو الآليات اللّغويّة والّتي من شأنها تعزيز البعد الحجاجي، من بينها:

- التّكرار: يأتي التّكرار كأكثر الظّواهر الحاضرة في خطاب الشّيخ والّتي من شأنها تأكيد أقواله ومواقفه اتجاه قضايا أمته، ومن بين العبارات الّتي ورد تكرارها: بني الجزائر، النّاس بالعلم، ألم نكن أمّة، وبني وطني.

19- ينظر: محمد سالم ولد محمد الامين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، (مقال)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج28، ع. يناير-مارس 2000، ص57-58.

- الانزياحات اللّغوية: تزخر نصوص الشّيخ الّقاني الّتي بين أيدينا بالانزياحات اللّغويّة وهي هاهنا تقوم بوظيفتين: الأولى أنّها تحفظ للنّص الشّعري ميزته المتفردة عن الخطابات العاديّة لما تحمله من تخييل وبعد عن الواقع. والثّانيّة أنّها تزيد من قوة الحجاج والإقناع في النّص، ومن بين هذه العبارات: "لقد أغلّت بحبل الجهل أيدينا، ودوّخوا الأرض تنظيما وتمدينا، يا دهر مالك لا ترثي لحالتنا، ونرى الجَزائِرَ يَمَمَتْ بَحْرَ المَعارِفِ بِازْدِياد، لقد ركبوا للعلم صهوة منطاد، غدوا في سماء العز كعبة قصاد، يشق عن الأرواح ثوب الرذيلة".

4. خاتمة:

المعالم التي تجعلنا نعيد قراءة المنتوج الفكري بشقيه الأدبي والديني والفكري للشيخ، ولا مندوحة من التعريج على المرتكزات التي جعلت الشيخ يجنح الى تبني خط تداولي يمتح من معين المجتمع تارة ومن معين التاريخ والوطن تارة أخرى.

ومن أهم النتائج:

- الشيخ اللقاني علامة فكرية وثقافية لامعة في تاريخ الثقافة الوطنية والعربية
- يمتح الشيخ من معين المجتمع الجزائري والعربي كل مقومات نصوصه الشعرية: ثقافة وفكرا.
- إن تحليل الخطاب التداولي لا يمكن أن يقتصر على المعنى الحرفي للمكوّن اللّفظي، وإنما يتعدّى ذلك إلى استعمال اللّغة إلى حدّ تتحقّق فيه الكفاية اللّغوية تحققا بالفعل لا بالقوّة.
- المعنى الشّامل الّذي أقرّه الشّيخ هو النّصح والإرشاد والدّعوة إلى التّخلي عن أفكار الرّضوخ والرّضا بالواقع في مقابل السعي وراء بناء المستقبل مستقبل حر مجيد.
- المزج بين الوطنية والدين هو الأساس المنهجي الذي يتماسف إلى حد كبير والطرح الذي شيّده الشيخ اللقّاني في مقالاته وأشعاره.
- الملاحظ على خطابات الشّيخ أنّه كان شديد الحرص لأجل أن يصل شعره بيّنا واضحا لمتلقيه.
- بالنّظر إلى الإطار العام لجملة القصائد الّتي بين أيدينا وهي محلّ التّحليل نجد أنّ الشّيخ اللّقاني قد وضع قصائده هذه في إطارها الاجتماعي الّذي يربط بين الشّيخ والمتلقّي (الشّعب الجزائري)

5. المصادر والمراجع:

- اللقّاني محمد، من معاني العبادة في الإسلام، مجلة جوهر الإسلام، ع2، تونس، جويلية 1968.

- علوي حافظ إسماعيل، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتاب الحديث، الأردن، 2011.
- السّنوسي الزاهري محمد الهادي ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، تقديم عبد الله حمادي،دار بهاء للنشر،قسنطينة ط.2007.
- ناصر محمد، الشعر الجزائري الحديث: اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975) دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط2، 2006.
- قحمص مسعود، الشيخ محمد اللقّاني بن السائح،حياته وآثاره شركة الأصالة للنشر، الجزائر.
- محمد السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، نفسه 1318 - 1267هـ = 1850 - 1900 م.
- بلانشيه فيليب، التّداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، وعبد الرزّاق الجمايعي، عالم الكتب الحديث/ جدارا للكتاب العالمي للنشر والتّوزيع، الأردن/ لبنان، ط01، 2012.
- حمداوي جميل، التداوليات وتحليل الخطاب، مكتبة المثقف، ط01، 2015.
- بولان ألفي، المقاربة التّداوليّة للأدب، تر: محمد تنفو، وليلى أحمياني، روية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط01.
- آيت أوشان علي، السّياق والنّص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2000.
- الشهري عبد الهادي بن ظافر ، استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداوليّة-، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2004.
- بوجادي خليفة، في اللسانيات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط01.
- جورج يول، التّداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط01، 2010.
- مسعود صحراوي، في الجهاز المفاهيمي للدرس التّداولي المعاصر (مقال)، حافظ إسماعيل علوي، التّداوليات علم استعمال اللّغة، عالم الكتب الحديث/ جدارا للكتاب العالمي، الأردن/ بيروت، 2010
- فان ديك، علم النّص –مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن البحيري، القاهرة، ط01.

إسهامات الشيخ عبد المجيد حبة في الحركة الإصلاحية الجزائرية 1930ـ1962م

The contributions of Sheikh Abdul Majeed Haba in the Algerian reform movement from 1930 to 1962

ط.د/ هشام مزوجي
مخبر الدراسات الإنسانية والأدبية، جامعة تبسة (الجزائر)
hichem.mezoudji@univ-tebessa.dz



ملخص: يعتبر الشيخ عبد المجيد حبة من أبرز العلماء الذين عرفتهم منطقة الزيبان خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية، فهو يعتبر من أبرز أقطاب الحركة الإصلاحية في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والدينية والتاريخية والأدبية، وهذا ما يظهر من خلال دوره الإصلاحي الذي نلتمسه في الجانب السياسي من خلال مواقفه التي تتمحور حول التنديد بانتخابات 1948م، وموقفه من الثورة التحريرية ومشاركته فيها، أما من الناحية الاجتماعية فقد ركز على إصلاح المجتمع وتعزيز مقوماته العربية الإسلامية.

أما من الناحية الدينية فقد كان للشيخ دور كبير في إصدار الفتاوى الدينية وفقا لما تقتضيه الشريعة الإسلامية والسنة النبوية، ودعا إلى إصلاح المجتمع الجزائري، وكانت له مواقف كثيرة من المتصوفة، ودعا إلى التمسك بالعلم والمعرفة من الزوايا والمساجد، كما حارب في آن واحد رجال الطرقية والفرق الضالة، أما من الناحية التاريخية فقد ساهم في تدوين بعض الأحداث التاريخية خلال تلك الفترة، كما ساهم في البحث والتنقيح والتنقيب، وكانت له عدة مؤلفات في هذا المجال، أما في الجانب الأدبي فقد كان شاعرا فذا، حيث اشتمل شعره على مختلف أنواع المدائح الدينية والرثاء والإخوانيات وغيرها، وكل هذه الإسهامات للشيخ عبد المجيد حبة تسعى إلى إصلاح المجتمع الجزائري، وتمسكه بهويته الوطنية، ومقاومة الاستعمار الفرنسي، الذي عمل على محو الشخصية الوطنية الجزائرية منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر.

الكلمات المفتاحية: عبد المجيد حبة؛ الإصلاح؛ المقاومة الثقافية؛ الزيبان؛ الجزائر.

Abstract :
Sheikh Abdul Majeed Habba is considered one of the most prominent scholars the Zaiban region knew during the French colonial period. He is considered one of the most prominent poles of the reform movement in various political, social, religious, historical and literary fields. On denouncing the 1948 elections, and his position on the liberation revolution and his participation in it, as for the social aspect, he focused on reforming society and strengthening its Arab and Islamic components. As for the religious aspect, the Sheikh had a great role in issuing

religious fatwas in accordance with the requirements of Islamic Sharia and the Prophetic Sunnah, and he called for the reform of Algerian society. As for the literary aspect, he was a distinguished poet, as his poetry included various aspects of religious praise, lament, Brotherhood and others, and all these contributions to the Sheikh Abdel Majid Haba seeks to reform Algerian society and adhere to its national identity and to resist French colonialism, which worked to erase the Algerian national character since it set foot in Algeria.
Keywords: Abdul Majeed Hebba; repair; cultural resistance; zeban; Algeria.

1. **مقدمة:**

منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م وهو يعمل على بسط سيطرته العسكرية والسياسية والفكرية، وطمس الهوية الوطنية، ومحو الثقافة الجزائرية من خلال نشره للجهل والأمية، ولكن على الرغم من كل تلك المحاولات، نجد بأن علماء الجزائر عملوا على التصدي لكل الإجراءات الاستعمارية، عن طريق الإصلاحات الثقافية، ومن بين هؤلاء العلماء نجد الشيخ عبد المجيد حبة، الذي يعتبر أحد أقطاب النهضة والفكر الإصلاحي في منطقة الزيبان، حيث يعتبر الشيخ عبد المجيد حبة عالما فذا، ومفكرا وأديبا ومؤرخا، ورجل دين ومفتي، فهو من بين الشخصيات الثرية بأعمالها وجهودها الإصلاحية، نظرا لمستواه العلمي والفكري، وإيمانه الراسخ بالحفاظ على المقومات الشخصية للأمة الجزائرية في ضل الوجود الاستعماري الفرنسي، وعلى الرغم من ذلك فقد كرس جهده ووقته وماله دفاعا عن دينه ولغته ووطنه، وفي هذا السياق نتساءل: ما مدى نجاح مجهودات الشيخ عبد المجيد حبة في إصلاح المجتمع الجزائري؟، وتتمثل أهداف البحث في العمل على إبراز الدور الإصلاحي للشيخ عبد المجيد حبة في المجال السياسي والاجتماعي والديني والتاريخي والأدبي، والعمل على إبراز دور العالم الجزائري في الحركة الإصلاحية المقاومة للاستعمار الفرنسي، من أجل خدمة الأمة والوطن، وقد تم الاعتماد على المنهج التاريخي الذي يرتكز أساسا على سرد الأحداث التاريخية، نظرا لطبيعة الموضوع الذي يعتمد على وصف المجهودات الإصلاحية للشيخ عبد المجيد حبة في مقاومة الاستعمار الفرنسي.

2. **حياة الشيخ عبد المجيد حبة:**

رغم شح المعلومات التي تؤرخ له نسبه اللهم إلا بعض المقالات المنشورة هنا وهناك ومصنفات تكاد تكون مخفية، إلا أنه ترجم لنفسه، وذكر لنا نسبه وأصله في قصيدة (النسب) المتكونة من 42 بيتا حيث يقول:

الحمـد لله وصلـى الله   على نبيه ومصطفـاه

تعلموا كي تصلوا الأرحاما   أنسابكم فكان ذا إلزامـا

وإنني إجابة للأمـــر   ورغبة التعريف لا الفخر

ضمنت هذا الرجز انتسابي   للعرب الكريمة الأحساب
فمن سليم نسبي ممتـــد   وقيس عيلان لهذا جـد

إلا أن يقول:

ومعظم الحضر والبـوادي   فمن سليم سكنوا بالـوادي
حفيده الجد القريب النسبة   محمد عيسى ويدعى حبه
واشتهرت أسرتنا بذا اللقب   به دعانا من نآ ومن قرب

وها هو يرينا انتمائه إلى أسرة حبه من بني سليم، ومنها أخذت هذا اللقب إلى غاية اليوم، ومن خلال هذه العائلة ولد الصبي عبد المجيد حبة في أسرة متواضعة، أدخله والده الكتاب، وقد تعلم الشيخ بمسقط رأسه، حيث التحق بالكتاب وعمره لا يتجاوز ثلاث سنوات، ليتم ختم القرآن الكريم، وهو ابن خمسة عشرة سنة أي عام 1926م، ثم التحق بدروس بعض الأعلام، وتعلم العربية والنحو والفقه، وأخذ حلقات العلم بمسجد عقبة بن نافع الفهري ببلدته سيدي عقبة، وقد واصل عبد المجيد حبه طريقه في طلب العلم، ليرتقي عبر دروبه إلى مرتبة الجلوس بين يدي كبار علماء القرية، ينتفع بأخلاقهم وعلمهم[1].

3. الإسهامات الإصلاحية للشيخ عبد المجيد حبة في المجال السياسي:

أ- التنديد بالانتخابات سنة 1948م:

لقد تحدث عبد المجيد حبة عن الوضع السياسي، الذي كانت تعيشه الجزائر خلال هذه الفترة، وأبدى رأيه على بعض المواقف كوجهة نظر إصلاحية، حيث تحدث عن الانتخابات العامة لسنة 1948م حين رشح حزب الشعب الجزائري "محمد يزيد بن خلف الله" لمجلس النواب، مقابل مرشح الاستعمار الفرنسي بوعزيز بن قانة، خاصة وأن المستعمر الفرنسي المستبد قام بتحطيم إرادة الشعب من خلال تأييد مرشحه، وقد وصف عبد المجيد حبة موقفه من خلال الأبيات الشعرية التالية:

يا عظم يوم الانتخـــاب *** فكم من امرئ فيه يصاب
وقد هـــابه من هوله *** من دأبه أن لا يهـــاب
فأشجـــع ولا تجبن وكن *** مع من إلى الحسن أهاب
لا يثنيــــــــك شره *** حتى توارى بالحجـــاب
أو تحسبن ســـــرابه *** مما دهى أهنا شـــراب
فالندب من عرف الصواب *** فكـــان قولا للصواب
لا يخادع بالمنـــــى *** مهما تناوشه الذئـــاب.

ومن خلال الأبيات الشعرية، نجد بأن عبد المجيد حبة كان يسعى إلى ترك حرية اختيار

1- الحفناوي بن عامر غول الحسني أبو محمد، الشيخ العلامة عبد المجيد حبة العقبي المغيري في ذكراه الـ 25، سبتمبر 2017م، الموقع: https://www.altahrironline.com/ara/articles/272334

المرشح للانتخاب إلى رغبة الشعب، وليس لرغبة الاستعمار[2].

بـ موقف عبد المجيد حبة من الثورة التحريرية:

لقد تكلم الشيخ عبد المجيد عن الثورة التحريرية قائلا:

إن الجزائر لا تنفيك ثـــــائرة *** ما لم تكن بالذي تهواه ظـــافرة
ذاقت من الذل ألوانـــا ملونة *** وسيمة الخسف أنواعـــا منوعة
يا غارة الله جدي السير مسرعة *** في حل عقدتنا يـــا غـــارة الله[3].

ومن خلال هذه الأبيات الشعرية، نجد بأن عبد المجيد استبشر خيرا بالثورة التحريرية، وأنه تيقن بالنصر، وأنه آت لا محالة.

جـ مشاركة عبد المجيد حبة في الثورة التحريرية:

لقد ساهم الشيخ عبد المجيد حبة منذ شبابه في مختلف النشاطات، من أجل النهوض بالواقع الوطني، من خلال أدائه لرسالة التدريس، وإسهامه في الإصلاح الاجتماعي، ومناصرة القضية الوطنية، ولكن من دون أن يتعصب لأية جهة أخرى، حيث لم يكن منطويا لأي حزب سياسي، ولم ينظم بصفة رسمية للحركة الإصلاحية، وكان من أوائل المستجيبين لنداء 1 نوفمبر 1954م، فوقف إلى جانب الثورة التحريرية ماديا ومعنويا، وعمل على حث المواطنين بضرورة احتضانها، ويجمع الأموال لفائدتها، ويأوي في داره المجاهدين والمناضلين والمسبلين، فكان أول من ترأس لجنة جبهة التحرير الوطني في منطقة سيدي عقبة لمدة ستة أشهر، وكلف بالعمل الثوري وجمع السلاح، حتى أصبح مشبوها عند الاستعمار، ولكن سرعان ما قامت الإدارة الاستعمارية بالبحث عنه سنة 1957م بعد خروجه إلى البادية مع بعض الرجال، فهربوا إلى القايد بن فلاح الحاج سي بلقاسم بأولاد جلال وغير اسمه إلى رزق الله محمد، ودخل بهذا الاسم إلى العاصمة سنة 1958م[4].

وعندما استقر بالجزائر العاصمة في فندق قصر الشتاء المعروف باسم نزل بن الحفاف، واتخذ من غرفته الصغير بالفندق حجرة للتدريس، ومكتبة للمطالعة، وغرفة لعقد الاجتماعات، وعلى الرغم من قساوة الأوضاع، واصل عبد المجيد حبة نشاطه الوطني والتعليمي، وفي عام 1962م عاد الشيخ إلى مسقط رأسه بسيدي عقبة، واستأنف نشاطه الثوري والإصلاحي والتعليمي، وساهم مساهمة كبيرة في إصلاح المجتمع والدين والعقيدة لدى المجتمع الجزائري، فعمل على تكوين الأئمة في بيته، فكان عضوا فعالا بالمنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني، وقام بدور فعال من خلال شحذ الهمم وبث الفكر الثوري، والنضال التحرري، والوعي الوطني بين الناس، وحث الشباب على الالتحاق بالثورة، لاسيما من خلال

2- التواتي الشريف، ابن مبارك العقبي، آثار عبد المجيد حبة العقبي (النثرية والشعرية والمسرحية)، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 193-194.

3- التواتي الشريف، المرجع السابق، ص194.

4- صيد عبد الحليم، الشيخ عبد المجيد حبة هذا العلامة الكبير، دار الهدى، الجزائر، 2000، ص 17.

دروسه التي يلقيها بمسجد بلدة المغير، وكذلك من خلال اتصالاته الفردية والجماعية بمختلف شرائح المجتمع، خاصة الشباب المخلص، باعتبار أنهم يمثلون طلائع للمجاهدين[5].

كما ساهم عبد المجيد حبة على جمع الاشتراكات والزكاة والتبرعات والمؤن لجبهة التحرير الوطني، كما كلف بأمر من الجبهة بالقضاء بين الناس وإفتائهم في أمور دينهم، والفصل في مختلف قضاياهم وشؤونهم الاجتماعية، وكان لا يبالي بترصد العدو لتحركاته، فتميز عن رفاق دربه بالجهاد والإسهام في التدوين لبعض أحداث الثورة التحريرية، وتوثيق بعض العمليات الفدائية التي نفذها المجاهدون، كما أرخ لبعض المجاهدين الذين سقطوا في ساحات المعارك، ومن بينها يوميات أحداث الثورة في سيدي عقبة 1955-1956م[6].

د- موقف عبد المجيد حبة من الاستقلال 1962م:

وقد عبر الشيخ عبد المجيد حبة عن موقفه من استقلال الجزائر، وهذا ما نلتمسه في التعبير عن هذه الفرحة من خلال قصيدة شعرية استبشر فيها خيرا بالاستقلال، حيث قال فيها:

بشرى الجزائر أضحت مثل ماضيهـــــا ***
طليقة حرة لا نير يعلوهـــــا***
ها هي تختـــــال في أثواب زينتهـــــا ***
وضل أعلامها يغشى روابيهـــا***
يسعـــى بأن لا يلقى حتفه فيهـــــــا[7].

وكانت هذه الأبيات الشعرية تعبير عن فرحة الشيخ عبد المجيد حبة بالاستقلال، وطرد الاستعمار الفرنسي، ورفرفة الأعلام ورايات النصر فوق المباني الجزائرية.

4.الإسهامات الإصلاحية للشيخ عبد المجيد حبة في المجال الاجتماعي:

تمكن الشيخ عبد المجيد حبة في فترة قصيرة من إقامته في منطقة المغير من ربط عدة اتصالات مع أهلها، حيث كان يتجول بين أرجائها، وركز جهوده على الأعمال الإصلاحية المتعددة، كإصلاح ذات البين بين أعرشها وقبائلها المتعددة، وعمل على البحث في تاريخ تلك القبائل، والتعرف على أعرافها وتقاليدها، من أجل التمكن من حل مشاكلها، كما تمكن من علم الشريعة الإسلامية، خاصة فيما يخص إصلاح ذات البين من الكتاب والسنة وفتوى الفقهاء، حيث كان دائم الحضور في جلسات الصلح لمتابعة مجرياتها باهتمام، وهذا ما

5- كيحول بوزيد، نظرات في سيرة الشيخ العلامة عبد المجيد بن حبة، مجلة الورثلانية، ع2، 2012م، ص ص 24-26.

6- مصمودي فوزي، بنو سليم بالجزائر كلمات وجيزة على بعض ما جاء في الأرجوزة للعلامة النسابة الشيخ عبد المجيد حبة، دار علي بن زيد للطباعة، بسكرة، 2014، ص ص 31-33.

7- التواتي شريف، المرجع السابق، ص171.

أكسبه شهرة واسعة، فأصبح سكان واد ريغ يقصدونه ويثقون في كلامه وعلمه[8].

وقد عمل على توظيف معارفه العلمية والدينية، من أجل خدمة المجتمع، وعمل على حل مشاكل الناس بالفتوى وفق ما تنص عليه الشريعة الإسلامية[9]، وقد اجتهد في باب الفتوى بشكل كبير، مما أهله ذلك لمعرفة المسائل الفقهية المعقدة، وتمكن من إيجاد الحلول لها، وكان يفرض الميراث، خاصة وأنه درس علم الفرائض وأصبح خبيرا في مسائله، وكيفية حل مختلف المسائل الخاصة بالميراث، فكان مقصد الناس في المسجد العتيق، وكان بمثابة الإمام الخطيب، وكان في بيته بمثابة محطة تشد إليه الرحال، وكان كريم الضيافة والاستقبال، وكان يتميز بسعة صدره وعلمه، وكان لا يخلو مجلسه من الفتوى[10].

5. الإسهامات الإصلاحية للشيخ عبد المجيد حبة في المجال الديني:

أ- دور الشيخ عبد المجيد حبة في التعليم (القرآن والسنة):

تميز الشيخ عبد المجيد حبة منذ صغره بقراءة القرآن، فبعد أن قام بحفظه عمل على أخذ تفسيره من مجامع العلم، وعمل على دراسة كتب التفسير والفقه، وهذا ما جعله في طليعة العلماء في أصول الدين والفقه، فهو عالم ومفتي فقيه، معروف لدى عامة أفراد المجتمع، وأصبح مقصدا لمختلف المتخاصمين للفصل في القضايا[11]. كما يعتبر الشيخ عبد المجيد حبة من أبرز العلماء المتخصصين في علم الحديث، حيث اطلع على الكثير من كتب التجريح والتعديل، وترك فيهم بصمته من خلال تعديل قديمه أو خطأ قام بتصحيحه[12]، كما يعتبر الشيخ عبد المجيد حبة متخصص في علم القراءات وأصولها، باعتبار أن هذا العلم جزءًا لا يتجزأ من علم التفسير[13].

وبفضل تنوع الثقافة الدينية لدى الشيخ عبد المجيد حبة، عمل على توريث تلك العلوم لطلابه، حيث تمكن من تفسير القرآن كله في مسجد عقبة بن نافع الفهري، كما أنه عمل نشر ثقافته الدينية في المسجد العتيق بالمغير، مما جعله منه عالم عصره، كما عرف عنه أنه شديد البحث في المصادر والمراجع من أجل حل مشاكل المجتمع، من خلال الفتاوى التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، وكانت الفتاوى الخاصة به متصلة

8- مهدي أنس، عبد المجيد حبة وإسهاماته الإصلاحية والثقافية 1911-1992م، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة،، 2014-2015م، ص58.

9- عجالي كمال، معجم علماء الزيبان، شركة منار للطباعة والنشر، باتنة، 2004، ص3.

10- زغيدي محمد لحسن، شخصيات نموذجية في المقاومة والإصلاح والحركة الوطنية والثورة التحريرية –إبراهيم آق بكدة الشيخ عبد المجيد حبة محمد عصامي علي بوغزالة محمد، الخبر، الجزائر، 2009م ، ص ص 42-44.

11- صيد عبد الحليم، المرجع السابق، ص ص39-43.

12- بن السايح أحمد، عبد المجيد حبة هذا العلامة المغمور، جريدة الشعب، ع 8241، 1990، ص9.

13- صيد عبد الحليم، المرجع السابق، ص42.

بالخصوصية الزمانية والمكانية، كما عرف عن الشيخ أنه كثير المطالعة، متتبعا لما يصدر من الكتب مشرقا ومغربا، وكان يسافر من أجل الحصول والاطلاع عليها، وقد يحمله السفر إلى البقاع المقدس للحصول على الكتب، كما أنه عرف عليه بالتفتح، وكان بشوشا كثيرا ما يتقرب إلى العصاة من أجل إصلاحهم، وسرعان ما يتحولون إلى أناس صالحين في المجتمع[14].

ب ـ موقف عبد المجيد حبة من التصوف:

إن موقف عبد المجيد حبة من التصوف موقف معتدل لا تفريط فيه ولا إفراط، فهو لا يرفض التصوف كما يفعل بعض الأشخاص، كما أنه لا يغالي فيه فيمجده غلى درجة كبيرة كما يفعل بعض المغالون، بل إن عبد المجيد حبة يقر بالتصوف السني الحقيقي وفق ما نصت عليه الشريعة الإسلامية، ومن أهم الكتب التي ساندت التصوف السني وفق منظور الشيخ عبد المجيد حبة وهي:

- المدخل للإمام بن الحاج.
- إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.
- مدارج السالكين للعلامة إن القيم الجوزي.
- المجلد العاشر والحادي عشر من مجموع فتاوى ابن تيمية.

وإن اختيار الشيخ عبد المجيد حبة لهذه الكتب ليس اختيارا عشوائيا، وإنما هو اختيار ناتج عن دراسة واعية، وإطلاع واسع لما ورد في التصوف، فكان يرى بأن تلك الكتب المذكورة تمثل اللب الحقيقي للتصوف المنقى من الشوائب والبدع والخرافات[15].

جـ ـ موقف عبد المجيد حبة من الطرقية والزوايا:

كان الشيخ عبد المجيد حبة من بين العلماء الموافقين لرأي الإمام "حسن البنا" من خلال ما ذكره، بأنه لو التقت قوة الأزهر العلمية بقوة الطرق الروحية، وقوة الجماعات الإسلامية العلمية، لكانت قوة لا نظير لها، باعتبار أنه طالب بضرورة الاعتدال والوسطية، بدلا من الإفراط والمغالاة[16]. وكان الشيخ عبد المجيد حبة ينظر إلى الزوايا نظرة إيجابية، باعتبار أنها أساس نشر العلم والمعرفة، وهذا ما يظهر من خلال ما ذكره بأن الزوايا أصبحت مظلومة، ودواؤها يتمثل في ضرورة العودة لعملها الأصلي، وتوضع عليها مراقبة، ولا نريد لها أن تهدم، أو أن تقدم لها الإعانات، ودعا الشباب إلى الحلم واستخدام التعقل، ودعاه إلى التأدب ومطالعة الكتب، والتأدب بآداب القرآن الكريم، والاهتداء إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة[17].

14- زغيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص ص 54-55.

15- صيد عبد الحليم، المرجع السابق، ص ص20-21.

16- البنا الحسن، مذكرات الدعوة والدعاية، دار التراث الإسلامي، الجزائر، د ت، ص74.

17- بن بوزيد السعيد، آخر لقاء صحفي مع العلامة الجليل عبد المجيد حبة –رحمه الله-، جريدة الثقافة، ع9، 1997م، ص11.

6. الإسهامات الإصلاحية للشيخ عبد المجيد حبة في المجال التاريخي:

أ- دور عبد المجيد حبة في التأريخ:

لقد ساهم الشيخ عبد المجيد حبة في المجال التاريخي بشكل كبير، من خلال توثيقه لبعض الأحداث التاريخية وموقفه منها من خلال ما ورد في شعره، وبهذا ساهم الشيخ في تدعيم الجانب الثقافي، حيث كتب عن المساجد التي تشيد في كل مكان، ودعا كذلك إلى ضرورة بنائها والاهتمام بها، وقد أرخ في بعض الأبيات الشعرية لتأسيس مسجد الشيخ أحمد البسطامي قائلا:

أولى فروض الديـــن بالإعظام *** والفضل بين قواعد الإســـلام
بعد الشهـــــادة هذه الصلوات *** ما إن لها في الواجبات مسامي
فاحرص عليهـــا لا يفوتك وقتها *** واحضر جماعتها وراء كل إمام
في مثل هذا المسجد السامي البناء *** والقدر باسم العالي البسطامي
يا حسنه من مسجد حاز البهـــاء *** فالشكر لله على الإنعـــــام
قالــــوا فما تـــــاريخه *** عني خذوا التاريخ بالأرقـــام.

كما أن هناك أبيات شعرية كثيرة متعلقة بالمساجد، ودعوة صريحة إلى بنائها، وأرخ عن أيام تأسيسها، باعتبار أنها عماد الدين الإسلامي، ومركز لآداء الصلوات، والقيام بالعبادات[18]. كما عرف الشيخ عبد المجيد حبة باهتمامه بالمجال التاريخي، فبمجرد ذكر تاريخ مدينة بسكرة إلا ويذكر معه الشيخ عبد المجيد حبة، ولطالما استشهد الشيخ في دعوة أفراد المجتمع بالاهتمام بعلم التاريخ من خلال قول الشاعر:

ليس بإنسان ولا عـــــــاقل*** من لا يعي التاريخ في صدره
ومن درى أخبار من مضـــى*** قد ضم أعمـــارا إلى عمره.

وكان اهتمام الشيخ عبد المجيد حبة بعلم التاريخ اهتماما كبيرا، إذ كتب عن الفاتح عقبة بن نافع الفهري والنبي خالد بن سنان، كما اهتم بتاريخ مدينة بسكرة وأعلامها وعلمائها، حيث كتب عن زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس لمدينة بسكرة وضواحيها سنة 1920م، وزيارة الشيخ عبد الحي الكتاني لمدينة سيدي عقبة سنة 1937م، وكتب عن أبو جعفر الداودي أنه من مدينة ليانة صاحب أول كتاب شرح صحيح البخاري، والشيخ سيدي موسى الخضري المدفون في المسجد، الذي يحمل اسمه في مدينة بسكرة، وأن الشيخ البصيري صاحب قصيدة البردة والهمزية أن أصله من الجزائر. كما كان الشيخ مؤرخا كان منقبا عن الآثار كذلك في آن واحد، خاصة آثار المدن القديمة بمدينة بسكرة، بغية الاستكشاف والاستنتاج والمقارنة، فقد كان أول من اكتشف وجود مسجد في قرية قرطة، ووجد عليه ضريح فوقه نصب صخري مكتوب فيه هذا ضريح سيدي عبد الرحمان بن

18- بن السايح أحمد، المرجع السابق، ص ص8-9.

حيوة الحضرمي، كتبت بالخط الكوفي المتوفى سنة 126هـ[19].

كما تحدث الشيخ عبد المجيد حبة عن مسجد سيدي عقبة ودوره العلمي وإشعاعه الديني في المنطقة وما جاورها، وكتب بأن مسجد عقبة بن نافع الفهري قد أمضى أكثر من قرن، وهو يعتبر بمثابة كلية يقصدها رواد العلم وطلبة القرآن الكريم والسنة النبوية في منطقة الزيبان والأوراس ككل، فيأخذ هؤلاء من العلوم المتوارثة على أيدي العلماء الذين لم تخلو منهم القرية سابقا، أو أنهم أخذوا من علوم العلماء الذين وردوا للزيارة، هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم لخدمة التعليم، وتأدية رسالتهم العلمية احتسابا للأجر، وكل من ورد من طلاب العلم إلى المسجد كان يعود إلى أهله وهو خاتم للقرآن الكريم، وكان ربع أوقاف مسجد عقبة بن نافع الفهري تكفي لإطعام الجميع، فالمسجد يعلم ويعطي ويطعم، ولا يقبض على ذلك أجرا[20].

ب ـ دور عبد المجيد حبة في علم الأنساب:

وقد كان الشيخ عبد المجيد حبة مطلعا على أصول العائلات ونسب الأعراش، بمعرفة تاريخها وأصولها، ويعود ذلك إلى مجالسته للكبار والشيوخ، وهذا ما مكنه من تصحيح أصول الأنساب، وإرجاعهم إلى أصولهم، وكشف الزيف والتحريف في تلك الحقائق التاريخية، خاصة وأن الاستعمار الفرنسي عمل على تشويه العائلات الجزائرية منذ 1882م، بتشويهه للألقاب والأنساب وتشريدهم وتهجيرهم، حيث تمكن الشيخ من إرجاع الكثير من العائلات إلى أصولها الحقيقية، والمواطن التي سكنت فيها، وهذا ما جعله مفتاح لحل مختلف المسائل الرسمية في النزاعات بين القبائل والأعراش، خاصة وأن المتخاصمين كان كل طرف منهما يسعى إلى إثبات حقه في القضية بشتى الطرق والوسائل، وعلى الرغم من ذلك كان الشيخ عبد المجيد حبة يقوم بفك تلك النزاعات رغم أنها معقدة[21]. وإن الثقافة التاريخية الناجمة عن حب الشيخ عبد المجيد حبة لعلم الأنساب كانت وراءها دوافع، جعلته يستأنس بالتاريخ، فوجد فيه ضالته التي يبحث عنها، فمن السير التاريخية ومراحل تطور الدولة الإسلامية وعلمائها وقادتها ورجالها إلى تاريخ القبائل العربية عامة، وتاريخ القبائل الجزائرية بصفة خاصة، عربها وبربرها، مما أهله لمعرفة عاداتها وتقاليدها الخاصة والمشتركة[22].

وإن الشيخ عبد المجيد حبة كان نسابة مشهورا، يقصده أفراد المجتمع من كل الجهات، لإثبات أنسابهم وكتابة شجرات العائلات، وهو ثقة مأمون، ومحقق فذ في علم

19- صيد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 44.

20- زغيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص ص 55-56.

21- المرجع نفسه، ص ص 56-57.

22- مهدي أنس، المرجع السابق، ص ص 73-74.

الأنساب، فكم من رجل قصده فحقق له نسبه، وكم من عائلة دلها على عرشها التي ينتمي إليها، وكم من قبيلة بين أصلها وفرعها، وإن أعمدة النسب التي حررها الشيخ كثيرة، ولو جمعت في كتاب لكانت تأليفا حافلا يعين الدارسين في علم الأنساب، ويزيدهم بمعلومات، قد تكون مخطوطة لحد الآن، وهذه بعض الأعمدة التي سجلها الشيخ:

- نسب أولاد سعود، وهم من فرق الباوزيد في منطقة الدوسن وضواحيها.
- نسب الشيخ عيوب مسعود السائحي.
- نسب الشيخ الصادق بن الهادي السائحي[23].

7. دور عبد المجيد حبة في المجال الأدبي:

لقد ساهم الشيخ عبد المجيد حبة في المجال الثقافي، وله في ذلك مواقف جليلة لا تزال شاهدة عليه لغاية يومنا الحالي، سواء كان ذلك في مجال الشعري أو النثري، وهذا ما يظهر من خلال:

أ- الشعر:

لقد كان الشيخ عبد المجيد حبة شاعرا ملهما، شديد البيان، ملهم وفصيح العبارات، ودقيق الوصف، يجمع في القصيدة الواحدة ألوانا متعددة، وهذا ما نلتمسه من خلال قصيدته "سوق الخريف" التي أصدرها سنة 1948م، وهي نفس السنة التي نكبت فيها الأمة العربية الإسلامية باحتلال فلسطين، وضياع بيت المقدس، وقد تزامنت هذه القصيدة مع فصل جني التمور، وقد كانت مدينة بسكرة تمثل المحور الاقتصادي، أو العاصمة الاقتصادية لشمال الصحراء، فالكل يصب فيها من المنتوج القادم من الزاب ووادي ريغ، فتكثر فيها الحركة المتواصلة ليلا ونهارا، ويتنوع زوارها من الباعة والمستثمرين، فصور الشيخ هذه الحالة من بيع وشراء وتبادل للسلع والبضائع، وتمنى أن يكون هذا النشاط التجاري يقابله نشاط علمي، يتهافت فيه الناس لنيل العلم والنور، ثم تناول فيها حالة الأمة الجزائرية، والأخوة العربية البربرية، التي صنعت لحمة قوية عبر الزمان، وكونت أمة تتباهى بها الأوطان، وعن شجاعتهم ووحدتهم وكرمهم وغيرتهم وبسالتهم، وختم قصيدته عن موضوع الساعة، الذي شغل الأمة العربية الإسلامية، وهي المسألة الفلسطينية، واحتلال القدس الشريف، ولم ينس ذلك لكونه وطنيا، وشب في جو كانت فيه القضية الوطنية حاضرة، والجمعية على مبادئها ساهرة، والكل كان يعبر عن القضيتين اللتين لا تنفكان عن مسألة واحدة[24]. وقد ترك الشيخ العديد من القصائد جمعت في ديوان من طرف فوزي مصمودي، وعبد الحليم صيد، واشرفا على طبعه ضمن منشورات جمعية أضواء بسكرة، ونذكر منها قصيدة (سوق الخريف) التي قالها سنة 1948م، نقتطف منها الأبيات التالية:

23- صيد عبد الحليم، المرجع السابق، ص ص 44-46.

24- زغيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص 59.

سوق حكت ما مضى في سالف الحقب فبينها وعكاظ اقرب النسب
كل مباع بها يمسي مبيعا فمـــــــا ترى كسادا لغير العـلم والأدب
وذاك أن عكاظا قد حوى عربـــــا بدون عجم وذي عجما بلا عـرب
فعربها استعجموا وما ببربرهـــا من همه أن يقيم المنطق العربـــــــي
لكنها الأمتان قد تـــــــــواردتا على خلال بهم أفضت إلى الشهب
أليس قحطان من مازيغ كان أخـا لهما حضــــــــــن أم بره وأب
وإنما المجد شيء حاز معظمـــه عرب وبربر قدمـــــا دون ما كذب
حدث عن الأمتين نجدة ووفــــــــا وحسن عهد وإحسانا لمغترب
أما فلسطين لا كان اليهود فلـــن تنفك محمية بنـا من النــــــــوب

وللشيخ عبد المجيد حبة قصيدة يرثي فيها خالد مختاري شيخ الزاوية المختارية ببلدة أولاد جلال المتوفى:

لو عاش أهل الندى في هذه الدار   لكان من بينهم حفيد مختــاري
من ذكر أفضاله لــــدى معارفه   مثل اسمه خالد حديث أسماري
لكن ما الموت لا يبقي على أحد   فلا بقاء لغير الواحد البــاري[25].

ب- النثر:

ترك الشيخ مكتبة زاخرة بأمهات الكتب والمؤلفات والمصنفات، إذ كانت هوايته المفضلة المطالعة، وهي من صقلت شخصيته، وزادت من معارفه، حيث كان شغوفا بالكتابة والقراءة، وقد ذكر عنه حبه للطرافة والنكت، ومن بين ما اشتهر به فتواه في سرقة الكتب، حيث يقول لطلابه: "من أراد أن يسرق كتابا فليفعل، فإن سرقة الكتب الشرعية جائزة"، كان لا يسمع عن كتاب صدر إلا ويشتريه، وتحتوي مكتبته جميع الفنون والفقه واللغة، وفي الأنساب والتراجم وفي التاريخ وغيرها من فنون العلم الشرعي، يقول عنها عبد الله مرزوق: "لما دخلت مكتبته لفت انتباهي بعض الكتب التي طبعت حديثا، أي: قبل موته بقليل، فسألت الشيخ عثمان بوزقاق فقال لي: أن المكتبة كما هي لم يضف إليها شيء، فهذه الكتب مما اشتراه الشيخ قبل موته، فهذا يدل على أن الشيخ كان يتتبع كل جديد في عالم المكتبات"، ومما ذكره عنه الأستاذ محمد بن سمينه في مقال عن الشيخ متحدثا عن مكتبته قائلا: "كان الشيخ قد استغرق معظم - بل جميع مراحل عمره - في الاعتكاف على البحث والقراءة، وكان الكتاب أنيسه أينما حل وأينما ارتحل...، وما كنت تلقاه حيث تلقاه إلا والكتاب بيمينه، فقد كان من أبرز المترددين على دور الكتب، والملازمين لها، فأنت إن سألت في إقامته وجدته في غرفة مكتبته، وإن بحثت عنه في خارج منزله فإنك واجده بإحدى مكتبات المدينة، وقد كان له في كل بلدة استقر بها صلة بواحدة أو اثنتين من

25- **الحفناوي بن عامر غول الحسني أبو محمد، المجرع السابق.**

مكتباتها، ويؤكد الأستاذ مرزوق ذلك بقوله: " فرغم أن الاستعمار الفرنسي الغاشم قد أحرق مكتبته التي كانت تعج بالكتب والمخطوطات، وهذا سنة 1957م، إلا أن الشيخ ترك مكتبة ضخمة جمعها طيلة سنوات طلبه للعلم، ضمت مجموعة ضخمة من المخطوطات النادرة، والكتب القيمة التي يحتاجها طالب العلم والعامي في مختلف أنواع العلوم... هذه المكتبة الضخمة تركها الشيخ وقفا لله عز وجل، وأوصى بأن يسمح لكل من يريد دخولها والاستفادة منها، لكن بعد أن فقدت بعض المخطوطات والكتب، اضطر أحفاده أن ينظموا أوقات الزيارة مع بعض المراقبة لكل من يدخلها، وقد بوبها ونظمها حفيده البار عبد الوهاب، ليسهل الانتفاع بها، ومما يؤاخذ على شيخنا رحمه الله أنه لم يسعى في طبع هذه المخطوطات، رغم أن فترة السبعينات والثمانينات شهدت نهضة كبيرة في ميدان الطبع، فلا تزال هذه الكتب القيمة الفريدة في موضوعها مخطوطات، أغلبها لم يطبع، وبعضها الآن عند ولده البار عقبة، وكثير منها فقد، وقد عرضت يوم وفاته فبلغت 400 مخطوط.

إضافة لكل هذا فإن الشيخ عبد المجيد حبة برز في علم الأنساب والتراجم، اعتبره الدكتور محمد لحسن زغيدي فقيه ومفتي ومفسر ومؤرخ وأديب وشاعر، وقال عنه شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة: "وإني أشهد أنه عالم عامل مصلح فهو جدير بأن يعتبر من الأساتذة الأكفاء علما وعملا وإصلاحا"، وقال فيه الأستاذ أحمد بن السايح: "فهو مؤرخ مع المؤرخين، وهو أصولي نظار، يستفتي في النوازل، وهو صاحب باع واسع في علم التفسير، عالم بأصول القراءات وله تأليفات عديدة في مصطلح الحديث، وقد ترك العديد من المؤلفات القيمة، لم تطبع في حياته، وأول ما كتب الشيخ مؤلف يؤرخ نبوة خالد بن سنان بعنوان "قيد الأوابد بحياة خالد"، ثم رسالة بعنوان "القصاصة في جمع أشتات صحابة الخلاصة"، ثم رسالة "تذكرة أولي الألباب (أو الطلاب) بملخص تاريخ بسكرة والزاب"، وكتاب "إسعاف السائل برؤوس المسائل"، و"تجريد تخريج الأحياء عن الإحياء"؛ وهو تخريج لأحاديث علوم الدين للحافظ العراقي، وعدد أحاديثه بإحصاء الشيخ بلغت 4593 حديثا، ورسالة في نسب وترجمة الصحابي الجليل بعنوان: "عقبة بن نافع القائد المظفر"، ثم ما ذكره عبد الله مرزوق ونسب إليه من مؤلفات منها: "الهمة في ما ورد في العمة" (أي العمامة)، و"أعلام منطقة الزيبان" ضم 26 ترجمة لبعض علماء بسكرة، طبع في إطار جمعية أضواء بسكرة، وتم توزيع أكثر من 1000 نسخة منها في 24 صفحة و"الإعلام بما اتفق عليه الستة الأعلام من الأحاديث والأحكام" وهو كتاب في الفقه، و"تجريد المجلى من المحلى" وهما كتابان للعلامة ابن حزم الظاهري رحمه الله، و" مسند أبي هريرة رضي الله عنه"، جمع فيه مرويات أبي هريرة رضي الله عنه لكنه لم يكمله، ورسالة "كلمات وجيزة عن بعض ما جاء في الأرجوزة"، وتحتوي على 07 صفحات من القطع الكبير، وهي شرح لأرجوزته المسماة: "حصول الرغبة في رفع النسبة" وتشمل42 بيتا، وأخيرا تصنيفه الموسوم بـ "قصة الاشتراكية" وهو نقد للفكر الماركسي بعد تبني الدولة للفكر والخيار الاشتراكي، كما

ترك العديد من المحاضرات وتقييدات مختلفة العناوين[26].

8. خاتمة:

يعتبر الشيخ عبد المجيد حبة أحد قادة الفكر الإصلاحي في الجزائر، فقد ساهم في إصلاح المجتمع الجزائري في مختلف المجالات، خاصة وأن الجزائر خلال تلك الفترة كانت تحت سيطرة الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وبسبب الظروف التي نشأ فيها تمكن من اكتساب ملكة تربوية دينية أخلاقية إصلاحية، وما يؤكد ذلك مساهمته في النضال السياسي ضد الاستعمار الفرنسي، والدعوة إلى التحرر الفكري والسياسي من خلال العمل على إصلاح المجتمع الجزائري.

ويعتبر الشيخ عبد المجيد حبة من أوائل المؤرخين المصلحين الذين حاولوا التعريف بالقضية الجزائرية، فكان باحثا ومؤرخا وأديبا مصلحا، كما أنه كان رجل دين من خلال توليه الإفتاء، وهو في سن مبكرة، وكان معلما من خلال تمكنه في العديد من العلوم العقلية والنقلية، كل هذا ساهم في تأييد مكانة الشيخ العلمية بين علماء عصره، من خلال مساهمته في إصلاح المجتمع الجزائري، وتنقيته من مختلف الشوائب التي زرعها الاستعمار الفرنسي بين أفراد المجتمع.

إن الشيخ عبد المجيد حبة ساهم في محاربة الجهل والأمية، ونشر العلم والمعرفة، وعمل على محاربة البدع والخرافات والقضاء عليها، وساهم في الدعوة إلى العودة إلى الدين الإسلامي الصحيح، والسنة النبوية، التي جاء بها نبينا الكريم، وبما تمسك به السلف الصالح من علماء الأمة الإسلامية.

إن كل المساهمات الإصلاحية للشيخ عبد المجيد حبة خلال الفترة الاستعمارية جعلته أحد أقطاب الفكر الإصلاحي في منطقة الزيبان.

9. قائمة المراجع:

*** المؤلفات:**

- البنا الحسن، مذكرات الدعوة والدعاية، دار التراث الإسلامي، الجزائر، د ت.
- التواتي الشريف، ابن مبارك العقبي، آثار عبد المجيد حبة العقبي (النثرية والشعرية والمسرحية)، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، د س.
- زغيدي محمد لحسن، شخصيات نموذجية في المقاومة والإصلاح والحركة الوطنية والثورة التحريرية –إبراهيم آق بكدة الشيخ عبد المجيد حبة محمد عصامي علي بوغزالة محمد، الخبر، الجزائر، 2009م .
- صيد عبد الحليم، الشيخ عبد المجيد حبة هذا العلامة الكبير، دار الهدى، الجزائر، 2000.
- عجالي كمال، معجم علماء الزيبان، شركة منار للطباعة والنشر، باتنة، 2004.

26- **نفسه.**

- مصمودي فوزي، بنو سليم بالجزائر كلمات وجيزة على بعض ما جاء في الأرجوزة للعلامة النسابة الشيخ عبد المجيد حبة، دار علي بن زيد للطباعة، بسكرة، 2014.
- مهدي أنس، عبد المجيد حبة وإسهاماته الإصلاحية والثقافية 1911-1992م، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014-2015م.
*** المقالات:**
- بن السايح أحمد، عبد المجيد حبة هذا العلامة المغمور، جريدة الشعب، ع 8241، 1990، ص ص 8-9.
- بن بوزيد السعيد، آخر لقاء صحفي مع العلامة الجليل عبد المجيد حبة –رحمه الله-، جريدة الثقافة، ع9، 1997م، ص11.
- كيحول بوزيد، نظرات في سيرة الشيخ العلامة عبد المجيد حبة، مجلة الورثلانية، ع2، 2012م، ص ص 24-26.
*** المواقع الالكترونية:**
- الحفناوي بن عامر غول الحسني أبو محمد، الشيخ العلامة عبد المجيد حبة العقبي المغيري في ذكراه الـ 25، سبتمبر 2017م، الموقع:
https://www.altahrironline.com/ara/articles/272334.

أقطاب الحركة الإصلاحية الجزائرية
في الكتابات التركية المعاصرة
الشيخ الطيب العقبي نموذجا

The poles of the Algerian reform movement
in contemporary Turkish writings
-Sheikh Al-Tayeb Al-Uqbi as an example –

د/ أكرم بوجمعة
مخبر دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع، جامعة باتنة1 (الجزائر)
akrambou8@gmail.com

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: إن الدارس للأدبيات التركية سيجد نفسه أمام العديد إن لم نقل الكثير من المصادر والدراسات التركية القديمة والمعاصرة باللغتين العثمانية القديمة والتركية الحديثة التي تناولت تاريخ الأمة الجزائرية عامة وركزت بالأخص خلال الفترة العثمانية الي غاية الاستقلال، وتهدف هذه المداخلة بالتقصي على أهم المصادر والدراسات التركية المعاصرة التي درست الحركة الإصلاحية بالجزائر مع مطلع القرن العشريين، وذلك بالتركيز على وجه الخصوص حول شخصية الشيخ الطيب العقبي المراد دراستها، كما تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بتلك الشخصية، ومعرفة صدى تلك الشخصية على الصعيد الدولي، وبالأخص في الدراسات والأبحاث التركية المعاصرة وهذا ما سنتطرق إليه من أجل معرفة أهم الكتابات التركية التي تناولت شخص الشيخ المصلح الطيب العقبي بالبحث والدراسة.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح ؛ الدين الإسلامي؛ الجزائر؛ الطيب العقبي؛ الكتابات التركية.

Abstract :
The researcher of modern Turkish and ancient Ottoman literature will find himself in front of many Turkish sources and studies that wrote the history of Algeria. Especially from the Ottoman period until independence.This intervention aims to research the most important contemporary Turkish sources and studies that studied the reform movements in Algeria at the beginning of the 20th century. By studying the personality of Sheikh Al-Tayeb Al-Uqbi, and this study also aims to know Sheikh Al-Tayyib Al-Uqbi in contemporary Turkish research, and this is what we will study in this intervention.

Keywords: Al-Islah; The Islamic Religion; Algeria ; Tayeb Al-Uqbi; Turkish writings.

1 . المقدمة

عرف الجزائر خلال المطلع القرن العشرين موجة كبيرة وعالية التوتر من نمو الوعي الديني والثقافي وكذلك القومي بسبب عدة عوامل مجتمعة، نوجزها في ثلاث نقاط، أهمها:

- تأثر بالنهضة الفكرية التي كانت في المشرق العربي أمثال عبد الرحمان الكواكبي والأفغاني ورشيد رضا ...

- دخول العديد من المجلات والجرائد من المشرق العربي والمغرب الأقصى إلى الجزائر

- زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر عام 1903.

كل هذه العوامل المجتمعة ساهمت في ظهور العديد من الأقطاب الفكرية والدينية، التي لعبت دورا أساسيا في نمو الوعي لدى الجزائريين، ومن أهم هذه الشخصيات التي نحن بصدد دراستها الشيخ الطيب العقبي.

يعد الشيخ الطيب العقبي أحد أقطاب الحركة الإصلاحية في الجزائر خصوصا والعالم الإسلامي عموما، ولهذا يعد كالحجر الأساس في تأسيس لبنة الأولى لجمعية العلماء المسلمين مع الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي، كما كان له دور مهم في تفعيل الحركة الثقافية والأدبية بمنطقة الزيبان والجزائر عموما، وذلك بتأسيس العديد من النوادي والجمعيات الثقافية، وكذا الصحف والمجلات، والإشكالية الرئيسة المطروحة تدور حول صورة وشخص الشيخ الطيب العقبي في الكتابات التركية. وتهدف هذه الدراسة على ضرورة التعرف على اهم المصادر التركية التي درست شخصية الشيخ الطيب العقبي، وتعتبر هذه الدراسة كعمل ببليوغرافي نقدي أو توصيفي لأهم هذه الدراسات التي تناولت تلك الشخصية، ونظرا لوجود العديد من الدراسات والأبحاث، ركزنا على أهم النماذج التي ذكرت الشيخ إما منفردا في دراسة خاصة أو ضمن دراسة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

كتقليد أكاديمي أو ضمن العادة الطبيعة قبل الخوض في التعرف على أهم المصادر التركية التي تكلمت على الشيخ الطيب العقبي وجب علينا أولا التعريف بتلك الشخصية الإسلامية العالمية، وعلى أهم أعمالها بشكل يسير.

2. الشيخ الطيب العقبي

الشيخ الطيب العقبي هو الطيب بن محمد بن إبراهيم بن الحاج صالح العقبي، نسبة إلى بلدة "سيدي عُقبة" تابعة لمدينة بسكرة، ويعود نسبه في الأصل إلى قبيلة أولاد عبد الرحمن الأوراسية، بجبل "أحمر خدو"، أما ووالدته من بلدة "ليانة" المتواجدة بالزاب الشرقي بمدينة الزيبان، من عائلة آل خليفة الشهيرة بلقب: "ابن خليفة[1]". ذكر الشيخ

1- محمد الطاهر فضلاء، الطيب العقبي رائد لحركة الاصلاح الديني في الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1985، ص15،16 .

الطيب العقبي في ترجمته لحياته في كتاب شعراء الجزائر حول نسبه وعائلته قائلا: "ووالدي هو محمد ابن إبراهيم ابن الحاج صالح وإلى هذا ينسب اليوم كل فرد منا وبه تعرف عائلتنا فيقال لكل منا (ابن الحاج صالح)، وعائلتنا من أوسط سكان البلدة، فلا هي أعلاها ولا هي أدناها .أما والدتي فمن بلدة (ليانة) بالزاب الشرقي من عائلة آل خليفة "[2].

ولد الابن الأكبر في الأسرة وهو الشيخ الطيب العقبي في بلدة سيدي عقبة- الواقعة شرق مدينة بسكرة وتبعد عنها حوالي 18 كلم - ليلة 15 من شوال سنة 1307هـ، الموافق: 03 جوان 1890م، قضى الشيخ سنواته الأولى في مسقط رأسه، فنشأ في عائلة محافظ ميسورة الحال، لكن بسبب ظلم المستعمر الفرنسي والظروف التي كانت تعيشها البلاد تحت وطأة الاستعمار سافرت عائلته الى الحجاز1896 وبقي هناك الى غاية العشرينيات من القرن العشرين[3]، وهو ما أدرجه في صحيفة حياته قائلا : "انتقلت عائلتنا مهاجرة من بلدة سيدي عقبة إلى الحجاز بقضها وقضيضها أنثاها وذكراها، صغيرها وكبيرها سنة 1313 هـ قاصدة مكة المكرمة لحج الكعبة المشرفة في تلك السنة، فكنت في أفرادها الصغار لم أبلغ من التمييز الصحيح ..."[4].

فاستقرت عائلته بالمدينة المنورة بعد أداء مناسك الحج في 1897، لكن سرعان ما توفى ابيه في 1903 بقي مع أخيه وأخته الشقيقين وأخته للأب تحت كفالة والدته، وهو ما ذكره قائلا : "... بعد وفاة والدي بقيت مع شقيقي وشقيقتي وأختي للأب تحت كفالة والدتي، تربت في حجر أمي يتيما غريبا لا يحوطني ولا يكفلني غير امرأة ليست بعالمة ولا صاحبة إدراك ورأي سديد، بل هي كنساء أهل هذه البلاد..." [5]. تلقى الشيخ العقبي العلوم الدينية على يد مجموعة من المشايخ في الحرم النبوي وساعده تفرغه لطلب العلم وهذا ما اخبرنا به في مسيرة حياته قائلا: "...قرأت القرآن على أساتذة مصريين برواية حفص، ثم شرعت على عهد والدتي بقراءة العلم بالحرم النبوي لا يشغلني عنه شاغل ولا يصدني عنه شيء، حيث كان أخي الأصغر مني سنا هو الذي تكّلفه والدتي بقضاء ما يلزم من الضروريات المنزلية وقد أدركت سر الانقطاع لطلب العلم وفهمت جيدا قول الإمام الشافعي: لو كلفت بصلة ما تعلمت مسألة"[6].

فقد تناول الكتابة في الصحف الشرقية قبل الحرب العالمية، فظن بعض رجال "تركيا الفتاة" أنه من جملة أنصار النهضة العربية، فتم نفيه إلى تركيا، وذكر هذا في ترجمته

2- محمد الهادي السنوسي شعراء الجزائر في العصر الحاضر، لجامعه وناشره ومفسر ألفاظه،ج1، المطبعة التونسية، تونس، 1926، ص125، 126.

3- عادل نويهض، أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط7 ، مؤسسة نويهض الثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ص 238.

4- محمد الهادي السنوسي، المصدر السابق، ص125،126.

5- المصدر نفسه.

6- نفسه، ص127 .

لنفسه: "... تناولت الكتابة في الصحف الشرقية قبل الحرب العمومية أمدا غير طويل فعدني بعض رجال تركيا الفتاة من جملة السياسيين .وأخرجوني في جملة أنصار النهضة العربية مبعدا من المدينة المنورة على إثر قيام الشريف حسين ابن علي في وجوههم بعد الحرب إلى المنفى في أرضهم الروم إيلي أولا فالأناضول ثانيا وهنا بقيت أكثر من سنتين مبعدا في جملة الرفاق عن أرض الحجاز وكل بلاد العرب..." [7]. كان رجوعهم مع أهالي المدينة المنورة إلى الحجاز، وعندما وصل الشيخ إلى مكة المكرمة حتى لقيه جلالة الملك حسين ورحب به وأكرمه، وهناك تم تعيينه المدير الرسمي لجريدة "القبلة" [8] و"المطبعة الأميرية" خلفًا للشيخ محب الدين الخطيب.[9]

عاد الشيخ العقبي إلى الجزائر في 4 مارس سنة 1920م. ومنها الى مسقط رأسه بمدينة بسكرة وهكذا قرر الشيخ الاستقرار في أرض الوطن وعدم الرجوع إلى الحجاز، وانطلق في خطته الإصلاحية التي جاء من أجلها، وتشير بعض المصادر أن شكيب أرسلان هو من أشار عليه بالذهاب إلى الجزائر من أجل إعادة إحياء الأمة الجزائرية الإسلامية من جديد وضرورة العمل الإصلاحي والدعوي بها، حيث وجد بلدته غارقة في أوحال الشرك والبدع، وتائهة في متاهات الخرافات والضلالات، والاستبداد الفرنسي الغاشم على الجزائريين بمحاولة تجهيلهم والقضاء عليهم بأبشع الطرق والوسائل [10].

كما واصل الشيخ العقبي عمله الصحفي بالجزائر فأصدر جريدته الإصلاح 335 في 08 سبتمبر 1927 ولكن سرعان ما أوقفتها السلطات الفرنسية سنة 1928 ، عند العدد الرابع عشر منها. وقد كلف محمد العيد بأمر شراء المطبعة التي كانت ستتولى طبعها. وكان" عضوا مشاركا "رفقة الشيخ العقبي واستأنفت جريدة الإصلاح نشرها من جديد في 18 ديسمبر 1939. وتوقفت عند العدد الثالث والسبعون بتاريخ 03 مارس 1948. كما اشرف العقبي أيضا مع رفيقه الشيخ محمد السعيد الزاهري على تحرير الجرائد الأولى لجمعية العلماء المسلمين، السنة، الشريعة، الصراط.[11]

7- عفاف زقور (2007)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نشأة وتطور الإصلاح بمدينة الجزائر 1931-1940، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، ص 101 .

8- صدرت الجريدة بتاريخ 14 أوت 1916

9- محب الدين الخطيب (1886-1969) هو كاتب وصحفي وأديب وداعية سوري، وهو من أشهر مؤسسي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، ومن مؤسسي أيضا جريدة القبة الناطقة باسم حكومة الحجاز تحت سيطرة الشريف حسين، للمزيد من الاطلاع ينظر: محمد عبد الرحمن برج محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية 1906-1920، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1990.

10- كمال عجالي، الطيب العقبي أعماله وجهوده الإصلاحية في بسكرة من 1920-1930، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 01، جامعة محمد خيضر بسكرة،2001، ص198.

11- عفاف زقور، المرجع السابق، ص105 .

وفي الوقت الذي تأسس فيه نادي الترقي في الجزائر العاصمة في جويلية سنة 1927م كانت شهرة العقبي واسعة، فاتصل به أهل النادي ليكون مشرفا على النشاط داخل النادي خطيبًا ومدرسًا ومرشدًا، فلبى النداء وانتقل إلى مدينة الجزائر العاصمة، وهناك التحق بنادي الترقي عام 1929م، وكان يقدم خمس محاضرات في الأسبوع بالنادي، بالإضافة إلى الحلقات والندوات التي كان يعقدها مع جماعة النادي، والرحلات التي كان ينظمها في بعض الأحيان إلى المدن المجاورة .[12]

وخلال المرحلة الأخيرة من حياته، يمكن أن نسميها بفترة المحنة وخروجه من جمعية العلماء المسلمين، بسبب قضية اغتيال المفتي وحادثة البرقية.[13] وهذا أدى إلى خروجه تقديم استقالته من جمعية العلماء المسلمين، لكن هذا لم يثن من عزيمته، فقد استمر الشيخ العقبي في الكتابة والإصدار من خلال جريدته الإصلاح حتى سنة 1948. واستمراره في مواقفه "المعتدلة "بنفس مبادئه السابقة من الدفاع عن حرية الشعائر الإسلامية وعدم التدخل في شؤون الحياة السياسة، إلى أن أقعده المرض في بيته في بداية الخمسينات وتوفي-رحمه الله- بمدينة الجزائر عام 1960[14].

3. الشيخ الطيب العقبي في الكتابات التركية

3،1.مجلة النسخ (Nüsha dergisi):

جاء مقال بهذه المجلة بعنوان: **"دور جامعة تونس الزيتونية وجريدة تونس في الحياة الثقافية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية "**[15]، للباحث التركي: توركاي ڨوكڨوز (Turgay Gökgöz)[16] ونشر في عام 2019، العدد 48، ويبدأ المقال من الصفحة 181-202.

استهل مقدمة مقاله بالحركة الاستعمارية الفرنسية على للجزائر في 1830 متناولا

12- خير الدين شترة، إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية1900-1939، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 330.

13- وقعت هذه الحادثة أثناء عقد اجتماع المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين في 24 سبتمبر 1938، اقترح الشيخ الطيب العقبي والعمودي مسألة تأييد فرنسا في حربها ضد دول المحور (ألمانيا وإيطاليا ...)، لكن رفض اقتراحه من طرف الشيخ عبد الحميد ابن باديس ورفاقه، مما أدى الى استقالة الشيخ من المجلس الإداري للجمعية، للمزيد من الاطلاع ينظر: أحمد الخطيب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 162.

14- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، الجزائر، 2007، ص123.

15- Turgay Gökgöz: "FRANSIZ SÖMÜRGESİ DÖNEMİNDE TUNUS ZEYTÛNE ÜNİVERSİTESİ İLE TUNUS GAZETELERİNİN CEZAYİR KÜLTÜREL YAŞAMI ÜZERİNDEKİ ROLÜ ", NÜSHA, Türkiye, 2019; (48) , p181-202.

16- الباحث أستاذ بجامعة 7 Aralık Üniversitesi، قسم اللغات والآداب الشرقية.

الظروف والأسباب إلى النتائج المترتبة عن ذلك الاستعمار، مركزا عن الحالة التي كانت تعيشها الأمة الجزائرية من جهل وبدع و محاولة المستدمر الفرنسي من تدمير وطمس اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وذلك عن طريق إما الترغيب أو الترهيب، كما تطرق أيضا إلى هجرة بعض العائلات الجزائرية إلى تونس ومواصلة أبنائها الدراسة في جامع الزيتونة، وهذا مما أدى بدوره إلى ظهور نخبة إسلامية-عربية تخرجت من تلك الجامعة تحارب فرنسا بأقلامها في الصحف والمجلات، وكذلك المحافل الدولية. كما تكلم أيضا على ان العلماء والمصلحين الجزائريين وجدوا وعاء ثقافي يمكنهم من نشر أفكارهم المناهضة للاستعمار في تلك المجلات والصحف تونسية.

أدرج هذا الكاتب عنوانا خاصا وضّح فيه الحياة الثقافية والعلمية في جامع الزيتونة ودورها الإشعاعي الحضاري والثقافي على المستوى العالم الإسلامي عموما وتونس والجزائر خصوصا، وعلى الدور الذي لعبه الشيخ الطيب العقبي في بداية أمره بإرسال مقالاته للنشر في مجلات تونسية، حيث يذكر أن الشيخ العقبي وجد مناخا خصبا ليضع فيه بذوره الفكرية والإصلاحية ضمن أوعية ثقافية تابعة لجامع الزيتونة، كما نوه أيضا بتأثر الشيخ بعلمائها ومصلحيها.[17]

3،2. مجلة العلوم (Bilimname dergisi):

جاء فيها مقال بعنوان: "**لمحة عامة عن اللغة العربية وآدابها في شمال إفريقيا خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية**"[18]، للباحث التركي: متين بارلدي (Metin Parıldı)[19]، نشر عام 2010، العدد الأول، وصفحاته من 115-132. بدأ مستهل مقاله مستشهدا بأبيات شعرية للشاعر التونسي أبو القاسم الشابي:

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب للقدر

أدرج عنوانا فرعيا في بداية مقاله حول الأوضاع الثقافية والعلمية لبلدان شمال أفريقيا قبل وبعد الحركات الاستعمارية وركز فيه أكثر على المناطق التي كانت تابعة للدولة العثمانية، خصوصا دولة الجزائر وتونس، وقد أورد ضمن هذا العنوان شيء من التفصيل على الجانب الأدبي كنصوص النثرية والشعرية، وأورد العديد من النماذج والقطع النثرية والأبيات الشعرية لا يسعني ذكرها هنا. وجاء عنوانه الفرعي "حركات الصحوة"، تكلم فيه عن دور تلك الحركة الإصلاحية الإسلامية في شمال إفريقيا وركز فيها أكثر على إقليم الجزائر وبالأخص الشخصيتين البارزتين، وهما الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ الطيب العقبي.

18- Metin Parıldi, "FRANSIZ SÖMÜRGECİLİGİ DÖNEMİNDE KUZEY AFRiKA'DA ARAP DİLİ VE EDEBiYATINA GENEL BİR BAKIŞ" bilimname XVII/, Türkiye, 2010/1, p 115-132.

19- أستاذ بجامعة Erciyes Üniversitesi بتركيا، كلية أصول الدين.

وبخصوص الشيخ الطيب العقبي، فقد تكلم بنوع من التفصيل على مولده ونشأته وكذلك سفره للحجاز وتعلمه هناك في المدينة، ووضح أيضا مسألة نفيه إلى مدينة أزمير بأمر من الإدارة العثمانية بسبب قومتيه العربية، لكن سرعان ما تم إعادته إلى مكة هناك التقى مع الشريف حسين وجعل تحت تصرفه مجلة القبلة والمطبعة الأميرية . وعرج أيضا المقال مسألة عودت الشيخ للجزائر عام 1920 ولقائه مع كوكبة من المصلحين والمثقفين أمثال الشيخ محمد العيد الخليفة[20]، وتأسيسه جريدة صدى الصحراء 1926 ثم جريدة الإصلاح فيما بعد، وكذلك الدور الذي لعبه في تأسيس جمعية العلماء المسلمين.

3،3. دائرة المعارف الإسلامية التركية (İslâm Ansiklopedisi) [21]:

خصصت الموسوعة الإسلامية التركية في مجلدها رقم:40، ركنا للتعريف بالشيخ الطيب العقبي ومسار حياته منذ ولادته إلى غاية وفاته، جاءت بعنوان " **الطيب العقبي، أحد قادة حركة الإصلاح الجزائرية، كاتب صحفي**"[22]. جاء فيها أهم المحطات الخالدة من سيرة المصلح الشيخ الطيب العقبي بدأ من أصله ومولده ثم تعلمه ونشأته وكذلك سفره إلى الحجاز وتعلمه العلوم الشرعية في المسجد النبوي، ثم نفيه بعد ذلك إلى مدينة ازمير بتركيا بسب أفكاره القومية العربية، وكذا عودته بعد ذلك إلى الحجاز ولقائه مع الشريف حسين، ثم تكليفه بإدارة مجلة القبلة والمطبعة الأميرية.

كما أدرج أيضا مسألة عودته إلى الجزائر وبالضبط إلى مسقط رأسه ومزاولة محاضراته ودروسه الدينية بالمسجد، من تحفيظ للقرآن الكريم والمتون والتفسير وشرح الأحاديث النبوية وانشغاله بالكتابة، ثم تأسيسه لمجلة صدى الصحراء 1926، ثم تأسيسه أيضا لجريدة الإصلاح في 1927، كما تطرق أيضا المقال على الدور والمجهودات التي قام بها الشيخ العقبي لتأسيس جمعية العلماء المسلمين مع الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي، ومواصلة نضاله الإصلاحي عن طريق تلك المنابر الدعوية منها والإعلامية كجريدة: الإصلاح والسنة والبصائر... وغيرها من المجلات الأخرى إلى غاية أن وافته المنية 21 ماي 1960.

4. الخاتمة

وهكذا نجد أن اغلب زعماء الحركة الإصلاحية بالقطر الجزائري لم يكن لهم تأثير على

20- للمزيد محمد العيد آل الخليفة، ينظر: محمد الصالح الصديق، أعلام المغرب العربي، ج 3، للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص 858،859.

21- دائرة المعارف الإسلامية التركية: موسوعة إسلامية تركية صدرت الموسوعة في الأصل في 44 مجلد، تنشرها رئاسة الشؤون الدينية التركية والمعروفة باسم" Diyanet İşleri Başkanlığı " وهي الجهة الرسمية المسؤولة عن إدارة الشؤون المتعلقة بالدين الإسلامي في تركية. أسست وفق القانون رقم 429 الصادر في 3 مارس 1924 م، المصدر الموقع الرسمي للمؤسسة: https://www.diyanet.gov.tr/tr-TR

22- İslâm Ansiklopedisi,"TAYYiB el-UKBÎ Cezayir Islah Hareketi'nin önderlerinden, gazeteci-yazar ", 40 cilt , Türkiye Diyanet vakfı,1988,p197.

المستوى المحلي فقط بل أيضا على المستوى العالم الإسلامي، وذلك بدعمهم للقضايا خاصة بالأمة الإسلامية عبر العالم وكذلك بالقضايا التحررية العالمية، لهذا نجد بعض الكتابات الأجنبية قد سعت على تخليد تلك الشخصيات الإصلاحية في ذاكرتها الجماعية، عن طريق كتابة أبحاث ودراسات ومقالات علمية حول تلك الأقطاب الإصلاحية، وهذا ما لمسناه في الكتابات التركية حول الشيخ الطيب العقبي بصفة خاصة وجمعية العلماء المسلمين بصفة عامة، وفي هذا الصدد ادعوا الباحثين على ضرورة البحث في تاريخ الجزائر من مصادر أجنبية متنوعة دون التركيز على الفرنسية فقط .

5. قائمة المراجع

*** المؤلفات:**

- برج، محمد عبد الرحمن، محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية 1906-1920، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1990.

- الخطيب، أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

- دبوز، محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، الجزائر، 2007.

- السنوسي، محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، لجامعه وناشره ومفسر ألفاظه، ج1، ط1، المطبعة التونسية، تونس، 1926.

- شترة، خير الدين، إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية1900-1939، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

- الصديق، محمد الصالح، أعلام المغرب العربي، ج 3، للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000.

- فضلاء، محمد الطاهر، الطيب العقبي رائد لحركة الإصلاح الديني في الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1985.

- نويهض، عادل، أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط7 ، مؤسسة نويهض الثقافة، بيروت، لبنان، 1980.

- İslâm Ansiklopedisi,"TAYYiB el-UKBÎ Cezayir Islah Hareketi'nin önderlerinden, gazeteci-yazar ", 40 cilt , Türkiye Diyanet vakfı,1988.

- Metin Parıldi, "FRANSIZ SÖMÜRGECİLİGİ DÖNEMİNDE KUZEY AFRiKA'DA ARAP DİLİ VE EDEBiYATINA GENEL BİR BAKIŞ" bilimname XVII/, Türkiye, 2010/1.

- Turgay Gökgöz: " FRANSIZ SÖMÜRGESİ DÖNEMİNDE TUNUS ZEYTÛNE ÜNİVERSİTESİ İLE TUNUS GAZETELERİNİN CEZAYİR KÜLTÜREL YAŞAMI ÜZERİNDEKİ ROLÜ ", NÜSHA, Türkiye, 2019; (48).

*** الأطروحات:**

- زقور، عفاف، (2007)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نشأة وتطور الاصلاح بمدينة الجزائر 1931-1940، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر.

*** المقالات:**

- عجالي، كمال، الطيب العقبي أعماله وجهوده الإصلاحية في بسكرة من 1920-1930، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 01، جامعة محمد خيضر بسكرة،197،2001-205.

*** المواقع الالكترونية:**

- دائرة المعارف الإسلامية التركية المصدر الموقع الرسمي للمؤسسة :

https://www.diyanet.gov.tr/tr-TR

جهود علماء الفكر الإصلاحي
في الجنوب الشرقي الجزائري في مواجهة التنصير
ـ الشيخ محمد السعيد الزاهري أنموذجا ـ

Efforts of reformist thought scholars in southeastern Algeria in the face of Christianization
-Sheikh Muhammad Al-Saeed Al-Zahiri as a model-

د/ علي بن زينب
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
Benzineb.ali@hotmail.com

أ/ جمال عرقوب
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
Djamel-medine@hotmail.com



ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى إبراز جهود أعلام الجنوب الشرقي في الحفاظ على الهوية الإسلامية العربية للجزائريين، وتقريب جهود أحد رموز الحركة الإصلاحية في منطقة الميزاب، ألا وهو الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله- في مواجهة حملات التَّنصير، ومحاولات طمس معالم الهوية الإسلامية عند الشعب الجزائري، وذلك من خلال التعريف بحياته العلمية والعملية، والوقوف على الأساليب والسياسات التنصيرية من منظوره الإصلاحي؛ حيث يرتكز بحثنا على نشاطه المقاوم لحملات التبشير الفرنسي.

وكان من أبرز نتائج هذه الدراسة أنَّ ترجمة الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله- لا تختلف كثيراً عن تراجم أهل الإصلاح، وأرباب الفكر والثقافة الجزائريين إبَّان الاحتلال الفرنسي، وأنَّ الحركة الإصلاحية بمنطقة الزيبان- كغيرها من الحركات الإصلاحية المحلية - عملت على معارضة السياسة الاستعمارية التي حاربت الشخصية الجزائرية ومقوماتها اللغوية والدينية والتاريخية، وأنَّ الاستعمار والتَّنصير صنوان يعضِّد أحدهما الآخر، وهدفهما واحدٌ هو إفراغ الشخصية المسلمة عن مضمونها لإحلال مضمون الشخصية المستعمرة محلها، وقد تمثلت جهود الشيخ محمد في مواجهة التنصير من خلال التنديد به على صفحات مجلات جمعية العلماء المسلمين، وتدريس أولاد المسلمين مجانا قصد صرفهم عن مراكز التعليم الفرنسية، وكشف شبهات المنصرين، وبيان أخطار التبشير على الإنسان الجزائري، وانتقاده لشيوخ الطرق الصوفية المتآمرين مع دعاة التنصير، ومحاربة الفرنسة والتغريب.

الكلمات المفتاحية: محمد السعيد الزاهري؛ الإصلاح؛ التنصير؛ المواجهة؛ الجهود.

Abstract:
This study aims to highlight the efforts of the flags of the southeast in preserving the Islamic Arab identity of the Algerians, and to approximate the efforts of one of the symbols of the reform movement in the Mizab

region, namely Sheikh Muhammad Al-Saeed Al-Zahiri - may God have mercy on him - in the face of Christianization campaigns, and attempts to obliterate the features of the Islamic identity of the Algerian people Through introducing his scientific and practical life, and examining the missionary methods and policies from his reformist perspective, our research is based on his anti-French missionary activities.
One of the most prominent results of this study was that the translation of Sheikh Muhammad Al-Saeed Al-Zahiri - may God have mercy on him - does not differ much from the translations of the reform people, and the Algerian leaders of thought and culture during the French occupation, and that the reform movement in the Zaiban region, like other local reform movements, worked to oppose the colonial policy that fought the personality The Algerian and its linguistic, religious and historical components, and that colonialism and Christianization are closely related to each other, and their goal is one and the same, which is to empty the Muslim personality of its content to replace it with the content of the colonial personality. Teaching Muslim children for free in order to distract them from French education centers, exposing the suspicions of the missionaries, explaining the dangers of evangelization to the Algerian person, criticizing the sheikhs of the Sufi orders conspiring with the advocates of Christianization, and fighting the French and Westernization.
Keywords: Mohammed Al-Saeed Al-Zahiri; repair; Christianization; confrontation; efforts.

1. مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، ونصلي ونسلم على خير خلقه وخاتم رسله وأكرم أنبيائه، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه، ومن سار على طريقه، واقتفى أثره،واتبع سنته، وحمل منهجه إلى يوم الدين. أما بعد:

فإنَّ الإصلاح رسالةٌ شريفةٌ، حملها على مرِّ التاريخ الإنساني الرِّجال الصَّادقون، والعلماء الربانيون، وقد خرَّجت الأمة الإسلامية مصلحين كانوا في المستوى الإسلامي اللائق بهم؛ علماً وعملاً، فهماً وتطبيقاً، فبلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمَّة، وجاهدوا في الله حتى أتاهم اليقين، وكانوا على خطى النُّبوَّة يتَّبعون هديها، ويلتزمون نهجها، ويقتفون أثرها. فقاموا بالإصلاح من خلال إحياء القيم الإسلامية، وتجديد العمل بالتعاليم القرآنية والنَّبوية، وتنقية المفاهيم مما علق بها من شوائب، وقاموا بدفع المفتريات، ورد الشُّبهات، وتربية الجيل المسلم على هدى الإسلام، فأدُّوا بهذه المهمة الإصلاحية خدمةً عظيمةً للمجتمعات الإسلامية؛ حيث أعادوا لها شخصيتها المسلوبة، وكرامتها المفقودة، وشكلت رؤاهم الفكرية ومواقفهم الإصلاحية معالم المجتمع المسلم. وقد بقيت جهود المصلحين، ولم تسقط من ذاكرة التاريخ، فقد حفظ الزمان آثارهم، وتعاقبت الأجيال على دراسة سِيرِهم وأفكارهم، وبقيت بصماتهم الفكرية حيّة في ضمائر المسلمين، وعقولهم في كل وقت.

وفي هذا البحث نحاول تسليط الضوء على بعض جهود أعلام الفكر الإصلاحي بالجنوب الشرقي الجزائري من خلال المقاومة الفكرية، والتَّصدي لآفة التَّنصير التي طغت على الفكر الاستدماري الفرنسي، ونخص بالدراسة الشيخ محمد السعيد الزاهري وجهوده في مواجهة المدِّ التنصيري الفرنسي:

- فمن هو الشيخ محمد السعيد الزاهري؟ وما هي أهم محطات حياته العلمية والعملية؟

- وما هي السياسات والوسائل التي انتهجتها فرنسا لتنصير أبناء الجزائر من وجهة نظر الشيخ الزاهري؟

- وكيف كانت جهوده وإسهاماته في التصدي ومقاومة هذا الغزو التنصيري؟

ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

أ. ارتباط الموضوع بالفكر الإصلاحي، وعلاقته بالدعوة إلى الله تعالى، ولا يخفى ما للدعوة الإسلامية من أهميةٍ في بناء المجتمع المسلم، وصيانته من المؤثرات السلبية التي تهجم عليه، وتحاول سلخه من هويته العربية والإسلامية.

ب. مكانة الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله- العلمية والعملية، والاشتغال بموروثه العلمي ردٌّ لبعض الجميل لهذا الشيخ المصلح، والوقوف على مكامن القوة،والعظمة في شخصية هذا الرجل، وخدمةٌ جليلة لما تركه للأجيال القادمة.

ج. دراسة جوانب المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي، وتسليط الضوء عليها، يتيح الفرصة للعاملين في حقل الدعوة الإسلامية مواجهة المشكلات، والوقوف على العقبات، والإفادة من تجارب وخبرات هؤلاء الأعلام في التقييم والتقويم وإيجاد الحلول المناسبة.

ـ أهداف الدراسة:

يهدف هذا الموضوع إلى تحقيق أمورٍ منها:

أ. إبراز جهود أعلام الجنوب الشرقي في الحفاظ على الهوية الإسلامية العربية للجزائريين، وبيان القيمة العلمية، والإصلاحية لرواد النهضة في الجزائر، بلد الإسلام والعروبة، والحصن الذي تحطَّمت عليه هجمات الأعداء طوال التاريخ، هذه الجهود التي لازلت مجهولة لدى الكثير من الجيل الجديد، وتسليط الضوء عليها يصل الحاضر بالماضي، ويربط الناشئة بأسلافهم، فتحافظ هذه الأمَّة على هويتها العربية والإسلامية.

ب- إزاحة السِّتار عن شخصية إسلامية بارزة، حاربت الاستعمار وأعوانه، وشاركت مشاركة فعَّالةً في الإصلاح والإرشاد، حتى ننسب الفضل لأهله، وتتعلَّق الأجيال بفكره.

ج- مواجهة ظاهرة التنصير في زمن الاستعمار الفرنسي، وقد كانت همًّا يحمله كلُّ روّاد الإصلاح في ذلك الزمن، إذ يعتبر أكبر تحدٍّ وخطرٍ يواجهونه في ظلِّ السعي الحثيث لفرنسا، من أجل سلخ الشعب الجزائري من هويته الإسلامية، والعربية، فالوقوف على جهود هؤلاء الأعلام في مواجهة التنصير ينمِّي روح المسؤولية عند الجيل المعاصر، ويوقد الشعلة من

أجل كسب الرهان في التصدي لحملات التغريب، والحداثة العلمانية، والتي لا تقل خطورة على ظاهرة التنصير.

ـ منهج البحث:

استخدمنا في هذا البحث منهجين اقتضتهما طبيعته:

أ- المنهج التاريخي: ووظَّفناه في دراسة ترجمة الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله، وتتبع حياته الشخصية، والعلمية.

ب- المنهج الوصفي التحليلي: واستعملناه في توصيف المسائل الواردة في البحث، ثمَّ جمع المعلومات من مصادرها المتعلقة بهذه المسائل، وتوظيفها حسب الحاجة، ثم تحليلها تحليلًا علميًّا حسب متطلبات الدراسة، للوصول إلى نتائج علمية.

2. ترجمة موجزة للشيخ محمد السعيد الزاهري

2-1. الميلاد والنشأة:

ولد الشيخ محمد السعيد الزاهري ابن البشير بن علي بوزاهر المدعو الزاهري بمنطقة ليانة (وهي قرية من قرى الزاب الشرقي)[1] اتفاقا، واختُلف في تحديد السنة التي ولد فيها؛ فقيل سنة: 1897م، وقيل سنة: 1899م، أو حدودها، وقيل سنة: 1900م؛ أي: في مطلع القرن التاسع عشر، وقيل في حدود سنة :1901م[2]. وهو سليل أسرة عريقة تدعي النسب الشريف بانتمائها لآل البيت، الذي يتصل نسبه بالحسين بن علي ﷺ، وقد اكتسبت هذه الأسرة صفة المرابطية بانخراطها في سلك الطريقة القادرية. وكانت الأسرة تعجُّ بجوٍّ علميٍّ وثقافيٍّ معتبرٍ، من خلال مدارسها، ومساجدها كمسجد سيدي الوردي؛ حيث تخرج فيه الكثير من المشايخ، وكان أحد أعمام الزاهري مقدَّمًا لهذه الطريقة، كما كان لهذا المعهد مكتبة غنية بالكتب، والمخطوطات المتنوعة والنادرة، وفي هذا الجو العلمي والثقافي نشأ الطفل محمد السعيد [3].

2-2. مرحلة الكتاتيب:

وفي سن السَّابعة أُدخل الكتَّابَ بعد أن أظهر نبوغًا في صغره، وهناك حفظ القرآن، وابتدأ طلب العلم بتوجيهٍ من جدِّه الذي أقرأه بعض مبادئ الفقه، والتوحيد، والنحو، ثم تابع دروسه على علماء قريته بدءا بعمِّه الشيخ عبد الرحيم، والشيخ محمد بن ناجي

---

(1) المعروفة حاليا بمدينة بسكرة.

(2) ينظر: بلعجال أحمد، الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد السعيد الزاهري، ص2، وينظر: كحكاح يمينة، الحركة الإصلاحية في منطقة الزيبان "الشيخ محمد السعيد الزاهري" أنموذجا 1900- 1956م، ص: 45، وقد ذكرت في الملحق بعض الوثائق التي تثبت بعض هذا الاختلاف إضافة إلى المقابلة الشخصية التي أجريت مع الشيخ إسماعيل بوزاهر يوم 26- 02- 2014 ، ص: 109- 112.

(3) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 7.

الزاهري، كما أخذ علما كثيرا على الأستاذ علي بن العابد السنوسي الزاهري[4]. وهذا الطريق هو الذي مهد له التوجه نحو مرحلة مهمة في تكوينه التعليمي، وذلك باختياره للالتحاق بالمدرسة الباديسية بقسنطينة[5].

2-3. **المرحلة الباديسية:**

أقام ما يقارب أربعة عشر شهرا طالبا بالجامع الأخضر، ينهل العلوم،والمعارف من دروس الشيخ ابن باديس؛ التي تنوعت بين تفسير القرآن وتجويده، والحديث النبوي، والفقه المالكي، والعقائد الدينية، والآداب والأخلاق الإسلامية، واللغة العربية بفنونها، وبعض الفنون العقلية ؛ كالمنطق، والحساب، ومع أنه كان شغوفا بهذا التعليم ومعجبا به؛ إلا أنَّ شخصية الزاهري لم تتفق مع طريقة ابن باديس التي كان يسلكها في التعليم، ما جعل الزاهري يغادر دروس الشيخ ابن باديس[6].

2-4. **الانتقال إلى تونس:**

بعد عودته من قسنطينة توجَّه مع عمه الرشيد إلى وادي سوف؛ حيث اتصل بالشيخ الهاشمي زعيم الطريقة القادرية، الذي أوكل إليه مهمَّة تعليم أولاده مقابل أجرة معلومة، وبتوطّد العلاقة مع الشيخ الهاشمي عرض عليه هذا الأخير سنة 1917م مرافقة أبنائه في رحلة لطلب العلم إلى جامع الزيتونة الشهير بتونس؛ فكانت منحةً إلهيةً أهديت للزاهري؛ لينهل من معين هذا الصرح العلمي الذي كان يحلم به مئات الجزائريين ممن رغبوا في طلب العلم، والأخذ منه بحظ وافر[7].

وتُعدُّ هذه المرحلة محطةً هامةً في حياة الزاهري ؛ حيث درس على مشايخ مشهورين مثل: الشيخ محمد النخلي، والأستاذ عثمان بن خوجة، والشيخ معاوية التميمي، وغيرهم، كما التقى بأهم الشخصيات الأدبية والفكرية التي كانت تؤمُّ هذا الصرح من كلِّ وجهة، وفي هذه الأجواء أخذ الزاهري منطلقات فكره الإصلاحي، والوحدوي؛ فلم يكن منكبًّا على طلب العلم وحسب؛ بل كان مهتمًّا بما يحيط بأمته العربية والإسلامية عموما، والجزائرية خصوصا، فنجده يستغل رفع الإجراءات الموجهة ضد الصحافة التونسية ليستفيد منه، ويشارك بمساهمات صحفية جادَّة؛ مثل مشاركته في الصحف التونسية، كصحيفة "النهضة"، و"الزهرة"، و"الوزير"، فضلا عن مشاركته في الصحف غير التونسية كـ"الإقدام" الجزائرية، و"الفتح" المصرية، والَّتي دلَّت على تفاعله مع الأحداث الداخلية والخارجية[8]،

(4) ينظر: السنوسي محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص:116.

(5) ينظر: بومديني محمد، محمد السعيد الزاهري ودوره الإصلاحي، ص:3.

(6) ينظر: السنوسي محمد الهادي، مرجع سابق، ص :117-118.

(7) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص:7.

(8) ينظر: السنوسي محمد الهادي ، مرجع سابق، ص :118- 119. وينظر: طبيش عبد الكريم، أدب المقاومة عند محمد السعيد الزاهري من خلال جريدة "البرق"، ص:61- 62.

ليترك بذلك بصماتٍ واضحةً في الساحة السياسية، وهو لا يزال شابًّا يافعًا.

وفي نهاية المرحلة التعليمية بجامع الزيتونة خضع مترجمنا لامتحانٍ، نال بعده شهادة التطويع؛ بعد رحلة علمية، وفكرية مهمة دارت بين أروقة الجامع، وحِلق الدرس، وردهات المكتبات، وصفحات الجرائد، والمنتديات الأدبية، أكسبته شخصيةً علميةً، وثقافيةً راقيةً[9].

2-5. **العودة للوطن**:

عاد الزاهري إلى أرض الوطن في العام: 1925م؛ ليستقر بالجزائر العاصمة، وينضم لجماعة الإصلاح، ناهضًا بأعباء الجهاد على أكثر من صعيدٍ[10]، وليبتدئ عمله الإصلاحي بتسخير قلمه في سبيل صحيفة وطنية عربية، فأنشأ جريدة **"الجزائر"**، وجعل شعارها "الجزائر للجزائريين"، صدر منها ثلاثة أعداد فقط، لتتدخل الإدارة الفرنسية وتعطِّلها سريعاً؛ نظرا لحرارتها وصدق وطنيتها، وفي هذا الأساس كتب ابن باديس في جريدة **"المنتقد"**: "جلا علينا العدد الأول من "الجزائر" فوجدنا بها مقالات بليغة، في متانة تعبير، وسمو فكرة، ونبالة مقصد، وثقة ببلوغ الغاية، وجدير بها إذا كان السعيد واضعها، أن يكون السعيد طابعها"[11].

وعلى شاكلة الأمير خالد، كان الزاهري حرّ التفكير، وطنيّ التوجّه، يبحث دائما، بلا هوادة ولا كلل، عن السبيل الموصلة إلى تخليص أبناء ملته من براثن الاستعمار، ولقد كان مقتنعا بأن المعرفة هي أفضل سلاح لذلك، لكنه لم يكن يفرق بين مختلف مجالاتها، بل يعتبر أن السياسة، والأدب، وعلوم الاجتماع، والاقتصاد، والدين كلها مكملة بعضها لبعض، ولا يمكن لأحدها أن يفيد فائدة إذا كان في معزل عن الباقي، وقد جند الزاهري قلمه، ونذر وقته كله لخدمة هذا الاتجاه، وكعادته، كان ينشر في كل جريدة تشجّع على قبول إنتاجه الناري كما يضعه[12].

2-6. **الانضمام إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والخروج منها**:

لم يكتف الزاهري بالكتابة والشعر، فراح يفكر جدِّيًّا في إنشاء إطارٍ نظاميٍّ ؛ يمكنه من تعبئة الطاقات الحيّةِ، لتحقيق أهدافه في توعية الجماهير، وتزويدها بالمعرفة، وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أنه أعدَّ في سنة: 1928م قانونًا أساسيًّا لبعث ما سماه بـ "حزب الإصلاح الديني"، ولقد أشار إلى هذا القانون في حديثٍ كان أجراه مع الشيخ **عمر راس**، ونشره سنة: 1929م بمجلة "الفتح": "وتكلمنا في الإصلاح الإسلامي، فقلتُ له أني أشتغل

(9) ينظر: السنوسي محمد الهادي، مرجع سابق، ص :118، والخرفي صالح، محمد السعيد الزاهري، ص: 24، وبلعجال أحمد، مرجع سابق، ص:9.

(10) ينظر: صيد عبد الحليم، معجم أعلام بسكرة، ص:112.

(11) تحت عنوان: الصحافة العربية -الجزائر، العدد: 5، الخميس 11 محرم 1344هـ/ 30 جويلية 1925م، ص: 3.

(12) الزبيري العربي، المثقفون الجزائريون والثورة، ص:61.

بوضع القانون الأساسي لحزب الإصلاح الديني، فإذا فرغت منه عرضته على جماعة الإصلاح، وعقدنا اجتماعا عموميا لبحثه وتمحيصه، ثم عرضناه للموافقة، وأطلعت الشيخ راسما على مجمل هذا القانون، فقال: إنه برنامج محكمٌ، يمكن بكل سهولة تنفيذه بتدقيق، وهو كفيل برد جميع طبقات المسلمين في الجزائر إلى القرآن الكريم، وتوحيد كلمتهم عليه، وأنه بغير هذا لا يمكن لنا أن نجمع أشتات هؤلاء المسلمين"[(13)].

وهذا المشروع المذكور جعله بعض الباحثين من الأسباب الرئيسة لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بعد سنتين من التاريخ المذكور، والتي كان الزاهري أحد أعضائها البارزين في مجلسها الإداري. كما أنَّ مذهبه الشمولي هو الذي جعله يكون في الوقت نفسه عضوا قياديًّا بجمعية العلماء، ومناضلا بارزا في صفوف نجم شمال إفريقيا، الذي كان يؤمن ببرنامجه السياسي، ويدعو بشتى الوسائل إلى تطبيقه، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الزاهريَّ -كما تقدَّم- يُعدُّ بكتاباتِه ومواقفه واحدًا من الرُّواد الذين رفعوا راية الجهاد على كل الجبهات، من أجل أن تعود الجزائر للجزائريين، ومن أجل أن تتحد أقطار المغرب العربي، وتوحِّد نضالاتها ضد الهيمنة الاستعمارية.

أما ما يتعلق بعمله في الجمعية؛ فقد وضع فيه الإمام ابن باديس ثقةً كبيرةً لكفاءته العلمية، وقدرته على الكتابة شعرا ونثرا، ما جعله يحمِّله بمعية الشيخ الطيب العقبي رئاسة تحرير جريدتي "السنة النبوية" و"الصراط السوي" الصادرتين في سنتي: 1933م و1934م؛ حيث جند هناك قلمه لخدمة الإسلام، ونشر فكرة الإصلاح، ولم يتردد قط في التصدي لمختلف مشايخ الطرق، وعلماء الاستعمار الذين كان يوظفهم في ميادين مختلفة[(14)]. وهذا ما تسبب له في كثيرٍ من الأحيان في جلب عداوات المخالفين بطرق ملتوية، كان من أبرزها ذلك الاعتداء الجسدي المباشر، الذي كاد يودي بحياته عندما شج مجهول رأسه بهراوة، ثم لاذ بالفرار.

بعد سنوات غير طويلة من العمل الجاد مع الجمعية نشبت خلافات داخل الجمعية بين فكر الزاهري السياسي والإيديولوجي، وفكر الجمعية المتعلق بخطة الطريق الإصلاحية، ما جعل هذا الأخير ينشق عن الجمعية، وينسحب تدريجيًّا، مع التركيز على النضال في صفوف "**نجم شمال إفريقيا**" وفي صفوف "**حزب الشعب**"، وهو ما يلمسه القارئ لكتاباته الصحفية مثل جريدة "**الليالي**" ذات النزعة الإصلاحية، وجريدة "**الشعب**" اللسان المركزي لحزب الشعب الجزائري، وجريدتي "**سيدي هنيني**"، **والميدان**" الوطنيتين. وأما مساهماته في الكتابة حول هموم الوطن العربي المختلفة، وقضايا العالم الإسلامي فإنها بقيت مستمرةً؛ حيث كان يزود الصحافة العربية - خاصة في تونس، ومصر- بمقالات مطولة في ذلك.

(13) الزاهري محمد السعيد، حديثٌ مع الشيخ راسم، مجلة الفتح، العدد: 159، سنة :1929م، ص: 138.
(14) الزبيري العربي، مرجع سابق، ص: 62- 64.

وفيما يخص مكانته الأدبية والفكرية فيشهد له كبار الأدباء والمفكرين بأنه كان من العمالقة الذين يمتازون ببعد النظر، والفكر النّيّر، والأسلوب الأخّاذ، والقدرة على الجمع بين صفتي الصحافي الناجح، والكاتب المبدع، وفي هذا يقول الزبيري: "وإننا لا نبالغ عَنَدًا نؤكد أنَّ كثيرا من مقالات الزاهري ودراساته حول موضوعات خطيرة، مثل وحدة المغرب العربي، والإصلاح، والإسلام والمسلمين ما تزال صالحة للنشر، وأن نعرِّف بها أجيالنا الصاعدة للإفادة والاستفادة"[15].

2-7. **النشاط التعليمي**:

كانت مساهمات الزاهري في مجال التربية التعليم مساهمةً رائدةً؛ إذ كان يعتقد أنَّ تعليم الأطفال وإنشاء المدارس والكتاتيب القرآنية أهم هذه الوسائل، والمطَّلع على مسيرته التعليمية يجده مباشراً للميدان حيناً، ومشاركا بخطاباته، ومقالاته التي تتناول العلم والتعليم أحيانا أخرى، فقد درس بالعاصمة شمالا، واستقر الزاهري بداية من سنة: 1929م بتلمسان، وتصدر مجال التدريس حيث أسَّس بها مدرسةً تعليميَّةً، لينتقل منها نحو وهران، ثم الجزائر العاصمة[16]، وفي عام: 1344هـ سافر الزاهري إلى مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري، وأنشأ بها مدرسة "**الشبيبة القرآنية**" لمقاومة الجهل المفروض على أطفال تلك المنطقة؛ ولبث فيها ستة أشهر كاملة، ذكر فيها الزاهري أنه احتمل من العناء في هذا المشروع ما لا طاقة له به، لولا حبه لهذا الوطن، مما اضطره إلى السفر إلى بسكرة، مسقط رأسه. دعا سنة: 1927م إلى تأسيس مدرسة للتربية والتعليم، والتي يبدو أنها لم تر النور إلا سنة: 1931م، وفي وهران أنشأ جمعية "**الإصلاحية**" سنة: 1934م، التي كانت تعمل على تعليم العربية، وبعث العروبة؛ فكان الزاهري معلما أينما حلّ، وارتحل[17].

2-8. **النشاط الصحفي**:

وإذا أردنا تلخيص نشاطه الصحفي؛ فيمكن القول : إنه ساهم في هذا الميدان في وقت مبكّرٍ قبل تخرجه من الزيتونة؛ أي : قبل رجوعه إلى الجزائر، وبعد العودة للوطن شرع في تأسيس عدة صحف أهمها: صحيفة "**الجزائر**" سنة: 1925م، وهي سياسية تناصر الاتجاه الوطني الإصلاحي، وصحيفة "**البرق**" سنة: 1927م ذات الاتجاه الإصلاحي الديني، وصحف "**السنة النبوية**"، و"**الشريعة المحمّدية**" و"**الصراط السوي**" سنة :1933م لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان يرأس تحريرها رفقة الشيخ العقبي، وساهم في تحرير جريدة "**الجحيم**"، وجريدة "**الوفاق**" سنة :1938م، وجريدة "**المغرب العربي**" سنة: 1947م الناطقة باسم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وصحيفة "**عصا موسى**" سنة:

---

(15) نفسه، ص :67.

(16) ينظر: بومديني محمد، مرجع سابق، ص:5.

(17) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 101- 103، وطبيش عبد الكريم، مرجع سابق، ص:65.

1950م، إضافة إلى مشاركته في صحف أخرى مثل" **الإقدام**"، و"**الشهاب**"، و"**البصائر**"، و"**الإصلاح**"، ومقالات مترجمة له في "**الكفاح الاجتماعي**"، و"**وهران الجمهورية**" الناطقتين بالفرنسية، كما كان يراسل الصحف التونسية كـ "**الوزير**" و"**الزمان**" و"**النهضة**"...، ويراسل صحف المشرق المشهورة، مثل: "**القلم الحديدي**"، و"**الفتح القاهرية**"، و"**المقتطف**"، و"**الرسالة المصرية** "، وهذه الإطلالة تدلُّ على أنه كان من رواد الصحافة الكبار في الجزائر(18).

2-9. **آثاره:**

رغم القلم السَّيَّال الذي كان يملكه الزاهري، والمقالات العديدة والمتنوعة التي خلّفها، إلا أنه كان قليل التأليف؛ وهو ما كان يفرضه الوضع الاجتماعي والسياسي على كثير من إخوانه الجزائريين، وأهم كتاب مطبوع تركه الزاهري هو كتاب: "**الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير**"، وهو الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا، كما أن للزاهري مؤلفات أخرى غير مطبوعة منها:

- **حاضرة تلمسان**: كتابٌ مخطوطٌ يحتوي على وصف دقيق مستوعب لمدينة تلمسان، يضم قرابة 300صفحة.
- **بين النخيل والرمال**: كتابٌ مخطوطٌ في وصف الواحات البديعة بالجنوب الجزائري.
- **حديث خرافة:** كتابٌ مخطوطٌ عبارة عن نظرات، وأفكار في الأدب، والحياة، والاجتماع.
- **شؤونٌ وشجونٌ**: كتابٌ مخطوطٌ يضمُّ فصولا عدَّةً في موضوعات مختلفة.

يضاف إلى مؤلفات الزاهري المذكورة مقالاته المتنوعة الخصبة، وقصائده الشعرية الكثيرة المنشورة في الصحف، والمجلات الجزائرية، والشرقية(19).

2- 10. **وفاته:**

قِيل إنَّ سبب تعرضه للقتل هو مقالٌ نشره في جريدته "**المغرب العربي**"، والذي كان بعنوان "رحلة مريبة لمهمة مريبة"، ينتقد فيها بعض تصرفات جبهة التحرير الوطني؛ حيث تعرَّض الشيخ الزاهري لعملية اغتيال بعد أيام قليلة من هذا النشر، حين كان مارا بشارع "**لالير**" ، بساحة الشهداء بالجزائر العاصمة، رفقة الهاشمي العربي؛ إذ تقدم أحد المسلحين ليرديه قتيلا يوم: 21 ماي 1956م (20).

(18) بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص:18- 33، وينظر: مصمودي فوزي، تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة وإقليمها من 1900 إلى 1954م ، ص:93، حيث ذكر صحفا أخرى.

(19) صيد عبد الحليم، مرجع سابق، ص :113.

(20) ينظر: طبيش عبد الكريم، مرجع سابق، ص :69، وينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 214/10.

3. جهود الشيط محمد السعيد الزاهري في مواجهة ظاهرة التنصير

3-1. تمهيد:

لا شكَّ أنَّ الاحتلال الفرنسي احتلالٌ صليبيٌّ، وقد ظهر ذلك من خلال الرُّوح الصليبية، التي لخصها شارل العاشر (1757-1880م) الذي أمر باحتلال الجزائر، وقال مبرراً عمله ذلك: "إنَّ العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا، سيكون بإعانة العلي القدير لفائدة المسيحية جمعاء"، ويؤكد ذلك أيضا تصريح أحد مساعدي الماريشال بيجو حيث قال: "إنَّ أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إلهٌ غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أنَّ نشكَّ في أنَّ هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكن أن نشكَّ على أي حالٍ بأنها ضاعت من الإسلام إلى الأبد"[21]، وقد ظهر ذلك ميدانيا بضم الممتلكات الدينية؛ كالأوقاف، وتحويل المساجد إلى كنائس[22]. وقال لافيجري: "علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهداً لدولةٍ عظيمةٍ مسيحيةٍ، أعني بذلك فرنسا أخرى، يسودها الإنجيل ديناً، وعقيدةً، فهذه آيات الله" [23]، وقال أحد ساسة الاحتلال: "لا تظنون أنَّ هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، أفلا تعلمون أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع الإسلام بهذه الديار"[24]. فقوبل هذا القول بتصريح الشيخ ابن باديس -رحمه الله- فقال[25]:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ وَإِلَى الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبْ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبْ
أَوْ رَامَ إِدْمَاجاً لَهُ رَامَ الْمُحَالَ مِنَ الطَّلَبْ

والاستدمار الفرنسي صليبي محترق، يقوده القساوسة والرهبان، قال الشيخ البشير الإبراهيمي -رحمه الله-: "الاستعمار الفرنسي **صليبي النزعة** فهو- منذ احتل الجزائر- عامل على محو الإسلام ؛ لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية ؛ لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة ؛ لأنها دعامة

---

(21) ينظر: بن نعمان أحمد، التعريب بين المبدأ والتطبيق، ص: 160، وعيساوي أحمد، جهود الشيخ العربي التبسي وآثاره الإصلاحية، 190/2.

(22) ينظر: تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص: 109.

(23) ينظر: حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ص: 125.

(24) الإبراهيمي محمد البشير، الآثار، 284/5.

(25) ابن باديس عبد الحميد، الآثار، 571/3.

الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك ظاهرة وخفية، سريعة، ومتأنية"[26].

والاستعمار والتبشير صنوان يعضّد أحدهما الآخر، فقد تمثَّل المخطط الفرنسي للقضاء على الهوية الإسلامية للجزائر؛ في موقفه من الأوقاف الإسلامية، والمساجد، والمحاكم الشرعية، والمعاهد العلمية، فمنذ بداية الاحتلال عمد قادة الاحتلال إلى الاستيلاء على المساجد، وتحويلها إلى كنائس، مثلما حدث لـ**"مسجد كتشاوة"** في عاصمة البلاد، وغيره من المساجد في مختلف أنحاء الوطن[27].

وصرَّح دعاة التبشير أنَّ هدفهم هو إرجاع المسيحية على أرض إفريقيا الشمالية، كما كان قبل دخول الإسلام إليها[28]. وقد استخدم المبشرون المسيحيون جميع الطرق في سبيل نشر المسيحية، كما استغلوا جميع المناسبات، فاستغلوا التَّطبيب، والتعليم، والوعظ والترجمة...إلا أنهم ورغم هذه الجهود التي بذلوها قد فشلوا في مهمتهم لتمسك المسلمين بدينهم ودين آبائهم[29]. "والمبشرون أول ما يلقون للأولاد هي كلمة الشرك -والعياذ بالله-، ثم إنهم يكرّهون له الإسلام بالتنقيص لنبينا الكريم"[30]. ونقل الزاهري عن الجنرال الفرنسي آزا في كتابه **"المسألة الجزائرية"** فضيحة استغلال الكاردينال لافيجري لمجاعات (1867-1868م) باختطافه للأطفال الجزائريين قصد تنصيرهم[31].

2-3. **التنصير والتبشير في منطقة الزيبان.**

زاد اهتمام فرنسا بالجنوب الجزائري، وتوقَّدت شعلة التنصير في نفوس الفرنسيين منذ تولي لافيجري أسقفية الجزائر سنة: 1867؛ حيث قرر غزو الإنسان الجزائري، وكانت منطقة الصحراء الشغل الشاغل للكاردينال لافيجري ؛ حيث يعتبر الوصول إلى تخومها، ومدّ النفوذ المسيحي فيها أمرا هامّا، وجوهريا بالنسبة له؛ لأنه يعتبر الجزائر نقطة الانطلاقة التي تتسرب منها حركة التبشير إلى إفريقيا كلها؛ خاصة في ظل التنافس الاستعماري الأوربي على القارة الإفريقية، وبعث برسالة إلى "ج. رولاند" (G.Rolland) أحد كبار مشروع سكة الحديد العابرة للصحراء، قائلا له: "لطالما اعتبرت مسألة التوغل في الصحراء، والسودان

(26) الإبراهيمي محمد البشير، مرجع سابق، 151/5 .

(27) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 78.

(28) ينظر: ناصر محمد، المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها، تطورها، أعلامها من : 1903م إلى 1931م، ص: 139.

(29) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 78.

(30) الزاهري محمد السعيد، نحن والمبشرون، الشهاب، المجلد3، العدد: 133، 10 شعبان 1346هـ/ 2 فيفري 1928م، ص: 10.

(31) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ص: 83.

الغربي أحد النقاط الأساسية لمصلحة فرنسا في الجزائر"[32].

وبالرغم من تجذّر الدِّين الإسلامي في نفوس سكان الصحراء؛ إلَّا أن الكاردينال لا فيجري صرّح لدى وصوله إلى الجزائر قائلا: "إن الجزائر بابٌ مفتوحٌ بيد العناية الإلهية على قارةٍ متوحشِّةٍ، يعيش عليها مليونان من النفوس"؛ حيث إنَّ تأمين الصحراء وتهدئتها -لفتح الطريق أمام المبشرين الذين يقصدون إلى إفريقيا السوداء- من الأهداف الأساسية التي تعاونت الكنيسة، والسلطة الاستعمارية لتحقيقها تعاونا كبيرا[33]؛ لذلك عمل على إيجاد مناطق تبشيرية متقدمة، تساعده على الاطلاع على منطقة الصحراء وسكانها، فكانت البداية ببعث ثلاثة من الأخوات البيض إلى مدينة الأغواط، في ديسمبر سنة: 1870م، ووصلوا إليها بعد ستة أيام من سفر كان شاقًّا ومتعبًا، فمرضت الأخوات البيض؛ لعدم تأقلمهم مع قساوة المناخ، واضطر لافيجري إلى استدعائهن، وتعويضهن بإرسال اثنين من الآباء البيض اليسوعيين ؛هما الأبوان "روشي" (ROCHER)، و"أوليفيي" (OLIVIER)، اللذان كانا يتقنان اللغة العربية، وكان من أهداف هذه الحملة ضمان الممارسة الدينية المسيحية لدى المستوطنين الفرنسيين، ومختلف العائلات الأوروبية المقيمة هناك، والقيام بوظيفة الإرشاد الديني في أوساط الجيش الفرنسي المقيم بالأغواط[34]. ومن جهة أخرى محاولة الاحتكاك بالقبائل العربية الجزائرية بالجنوب ؛ لتحضير مراكز تبشيرية في الواحات، والصحراء الكبرى، وقد تم تعيين الأب "شارموتان" (Charmetain) رئيسا لمركز الأغواط، والذي يعتبر مقرًّا رئيساً لبداية إرسالية تبشيرية واسعة، تصل حتى السودان.

انطلق الأب شارموتان من الأغواط إلى وادي ميزاب في خريف سنة: 1872م؛ حيث استغرقت هذه الرحلة شهراً كاملاً، لخَّص فيها أحوال ومعيشة السُّكان بالمنطقة بصفة عامة، ودقيقة، ثم عاد واستعرض أمام لافيجري كل ما شهده من طريقة عيش السكان؛ سواء الاجتماعية، والاقتصادية، وحتى الدينية، فاتخذ لافيجري خطوة أخرى؛ حيث قام ببعثه للمرة الثانية، ولكن على أساس كاهن إلى الأغواط برفقته اثنين من الآباء البيض، وهما "بوشان" و"بولمي"، وحدّد لهما هدفا أساسيا يتمثل في الوصول إلى بسكرة، كما أرسل الأب "ريشارد" نحو **تقرت**، **وورقلة**، وقام ببعث الأب "باسكال" إلى البيض، ثم أمرهم بعد ذلك بوجوب التقدم نحو بسكرة، غرداية، متليلي، والمنيعة، كل ذلك كان بعد سنتي:

(32) ينظر: الجناحي الحبيب، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد 16، 1974م، ص: 29؛ ومرجاني عبد القادر، السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م، ص: 129.

(33) ينظر: مرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 130.

(34) ينظر: مزيان سعيدي، النشاط التبشيري للكاردينال لافيجري في الجزائر 1867م-1892م، ص: 388؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 130.

1872-1873م[35].

إنَّ من أهم مظاهر تواجد المدِّ التنصيري في الجنوب الشرقي الجزائري، واهتمامه البالغ بهذه المنطقة تأسيس هيئات تبشيرية، وأبرز هيئتين أنشأهما لافيجري في هذه المنطقة:

- **جمعية الآباء البيض (Père Blancs):**

حيث أسس لافيجري جمعية مبشري الجزائر (La Société Missionaires d'Alger)، أو الآباء البيض عام: 1874م، مستغلاّ ظروف المجاعة، والقحط الشديد الذي ألم بالبلاد عام: 1867م، وسميت بهذا الاسم نسبةً إلى الزي الأبيض الذي كان يلبسه أعضاؤها، والذي يشبه تماما الزي العربي في ذلك الوقت، إلا أنَّ التسمية الحقيقية التي أطلقها عليها مؤسسها آنذاك هي "جمعية مبشري السيدة الإفريقية"، أو "مبشروا الجزائر"، أما عن دستورها؛ فهو يقع في ستة فصول، وغُيِّر فيه في العديد من المرات، إلى أن استقر في صيغته النهائية، عندما صادق عليه البابا سنة 1885م، وفي عام 1874م استكملت هاته الجمعية تنظيمها، وبدأت في تأسيس مراكز لها بجنوب البلاد: بسكرة، الأغواط، متليلي، والأبيض سيدي الشيخ[36].

- **فرقة إخوان الصحراء المسلّحين:**

فقد مثَّلت بسكرة نقطة ارتكاز فرنسي لانطلاق الدعاية التنصيرية، وقد ساعد إنشاء كنيسة بها سنة: 1854، واتخاذ لافيجري لها مقر إقامة شتوية له في ظهور فرقة إخوان الصحراء المسلّحين، وهي فرقة دينية مسلحة، تتولَّى حماية أعضائها، وتتمتع بنظامٍ ديني عسكري صارم، كما بنى لافيجري بها الزاوية المسيحية، أو بيت الله[37]. ويمكن اعتبار الموقع الجغرافي الاستراتيجي لكل من بسكرة، وجنوب غرداية، وتقرت السبب الرئيس في اختيار الاستقرار بها، كون هذه المواقع تعتبر كمحطات لالتقاء القوافل، ما يسمح للآباء الانتقال معها عبر الصحراء لمزيد من الاستكشاف والتوغل، ولم تمر سنة : 1878 حتى تمكن الأبوان: "ريتشارد" و"كرامبون" من تنصيب مقرهم بورقلة، والذي ضم مدرسةً، ومصحّةً، وورشةً للنسيج، تديرها الأخوات البيض، وورشَة للذكور، بها آلات النسيج الميكانيكية، وفي سنة: 1930م وصل عددهم سبعة وعشرين أبا، وأربعة وأربعين أختا، ومن السكان بلغ العدد خمسين متنصّراً جديداً[38].

3-3. سياسة فرنسا لتنصير الشعب الجزائري من وجهة نظر الشيط الزاهري:

---

(35) ينظر: مزيان سعيدي، مرجع سابق، ص: 16؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 130.

(36) ينظر: تشايجي عبد الرحمن، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ص :97؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 133.

(37) ينظر: مزيان سعيدي، مرجع سابق، ص: 351؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 134.

(38) ينظر: داود عمر، الحركة التبشيرية في الجزائر -نشاط الآباء والأخوات البيض في غرداية أنموذجاً-، ص 60-61؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 130.

أمَّا بالنسبة للطرق، والوسائل التي انتهجتها فرنسا في سبيل تنصير الشعب الجزائري، وسلخه من هويته الإسلامية في منظور الشيخ الزاهري -رحمه الله- فهي كالتالي:

أ- الدعاية المغرضة ضد مدارس جمعية العلماء المسلمين:

قال الزاهري: "ومنهم من يمسك ولده بدعوى أن الإصلاحية لا تعلمه إلا الكفر بالله، وبالأولياء، ثم يذهب به إلى المبشرين المسيحيين، أو المبشرات المسيحيات، وهذه عادة شائعة في وهران، يرتكبها حتى الأغنياء، والمستورون كما يفعلها العاطلون"[39].

ب- سياسة الوعد والوعيد:

وهذه سياسة اتخذها المنصِّرون لإغراء أولاد المسلمين الصغار، واحتوائهم؛ لأجل تنصيرهم، قال الزاهري: "ولا تزال هؤلاء المبشرات يستلمن صغيراتنا المسلمات بألوان من الهدايا، والهبات الصغيرة بمناسبة الأعياد الدينية المسيحية، وبطرق مغرية تحبِّب إليهنَّ السيد المسيح، وتزينه في قلوبهن"[40]. وقال أيضا: "كان يوم 23 ماي الأخير يوم حزن وحداد على المسلمين في عاصمة الجزائر...لقد بذل القائمون على هذه الاحتفالات أقصى ما يمكنهم أن يبذلوه من الجهود، والنفقات ؛ ليجعلوها شائقة فخمة، تجمع كل أسباب البهرجة والأبَّهة والجلال، ليعظموا في أعين الناس، وليغمرهم الناس بالمدح والثناء على ما عملوا من تبشير، وتنصير وليقدر المسيحيون الكاثوليك أعمالهم هذه، فيمدونهم بالمال من جديد، ويجزلون لهم الأجر والثواب"[41]. فإذا لم تنفع سياسة الإغواء أظهروا سياسة التهديد، قال الزاهري -رحمه الله-: "فهذا صاحب مقهى عربي؛ يهددونه بانتزاع الرخصة إن لم يبادر بمنع كريمته من دخول الإصلاحية، وهذا موظف بسيط أفهموه أن في إمكانهم طرده، وقطع رزقه إن لم يسرع إليهم بإرسال بنته، التي تقرأ في الإصلاحية وهكذا"[42].

ج- سياسة الاستغلال:

ومن الأدلة على ذلك انتشار هذه الحركة في الأزمات كالمجاعات، قال الشيخ الزاهري: "وكان أكثرهم أطفالا صغارا قد عجز آباؤهم، وأولياؤهم أن يقوّتوهم أو أن يقوموا لهم على ضرورياتهم، فالتقطهم المبشرون المسيحيون، واستغلوا جوعهم، وضعفهم فاستولوا عليهم واحتلوا منهم العقائد، والقلوب، وكنت أنا أراهم يمرّون، فقلت في نفسي: إن أولياء هؤلاء الأطفال لم يتركوا أولادهم هؤلاء؛ إلا بعد أن بلغوا هم من الفقر، والشقاء حالة ليس

---

(39) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، جريدة البصائر، العدد: 6، يوم الجمعة 13 ذي القعدة 1354هـ/7 فيفري 1936م، ص: 3.

(40) المرجع نفسه.

(41) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، السنة الأولى، العدد الثاني، يوم الاثنين 01 ربيع الثاني 1352هـ، ص: 6.

(42) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين مرجع سابق، ص: 3.

وراءها حالة أسوأ منها، وأن هؤلاء المبشرين المسيحيين لو راعوا الهمة، والرجولة لما رضوا لأنفسهم أن يستفيدوا مما يصيب الناس من المصائب، والنكبات، وأفضيت بهذا القول إلى مسلم كان واقفا إلى جانبي فسمعني أحد المسيحيين فقال لي: يظهر أن هؤلاء الآباء قد أحسنوا إلى هؤلاء الأطفال، وأحسنوا إليكم أنتم أيضا بذلك، فقلت له: كلاّ، لم يفعلوا مع هؤلاء الأطفال خيرا يريدون به وجه الله، ولكنهم أطعموهم من جوع ؛ لحاجة في نفس يعقوب، على أنهم قد سلبوهم إيمانهم،وإسلامهم في مقابلة ذلك، ولمّا تنصر هؤلاء، وتركوا الإسلام ؛ فالإحسان إليهم ليس بإحسان إلى الإسلام، ولكنه إحسان إلى المسيحية نفسها... إنما تركوا الإسلام إلى النصرانية حينما كانوا - كما لا يزال أكثرهم - ذرّية ضعافا، ما لهم من أولياء يواسونهم عند الحاجة الشديدة، والضرورة القصوى، أو حينما كانوا يتامى قاصرين ؛ لا يجدون لأنفسهم على نوائب الدهر مواسيا، ولا معينا، ولا وجدوا لهم بين هؤلاء المسلمين وليا،ولا نصيرا، وما أنت بواجد بين الضعاف القاصرين، أو اليتامى، ولا واحدا يتنصّر،وله ولي يحبه من هؤلاء المبشرين مهما كانت منزلته في اليتم، والضعف، والقصور"[(43)]. وهذه السياسة مشهورة، واهتبال فرص الفقر، والجوع، والمجاعة هو السبيل الوحيد لصرف الجزائريين عن الإسلام إلى النصرانية. وقال أيضا: "إنَّ المسلمين لا يمكن أن يتركوا الإسلام ويتنصَّروا، لقد وقعت مجاعاتٌ عديدةٌ في القرن الماضي في الجزائر، انتهز الكاردينال لافيجري -مؤسس إرساليات الأباء البيض- الفرصة لتنصير أطفال المسلمين؛ حيث التقط من مخالب المجاعات أربعة آلاف طفل صغير دون العاشرة"[(44)].

د- تركيز دعاة التبشير على الأطفال:

وهذا لقلَّة عقولهم، وضعف حصانتهم وحاجتهم، قال الزاهري: "ويرجعن بالصغيرات المسلمات على مراكز التنصير، والتبشير المسيحي... ويحرص المبشرون المسيحيون كل الحرص على جلب من في الإصلاحية؛ ولا سيما البنات بكل وسيلة. وقد أقبل المسلمون على دور التنصير هذه بناتهم وأبنائهم بصورة مروّعة، ففي مركز واحد عدد يتراوح بين المائة والثلاثين، وبين المائة والثمانين بنتا عربية مسلمة"[(45)]. وقد استوقفه موقف المتنصِّرين من أبناء الجزائر في حفلٍ أقامه رجال الكنيسة فرحاً، وبطراً بنجاحهم في سلخ عدد من شباب الجزائر عن دينهم، ثم ذكر سبب تنصُّر هؤلاء بقوله: "فهؤلاء المرتدُّون لم يتركوا دينهم القيِّم حبًّا في النصرانية، ولكنهم تنصَّروا ضعفاً، وجهلاً، وحبًّا في الخبز... وتركوا الإسلام إلى النصرانية، حينما كانوا -كما لا يزال أكثرهم- ذريةً ضعافاً ما لهم من أولياء يواسونهم عند

(43) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 6.

(44) الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 83.

(45) نفسه.

الحاجة الشديدة، والضرورة القصوى"[46].

هـ- علم دعاة التبشير بتقتير بعض الأغنياء وضنهم بأموالهم:

من أسباب تنصر أولاد المسلمين، إمساك، وضنُّ المسلمين بأموالهم، قال الزاهري -رحمه الله-: "وإن أحدهم ليرسل إلينا بولده ذكرا أو أنثى، فلا نالوا جهدا في تربيته وتعليمه شهرا، أو شهرين، فإذا جاء محصل الاشتراكات أمسك إليه ولده، واعتذر عن عدم السداد بوقوف الحال، ووعد بأنه سيدفع ما عليه متى تيسر... وكان عضوٌ بلديٌّ وهو من أغنياء وهران، ووجهائها، ومن المقربين إليّ والمتحمِّسين لي وللإصلاحية قد أرسل إلينا بأطفال هو وليهم، وتعهد بأن يؤدِّي هو عنهم ما يجب من أقساط الاشتراك، فكانوا يحضرون دروسنا بالإصلاحية أربعة أشهر، ثم انقطعوا عن الحضور من غير أن يدفع إلينا الولي ولا سنتيماً واحداً، وهو معترف بما عليه، وبعد لا يفي، ونحن لا نزال ننتظر منه الأداء، وهو لا يزال ينتظر منا أن ننسى"[47].

و- الدعاية الكاذبة، وإلقاء الشُّبه في أوساط الشباب:

وذلك من خلال استغلال سذاجة ودروشة بعض المنتسبين للطرقية، وزعم أنَّ التصوف في الدين الإسلامي هو نفسه التصوف في دين النصارى، فهما شيءٌ واحدٌ، وينبعان من مشكاة واحدةٍ، ثم يروي قصة ذلك الشاب الفاسي الذي جازت هذه الحيلة عليه، وهو شاب من أسرة مشهورة بالدين،والصلاح والتصوف، وذكر سبب تنصره أنهم دخلوا عليه من باب "أنَّ روح الإسلام هي التصوف، وأن هذا التصوف إنما هو نفس المسيحية"[48]. ثم إنَّ تجارة المنصرين الرائجة هي دعاياتهم الكاذبة، قال الزاهري: "ثم إنهم أرسلوا في المقاهي والأسواق أناسا من المسلمين ينشرون دعوتهم، ويذكرون بمناقبهم وبأعمالهم الصالحات، كما يذكرون الصالحين الأخيار.." [49].

3-4. جهود الشيط محمد السعيد الزاهري في كشف عوار المنصِّرين:

إن إنكار رواد الإصلاح الديني في الجنوب الشرقي الجزائري على دعاة التنصير أمر شائع لا يمكن إخفاؤه، وحسنة لا تُنسى، وقد أفردت لجهودها رسائل، ومصنفات[50]، ويبرز في

(46) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 6.

(47) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، مرجع سابق، ص: 3.

(48) الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، ص 114، وينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 80.

(49) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، مرجع سابق، ص: 3.

(50) ينظر مثلا: حباسي شاوش، من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر: 1830م-1082م، ورحمون نعيمة،وحريش حدَّة، أساليب ووسائل التنصير المعاصرة -الجزائر أنموذجا-، وبقطاش خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر:1830-1871م، وأحمد دومة، التنصير في الجزائر، وغيرها كثير.

هذا المجال جليًّا فضيلة الأستاذ الشيخ محمد السعيد الزاهري، كأهمّ المناوئين لهذه الظاهرة الخطيرة، والفاضحين لمخططات أربابها، في كثيرٍ من كتاباته الصحفية، والمناسبات، وقد اتخذ في سبيل ذلك مسارات، نذكرها في هذا المبحث:

أ- التنديد بالتبشير على صفحات مجلات جمعية العلماء المسلمين:

وهذه من أقوى الوسائل التي سلكها الشيخ، وذلك عن طريق المقالات، والتصنيف والتأليف، وله نقولٌ، وردودٌ كثيرة على دعاة التنصير، بل أفرد لهم مصنفاً في كشف غوائلهم عنوانه: "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير". قال الزاهري: "أيها المسلمون الجزائريون إنها لكبيرة من الكبائر، وعظيمة من العظائم أن يتنصّر ألف وسبعمائة مسلم ؛ هم من صميم الإسلام في وطن كالجزائر، كلّ أهاليه مسلمون لا يوجد بينهم -ولا واحد -غير مسلم، ونحن بعد ذلك ندّعي أننا من أشد الناس تمسُّكا بالإسلام، يجب أن نعالج هذا الداء بالوسائل العادلة المشروعة قبل أن يستفحل، ويعظم أمره علينا، فلا نستطيع أن نداويه، أو أن نتلافاه، إن هذا العدد من أطفالنا المتنصّرين هو عدد كبير جدا، ولا يزال يتزايد كل يوم، وإن استمر هكذا فإننا نخشى على مصير الإسلام في هذه الديار، أيها المسلمون الجزائريون؛ كيف نرى أطفالنا، وأفلاذ أكبادنا يفتنونهم عن دينهم، ويصدونهم عن سبيل الله، ثم لا نتحرك إلى إنقاذهم، ولا تذهب أنفسنا عليهم حسرات!!

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان"[51].

وكتب مندِّداً بسياسة التنصير التي سلكها دعاة التبشير، متَّهما الإدارة الحاكمة بدعم التنصير: "وهم في الواقع لا ينشئون مدارس ولا مستشفيات، كما تفهمه من هذه الأسماء، بل هم ينشئون بين أوساطنا الإسلامية، والعربية مراكز للتنصير والتضليل". والأخطر من هذا عند الزاهري: "...أن نرى السلطة تشترك في المآدب، والحفلات التي يقيمها هؤلاء المضللون كلما فتحوا في هذا البلد الإسلامي مركزا للتنصير، والتضليل، وهذا معناه أن هذه السلطة -وهي علمانية -تحمي هؤلاء المضلّلين، وتساعدهم في الاستيلاء على عقائد المسلمين.."[52].

ب- تدريس أولاد المسلمين مجانا:

من الوسائل أيضا تحصين الأولاد بالعلم النافع، وتحمّل كل غالٍ، ورخيصٍ في سبيل تعليمهم، قال الزاهري: "ولقد جربنا هذه الوسيلة في الإصلاحية فقبلنا عددا من البنين، والبنات مجانا، ووزعنا عليهم، وعليهن الأقلام، والألواح السوداء، وأشياء أخرى تلزمهم، وتلزمهن للقراءة مجانا أيضا، زيادة عن كون الإصلاحية قد شملت برعايتها، وإحسانها عددا

(51) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 7.

(52) الزاهري محمد السعيد، الموقف السياسي الحاضر، مجلة الشهاب، الجزء 9، العدد :140، 12 ديسمبر 1931، ص: 793.

من اليتامى، واليتيمات؛ تعلمهم، وتزكيهم، وتكسو بعضهم لوجه الله، فنجت التجربة نجاحا باهرا، وأقبل علينا الناس بأبنائهم وبناتهم إقبالا منقطع النظير، حتى أولئك الذين هم أشد الناس عداوة لمشروعنا؛ فقد جاءونا بأطفالهم"[53]. ولاشك أنَّ إقبال أولاد المسلمين على المدارس الإصلاحية يجنِّبهم الانضمام إلى المدارس الفرنسية، وبالتالي يقطع الطريق على دعاة التبشير، الذين يدسُّون السُّمَّ في العسل، ويقي النشأ من براثن التنصير.

ج- **نقد السلطة الحاكمة:**

وهذه وسيلة أخرى اتخذها رواد الإصلاح لدفع باطل المنصِّرين على أساس أنَّ الدولة لائكية لا تتدخل في أديان الناس، فقال الزاهري: "والحكومة أيضا وهي حكومة لائكية، تحمل هي الأخرى على عاتقها من مسئولية هذا الأمر نصيبا موفورا، فهي لم تقم بواجبها من كفالة الأطفال المسلمين ورعايتهم فكانوا ضحايا البؤس والحاجة، وأصبحوا فريسة للمبشرين....إن فرنسا العلمانية لم تعترض على دعاة النصرانية؛ إذ قاموا يشنون الغارة على ديننا، ويختطفون أطفالنا،ويختلسون منهم ما في قلوبهم من عقيدة وإيمان، أفليس من العدالة والإنصاف أن تتركنا أحرارا في الدفاع عن ديننا، وفي حماية عقائدنا، وعقائد أطفالنا من عادية المعتدين؟ "[54].

د- **كشف الشبهات:**

وهذه وسيلة أخرى قائمة على العلم، ومجابهة الدليل بالدليل، وقد كان للشيخ الزاهري -رحمه الله- النصيب الأوفر في رد شبهات المنصرين، قال -رحمه الله-: "يقول خصم الإسلام: إن أهالي الجزائر -ولا سيما أهالي زواوة- كانوا نصارى قبل أن يكونوا مسلمين، ويزعمون أنهم لا يخلصون الود لفرنسا إلا إذا عادوا نصارى كما كانوا. ولهذا يطلبون من الحكومة أن تساعد الآباء البيض على تنصير من في هذه الأرض من المسلمين جميعا. ونحن نقول:

- إنَّ هذه الدعوى باطلة يردها الواقع الذي أثبت أن هؤلاء المسلمين قد قاتلوا مع فرنسا، وأظهروا لها الإخلاص في كل المواقف، ولم يمنعهم إسلامهم أن يخلصوا لها المودة، على حين إن الألمان المسيحيين قد قاتلوا فرنسا، ولم تمنعهم مسيحيتهم من أن يناصبوها العداوة والبغضاء، ومع ذلك فإن هؤلاء المسلمين ما زالوا يعيشون مع فرنسا في أحوال استثنائية تحكمهم بالقرارات، والمناشير، وليس بالشرائع والقوانين...[55]،

- إنه من الخير لفرنسا أن يبقى هذا الشعب عربيا، مسلما، يقاسمها السراء والضراء،

(53) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، مرجع سابق، ص: 3.

(54) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 7.

(55) المرجع نفسه.

وليس من الخير لها أن يترك الإسلام، ويعتبر مسيحيا لا يرضيه منها شيء، على أن هذه الغاية المسيحية التي يسعى إليها المبشرون هي غاية بعيدة جدا ؛ لا يمكن أن تنالها أيديهم، فهذه الأمة العربية المسلمة ؛ إن لم تستيقظ اليوم فلا بد أن تستيقظ غدا، ويومئذ تعرف ما هي الوسائل والتدابير التي تتخذها لدرء أخطار التبشير، والمبشرين الذين لا يعملون إلا للاستيلاء على الضعاف ولإغراء القاصرين"[56].

هـ- بيان أخطار التبشير:

كتب الشيخ الزاهري مقالا في جريدة **"الشريعة"** وهي لسان حال علماء الجمعية ما يلي: عِبرٌ لمن يعتبر روح الإنجيل غذاء لروح البربر ... ! من مجلة (المغرب الكاثوليكي)

"إن البرابرة قريبون من الإنجيل، وأساطير الإنجيل التي تفيض بحياة الرجل، تصف حياة شبيهة بحياتهم، وأمثال الأناجيل تشبه كثيرا من أمثالهم، وإن حياتنا الخلقية الفرنسية قد كيفتها وصبغتها المسيحية - أي: أحسن ما في الإنجيل- فلم لا يكون الإنجيل إذن هو مركز الاتصال الذي تلتقي فيه الروح البربرية والروح الفرنسية، اللتان تنشد إحداهما الأخرى ... !". فتيان البربر أبناء جنس لطيف! -تنصير العرب بعد البربر- الأب (شارل دوفوكو) إمام من أئمة الكاثولوكية، وداعية خطير من دعاة الاستعمار الفرنسي، وقد خصص له كتابا الأكاديمي الشهير **(روني بازان)** شرح فيه شخصية الأب فوكو بصفته رحالة من رحالي الصحراء، ويحدثنا عن هذه الشخصية **(هنري بوردو)** الكاتب الفرنسي الذي احتفلت به مصر في الأيام الأخيرة ... فيذكر لنا رحلته في المغرب، وأنه أدى لفرنسا أعظم خدمة بما حمله من هذه الرحلة من وثائق عن المغرب وبالخريطة، العظيمة إذ ذاك، التي رسم فيها جميع الجهات المغربية، ويقول: أنه لولا خريطة (الأب فوكو) ووثائقه عن المغرب، التي قدمها للحكومة الفرنسية لكان احتلال فرنسا للمغرب من الصعوبة بمكان! (وهنري بوردو) يقاربه (بالكولونيل بوتان) الذي أرسله نابليون إلى إفريقيا ليخطط رسما تحضيريا لفتح الجزائر. هذا الأب الذي يقدسه رجال الاستعمار الفرنسي، ويحفظون له مكانا بين فاتحي المغرب ... قد وضع مبدأ آخر لإعداد فتح جديد، وخلاصة هذا المبدأ مجملة في كلمته الآتية: "إن الفتيان البرابرة أبناء جنس لطيف، وهم مستعدون لقبول الروح (اللاتينية) التي انتموا إليها في العصور الخالية ... إن البرابرة ليسوا متعصبين ولا جاحدين، وإن دخولهم في المسيحية هو الذي يعيد العرب ويدخلهم إليها مكرهين... رجل كهذا شارك في فتح المغرب العسكري وأعد الوسائل لفتحه الديني، ألا تخلد ذكراه بين المغاربة وفوق الأرض المغربية...؟ بلى إنه جدير بالخلود، ومن يستخلد ذكراه؟ يخلدها صديقه ليوطي الذي اشتغل معه في عين الصفراء على الحدود المغربية الجزائرية، والذي أصبح حاكما فرنسيا في المغرب... ففي 30 ديسمبر 1922 دشن اليوطي النصب التذكاري، الذي أقامه للأب فوكو في الدار البيضاء؛

---

(56) المرجع نفسه.

أعني المدينة التي منها دخلت الجيوش الفرنسية الفاتحة، فهدمت أسوارها وأثخنت في المغاربة رميا بالرصاص وضربا بالسيوف، وقد جعل تذكاره في لوحة من **المرمر** بالحديقة التي يطلق عليها الفرنسيون حديقة ليوطي[57].

الحاصل أنَّ رواد الفكر الإصلاحي في منطقة الزيبان تصدوا لهذا المنكر العظيم، ولاقوا في سبيله كل بلاء ومشقة، قال الشيخ محمد السعيد الزاهري رحمه الله: "كل هذه الصعوبات كنا نحتملها، ونستعين عليها بالصبر الجميل، لو لم يقم في وجه الإصلاحية ما هو أدهى وأمر؛ أعني هذه المنافسة القاسية الشديدة التي تقوم بها مراكز التنصير، وجمعيات التبشير المسيحي التي تبذل جهودا عظيمة، وتقوم بأعمال كثيرة بين الأوساط الإسلامية ، فقد عرفت مكان الضعف من هؤلاء المسلمين"[58].

و- انتقاده لشيوخ الطرق الصوفية المتآمرين مع دعاة التنصير:

يتّهم الشيخ الزاهري الطرقية بوصفهم متآمرين، ومتعاونين مع دعاة التنصير، بل يرى أنَّ الفضل في نجاح المنصِّرين يعود لدعم الطرقية لهم، فأنكر -رحمه الله- زواج أحمد التجاني بأورلي بيكار بمباركة من الكاردينال لافيجري، وقد رأى هذا الكاردينال خدمة للتبشير المسيحي بالجزائر، وتم عقد النكاح على الطريقة الفرنسية في الكنيسة سنة: 1870م، ويكون بذلك التجاني أول جزائري مسلم تزوج بمسيحية أجنبية، وبعد وفاة الشيخ أحمد التجاني تزوجت هذه المرأة بأخيه، وخليفته من بعده[59]. وفعلاً؛ فقد ساهمت هذه السيدة الفرنسية في دعم التنصير، خاصةً وأنَّ الزاوية كان لها نفوذٌ كبير، فتدعَّموا ماليا، ومعنويًّا، وسهَّل لهم مريدوا الزاوية نشاطهم في كلِّ مكانٍ تحت نفوذهم.

ثم هو يعيب على شيوخ الطرقية ويحمِّلهم مسؤولية هذه الهجمة التنصيرية بقوله: "إنَّ الأغنياء من أشياخ الطرق الصوفية الذين جمعوا من فقراء المسلمين -باسم الصدقات، والنُّذور، والزيارات- أموالاً طائلةً بدعوى أنهم سيصرفونها في أوجه البرّ، وفي خير الإسلام والمسلمين، ثم أسرفوا على أنفسهم، وأنفقوها في الأهواء والشهوات، وبذلوها هباتٍ، وهدايا إلى من لا يستحقِّونها، ولم ينفقوا منها في سبيل الله، هم المسؤولون على الخصوص أمام الله عن هذا المصاب الذي حلَّ بالإسلام في هذه البلاد؛ لأنَّهم -من حيث يشعرون، أو من حيث لا يشعرون- يعاونون المبشِّرين على تنصير فقرائنا وضعفائنا، فلو أنهم آمنوا، واتَّقوا، وأنفقوا هذه الصدقات، والنذور، والأموال في أوجه الخير التي جُمعت لها؛ من إنشاء الملاجئ

(57) الزاهري محمد السعيد، أخطار التبشير، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العدد: 3، يوم الإثنين 8 ربيع الثاني 1352هـ/31 جويلية 1933م، ص: 6.

(58) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، مرجع سابق، ص: 3.

(59) ينظر: الزاهري محمد السعيد، إلى زيارة سيدي عابدا!، مجلة الصراط، العدد: 6، يوم الاثنين 4 رجب 1352هـ الموافق لـ 23 أكتوبر 1933م، ص: 5-6.

للضعفاء والمعوزين، ومن فتح المدارس، والكتاتيب يتعلَّم فيها الأطفال المسلون أمور دينهم، ولم يأكلوا هذه الأموال بغير حقِّها؛ لما أمكن للمبشِّرين -بحالٍ من الأحوال- أن يظفروا بتنصير هذا العدد الكثير من المسلمين"[60].

ز- محاربة الفرْنسة والتغريب اللذين هما طريقا التنصير:

لقد أيقن الشيخ -رحمه الله- أن الفرنسة والتغريب يؤديان إلى الإدماج، والقضاء على الهوية الإسلامية الجزائرية، وهما أيسر سبيل لردة الجزائريين، خاصةً منهم الشباب، فراح يحذِّر منهما، ويكشف عوارهما، فقال -رحمه الله-: "وهؤلاء المستعمرون يعمدون إلى كل مكرمة من مكارم الجزائر المسلمة فيمسخونها مسخا، ولا يزالون بها حتى يخرجونها نقيصة ؛ يحطّون بها من كرامة الجزائر، وعار يعيبون به آبائنا الجزائريين"[61].

وتساءل -رحمه الله- فقال بأننا: "إذا تركنا ديننا ونبذناه ظهريا وانسلخنا من عوائدنا، وأخلاقنا أنكرنا كل صلة تربطنا بآبائنا الأولين، ثم تهافتنا على هذه الحضارة الغربية، فتفرنجنا، واندمجنا، وأسرفنا في التفرنج والاندماج، حتى **يغمر التفرنج** والاندماج منا كل شيء، وحتى لا تكون علينا سمة من سمات الإسلام، وحتى لا يبقى عندنا ما يصح أن نتسمى به **مسلمين**، فهل نكون يومئذ بعدما خرجنا من ذاتيتنا ومسخنا عن أنفسنا، وقد تمدنا وترقينا؟؟ ... والجواب أننا لا محالة نصير إلى الموت، والاضمحلال وبئس المصير"[62]. كما يرى الشيخ الزاهري أن تعليم البنات في المدارس الفرنسية وبال على المجتمع الجزائري؛ حيث إنَّ البنات الجزائريات اللاتي يتعلمن في المدارس الفرنسية لا يتعلمن إلا التمرد والعصيان، ويرى خطر هذا التعليم الزاهري أيضا، من زاوية أخرى، وهي زاوية التفرنس وتأثيره على البيت المسلم، وهذا التفرنس يؤدي لا محالة إلى خطر الإدماج، والقضاء على الهوية الوطنية، وحتى المغاربية، وذلك بالقضاء على اللغة العربية من اللسان الأم، أو المربية، لذلك يزداد الخطر أكثر إذا أرسلت البنات لمثل هاته المدارس[63]. ومن مآثر الإنكار والاحتساب للشيخ الزاهري نقده لجمعيات الإلحاد، وقصته مع أحد مندوبي جمعيات الإلحاد، ومناوأة الأديان، ونقده له مشهورةٌ، فقد دار نقاشٌ حادٌّ بينهما؛ حيث قال الملحد: "وإنه ليسرنا أن نرى اليوم رجال الشرق الإسلامي يخرجون من الإسلام، ويرقون إلى مصاف الملاحدة، الذين هم الطبقة المستنيرة المفكرة في كل عصور التاريخ"[64].

وقد عمد هذا الملحد، وانتقد الصلاة، والصوم، والحج....ورمى المسلمين

---

(60) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 7.

(61) الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 26.

(62) نفسه، ص: 44.

(63) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 126-127.

(64) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 110-111.

بالجمود...ودعا إلى التمتع بالحضارة الغربية اللامعة، وتكلم عن التجديد، وتمنّى أن ينتصر السفور على الحجاب، ودعا إلى تحرير المرأة. وكان الزاهري من بين الحضور، فانبرى له، ورد مفترياته، ودحض شبهاته وهي[65]:

- **نسبة القرآن إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم:** حيث أرجع الزاهري هذه الفرية إلى الاستعمار الذي يزعم أن القرآن من عمل الرسول **صلّى الله عليه وسلّم** لا من عند الله ؛ لكي يهوّن من قيمة هذا الكتاب العظيم، ويزعم أن محمدا كان يعرف القراءة، والكتابة، ويدرس الكتب القديمة؛ لكي يصحّ أن يكون هو الذي عمل القرآن، وهي نفسها شبهة المشركين، تلقفها عنهم هؤلاء الملاحدة ؛ فصاروا يلوكونها، ويذيعونها في أوساط الشباب المتفرنجة. ثم أفاض الزاهري في فضل القرآن ومعجزاته، ثم طلب من الحاضرين أن يقرؤوا القرآن بأنفسهم؛ لكي يتيقنوا أنه من لدن حكيم حميد.

- **أمّية الرسول صلّى الله عليه وسلّم:** وردت في القرآن والسنة ما يدل على أمّية الرسول، وجاء وصفه بها في الكتب السماوية، وأقر بها القساوسة والرهبان[66].

واستطاع الزاهري أن يفحم هذه الشبهة بجدالٍ علميٍّ رصينٍ، يدل على ثقافته الواسعة[67].

وللوقوف في وجه هؤلاء الأعداء يقترح الزاهري، تأسيس معهدٍ إسلاميٍّ يزوِّد الشباب الجزائري المسلم- وخاصة ذوي الثقافة الفرنسية - بالمعلومات الكافية، ويعرفهم بتعاليم دينهم ؛ لكي يكونوا نصرة له بأقلامهم، وألسنتهم [68]. كما كان يحثُّ الشباب أن يتعلموا الإسلام من أفواه أهله، لا من أفواه المستشرقين،وكتاباتهم، ففي رأيه أن أدنى المسلمين علما بالإسلام، وبالمسلمين خيرٌ من هؤلاء جميعاً[69]. ولم يُغفل الشيخ الزاهري الحديث عن التغريب وأدعيائه، وقد تعمَّق في الرَّد عليهم، ومقاومتهم، وبيان خطر الاستلاب الثقافي الحاصل لشباب الأمَّة، ولعل سبب ذلك هو ارتباطه المباشر ببعض هؤلاء التغريبيين في الجزائر، وكذا قربه من ساحات المعارك ضدّ هذه الفئات، لذا نجده يشنّع على هؤلاء ويفضحهم قائلا: "قرأتْ بالفرنسية، وتربت تربية غير إسلامية، حتى أنها لا تعرف الإسلام، ولا رجال الإسلام المشهورين؛ إلا من طريق اللغة الفرنسية، وأنت تعلم ما كتبه أئمة هذه اللغة –الفرنسية- من الهزؤ بالأديان، وبرجال الأديان، فنشأت هذه الفئة من شباب الجزائر لا تعرف الإسلام، ولا تحترمه، ولا تعرف التاريخ الإسلامي، ولا تعتزّ به ؛ بل لا تعرف تاريخ

---

(65) المرجع السابق، ص: 39.

(66) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 40.

(67) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 83-84.

(68) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 118.

(69) المرجع السابق، ص :44.

الجزائر، ولا تاريخ أسلافها في الجزائر"[70].

وقد سفَّه الزاهري هذه الفئة، وحذَّر من دعوتها الرّامية إلى ترك حضارة آبائهم المسلمين، والارتماء في أحضان حضارة الغرب اللامعة، معتبرا أن من يفعل ذلك كمن "لم يعجبه أبوه الذي ولده فيتركه، ويتخذ لنفسه أبا آخر لامعا جميلا" ثم يضيف متسائلا: هل يستطيع أحد "أن يخرج عن الطبيعة ؛ فيرضى بأبيه بديلا، أو قل فيرضى أن يكون ابنا لا أب له، فالذين يدعوننا إلى ترك حضارة آبائنا، إنما يدعوننا إلى أن نعلن على الملإ أننا ما لنا من آباء"[71].

وهذا الجواب لا يشكُّ في صدقه من علِمَ وخَبَرَ تاريخ الجزائر الحديث، فالاستعمار الفرنسي الذي استخدم في تحقيق أطماعه التوسعية سلاحين؛ سلاح الغزو المادي الذي تمثل في الإبادة الجماعية، وسلاح الغزو الأدبي، ووسيلته سموم المدنية الغربية، وهذه الوسيلة لم تكن أقل فتكاً من سابقتها، فهذا الاستعمار الذي أدرك بمكْرِهِ أن نفوس الجزائريين الثائرة؛ لن يكبح جماحها إلا إذا خدّرت أعصابها بأحدث ما أنتجته مخابر أوربا من جراثيم المسخ"[72].

وبعدُ؛ فإنَّ الشيخ الزاهري -رحمه الله- قد عرف عنه دفاعه عن الإسلام، وأهله من هجمات أعدائه، فكان صوته عاليا، وقلمه مشهّرا في وجه دعاة التنصير، والتغريب، ومن كان يسعى لسلخ أبناء الشعب الجزائري من هويته الإسلامية، والعربية، ومن عاونهم من أرباب الطرقية، وكانت إسهاماته الإصلاحية ترتكز على التصدي للغزو الثقافي بكلّ أشكاله، كما وقف في وجه المبشرين، والتغريبيين، ودعاة الفرنسة، وقفةً يخلِّدها التاريخ، وتكتب على صفحاته بماء العين، وأكرم بها من حسنة، وأيّ حسنةٍ تحسب لهذا الرجل.

4. خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبإحسانه تُستفتح العبرُ، والفوائدُ، والعظات، وبفضله تنتهي الكتابات، وتشرق النّهايات، وأصلي وأسلم على سيِّد البشرية، وخير البريَّة، الذي أخرج اللهُ به عبادَه من ظلمات الجهل إلى نور اليقين، ومن ذلِّ الشِّرك إلى عزَّة العبودية، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نخلص من خلال هذا البحث إلى أهم نتائجه:

- لم تختلف ترجمة الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله- كثيراً عن تراجم أهل الإصلاح، وأرباب الفكر والثقافة الجزائريين إبَّان الاحتلال الفرنسي، فقد نشأ في أسرة علمية، وثقافية، وتلقّى تعليمه الأولي بمدراس وكتاتيب قريته (ليانة) ببسكرة، فحفظ

(70) المرجع السابق، ص: 25.

(71) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 46.

(72) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 132.

القرآن في صغره، وتلقى مبادئ العلوم بها على أشياخه هناك، مرورا بالتحاقه بالمدرسة الباديسية بقسنطينة، ثم انتقاله للمرحلة التونسية الزيتونية، والتي تعدُّ أهم محطَّة في حياته، أين أخذ منطلقات فكره الإصلاحي الشمولي والوحدوي، بسبب أخذه عن أستاذة وعلماء الزيتونة، واحتكاكه بشخصيات فكرية وأدبية مختلفة، هناك حيث بدأت شخصيته الصحفية في السقل والنبوغ، ليعود إلى أرض الوطن، متنقلاً بين مدنه، مشاركاً في مهامٍ إصلاحية مع سائر إخوانه من علماء الإصلاح في جمعية العلماء المسلمين، في هذه المرحلة ظهر جليا نشاطه الصحفي، وذلك من خلال إنشاءه لجملة من الصحف والمجلات، ومشاركة في غيرها، وقد جند قلمه ونذر وقته وحياته لخدمة دينه ووطنه، في مجلات السياسة والأدب والاقتصاد وعلوم الاجتماع، سواء من خلال الكتابة والشعر، أو الانضمام للجمعيات والأحزاب، أو المساهمة في مجالات التربية، والتعليم، فنتج عن نشاطه هذا مقالات عديدة ومتنوعة، ومؤلفات مطبوعة أخرى غير مطبوعة، ومساهمات سياسية، واجتماعية كبيرة، ليرحل هذا الرائد المصلح مقتولاً غيلة يوم 21 ماي 1956م.

- لقد كانت الحركة الإصلاحية بمنطقة الزيبان؛ كغيرها من الحركات الإصلاحية المحلية- داخل الحركة الإصلاحية الوطنية الكلّية- معبرةً عن معارضة للسياسة الاستعمارية التي حاربت الشخصية الجزائرية،ومقوماتها اللغوية، والدينية، والتاريخية، وزادت رسوخا بفضل وجود نخبة جزائرية قادت النهضة الحديثة اعتمادا على النهضة الشاملة، وفي هذا الصدد تظهر جهود الشيخ محمد السعيد الزاهري في التصدي ومواجهة التنصير، وذلك من خلال التنديد بالتبشير على صفحات مجلات جمعية العلماء المسلمين، وتدريس أولاد المسلمين مجَّانًا قصد صرفهم عن مراكز التعليم الفرنسية، وكشف شبهات المنصِّرين، وبيان أخطار التبشير على الإنسان الجزائري، وانتقاده لشيوخ الطرق الصوفية المتآمرين مع دعاة التنصير، ومحاربة الفرنسة والتغريب.

وفي ختام هذه الخلاصة نوصي بما يلي:

- ضرورة الاهتمامِ بالفكر الإصلاحي في العالم الإسلامي عموما، ودراسةِ التراث الإسلامي الجزائري، وكلِّ ما من شأنه أن يبيِّن الصورة الحقيقية المشرقة للإسلام.

- حثُّ الباحثين والدراسين في مجال الدعوة، والفكر الإسلامي على دراسة الشخصيات الإسلامية العلمية، ودراسة منهجها وجهودها في مواجهة التيارات الدخيلة، والتَّصدِّي لمعالم التنصير، ومظاهر سلخ الأمة الإسلامية من ثوابتها الدينية، وطمس هويتها، حيث تعطي الباحثَ دافعًا في السير على ما سارت عليه تلك الشخصيات.

- محاولة التوسُّع في دراسة سيرته وآثاره، وذلك بالتركيز على الجوانب العلمية التي لم تتطرق لها الدراسات العلمية عن الشيخ محمد السعيد الزاهري، والتي تدخل في مختلف مجالات الإصلاح.

- ضرورةُ بعث تراث الشيخ -رحمه الله-، والاهتمام بِطباعة ونشرِ مؤلَّفاته، والبحث عن

مخطوطات مؤلفاته، ولو تصدى الباحثون لوضع مجموعٍ كاملٍ لجميع ما كتبه الشيخ -أسوة بسائر رواد الإصلاح- فإنَّ ذلك سيعمِّم الفائدة، وتكون خدمةً جليلةً للعلم والتراث في بلدنا، وذلك من خلال المؤسَّسات الثقافية والعلمية التي لها اهتمامٌ بمثل هذا الإرث العلمي والفكري.

هذا، ونرجو أن نكون قد وُفِّقنا للصَّواب فيما بذلناه واجتهدنا فيه، ولا ننسبُ ذلك لجهدنا وحِذقنا، بل هو محض توفيق الله تعالى، وتسديده، وعونه، وتيسيره، وإن كان غير ذلك فنرجو الله العفو، والمجاوزة، والسِّتر والمغفرة، وأن ينفعنا، وينفع بنا، وأن يصلح حالنا، وحال أمَّتِنا، ويختم بالصَّالحات أعمالنا، ويهدينا إلى سواء السَّبيل، وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، والحمد لله ربِّ العالمين.

5. قائمة المراجع

*** المؤلفات:**

- الإبراهيمي محمد البشير، الآثار، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:1، 1997م.
- ابن باديس عبد الحميد، الآثار، المحقق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط:1، 1388هـ-1968م.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ط : خ، 2007م.
- بن نعمان أحمد، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1981م.
- تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية: 1931-1956م ، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ط:1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1975م.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط: خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2007م.
- تشايجي عبد الرحمن، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، تر: علي اعزازي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ليبيا، د.ط، .198م.
- حباسي شاوش، من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر :1830-1082م، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت.
- حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ط:1، د.ت.
- الخرفي صالح، محمد السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1986م.

داود عمر، الحركة التبشيرية في الجزائر -نشاط الآباء والأخوات البيض في غرداية أنموذجاً-، دار نزهة الألباب، الجزائر، د.ط، .201م.

- الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، دار الكتب، الجزائر، د.ط، د.ت.
- الزبيري العربي، المثقفون الجزائريون والثورة، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، د.ط، 1995م.
- السنوسي محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، منشورات السائحي، الجزائر، ط:2، 1428هـ-2007م.
- صيد عبد الحليم، معجم أعلام بسكرة، دار النعمان، الجزائر، د.ط، 2014 م.
- عيساوي أحمد، جهود الشيخ العربي التبسي وآثاره الإصلاحية، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث، الجزائر، ط:1، سنة: 2013م.
- مصمودي فوزي، تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة وإقليمها من 1900 إلى 1954م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2006م.

- ناصر محمد، المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها، تطورها، أعلامها :من 1903م إلى 1931م، : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط:1، 1398هـ-1978م.
*** الأطروحات:**
- بقطاش خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830-1871م)، الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى ال 45 لعيد الاستقلال و الشباب،ط: خ، 1428هـ-2007م.
- بلعجال أحمد، (2005- 2006م)، الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد السعيد الزاهري، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري -قسنطينة، الجزائر.
- دومة أحمد، (1434هـ-2013م)، التنصير في الجزائر وتاريخه وأساليبه وسبل مواجهته، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
- رحمون نعيمة وحرش حدة، أساليب ووسائل التنصير المعاصرة (الجزائر أنموذجا)، مذكرة ليسانس في مقارنة الأديان.
- طبيش عبد الكريم، (2006- 2007م)، أدب المقاومة عند محمد السعيد الزاهري من خلال جريدة "البرق"، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري - قسنطينة، الجزائر.
- كحكاح يمينة، الحركة الإصلاحية في منطقة الزيبان "الشيخ محمد السعيد الزاهري" أنموذجا 1900-1956م، رسالة ماستر، شعبة التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2013م- 2014م،جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر.
- مرجاني عبد القادر، السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م، أطروحة دكتوراه، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،2019-2020م، جامعة الجيلالي اليابس - سيدي بلعباس، الجزائر.
- مزيان سعيدي، النشاط التبشيري للكاردينال لافيجري في الجزائر :1867-1892م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ الحديث والمعاصر، 1998-1999م،جامعة الجزائر، الجزائر.
*** المقالات:**
- بومديني محمد، محمد السعيد الزاهري ودوره الإصلاحي، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، م :5، ع :10، جوان2017 م.
- الجناحي الحبيب، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر، مجلة الأصالة، العدد: 16، الجزائر، 1974م.
*** الجرائد:**
- جريدة البصائر، العدد: 6، يوم الجمعة 13 ذي القعدة 1354هـ/7 فيفري 1936م.
- مجلة الشهاب، المجلد3، العدد: 133، 10 شعبان 1346هـ/ 2 فيفري 1928م.
- جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العدد 3، يوم الاثنين 8 ربيع الثاني 1352هـ/31 جويلية 1933م.
- مجلة الصراط، العدد: 6، يوم الاثنين 4 رجب 1352هـ الموافق لـ 23 أكتوبر 1933م.
- جريدة المنتقد. الجزائر، العدد: 5، الخميس 11 محرم 1344هـ/ 30 جويلية 1925م.

شهيد القلم الأديب أحمد رضا حوحو
ونضاله الوطني الإصلاحي

The martyr of the writer Ahmed Reda Houhou
and his national reform struggle

د/ الكاملة فرحات

مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر

جامعة الوادي (الجزائر)

ferhat-kamla@univ-eloued.dz



ملخص: خضعت الجزائر للاستعمار الفرنسي 1830م الذي قابله الجزائريون بضراوة تعبيرا عن رفضهم له، لكن سرعان ما تراجعت صورة المقاومة المسلحة للفوارق الكبيرة في تجهيز الطرفين العسكري، إلاَّ أن ذلك لا يعني بحال من الأحوال تقبل الجزائريين للمحتل، وإنما تم تغيير وسيلة المجابهة إلى المقاومة السلمية والتي عمت مختلف ربوع الوطن وإن تفاوتت في حدتها ، والجنوب الشرقي كان له حضوره في هذا المجال عبر النخب الوطنية التي حملت على عاتقها الدفاع عن الوطن وتشريح الظاهرة الاستعمارية وكشف دسائسها والعمل حثيثا للتخلص منها. ومن أشهر رجالات الإصلاح الذين برزوا في الجنوب الشرقي نجد الأديب والمصلح أحمد رضا حوحو إذ يعد علما بارزا إقليميا ووطنيا لما قدمه خلال مسيرته ونشاطه دفاعا عن وطنه المقهور من خلال كتاباته وخطبه التي ميزتها الشمولية في معالجة الشرائح الاجتماعية، والتنوع في الأسلوب كدلالة عن براعة الأديب وحنكته وصرامة موقفه من الاستعمار الأمر الذي سيكلفه حياته.

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مشوار الأديب والمصلح أحمد رضا حوحو ومعرفة مصادر تكوينه ثم إبراز محطاته النضالية وأهم ما قامت عليه أفكاره الإصلاحية، ومن أهم النتائج المتوصل إليها في دراسة مسيرة الأديب أحمد رضا حوحو هي التكوين المخضرم الذي حظي به الأديب وطنيا ومشرقيا، الأمر الذي سيصقل موهبته الإصلاحية المعبر عنها من خلال كتاباته ونشاطاته المختلفة.

الكلمات المفتاحية: النضال؛ الإصلاحي؛ شهيد؛ الأدب؛ المقاومة الفكرية.

Abstract :

Algeria underwent French colonialism in 1830 AD, which the Algerians met fiercely as an expression of their rejection of it. However, the image of armed resistance soon receded due to the great differences in the preparation of the military parties. However, this is by no means the Algerians' acceptance of the occupier. Rather, the method of confrontation was changed to peaceful resistance, which Pervaded in

different parts of the country, even if it varies in And the southeast had its presence in this field through the national elites who took upon themselves the defense of the homeland, dissecting the colonial phenomenon, exposing its intrigues and working hard to get rid of it. Among the most famous men of reform who emerged in the southeast, we find the writer and reformer Ahmed RedaHouhou, who is considered a prominent regional and national scholar for what he presented during his career and activities in defense of his oppressed homeland through his writings and speeches, which were characterized by comprehensiveness in dealing with social groups, and the diversity of style as an indication of the writer's ingenuity and sophistication And the strictness of his position on colonialism, which will cost him his life.
This study aims to reveal the career of the writer and reformer Ahmed Reda Houhou and to know the sources of his formation, then to highlight his struggle stations and the most important foundations of his reformist ideas. He will refine his reformist talent, which is expressed through his writings and various activities.
Keywords: struggle; reformist; reformist ; literature; intellectual resistance.

1.مقدمة

الجزائر أمة لها أصالتها وشخصيتها منذ القدم، وبمقدم الاحتلال الفرنسي وضع نصب عينيه طمس تلك الشخصية، وعمل جاهدا لمحو معالمها عبر إجراءات وأساليب عديدة تصدت لها جماعة الإصلاح في مختلف مناطق الوطن بما فيه الجنوب الشرقي الذي ظهرت فيه فئة حملت على عاتقها مشروع المحافظة على الثوابت الشخصية للأمة الجزائرية نذكر منهم أحمد رضا حوحو، هذه الشخصية الفذة في نشأتها ونشاطها، الأمر الذي يوجهنا لطرح الإشكالية التالية: من هو أحمد رضا حوحو؟ وما الدور الذي لعبه في المسار الإصلاحي؟.

2. التعريف بالأديب أحمد رضا حوحو:

يعتبر أحمد رضا حوحو من أهم الشخصيات الجزائرية العلمية المعاصرة التي كان لها دور كبير في مقاومة الاستعمار الفرنسي، فقد عمل جاهدا من خلال كتاباته القصصية والصحفية والأدبية على محاربة كل أشكال الخنوع والطمس الممارس من قبل الإدارة الاستعمارية على المقومات الشخصية للشعب الجزائري، وبذلك رسم معلما من معالم المقاومة الثقافية الفكرية والأدبية، كونه معلّما وكاتبا ومصلحا في كل مواقع المقاومة التي حل بها[1].

وقد ولد الأديب أحمد رضا حوحو في بلدة سيدي عقبة ببسكرة سنة 1911م، وفي هذه البلدة نشأ وترعرع في كنف عائلته، حفظ القرآن الكريم وأتقن اللغة العربية على يد شيوخ

1- يوسف قنفود وامحمد دراوي: محطات من المسار النضالي للأديب الشهيد أحمد رضا حوحو إبان الحركة الوطنية، مجلة البحوث التاريخية، مجلد 5، العدد 1، جوان 2021م، ص 266.

بلدته، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية الفرنسية في سن السادسة من عمره، وتعلم اللغة الفرنسية ومبادئها وتحصل على الشهادة الابتدائية في سنة 1922م أو 1923م، ثم واصل تعليمة التكميلي بالفرنسية في مدينة سكيكدة وتحصل على شهادة الأهلية (البروفي) في سنة 1928م، ولأمر ما لم يتابع تعليمه الثانوي وعاد إلى بلدته ليشتغل في البريد والمواصلات[2]. وفي سنة 1934م هاجر إلى الحجاز مع والديه وأخوته وزوجته، ليستقر هناك بالمدينة المنورة التي أتم بها أحمد حوحو معلوماته العربية في معهد العلوم الشرعية وتحصل على شهادته العليا سنة 1938م بامتياز ليعين مدرسا فيه لتفوقه على أقرانه، وفي سنة 1940م عين في إدارة البريد بمكة المكرمة.

ومن الحجاز انطلق نشاطه الفكري والأدبي في أول مقال نشر له عام 1937م في مجلة "الرابطة العربية" بالقاهرة وكان بعنوان "الطرقية في خدمة الاستعمار"، وواصل الكتابة بعد ذلك في مجلة "المنهل" السعودية المكية، حيث ظهرت له فيها عدة مقالات ومترجمات أدبية واجتماعية وبعض القصص والبحوث منها على سبيل المثال:" هل يأفل نجم الأب؟، ابن الوادي، الأديب الأخير، كما كان يترجم لهذه المجلة ما يروق له من الأدب الفرنسي[3].

وفي سنة 1945م رجع أحمد رضا حوحو من الحجاز إلى الجزائر بعد وفاة والديه، وبمجرد استقراره في وطنه انضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واستقر بمدينة قسنطينة، وعمل مديرا بها لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية التي تعد أم المدارس الإصلاحية بالقطاع الشرقي، ثم انتدب لإدارة مدرسة شاطودان سابقا (شلغوم العيد حاليا) التابعة لجمعية العلماء لفترة قصيرة ثم تولى منصب الكاتب العام لمعهد ابن باديس سنة 1947م، وانتخب عضوا عاملا في المجلس الإداري لجمعية العلماء، وعضو في مكتب لجنة التعليم العليا التي تشرف على كدارس الجمعية للتعليم العربي الحر بعد تكوينها سنة 1948م، وظل يعمل أمين عام للمعهد الباديسي إلى أن متعه الله بالشهادة[4].

وفي سنة 1949م توجه إلى باريس ممثلا للجزائر للمشاركة في المؤتمر العالمي للسلام الذي انعقد في باريس ضد الحرب، ثم قام بعدها برحلة طويلة خلال صيف سنة 1950م ضمن وفد جزائري منتخب إلى الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وإيطاليا، كتب عنها في جريدة "الشعلة[5]" عدة حلقات من عدد 40 إلى 54، وكانت هذه المقالات بعنوان

2- محمد الصالح رمضان: شهيد الكلمة رضا حوحو 1911 – 1956، وزارة الثقافة والسياحة مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، 1984م، صص 8 – 11.

3- محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، صص 8 - 13.

4- نفسه، صص 14 - 15.

5- **جريدة الشعلة 1949–1951م**: أسسها أحمد رضا حوحو في 15 ديسمبر 1949م وهي جريدة أسبوعية مستقلة عن البصائر، وترأس تحريرها طوال فترة صدورها التي دامت سنتين، فكانت لسال حال الشباب الجزائري، تخاطبهم على قدر عقولهم، فكانت تكتب بالفصحى والعامية، وتميزت بلهجتها الحادة

"عدت من الاتحاد السوفياتي"[6]. ومنذ أن انضم حوحو لجمعية العلماء المسلمين وعين أمينا عاما لمعهد الشيخ ابن باديس بقسنطينة الذي تأسس سنة 1947م، وبذلك وجد نفسه معلما مصلحا، ليُسخر قلمه وجهده الأدبي والفكري في سبيل رسالة الإصلاح والتغيير المنشود[7]، فعالج من خلال كتاباته موضوعات مختلفة كمواجهة الاستعمار الفرنسي، ومهاجمة الطرقية مستفيدا من مطالعاته المتنوعة، إلى جانب تجاربه التي اكتسبها من رحلاته المتعددة، وقد أبهره ما تتمتع به تلك الشعوب من حقوق وحريات بينما يحرم أبناء وطنه من أدنى الحقوق، هذا الأمر جعله يبرع في كتابته مستفيدا من رحلاته[8]. فكان أحمد رضا حوحو يهتم بالكتابة في جريدة "البصائر"[9] لسان حال جمعية العلماء المسلمين، وكانت مواضيع مقالاته فيها أدبية واجتماعية وسياسية متنوعة بعناوين مغرية جذابة، كما كان يكتب في جريدة "الشعلة" لسان حال شبيبة العلماء، وفي هاتين الصحيفتين اشتهر الأديب حوحو عند الجزائريين والشمال الإفريقي عامة، كأديب صحفي ناجح وناقد اجتماعي[10].

وكان هدفه مما قدم من كتابات هو محاولة إصلاح بعض العادات الاجتماعية الفاسدة المتواطئ عليها من قبل عامة الشعب في الحجاز وفي الجزائر، والثورة على واقع متخلف كبّله الجهل والجمود والخرافة والدجل حتى ظل المجتمع يرصف في تقاليد بالية ومفاهيم عفى عنها الزمن، عاقته عن العمل الجاد والانتاج المثمر، وشلت طاقته عن الخلق والإبداع، في ذلك العهد الاستعماري البغيض[11] الذي عاش حوحو قساوته، ولذلك حمل على عاتقه رسالة سامية تتلخص في ضرورة النهوض بالأمة، ونفض غبار الذل والهوان والتطلع إلى حياة كريمة، حياة الحرية والسيادة الوطنية[12]. واستمر قلم أحمد رضا حوحو

وسخريتها العنيفة في مهاجمة الاستعمار والطرقية والجمود في السياسة الداخلية، وتميزت بسخط حوحو على شريحة النواب من خلال مهاجمتهم على صفحات الجريدة، معتبرهم أداة الاستعمار التي تضرب بها مصالح الأمة، وبسبب عدائها الشديد للسياسة الفرنسية وتهجمها المتواصل على الإدارة تم توقيف الشعلة من طرف السلطات الاستعمارية بتاريخ 8 فيفري 1951م. ينظر: يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، صص 272 - 273.

6- محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، ص 17.

7- يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، ص 268.

8- وسيلة الخميسات والعيد جلولي: التجربة النقدية عند أحمد رضا حوحو، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، المجلد 13، العدد 3، التاريخ 2021/09/15م، ص 294.

9- للمزيد حول جريدة البصائر، بنظر: سكينة العايد: أحمد رضا حوحو صحفيا – دراسة وصفية وتحليلية المنشورة في الصحافة الجزائرية (البصائر – الشعلة)، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، قسنطينة، الجزائر، مجلد 35، عدد1، السنة 2021م، صص 1067 – 1068.

10- محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، ص 18.

11- محمد الصالح رمضان: نفسه، صص30 - 31.

12- وسيلة الخميسات والعيد جلولي: مرجع سابق، ص 295.

ونضاله إلى أن استشهد يوم 29 مارس 1956م، بعدما تم اعتقاله من قبل السلطات الفرنسية من منزله ليودع بسجن الكدية، ومنه حول إلى جبل الوحش على مشارف مدينة قسنطينة، وأعدم هناك رفقة مجموعة من وجهاء قسنطينة. ويمكن القول أن ما عرض حوحو للتصفية لجانب تأييده للثورة ودعمه لها هو قلمه الذي طالما خطّ به الانتقادات اللاذعة لسياسة الإدارة الفرنسية[13].

3 . أسلوبه الإصلاحي من خلال إنتاجه الفكري

3. 1، المقالات الصحفية:

لقد كان الأدباء الجزائريون عموما يسيرون في ركاب جمعية العلماء وينادون بدعوتها ويدافعون عن مبادئها ويناوئون أعداءها، هادفين إلى خدمة الإسلام والعربية والوطن، وكان أحمد رضا حوحو من كتّاب الإصلاح في الجزائر الذين يكتبون المقالات الصحفية والأدبية لهذا الغرض[14]، وقد وجد أحمد رضا حوحو في الصحافة مجالا خصبا من مجالات الانتاج الفكري والأدبي، فمن خلال المقالات أخذ يعالج المستجدات والوقائع والأمراض الاجتماعية، ومن خلال المقالات السياسية عالج قضايا الوطن والوطنية وتنبه إلى مخاطر الاستعمار وأهدافه، أما مقالاته الاجتماعية فكانت تعنى بتنمية الحس الاجتماعي الحضاري وتعالج أمراضه وسلبياته. نشر حوحو عددا كبيرا من المقالات في مجلات محلية ودولية، منها البصائر والشعلة والمنهل السعودية المكية والرابطة العربية بالمشرق وجريدة المنار الأسبوعية، وكان أول مقال له بعنوان "الطرقية في خدمة الاستعمار"، أظهر فيه موقفه الصريح من الاستعمار الفرنسي وأوضح انحيازه للفكر الإسلامي الحديث واتجاهه الإصلاحي.

لقد أمد حوحو الصحافة العربية في الجزائر بكثير من المقالات الاجتماعية والنقدية والقصص الخفيفة والصور الصادقة عن واقع المجتمع الجزائري، وكانت سلسلة "البصائر الثانية" قد نالت حصة الأسد من مقالاته، فكان أول مقال له فيها بعنوان "خواطر حائر" تطرق فيه لحيرة الشباب الجزائري من الوضع المزري الذي كرسه الاستعمار، وله مجموعة مقالات أخرى في البصائر منها: في الميزان، ما لهم لا ينطقون، ما لهم يثرثرون[15]. كما مارس حوحو أسلوب السخرية في معظم كتاباته الأدبية من ذلك مقالاته في جريدة "الشعلة" وذلك لغرض النقد والإصلاح والتغيير السياسي والاجتماعي، وإرسال رسائل للمستعمر ومؤيديه تخفيا خلف الخطاب الساخر غير المباشر؛ ذلك لأن الكتابة الساخرة من أقوى الكتابات الصحفية التي تشد القارئ بأسلوبها الذي يسعى لتحقير بعض الأفعال والتصرفات لتصل

13- يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، ص 278.

14- محمد خان: الأدب الإصلاحي في الجزائر "دراسة تحليلية لأدب حوحو"، الجزء الثاني، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد الثاني، جوان، 2020م، ص 32.

15- يوسف قنفود وامحمد راوي: مرجع سابق، ص 269 - 270.

تلك الانتقادات للجميع ويرتدعوا ويذعنوا لها وبطريقة غير مباشرة[16]. كما أن مقالاته في جريدة "الشعلة" تنازل فيها إلى مستوى قريب من مدارك العامة والدهماء، وتمتاز بالاختصار والبساطة والتنوع والسرعة في الوصول إلى الهدف الذي يريد.

حيث كان الأديب حوحو في أسلوبه وموضوعاته يراعي مستوى كل صحيفة وقرائها، "فالبصائر" مثلا لسان حال الجمعية وخيرة مثقفي العربية، مستواها غير مستوى "الشعلة"، وهذه انتقادية شعبية بالدرجة الأولى بينما البصائر متزنة محافظة تلتزم السلوك الإسلامي والخلق المثالي الذي يتناسب وطبيعة الدعاة المصلحين، وبينما "الشعلة" جماهرية تهتم بالكادحين والمنحرفين تخاطبهم بما يفهمون، أما "البصائر" فتكتب لطبقات معينة بأساليب معينة تناسبها وتناسبهم، والعجيب في الأديب حوحو أنه يتكيف مع هذه وتلك[17].

2.3. **القصة**

لقد نهل حوحو من الثقافة الغربية، فتعامل مع فنونها وآدابها بتوجيهها لخدمة أمته، إذ كان يعتبر الفنون والآداب عنوان النهوض والرقي لكل أمة، ولذلك اقتبس وترجم من القصص والأعمال الأدبية والقضايا الهادفة[18]. وبرع في مجال أدب القصة التي كان غرضه منها هو التقويم الخلقي[19]، ومن أهم أعماله القصصية نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- **قصة غادة أم القرى:** قصة طويلة كتبها حوحو في مكة سنة 1942م ونشرها عام 1947م، تحدث فيها عن المرأة في الجزيرة العربية، وهدف من خلالها إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية عموما، والمطالبة بإنصاف المرأة بإعطائها الحق الذي أقره لها الدين الإسلامي[20].

- **مع حمار الحكيم:** طبع بقسنطينة سنة 1953م[21]، وهو مجموعة مقالات قصصية نقدية في الأدب والسياسة والاجتماع أجراها حوحو على لسان حمار فيلسوف ينظر إلى الناس بمنظار واقعي، واستمدها من رواية "حماري قال لي" للكاتب المصري توفيق الحكيم، وحاول من خلالها حوحو بأسلوبه الساخر المعتاد في قصصه توجيه رسائل كثيرة أهمها: الكشف عن مخطط الإدارة الاستعمارية في التدمير الممنهج لبنية المجتمع الجزائري من الناحية الفكرية[22]. ولقد كان القراء معجبين بما يكتبه حوحو من مقالات مع حمار الحكيم التي كان ينشرها في البصائر؛ لأنها تعالج قضايا هامة يعيشها الناس بأسلوب طريف، وقد وفق

16- سكينة العايد: مرجع سابق، ص 1074.

17- محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، صص 27 – 28.

18- يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، صص 270 - 271.

19- محمد خان: مرجع سابق، ص 35.

20- يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، ص ص 270 - 271.

21- محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، ص 24.

22- يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، صص 271 - 272.

حوحو إلى حد كبير في تصوير حياة المجتمع بمختلف قضاياه الهامة في عصره، واستطاع أن يكشف عيوبها ومساوئها وينقدها بأسلوب ساخر، وجرأة قوية.

- **الشخصيات المرتجلة:** هدف من خلالها إلى إظهار الزعماء الحقيقيين من المزيفين حتى يكون الشعب على بينة من هؤلاء الأدعياء[23].

- **نماذج بشرية:** تعتبر من أشهر مقالاته القصصية، نشرت ضمن سلسلة كتاب البعث التونسية عام 1955م، عبر فيها حوحو عن سموم المستعمر الفرنسي التي بثها في نفوس الجزائريين.

- **قصة الفقراء:** تطرق فيها حوحو إلى مأساة بؤساء الجزائر الذين انتزعت منهم الإدارة الاستعمارية حق الحياة، وجاءت هذه القصة في إطار دفاعه المستميت عن قضايا المقهورين في الجزائر[24].

- **قصة سي عزوز:** عالج في جزئها الأول جشع المديرين واستغلالهم، والجزء الثاني عالج فيه سرقات النواب.

- **قصة عائشة:** خصص صفحتين في المقدمة للحديث عن النساء الجزائريات وأوضاعهن الاجتماعية التي لا تقل عن درجة الحيوان[25].

3.3. كتاباته المسرحية:

فهي في مجملها تدور حول الإصلاح الاجتماعي، بلغة يفهمها عامة الناس، تدنو من لغة التخاطب اليومي، استخدم فيها الدارجة مطعمة بالأمثال الشعبية، فكانت قريبة من مستوى فهم الجمهور منها: مسرحية "بائعة الورد" و"النائب المحترم"[26]، ومسرحية عنبسة، ومسرحية البخلاء الثلاثة وغيرها، ولقد نشرت له مجلة المسرح الجزائري التي تحمل عنوان "الحلقة" مسرحية عنبسة في عددها الأول الصادر بتاريخ أفريل 1972م[27].

4. أهم القضايا التي عالجها رضا حوحو في كتاباته وموضوعاته

4. 1، مسألة الحرية في الجزائر التي ترزح تحت نير الاستعمار

كانت الجزائر تعيش وضعا مزريا تحت نير الاستعمار الفرنسي مما جعل أديبنا حوحو يعبر بصدق عن ذلك الواقع، فنجده يركز على ثلاث كلمات وهي: الحرية، العدالة، الإنسانية. فقال عن الحرية:« نرى الديمقراطية المزيفة والحقوق المغتصبة، والمظالم الفظيعة، في هذا القرن الذي سمي كذبا وزورا عصر الحرية والنور، وما هو إلاّ عصر الظلم والطغيان، عصر

23- محمد خان: مرجع سابق، صص 32 - 33.

24- يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، صص 271 - 272.

25- محمد خان: مرجع سابق، ص 34.

26- وسيلة خميسات والعيد جلولي: مرجع سابق، ص295.

27- محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، ص 25.

الخداع والنفاق»؛ لأنه لاحظ في الجزائر وجود مجتمعين مختلفين في كل شيء، مجتمع أوربي في الشمال يتمتع بكل الحريات والحقوق، يقابله مجتمع جزائري لا يجد حتى ما يسد به رمقه، ويستر جسده، وعن ذلك يقول:« نرى إنسانا حرم الحرية بأنواعها يختنق من شدة الضغط لا يكاد يتنفس، وآخر أعطي الحرية مضاعفة حتى وصلت إلى حد الفوضى والعبث بمصالح الأبرياء»[28].

ويقارن فيقول:

- السيد يلبس أفخم الملابس، أما الجزائري فيلبس ملابس بالية لا تقيه لا الحر ولا البرد.
- السيد يأكل أطيب المأكولات ويحسد الجزائري على لقمة خبز سوداء.
- السيد يسكن القصور ويستكثر على الجزائري الأكواخ المهدمة البالية.
- السيد يبني أفخم المدارس والمعاهد ويتلقى أرقى العلوم والصناعات، ويحرم الجزائري من أبسط العلوم.
- السيد يفصل دينه ومعابده عن الحكومة، لكنه يرفض ممارسة ذلك مع الجزائري فهو يمسك بمفاتيح مساجدك يفتحها لمن يشاء، ويغلقها في وجه من يشاء[29].

وظل يكافح من أجل حرية المجتمع الجزائري الذي غلب على أمره وتسلط عليه الاستعمار الفرنسي وكتم أنفاسه، فنجده يلقي كلمة في هذا الشأن عندما شارك ممثلا للجزائر في المؤتمر العالمي للسلام بباريس سنة 1949م قائلا:« إن الجزائر تتجرع كل يوم ويلات الحرب بشتى الوسائل برغم تطلعها إلى السلام، وإنما لا تريد أن ترى دماء أبنائها تسيل منهمرة، لا تريد أن تخضع لليأس، وألا ترى دموع الثكالى ودموع الأيامى ودموع اليتامى تسيل من أجل تضخيم ثروة الأثرياء، وتوسيع اراضي المستعمرين؛ ولهذا فإن الجزائر لا تحتج على الحلف الأطلسي فحسب، وإنما ترفضه رفضا باتا، إن الجزائر تريد السلام لجميع الشعوب فلا غرابة في أن تريد الحرية والسلام لنفسها، فهي تمد يدها لكل من يريد لها كما يريد لنفسه أن تعيش حرة أمنة وتموت حرة أمنة»[30].

هذا، ومن القضايا التي تطرق لها حوحو قضية حرية المرأة ومقارنتها بحرية الرجل، فكان من خلال قصة "عائشة" قد أعطى صورة سلبية عن نظرة الرجل الدونية للمرأة بصفة عامة قائلا:« .. عاشت عائشة في محيطها الضيق المظلم، لا تعرف عن العالم الخارجي شيئا، ولا تعرف عن نفسها إلاَّ أنها عورة، يستحي ذويها من ذكر اسمها وأسماء والدتها وعمتها، فهن جميعا يكن نوعا خاصا من المخلوقات لم تفهم كنهه...». لقد أراد حوحو من

28- نور الدين عسال: القضايا الوطنية في كتابات رضا حوحو، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، المجلد الأول، العدد الأول، جانفي 2018م، صص 209 – 210.

29- نور الدين عسال: مرجع سابق، ص 210.

30- وسيلة خميسات والعيد جلولي: مرجع سابق، ص294.

خلال إثارة موضوع حرية المرأة المسلوبة في المجتمع، أن يبرز حرية المجتمع الجزائري المسلوبة بالجملة، والحرمان الذي كان يعانيه المجتمع في التعبير والتفكير أيام الاحتلال بسبب القوانين الجائرة المفروضة والظلم والقهر[31].

4. 2. **قضية المرأة العربية والجزائرية:**

بما أن حوحو مصلح اجتماعي في أدبه، مساير للحركة الإصلاحية في بلده، وناقد بصير بعيوب المجتمع وأمراضه، خدم شعبه وبلاده بقلمه في قصصه وتمثيلياته، فكثيرا ما كان يركز عن المرأة باعتبارها الركيزة والدعامة لكل مجتمع، فهي المدرسة الأولى للأجيال كلها[32]، عندها سعى أحمد رضا حوحو من خلال كتاباته إلى الدفاع عن المرأة بعدما أدرك خطورة الوضع الذي تعيشه مع التقاليد الموروثة البالية التي ساهمت في تحطيم مقامها الاجتماعي بسلبها حريتها، ويظهر ذلك من خلال باكورة أعماله القصصية "غادة أم القرى" عندما كان في الحجاز، حيث صور فيها واقع المرأة الحجازية وما تعانيه وقصد به المرأة الجزائرية، وأخذ حوحو يصور المرأة التي تقع دائما فريسة التقاليد، ضحية للمحافظة تتحكم في عواطفها وتجعلها تعيش في دوامة من الأوهام، وقد مثل ذلك في صورة البطلة زكية والتي جسد من خلالها صورة المرأة من الاضطهاد والاستلاب والخضوع، وبين أن التقاليد تجعل المرأة شيئا جامدا مسلوب الإرادة[33]. فالمرأة في منظور حوحو مظلومة لم تأخذ حقها كاملا في الحياة كأخيها الرجل، ومغلوبة على أمرها لذلك وجب مناصرتها والدفاع عنها والأخذ بيدها، وكثيرا ما قال عنها:" هي في رأي الرجل عندنا مجرد معمل للتفريخ ... أو عامل بسيط لخدمة البيت، أو هي لعبة الرجل ودميته.."[34]. وطالب حوحو المجتمع بضرورة الاهتمام بالمرأة، ولاسيما في مجال التعليم، وفي رأيه أن المرأة تتجاذبها قوتان الأولى سجينة تقاليد الماضي هي التي تحرمها من التعليم قائلا:« ملفوفة في سوادها أو بياضها تتعثر في أذيالها، لا يعترف لها بحق ولا يعترف لها بمكانة»، أما القوة الأخرى فتريدها سافرة تجوب الأسواق والملاهي دون حياء أو خجل، والحل في رأيه يكون عن طريق اهتمام رجال الإصلاح بالمرأة بتعليمها وتربيتها على مبادي الإسلام وفق واقع عصرها.

4. 3. **رأيه وموقفه من أحزاب الحركة الوطنية الجزائرية:**

كان ينتقد السياسة ورجالها نقدا لاذعا؛ لأنه كان يرى أن الشعب الجزائري لم يعد يثق بالأحزاب بسبب صراعاتها الضيقة التي لا تساير طموح الشعب إلى الحرية والانعتاق،

31- يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، صص 276 - 277.

32- محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، ص 31.

33- حفيظة صابر: صورة المرأة في رواية "غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو، مجلة الفضاء المغاربي، المجلد الأول، العدد السادس، ماي 2017م، شعبان 1438هـ، ص ص 128 – 129.

34- محمد الصالح رمضان: مرجع سابق، ص 31.

ويصف الأحزاب الناشطة في الجزائر بعدم النضج السياسي[35]، واعتبرها أحزاب مناسبات لا تنشط إلا زمن الانتخابات لتعود إلى سباتها بعد ذلك، فحسب رأيه:« أن السياسة في بلادنا – أي الجزائر- سياسة انتخاب، تنشط وتعمل قبيل فتح الصندوق بأيام، حتى إذا ظهرت النتيجة وفاز من فاز، وخاب من خاب، عاد كل شيء إلى مجراه الأول، عاد النشاط إلى مكمنه، وعاد الحماس إلى مخبئه، وعاد البؤس الذي يضرب الأمة إلى عادته». واتهم حوحو رجال السياسة أنهم يجرون وراء مآربهم الخاصة على حساب مصلحة شعبهم فقال في هذا الشأن:« فهذا سياسي يغضب لنقدي الخفيف للسياسة، فيحاول إرغامي على توجيه هذا النقد إلى حزب أخصصه أو هيئة أعينها وهو يريد أن يستغل هذا النقد وهذا القلم لخدمة حزبه لا خدمة السياسة العامة، وهو يجهل أن هذا القلم شديد العنان، لا يُسخر ولا يُباع مهما غلا الثمن ...وهذا سياسي أخر يوجب علي اعتناق حزب سياسي أختاره وإلاَّ حُرم عليا الكلام في السياسة»[36]. بينما يختلف موقفه مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهو يعتبرها قدمت خدمات جليلة للجزائريين وحملت مهمة نشر الثقافة بين أوساط الجزائريين، فأصبحت مسؤوليتها تجاه المجتمع الجزائري ثقيلة وجسيمة، ففي صحيفة البصائر كان يستميت في الدفاع عن رجال الجمعية ويبرز كرهه الشديد لفرنسا[37].

4.4. **قضية التعليم:**

انتقد رضا حوحو التعليم الرسمي الفرنسي بالجزائر بشدة؛ لأنه رأى فيه تجهيل الناس وليس تعليمهم، وكذلك انتقد الطرق المتبعة في التدريس بالمدارس الأهلية، ويرى أنها تعتمد على الحفظ الذي لا فائدة منه حيث قال:« ... حيث إن التلميذ لا يعرف غير الحفظ، والحفظ عنده الوسيلة الوحيدة للتعلم، أما الملكة، أما الذهن، أما الفكر فهذه القوى تكاد تكون عاطلة عن العمل عند أغلب الطلبة». فهو يرى أن التلاميذ يرهقون بحفظ مواد تفوق مقدرتهم العقلية الصغيرة، ولهذا نجدهم يحفظون ثم يستظهرون ذلك دون فهم، أما ملكة التفكير والفهم عاطلة، ولما يكبر التلميذ يصبح:« بليدا عديم الفهم والإدراك، يصعب على المصلح علاجه وهو في سنواته الأخيرة»، وكل هذا النقد الذي وجهه حوحو للتعليم كان بسبب اشتغاله في معهد ابن باديس مما جعله يلتمس مواقع الضعف في المنظومة التعليمية التي أوجدتها فرنسا الاستعمارية[38].

كما انتقد أيضا التعليم في المساجد فيرى أنه يلقن للطالب كل شيء:« دون اختيار الصالح من غير الصالح، ودون مراعاة المفيد من غير المفيد»، ويحفظ كل ما قدم له دون

35- نور الدين عسال: مرجع سابق، صص 215 ، 212.

36- نور الدين عسال: مرجع سابق، ص 212.

37- يوسف قنفود وامحمد دراوي: مرجع سابق، ص 275.

38- نور الدين عسال: مرجع سابق، ص ص 216 – 217.

معرفة الفائدة والغاية من كل هذا الكم من المعلومات، فالعلم في رأيه لم يعد للعبادة والتبرك وحدهما، وإنما أصبح وسيلة حيوية ضرورية لرقي الحياة المعيشية، سواء كانت الحياة فردية أو اجتماعية إنما يتوقف على تقدم الفرد ورقيه، وما هذا المجتمع إلاّ مجموعة أفراد، راقيًا إن كانت راقية، أو منحطًا إن كانت منحطة. وقدم حوحو حلولا للنهوض بالتعليم تتضمن برنامجا دراسيا فعالا يرتكز على تربية عقل الطفل في المراحل الأولى من التعليم؛ لأن الحفظ ثم الاستظهار بدون فهم في المراحل الأولى هو:« العلة الوحيدة والداء العضال الذي يضر بالتلاميذ»، فهو يولد فيهم التكلم بدون تفكير، كما اقترح تعميم وتشجيع التعليم العربي الذي تمارسه جمعية العلماء المسلمين[39].

5. الخاتمة

- تنوعت صور المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي وعرف مطلع القرن العشرين التوجه نحو المقاومة السياسية التي عمت أغلب التراب الوطني ولم يشذ الجنوب الشرقي عن هذا الحراك.
- شهد الجنوب الشرقي ظهور ثلة من الوطنيين ذوي التوجه الإصلاحي ومن أبرزهم المصلح أحمد رضا حوحو.
- ساهم المناخ الأسري المحافظ في توجيه مسار رضا حوحو التعليمي نحو الوجهة الوطنية والصبغة الإسلامية.
- عبقرية حوحو وتميز إنتاجه الأدبي والإصلاحي ساهم فيه انفتاحه وأسفاره التي شملت مناطق عديدة داخل القطر الجزائري وخارجه الأمر الذي جعله يتقلد مناصب هامة ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعليما وإدارة.
- تنوع وسائل حوحو التوعوية والإصلاحية لمواجهة جرائم الاستعمار الفرنسي ضد الشعب الجزائري فكان من وسائله الصحافة والقصة وغيرها، كما أنه زاوج في أسلوبه بين الخطاب النخبوي الموجه للفئة المثقفة وبين الخطاب البسيط الموجه للعامة.
- تمسك حوحو بمواقفه الوطنية وسعيه للإصلاح الحقيقي للنهوض بالشعب الجزائري لتجاوز دسائس الاستعمار الفرنسي جعله في مواجهة مع السلطة الاستعمارية التي لم تجد بدا من تصفيته، فكان بحق شهيد القلم والكلمة والحق.

39- نور الدين عسال: نفسه، ص 217.

5. قائمة المراجع

- رمضان محمد الصالح: شهيد الكلمة رضا حوحو 1911 – 1956، وزارة الثقافة والسياحة مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، 1984م.
- خان محمد: الأدب الإصلاحي في الجزائر "دراسة تحليلية لأدب حوحو"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، الجزء الثاني ، العدد الثاني، جوان، 2020م.
- خميسات وسيلة وجلولي العيد: التجربة النقدية عند أحمد رضا حوحو، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، المجلد 13، العدد 3، التاريخ 2021/09/15م.
- صابر حفيظة: صورة المرأة في رواية "غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو، مجلة الفضاء المغاربي، المجلد الأول، العدد السادس، ماي 2017م، شعبان 1438ه.
- عسال نور الدين: القضايا الوطنية في كتابات رضا حوحو، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، المجلد الأول، العدد الأول، جانفي 2018م.
- قنفود يوسف ودراويا محمد: محطات من المسار النضالي للأديب الشهيد أحمد رضا حوحو إبان الحركة الوطنية، مجلة البحوث التاريخية، مجلد 5، العدد 1، جوان 2021م.

الفكر الإصلاحي والمقاومة الثقافية
عند أحمد رضا حوحو (1911-1956)
من خلال القصة القصيرة

Ahmed Ridha Houhou's(1911-1956) Reformative thoughts and Cultural Resistance Through The Short Story

د/ زوبير بعلي
المدرسة العليا للأساتذة – بوسعادة (الجزائر)
zoubirhistory@gmail.com



ملخص: يعتبر أحمد رضا حوحو من روّاد الأدب الجزائري الحديث، وقد عُرف أكثر ما عُرف بالتأليف والكتابة في جنس أدبيّ تميّز به وهو القصة القصيرة، وقد استغل أحمد رضا حوحو هذا الجنس الأدبي في الحركة الإصلاحية في الجزائر، كيف لا وهو أحد الفاعلين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي حملت لواء الإصلاح في القرن 19م، فحملت مجموعته القصصية: "نماذج بشرية"، "مع حمار الحكيم"، "غادة أمّ القرى"، وكذا "صاحبة الوحي".. أفكارا إصلاحية تناولت بالنقد الذهنيات البالية التي كانت تسود المجتمع آنذاك كاحتقار المرأة وعدم تعليمها، وكذا الدروشة واستغلال النّاس تحت عباءة التديّن وإظهار التنسّك، كما انتقد مناهج التعليم في وقته. ويظهر البعد الإسلامي حاضرا في قصصه، والدعوة إلى ترسيخ الثقافة الإسلامية الأصيلة والاهتمام بالتعليم للوقوف في وجه الغزو الثقافي للاستعمار الذي عمل على تجهيل الشعب واحتقاره.

الكلمات المفتاحية: القصة القصيرة؛ البناء الاجتماعي؛ الموروث الثقافي؛ البعد الإسلامي؛ البعد الإصلاحي.

Abstract :
Ahmed Ridha Houhou (1911- 1956) is considered as one of the pioneers of the Algerian modern literature. Well-renowned as a short story writer, he used this literary genre in the Reformist Movement in Algeria lead by the Algerian Muslim Scientists' Association that he was an activist in.
His story collection " Namadhidge Bachariya ", " Ma'a Himar Elhakim ", " Ghada Oum Elqora", " Sahibat Elwahi " and other ones contained reformative thoughts criticising old mentalities which were dominant in then societies such as trivializing women and depriving them from education, as well as fake Sufism that exploited people under the cover of religion. He also criticised the then educational curricula. The Islamic dimension is well-present in his story-telling. He sought the

consolidation of the authentic Islamic culture as well as education to hinder the colonial cultural invasion which promoted ignorance and despised the people.
Keywords: The Short Story; the social fabric; the cultural heritage; the Islamic dimension; the reformist dimension.

1. مقدمة:

اتّخذت المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي أشكالا عدّة، فلم تقتصر على النضال العسكري والسياسي فحسب بل كان للمقاومة الثقافية النصيب الأوفر، كيف لا والسياسة الاستعمارية كانت تقوم بالأساس على تجهيل الشعب ليبقى تحت ربقة الاستعمار والعبودية، ومن هذا المنطلق آمن روّاد الحركة الإصلاحية في الجزائر بأهمّية المقاومة الثقافية. فشعبٌ يقرأ شعبٌ لا يجوع ولا يُستعبد. وقد كان للجنوب الجزائري حظه من المقاومة مثله مثل باقي أنحاء الوطن، فظهرت في الجنوب الشرقي شخصيات كتبت أسماءها في تاريخ الحركة الإصلاحية والمقاومة الثقافية ولعلّ من أبرز هؤلاء الأديب القاص أحمد رضا حوحو. استغلّ الأخير القصّة القصيرة كجنس أدبي يتوافق والحالة الاجتماعية للمجتمع الجزائري التي رآها في عصره، حيث إنّ هذا النوع من الكتابة الأدبية وإن كان يعتمد على السرد فإنّه يبتعد عن الطول وتعدّد الفصول كما ضمّنه رضا حوحو أسلوب الحوار الشيّق وأسلوب السخرية والتهكّم خاصة إذا تعلّق الأمر بنقده لبعض الفئات الاجتماعية التي ما فتئت تستغلّ جهل النّاس.

ولسنا في هذا البحث بصدد النقد الأدبي لأسلوب حوحو في كتابة القصة أو دراسة نشأة وتطوّر الكتابة القصصية في الجزائر والعالم العربي فذلك شأن أهل الأدب والنقد الأدبي ولكنّنا نحاول أن نستشف البعد الإصلاحي ومظاهر المقاومة الثقافية من خلال هذا النوع من الكتابة التي استغلها حوحو في الإصلاح الاجتماعي للمجتمع الجزائري إبّان الحقبة الاستعمارية. ما تزال الكتابات شحيحة حول التراث الأدبي والفكري الذي تركه أحمد رضا حوحو رغم اهتمام بعض الكتّاب بكتابة سيرته ولعلّ أهمّهم محمد الصالح رمضان الذي يعتبره الكثيرون ممن جاء بعده عالة على كتابه"شهيد الكلمة رضا حوحو"في الترجمة وتتبع سيرة رضا حوحو، كما كتب عنه صالح الخرفي كتابه"شهيد الثورة الجزائرية أحمد رضا حوحو" وكتب أبو القاسم سعد الله عنه أوراقا في كتابه "في الأدب الجزائري الحديث".كما كانت سيرته ومؤلفاته موضوعا لعدّة مقالات ورسائل جامعية.

وتظهر أهميّة الموضوع في أنّ كتابات رضا حوحو وإن كانت ذا طابع أدبي إلّا أنّها لم تخلُ من آراء إصلاحية تناولت بالأساس الجانب الاجتماعي كشكل من أشكال المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي حشد لها رضا حوحو علوم الدّين والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع

وعلم النّفس وعلم التربية ممّا يجعلها موردا هامّا ونبعا ثرّا وأنموذجا يحتذى به في الإصلاح ومقاومة الغزو الثقافي والتيّار التغريبي. هذا وقد اعتمدت في بحثي هذا على المنهج التحليلي لجملة من نصوص حوحو التي كتبها في مجموعاته القصصية مثل "نماذج بشرية"، "مع حمار الحكيم"، "غادة أم القرى"، حاولت من خلالها معرفة الجوانب الاجتماعية التي ركّز عليها حوحو في عمله الإصلاحي.

2. نشأة أحمد رضا حوحو:

2، 1.تكوينه العلمي والأدبي ونشاطه:

ولد الأديب أحمد رضا حوحو بمدينة بسكرة سنة 1911م بإحدى قرى الزاب الشرقي وهي مدينة سيدي عقبة، من عائلة عرفت بالعلم والجاه فقد كان أبوه شيخا للبلدة، وكعادة أهل القرى في تلك الحقبة فقد أدخله والده الكُتّاب لحفظ القرآن وتعلّم مبادئ اللغة العربية[1]. ويبدو أنّ التكوين الشرعي كان له الأثر البالغ في تكوين شخصية حوحو الأدبية وهو ما يظهر جليّا في كتاباته، كما أنّ تاريخ المدينة واسمها الذي عرفت به وهو اسم الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري فاتح بلاد المغرب الإسلامي كان ولا شكّ ألقى بثقله في تكوين شخصية حوحو الإسلامية الإصلاحية منذ نشأتها شخصية ظلّت حاضرة في كتابات حوحو رغم مواصلة تكوينه الفرنسي فيما بعد.

التحق رضا حوحو بالمدرسة الابتدائية الفرنسية وهو في سنّ السادسة، وحصل منها على الشهادة الابتدائية سنة 1923م، ليواصل تعليمه الإكمالي باللغة الفرنسية ويتحصّل على الأهلية في مدينة سكيكدة سنة 1928م؛ ليعود حوحو بعدها إلى مسقط رأسه ليعمل في إدارة البرق والهاتف كموظف بسيط في مصالح البريد والمواصلات [2]. شاءت الأقدار أن تبعد حوحو عن الوطن فأجبرت الظروف عائلته على مغادرة الوطن سنة 1935م إلى الحجاز ليتم دراسته هناك ويتخرّج من معهد العلوم الشرعية بالمدينة سنة 1938م ليُعيّنَ أستاذا بنفس المعهد[3]. عاد حوحو إلى الجزائر سنة بعد وفاة والديه وانظم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. واستقر بقسنطينة حيث عُيّن مديرا لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية لمدّة سنتين ثمّ مديرا لمدرسة شاطودان (شلغوم العيد حاليا)، ثمّ كاتبا عامّا لمعهد عبد الحميد بن باديس سنة 1947م وظلّ في هذا المنصب إلى أن استشهد[4]. كما أسّس رفقة عبد

1- محمد الصالح رمضان: شهيد الكلمة رضا حوحو، ص: 10 و11.

2- نفسه، ص: 10.

3- نفسه، ص: 12.

4- نفسه، ص: 15.

الرحمان وزميلين آخرين جمعية "إخوان الصفا"، هذه الجمعية التي كانت تواصل اجتماعاتها وأعمالها في منزل أحمد رضا حوحو، وكان من ثمار لقاءاتها كتاب "مع حمار الحكيم".

كان لحوحو جملة من الرحلات ساهمت في تكوين شخصيته وصقل معارفه وخبراته وتجربته في الكتابة الأدبية، منها رحلته سنة 1950م إلى الاتّحاد السوفياتي ويوغسلافيا وتشيكسلوفاكيا، وكذا رحلته إلى باريس للمشاركة في المؤتمر العالمي للسلم التقى فيها بشخصيات علمية وسياسية فاعلة على الصعيد العالمي.[5]

2. 2. إنتاجه الفكري :

ترك لنا رضا حوحو إنتاجا فكريا وأدبيا ثَرّا فكتب عدّة مقالات في مجلات كالمنهل والرابطة العربية والبصائر، نذكر منها:

- مقال: "الطرقية في خدمة الاستعمار بمجلة "الرابطة العربية" سنة 1937م"

- مقالات بمجلة المنهل منها: "ابن الوادي"، "الأديب الأخير"...

- مقالات في جريدة الشعلة

كما ترك عدّة مؤلفات من قصص قصيرة وروايات منها:

- غادة أم القرى: وهي باكورة أعماله ألفها في فترة تواجده بالحجاز إبان الحرب العالمية الثانية وطبعت سنة 1947م

- مع حمار الحكيم سنة1953م بقسنطينة، وكان سبب تأليفه إهداء عبد الرحمان شيبان كتاب توفيق الحكيم "حماري قال لي" ودعوته لأن ينسج على منواله قائلا له: تُجنّد قلمك لتوجيه هذا الشعب الذي كثر مستغلّوه، وقلّ خادموه، على نحو ما فعل توفيق الحكيم بمصر..."[6]

- صاحبة الوحي طبعت سنة 1954 بقسنطينة.

- نماذج بشرية التي طبعت سنة 1955 بتونس.

5- محمد الصالح رمضان: شهيد الكلمة رضا حوحو، ص: 17و18.

6- مقدمة "مع حمار الحكيم"بقلم عبد الرحمان شيبان.

إضافة إلى جملة من المسرحيات وتمثيليات ألفها لفرقة المزهر القسنطينية.[7]

هذا ويغلب على كتابات حوحو الطابع الاجتماعي، ويرى سعد الله-رحمه الله- أنّ نشأة حوحو في مدينة سيدي عقبة حيث ضريح عقبة بن نافع الذي كان مزارا للكثيرين حيث تزدحم أفواج من النّاس الجزائريين والسوّاح الأجانب للاطّلاع على عادات وتقاليد المنطقة هو الذي أثّر في كتابات حوحو وجعله ينحى هذا المنحى وهو الأدب الاجتماعي[8]. ويُلاحَظ أنّ مؤلفات حوحو القصصية كان أغلبها بعد انضمامه إلى جمعية العلماء المسلمين وذلك بعد عودته إلى الوطن سنة 1946م، وهذا يعطينا العامل الرئيس في البعد الإصلاحي الذي حملته كتابات حوحو في القصة القصيرة.

3. البعد الإصلاحي في كتابات رضا حوحو:

3، 1. القصة القصيرة كجنس أدبي:

تعتبر القصّة القصيرة جنسا أدبيا قائما بذاته يعتمد على أسلوب السرد وهو أسلوب له مميّزاته ومن مميزات القصة القصيرة:

- القصة القصيرة: من اسمها قصيرة الطول فهي تتناول حدثاً واحداً، لذا فهي تمتاز بالإيجاز مما يجعلها سهلة التناول من طرف المتلقي ويمكنّه من قراءتها قراءة سريعة والوصول سريعا إلى المضمون ومقصد المؤلف، ولعلّ هذه الخاصية التي تمتاز بها القصة القصيرة هي ما دفع بحوحو لاستغلالها في الإصلاح الاجتماعي، ذلك أنّ التطويل يشعر القارئ بالملالة والسآمة، كما أنّ الكلام ينسي بعضه بعضا ويُبعد القارئ وينسيه الهدف الأسمى الذي قصده الكاتب ولذا كان هذا الجنس الأدبي أليق بالإصلاح خاصة في مجتمع كان يعاني أغلبه من الجهل بسبب السياسة الاستعمارية.

- تتّسم القصة القصيرة بوحدة الانطباع عند القارئ. يقول بويه (Poe): "تتسم القصة القصيرة بوحدة الانطباع الذي تحدثه لدى القارئ، ويمكن أن نقرأها في جلسة واحدة فكلّ كلمة تسهم في إحداث التغيير الذي وضعه المؤلّف سابقا. هذا الأثر يجب أن يتم له الإعداد له مع أوّل جملة ثمّ يتدرّج حتّى النهاية وعندما يصل إلى أعلى نقطة. هنا تنتهي القصة القصيرة."[9]

- تمتاز القصة القصيرة بالنهاية السريعة التي تلِي ذروة الحدث مباشرةً، وهذا ما تلمسه

7- محمد الصالح رمضان: شهيد الكلمة رضا حوحو، ص: 13 وما بعدها.

8- أبو القاسم سعد الله: في الأدب الجزائري الحديث، ص: 86.

9- إنريكي أندرسون إمبرت: القصة القصيرة: النظرية والتقنية، ص: 51.

جليّا في قصة "عائشة" من مجموعة حوحو القصصية "نماذج بشرية" فبعد أن ساءت حالتها وتعقّدت حياتها وبلغت الذروة جاءت النهاية سريعة بزواجها من زوج لم يسألها عن ماضيها الأليم"...ولكنّه مرهم النسيان سريعا ما فعل مفعوله فاندمل الجرح وانمحى الرسم ولم يبق من تلك الإحن والمحن إلا بصيص ضئيل من الذكريات المريرة"[10].

- الوحدة الموضوعية في القصة القصيرة؛ حيث تكون الأحداث جميعها لحدث واحد أو موضوع معيّن، فتتكامل الأحداث مع بعضها وتتشابك وتترابط من أجل هذا الهدف المحدّد سلفا.

- عنصر التكثيف في القصة القصيرة ويقصد به اختزال الأحداث في أفعال رئيسية مركّزة والابتعاد عن الاسهاب والابتعاد عن الاستطراد والحشو وسرد التفاصيل عن طريق الاعتماد على عنصري الحذف والإضمار[11].

- وجود عنصر الدراما فعلى الرغم من أن القصة القصيرة قد تتألف من شخصية واحدة أو حدث واحد، ولكن يجد فيها القارئ حين قراءتها الكثير من الديناميكية ويستشعر الحيوية والتشويق المستمر، ويمكن لكتاب القصة أن يولّدوا الشكوك بجعل القصة تحوي أكثر من شخصية كالشخصية البطولية (PROTAGONIST) التي تسعى لتحقيق الهدف، وشخصية الوغد (ANTAGONIST) التي تحول دون تحقيق البطل لهدفه، وتصبح نقطة التحوّل (TURNING POIGNT) في حدود الدراما (كوميديا) بالنسبة للبطل، أما نقطة التحوّل السلبية فعلامة على (المأساة)[12]. ويظهر عنصر الدراما في توظيف حوحو للشخصيتين (البطل والوغد/القيم الإيجابية والسلبية) في توليد الشّك في قصة المعلّم السي زعرور في صراعه مع المدير في البداية، ثمّ نائب المجلس البلدي وزميلته فيما بعد.

ويُلاحظ أنّ حوحو لم يكن من أنصار المُتخيّل في القصّة طالما أنّ هدفه ليس الطرفة ولا التشويق ولا الصناعة الأدبية في حدّ ذاتها وإنّما كان كلّ ذلك فقط طريقا يخدم هدفا أسمى وأهمّ وهو الإصلاح الاجتماعي. وهو يعبّر عن ذلك صراحة في مجموعته "نماذج بشرية" بقوله: "ثمّ إنّي لم أعمد في عرض هذه النماذج إلى الخيال فأستخدمه في التنميق والتزويق، أو إلى التحليل النفساني فأسخّره لإثبات فكرة أو دحض أخرى، أجل إنّي لم ألجأ إلى ذلك وإنّما التجأت إلى المجتمع وانتزعت من مختلف طبقاته نماذج عشت مع بعضها، وسمعت

10- أحمد رضا حوحو: نماذج بشرية، ص: 18.

11- بشرى سلواني: الخصائص الفنيّة للقصة القصيرة جدّا.قراءة في متون مغربية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، المجلد 1، 69، مايو 2021، ص: 103.

12- روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص: 515.

عن بعضها، نماذ حيّة أقدّمها للقارئ لعلّه يتوصّل بها إلى تفهّم بعض طباع مجتمعه..."[13]؛ ولهذا أورد لنا حوحو الكثير من القصص التي عايشها فعلا كقصة "سيدي الحاج "التي حدثت معه إبان الحرب العالمية الثانية وهو مقيم في مكّة.

وأسلوب السخرية الذي هو من خصائص القصة القصيرة هو الذي لمسناه وتلمسّه من قبل أبو القاسم سعد الله حيث يقول: "لفت نظري في أدب حوحو ظاهرتان هامّتان هما: الأولى السخرية، والثانية براعة الحوار. فالسخرية ظاهرة شائعة في جميع آثاره حتى الجاد منها يلتجئ إليها للتعبير عن خلجات نفسه وآرائه في شؤون الحياة، وليس غريبا أن يعمد حوحو إلى هذا الأسلوب من الكتابة في مجتمع كالمجتمع الجزائري تسوده تقاليد معينة..."[14].

3، 2. جوانب الإصلاح والمقاومة الثقافية في كتابات رضا حوحو:

تعدّدت جوانب حوحو الإصلاحية من خلال كتابته في القصة القصيرة كالإصلاح الاجتماعي من خلال نقد بعض العادات والذهنيات البالية، وإصلاح التعليم.

أـ رضا حوحو والتحرير الحقيقي للمرأة:

انتقد أحمد رضا حوحو بعض الذهنيات والعادات التي كانت تسود المجتمع ونظرته للمرأة في قصته "عائشة" وهي قصة ضمن مجموعته القصصية "نماذج بشرية"، انتقد المجتمع الذي لا يعلّم المرأة، وينظر إليها نظرة دونية، مجتمع لا تعرف فيه المرأة سوى أنّها عورة يستحي أهلها من ذكر اسمها، ويستعمل حوحو أسلوب التهكّم والأدب الساخر حين يذكر أنّ مجتمعه يفتخر فيه الرجل بحماره وحصانه بينما يسمي نساءه وبناته بـ "العباد حاشاك"، يقول: "هي إذن كائن تافه لا مسؤولية له في الحياة، بل إنّها أتفه من أيّ حيوان من الحيوانات التي يملكها والدها الذي لا يستحي من ذكر حماره أمام النّاس ويفتخر بذكر حصانه ... أمّا عائشة فإنّها دولاب بشري تديره يد ذويها فلا تتحرّك ولا تسكن إلّا بإرادتهم ووفقا لرغباتهم، وكلّ هذا لا يعنيها ولم تفكّر فيه، بل إنّها لا تملك حقّ التفكير فيه"[15]. يرى حوحو أنّ التحرير الحقيقي للمرأة هو بتعليمها وتثقيفها واصفا مجتمع عصره الذي لا يرى في المرأة حسب رأيه سوى آلة للنسل، محمّلا حوحو ذويها تبعة انحطاطها الثقافي لأنّهم لم يُعنوا لا بتثقيفها ولا تعليمها ومحمّلا المجتمع مسؤولية عدم إنشاء وسائل التربية والتعليم.

13- أحمد رضا حوحو: مقدّمة كتابه نماذج بشرية.

14- أبو القاسم سعد الله: في الأدب الجزائري الحديث، ص: 92.

15- أحمد رضا حوحو: نماذج بشرية، ص: 15.

ب ـ رضا حوحو ومناهج التربية والتعليم:

عاب رضا حوحو مناهج التعليم الأهلي في وقته التي كانت حسبه لا تعتمد إلا على الحفظ والاستظهار في مراحل التعليم الأولى دون الفهم والإدراك، وفي كتابه "مع حمار الحكيم" يدور الحوار مع حمار الحكيم قائلا: "والطفل-كما لا يخفى-يحتاج في مرحلته الأولى إلى التربية الصّرفة، أعني تربية عقله. قلت-فاهم يا أستاذ؛ استمرّ في بحثك. قال: -وإنّه لا يحتاج إلى التعليم بقدر ما يحتاج إلى تربية فكره وتمرين ذهنه على فهم المسائل البسيطة وهضمها واستنتاج زبدها وفوائدها. فالاستظهار بدون فهم في المراحل الأولى هو العلّة الوحيدة والداء العضال الذي يضرّ بالتلاميذ"[16].

وتمرين الطفل على المسائل البسيطة هو عين ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدّمته بقوله "واستعداده لقبول ما يرد عليه" رابطا في ذلك بين قوة العقل (النضج)، والاستعداد. يقول ابن خلدون معلّلا: "ويكون المتعلّم أوّل الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسيّة، ثمّ لا يزال الاستعداد يتدرج فيه قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفنّ وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد"[17]. ويواصل رضا حوحو حواره مع حمار الحكيم في نقد المناهج التي تثقل كاهل المتعلّم لأنّها تعتمد على الاستظهار فقط دون الفهم فيكبر المتعلّم بليدا لا فهم له ولا إدراك وحينئذ يتعسّر علاجه.

ورأي حوحو رأي له ما يعضّده، وهو في رأيي عين ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدّمته حينما قال: "إنّ المتعلّم إذا حصّل مَلَكة ما في علم من العلوم استعدّ بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خُلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال، وانطمس فكره ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم"[18].

ويحاول رضا حوحو في قصة "التلميذ" معالجة ظاهرة الفرق الذي كان سائدا بين سكّان الأرياف وبين مدن الشمال فيما يتعلق بالتعليم وهو ابن الرّيف الذي عايش ذلك الفرق الكبير أثناء مراحل تكوينه العلمي حينما انتقل من الزاب الشرقي إلى المدرسة الفرنسية في الساحل(سكيكدة). وهو إذ ينقل قصّة التلميذ القروي **"دروت"** يعطي النموذج الذي يجب أن يحتذي به الطلّاب في القرى حيث الفقر وشظف العيش يقفان حائلا أمام

16- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم، ص: 89و90.

17- ابن خلدون: المقدمة، ص: 606.

18- ابن خلدون: المقدمة، ص: 606.

العلم والتحصيل. **"دروت"** الذي كان ابن خبّاز فقير في مدينة ميتز بفرنسا وكيف ضحك عليه أبناء المدن حين قدم إلى ميتز للمشاركة في مسابقة الدخول إلى الكليّة الحربية وسخروا من مظهره الرّيفي ونعله الممتلئ بالوحل، ولكنّه في الأخير نجح وصار القائد العظيم في جيش نابليون الأوّل. بعدما كان يجمع بين الدراسة والعمل اليومي لعائلته الفقيرة.[19]

لم ينسَ حوحو حال المعلّم والذي يدعو من خلال قصته "سي زعرور"-الشخصية المقتبسة من الفرنسية- إلى وجوب إعطائه مكانته اللائقة ماديّا ومعنويا. سي زعرور ذلك المعلّم الرّسالي والذي للأسف تحوّل مع الوقت ونتيجة للضغوط الإدارية والاستغلال في مجتمع تحكمه الماديّات من التعليم بعد أن طرد من وظيفته بسبب جشع الإدارة إلى عالم المال والصرف ليصير بعدها رغم فساده مقصد العام والخاص تُهدى إليه رغم فساده الأوسمة التي حرم منها وهو يمارس أنبل وأشرف مهنة لا لشيء إلا للمال. المال الذي يصفه حوحو قائلا: "والمال في عرف البشر هو الفضيلة وهو الشرف وهو العلم والأدب."[20]

وكلام حوحو عن التعليم ونقده لمناهج تعليم المدارس الأهلية والإدارة ليس كلام رجل بعيد عنهما فهو قد عانى مهنة التعليم وإدارة مراكز التعليم فقد كان عُيّن- كما أسلفنا - مديرا لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية لمدّة سنتين ثمّ مديرا لمدرسة شاطودان (شلغوم العيد حاليا). وفي كتابه "مع حمار الحكيم" ينتقد حوحو التعليم الرسمي وهو التعليم الذي تشرف عليه السلطات الاستعمارية في ذلك الوقت مبيّنا أنّ الغاية منه تجهيل الشعب وفصله عن هويته ومقوماته مستعملا حوحو أسلوب السخرية والتهكم كعادته قائلا: "قلت: -هناك التعليم الرسمي وهو مبني على قاعدة فلسفية عميقة وغامضة في نفس الوقت، وهو تعلّم لتجهل.."[21]. وما يجعل أحكام وآراء رضا حوحو ذات قيمة علمية هو أنّ الرجل قد درس التعليم الشرعي في صغره ودرس التعليم الرسمي الفرنسي، كما اطلع على الفكر الإسلامي والفكر الغربي الذي يجيد لغته جيّدا هو الآخر ممّا يتيح له المقارنة بين التعليم الرسمي والتّعليم الحرّ الذي كان في المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين.

ت ـ بين التديّن الفعلي والمغشوش:

يعرض لنا حوحو في قصة "الشيخ زروق" أحد النماذج لأصحاب التديّن المغشوش ممّن يستغلّون العاطفة الدينية للنّاس لقضاء مآرب ومصالح فردية ضيّقة. وفي قصّة "سيدي الحاج" وهو رجل أمّي لا يتقن لا العربية ولا الفرنسية وبالرغم من كلّ ذلك فهو

19- أحمد رضا حوحو: نماذج بشرية، ص: 63.

20- المرجع نفسه، ص: 55-62.

21- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم، ص: 16.

يمتلك منصبا مرموقا في إدارة حكومية، والأدهى من ذلك كلّه فهو لا حظّ له حتى في المعلوم من الدّين بالضرورة رغم أنّه يخفي جهله بلحيته الكثيفة وهندامه العربي الذين يخدعان الناظر إليه فيظنه من كبار علماء الدّين، وهو الذي ابتدأ في وضوئه برجليه!!!

ث ـ رضا حوحو ونقد الاستشراق والفكر الغربي:

خصّص حوحو في "حمار الحكيم" مكانا للحديث عن الاستشراق، والفكر الغربي ونظرة الغرب للشرق، تلك النظرة الدونية للعالم الشرقي، فكم من كاتب غربي حسب حوحو له من الكتابات الرصينة في مجالات عديدة تحظى باحترام القارئ حتّى إذا تناول بالكتابة موضوع الشرق والشرقيين (العالم الإسلامي) نزل من صرحه الشامخ إلى الدرك الأسفل بتعبير رضا حوحو فيأتي بالسخافات نتيجة تعصبه المقيت الذي يبعده عن الموضوعية وما يقتضيه البحث العلمي. ويختم حوحو حديثه عن البون الفكري بين الشرق والغرب بكلام غاية في العمق: "ثم قلت-كيف يتسنّى للغرب الممعن في المادّية أن يفهم ويدرك حقائق الشرق؟ اللّهم إلا إذا تسنّى للمادّة أن تستجلي كنه الروح الخفيّ.. ألا ترى بعد هذا أنّ الشقّة بعيدة بيننا، بعد الشرق عن الغرب"[22]. وفي خضّم حديثه عن الاستشراق وهو أداة من أدوات الاستعمار الفكرية يفضح حوحو وسائل المستعمر في ادّعائه أنّه يحمل رسالة حضارية تمدينية ولو تعلّق بأكثر أعماله وحشية تجاه الدول والشعوب المستعمَرَة، مع نظرته الدونية إلى شعوبها ونعتها بالانحطاط، وتصوير الغربي بالمعلّم المثالي والشرقي بالتلميذ البليد.

جـ ـ رضا حوحو والسَياسة:

يرى حوحو أنّ النضال السياسي يجب أن يبنى على أساس أخلاقي فهو نضال دائم ودؤوب يعتمد على المبادئ والأفكار والسياسة وسيلة لتحقيق الغاية الشريفة منه وهي المصلحة العامّة، لا أن تعتمد على المصالح الشخصية والحزازات الفردية. وبرى حوحو أنّ عمل الأحزاب السياسية –منتقدا الأحزاب السياسية في وقته-يجب أن لا يقتصر على العمل السياسي والانتخابي فقط، ولكن أن يوجّهوا بعض جهودهم إلى رفع مستوى الأمّة الثقافي.[23] فهو يرى أنّ المقاومة الثقافية للاستعمار يجب أن تأخذ حظها من المقاومة السياسية والعسكرية ذلك أنّ تثقيف الشعب وتنويره هو أساس كلّ مقاومة.

22- المرجع نفسه، ص: 43.

23- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم، ص: 72و73.

4. **خاتمة**:

خِتاما؛ وبعد عرض نُتفٍ ممّا حوته بعض مؤلفات حوحو خاصة في القصّة القصيرة من آراء إصلاحية في الجانب الاجتماعي تنضوي كشكل من أشكال المقاومة الثقافية الجزائرية للاستعمار الفرنسي، فإنّ حوحو يعتبر بامتياز مصلحا اجتماعيا من روّاد الإصلاح الاجتماعي في الجزائر، وقد تفرّد باستغلال موهبته الأدبية بالكتابة في جنس أدبي له ممّيزات خاصّة ما جعل عبد الرحمان شيبان -وهو صديقه الذي عاصره-يصفه بالمصلح الاجتماعي .

إنّ اغتيال الاستعمار الفرنسي الغاشم لرائد من روّد المقاومة الثقافية والإصلاح الاجتماعي في الجزائر وهو أحمد رضا حوحو لم يكن اعتباطا وإنّما للخطر الكبير الذي كان يشكّله فكره وأدبه في كشف المستعمر وفضح نواياه، كيف لا وهو الذي ما فتئ يعمل جاهدا على تنوير الرأي العام متسلّحا في نضاله الثقافي بالثقافة الإسلامية ومستغلّا معرفته واطّلاعه في ذات الوقت على ثقاقة المستعمر ولغته.

إنّ هدف حوحو من الأدب وفي عرضه للنماذج البشرية هو التعليم والإصلاح الاجتماعي، ولذا نجده يلتمس الأعذار لبعض الشخصيات التي تتوافق والنماذج البشرية التي يعرضها في قصصه نتيجة الجهل والبيئة المحدودة بقوله: "...وسنحكم عليهم حكما خاطئا لأنّنا سنخضع في حكمنا إلى قواعد وأصول تعلمناها وفرضها علينا العلم والعقل المثقف، مع أنّ هذه الشخصيات توصلت إلى ما توصلت إليه على ضوء فطرتها وهضمته بجهاز طبيعتها في محيطها الضيق وبيئتها المحدودة..."

لا يزال أدب رضا حوحو يحتاج إلى قراءة واعية من الباحثين، فهو مادة يفيد منها الأديب والمؤرّخ وعالم الاجتماع، كما أنّه يعتبر عينًا ثرّة لمن يكابدون العمل الإصلاحي في الميدان الاجتماعي.ذلك أنّ مجتمعنا على حدّ تعبير عبد الرحمان شيبان وإن تحرّر إلى حدّ بعيد من الخرافات التي نسجتها الجهالة على عقيدته الدينية فلا يزال خرافيا في السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم.

تناول المؤلّفون والدارسون الجانب التاريخي من حياة وسيرة رضا حوحو بالكتابة، ونالت الدراسات الأدبية حظا من كتاباته الأدبية كرسائل جامعية، ولكن البعد الفلسفي والفكري لمؤلفاته، وكذا الاجتماعي(علم الاجتماع) لا يزال حقلا بكرا لمن يروم التنقيب والبحث.

إنّ قراءة أدب حوحو يجب أن يتعاون فيه المؤرّخ والأديب وعالم الاجتماع وعالم النّفس والفيلسوف، لرجل عاش في الرّيف وفي كبريات المدن، ورحل وارتحل فشّرق وغرّب

ودرس الأدب العربي والغربي، واكتوى بنار الاستدمار، وتجشّم عناء التعليم والإصلاح. فأيّ قراءة من جانب واحد في مؤلفاته تبقى قراءة ناقصة لا يُعوّل عليها في بناء مشروع إصلاحي كامل ومتكامل.

إنّ الدارس لمؤلفات حوحو يعي أهمّية استغلال مثل هذه الأجناس الأدبية في الإصلاح الاجتماعي والبناء الحضاري، وهو الذي كان يدعو في "حمار الحكيم" في نقده للحركة الأدبية في عصره إلى توجيه حركة الكتابة الأدبية لخلق حركة البناء الثابت والإنشاء المجدي.لا أن تُترك تسير دون قيادة ولا توجيه لتقوّض في يوم ما أُنشأ في سنين.وخير الأدب كما قال شيبان في تقريضه لكتاب رضا حوحو ما كان من الشعب وإلى الشعب.

5. قائمة المراجع:

*** المؤلفات:**

- إنريكي أندرسون إمبرت: القصة القصيرة: النظرية والتقنية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، دط، 1999.

- روبرت، دي بوجراند: النّص والخطاب والإجراء، عالم الكتب، القاهرة، ،ط1، 1998.

- حوحو، أحمد رضا، مع حمار الحكيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1982.

- حوحو، أحمد رضا، نماذج بشرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جمهورية مصر العربية، دط، 2012.

- حوحو، أحمد رضا، غادة أمّ القرى، وزارة الثقافة، الجزائر، دط، 2007.

- الخرفي، صالح، شهيد الثورة الجزائرية أحمد رضا حوحو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دط، 1992.

- ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدّمة، دار الفكر، لبنان، ط1، 2004.

- رمضان، محمّد الصالح، شهيد الكلمة رضا حوحو، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر. الطبعة، 1984.

- سعد الله، أبو القاسم، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007.

*** المقالات:**

- بشرى، سلواني، الخصائص الفنيّة للقصة القصيرة جدّا.قراءة في متون مغربية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، 69، مايو 2021، 97-108.

الشّيخ محمّد خير الدّين الفَرْفاري البَسْكَري
وجُهودُه الإصلاحيّة والتربويّة في الجَنُوب الشَّرقي الجَزائري
1930 ـ 1962م

Sheikh Muhammad KhairEddin Al-Farfari Al-Biskri and his reformist and educational efforts in the southeast of Algeria during the period from 1930-1962

أ.د/ نبيل موفق

مخبر الدّراسات الفقهيّة والقضائيّة ، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (**الجزائر**)

mouffok-nabil@univ-eloued.dz



ملخص: جاء هذا البحثُ ليجلّيَ حياة ونشأة أحد روّاد الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائري، ألا وهو الشّيخ الأستاذ محمّد خير الدّين الفَرْفاري الطّولقي البَسْكَري، فتمّ عرضُ أهمّ معالم المنهج الإصلاحي، والنّضال الثّقافي، والجهاد الدّعوي، والنّشاط التّربوي لهذه الشّخصية، وبيان أثر جهوده في محاربة السّياسة المنتهجة من قبل المحتلّ الفرنسي؛ وذلك للحفاظ على الهويّة الإسلاميّة والعربيّة للشّعب الجزائري، وخَلُص البحثُ إلى أنّ نظرة ومنهج الشّيخ محمّد خير الدّين للإصلاح لم يفرّق فيه بين الإصلاح الدّيني والثّقافي والإصلاح الوطني، بل جمع بينهما بذكاء وقّاد، وحكمة بالغة، جلّت على جهوده الكبيرة في إعادة تأهيل أفراد الشّعب الجزائري في الجنوب الشّرقي وغيره علمياً وثقافياً وتربويّاً.

الكلمات المفتاحية: محمّد؛ خير الدّين؛ جهوده؛ الإصلاحية؛ التّربويّة.

Abstract :

This research came to clarify the life and upbringing of one of the pioneers of reformist thought in the southeast of Algeria, namely, Sheikh Professor Muhammad KhairEddin Al-Farfari Al-Toulqi Al-Biskari. adopted by the French occupier; In order to preserve the Islamic and Arab identity of the Algerian people, the research concluded that Sheikh Muhammad Khair al-Din's approach to reform did not differentiate between religious and cultural reform and national reform, but rather combined them with intelligence, leadership, and great wisdom, which demonstrated his great efforts to rehabilitate the Algerian people in Southeast Asia and others scientifically, culturally and educationally.

Keywords: Mohammed; Khaireddin; his efforts; reformatory; pedagogical**.**

1. مقدمة

من الحقائق التي يتّفق عليها جميع العقلاء، أنّ تقليب صفحات التّاريخ والبحث فيها عن سير وتراجم وجهود القيادات والشّخصيات في أيّ بلد من البلدان يُعدّ عملاً ضرورياً ومهمّاً لكي يتسنّى ربط الأجيال اللّاحقة بأسلافها، لأنّ الحضارة الإنسانية ذات طبيعة تراكميّة تكامليّة يبدأ المتأخّر من حيث انتهى المتقدّم، وهكذا حتّى تسير عجلةُ البناء الحضاري والعمراني لأمّة من الأمم. وعليه فاستجلاء مواقف المصلحين وأصحاب النّضال الثّقافي في تاريخ الجزائر، ومدارسة جهودهم في مجابهة المحتلّ الفرنسي وإفساد مشروعه لطمس الهوية الدّينية والوطنية للشّعب الجزائري من أعظم ما يمكن أن يهتمّ به المؤرّخون والمثقّفون؛ وذلك في شكل ملتقيات ومؤتمرات وندوات كهذا الملتقى الذي يقيمه معهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي بعنوان: "المقاومة الثّقافية لأعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائري ما بين 1900م-1962م".

وحينما عزمت المشاركة في هذا الملتقى أخذت أبحث عن أحد أعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائري ممّن كانت لهم بصمة واضحة في النّضال الثّقافي والتّربوي والدّعوي من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية للشّعب الجزائري، وباعتباري من منطقة الزّيبان بالرّبوع البسكريّة وقع اختياري على أحد الرّوّاد الذين حملوا رسالة العلم والتّربية والإصلاح للدّفاع عن الهويّة الوطنية من أبناء تلك المنطقة مولداً ونشأةً وتعلّماً ودعوةً وإصلاحاً ألا وهو الشّيخ الأستاذ محمّد خير الدّين الفرفاري الطّولقي البسكري؛ والذي عاش في ظروف استعمارية قاسية جعلت منه مصلحاً مثقّفاً، وعالماً معلّماً. والفترة الإصلاحيّة للشيخ التي تناولها البحث تمتدّ بين 1930م إلى 1962م، وهي الفترة المحدّدة ببدايات العطاء الإصلاحي والثّقافي للشّيخ لأنّه في سنة1930 كان عمره ثمانيةً وعشرين سنةً، ووقتها برز الشّيخ كقائد من قادة الحركة الإصلاحيّة خاصة والحركة الوطنية بشكل عام.

*** الإشكالية:**

تتمثّل إشكالية هذا البحث في دراسة علم من أعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشّرقي الجزائري وهو الشّيخ محمّد خير الدّين الفرفاري؛ فمن هو الشّيخ محمّد خير الدّين؟ وما هي أهمّ جهوده الإصلاحيّة والتّربويّة خلال الفترة ما بين 1930م و 1962م؟

*** أهداف البحث:**

بيان جوانب مهمّة من حياة الشّيخ محمّد خير الدّين من حيث نشأته العلمية، والوظائف التي زاولها، والمسؤوليات التي تقلّدها، والآثار التي خلّفها، عسى أن تكشف الغطاء على معالم هذه الشّخصية الوطنية والإصلاحية الفذّة في جنوبنا الشّرقي للوطن. تسليط الضّوء على الجهود الإصلاحيّة التي قام بها الشّيخ محمّد خير الدّين، والذي يعتبر

من الرّواد الأوائل الذين التحقوا بركب النّضال الإصلاحي في مواجهة مشاريع التّجهيل والتّفقير والتّضليل والإقصاء التي كان يمارسها المحتلُّ الفرنسي ضدّ الشّعب الجزائري. تجلية المكانة التي تبوّءها الشّيخ محمّد خير الدّين عند كبار المصلحين والدّعاة الذين عاصرهم وعلى رأسهم العلاّمة عبد الحميد ابن باديس الذي كان موطن ثقته بحيث كلّفه بالعمل الإصلاحي والتّربوي على مستوى الجنوب الشّرقي آنذاك.

عرض لأهمّ المواقف والجهود التي قام بها الشّيخ محمّد خير الدّين في مجال التّربية والتّعليم، وصون اللّغة العربية من خلال نضاله الصّحفي، ونشاطه الدّؤوب في العمل القاعدي وتنشئة الأجيال، وتربيتهم على الدّين الإسلامي واللّغة العربية، وتقريبهم من تاريخهم المجيد الذي يعبّر عن هويتهم الوطنية الحقّة.

2. حياة الشّيخ محمد خير الدّين وآثاره:

1.2. الفرع الأوّل: ميلاده ونشأته

الشّيخ محمّد خير الدّين مصلح جزائري وهو من بين الرّجال الذين أسهموا في إرساء الحركة الإصلاحيّة في الجزائر، وقد تميّز بنضاله الوطني في الدّفاع عن الهويّة الجزائريّة بمختلف الوسائل، عن طريق تأسيس المدارس للتّعليم والوعظ والإرشاد في المساجد والمساهمة بالمقالات المختلفة في الصّحافة الإصلاحيّة، ومشاركته في الثّورة التّحريريّة، وهذا كلّه في سبيل الدّفاع عن الوطن ومقاومة المستعمر الأجنبي.

أوّلا- ميلاده:

وُلد محمّد خير الدّين في شهر ديسمبر سنة 1902م ببلدة "فرفار[1]" بواحات الزيبان (طولقة) ببسكرة من أبٍ يُدعى خير الدّين بن محمّد أبي جملين، وأمّ هي الحاجة الزّهراء بنت المغربي، وقد كان الشّيخ محمّد خير الدّين محظوظاً في طفولته نظراً للجوّ الذي وجده في عائلته كما أنّ والده كان مهتمّاً به وبإخوانه على أن يسلكوا الطّريق الصّحيح والتّربية الدّينيّة التي لا توجد أحسن منها ويبدو أنّ نهج العلماء والمصلحين بدأ يرتسم في ذهن الابن الأكبر حيث كان يسمع ويرى هؤلاء الشّيوخ والعلماء والمصلحين داخل المنزل كيف يتناقشون ويتحادثون، فكان ذلك مهمّاً له في تكوينه. لقد نشأ محمّد خير الدّين في أسرة ميّزها التّعاون والاحترام المتبادل، فقد كان متعوناً مع إخوته خاصة ما تعلّق بالأرض التي علّمتهم الصّبر، فقد كانوا يملكون أرضاً فلاحيّةً تزخر بنخيلها ومائها وخيراتها، واهتمّوا بها لأنّ الأرض هي مصدر مهمّ للرّزق خاصة في الجنوب وهو عنوان الثّراء في ذلك الوقت، وقد مدح الكثير بسكرة حتّى لقّبوها بعروس الزّيبان العربيّة، وعاصمة الصّحراء القسنطينيّة، وقد عرّفها المؤرّخون منذ القديم بكثرة العمران ورواج التّجارة والفلاحة، وتربية المواشي وخدمة

1- بلدة فرفار من قرى مدينة طولقة بولاية بسكرة بالجنوب الشّرقي الجزائري.

البساتين، وأهمّ بضائع التّجارة فيها إلى الآن التّمر بأنواعه[2].

وقد استفاد الشّيخ محمّد خير الدّين في بداية حياته من منزله ووالده كما أنّ الفلاحة أدخلته في ميدان التّجارة، وبذلك نمى فيه نشاط كبير استغلّه في البحث عن العلم والمعرفة، حيث انتقل إلى قسنطينة لينهل من منابع محاضرها ومعاهدها ثمّ سافر إلى تونس ليتتلمذ على كبار علماء جامع الزّيتونة، وقبل أن يُنهي تعليمه بتونس بعام أي في سنة 1924م توفي والده، حيث أوكلت له مسؤوليّة ثقيلة بعد عودته من تونس وإنهاء دراسته، فوجد نفسه مكان والده لرعاية إخوته خاصة الأخ الأصغر عبد السّلام الذي كان عمره حينها عامين، فالاهتمام بشؤون العائلة وشؤون الفلاحة أصبحا أمرين ضروريين، فيقول الشّيخ خير الدّين في مذكّراته: "عدت إلى الجزائر سنة 1925م وكان والدي قد توفّي في أواخر عام 1924م، عن عمر لم يتجاوز تسعةً وأربعين عاماً؛ فألفيت نفسي أمام وضع جديد كان لزاماً عليّ أن أواجهه وأن أتحمّل فيه المسؤوليّة كاملةً فقمتُ بتربية إخوتي وتوجيههم التّوجيه السّليم، وحافظتُ على ما ترك والدنا من ثروة الأملاك الفلاحيّة والتّجاريّة، واجتهدتُ في العمل على تنميتها وتنظيمها معهم"[3].

وقد كانت الظّروف مضطربة في نهاية العشرينيات حيث وقع صدام بين الشّيخ محمّد خير الدّين وبن قانة شيخ العرب؛ وقد كانت واحات الزّيبان تحت الحكم العسكري، ونشاط الشّيخ في فرفار وضواحيها جعل السّلطات الفرنسيّة وعملاءَها يدقّون ناقوس الخطر ونظراً للمضايقات والشّكاوى التي كانت تعرقله، انتقل رفقة والدته وإخوته إلى بسكرة سنة 1930م التي كانت تحت الحكم المدني وهناك اشترى داراً وبستاناً من النّخيل وأعدّ مركزاً للعمل التّجاري[4]. وقد كان انتقاله هذا بداية مرحلة مهمّة في حياته على مستوى المجالين المادّي والإصلاحي؛ فالأوّل كان بتعاون جميع إخوانه، والثّاني كان بمفرده حيث سينضمّ إلى الحركة الإصلاحيّة التي قادها الشّيخ الطّيّب العقبي ببسكرة، وبالتّالي انفتح الباب الإصلاحي أمامه وتبدأ مسيرة جديدة وطويلة في نضاله الوطني.

ثانياً- تعليمه ورحلاته:

بدأت رغبة الشّيخ محمّد خير الدّين في التّطلّع نحو العلم والمعرفة منذ أن كان طفلاً، حين كان بعض الشّيوخ يجتمعون في منزلهم مع والده فكان يسمع ويرى ما يدور بينهم من حديث ونقاش كما أنّ والده حرص على تعليم أبنائه القرآن الكريم وقراءة المتون العلميّة وإقامة الصّلوات وبذلك فقد تعلّم الابن الأكبر الكتابة والقراءة وأتمّ حفظ القرآن الكريم. ورغبة الشّيخ في الاستزادة من العلم والنّهل من ينابيعه جعلته يفكّر في أن يذهب بعيداً في

2- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، دار النّعمان، الجزائر، ط1، 1014م، ص17.

3- محمّد خير الدّين، مذكّرات الشّيخ محمّد خير الدّين، مؤسّسة الضّحى، الجزائر، 2002م، ج1، ص70.

4- المصدر نفسه.

طلبه، فقام برحلتين هامّتين في حياته التّحصيليّة جعلتا منه فيما بعد قائداً من قادة الإصلاح في الجزائر، فالأولى كانت نحو مدينة قسنطينة، والثّانية باتّجاه جامع الزّيتونة بتونس. فالرّحلة الأولى نحو قسنطينة كانت المحطّة الأولى التي أخذ منها الشّيخ ينابيع العلم، والسّبب في رحلته هو والده الذي زار قسنطينة في أكتوبر1916م لقضاء بعض شؤونه وتوجّه إلى مسجد الأربعين شريفاً لأداء الصّلاة، وحضر درس إمامه الشّيخ الطّاهر بن زقوطة، وبعد الفراغ من الدّرس تحدّث الوالد مع الإمام بشأن تعليم أبنائه، فسأله إذا كان أحدهم قد أتمّ حفظ القرآن فأجابه أنّ ابنه الأكبر قد أتمّه، فعرض عليه الشّيخ أن يبعثه إلى قسنطينة، وعندما وصل اتّجه إلى مسجد الأربعين شريفاً ووضع أغراضه في بيت أُعدّ له[5].

وقد كانت بمدينة قسنطينة حركة علميّة منقطعة النّظير، وكان بها ثلاثة مراكز تعليميّة وهي: الجامع الأخضر، ويدرّس فيه الشّيخ عبد الحميد ابن باديس ويضمّ 200طالباً، وجامع الكتّاني ويدرّس فيه الشّيخ أحمد الحبيباتني، ويضمّ حوالي 50 طالباً، ومسجد الأربعين شريفاً ويدرّس فيه الشّيخ الطّاهر بن زقّوطة ويضمّ حوالي 20طالباً كان من بينهم الشّيخ محمّد خير الدّين آنذاك، حيث بدأ دروسه سنة 1916م على يد شيخه وأستاذه الطاهر بن زقوطة، يقول عنه الشّيخ أحمد حمّاني: "وقد عرفت الشّيخ الطّاهر خطيب جامع "سيدي الكتاني" أو "صالح باي" وكان عظيم التّحصيل كفؤ في مهنته، يشتغل بتلقين الطّلبة الواردين مختلف الفنون الإسلاميّة، والعلوم العربيّة"[6]. وأمّا الشّيخ محمّد خير الدّين فيقول في مذكّراته: "تلقّيت الدّرس الأوّل عام1916م على يد الشّيخ الطّاهر في علم النّحو، وتابعت دراستي فقرأت عليه كتاب (الأجرّومية) في النّحو، ومنظومة (الرّحبية) في الفرائض، و(الرّسالة) لابن أبي زيد القيرواني في الفقه"[7].

أمّا الرّحلة الثّانية فقد كانت إلى تونس؛ حيث التحق بجامع الزّيتونة عام 1918م، بعد أن تعلّم بقسنطينة عامين انتهل منها بعض العلوم لكنّ شغفه لمزيد من العلوم والمعرفة وسماعه الأخبار الجامع وما فيه من المزايا دفعه إلى الارتحال، قال الشّيخ في مذكّراته: "ثمّ دخلت الجامع فهالني ما رأيتُ من فروق واضحة بين الحياة العلميّة في هذا المسجد العامر، والحياة العلميّة في قسنطينة، فقد شاهدتُ عشرات الحلقات العلميّة يقوم بإلقاء الدّروس فيها أساتذةٌ أجلاّء... ينهمرُ العلم من أقوالهم كالسّيل الدّافق وقد جلس التّلاميذ لسماع الدّروس... وعلى سيماهم الرّغبة الصّادقة... على يمين المحراب وشماله خزائن الكتب التي تبرّع بها الخيّرون... هناك مكتبة العبدليّة الكبيرة الواسعة"[8].

5- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، ص91.

6- أحمد حمّاني، صراع بين السّنّة والبدعة، دار البعث قسنطينة، ط1، 1984م، ج2، ص279.

7- محمّد خير الدّين، مذكرات الشّيخ محمّد خير الدّين، ج1، ص64.

8- المصدر نفسه.

وبعد أن أكمل الشّيخ سبع سنوات من الدّراسة أصبح مرشّحاً للحصول على الشّهادة النّهائيّة وهي شهادة "التّطويع" وبالتّالي كان لزاماً عليه أن يقوم بالامتحان حيث يشرف عليه مجلس شرعي برئاسة شيخ الإسلام وقاضيين أحدهما مالكي والآخر حنفي، كما يحضر النّاظر العام للجامع والمدرّسون وعددٌ من الطّلاّب وكان الطّالب يُجري ثلاث مراحل: كتابية، وشفويّة، وتطبيقيّة، وفي شهر جوان عام1925م تقدّم الشّيخ إلى الامتحان فكان موضوع مقالته "القسمة عند فقهاء المالكيّة" فأجاد في عرضها وتفصيلها، أمّا موضوع الدّرس فكان في مادّة النّحو وهو شرحُ بيتَيْن من ألفيّة ابن مالك استغرق فيها ساعة من الزّمن في الشّرح مقدّماً الأدلّة العلميّة، وقد أثنى عليه أعضاءُ اللّجنة خاصّة الشّيخُ العلاّمةُ محمّد الطّاهر ابنُ عاشور، وبعد ثلاثة أيّام عُلّقت النّتائجُ على جدران الجامع الأعظم وتحصّل الشّيخ محمّد خير الدّين على الرّتبة الثّانية من بين خمسين طالباً ناجحاً[9]. وذاع هذا الخبرُ حتّى تناقلته الصّحفُ والجرائد الجزائريّة، فقد كتبت جريدة النّجاح في أحد أعدادها: "فاز في امتحان الكلّية الزّيتونيّة هذه السّنة العلماء الأجلاّء المشايخُ السّادةُ: الطّيّب بن الشّيخ الهاشمي من وادي سوف... ومحمّد خير الدّين الفرفاري فنهنّئهم بالدّرجة العلميّة التي حصلوا عليها بفضل كدّهم وألمعيّتهم كما نهنّئ القطر الجزائريّ بهم"[10].

لقد استفاد الشّيخ محمّد خير الدّين من رحلته إلى تونس، وقبلها إلى قسنطينة حيث حصل على أعلى الشّهادات العلميّة في ذلك الوقت من الزّيتونة، واستزاد بالعلم والثّقافة العربيّة الإسلاميّة من جهة أخرى، ويبدو أنّه استفاد أموراً أخرى على حسب ما ذكر في مذكّراته أشعلت فيه روح الوطنيّة حيث أنّه حضر بعض المظاهرات التي وقعت في تونس ضدّ الفرنسيين، وهذا ما أثّر في تكوينه وهيّأه لمجالين هما الإصلاح الدّيني والإصلاح الوطني، فيقول: "وهكذا استفدتُ من إقامتي بتونس –زيادة على العلم- بزاد آخر سياسي واجتماعي ثري، ورجعت إلى الجزائر مؤمناً بأنّ نهضتنا تتحقّق بالعمل في المجالين السّابقين، إحياء الدّين، وإذكاء روح النّهضة بين المواطنين"[11].

2.2. **وظائفه وآثاره ووفاته**:

أوّلا- وظائفه ومسؤولياته:

يُعتبر الشّيخ محمّد خير الدّين من أبرز قادة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين فعلمه وعمله وحنكته عوامل جعلته يتقلّد وظائف ومسؤوليّات خلال مسيرته الإصلاحيّة والتّربويّة والنّضاليّة؛ فأيّامه كانت تنقّلات مستمرّة في مختلف مدارس ومساجد أنحاء القطر

9- المصدر السّابق، ج1، ص66.

10- جريدة النّجاح، مقال العلماء الجدد من كلّيّة الزّيتونة، العدد 216، 10 جويليّة1925م.

11- محمّد خير الدّين، مذكّراته، ج1، ص68.

الجزائري، وفيما يلي عرضٌ لأهمّ الوظائف التي شغلها والمسؤوليات التي تقلّدها[12]:

يُعتبر الشّيخ محمّد خير الدّين من المؤسّسين الأوائل لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931م. عُيّن كعضو مستشار في الاجتماع الثّاني للجمعيّة عام 1932م ثمّ أصبح مراقباً عامّاً لها. تولّى بامتياز جريدة البصائر منذ صدورها في 27 ديسمبر 1935م إلى ان توقّفت عند العدد 180 في25أوت 1939م، والجمعيّة هي التي أوقفتها حتّى لا تكون مضطرّةً لنشر ما يُخالف مبادئها وكذلك فعلت بمجلّة الشّهاب. عُيّن كعضو في اللّجنة التّنفيذيّة للمؤتمر الإسلامي عام 1936م. شارك في "البيان الجزائري" في فيفري 1943م إلى جانب فرحات عبّاس وممثّلين آخرين لمختلف الاتّجاهات الوطنيّة. وتولّى نيابة رئاسة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في عهدها الثّاني من 1946م إلى 1956م إلى جانب الشّيخ العربي التبسي. تولّى نيابة إدارة معهد ابن باديس بقسنطينة الذي تأسّس سنة 1947م. كان عضواً مؤسّساً في جبهة الدّفاع عن الحريّة واحترامها، التي تأسّست في أوت 1951م، ومعه الشّيخ العربي التبسي، وقد شارك باسم جمعيّة العلماء إلى جانب اتّجاهات أخرى.

انضمّ الشّيخ محمّد خير الدّين إلى الثّورة والتحق بركب الكفاح رفقة ثلّة من العلماء كالشّيخ العربي التبسي، والشيخ أحمد حمّاني وغيرهما، ممّا زاد في قوّة وصلابة الثّورة ومن بين الوظائف والمسؤوليات التي مارسها أثناء الثّورة: عُيّن كممثّل لجبهة التّحرير الوطني في المغرب، وبقي مسؤولاً سياسياً في المغرب حتّى أخذت الجزائر استقلالها سنة 1962م حيث عاد إلى الوطن وعيّن عضواً في البرلمان الجزائريّ الأوّل، لكنّه استقال منه فيما بعد. شارك في مؤتمر طنجة المنعقد من 27-30أفريل 1958م إلى جانب فرحات عبّاس، عبد الحفيظ بوصوف، وعبد الحميد مهري، أحمد بومنجل. عُيّن كعضو بالمجلس الوطني للثّورة الجزائريّة.

ثانياً- وفاته آثاره:

عاش الشّيخ واحداً وتسعين عاماً، جزؤها الأكبر عاشه أثناء الفترة الاستعماريّة، حيث كرّس حياته في سبيل الدّفاع على مقوّمات الشّخصيّة الوطنية من لغة ودين في إطار جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ثمّ جندياً في الثّورة التّحريريّة. أمّا بعد الاستقلال فنشاطه كان محدوداً وقليلاً نظراً لتقدّمه في السّن، ومنذ بداية الثّمانينات مال إلى العزلة وقراءة الكتب، واقتناء المخطوطات النّادرة، وتمكّن من إنشاء مكتبة عظيمة يعتزّ بها ويعمل لإنمائها، وكثيراً ما كان يستقبل في داره بعض إخوانه القدماء من علماء وسياسيين ومناضلين وتجّار، يحمل

12- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، ص91-92، وعمّار هلاّل، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1995م، ص273، محمّد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة هومة، الجزائر، 2000م، ج2، ص10، جريدة المنار، مقال: لجنة إنشائيّة لتأسيس جبهة جزائريّة للدّفاع عن الحرّيّة واحترامها، العدد6، 30 جويلية 1951م، ص01، عمّار طالبي، آثار ابن باديس، دار النّهضة العربية، بيروت، ط1، 1968م، ج1، ص20-22.

له الجميع الاحترام والتّقدير والثّقة، ويجدون في حضرته الأنس والذّكريات العطرة[13].

توفي الشّيخ يوم الجمعة 26 جمادى الثّانية 1414هـ، الموافق لـ10 ديسمبر 1993م، في الجزائر العاصمة بعد مرض عضال ثمّ نقل جثمانه إلى بسكرة ودفن في 11ديسمبر بعد صلاة العصر في روضة أسرته بمقبرة البخاري، وقد قام بتأبينه الشّيخ علي المغربي بكلمة شملت معظم محطّات حياته، وشيّت جنازته في موكب عظيم ومهيب، وقد حضرها شخصيات علميّة وثقافيّة بارزة منها: محمّد الصّالح يحياوي، ومحمّد الشّريف مساعديّة، ومحمود الواعي سليمان الشّيخ، ومحمّد سعيدي وغيرهم، وكتب تلميذه الشّيخ أحمد سحنون فيه قصيدة رثائيّة تلاها نيابة عنه الشّيخ محمّد الطّاهر فضلاء[14].

وقد خلّف الشّيخ آثاراً لكنّها ليست بالكثيرة؛ فلم يترك سوى بعض المقالات التي نشرت في البصائر والشّهاب، فهو ممّن سخّر عمره في إعداد الرّجال الأبطال وتهيئة النّشء الجديد على تأليف الكتب، وذلك بسبب انشغاله بالتّعليم وتنقّله بين مدارس جمعيّة العلماء في مختلف أنحاء القطر الجزائري، والقيام فيها بالوعظ والإرشاد والتّعليم، أمّا أثناء الثّورة التّحريريّة فقد خصّص كلّ وقته للكفاح المسلّح من أجل تحرير البلاد، وبعد الاستقلال شارك في الحياة السّياسية إلاّ أنّ مشاركته لم تتعدّ العقد الثّاني نظراً لتقدّمه في السّنّ إضافة للمضايقات التي كان يتعرّض لها ممّا أدّى إلى انعزاله نهائياً، ومن الآثار التي خلّفها الشّيخ[15]:

- خلّف مكتبة هائلة زاخرة بشتّى أمّهات الكتب القديمة والحديثة من كلّ فن من فنون المعرفة، وقد قدّمها هديّةً لمكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة بقسنطينة، تحتوي على 770كتاباً في مختلف الفنون.

- أصدر مذكّراته في جزأين: الكتاب الأوّل يشتمل على كلّ نشاطه من صغره حتّى قيام الثّورة التّحريريّة، صدر عام1985م، والكتاب الثّاني: تحدّث فيه عن كلّ نشاطه من قيام الثّورة التّحريريّة إلى غاية الاستقلال، ثمّ أعادت مؤسّسة الضّحى طبعهما عام 2002م. له مجموعة من المقالات التي كتبها في جرائد وصحف الجمعيّة، وقد كتب الأغلبيّة منها في البصائر، وبعضها في الشّهاب، وهي تعالج مختلف المواضيع الدّينيّة والتّعليميّة. قام بتصدير مجموعة جريدة البصائر من ديسمبر1935م إلى جانفي 1937م بطلب من الشّيخ محمد الحسن

13- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، ص93.

14- أحمد سحنون، تأبينيّة شيخي العظيم الإمام محمّد خير الدّين، مجلّة الموافقات، العدد3، الجزائر، جوان 1994م، ص381.

15- عبد الحليم صيد، معجم أعلام بسكرة، ص92، وأسعد الهلالي، الشيخ محمّد خير الدّين وجهوده الإصلاحيّة في الجزائر 1902-1993، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، نوقشت عام2006م، ص55.

فضلاء –أحد تلاميذ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين- وكان ذلك عام 1984م. خلّف مقالاً بعد الاستقلال في مجلّة الثّقافة العدد81 ماي/جوان 1984م، عنوانه: "مناقشات حول خلافة ابن باديس".

ترك أثراً مادّياً هو مسجد "السّنّة" الذي بناه في الثّمانينيات بمدخل مدينة بسكرة، وتصميمه يشبه جامع الزّيتونة لكنّه أصغر حجماً منه، وهو يُبيّن اعتزاز الشّيخ محمّد خير الدّين بالزّيتونة التي كانت إحدى محطّات حياته الأساسيّة في دراسته ونضاله الدّيني والوطني.

3. جهود الشّيخ محمّد خير الدّين في المجال الإصلاحي:

يرتبط مفهوم الإصلاح بالحركة الإصلاحيّة التي ظهرت في الجزائر وتزعّمتها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التي تأثّرت بتيّار الجامعة الإسلاميّة الذي كان وراءه رجالٌ عظماء كجمال الدّين الأفغاني، ومحمّد عبده، ومحمّد رشيد رضا، الذين دعوا إلى التّمسّك بتعاليم الدّين الإسلامي الصّحيح ومحاربة البدع والخرافات، وكلّ ما يخالف كتاب الله وسنّة رسوله –صلّى الله عليه وسلّم-، ولسوف نتحدّث عن هذه الفكرة في الفرعين الآتيين:

3.1. مكانة الشّيخ محمّد خير الدّين في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين:

الشّيخ محمّد خير الدّين رائد من الرواد الأوائل، وعالمٌ من علمائها المصلحين وأحد أقطاب جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وكان من جيل الرّجال العمالقة وعلى رأسهم الشّيخ عبد الحميد بن باديس ومعه الشّيخ الإبراهيمي، والشّيخ مبارك الميلي، والأستاذ أحمد توفيق المدني، والشّاعر محمّد العيد آل خليفة، والشّيخ العربي التّبسي، وغيرهم كثيرون. وقد افتكّ الشّيخ مكانته منذ السّنوات الأولى للعمل الإصلاحي الذي قاده العلاّمة عبد الحميد ابن باديس في العشرينيات، فقد حضر اجتماع الرّوّاد سنة1928م، وكلّفه الشّيخ ابن باديس بالوعظ والإرشاد في "فرفار" وما جاورها من قرى واحات الزّيبان[16].

وبذلك فهو من الرّعيل الأول الذي تشرّف بوضع أسس الجمعيّة في 5ماي 1931م، ولكنّه لم يكن من أعضاء مجلس الإدارة الأوّل نظراً لانضمام ممثّلي الزّوايا والمثقّفين وأشخاص عاديين، وابن باديس لم يشأ أن يكون عدد العلماء المصلحين هم الأغلبيّة كي لا يُلفت انتباه الإدارة الفرنسيّة حتّى لا تقوّض نشاط الجمعيّة وتحول دون تحقيق أهدافها[17]. وظهر اسم الشّيخ محمّد خير الدّين في مجلس الإدارة بعد الانشقاق الذي وقع عام 1932م حيث تمّ إخراج ممثّلي الزّوايا والمرابطين بعد صراع عنيف قاده ابن باديس وزملاؤه وسمح

16- بسّام العسيلي، عبد الحميد ابن باديس وبناء قادة الثّورة الجزائريّة، دار النّفائس، بيروت، ط2، 1983م، ص7.

17- المصدر نفسه، ص9.

للحركة الباديسيّة بالانطلاق، فكانت هذه السّنة نقطة بداية إرساء جذور الجمعيّة عبر مختلف أنحاء القطر الجزائري، وأصبح الشّيخ محمّد خير الدّين مراقباً عامّاً للجمعيّة حيث كان يراقب كلّ نشاطات الجمعيّة وهي في الحقيقة مهمّة صعبة، كما أنّ هذه المكانة جعلت الشّيخ يتحرّك في كلّ الاتّجاهات خدمة لمبادئ الجمعيّة التي دافعت عن الدّين واللّغة والوطن.

ولقد كان الإمام ابن باديس يعتزّ كثيراً بالشيخ محمّد خير الدّين فأثناء تجديد المجلس الإداري عام 1938م وأثناء التّعريف بأعضائها قال: "وثالثهم الشّيخ محمّد خير الدّين عميد الحركة الإصلاحيّة في بسكرة وضواحيها وهو –من بين إخوانه- ممتاز بحسن التّدبير التّجاري والفلاحي، الذي قلّ أن لا يعود عليه بالأرباح لكنّه كثيراً ما ترك ذلك في سبيل خدمة الجمعيّة بذلك التّدبير، وهو مراقب الجمعيّة العام"[18]. لقد كان الاستعمار الفرنسي وعملاؤه يتتبّعون ما يقوم به الشّيخ محمّد خير الدّين وكانوا يعرفون أنّه أحد أعمدة الحركة الإصلاحيّة في الجنوب الشّرقي، وللحدّ من نشاطه وعرقلته صدر أمرٌ من عامل العمالة يقضي بنفيه، وأبلغه عميد الشّرطة ببسكرة بذلك ووضعه تحت الإقامة الجبريّة "بمجانة" في دائرة برج بوعريريج، وقضى بها شهرين ليطلق سراحه بعد استجوابه وتأكيده على أنّه يقوم بأعمال تربويّة دينيّة لا علاقة لها بالسياسة أو بتهديد فرنسا[19].

وإنّ الحنكة الدبلوماسيّة التي اكتسبها الشّيخ محمّد خير الدّين كان مصدرها تنقّلاته المستمرّة في أنحاء القطر في إطار جمعيّة العلماء، والصّدامات المستمرّة مع الإدارة الفرنسيّة كما أنّه كُلّف بمهمّة في غاية الأهمّيّة عام 1952م أثناء الاجتماع الذي عقدته جبهة ميثاق اتّحاد حزب الشّمال الإفريقي بباريس حيث شاركت فيه أحزاب مختلفة من تونس والمغرب وشارك من الجزائر حزب البيان الجزائري وحزب انتصار الحرّيات الدّيمقراطيّة، أمّا العلماء كان على رأسهم الشّيخ البشير الإبراهيمي الذي كان في الحقيقة هو الدّاعي إلى عقد هذا الميثاق، وقد خرج المؤتمرون بوثيقة سُلّمت إلى السّيّد "تريفيلي" الكاتب العام لجمعيّة الأمم، وقد قام الشّيخ محمّد خير الدّين، والشّيخ العبّاس بتسليمها نيابة عن وفد أحزاب شمال إفريقيا[20]. وعلى كلّ حال فمكانة الشّيخ في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين محفوظة، وقيمته معلومة، وبصمته مشهودة، فسحت له الطّريق للعمل الإصلاحي والتّربوي في

18- عبد الحميد ابن باديس، المجلس الإداري لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة البصائر، العدد137، 28 أكتوبر 1938م، ص2.

19- محمّد خير الدّين، مذكرات الشّيخ، ج1، ص227.

20- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1990م، ص66-69، وأبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط1، 1988م، ص100.

الجنوب الشّرقي الجزائري قبل وأثناء وبعد ثورة التّحرير.

3،2. فكر الشّيخ محمّد خير الدّين الإصلاحي:

إنّ الإصلاح عند الشّيخ محمّد خير الدّين لا يختلف عن الإصلاح عند باقي القادة المسلمين، فهي عمليات متواصلة فهو يركّز على إصلاح النّفس باتّباع الدّين الصّحيح بالكتاب والسّنّة، كما أنّه يركّز على إصلاح المجتمع بنشر الفضائل والآداب ويركّز أيضاً على النّشء أو الشّباب بضرورة تعليمهم اللّغة والدّين، وتعريفهم بتاريخهم المجيد الإسلامي والوطني.

لقد كتب الشّيخ محمّد خير الدّين مجموعةً من المقالات في البصائر والشّهاب؛ عالج في أغلبها قضيّة التّعليم، ففي أوّل مقال كتبه سنة 1927م في جريدة الشّهاب بعنوان: "نهضة الجزائر الدّينيّة أو موقف المصلحين إزاء خصومهم" تحدّث الشّيخ عن الإصلاح بحماس كبير وحثّ على اتّباع الأمّة لدينها والنّهوض به والابتعاد عن الباطل والخرافات، ويجب على الامّة ان تساعد المصلحين، وهاجم أولئك الذين يعرقلون الإصلاح ويقفون ضدّه، واتّهمهم بأنّهم يخافون على مناصبهم ومكانتهم، ويبيّن أهميّة الإصلاح الدّيني بقوله: "ذلك هو الأمر الجلل الحامل لعلماء الإصلاح على الإصداع بكلمة الحقّ وإن كانت مرّة المذاق وهو الباعث الأصلي لهم عن التّجاهر بقضية الإصلاح الدّيني إذ هو الرّكن الأعظم الذي عليه مدار حياتنا معشر المسلمين"[21].

ويمكن تلخيص جهوده الإصلاحيّة في النّقاط الآتية:

أوّلاً- فكره الإصلاحي من خلال مقالاته: كان الشّيخ محمّد خير الدّين صاحب الامتياز في مجلّة البصائر في سلسلتها الأولى من 1935م إلى 1939م، حظيت بمقالات كتبها الشّيخ تدور في أغلبها حول التّعليم العربي الإسلامي، ومنها ما هو موجّهٌ إلى الطّرقيّين، فقد كان يرى الشّيخ التّعليم العربي الإسلامي جزءاً هامّاً من هذه الأمّة، وما قامت به الإدارة الفرنسيّة من للكتاتيب القرآنيّة وللمدارس الأهليّة الدّينيّة هو في الحقيقة طمس لكيان الأمّة وهويّتها وضرب في جذورها التّاريخيّة الإسلاميّة، حيث سنّت قوانين منها ما أكّد فصل الدّين عن الدّولة، لكنّه طبّق على المسيحيّة واليهوديّة فقط، ولم تطبّق على الدّين الإسلامي، ويرى الشّيخ محمّد خير الدّين أنّ الحرّيّة الدّينيّة ضروريّة لكي تسير بشكل صحيح: "في هذا الذي يسمّونه عصر النّور والمدنيّة في هذا الوطن...تُقفلُ المكاتب القرآنيّة وتوصد المدارس الأهليّة الدّينيّة ويضرب على أيدي القرّاء ورجال الدّين فيُحال بينهم وبين أداء وظيفتهم التي هي نشر تعاليم الإسلام... في حين إنّنا نرى رجال الدّين من الكاثوليك والبروتستانت حتّى التّابعين

21- محمّد خير الدّين، التّعليم العربي الإسلامي بالجزائر-محاولة القضاء عليه-، جريدة البصائر، العددج115، 27ماي 1938م، ص2.

لحكومات أجنبيّة منهم والمشعوذين المنسوبين إلى الإسلام... يتمتّعون بكلّ حرّيّة في حلّهم وترحالهم"[22].

وكانت كتاباته تهاجم الطّرقيّين والمناوئين للجمعيّة وتدعو إلى القضاء على البدع والأباطيل والشّعوذة، ومحاربة المرابطين الذين كان دورهم سلبياً فحياتهم التّعليميّة والدّينيّة في الزّوايا كانت جامدة تدور في دوّامة فارغة حيث إنّها لم تتغلغل داخل المجتمع ولم تفتح له الطّريق ليتعلّم الأساليب التي يدافع بها عن دينه ولغته، بل بالعكس كان أصحاب الزّوايا هم الذين ينتظرون من يأتي إليهم ليتعلّم التّخاذل والجمود ويستسلم لواقعه، ويقول الشّيخ محمّد خير الدّين في ذلك: "وأوضح برهان على ضرر الطّرقيّة وأثرها الفعّال في موت الشّعوب أنّها ما انتشرت في بلد إلاّ كان عنوان الجمود والتّأخّر والانحطاط وكان أُكلة سائغة للآكلين وما قلّت في بلد إلاّ كان أقرب إلى النّهوض والسّعادة ودونك تاريخ الأمم والشّعوب تجد ما قلته لك صحيحاً"[23].

ثانياً- فكره الإصلاحي من خلال الخطابة والتّدريس المسجدي: لقد كان الشّيخ محمّد خير الدّين يركّز على المدارس والمساجد في إصلاح المجتمع بالخطب التي كان يُلقيها والاجتماعات التي كان يُجريها، والمجالس التي كان يغشاها، والمدارس التي كان يبنيها في مختلف أنحاء القطر الجزائري في إطار نشاط جمعيّة العلماء؛ كم انّه كان يقوم بتوعيّة الجزائريين بحقوقهم الوطنيّة والسياسيّة وقد استلهم كلّ هذا بمشاركته في المؤتمر الإسلامي سنة 1936م، وفي بيان الشّعب الجزائري سنة 1943م، كما أسّس إلى جانب شخصيات سياسية جبهة الدّفاع عن الحرّيّة واحترامها سنة 1951م، وقد احتوت هذه اللّقاءات والمؤتمرات كلّ الاتّجاهات السياسية رغم أنّ العلماء أكّدوا في مبادئ الجمعيّة أنّها غير معنيّة بالسياسة وليس معنى ذلك أنّها غير مهتمّة بالسياسة، فيقول الدّكتور أبو القاسم سعد الله في هذا الصّدد: "والإصلاح بالمعنى الشّامل قد يبدأ بالثّقافة أو بالدّين أو بالمجتمع ولكنّه في نهاية الأمر يُغطّي كلّ مظاهر الحياة في مجتمع ما بما في ذلك السياسة... فالإسلام كما هو معروف دين ودولة، ولا يمكن أن نتحدّث عن الإصلاح في الإسلام مجرّداً عن معنى الدّولة وهذا حتماً هو عين السياسة"[24].

وقد بلغ شغف الشّيخ بالكفاح الإصلاحي إلى درجةِ أنّه لم يفرّق بين الإصلاح الدّيني والإصلاح الوطني، بل كان يرى أنّهما متكاملان ومتلازمان، فقد كان يعمل إلى جانب زملائه من العلماء إلى بلوغ الهدف الثّاني للجمعيّة بعد تكوين جيل متشبّع بثقافته العربيّة الإسلاميّة الذي هو الجهاد وتحرير البلاد وفي هذا الصّدد يقول الدّكتور عبد الكريم

22- المصدر السّابق، ص4.

23- محمّد خير الدّين، للحقيقة والتّاريخ في الزّوايا، جريدة البصائر، العدد124، 29جويلية 1938م، ص2.

24- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ص89.

بوصفصاف: "والحقّ أنّ ابن باديس لم يفصل في حركته بين النّظريّة والتّطبيق أو بعبارة أدق لم يفرّق بين العقيدة والمنهج، وقد بدأ الإصلاح هيّناً جعل الاستعمار يظنّ أن لا خطر فيه، ذلك أنّه بدأ يتكلّم عن الدّين والأخلاق والعقيدة، وضرورة الإصلاح الدّيني والتّضحيّة من أجل الآخرين والشّورى عند المُلمّات، استعداداً لمرحلة الجهاد والكفاح"[25].

ثالثا- فكره الإصلاحي من خلال العمل القاعدي في تنشئة الأجيال: والشيخ محمّد خير الدّين من الذين يؤمنون بالعمل القاعدي في تنشئة الأجيال أي الانطلاق من الأساس الذي هو الدّين واللّغة مع متابعته ومسايرته في ظلّ الظّروف السياسية حتّى يكون الجيل يقضاً؛ لأنّ الاستعمار من أهدافه جعل الأمّة تعيش في سبات عميق كي لا تطالب بحقوقها والحقوق تأتي بالممارسة، وقد تتلاقى هذه الفكرة مع ما قاله الشّيخ ابن باديس حسب ما ذكره الشيخ محمّد خير الدّين في مذكّراته: " وأذكر أنّه ذات يوم من عام1933م التفّ نفرٌ من الشّباب المتحمّس حول الإمام ابن باديس بنادي التّرقّي وطلبوا منه أن يرفع صوته قويّاً مدوّياً عالياً مطالباً باستقلال الجزائر وحرّيّتها فقال –رحمه الله-: وهل رأيتم أيّها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً دون أن يشيّد الجدران؟ فقالوا: كلاّ ولا يمكن، فقال لهم: إنّ من أراد أن يبني الأسس ويقيم الجدران أوّلاً ثمّ يشيّد السّقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمّة فإنّه يبدأ من الأساس لا من السّقف"[26].

لقد كان الشّيخ –رحمه الله- مؤمناً بالعمل الإصلاحي الدّيني والوطني، وبرز تحرّكه جليّاً في النّشاط الوطني السياسي رغم أنّ الجمعيّة لم تعلن صراحة اهتمامها بالسياسة حتّى أنّ معظم رجالها التزموا بذلك، وهذا ما جعل منه رجل دين وسياسة، يقول في مذكّراته: "تبلورت فكرة الحرّيّة والاستقلال في حرّيّة الإصلاح الدّيني، والحفاظ على مقوّمات الشّخصية الجزائريّة والسّير بالنّهضة الإصلاحيّة خطوةً خطوةً حتّى بلوغ الغاية المنشودة، وقد تبنّى هذا الاتّجاه رجال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الإمام ابن باديس"[27].

4. جهود الشّيخ محمّد خير الدّين في المجال التربوي

4. 1. فكره التربوي من خلال نشاطه التعليمي:

كان الشّيخ يؤمن بدور التّربية والتّعليم في خدمة الشّعب الجزائري وإيقاظه من سباته، وحفظ تراثه فشارك في تشييد المدارس الحرّة لتعليم وتربية النّشء فيتعلّمون اللّغة العربيّة والدّين الإسلامي، كما أنّهم يتلقّون معارف أخرى كالتّاريخ والجغرافيا والحساب، ليعرفوا

25- عبد الكريم بوصفصاف، الأبعاد الثّقافيّة والاجتماعيّة والسياسية في حركتي محمّد عبده وعبد الحميد ابن باديس-دراسة فكريّة تاريخيّة مقارنة-، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1981م، ص229.

26- محمّد خير الدّين، مذكّرات الشّيخ، ج1، ص289.

27- المصدر نفسه، ج1، ص272.

جيّداً تاريخ بلادهم لأنّ الاستعمار الفرنسي كان هدفه القضاء على دين ولغة وتاريخ هذه الأمّة. ولقد شعُرَ الشّيخُ بهذه المسؤوليّة لاسيما وأنّه أصبح يُعدّ من الرّموز العلميّة في الجنوب الشّرقي الجزائري؛ فقد بدأ نشاطه التّربوي والتّعليمي منذ أن عُقد اجتماع الرّواد سنة 1928م حيث كلّفه الإمام عبد الحميد ابن باديس بالوعظ والإرشاد بمسجد فرفار مسقط رأسه والقرى المجاورة لها، فتخرّج على يديه هناك علماء أجلاّء كان في طليعته الشّيخ العلاّمة أحمد سحنون اللّيشاني، فاستفاد منه خلق كثير بحيث كان يعلّمهم مبادئ الدّين واللّغة، وبعدها يتوجّهون إلى قسنطينة أو إلى تونس أو إلى جامع الأزهر بمصر لمواصلة التّحصيل المعرفي، وقد كان نشاطه التّعليمي هذا بالتّنسيق مع جماعة من الفضلاء والعلماء كان من بينهم الشّيخ الطّيّب العقبي، والشّيخ علي بن عمارة البرجي، والشيخ محمّد العيد آل خليفة، والأستاذ الأمين العمودي.

فقد كان له إسهاماً كبيراً في تكوين "جمعيّة الإخاء" وتأسيس مدرسة الإخاء للتّربية والتّعليم ببسكرة سنة 1931م، واقترح أن يكون مجلس الإدارة من أعضاء لهم علاقة بالسّلطة الفرنسية كي لا تقوم هذه الأخيرة بعرقلة نشاطها؛ أمّا الشّيخ محمّد خير الدّين فقد عُيّن ككاتب عام فقط وهذا لضمان السّير الحسن للمدرسة ونشر الثّقافة العربيّة الإسلاميّة[28]. فقد انطلق الشّيخ في عمله الإصلاحي من بلدته "فرفار" ثمّ بسكرة وكان يؤمن إيماناً راسخاً بدور التّربية والتّعليم في الحفاظ على كيان وتراث الأمّة، خاصة أنّ منطقة الجنوب كانت تعاني من نشاط المرابطين، فأسّس جمعيّةً خيريّةً لإعانة الفقراء والمساكين وتعليم البنين والبنات مقرّها بسكرة كان رئيسها "اصميدة عبد القادر" وتولّى الشّيخ منصب النّيابة كي لا يصدم بالسّلطات الفرنسيّة.

التّربية والتّعليم استقبال كلّ التّلاميذ، وعليه قرّر الشّيخ محمّد خير الدّين مع الأعضاء إنشاء مدرسة جديدة، فشرع في البناء بنشاط مكثّف وكانت المرحلة الأخيرة قد بدأت في 18ديسمبر1949م، عندما حلّ الشّيخ البشير الإبراهيمي رئيس الجمعيّة بدعوة من الجمعيّة المحلّية وتمّ توجيه الدّعوة إلى سكّان بسكرة والزّيبان ومن مختلف أنحاء القطر، فحضر الحفل العلماء والنّواب والأطباء والمحامون، وتمّ افتتاح المدرسة، وكان ممّا قاله الشّيخ محمّد خير الدّين في كلمته: "إنّكم ستستمعون منّي كلمات ليست من باب الحمد والشّكر ولكنّها من باب الحثّ والإزعاج، وسأصل بها مبدأ هذا العمل بنهايته فقد بدأنا مجتمعين... وما دمنا في موقف استنهاض الهمم وشدّ العزائم وما دمت عارفاً بأسرار لغتي وتاريخ أجدادي، فإنّني أؤثر أن يكون افتتاح هذا الحفل التّاريخي بالشّعر... فأنا أريد أن أرجع بكم إلى ذلك الماضي الجليل، ولئن قال لنا أقوام: إنّكم تعيشون في الماضي والعمل للحاضر

28- محمّد خير الدّين، مذكّرات الشّيخ، ج1، ص78.

والاستعداد للمستقبل"[29].

وممّا قاله: "فإنّ العلم أشرف المطالب وأسمى المقاصد والرّغائب فهو حياة الأمم وهو عزّها ومجدها... لقد فهم أسلافنا العظام هذه الحقائق فأقبَلوا على العلم بجميع فنونه وتهافَتوا على مناهله العذبة يكرعون منها فسادوا في الدّنيا وقادوا الأمم وفتحوا –مع البلدان- القلوب والعقول ورفعوا مشعل الحضارة والمدنيّة"[30]. يمكن القول أنّ الشيخ كان يخوض تنقّلاته ويقوم بدوره التّربوي بكلّ شجاعة من الشّرق إلى الغرب، ومن الشّمال إلى الجنوب تاركاً وراءه تلك الخطب البليغة الحماسية المثيرة للنّفوس، وخلفه تلك القلاع الحصينة من مدارس ومساجد، التي وبدون شكّ قد منعت الاستعمار الفرنسي من تسلّق أسوارها العالية المحصّنة بالدّين الإسلامي واللّغة العربية، ووراءها جندٌ من أبناء الجزائر، وبتلك الإنجازات التّربويّة التي قام بها الشّيخ إلى جانب أقرانه العلماء استطاعوا أن يحافظوا على مقوّمات الشّخصية الوطنيّة.

2.4. فكره التربوي من خلال نشاطه الصّحفي

لقد نشط الشّيخ محمّد خير الدّين كباقي الكتّاب المصلحين بدعمه وتأييده للصّحافة الإصلاحيّة وكانت البداية بمشاركته في شراء مطبعة بهدف إصدار جريدة "الإصلاح" ببسكرة، يقول الشّيخ في مذكّراته: "كان أوّل أعمالي ببسكرة السّعي لشراء مطبعة بالاشتراك مع جماعة من المصلحين وذلك بهدف إصدار جريدة "الإصلاح" التي أدارها الشّيخ الطّيّب العقبي"[31].

وبفضل إسهام الشّيخ محمّد خير الدّين والشّيخ محمّد العيد آل خليفة، والشّيخ الأمين العمودي تمّ شراء تلك المطبعة القديمة من قسنطينة والتي سمّاها "المطبعة العلميّة" التي واصلت مسيرتها في نشر المقالات الدّينية والاجتماعيّة، ومع ظهور صحافة الجمعيّة وتطوّرها بعد سنة 1931م نشطت أكثر الصّحافة الإصلاحيّة رغم تعطيل السّلطة الفرنسيّة لبعض الصّحف سنة 1933م، وهي: "السّنّة النّبويّة، الشّريعة، الصّراط السّوي" أمّا مجلّة الشّهاب فقد استمرّت إلى غاية 1939م، والتي كان الشّيخ محمّد خير الدّين أحد كتّابها، كما شقّت جريدة البصائر نفس الطّريق وهي أيضاً من أهم جرائد الجمعيّة التي بقيت لمدّة طويلة وصدرت في سلسلتين: السّلسلة الأولى تمتدّ ما بين 1935م إلى 1939م وكان الشّيخ محمّد خير الدّين صاحب الامتياز فيها ورئيس تحريرها الشّيخ العقبي، أمّا السّلسلة الثّانية فصدرت

29- الحفناوي هالي، وصف الاحتفال الرّائع بفتح مدرسة بسكرة، جريدة البصائر، العدد140، 15/14 فيفري 1951م، ص6-7.

30- جريدة البصائر، مقال: خطاب فضيلة الأستاذ محمّد خير الدّين في الاحتفال بالنّاجحين في الشّهادة الأهلية بالمعهد، العدد281، 30 جويلية 1954م، ص2.

31-محمّد خير الدّين، مذكّرات الشّيخ، ج1، ص78.

ما بين 1947م إلى 1956م وكان الشّيخ البشير الإبراهيمي صاحب الامتياز فيها ورئيس تحريرها.

وفيما يخصّ المقالات التي كتبها مترجمنا في الشّهاب والبصائر فهي تعالج مواضيع تدخل في إطار الحركة الإصلاحيّة، وتعالج أيضاً قضايا التّعليم العربي الإسلامي والتّعليم الرّسمي، حرّية المساجد، وقضية فصل الدّين عن الدّولة وغيرها من الموضوعات المهمّة. ففي إحدى المقالات يقول: "في هذا العصر شاع فيه العلم بين سائر الأمم وأصبح حقّاً طبيعيّاً لكلّ إنسان كيفما كان جنسه ولونه أن يطالب بنصيبه في العلم لتكمل بذلك إنسانيّته وتتهذّب طباعه فيؤدّي وظيفته في هذه الحياة كعضو نافع غير ضار... في هذا العصر الذي يسمّونه عصر الثّورة المدنيّة... توصد المدارس الأهليّة الدّينيّة...ونعلن لكافّة المعلّمين والجمعيات الدّينيّة أن يدافعوا لدى المحاكم الابتدائيّة والمحاكم العليا عن حقّهم الذي خوّله لهم القانون حين يرجع الحقّ إلى نصابه..."[32].

لقد كانت المقالات التي كتبها الشّيخ محمّد خير الدّين –رحمه الله- متنوّعة وفي اتّجاهات مختلفة، حتّى تعطّل العمل الصّحفي عموماً خلال الحرب العالميّة الثّانية (1939-1945) حيث أصبحت كلّ الصّحف في شلل تام بسبب تجميد نشاطها السياسي وفق المرسوم الذي صدر بتاريخ 27أوت 1939م، القاضي بمصادرة جميع الجرائد التي تتعرّض إلى قضايا الأمن الوطني[33].

ورغم القرارات التي كانت تصدرها السّلطة الفرنسية إلاّ أنّ نشاط الصّحافة الإصلاحيّة استمرّ بعد الحرب العالميّة الثّانية وانطلقت جريدة البصائر في سلسلتها الثّانية منذ 1947م، وواصل الشّيخ محمّد خير الدّين نضاله الصّحفي كباقي زملائه المصلحين في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين باتباع نهج الإمام عبد الحميد ابن باديس إلى ان توقّف نشاط الجمعيّة نهائياً سنة 1956م، والتحق أعضاؤها بالثّورة التّحريريّة بعد أن تبلور الهدف الذي طالما تمنّاه الجزائريّون وأعدّت له جمعيّة العلماء صنوفاً من جنودها بعد أن درّبتهم على الدّفاع عن دينهم ولغتهم ليأتي الهدف الأخير وهو تحرير الوطن.

5.خاتمة

بعد هذه الجولة المختصرة التي تعرّفنا فيها على أحد روّاد الحركة الإصلاحيّة والتّعليمية والدّعوية، وأحد السّابقين إلى النّضال الوطني من أجل العمل على صيانة الهويّة الدّينية والتّاريخيّة للشّعب الجزائري؛ وهو الشّيخ الأستاذ المصلح محمّد خير الدّين الفرفاري

32-محمّد خير الدّين، التّعليم العربي بالجزائر، جريدة البصائر، العدد115، 27ماي 1938م، ص3.

33- عمّار بوحوش، التّاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية1962م، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997م، ص264.

الطّولقي البسكري يمكن أن نسجّل الخلاصات الآتية:

- لقد كانت نشأة الشّيخ محمّد خير الدّين في ظروف ميّزها الوجود الاستعماري الذي كان حكمه عسكريّاً في الجنوب، ممّا ولّد في نفسه الحقد والكراهيّة اتّجاه هذا الأجنبي المحتل خاصة أنّه كان هو وأبناء منطقته محرومين من حقّهم في التّعلّم، ولم يكن في قريتهم من يدرّس الطّلاّب، ولكن فتح الله عليه بأن انتقل إلى قسنطينة لينهل من علم مشايخها ثمّ إلى تونس ليروى من زيتونتها.

- الشّيخ محمّد خير الدّين حظي بمكانة سامقة في إطار جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وكانت له حظوة عند رئيسها العلاّمة عبد الحميد ابن باديس الذي منحه ثقةً كبيرةً جعلت منه رمزاً حقيقياً من رموز الإصلاح في الجنوب الشّرقي الجزائري؛ بل في كلّ القطر الجزائري.

- إنّ نظرة ومنهج الشّيخ محمّد خير الدّين للإصلاح لم يفرّق فيه بين الإصلاح الدّيني والثّقافي والإصلاح الوطني، بل جمع بينهما بذكاء وقّاد، وحكمة بالغة، جلّت على جهوده الكبيرة في إعادة تأهيل أفراد الشّعب الجزائري في الجنوب الشّرقي وغيره علمياً وثقافياً وتربويّاً.

- يمكن اعتبار ما كتبه الشّيخ محمّد خير الدّين من مقالات وإن كانت قليلة هي إضافة إلى مقالات أخرى كتبها زملاؤه المصلحون كوسيلة من وسائل الجمعيّة للتّعبير عن تمسّك الجزائريين بدينهم ولغتهم ووطنهم، وأنّ ما كتبه الشّيخ لم يكن للإبداع أو الإمتاع؛ وإنّما لمواجهة الاستعمار الفرنسي وذيوله وأعوانه.

6. قائمة المراجع

*** المؤلفات:**

- بوحوش عمّار، التّاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية1962م، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997م.

- بوصفصاف عبد الكريم، الأبعاد الثّقافيّة والاجتماعيّة والسياسية في حركتي محمّد عبده وعبد الحميد ابن باديس-دراسة فكريّة تاريخيّة مقارنة-، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1981م.

- حمّاني أحمد، صراع بين السّنّة والبدعة، دار البعث قسنطينة، ط1، 1984م.

-خير الدّين، محمّد مذكّرات الشّيخ محمّد خير الدّين، مؤسّسة الضّحى، الجزائر، 2002م.

- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1990م.

- سعد الله أبو القاسم، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط1، 1988م.

- صيد عبد الحليم، معجم أعلام بسكرة، دار النّعمان، الجزائر، ط1، 1014م.

- طالبي عمّار، آثار ابن باديس، دار النّهضة العربية، بيروت، ط1، 1968م.

- العسيلي بسّام، عبد الحميد ابن باديس وبناء قادة الثّورة الجزائريّة، دار النّفائس،

بيروت، ط2، 1983م.
- فضلاء محمّد الحسن، من أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة هومة، الجزائر، 2000م.
- هلاّل عمّار، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1995م.
*** الأطروحات:**
- الهلالي أسعد، الشيخ محمّد خير الدّين وجهوده الإصلاحيّة في الجزائر 1902-1993، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، نوقشت عام2006م.
*** المقالات:**
- خير الدّين محمّد، التّعليم العربي الإسلامي بالجزائر-محاولة القضاء عليه-، جريدة البصائر، العددج115، 27ماي 1938م.
- خير الدّين محمّد، للحقيقة والتّاريخ في الزّوايا، جريدة البصائر، العدد124، 29جويلية 1938م.
- سحنون أحمد، تأبينيّة شيخي العظيم الإمام محمّد خير الدّين، مجلّة الموافقات، العدد3، الجزائر، جوان 1994م.
- عبد الحميد ابن باديس، المجلس الإداري لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة البصائر، العدد137، 28 أكتوبر 1938م.
- هالي الحفناوي، وصف الاحتفال الرّائع بفتح مدرسة بسكرة، جريدة البصائر، العدد140، 15/14 فيفري 1951م.
- جريدة النّجاح، مقال العلماء الجدد من كلّيّة الزّيتونة، العدد 216، 10 جويليّة1925م.
- جريدة المنار، مقال: لجنة إنشائيّة لتأسيس جبهة جزائريّة للدّفاع عن الحرّيّة واحترامها، العدد6، 30 جويلية 1951م.
- جريدة البصائر، مقال: خطاب فضيلة الأستاذ محمّد خير الدّين في الاحتفال بالنّاجحين في الشّهادة الأهلية بالمعهد، العدد281، 30 جويلية1954م.

المولود الزريبي ودوره الثقافي والإصلاحي 1910 ـ 1925م

Mawlid Al-Zaribi and his cultural and reformist role 1910-1925

د/ محمد عمارة

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية،

معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)

amaralazhar@gmail.com

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: ولد وعاش وتوفي المصلح العلامة الأزهري المولود الزريبي على عهد الاستعمار الفرنسي (1887م-1925م)، ولم يعمر طويلا، حيث عاش مدة 37 سنة فهو في عمر الشباب، ففي هذه السنوات وبعد ميلاده بمسقط رأسه زريبة الوادي بالجنوب الشرقي لولاية بسكرة حيث تلقى تعليمه الأول ببلدته، ثم انتقل إلى بلدة ليانة حيث أخواله فأكمل تعليمه الثاني بزاوية ليانة، ثم تاقت روحه إلى مواصلة تعليمه العالي بمصر حيث الأزهر الشريف فسافر وتعلم بالأزهر وتخرج منه بشهادة عالمية، ثم رجع إلى وطنه لكي ينشر علمه ويقوم بإصلاح ما أفسده المستعمر الفرنسي فبدأ ببلدته زريبة الوادي ثم منطقة الأوراس ثم انتقل إلى العاصمة ثم إلى مدينة بوفاريك بولاية البليدة، فكان في هذه المراحل الإمام المدرس الخطيب الواعظ، والمحرر الصحفي، والكاتب والمؤلف للرسائل والكتب، إلى أن وافته المنية ببوفاريك، وترك أثارا دالة على سعة علمه، وأعماله الإصلاحية؛ فمنها المقالات الصحفية، وتصانيف الكتب، وأشعار كثيرة، كلها تصب في العمل الإصلاحي فرحم الله الرجل وأمثاله.

الكلمات المفتاحية: المولود الزريبي؛ زريبة الوادي؛ بدور الأفهام؛ الإصلاح؛ مشروعه الإصلاحي.

Abstract :

The reformer Al-Azhari was born, lived, and died, Al-Zaribi, who was born in the era of French colonialism (1887AD-1925AD), and he did not live long, as he lived for 37 years. Then he moved to the town of Liana, where his uncles were, and completed his second education in the corner of Liana .Then his soul yearned to continue his higher education in Egypt, where the honorable Al-Azhar is, so he traveled and learned in Al-Azhar and graduated from it with an international certificate. In these stages, the imam, the teacher, the preacher, the preacher, the press editor, the writer and the author of letters and books, until he passed away in Boufarik, and left traces indicative of the vastness of his knowledge, and his reform works, including newspaper articles, book classifications, and many poems, all of them pour into reform work, may God have mercy on the man and his ilk.

Keywords: Mawlid Al-Zaribi ؛ role of understandings ؛ reform ؛ his reform project; valley corral.

1. مقدمة

أنجبت الجزائر عبر تاريخها الثقافي والإصلاحي أعلاما كثر، وقفوا في وجه المستعمر الفرنسي وتصدوا لغزوه الثقافي، وذلك بعدّة وسائل، كالخطاب المسجدي ودروسه المباشرة مع الجمهور والخطاب الإعلامي عبر وسائل الإعلام في ذلك الوقت كالصحف، والجرائد والمجلات، والبيانات والمعلقات، كذلك وسيلة تأليف الكتب والرسائل والمطويات لدعوة الناس للإصلاح، كذلك تكوين الجمعيات بمختلف أنواعها الاجتماعية، والسياسية، والثقافية والخيرية، كذلك المساهمة في بناء المساجد، والمدارس الحرّة، وممارسة التعليم في المدارس القرآنية، والنظامية، والزوايا التعليمية والمساجد، وذلك لمحو الأمية وما خلفه الاستعمار من الجهل والتخلف والانحراف والمساس بالهوية الإسلامية والعربية والوطنية، وأيضا المساهمة في توعية المجتمع، وتكوين جيل جديد مثقف ومتعلم ومحصن بالهوية الجزائرية التي طمسها المستعمر؛ وخاصة الدين واللغة والوطن، حيث كان شعار المستعمر (الجزائر فرنسية)، فالهوية الوطنية هي أساس بناء المجتمع الجزائري، وبهذه الجهود الإصلاحية من قبل أعلام الإصلاح الجزائري أوصلوا هذا الجيل الجديد إلى اندلاع الثورة التحريرية، وإلى أن استقلت الجزائر وأصبح شعارها (الجزائر جزائرية) وأصبحت دولة مستقلة لها شخصيتها الخاصة بها سنة 1965 بعيدا عن فرنسا الاستعمارية، حيث أصبح لها صِّيتٌ عالمي، وسميت ببلد المليون ونصف المليون شهيد، وتحمل الراية الثلاثية: الجزائر وطننا، والإسلام ديننا والعربية لغتنا، وهذه هي مكونات الهوية الوطنية الجزائرية، فعلماء الإصلاح كان لهم الدور الكبير في إصلاح المجتمع الجزائري واستقلال الوطن، وممن ساهم في ذلك من العلماء المصلحين، العلامة المولود الزريبي الذي هو محل بحثنا هذا. ومن هنا نطرح الإشكال التالي: من هي هذه الشخصية، وما دورها الثقافي مواقفها الإصلاحية؟

سنجيب على هذه الإشكالية من خلال ثلاثة عناصر أساسية؛ هي كالآتي:

أولا: عصر المولود الزريبي؛

ثانيا: حياته الشخصية والعلمية؛

ثالثا: دوره الثقافي ومواقفه الإصلاحية.

وسنعالج الموضوع وفق المنهج التاريخي الذي يسترد لنا أحداث عاشتها هذه الشخصية مع الاستعانة بالمنهج الاستقرائي حيث نجمع النصوص في عصره، والكلام من مصادره، وما قيل عنه، ثم نقوم بعملية التركيب والتحليل والمناقشة والنقد لكي نصل إلى مواقفه الإصلاحية في المجتمع الجزائري على عهده، ومنه نحقق هدف الموضوع المتمثل في إبراز جهود

هذه الشخصية الإصلاحية في الحفاظ على الهوية.

2. عصر المولود الزريبي

صادفت حياة المولود الزريبي فترة الاستعمار الفرنسي، حيث عاش بين قرنين: 19م، و20م؛ فهو مخضرم بين جيلين، ولكنه لم يعمر طويلا فكانت حياته قصيرة بالنسبة لبعض أعلام الإصلاح، كابن باديس والإبراهيمي وغيرهم كثير، فقد عاش 37 سنة، وقد عاش خلال هذه الفترة أحداثا وطنية وعالمية، فمن الأحداث الوطنية خضوع الجزائري إلى الحكم الفرنسي منذ دخولها سنة 1830م، ففي عهده صدرت عدة قوانين جائرة من قبل الحكومة الفرنسية، منها قانون التجنيد الإجباري للجزائريين سنة 1912م[1]، كذلك على عهده شهدت الجزائر عدة ثورات شعبية، منها ثورة أولاد سلطان بالأوراس 1915م[2]، وكذلك في الجانب العلمي والثقافي والسياسي شهدت الجزائر على عهده ظهور أحزاب سياسية، كحزب نجم شمال إفريقيا بقيادة مصالي الحاج، وصدور عدة جرائد باللغة العربية، منها جريدة (كوكب إفريقيا) والتي كتب فيها المولود الزريبي عدة مقالات، كذلك جريدة الصديق التي أسسها بكير[3] سنة 1920م[4]، وترأسها عمر قدورة ثم المولود الزريبي[5]، كذلك شهدت الجزائر على عهده في الجانب التربوي والتعليمي مدارس تعليمة[6] حرة، منها المدرسة النظامية التي أسسها بكبير سنة 1913م بمدينة تبسة، كذلك تأسيس أول جامعة جزائرية على يد المستشرقين الفرنسيين سنة 1909م[7]، كذلك شهدة الجزائر على عهده زيارة العلامة المصلح محمد عبده للجزائر سنة 1903م[8]، وغيرها من الأحداث الكثيرة الداخلية، وأما على الصعيد الخارجي فقد شهد المولود الزريبي عدة أحداث عالمية، منها اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1913م إلى نهايتها 1919م[9]، وغيرها من الأحداث العالمية التي وقعت في حياته القصيرة.

وعاصر المولود الزريبي شخصيات إصلاحية وطنية منها وعالمية، نذكر منها على سبيل المثال: فمن الشخصيات الوطنية الطيب العقبي، وغيرهم كثير[10]، ومن شخصيات الإصلاح

1- العربي الزبيري، تاريخ الجزائر، 34/1 (مرجع سابق)

2- المصدر نفسه، 34/1.

3- وهو شخصية من منطقة بني مزاب عرف بالتاجر وهو مثقف.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 57/1.

5- المصدر نفسه، 252/5.

6- العربي الزبيري، تاريخ الجزائر، ص22(م.س).

7- تاريخ الجزائر الثقافي، لسعد الله 144/8.

8- الحركة الإصلاحية، لعلي مراد ص20.

9- النشاط العلمي والفكري للمهاجرين للجزائريين بتونس الجابري، ص36.

10- ينظر المراجع الآتية: معجم علماء الدين والإصلاح (الجزائر) هشام بلقاضي 2011م، ط1، وزارة الثقافة

على مستوى العالم العربي والإسلامي محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، رشيد رضا، فقد اتسم عصر المولود الزربي بعدة تقلبات وطنية وعالمية، وعاش بداية عصر النهضة الأوروبية والعربية، وبداية الحركة الإصلاحية بالعالم العربي والإسلامي والوطني، وكانت له إسهامات بارزة في إصلاح المجتمع الجزائري بالوسائل المتاحة آنذاك والبسيطة والميدانية كدروس الوعظ، والخطب المنبرية، والخرجات الدعوية والمقالات الصحفية، والمصنفات العلمية، وساهم في تكوين بعض رجال الإصلاح الذين تخرجوا على يديه وواصلوا مشروعه الإصلاحي فأثمر فيما بعد حتى استقلت الجزائر، وسنتعرف على هذه الشخصية الإصلاحية ومآثرها الإيجابية، ومواقفها الإصلاحية فيما يأتي.

3. حياة المولود الزربي الشخصية

هذا العنصر يمكننا تقسيمه إلى ثلاثة فروع، هي: الفرع الأول: مولوده ونشأته الاجتماعية، والفرع الثاني: تحصيله العلمي ورحلاته العلمية، والفرع الثالث: أعماله وأثاره.

1.3. مولده ونشأته الاجتماعية:

سنتناول في هذا الفرع تاريخ ميلاده، وبلدته، وأسرته ونشأته الاجتماعية بمسقط رأسه.

1.1.3. اسمه ولقبه ومولده:

هو محمد المولود بن عمر الزربي، المشهور بالمولود الزربي[11]، ولقبه العائلي هو صالحي[12]، ولد سنة 1887م ببلدة زريبة الوادي بالجنوب الشرقي من بسكرة، من أبوين من نفس المنطقة، أبوه محمد بن عمر، وأصله من زريبة الوادي من أعيان البلدة مارس الفلاحة، والتجارة، وأمه حدة بنت خليفة، أصلها من بلدة ليانة، ولها علاقة عائلية بوالدة الطيب العقبي[13].

الجزائرية.

11- لقب بالزربي نسبة إلى بلدته زريبة الوادي، وهذه من عادات التلقيب بالجزائر، ينظر: الشيخ المولود الزربي حياته وآثاره، عبد الرحمان دويب، دار كنوز الرشيد، الجزائر، ط1 /2015م ص15. ووجدت هذه النسبة في واجهة كتابه (بدور الأفهام) كالآتي: تأليف الفاضل الزكي الشيخ السيد المولود بن محمد الزربي البسكري.

12- نسبة: إلى عرشه الذي اشتهر بـ (الصوالحية)، واختارت عائلته بعد وفاته لقب (صالحي) بعد صدور قانون التلقيب الفرنسي سنة 1936م، ينظر: التحفة الثمينة في حاضرة بسكرة وقسنطينة، نجيب بن مبارك، دار لمسة، الجزائر، ط1 /2016 م 132/3.

13- ينظر: ترجمته في كل من : الشيخ المولود الزربي، لدويب ص15.(م.س)؛ التحفة الثمينة، لمبارك 132/3 (م.س)؛ أعلام بسكرة، عبد الحليم صيد، ط2014/1 هـ، دار النعمان – الجزائر ص120.

2.1.3. نشأته الاجتماعية:

نشأ المولود الزريبي وترعرع في بلدة صغيرة، ووسط مجتمع بسيط متواضع، وتسمى بلدته بزريبة الوادي تقع في أقصى الجنوب الشرقي لولاية بسكرة، فقد عاش المولود طفولته وصباه بمسقط رأسه فتربى مع أقاربه، ونشأ على مبادئ الأخلاق والمعاملات الحسنة ومبادئ الدين الإسلامي، فكانت الأسرة المحضن الأول للتربية والتعليم ثم مسجد الحي ببلدته حيث كان يتردد عليه فتعلم على يد معلمه وإمامه حتى شب على مبادئ الدين وأخلاقه، ثم انتقل إلى بلدة ليانة حيث أخواله هناك فكان يزورهم في المناسبات رفقة أمه وهذه من عادات وطبائع الأسر الجزائرية، ومنها أسر الجنوب الشرقي، فتعرف على أسرة أمه وبلدة ليانة وزاويتها ومسجدها؛ فلما شب واصل تعليمه هناك ومكث عند أخواله.

2.3. تحصيله العلمي ورحلاته العلمية

من عادات المجتمع الجزائري إدخال أبنائهم للمدارس القرآنية بالمساجد والزوايا التعليمية[14] في سن مبكرة، ولهذا أدخله أبوه إلى المدرسة القرآنية بمسقط رأسه[15]، فحفظ القرآن وتعلم على يد معلميه.

1.2.3. شيوخه الجزائريين:

أخذ المولود الزريبي علومه الأولى على يد معلمين لجزائريين، وهم:

1.1.2.3. عمار بن ساعد:

وهو معلم القرية بالمسجد بمسقط رأسه[16]، حيث أخذ عنه مبادئ اللغة العربية من حروف الهجاء، وحفظ القرآن كاملا عنده .

2.1.2.3. حامد العبيدي:

وهو خريج جامع الزيتونة، والمدرس بزاوية ليانة، حيث أخذ عنه العلوم العربية والدنية، بالطريقة النثرية، والنظمية بحفظ المتون، والمنظومات كألفية ابن مالك في اللغة، وهي إحدى مصادره في كتابه بدور الأفهام، ومتن ابن عاشر في الدين، وهو شارح عقيدته في بدوره.

14- زوايا العلم والقرآن بالجزائر، محمد نسيب، دار الفكر، الجزائر (د-ن)، ص33.

15- ينظر مصادر ترجمته : الشيخ المولود الزريبي، لدويب ص15، (د-م)؛ التحفة الثمينة، لمبارك، 132/3 (م، ى)؛ أعلام بسكرة، صيد، ص120.

16- التحفة الثمينة، 132/3 (م.س)؛ الشيخ المولود الزريبي، لدويب ص22(م، س)؛ أعلام بسكرة، صيد ص120.

3.1.2.3. شيوخه المصريين :

بعد استكمال تعليمه بالزاوية انتقل إلى الأزهر لمواصلة تعليمه العالي فتتلمذ على مشايخه، منهم:

- محمد بخيت المطيعي: (1856م- 1935م)، وهو مفتى الديار المصرية، والمدرس بالأزهر، والقاضي الشرعي بالإسكندرية، وله مصنفات منها (القول المفيد) وقد ذكر تتلمذه عه فقال: "وقال شيخنا الشيخ محمد بخيت في القول المفيد"[17]، فقد أخذ عنه الفقه وأصوله.

- محمد حسين العدوي (1858م- 1936م)، وهو أحد علماء الأزهر، وعضو لجنة إصلاح قوانين الأزهر ومفتش بالأزهر، والمعاهد الدينية، والمدرس بالأزهر، وقد أخذ عنه التفسير، وقد أكد تتلمذه عليه فقال: "قرر لنا شيخنا العدوي.."[18].

هذه ثلة من المعلمين الجزائريين الذين تخرج على يديهم بالجزائر، كذلك من المصريين تتلمذ عليهم المولود الزريبي بالأزهر الشريف، وتوّج بشهادة علمية (الشهادة العالمية) من الأزهر[19]، وذلك بعد دراسة واجتهاد لمدة 4 سنوات من التحصيلي العلمي، فكان عمره أنداك 23 سنة، وأصبح يلقب بالأزهري، قال عنه عمار طالبي: "الشيخ المولود الزريبي العالم الأزهري كان من رواد الإصلاح"[20]، وجاء في واجهة كتابه (بدور الأفهام) ما يلي: (العالم الشيخ السيد المولود بن محمد الزريبي البسكري المحرز على الإجازة العلمية من الكلية الأزهرية)[21]، هذه الألقاب والأوصاف تدل على قامته العلمية.

3.2.3. وفاته:

بعد حياة حافلة بالجد والنشاط والعمل الميداني والدعوة إلى الإرشاد والإصلاح الاجتماعي، وكان آخر عمله الإمامة ببوفاريك بجانب كتابة المصنفات والمقالات أصيب في آخر حياته بمرض عظال[22] حتى توفي وذلك يوم الخميس 5 فيفري سنة 1925 م[23]، عن عمر

17- المولود الزريبي، بدور الأفهام ص227 (م.س)، وفي موضع آخر قال عنه :" قال شيخنا محمد بخيت في كتابه القول المفيد" المصدر نفسه ص 77.

18- المولود الزريبي، بدور الأفهام ص141.

19- مصادر ترجمته- الشيخ المولود الزريبي، لدويب ص 50؛ التحفة الثمينة، لمبارك، 137/3، أعلام بسكرة لصيد ص140.

20- آثار ابن باديس، عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1968م، بيروت، 58/1.

21- واجهة كتابه (بدور الأفهام) مصدر سابق.

22- ذكر صاحب التحفة الثمينة أنه السكري فقال " أصيب بمرض السكري حتى تدهورت صحته إلى أن وافته المنية" 141/3.

23- المصدر نفسه 141/3 (تفرد بذكر اليوم والشهر)

ناهز 37 سنة ببوفاريك أين قبر هناك بعيدا عن مسقط رأسه.

3.3. أعماله وأثاره.

سنتحدث في هذا العنصر على ما تركه من آثار شاهدة على أعماله ونشاطه. وتتمثل آثاره في جانبين الأول (تلاميذه) والثاني (كتاباته) .

1.3.3. تلاميذه:

وهذه الآثار في جانب الاستثمار في تكوين الإنسان فقد كون المولود الزريبي رجالا حملوا مشعله وساروا في دربه حتى أنتجوا فيما بعد وذكروا فضله ومن تلامذته عبد الرحمان بكلي المزابي، وعبد الرحمان الجيلالي المؤرخ، ومحمد العلمي شاعر القرن العشرين، هؤلاء ثلة من تلاميذ المولود الزريبي، تخرجوا على يديه[24]، وساروا معه في نهجه الإصلاحي بالجزائر وبدورهم تركوا لنا آثار دالة على تأثرهم به.

2.3.3. كتاباته:

بعد ذكر تلاميذه الذين كونهم في الميدان، وهم أثار بشرية، وعقول مصقولة جسدت مشروعه الإصلاحي بعده حتى الاستقلال، فقد كان المولود الزريبي يكتب بقلمه ويحفظ مخطوطاته، وينشر ها في وسائل الإعلام، ومن هذه الكتابات (المصنفات العلمية)، والتي جمعها في تأليف خاصة، منها ما نشرها في بعض الجرائد، ومنها ما طبع دون تحقيق، كذلك ما كتبه بقلمه منها مجموعة من المقالات الصحفية في عدة جرائد، منها جريدة الصديق التي ترأس تحريرها لمدة من الزمن، كذلك إنتاجاته الأدبية وهو شعره الذي كان يلقيه في المحافل والمناسبات الوطنية والدينية، ومنها شعره الإصلاحي الذي يحارب به البدع والخرافات ويرد على أصحاب الانحراف ومعارضيه، وقد نشر أغلبه في الجرائد كجريدة كوكب إفريقيا وغيرها من الجرائد الجزائرية الصادرة آنذاك باللغة العربية، وسنذكر هذه الكتابات بالتفصيل.

1.2.3.3. مصنفاته:

بجانب العمل الميداني والدروس، والإمامة والوعظ والإرشاد وتكوين الرجال، وإصلاح المجتمع، والتحرير الصحفي، كان المولود الزريبي يعكف على تأليف الكتب والمصنفات في

24- هناك الكثير من التلاميذ كانوا يحضرون دروسه، ولكن ذكرنا ثلاثة فقط حسب ما جاء في مصادر ترجمته، إلا أن صاحب كتاب (الشيخ المولود الزريبي حياته وآثاره) (عبد الرحمان دويب) جعل من تلاميذه (محمد الهادي السنوسي) وهو شاعر عاصره وله كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) وهو من مدينة ليانة التي درس بها المولود وأخواله هناك. ولكن صاحب الترجمة تفرد بهذا التلميذ دون غيره ممن ترجم له وقد روى حوادث وقعت للزريبي وهو صغير (مواليد 1902 م).

عدة ميادين وعلوم، مستندا على ما قرأه في حياته العلمية ورجوعه إلى المصادر العلمية، وما وهبه الله تعالى من الذكاء والحكمة من الشرح والتحقيق والتحليل، والنقد فكان إنتاجه العلمي وفيرا رغم عمره القصير فقد ألف في شبابه كما يذكر المترجمون خمسة كتب[25]، في: العقيدة، والفقه، واللغة، والتصوف، والسلوك، وهذه المصنفات منها ما جمع وكتب وطبع، ومنها ما نشر في بعض الجرائد كجريدة الصديق، ومنها ما هو في حكم المفقود، وسنذكر هذه المصنفات بالتفصيل.

- **بدور الأفهام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام:**

وهو كتاب في العقيدة شرح فيه الجزء الخاص بالعقيدة من منظومة ابن عاشر المغربي والمشهورة بالمغرب والأندلس جامعة للعقيدة والتصوف والفقه.

- **شرح القدسية، كتاب الأخلاق، شرح كتاب البيوع من مختصر خليل، شرح متن الأجرومية**[26].

- **مقالات وأشعار:** له عدة مقالاته الصحفية[27] نشرت له في عدة صحف، كالصديق والفاروق وكوكب إفريقيا وغيرها، وله كذلك أشعاره وقصائده[28] مبثوثة في مصنفاته وبعض الجرائد.

3.3.3. دوره الثقافي ومواقفه الإصلاحية:

ساهم المولود الزريبي بأعمال ثقافية، ووقف مواقف إصلاحية سنذكرها فيما يلي:

1.3.3.3. أعماله الثقافية:

بعد رجوعه إلى أرض الوطن، حاملا شهادته العمالية الأزهرية، وحاملا مشروعه الإصلاحي الذي سيطبقه في وطنه الجزائر بدءا من مسقط رأسه وبلدته الصغيرة ثم عموم وطنه الأم الجزائر متنقلا بين القرى والمداشر والحضر شرقا ووسطا وغربا، وتتمثل أعماله في أربع مهام تولاها، وهي (التدريس، الإمامة، المساهمة في بناء المساجد، التحرير الصحفي).

أولا- التدريس: بعد عودته مباشرة من مصر بدأ بأول أعماله التدريس حيث بدأ بمسقط رأسه وبلدته التي تعلم فيها وتربى وترعرع ثم انتقل إلى عدة أماكن وهي قرية الحجاج

25- الشيخ المولود الزريبي حياته وآثاره، دويب ص55؛ أعلام بسكرة، صيد ص122؛ موسوعة العلماء وللأدباء الجزائريين، (خدوسي)، 82/2؛ معجم الشعراء منذ بدء عصر النهضة، أميل يعقوب، ط1، 2004، دار بيروت، 1300/3؛ التحفة الثمينة، 142/3.

26- ذكرها معظم مترجموه (مصادر سابقة) مثلا: كأعلام بسكرة لصيد.

27- كالصديق وكواكب افريقيا.

28- مبثوثة في كتابه بدور الأفهام. ص 61.

بالأوراس ثم مدينة باتنة ثم المسجد الكبير بالعاصمة ثم بوفاريك.

ثانيا- الإمامة: من ضمن أعماله الميدانية إمامة المصلين، فقد تولى الإمامة في ثلاث مناطق (قرية الحجاج) (مدينة باتنة) (بوفاريك).

ثالثا- المساهمة في بناء المساجد: ساهم المولود الزريبي في بناء عدة مساجد حسب مترجميه فقد ساهم في منطقتين الأولى بلدته زريبة الوادي، والثانية مدينة باتنة .

رابعا- التحرير الصحفي(الصحافة): ساهم المولود الزريبي من خلال كتاباته في الصحافة الجزائرية باللغة العربية وفي الصحف التي صدرت بالعربية كذلك ترأس جريدة الصديق لصاحبها محمد بن بكير المزابي، والتي تأسست سنة 1920م بالعاصمة الجزائرية وكان أول رئيسها الصحفي عمر بن قدور ، حيث تولى إصدار الأعداد الأولى، ثم خلفه المولود الزريبي في نفس السنة، وكان يكتب افتتاحيتها وبعض المقالات، وكانت له مساهمات أخرى في بعض الجرائد منها(كوكب إفريقيا).

2.3.3.3. مواقفه الإصلاحية:

يعتبر المولود الزريبي من دعاة الإصلاح الأوائل في القرن العشرين يقول عنه عمار طالبي: "الشيخ المولود الزريبي العالم الأزهري كان من رواد الإصلاح في منطقة الأوراس"[29] وقد شهد له مترجموه بأنه شخصية إصلاحية، قال عنه عبد المالك مرتضى: "عارضه في أفكاره الإصلاحية عسول، والطيب العقبي"[30]. وكان شغله الشاغل إصلاح المجتمع الجزائري، قال عنه رابح دويب: "... مع انشغالاته بقضايا الإصلاح..."[31]. ووصف بأنه المصلح الاجتماعي، قال عنه رابح خدوسي: "عالم أديب، مصلح مدرس"[32]، ووصفه المشارقة بأنه مصلح اجتماعي كذلك، قال عنه أميل يعقوب: "وواعظ ومصلح اجتماعي"[33]. وجعله عاشور شرفي من رواد الإصلاح في الجزائر، فقال :" المولود الزريبي من رواد الإصلاح في منطقة الأوراس"[34].

وهو أول من صدع بالإصلاح في الجنوب الشرقي خاصة في بلدته زريبة الوادي ثم الشرق الجزائري خاصة في منطقة الأوراس وباتنة يقول عنه نجيب المبارك: "... فيكون أول من أدخل الدعوة الإصلاحية بمنطقة الأوراس..."[35]، وكان نصب عينيه مهمة عالية بعد

29- آثار ابن باديس 32/1.

30- معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين ص 225.

31- موسوعة شعراء النهضة في المغرب العربي 440/4.

32- موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، 85/2.

33- معجم الشعراء منذ بدء عصر النهضة، 1300/3.

34- معلمة الجزائر ص422.

35- التحفة الثمينة 142/3.

عودته من مصر إلى وطنه ألا وهي الإصلاح، قال عنه عبد الرحمان دويب: ".. فما عاد إلى وطنه إلا بهمة عالية إلى الإصلاح..."[36]، فحين وصوله إلى وطنه، وخاصة مسقط رأسه وجد انتشار الآفات الاجتماعية، والانحراف عن الدين، وظهور البدع والخرافات، فبدأ بإصلاح عشيرته الأقربين، ثم توسط في أرجاء وطنه الجزائر، واتخذ عدة وسائل للإصلاح، وتتلخص في وسيلتين، هما:

الوسيلة الأولى - العمل الميداني: والمتمثل في المواعظ والدروس بالمساجد[37]، وتأسيس الجوامع لصلاة الجمعة لأهل القرى والحضر، كما قام به بمسقط رأسه ومدينة باتنة[38]، حيث كان ينتقل في القرى، والمداشر في جبال الأوراس[39]، كذلك في التجمعات الكبيرة مثل الأسواق الأسبوعية التي يأتيها الناس من كل مكان قال عنه نجيب المبارك: "... حضوره السوق السنوي بمدينة تكوت والمعروف بسوق الخريف لكل سنة مدة مقامه بالمنطقة ليجيب الناس عن تساؤلاتهم حول الدين..."[40]، حتى توسع في دعوته الاصلاحية نحو المدن وصولا إلى العاصمة وما حولها كمدينة بوفاريك.

الوسيلة الثانية – الكتابات: الكتابة وتتمثل في مؤلفاته كبدور الأفهام[41]، وشعره[42]، حيث كان يبث أفكاره الإصلاحية في نثره، ونظمه قال عنه عمار طالبي: " ... وقد لجأ إلى حيلة طريفة، حيث دون آراءه الإصلاحية في شرحه على عقائد (المرشد المعين)..."[43]، وقد صنف شعره من الشعر الإصلاحي[44]، حيث كان يبث أفكاره الإصلاحية، ومواقفه منها محاربة البدع، والانحراف الديني، والفساد الأخلاقي[45]، وكان يناقش ويناظر علماء ومثقفي عصره في الآراء الإصلاحية، قال طالبي :"... وكان له زميل أزهري جزائري هو الشيخ عسول العبيدي يعارضه في فكرته الإصلاحية مما أدى وقوع مناظرات بينهما ..."[46]، حيث كان ينشر مشروعه الإصلاحي في الجزائر عبر الجرائد كالصديق وغيرها.

36- الشيخ المولود الزريبي حياته وآثاره ص31.

37- ينظر: أعماله من هذا البحث

38- ينظر: أعماله من هذا البحث

39- ينظر: المولود الزريبي حياته وأثاره ص 33.

40- التحفة الثمينة 140/3.

41- ينظر: في ثنايا كتابه، ومثاله : ص25.ص30.ص31.ص41...

42- ينظر: بدور الأفهام ص61، وملحقه كتاب (الزريبي حياته) ص7.

43- آثار بن باديس 32/1.

44- تاريخ الجزائر الثقافي258/8.

45- له كتاب (الأخلاق)، ينظر: أثاره من هذا البحث

46- آثار ابن باديس 32/1.

4. خاتمة

تناولنا شخصية المصلح الاجتماعي المولود الزريبي الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين الميلادية، وعلى عهد المستعمر الفرنسي، حيث ولد بالجنوب الشرقي في بداية عصر النهضة العربية، والحركة الإصلاحية الإسلامية، وعاصر حوادث عدة في وطنه وخارجه وتزامن مع رجالات الإصلاح في العالم الإسلامي والعربي والجزائر وتدرج في التعليم من مسقط رأسه إلى الأزهر وعاد بمشروع إصلاحي بدأه من حيث انطلق ثم جال ربوع الوطن فكان لسانه، وقلمه مسخر لمحاربة الآفات الاجتماعية وإصلاح المجتمع فألف وصنف الكتب وحرر المقالات ونظم الشعر خدمة لدينه ووطنه فأثمر وكون رجالا بعده شهدوا على أعماله الإصلاحية، وترك لنا وثائق شاهدة على أثاره، حتى توفي في الربع الأول من القرن العشرين فكانت مسيرته حافلة بجهاد القلم، واللسان، ومما سبق نستنتج الآتي:

- أن شخصية الزريبي فريدة من نوعها في الجنوب الشرقي عامة، وبسكرة خاصة لتميزه بعلمه، وجهاده الإصلاحي.

- يعتبر الزريبي من المصلحين الأوائل بالجزائر حيث صدع بالإصلاح بمسقط رأسه ثم تنقل عبر التراب الوطني بمفرده قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين.

- جسد الزريبي مشروعه الإصلاحي في الميدان بلسانه عبر الدروس والمواعظ، والخطب بالمساجد، والزوايا، والأسواق، وبقلمه بواسطة وسائل الإعلام من الصحف والجرائد والمجلات، وما ألفه من كتب وأبدعه من أشعار.

وأما التوصيات نقترح إبراز هذه الشخصية المغمورة بملتقيات خاصة، وإدراجها في عناوين المذكرات والرسائل والأطروحات الجامعية.

5. قائمة المراجع

- هشام بلقاضي، معجم علماء الدين والإصلاح، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، 2011م.
- مديرية الثقافة بالوادي، أعلام سوف، شركة مزوار، الوادي، 2006م.
- عاشوري قمعون، الشقيقان، شركة مزوار، الوادي، 2010
- نجيب بن المبارك، التحفة الثمينة في حاضرة بسكرة وقسنطينة، دار لمسة، الجزائر، 2016 م.
- عبد الحليم صيد، أعلام بسكرة، دار النعمان، الجزائر، 2014 ه.
- -المولود الزريبي، بدور الأفهام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام المطبعة التونسية، تونس، 1334 ه.

- محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر (د-ت).
- عمار طالبي، آثار ابن باديس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1968م.
- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، دار الوعي، الجزائر، 2015.
- رابح دوب، موسوعة شعراء عصر النهضة في المغرب العربي، دار بهاء الدين، قسنطينة، الجزائر، 2014.
- عبد الرحمن دويب، الشيخ المولود الزريبي حياته وآثاره.
- صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية وزوايا الجزائر وتاريخها ونشاطها، دار البصائر، الجزائر، ط1، 2002 م.
- مجموعة من المؤلفين، بإشراف (رابح خدوسي)، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1.د-س-ن.

الخطاب الإصلاحي للشيخ الطيب العقبي في مدينة بسكرة
ـ تعليم المرأة أنموذجا ـ

Reformist discourse of the sheikh Al Tayeb Al Oqbi in the citye of Biskra - Women's education as a model-

ط. د/ حسيبة عطاء الله
مخبر المؤسسات الجزائرية التاريخية عبر التاريخ ودورها في التنمية الوطنية، جامعة خميس مليانة (الجزائر)
atallah.hassiba@univ-dbkm.dz

د/ إبراهيم بن مويزة
المدرسة العليا للأساتذة - طالب عبد الرحمان-، الأغواط (الجزائر)
b.benmouiza@ens-lagh.dz

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: مما لا شك فيه، أنه منذ الثلاثينات من القرن العشرين ميلادي، برزت لدى الشيخ الطيب العقبي اهتمامات جليلة في الدعوة لإصلاح الوضعية الأخلاقية لدى النساء بمدينة بسكرة من خلال تعليمهن وتثقيفهن ثقافة إسلامية، فكان يهدف رحمه الله إلى الرفع من قيمة المرأة المسلمة والرقي بها أخلاقياً ودينياً، وكذا اجتماعيا. ومن خلال دراستنا استخلصنا أن الشيخ رحمه الله جسد مشروعه على أرض الواقع باتباعه قاعدة صلبة ألا وهي تربية وتعليم المرأة، فقد نجح نجاحاً باهرًا بإحداثه آثارا إيجابية في شخصيتها لتكون امرأة صالحة تقود أسرة ومجتمعا موحدًا.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الإصلاحي؛ الطيب العقبي؛ مدينة بسكرة ؛ التربية والتعليم؛ المرأة.

Abstract :
Undoubtedly, since the thirties of the twentieth century AD, Sheikh Al Tayeb Al Oqbi had great interests in calling for reforming the moral status of woman in the city of Biskra, through teaching and educating them Islamic culture, as well as socially. Through our study, we concluded that the Sheikh, may God have mercy on him, embodied his project on the ground by following a solid rule, which is raising and educating women.

Keywords: Reformist discourse;Al Tayeb Al oqbi ; the city of biskra ; education ; woman.

1. مقدمة

أُنشأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، من قبل ثلة من علماء الجزائر المصلحين، حيث خرج هؤلاء بحناجر مدوية رافضين الوضعية الثقافية والأخلاقية التي آل إليها المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي الغاشم. وكان من بين هؤلاء الدعاة الشيخ " الطيب العقبي"، حيث أدرك رحمه الله حجم الفساد الذي دبَ في الأمة الجزائرية

بسبب الفساد الأخلاقي في أوساط بناته ونسائه بالدرجة الأولى وهو نتيجة حتمية لتفشي الجهل بينهن، وكذا حرمانهن من التعلم نظراً لعقلية الأسرة الجزائرية السائدة، فدعا بصوت مدو إلى ضرورة إصلاح وضعياتهن عن طريق تعليمهن تعليماً يتماشى والقيم الإسلامية. وانطلاقاً مما سبق ذكره، يمكننا أن نطرح تساؤلا عن دور الشيخ الطيب العقبي في إصلاح الوضعية التربوية والتعليمية لدى النساء بمدينة بسكرة وتوجيههن للتعلم حتى يتمكن من كسر قيود الاحتلال الفرنسي منذ الربع الثاني من القرن العشرين ميلادي؟ كيف خدم الشيخ الطيب العقبي هدفه الجوهري، ألا وهو إخراج البنات والنساء البسكريات من دائرة الجهل والأمية؟

لهذا جاءت دراستنا تحمل الأهداف الآتية: توضح صورة البنت والمرأة البسكرية أيام الشيخ الطيب العقبي و هي تعاني من عوامل الانحلال الخلقي والانحراف الاجتماعي مع الرغبة في حماية تربيتها تربية قومية وطنية سليمة، حتى لا يجرفها تيار الفرنسة – التغريب - الذي كان يهدد الجزائر بأكملها في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين ميلادي، فتعليمها وتدريسها هو السبيل الوحيد لتكون في الأخير امرأة صالحة تقود أسرة متماسكة وأمة صالحة دينياً وأخلاقياً. ولمعالجة هذا الموضوع اتبعنا المنهج الوصفي التحليلي، فالوصفي من أجل تشخيص الوضعية الثقافية والاجتماعية للمرآة بمدينة بسكرة في فترة تزامنت والمشروع الإصلاحي للشيخ "الطيب العقبي"، أما التحليلي من أجل تحليل مضمون الأفكار والمبادئ الإصلاحية التي نادى بها هذا المصلح رحمه الله.

2. **مفهوم الخطاب الإصلاحي وعوامل ظهوره في الجزائر**:

2. 1. **مفهوم الخطاب الإصلاحي**:

أما عن مفهوم الخطاب الإصلاحي لغةً، فقد جاء في لسان العرب: الخِطَابُ والمُخَاطَبَةَ: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطب وخطابا، وهما يتخاطبان، وفصل الخطاب: أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده[1]. ويعرفه الدكتور" طه عبد الرحمان " اصطلاحيا بقوله:" إن المنطوق به – أي الخطاب – الذي يصلح أن يكون كلاماً: هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حق ما يسمى خطاباً، إذ حدّ الخطاب أنه كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصوداً مخصوصاً[2]. في حين يعرفه الأستاذ " الطيب برغوث" بأنه يمثّل مجمل الفعاليات الاتصالية الإسلامية – من وسائل وأساليب ومناهج ومواقف – المجندة والمستخدمة في العمليات التغيّرية المخططة أو العفوية الرسميّة أو الشعبيّة الفرديّة أو الجماعية الهادفة إلى نصرة الإسلام كمهج وكتاريخ وكحضارة

1- ابن منظور، لسان العرب، مطبعة دار الجيل، المجلد 2، لبنان، 1988م، ص856.

2- عبد الرحمان، طه، اللسان والميزان، طبعة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998م، ص215.

وكمستقبل والتمكين في الواقع الإسلامي أولاً، والواقع الإنساني ثانياً.[3]

أما حسب فكر الدكتور "ميشال فوكو" فيعرفه بقوله: "الخطاب مجموعة من الملفوظات بوصفها تنتمي إلى نفس التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، بل هو عبارة عن عدد محصور من الملفوظات التي تستطيع تحديد شروط وجودها، إنّه تاريخي من جهة أخرى جزء من الزمن، وحدة وانفصال في التاريخ ذاته، يطرح مشكلة حدوده الخاصة.[4] وهنا تتضح أهمية الخطاب الإصلاحي الذي يحدث أثراً عميقاً أو سطحياً داخل المجتمع الواحد في كافة المجالات. فلا بد للمخاطب من معرفة البيئة السّياسية والاجتماعية والثقافية بهدف التغيير حسب الأهداف والأطر التي حدّدها المخاطب له.

لهذا سنتطرق للخطاب الإصلاحي لدى الرائد المصلح الشيخ الطيب العقبي الذي وجه جهوده ودعوته لمعالجة الوضعية الأخلاقية والثقافية لدى النساء والبنات في مدينة بسكرة، واعتبر أن صلاحهن من صلاح الأمة الجزائرية بالدعوة إلى الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية. لذلك صدع هذا المصلح بقوله:" عندما أقول لهم علموا بناتكم وأدبوهن على حسب ما تقتضيه الشريعة الإسلامية، حتى يمكن لأزواجهن أن يعيشوا معهن عيشة رضية ويحيوا جمعياً حياة طيبة"[5]. فضلاً عن استخدام الصحافة كوسيلة لإعداد أذهان الأسر الجزائرية (العوام) لقبول الإصلاح الديني وتوجيه الجهود إلى بيان تلك الحقائق الدينية بواسطة الوعظ والإرشاد في المساجد والزوايا، أما الحقائق العلمية فيتم إبرازها عن طريق الكتابات الإبداعية.

إنّ مفهوم الخطاب الإصلاحي بصفة عامة عند رجال الإصلاح في الأّمة الجزائرية يعني التجديد"[6]. وهو نفس المفهوم عند الرائد الطيب العقبي عن طريق إعادة بعث القيم والأحكام التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية، وكذا السلف الصالح. حيث قال:" ...إن أمة الجزائر لفي حاجة شديدة، وضرورة ماسة إلى الإصلاح وحقيقة لا يقدر على إصلاحها إلاّ العلماء، ونعني بهم العاملين بعلمهم الصالحين في إصلاحهم،...هلموا بنا إلى الاتحاد في التوحيد والاعتصام بحبل الله المتين والتمسك بالعروة الوثقى فنؤمن بالله وحده ونكفر

3- برغوث، الطيب، الخطاب الإسلامي المعاصر، دار الامتياز، الجزائر، 1990م، ص11.

4- ولد أباه، السيد، التّاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة 2، 2004م، ص110.

5- لمونس، زينب، (2015)، رواد حركة الإصلاح من منطقة الزاب الغربي الشيخ أحمد سحنون نموذجا 1907-2003م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، الجزائر، ص24.

6- الميلي، مبارك، رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، الجزائر، الطبعة3 ،1982م، ص14.

بالطاغوت..."[7]

2.2. عوامل ظهور الخطاب الإصلاحي:

هناك جملة من العوامل التي ساعدت على ظهور الخطاب الإصلاحي وتطوره في الجزائر، ويمكن أن نصنفها ضمن عاملين رئيسيين هما:

أ– العوامل الداخلية:

محاولة الاحتلال الفرنسي القضاء على الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، من خلال تكثيف نشاط الحركات التبشيرية المحمية من طرفه حتى يتسنى لها تنصير البنات والنساء على وجه الخصوص دون أن لا ننسى أنها عملت على تنصير أبناء ورجال الجزائر هذا من جهة، ومن جهة أخرى فرضها لسياسة التجنيس التي أرادت دولة الاحتلال فرضها على الجنوب الشرقي من دولة الجزائر، ومن تم رأى المصلحون في الجزائر ضرورة المحافظة على الشخصية الجزائرية التي أصبحت مهدّدة بالخطر من طرف الاحتلال وعملائه من طرف الدعاة الفرنسة والإدماج[8].

اشتداد نشاط الحركات الصوفية في عدة مدن من الجنوب الشرقي للجزائر ومن أبرز هذه المدن: بسكرة، والتي اكتسح الفكر الصوفي الخرافي كل أرجاءها، وحجتهم في ذلك معرفتهم الغيب من باب الكرامات، فامتصت مال كثير من الجزائريين موهمة إياهم بخدمة الدّين والعقيدة، وإنما كان ذلك تخديراً منها لعقول الناس وخدمة لمصالح الصوفيين المرتزقة، قال الشيخ مبارك الميلي:" نقول إن المسلمين قد عمّهم الجهل وتفشى بينهم الدّجل، وانتشرت فيهم البدع والمعاصي. وكشفت غفلتهم عن يوم الأخذ بالنّواصي".[9] وذلك بسبب انحراف معظم الطّرق الصّوفية في الجزائر عن جادة الإسلام القويمة حيث أكثروا من البدع في الدين، بل وتعاون بعضهم مع الإدارة الفرنسية ضد مصالح بلادهم العليا كما قابلهم هؤلاء الصوفيين الذين مثلوا الدّين برقصات وشطحات تهوّل بها العقول وتفقد بها السّيطرة على الأجساد، بممارسات فلكورية راقصة[10]. إضافة إلى ما كان يعانيه المجتمع الجزائري في ذلك الوقت من عسر المعاش، وتضرر النّاس جوعاً، حيث عاشوا كل مزايا البؤس والمعانات، وقد عبر عن ذلك في قصيدة لجريدة الجزائر بعنوان: " الجزائر تحيّ

7- جريدة الإصلاح، عدد43، السنة الخامسة عشرة، 4 سبتمبر 1941م. وأنظر كذلك: جريدة السنة الموافق لـ8 ماي 1933م.

8- درغال، رشيد، دور النخب في تجديد المشروع النهضوي التنموي من خلال الفكر الباديسي، مجلة فصيلة، العدد 10، الجزائر،2013م، ص ص 265- 266.

9- الميلي، مبارك، المرجع السابق، ص 30.

10- بوقرة، زيلوخة،(2008-2009م)، سوسيولوجيا الإصلاح الديني في الجزائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خضير، الجزائر، ص 118.

الجزائر"، نذكر منها:

أخزى الإله أناسا لا خلاق لهم — زعانفا بخسيس العيش يرضونها
قد حرموها ولم يدروا لحرمتها — حقا لجهلهم بل كيف يدرونها
هم شر كل الورى تعسا لرائدهم — ولست أحسبهم إلاّ شياطينا
واذكر حديث جدود قبلنا سلفوا — عساك بالعلم بعد الجهل تحيينا[11]

كما كان للشيخ "الطيب العقبي" دورٌ جليل في نشأة الخطاب الإصلاحي بسبب انطلاقته القوية والثورة التعليمية التي أحدثها بدروسه الحيّة القيّمة الصحيحة الصريحة التي كان يأخذ بها تلاميذه بعد عودته من الحجاز عن طريق إلقاء الدروس على العوام، بغية توعيتهم بأمور دينهم وتحسين لغتهم العربية[12]. كذلك أدى النشاط الصحفي ذو التوجّه الإصلاحي الذي عاش في الجزائر، دوراً هاماً في ظهور الخطاب الإصلاحي، ما سهّل على العلماء والمفكرين الإصلاحيين التأثير على الجزائريين، حيث أدّت الصّحف الوطنية آنذاك دوراً بارزاً في معركة التحرّر الفكري، رغم ما عانته من قهر وقمع، ويأتي على رأس هذه الصّحف " جريدة المنتقد" التي أنشأت لها مطبعة خاصة بها، سميت بـ" المطبعة الجزائرية الإسلامية " وصدر العدد الأول منها سنة1925م[13]، وفي نفس السنة صدرت جريدة تحمل اسم" صدى الصحراء "، حيث كان شعارها " العمل على درء المفسدة قبل جلب المصلحة، بالإضافة إلى جريدة "الإصلاح" التي صدرت عام1927م، وكذا جريدتي "السنة النبوية المحمدية"، و"الشريعة المحمدية"، وكذا جريدة" الصراط السوي " .

ب– **العوامل الخارجية:**

كذلك هناك عوامل خارجية ساهمت هي الأخرى في ظهور الخطاب الإصلاحي في الجنوب الشرقي للجزائر، وتمثلت هذه العوامل في:

بروز الحركة الفكرية المتطورة التي برزت في شتى أنحاء العالم، أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ كان لها الدور الكبير في ظهور هذا الخطاب.[14] ونتجت عن هذه الحركة اليقظة العامة التي دبّت في أرجاء العالم الإسلامي ومن بينها الجزائر، وتطلع الجزائريون إلى الإصلاح الشامل الذي ينهض بهم دينياً واجتماعياً، وكذا ثقافياً من الوضعية السيئة التي كانوا عليها

11- تضمنت القصيدة 70 بيتًا، ظهرت لأول مرة في جريدة الجزائر.

12- الإبراهيمي، محمد البشير، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الجزائرية الإسلامية، الجزائر، 1935م ، ص 40.

13- جريدة المنتقد، العدد1 ،2 جويلية 1925م.

14- عمارة، حياة، (2013-2014م)، أدب الصحافة الإصلاحية الجزائرية من عهد التأسيس إلى عهد التعدّدية، أطروحة دكتوراه في الأدب، قسم الآداب، كلية الآداب واللغات، جامعة أبكر بلقايد تلمسان، الجزائر، ص45.

قبل بداية الحرب[15]. ظهور شخصية الشيخ " محمد عبده " زعيم الحركة الإصلاحية في الشرق الأدنى كان له تأثير واضح على أفكار المثقفين الإسلاميين أكثر من غيره من المصلحين المعاصرين[16]. كما شهدت سنة 1918م تطوراً عميقاً في الجزائر والعالم الإسلامي بأكمله خاصة الدولة العثمانية ومصر، بسبب انتشار التعليم سواء باللغة العربية أو بالفرنسية[17]. وبانتشار التعليم ومؤسساته انتشر الوعي، ومن ثم بزغ فجر الحركة الإصلاحية في الشرق الأدنى، وأخذ المثقفون وعلماء الجزائر ينجذبون إلى هذا الاتجاه الجديد، وحاولوا تطبيقه من أجل إصلاح المجتمع الذي عرف انحطاطاً خلقياً.

ومن العوامل أيضاً، عودة أبناء الجزائر المخلصين من الحجاز منبع الإسلام، ومنبت الدعوة إلى الإصلاح العقائدي الروحي، بعد أن تشبعوا بالأفكار الناضجة الحديثة هناك، ونضجت في أذهانهم وعقولهم، فقد تأثروا بها أيما تأثر، ليعودوا بعد ذلك إلى أرض الوطن، يحملون معهم هذه الأفكار الجديدة.[18]

2 .3. **أهداف الخطاب الإصلاحي** :

من أهم مطالب وأهداف الخطاب الإصلاحي، والتي تمسّكت بها الحركة الإصلاحية في الجزائر، واعتبرتها من أولوياتها، نوضحها كالآتي: محافظة الأمّة على شخصيتها ولسانها وديانتها مع ضرورة المحافظة على الدين الإسلامي ونشره بواسطة مؤسساته سواء التعليمية أو المساجد وتقويتها وتعزيزها بعناصر جديدة من خريجي مدارس دينية تنشأ من أجل هذه الغاية. النهوض بالأمّة الجزائرية وإعادة بعثها من جديد، وهو نفس الهدف الذي نادى به الشيخ الرائد عبد الحميد بن باديس[19] على أساس الدّين والعلم انطلاقا من القرآن الكريم والسنة وهديّ السلف الصالح. ذلك مرده أن الإسلام الذي نزل على خاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، هو دين جامع لكل ما يحتاجه إليه البشر أفراداً وجماعات لصلاح حالهم ومآلهم، فهو دين لتنوير العقول وتزكية النفوس، وتصحيح العقائد، وتقويم الأعمال لدى الإنسانية جمعاء[20].

إن الخطاب الإصلاحي قد قام أساسًا من أجل إعادة بناء المرأة على هَدَىّ من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبناء شخصيتها من خلال تلك الرسالة التي تضمنتها السيرة

15- بوصفصاف، عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوّر الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945م)، دار البعث للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،1981م، ص390.

16- نفسه، ص54.

17- نفسه، ص390 .

18- نفسه، ص60-61.

19- للمزيد أنظر: الطالبي، عمار، ابن باديس- حياته وآثاره، الجزء3، ص212.

20- الشهاب- لسان الإسلام والعروبة والوطنية في الجزائر (1925-1939م)- دورها في نهضة الجزائر الحديثة، مجلة الثقافة، العدد 81، الجزائر، ص205.

النبوية، فكانت رسالة تربوية تعليمية بالدرجة الأولى، فقد كرست الخطابات الإصلاحية جهودها في إعادة بناءها[21].

3. **الخطاب الإصلاحي عند الشيخ الطيب العقبي:**

1.3. **التعريف بالشيخ الطيب العقبي** (**مولده ونشأته**):

هو الطيب بن محمد بن إبراهيم بن الحاج صالح العقبي من فرقة أولاد عبد الرحمان الأوراسية، التي سكنت منذ القدم في مناطق جنوب جبال الأوراس.[22]وقد صرح الشيخ الطيب العقبي بأن أصوله ترجع للأسرة الشريفة[23]. ولد العقبي في 15جانفي 1890م بسيدي عقبة ببسكرة، وهو الطفل البكر لأبيه الحاج" محمد بن إبراهيم بلحاج صالح" وأمه المدعوة " باية " بنت محمد آل خليفة، وقد أمضى العقبي جزءاً من طفولته الأولى بسيدي عقبة ثم هاجر به والده مع أفراد أسرته إلى بلاد الحجاز سنة 1895م[24]. تزامنت ولادته مع ولادة الشيخ عبد الحميد بن باديس[25] والشيخ محمد البشير الإبراهيمي[26] إذ كانت ولادتهما في العام نفسه. لقد ترعرع وسط أسرة متواضعة الجاه، عرفت بالورع والتقوى، فأورثت فيه تلك الصفات الحميدة لابنها[27]. وبرغم من رعاية الأمومة التي حظي بها منذ صباه، فإنه لم يكن على اقتناع تام بدور أبويه في تربيته، فقد فضل الاعتراف بفضل الله على فضل

21- الخطيب، أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 72.

22- بن حميميد، فتيحة، الشيخ الطيب العقبي وموقفه من الزوايا والطرقية المنحرفة (1888-1960م)، مجلة قضايا تاريخية، العدد10، 2018م، ص152.

23- نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، الطبعة 2، 1980م، ص238.

24- تميم، آسيا، 100 شخصية، دار المسك، الجزائر، دون طبعة، 2008م، ص81.

25- عبد الحميد بن محمد بن مصطفى بن مكي بن باديس الصنهاجي، ولد في 4 جانفي 1889م بمدينة قسنطينة، يعد من أعلام الفكر والإصلاح في العالم العربي ومن كبار علماء الجزائر المصلحين، ومن أبرز أعماله نذكر لا سبيل المثال لا الحصر: تأسيسه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، بالإضافة إلى إصداره لعدة جرائد نذكر منها:جريدتي :الشهاب "و"الصراط المستقيم"...وغيرها من الجرائد والأعمال. للمزيد أنظر: الجميلي، حميد، آخرون، موسوعة بيت الحكمة لأعلام العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار بيت الحكمة، العراق، الطبعة1، الجزء1، 2000م، ص289.

26- ولد في قرية رأس الوادي ناحية مدينة برج بوعريريج بالشرق الجزائري عام 1889م، حفظ القرآن الكريم منذ صغره، كما حفظ أيضا ألفية الإمام ابن مالك، وكذا تلخيص المفتاح، رحل إلى المدينة المنورة سنة 1911م ليلتحق بوالده ، من أهم انجازاته: تأسيسه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة الشيخ ابن باديس والشيخ العربي التبسي سنة1931م...وغيرها، للمزيد أنظر: زغير، فهد امسلم، محمد البشير الإبراهيمي ودوره الفكري والسياسي، مجلة ديالي، العدد 63، 2014م، ص ص 464-470.

27- دبوز، محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة العربية، الجزائر، الجزء 2، الطبعة1، 1971م، ص 106.

الوالدين، وأشار إلى ذلك بقوله:" أدبّني ربي فأحسن تأديبي...ولولا فضل الله علي وعنايته بي صغيراً يتيماً لما كنت هديت سواء السبيل..."[28].

شدت عائلة العقبي الرحال إلى المشرق العربي واستقرت في الحجاز لمدة عام، وبعد أداءها لفريضة الحج، انتقلت إلى المدينة المنورة التي كانت محط ترحال الكثير من سكان مدينة بسكرة، وكان عمره آنذاك 6 سنوات وشهرين[29]. ويذكر في هذا الجانب :" انتقلت عائلتنا مهاجرة من بلدة سيدي عقبة إلى الحجاز بغضها وقضيضها إناثها وذكرانها، صغيرها وكبيرها، عام 1896م، قاصدة مكة المكرمة لحج الكعبة المشرفة في تلك السنة فكنت في أفرادها الصغار لم أبلغ من التمييز الصحيح ولولا رجوعي إلى هذه البلاد ما كنت لأعرف شيئاً فيها".[30]

2.3. **تعليمه وتدريسه**:

عاش الشيخ الطيب العقبي يتيم الأب، فتولت أمه تربيته رغم الظروف المعيشية الصعبة، إلا أن ذلك لم يفقده مقوماته الشخصية ولم تضعف من عزيمته، حيث ذكر في ترجمته:" ثم شرعت على عهد والديّ بقراءة العلم بالحرم النبوي لا يشغلني عنه شاغل ولا يصدني عنه شيء، حيث كان أخي الأصغر مني سنًا هو الذي تكلفه والدتي بقضاء ما يلزم من الضروريات المنزلية وقد أدركت سر الانقطاع لطلب العلم وفهمت جيدًا قول الإمام الشافعي لو كلفت بصلة ما تعلمت مسألة، بعد أن أصبحت أنا القائم بشؤوني والمتولي أمر عائلتي ونفسي..."[31]، فقد أصبح يتابع ملف العلم والتحصيل والأخذ بالثقافة العربية الإسلامية فلازم الحرم النبوي الشريف حتى نبع في علوم الفقه[32]، فدخل إلى المسجد النبوي الشريف طلباً للعلم فنهل من المعارف والعلوم المقدمة للطلاب فتقدم في طلب العلم بالقدر الذي ساعدته به الظروف، فكانت ثقافته محافظة تقليدية اعتمدت العلوم والشريعة والتراث الأدبي العربي شعرًا ونثرًا[33].

فقد استطاع بذكائه واعتماده على نفسه في التحصيل أن يكون من الشخصيات

28- الزاهري، محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، المطبعة التونسية، تونس، الجزء 1، الطبعة 1، 1926م، ص127

29- عجالي، كمال، الفكر الإصلاحي في الجزائر الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتجديد، دار مزوار للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م، ص22.

30- سمراد، سميرة، الشيخ الطيب العقبي خطيب السلفيين وشاعرهم، مجلة الإصلاح، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 3، 2007م ، ص65.

31- عجالي، كمال، المرجع السابق، ص142.

32- مريوش، أحمد، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، دار هومه، الجزائر، الطبعة1، 2007 م، ص33.

33- سمراد، سميرة، المرجع نفسه، ص65.

اللامعة في المدينة المنورة. فعرف عنه أنه كان يمتاز بعزيمة وطموح وأخلاق، وبهذه الصفات استطاع أن يصارع الحياة القاسية التي عاشها في الحجاز، فاستطاع أن يزيل هذه العقبات بالجد والدراسة، حتى أصبح ممن يشار له بالبنان في علوم اللغة العربية والشريعة[34]. كما برز تأثره الشديد بعلمائه الذين درسوه في المدينة المنورة، من أمثال:" عبد الله زيدان الشنقيطي" والشيخ "محمد حمدان الونيسي"، وكذا الشيخ " الحبيب التونسي"[35] فاكتسب من تلك الدروس الأخلاق الكريمة والصفات النبيلة، فضلا عن تعليمه فن السياسة. ومن الضروري الإشارة هنا إلى أنه كان رحمه الله متأثر ببيئته الصحراوية أيما تؤثر (بسيدي عقبة) فصيح اللسان والقلم، فشاءت الأقدار أن يواصل تعلمه بعد عودته إلى الجزائر سنة 1920م، على يد الشيخ" علي حمدان الونيسي" - أستاذ ابن باديس في قسنطينة-.

4. إصلاح وتعليم المرأة في منظور الشيخ الطيب العقبي:

4. 1. الدعوة إلى تعليم المرأة:

لم يتناسى رجال الإصلاح دور المرأة في الأسرة والمجتمع ومنحوها أهمية بالغة، فكانت دعوة الشيخ الطيب العقبي إصلاحية بالدرجة الأولى والأمر الذي يدل على ذلك ما جاء في ديباجة جريدة الإصلاح سنة1927م، حيث كان أول عدد لها بمدينة بسكرة، رفعها لشعار الآية الكريمة: ﴿**إن أريد الاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب**﴾[36] إلى تعليم المرأة في مدينة بسكرة وغيرها من المدن المجاورة دعوة مبكرة وجريئة في الظروف السائدة آنذاك، وذلك لعدة اعتبارات بدءا من كون المرأة من الأمة كالروح من الجسد والراحة من اليد، إذا صلحت صلحت الأمة كلها، وإذا فسدت فسدت الأمة كلها. إذ كانت قضية تعليم المرأة جديدة على الأسرة الجزائرية والمجتمع بأكمله، الذي انقطعت صلته بمثل هذه الأفكار بسبب العادات والتقاليد، فكان كلّ من يخرج عما شاع من التقاليد يعدّ مارقاً[37]، حيث أردف قائلاً:" عندما أقول لهم علموا بناتكم وأدبوهن على حسب ما تقتضيه الشريعة الإسلامية..."[38]، إيماناً منه بدور المرأة في التركيبة الاجتماعية. وأهميتها أكبر لما تكون متعلمة ومثقفة ثقافة إسلامية.

ولابد من الإشارة هنا إلى أنّ المصلح العقبي كانت له نظرة ثاقبة ورؤية شاملة تمس حياة المرأة البسكرية خاصة والجزائرية عامة، وقد أوضح في ردّه على دعاة تجهيل المرأة

34- عجالي، كمال ،المرجع نفسه، ص 23 .

35- للمزيد أنظر: مريوش، أحمد، المرجع السابق، ص ص 35-37 .

36- سورة هود، الآية 88.

37- مريوش، أحمد ،نفسه، ص 73.

38- مونس، زينب، المرجع السابق، ص24.

وتهميشها مؤكداً أن من حق المرأة أن تعيش بكرامة[39] على أساس أنها نصف المجتمع.

وركز العقبي في دعواته على ضرورة تعليم المرأة البسكرية في الزيبان وغيرها لإحساسه بالدور الكبير الذي تقوم به في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية[40]، فضلا على أنه شدد على دور الأسرة التي هي الركيزة الأساسية في بناء المجتمع، وأهم المؤسسات الاجتماعية بوصف دور محوري في بناء المجتمع[41]، ولا تتحقق هذه الوظيفة للأسرة إذا كان أحد ركنيها الأساسين جاهلاً بالتعليم والثقافة، والمعرفة ولا تحقق أهدافها لركنيها من استقرار وسكينة ومودة وبناء جيل متسلح بالعلم والمعرفة[42]، فتعليمها كونها مسلمة واجب ديني أخلاقي لتعرف مالها وما عليها[43].

خاطبت جريدة " الإصلاح " المرأة " قائلة:" أختي الكريمة أنما تركك اليوم غافلة خاملة مقهقرة هو شيء واحد لو تمسكت به لكنت من زمرتهن، وفي طليعة المجتمع النسائي النهاض أعيري لي سمعك حتى أبيّن لك ذلك السبب الذي جنى عليك وتركك تسبحين في بحر خصم من الخرافات والأوهام وتهمين في بيداء من الشجون والأحزان لا منفذ لك ولا راد لحكم الله في ذلك"[44]. في حين عارض موقفه بعض العلماء فكان موقفهم الرفض، حيث اتخذوا عدة ذرائع وحجج لمنعها من التّعلم، بحجة أنه يسبب ذلك في دخولها وسط الرجال واختلاطها بهم مما يجعلها عرضة لأطماعهم وتعريض أنوثتها للخطر حسب ادعائهم[45]. رفض الشيخ العقبي هذه الذرائع والحجج مؤكدا أنّ التعلم كفيل بتحويل المرأة البسكرية خاصة والمرأة الجزائرية عامة إلى أم ناجحة، ومرشدة مصلحة، تعمل على تطوير بلادها، وتبني العقبي دعوة الرائد ابن باديس بضرورة تعليم المرأة الجزائرية، من خلال دفع الآباء إلى السماح لبناتهم بتعلم أوامر دينهن ونواهيه، زيادة على ذلك يتفقهن في أمور دنياهن، وقد اعترض أحد الحاضرين على هذا النقاش، وكان من عامة الناس وكان وجه اعتراضه هو أنهم لا يثقون في من يعلم بناتهم، فرد عليه الشيخ ابن باديس بصوت عال:" إذا لم تكن الثقة فينا نحن العلماء ... ففي من تكون" وكررها[46].

39- نفسه،ص24.

40- جلال، محمد، مصائب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أمام استفزازات الإدارة الفرنسية (1931-1940م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 14، الجزائر، 2019م، ص309.

41- مونس، زينب، المرجع نفسه، ص24 .

42- عجالي، كمال، المرجع نفسه، ص74 .

43- جلال، محمد، المرجع نفسه، ص 310.

44- جريدة الإصلاح، العدد51، 3 جوان 1947م.

45- جريدة البصائر، العدد 21، 21 فيفري 1936م.

46- لونس، زينب، المرجع السابق، ص 161.

الوسائل التي وظفها لتحقيق هدفه:

كان للجمعية الخيرية التي ترأسها الشيخ العقبي دور في تأسيس المدرسة الخيرية للبنات للتعلم الحرف اليدوية، وضمت هذه المدرسة 60 فتاتاً، كما قسمت على عدة فرق فكانت فرقة تعمل على آلات الخياطة، وفرقة على أعمال التطريز، وأخرى ثالثة تعمل على عملية النسيج، وقد نشرت جريدة الإصلاح نشيد البنات المسلمات:

نحن البنات المسلمات المؤمنات الطاهرات
الفاتنات الصالحات من مثلنا بين الوجود
إن الحياء جمعياً لنا والعرض تاج جبيننا
والدين نور حياتنا لله صلينا الفروض
لا ترتدي الزي الحرام فالذرع تخفيه الكمام
والساق بستره الكرام فعرضنا الكنز الفريد[47]

4. 1. البرامج التعليمية أيام الشيخ الطيب العقبي:

أ- القرآن الكريم والسنة النبوية:

كان لازماً على البنت والمرأة معاً حفظ بعض السور القصيرة كالمعوذتان وغيرها من الآيات البينات، ثم بعد إتمام الحفظ تأتي مرحلة الشرح واستخراج العبر من الآيات الكريمات هذا من جهة، ومن جهة أخرى تتعلمن أيضاً بعض الأحاديث النبوية باختلاف أسانيدها، فتتسابقن فيما بينهن في حفظها، زيادة على كل هذا وذاك يتعلمن سير الصحابة رضوان الله عليهم[48].

ب- تلقين اللغة العربية والترغيب في المطالعة::

كانت البنات التلميذات والنساء في المدرسة التعليمية يتمرن على قراءة الحروف المطبعية، كما يركزن في طريقة كتابتها، مثلاً: القاف تنقط نقطتين من الفوق والفاء تنقط نقطة واحدة من الفوق...[49] وغيرها. كان الشيخ العقبي رحمه الله مهتم كثيراً بقضية المطالعة، فأمر المُعلمات إلى تحبيبها وترغيبها لدى المتعلمات، بواسطة تعليمهن وإرشادهن كيفية المطالعة في كتب التاريخ أو سير الصحابة...وغيرهم.[50]

---

47 جريدة الإصلاح، العدد 68، 14 نوفمبر 1947م.

48 شيبان، عبد الرحمن، من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2009م، ص62.

49 الزغيداني، أبوالقاسم، نظرة في التربية والتعليم، مجلة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة ، 1936م، ص16

50 سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2009م، ص50.

ت- **تعليم اللغة الفرنسية:**

اهتم المصلح العقبي بتعليم نساء الجزائر اللغة الفرنسية وحثه على تعلّمها وتعليمها، فقد جاء في مقاله بجريدة الإصلاح قوله:" يستحق العرب هذا وأكثر من هذا بجهلهم اللغة الفرنسية وعدم حرصهم على تعليمها وما داموا مهملين لتعليم ابنائهم فكأنهم يرون كل يوم إهانة جديدة وغلطة فادحة، ربما ذهبت بهم إلى الهاوية، لأنهم لا يعرفون ما يدور حولهم، ولا يفهمون لغة المستعمر،..."[51].

5. **موقف الإدارة الفرنسية من مشروعه الإصلاحي:**

كانت الإدارة الفرنسية تترصد المشروع الإصلاحي للشيخ الطيب العقبي في مدينة بسكرة بكل اهتمام ويقظة، فسارعت لإحباط معنوياته من خلال عملية بائسة استفزازية تمثلت في تفتيشها لمنزله بتاريخ 23 سبتمبر 1921م، إذا أخذت المخابرات كل ما وجدته من أوراق ووثائق ذات صلة بإنتاجه الأدبي والفكري[52]. والجدير بالذكر هنا، أن إدارة الاحتلال لم يهدأ لها بال حتى قامت باعتقاله لمدة شهرين كاملين، ، وظل طيلة تلك المدة محافظا على مبادئه الإصلاحية، والأمر الذي يفسر ذلك طلبه مرارًا من تلك الإدارة أن تعيد له وثائقه وأوراقه العلمية، لكنها لم تبال بطلباته المتكررة، ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل أخواله آل خليفة والسيد ابن قانة دفاعًا عنه[53].

كما حاولت الإدارة الفرنسية تأديبه مرة واستمالته مرة أخرى، لكن الأمر لم ينجح معها، فلجأت إلى إصدار أوامر بمنع جرائده من النشر سواء تلك التي كانت تصدر في مدينة بسكرة – نقصد هنا جريدة الإصلاح – أو غيرها بمدن عدة أو خارج الوطن في تونس، وهذا كله من أجل كبح جماح حركته الفكرية ونهضته العلمية، لتظهر مرة أخرى في هجمة شرسة سريعة مستهدفة كل المتعاونين معه من النشطاء الإصلاحيين في الجمعية الخيرية التي كان يشرف عليها وقامت بحلها مستفيدة من أخبار المعارضين له من الطرقيين وغيرهم. كما أرجع الدكتور مريوش أحمد حقيقة تكالب الإدارة الفرنسية على مشروعه الإصلاحي، هي تلك النجاحات التي حققتها أفكاره الإصلاحية وكتاباته الإبداعية، فكانت جرائده من بين الوسائل التي استعان بها الشيخ رحمه الله تعالى لتمرير أفكاره في هذه المدينة ناقمًا ساخطًا على سياسة المحتل الغاشم في حق نساء ورجال أهل بسكرة[54].

6. **خاتمة:**

ومما سبق يتضح لنا أن المشروع الذي خطط له الشيخ الطيب العقبي في تربية وتعليم

51- جريدة الإصلاح، العدد 21، 5 أفريل 1940م.

52- مريوش، أحمد ،المرجع السابق، ص105.

53- نفسه، ص105.

54- مريوش، أحمد، نفسه، ص106.

المرأة بمدينة بسكرة من خلال الخطاب الإصلاحي، تمثل بجملة من الاستنتاجات نلخصها فيما يلي:

- تربية البنات والنساء الجزائريات تربية قومية وطنية سّليمة عن طريق تصحيح العقائد لديهن.

- العمل على نشر العلم والمعرفة وكذا تثقيفهن وتحريرهن من كل أشكال الضعف والوهن من خلال زرع الأمل في نفوسهن.

- تنمية قدراتهن العقلية والأخلاقية وكذا الاجتماعية لمجابهة المخططات الفرنسية.

- مجابهة المشاريع الفرنسية من سياسة الدمج والتجنيس بالرفض القاطع ، فسجلت موقفها وتاريخها من ذهب، فحرصت كل الحرص على مواصلة تعليمها في المدارس الحرة المنتشرة في عدة قرى عن طريق "التعليم الحر" المدرسة التعليمية الخيرية بطولقة.

- مات الشيخ الطيب العقبي يوم 21 ماي 1960م في بيته ببلوغين- الجزائر-، لكن أفكاره لم تمت، لأنها أصبحت جزءاً من أمجاد هذا الشعب الذي ظّل وفيًا لهذا الرجل ، مخلصا في ارتباطه له، ومتمسك به أيما تمسك.

7. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم.
- جريدة الإصلاح، العدد 21، 5 أفريل 1940م؛ العدد 68، 14 نوفمبر 1947م؛ العدد51، 3 جوان 1947م؛ عدد43، السنة الخامسة عشرة، 4 سبتمبر 1941م؛ العدد 21، 21 فيفري 1936م.
- جريدة السنة، الموافق لـ8 ماي 1933م.
- جريدة الشهاب، العدد 17، السنة الأولى، 3 مارس1926م.
- ابن منظور، لسان العرب، مطبعة دار الجيل، المجلد 2، لبنان، 1988م.
- الإبراهيمي، محمد البشير، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الجزائرية الإسلامية، الجزائر، 1935م.
- الجميلي، حميد، آخرون، موسوعة بيت الحكمة لأعلام العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار بيت الحكمة، العراق، الطبعة1،الجزء2000،1م.
- الخطيب، أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.
- الميلي، مبارك، رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، الجزائر، الطبعة3 ،1982م.
- برغوث، الطيب، الخطاب الإسلامي المعاصر، دار الامتياز، الجزائر، 1990م.
- بوصفصاف، عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوّر الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945م)، دار البعث للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،1981م.
- تميم، آسيا، 100 شخصية، دار المسك، الجزائر، دون طبعة، 2008م.
- الزاهري، محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، المطبعة التونسية، تونس، الجزء 1، الطبعة 1، 1926م.
- شيبان، عبد الرحمن، من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر،

2009م.
- عبد الرحمان، طه، اللسان والميزان، طبعة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998م.
- عجالي، كمال، الفكر الإصلاحي في الجزائر الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتجديد، دار مزوار للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.
- مريوش، أحمد، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، دار هومه، الجزائر، الطبعة1،2007م.
- نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، الطبعة 2، 1980م، ص238.
- ولد أباه، السيد، التّاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة 2، 2004م.
- بوقرة، زيلوخة،(2008-2009م)، سوسيولوجيا الإصلاح الديني في الجزائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خضير.
- عمارة، حياة، (2013-2014م)، أدب الصحافة الإصلاحية الجزائرية من عهد التأسيس إلى عهد التعدّدية، أطروحة دكتوراه في الأدب، قسم الآداب، كلية الآداب واللغات، جامعة أبكر بلقايد تلمسان، الجزائر.
- لمونس، زينب، (2015)، رواد حركة الإصلاح من منطقة الزاب الغربي الشيخ أحمد سحنون نموذجا 1907-2003م،رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، الجزائر.
- بن حميميد، فتيحة، الشيخ الطيب العقبي وموقفه من الزوايا والطرقية المنحرفة (1888-1960م)، مجلة قضايا تاريخية، العدد10، 2018م.
- جلال ، محمد ، مصائب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أمام استفزازات الإدارة الفرنسية (1931-1940م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 14، الجزائر، 2019م.
- درغال، رشيد، دور النخب في تجديد المشروع النهضوي التنموي من خلال الفكر الباديسي، مجلة فصيلة، العدد 10، الجزائر،2013م.
- الزغيداني، أبو القاسم، نظرة في التربية والتعليم، مجلة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة ، سنة 1936م.
- زغير، فهد امسلم، محمد البشير الإبراهيمي ودوره الفكري والسياسي، مجلة ديالي، العدد 63، 2014م.
- سمراد، سميرة، الشيخ الطيب العقبي خطيب السلفيين وشاعرهم، مجلة الإصلاح، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد3، 2007.
- إميل، يعقوب، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.
- العدناني، محمد، معجم الأخطاء الشائعة، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة 2، 1980م.
- معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة إستانبول، 1989.

قائمة المحتويات